

الكافى

فى
تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه

ميخائيل شاروبيم بك
رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية
والمفتش بنظارة المالية الجليلة
عضى الله عنه

الجزء الثالث

عن الفترة من
١٥١٢ م إلى سنة ١٨٠٠ م
٩٢٢ هـ إلى سنة ١٢٢٠ هـ

الناشر
مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

هذه السلسلة تضم :

- ١ - فتح العرب لمصر
- ٢ - تاريخ مصر إلى الفتح العثماني
- ٣ - الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي
- ٤ - تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي
- ٥ - تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل
- ٦ - تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبل الوقت الحاضر
- ٧ - ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
- ٨ - تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا (مجلد أول)
- ٩ - تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا (مجلد ثاني)
- ١٠ - فتوح مصر وأخبارها
- ١١ - تاريخ مصر الحديث مع فركة في تاريخ مصر القديم
- ١٢ - قوانين الدواوين
- ١٣ - تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث

- ١٤ - الحكم المصري في الشام
- ١٥ - تاريخ الخديوي محمد باشا توفيق
- ١٦ - آثار الزعيم سعد زغلول
- ١٧ - مذكراتي
- ١٨ - الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم
- ١٩ - وادي النطرون وريهانه وأديرتة ومختصر البطارقة
- ٢٠ - الجمعية الأثرية المصرية في صحراء العرب والأديرة الشرقية
- ٢١ - الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض (النيل الأبيض)
- ٢٢ - السلطان قلاوون (تاريخه - أحوال مصر في عهده - منشآته المعمارية)
- ٢٣ - صفوة العصر
- ٢٤ - المماليك في مصر
- ٢٥ - تاريخ دولة المماليك في مصر
- ٢٦ - سلاطين بني عثمان
- ٢٧ - محمود فهمي النقراشي
- ٢٨ - دور القصر في الحياة السياسية
- ٢٩ - مذكرات اللورد كيللرن
- ٣٠ - عادات المصريين

- ٣١ - خنقاوات الصوفية ج ١
- ٣٢ - خنقاوات الصوفية ج ٢
- ٣٣ - تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلاطين
- ٣٤ - تاريخ عمرو بن العاص
- ٣٥ - دور القبائل العربية في صعيد مصر
- ٣٦ - علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب
- ٣٧ - عبد الرحمن الجبرتي ٥ أجزاء
- ٣٨ - مصر في العصر العثماني في القرن ٦
- ٣٩ - خطط المقرئ ٣ أجزاء (محققة منقحة في ٢٧٥٠ صفحة)
- ٤٠ - صفحات من تاريخ مصر (صليب باشا سامي)
- ٤١ - صفحات من تاريخ مصر (سيد مرعي)
- ٤٢ - سلال الأمير التتوي المسلم
- ٤٣ - عالية مصر
- ٤٤ - الموسيقى الشرقية
- ٤٥ - الدليل في موارد أعالي النيل
- ٤٦ - الموسيقى الشرقي
- ٤٧ - النخبة المصرية الحاكمة ١٩٥٢-١٩٥٠
- ٤٨ - الكافي في تاريخ مصر- ٤ أجزاء

MADBOULI BOOKSHOP

6 Talat Harb SQ. Tel.: 5756421

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٥٧٥٦٤٢١

الكافي

في تاريخ مصر القديم والحديث

من سنة 1512 م. إلى سنة 1800 م

922 هـ إلى سنة 1220 هـ

الكاتب:	الكافى
الناشر:	ميخائيل شاروبيم بك
الطبعة:	مكتبة مدبولى
رقم الإيداع:	ت: ٥٧٥٦٤٢١
مراجعة لغوية:	الأولى: ١٨٩٨م - ١٣١٥هـ
	الثانية: ٢٠٠٤م - ١٤٢٥هـ
	عبد النبى محمد

الكافى

فى

تاريخ مصر القديم والحديث

لؤلفه

ميخائيل شاروبيم بك

رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية

والمفتش بنظارة المالية الجلييلة

عفى الله عنه

الجزء الثالث

عن الفترة من

١٥١٢ م إلى سنة ١٨٠٠ م

٩٢٢ هـ إلى سنة ١٢٢٠ هـ

الناشر

مكتبة مدبولى

٦ ميدان طلعت حرب. القاهرة

المحتويات

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
مطلب حصار سفن السلطان لردوس		المقالة السابعة	
والرجوع عنها ٣٥		فيمن هم الترك وفي نسبهم وفيمن	
مطلب وفاة السلطان محمد وولاية ابنه		تفرغ عنهم من الممالك والامم إلى	
بايزيد ٣٦		ظهور ملوك آل عثمان ١١	
مطلب وتاقت نفس السلطان بايزيد إلى		المقالة الثامنة	
فتح الديار المصرية ٣٨		في تأسيس الدولة العثمانية وفي	
مطلب خروج الامير سليم على أبيه		ظهور ملوكها إلى مجئ السلطان	
السلطان بايزيد في طلب الملك ٣٩		سليم إلى ديار مصر واستخلاصها	
المقالة التاسعة		من أيدي الممالك الشراكسة	
وفيها فصول :		المعروفين بدولة الممالك الثانية ١٥	
الفصل الأول: فيما جرى بعد دخول		مطلب ما جرى بعد موت السلطان	
السلطان سليم القاهرة وفي		بايزيد من الاختلال ٢٣	
سلطته على ديار مصر ولبسه		فصل في استقلال السلطان محمد	
شعار الخلافة ٤١		الغارى بالملك ٢٤	
مطلب قتل السلطان الملك الأشرف		مطلب قيام البابا كالتوس الثالث وحثه	
طوبان بأى ٤٦		المسيحيين على قتال السلطان	
مطلب خروج السلطان سليم من مصر		محمد ٣١	
إلى مقر سلطته بالقسطنطينية ٤٩		مطلب زحف السلطان محمد على	
الفصل الثانى : فى سلطنة السلطان		ولاية أثينا وما كان من وراء	
سليمان ابن السلطان سليم ٥١		ذلك ٣٢	
مطلب نظر السلطان إلى ترتيب		مطلب تدويخ بلاد البوسنا واخذها عنوة	
الدواوين والمجالس وتنظيم		مطلب فيما أصاب عسكر السلطان فى	
الاحكام الشرعية وتقرير قاعدة		بلاد البغدان وفى هزيمتهم ٣٥	
لذلك بديار مصر ٥١			

٧١ سليمان باشا إلى الولاية ثانية .
 ٧٢ مطلب ولاية داود باشا
 مطلب ولاية مصطفى باشا صفصان
 ٧٢ وخلعه وولاية على باشا
 مطلب ولاية محمد باشا المعروف
 ٧٣ بدو فتركين زاده
 ٧٣ مطلب ولاية إسكندر باشا
 مطلب ولاية علي باشا الخادم وخلعه
 ٧٣ وولاية شاهين باشا
 ٧٤ مطلب ولاية علي باشا الصوفى
 مطلب فى سبب إقامة السور من قنطرة
 ٧٤ الحاجب إلى الجامع الأبيض
 مطلب ولاية محمد علي باشا المعروف
 ٧٥ بالمقتول
 الفصل الثالث: فى سلطنة السلطان
 ٧٩ سليم الثانى
 ٨١ مطلب ولاية سنان باشا
 مطلب ولاية إسكندر باشا الفقيه
 ٨٢ الشركسى بدلا من سنان باشا
 ٨٣ مطلب ولاية حسين باشا
 الفصل الرابع: فى سلطنة السلطان مراد
 ٨٥ ابن السلطان سليم
 ٨٥ مطلب ولاية مسيح باشا
 ٨٦ مطلب ولاية حسن باشا الخادم
 ٨٧ مطلب ولاية الوزير إبراهيم باشا
 ٨٨ مطلب ولاية سنان باشا الدفتردار
 ٨٨ مطلب ولاية أريس باشا
 ٩٠ مطلب ولاية أحمد حافظ باشا الخادم

مطلب تقرير خير بك على عمالة مصر
 ٥٢ وما جرى له
 مطلب خروج الغزالي وإلى الشام عن
 طاعة السلطان وعزمه على
 الزحف على مصر وضمها إلى
 ٥٧ الشام
 مطلب قتل الغزالي وإرسال رأسه إلى
 ٥٨ دار السلطنة
 مطلب كم كان خراج مصر فى دولة
 السلطان سليمان ومن بعده إلى
 ٦١ هذا الحين
 مطلب إبطال السلطان سليمان لقضاة
 ٦٢ المذاهب الأربعة
 مطلب ما تقرر من الرسوم على
 التركات لبیت المال وما أحدث
 ٦٣ من الإحداثات
 ٦٤ مطلب خروج قاضى القضاة إلى الحج
 ٦٥ مطلب موت الأمير خير بك
 ٦٧ مطلب ولاية الوزير مصطفى باشا
 ٦٧ مطلب إبطال نظام قلعة الجبل القديم
 ٦٨ مطلب ولاية أحمد باشا
 مطلب ولاية قسام جزل باشا وخلعه
 ٦٩ وولاية إبراهيم باشا
 مطلب ولاية سليمان باشا الخادم وفيما
 رَسَم به السلطان من مساحة
 أطيان سائر البلاد وجعلها ملكا
 للسلطان
 ٧٠ مطلب ولاية خسرو باشا وخلعه ورجوع

مطلب ولاية قيودر باشا	٩٠
الفصل الخامس : فى سلطنة السلطان	
محمد بن السلطان مراد	٩٢
مطلب ولاية خضر باشا	٩٥
مطلب ولاية على باشا	٩٥
الفصل السادس : فى سلطنة السلطان	
أحمد ابن السلطان محمد خان	٩٦
مطلب ولاية إبراهيم باشا المعروف	
بالمقتول	٩٨
مطلب ولاية جرجى محمد باشا الخادم	
مطلب ولاية حسن باشا الدفتردار	١٠٠
مطلب ولاية الوزير محمد باشا	١٠١
مطلب ولاية حاجى باشا وخلعه وولاية	
محمد باشا المعروف بالصوفى	١٠٣
مطلب ولاية أحمد باشا الدفتردار	١٠٥
الفصل السابع : فى سلطنة السلطان	
مصطفى ابن السلطان محمد	
خان	١٠٦
الفصل الثامن : فى سلطنة السلطان	
عثمان ابن السلطان محمد خان	
الثانى	١٠٨
مطلب ولاية مصطفى باشا السلحدار	
مطلب ولاية جعفر باشا	١٠٩
مطلب ولاية مصطفى باشا	١١٠
مطلب ولاية حسين باشا	١١٠
مطلب ولاية محمد باشا البستنجى	١١١
الفصل التاسع : فى سلطنة السلطان	
مصطفى الثانية	١١٢
مطلب ولاية إبراهيم باشا السلحدار	١١٣
مطلب ولاية مصطفى باشا	١١٤
الفصل العاشر : فى سلطنة السلطان مراد	
الرابع ابن السلطان أحمد	١١٥
مطلب ولاية بيرم باشا	١١٧
مطلب ولاية محمد ياشا الوزير	١١٨
مطلب ولاية الوزير موسى باشا	١١٩
مطلب ولاية خليل باشا	١٢٠
مطلب ولاية أحمد ياشا الجورجى	١٢١
مطلب ولاية الوزير حسين باشا	١٢٢
مطلب ولاية الوزير محمد باشا ابن	
أحمد باشا	١٢٣
الفصل الحادى عشر : فى سلطنة السلطان	
إبراهيم خان الأول	١٢٥
مطلب ولاية مصطفى باشا البستنجى	١٢٦
مطلب ولاية مقصود باشا	١٢٧
مطلب ولاية أيوب باشا	١٢٩
مطلب ولاية الوزير محمد باشا بن حيدر	
الفصل الثانى عشر : فى سلطنة السلطان	
محمد الرابع ابن السلطان	
إبراهيم	١٣٢
مطلب ولاية الوزير أحمد باشا	١٣٣
مطلب ولاية عزل أحمد باشا وولاية	
الوزير عبدالرحمن باشا	١٣٤
مطلب ولاية الوزير محمد باشا	١٣٤
مطلب ولاية غارى باشا وعزله وولاية	
عمر باشا	١٣٥
مطلب ولاية أحمد باشا أووجه	

مطلب ولاية قيودر باشا	٩٠
الفصل الخامس : فى سلطنة السلطان	
محمد بن السلطان مراد	٩٢
مطلب ولاية خضر باشا	٩٥
مطلب ولاية على باشا	٩٥
الفصل السادس : فى سلطنة السلطان	
أحمد ابن السلطان محمد خان	٩٦
مطلب ولاية إبراهيم باشا المعروف	
بالمقتول	٩٨
مطلب ولاية جرجى محمد باشا الخادم	
مطلب ولاية حسن باشا الدفتردار	١٠٠
مطلب ولاية الوزير محمد باشا	١٠١
مطلب ولاية حاجى باشا وخلعه وولاية	
محمد باشا المعروف بالصوفى	١٠٣
مطلب ولاية أحمد باشا الدفتردار	١٠٥
الفصل السابع : فى سلطنة السلطان	
مصطفى ابن السلطان محمد	
خان	١٠٦
الفصل الثامن : فى سلطنة السلطان	
عثمان ابن السلطان محمد خان	
الثانى	١٠٨
مطلب ولاية مصطفى باشا السلحدار	
مطلب ولاية جعفر باشا	١٠٩
مطلب ولاية مصطفى باشا	١١٠
مطلب ولاية حسين باشا	١١٠
مطلب ولاية محمد باشا البستنجى	١١١
الفصل التاسع : فى سلطنة السلطان	
مصطفى الثانية	١١٢

١٦٩.....	ونخلع رجب باشا
١٧٠.....	مطلب ولاية علي باشا
	مطلب عزل محمد باشا البستانجي وولاية
١٧٣.....	شاكر باشا
	الفصل السابع عشر: في سلطنة السلطان
١٧٩.....	محمود خان الأول
	مطلب عزل أحمد باكير باشا وولاية
١٨٠.....	عبدالله باشا التكفورلى
	مطلب عزل عبدالله باشا وولاية محمد
١٨١.....	باشا السلحدار
	مطلب عزل محمد باشا السلحدار
١٨٢.....	ولاية عثمان باشا الحلبي
	مطلب عزل عثمان باشا وولاية باكير
١٨٣.....	باشا الولاية الثانية
	مطلب عزل باكير باشا وولاية مصطفى
١٨٥.....	باشا أميراخور
	مطلب عزل مصطفى باشا وولاية
	سليمان باشا الشامي المعروف
١٨٥.....	بابن العظم
	مطلب عزل سليمان باشا وولاية علي
١٨٦.....	باشا حليم أوغلى
١٨٦.....	مطلب عزل علي باشا وولاية يحيى باشا
	مطلب عزل يحيى باشا وولاية محمد
١٨٧.....	باشا اليكشى
	مطلب عزل محمد باشا اليكشى وولاية
١٨٧.....	محمد راغب باشا
١٨٩.....	مطلب ولاية أحمد باشا كوزوزير
	مطلب عزل أحمد باشا وولاية عبد الله

	إبراهيم باشا وعزله وولاية
١٣٥.....	حسين باشا
١٣٦.....	مطلب ولاية حسين باشا جانبلاط
١٣٦.....	مطلب ولاية عثمان باشا
	الفصل الثالث عشر: في سلطنة السلطان
١٣٩.....	سليمان خان الثاني
١٤٠.....	مطلب ولاية حسن باشا السلحدار
١٤١.....	مطلب ولاية أحمد باشا
	الفصل الرابع عشر: في سلطنة السلطان
١٤٢.....	أحمد الثاني ابن إبراهيم
١٤٢.....	مطلب ولاية علي باشا قلج
	الفصل الخامس عشر: في سلطنة
	السلطان مصطفى الثاني ابن
١٤٣.....	السلطان محمد الرابع
١٤٥.....	مطلب ولاية مسلم باشا إسماعيل
١٤٦.....	مطلب ولاية حسين باشا
١٤٧.....	مطلب ولاية قره محمد باشا
	الفصل السادس عشر: في سلطنة
	السلطان أحمد ابن السلطان
١٤٨.....	محمد
١٥١.....	مطلب ولاية رامى باشا
١٥١.....	مطلب ولاية علي باشا
١٥٢.....	مطلب ولاية حسين باشا
	مطلب ولاية إبراهيم باشا وخلعه وتولية
١٥٦.....	خليل باشا
١٦٤.....	مطلب ولاية والى باشا
١٦٧.....	مطلب ولاية علي باشا
	مطلب ولاية محمد باشا البستانجي

- ٢١٦ عبد الحميد ابن السلطان أحمد
مطلب عزل الوزير خليل باشا وولاية
- ٢١٧ مصطفى باشا التابلسي
مطلب عزل مصطفى باشا وولاية الوزير
إبراهيم باشا كرلى وموته وولاية
محمد باشا المعروف بالعزتلى
- ٢١٩ الكبير
مطلب عزل محمد باشا العزتلى وولاية
الوزير إسماعيل باشا ٢٢٢
مطلب خلع الوزير إسماعيل باشا وولاية
إسماعيل باشا الثانى ٢٢٩
مطلب وزود الأمر السلطانى بعزل
إسماعيل باشا ثم رجوعه إلى
الولاية ثانية ٢٣٠
مطلب عزل إسماعيل باشا وولاية محمد
باشا ٢٣١
مطلب عزل محمد باشا ملك وولاية
على باشا القصاب ٢٣١
مطلب عزل على باشا القصاب وحضور
محمد باشا السلحدار وقيل
الصابونجي واليا ٢٣٣
مطلب عزل محمد باشا وولاية محمد
يكن باشا ٢٤٠
مطلب عزل محمد باشا يكن وولاية
عابدى باشا ٢٥٥
الفصل الحادى والعشرون : فى سلطنة
السلطان سليم الثالث ابن
السلطان مصطفى ٢٦٧
- ١٨٩ باشا
مطلب عزل عبد الله باشا وولاية أمين
- ١٩٠ باشا
مطلب ولاية مصطفى باشا ١٩١
الفصل الثامن عشر : فى سلطنة السلطان
عثمان الثالث ابن السلطان أحمد
خان ١٩٢
مطلب عزل مصطفى باشا وولاية على
باشا حكيم أوغلى ١٩٣
الفصل التاسع عشر : فى سلطنة السلطان
مصطفى الثالث ابن السلطان
أحمد ١٩٤
مطلب عزل على باشا حكيم أوغلى
وولاية محمد باشا سعيد ١٩٥
مطلب عزل محمد باشا وولاية مصطفى
باشا الصدر الأعظم وعزله أيضا
وولاية أحمد باشا سيلان ١٩٦
مطلب عزل أحمد باشا كامل وولاية
بكير باشا وموته وولاية حسن
باشا ١٩٧
مطلب عزل حسن باشا وولاية حمزة
باشا ١٩٨
مطلب عزل حمزة باشا وولاية محمود
باشا راقم ٢٠٣
مطلب ولاية محمد باشا الأورفلى
وعزله وولاية الوزير أحمد باشا ٢٠٩
مطلب ولاية الوزير خليل باشا ٢١٥
الفصل العشرون : فى سلطنة السلطان

مطلب عزل عابدى باشا وولاية

إسماعيل باشا ٢٧٠

مطلب عزل إسماعيل باشا ولاية محمد

عزت باشا ٢٧٣

مطلب عزل محمد عزت باشا وولاية

صالح باشا ٢٧٨

مطلب عزل صالح باشا وولاية أبى بكر

باشا ٢٧٩

فصل فى نزول نابوليون بوناپارته

بجيشه على مصر وما جرى

بعد ذلك من الحوادث والمحن ٢٧٩

مطلب مقتل الجنرال كلاير قائد الجيوش

الفرنساوية وما جرى بعد قتله ٣٤٢

مطلب جلاء الجيوش الفرنسية عن

مصر والقاهرة وسائر الديار

المصرية ٣٥٨

فصل فى بقية مدة سلطنة السلطان سليم

وما فيها من الحوادث والأخبار ٣٥٩

مطلب طرد محمد باشا من الولاية

وتولية ظاهر باشا ٣٧٤

مطلب قتل ظاهر باشا وتصرف أحمد

باشا والى المدينة المنورة ٣٧٥

مطلب طرد أحمد باشا والى المدينة

وتصرف إبراهيم بيك الكبير ٣٧٧

مطلب منع تصرف إبراهيم بيك وولاية

على باشا الطرابلسى ٣٨٠

مطلب فتنة الأرمنوط وظهور كلمة محمد

على سرجشمة ٣٨٩

مطلب إخراج محمد خسرو باشا من

مقله وتوليه الإمارة على مصر

بمعونة محمد على سرجشمة ٣٩٢

مطلب تبعيد محمد خسرو باشا وولاية

أحمد خورشيد باشا ٣٩٢

مطلب ولاية محمد على على جدة

وتوجيه رتبة الباشوية إليه وما

جرى بسبب ذلك من الحوادث

والمحن ٤٠٠

مطلب ما فعله العامة والشيخ الشرقاوى

والسيد عمر التقيب مع محمد

باشا ٤٠٠

مطلب خلع أحمد باشا وولاية محمد

على باشا على ديار مصر ٤٠٥

﴿تمت﴾



(المقالة السابعة)

(فيمن هم الترك وفي نسبهم)

وفيمن تفرع عنهم من الممالك والأمم

إلى ظهور ملوك آل عثمان)

اعلم أن الترك أمة من أقدم الأمم وأعظمها، وقد اجتمعت كلمة أكثر المؤرخين من عرب وأعجام على أنهم من ولد يافث بن نوح وأبوهم ترك هو الذي سماه هيرودتس المؤرخ باسم ترجيشاوس وجاء في التوراة باسم توجرما. قال ابن الأثير: والترك من ولد تيرش أو طيراش بن يافث وقيل أيضا إن ترك هذا إنما هو من ولد طوج بن أفريدون ينتهي إلى جومرت أو كيومرت ويرجع إلى تيرش بن يافث بن نوح قال: قال ابن خلدون: وينسبهم العرب إلى غامور بن سويل بن يافث وهو غلط لأن غامور مصحف من كומר أو جومر فأبدل العرب الكاف غينا فصارت غامور وجومر هذا من ولد توجرما وقال مؤرخو التتر المغول: بل هم من ولد تتر ومغول وهما أخوان من نسل ترك بن يافث وهم لا يقصدون بذلك إلا إعلاء شرف عائلتهم أ. هـ.

وقد ذكر هيرودتس المؤرخ وبلنيوس وبمبونيوس ميلا اسم الترك قديماً وذكروا أيضا في ومواضع آخر باسم توغريوس فصحفه الكتاب وأهل النقل إلى أمورغيوس ويقال إن بلنيوس سماهم أيضا ترسي وسماهم بمبينيوس باسم برسي وكان البيزنطيون أي الروم المشاركة يسمونهم باسم فرس أو انغرد يعين المجر. قال بعض

الكتاب: مع أنه لم يكن بين الترك والفرس قرابة ولا بين الفرس والمجر. قال العلامة البستاني صاحب دائرة المعارف ما محصله: وقد خرجت من جبال التاي قبائل تركية وتفرقت في أنحاء آسية العليا التي هي الآن تركستان فسمها الصينيون باسم توكو كما سمي الفرس بلاد تركستان باسم توران فكان لفظ ترك أو تورانية اسما جنسيا للقبائل المتوحشة وصارت كلمة توران عند جماعة اليونان بلفظ تيران ومعناها طاغية أو عات أ. هـ.

وقد ورد في بعض الروايات أن أغورخان بن قراخان هو الذي أسس بفتوحاته وشرائعه دولة الترك وشيد ركن تمدنها وأن أغورخان هذا كان معاصر للخليل إبراهيم عليه السلام وأنه ترك عبادة الأصنام ولاذ إلى عبادة أصح منها ثم ركب على أخيه فقاتله قتالاً دينا ومارلت الحرب قائمة بينهما زهاء سبعين سنة وهو يقاتل أخاه حتى ظفر به وهزمه شر هزيمة فخضع له حينئذ سائر تركستان وهو القسم الممتد من ارتلاز وسيرام إلى بخارى وخلف أغورخان هذا ستة بنين فلما مات اقتسموا المملكة بينهم وكان لكل واحد منهم أربعة أولاد فكانوا آباء أربع وعشرين قبيلة تركية فسكن منهم ثلاثة في تركستان ولم يلبثوا أن اكتسحوا كل البلاد الواقعة بين جيحون وسيحون وتقدموا نحو جنا القلعة والطنوة وعاثوا وأفسدوا فكانوا يلقبون بالمدمرين قال بعض الكتاب: وقد سمي بعضهم هذه الأمة بالتار أيضا ولكن التار قرع منهم، وقال آخرون: إن من الترك أهم فروع العائلة التورانية وآخرون يقولون إن اسمهم مرادف للتورانية وزعم بعضهم أنهم من الأمة الإيرانية مع أن التأخرين تحققوا أن لا اتصال لهم بهذه الأمة البتة وكان أول ظهورهم في آسية الشمالية والوسطى بين رعاة الطونة والتار الذين أكثروا من شن الغارة على الصينيين عدة قرون قبل الميلاد المسيحي وبعده وفي القرن السادس ظهرت طائفة منهم أيضا في آسية وأصلها على ما يقال من البلاد المسماة الآن تركستان فوطئت بساط السلام آونة ثم عادت فجذدت حروبها مع أهل الصين شرقا وأهل فارس جنوبا ولما كانوا كلهم أخلاطا مؤلفين من لفيف قبائل متباينة في الأخلاق والعادات ميالة بالطبع إلى الغزو والغارات جافية متوحشة لم تتفق لهم كلمة وانفصمت عروة اتحادهم فتفرقوا فنى تلك الأنحاء الواسعة واستوطنوها على ما هم عليه من الخشونة فكان ذلك داعيا لضعفهم ولما كانت سنة أربع وأربعين وسبعمائة للميلاد المسيحي استظهرت على مملكتهم أمة منهم يقال لهم الويغور قال بعض أهل التحقيق: وهم أول قبيلة تركية استعملت لغة

مكتبة وكانوا أولا بوزين تمجسوا على مذهب زرادشت ثم أسلموا فى القرن التاسع والعاشر، هذا ما كان من أمرهم فى الشرق ، أما ما كان من أمرهم فى الغرب فإنهم فى أواسط القرن التاسع انحطوا وتضعضوا وسادت عليهم طائفة الفرغيز وهى طائفة منهم، وقيل بل هى من التتر فلما ظهر جنكيز خان الذى كان على يديه انحطاط دولتهم فى آسية الوسطى أيضا وإذلالها صارت من هذا الحين سائر الدول القائمة بتلك الأنحاء وفى جهة العراق وما وراءها أيضا من الممالك الإسلامية تترية بعد أن كانت تركية بيد السلاجقة وغيرهم ومازالوا على هذه الحال إلى موت تيمورلنك فظهروا فى ممالكه واستولوا على أرمينية وما بين النهرين ولبثوا هكذا إلى أواسط القرن السادس عشر للميلاد حتى قام عليهم الصوفية وطردهم وظهرت فى تلك الأيام الألبانية، وهى أمة يقال إنها بقايا الويغور كانت نازلة فى جنوب تركستان الصينية تحت جبال تيان شان فاستولت على تركستان الشرقية وما جاورها من المدن والبلدان إلى حدود الفرات ولم يمض عليها قرن أو بعض قرن حتى استظهرت عليها أمة أخرى تركية تعرف بالتركمان. قال أصحاب التاريخ: وليس للترك بقية مهمة الآن إلا الألبانية والتركمان المقيمون الآن فى مواطنهم القديمة .

واعلم أن أشهر الدول التركية التى ملكت ببلاد الإسلام والروم ما وراء النهر وخراسان هم بنو ساسان وقد ملكوا زهاء مائة وسبعين سنة وكان انقراضهم فى سنة تسعين وثلاثمائة للهجرة وبنو سبكتكين وهم المعروفون بالدولة الغزنوية لاتخاذهم مدينة غزنة قاعدة لمملكتهم وقد ملكوا بلاد السامانية وكانت مدة ملكهم مائة واثنين وسبعين سنة ثم انقرضوا فى سنة تسع وعشرين وأربعمائة للهجرة، ثم نشأت الدولة السلجوقية فكانت مدة ملكهم مائة وأربعين سنة ابتداءها من سنة تسع وثمانين وخمسمائة للهجرة وهى أعظم دوله وأوسعها كلمة ثم تفرع منها عدة دول أخرى منها الدولة الخوارزمية التى قام على رأسها خوارزم شاه وهذه قد ملكت ما وراء النهر بعد السلاجقة وكانت مدة ملكها مائة وثمانيا وثلاثين سنة وانتهائها سنة ثمان وعشرين وستمائة للهجرة وقد ملك حلب والشام فرع من هذه الدولة أيضا يعرف بدولة تش بن ألب أرسلان وكان أولهم أئمز بن أبق ملك حوالى سنة أربعمائة وثمان وستين ومازالوا إلى أن انقرضوا على يدى تيمورلنك بن إيلغازى سنة ست عشرة وخمسمائة ومنهم أيضا بنو أرتق ملوك ماردين وديار بكر وأولهم أرتق بن أكسب ولكنهم لم يلبثوا أن انقرضوا على يد هولاكو سنة سبعين وسبعمائة للهجرة ومنهم

الأتابكية ملوك حلب والشام وأولهم قسيم الدولة آق سنقر مملوك السلطان ملكشاه
تولى الملك فى صدر سنة اثنتين وثمانين وستمائة للهجرة ومنهم دولة بنى طغتكين
بالشام وأولهم طغتكين أحد رجال تتش بن ألب أرسلان ملك فى القرن الخامس ثم
انقرض ملكهم بعد أواسط القرن السادس ومنهم فرع آخر ملك فى بلاد الروم
وأولهم قطلمش تولى الملك فى أواسط الخامس ثم انقرضوا بظهور الدولة العثمانية
وذلك حوالى سنة تسع وتسعين وستمائة للهجرة أى سنة تسع وتسعين ومائتين وألف
ميلادية .



(المقالة الثامنة)

(فى تأسيس الدولة العثمانية وفى ظهور ملوكها إلى

مجيئ السلطان سليم إلى ديار مصر واستخلاصها من

أيدى المماليك الشراكسة المعروفين بدولة المماليك الثانية)

قد علمت مما تقدم كيف اجتمعت كلمة بعض أصحاب التاريخ على أن ترك
الذى هو جد الأتراك هو من ولد يافث بن نوح عليه السلام ثم هم يقولون أيضا بأن
أوغز بن قراخان الذى هومن ولد ترك هذا كان ملكا جليل القدر عظيم الشوكة
تسلط على بعض البلاد فى أيام الخليل إبراهيم عليه السلام وتصرف فيها فكانت
تركستان التى هى توران داخلة تحت سلطانه قالوا: وانقسمت مملكة أوغز هذا بعد
موته إلى خانيات منها ثلاثة ويقال لها الأسهم الثلاثة فاخصت بالأوغز الشرقى إلى
حدود الصين ثم ثلاثة أخرى ويقال لها الحاطمة ، إحداها خانية الجبال والثانية خانية
البحر والثالثة خانية السماء أو خانية القبة الزرقاء ومن هذه الخانية نشأ سبط كابى
الذى جاء منه آل عثمان فلما كانت سنة خمسمائة للهجرة أى سنة ست ومائة وألف
للميلاد شبت نيران الحروب بين أسباط تلك الخانيات واشتدت وعلا لهيبها فأبادت
لغيرهم أو كادت ومزقت من بقى منهم كل ممزق فسار أحد أولاد كابى المذكور إلى
ماهان واستوطنها فاجتمع حوله بعض بقايا تلك الأسباط وخضعوا لكلمته ولبث ما
شاء الله ثم مات عن عدة بنين منهم كابى ألب وكان عظيما مهيبا ثم مات كابى ألب

المذكور عن ابن اسمه سليمان وكان سليمان هذا مغازيا حسن التدبير مهيبا مطاع الكلمة فلما كان حوالى سنة إحدى وعشرين وستمائة للهجرة أى حوالى الجيل الثالث عشر للميلاد قدم جنكيزخان سلطان المغل فى عسكر جرار ونزل على خراسان وضيق عليها حتى أخضعها فلم يطق سليمان شاه بن كابى ألب المذكور الصبر على ذلك وكان مقيما بمهاان كما تقدم فرحل عنها على رأس خمسين ألفا من قومه إلى أرزنجان وخلط من بلاد الأرمن ولبث مهاجرا سبع سنين حتى طرق السلاجقة الغز خراسان وخوارزم وفتحوها فلما علم بذلك قفل بمن كان معه إلى بلده فبينما هو يجتاز الفرات عند جعير إذ غرق فحزن عليه قومه وبنوا له قبرا يقال إنه باق إلى يومنا هذا يعرف بترك مزارى وخلف سليمان شاه المذكور أربعة بنين وهم سغور زنكى وكونطغدى وأرطغرل ومعناه المستقيم وكوندز فانقسموا مع من كان معهم من القوم بعد دفن سليمان شاه وافترت كلمتهم فمتم من شاء العود إلى الوطن ومنهم من فضل الغربية والتزول على بعض الجهات الغربية وهؤلاء قد انضم إليهم الأمير أرطغرل والأمير كوندز وكانوا زهاء أربعمئة عشيرة فيها أربعمئة وأربعة وأربعون فارسا مدججين بالسلاح فساروا فى طريقهم قاصدين الجهات الغربية وبينما هم على هذا الحال إذ رأوا فى طريقهم جيشين يقتلان قتالا عنيفا وكان أحدهما قليل العدد والعدد وكان هذا الجيش الضعيف للسلطان علاء الدين السلجوقى من ولد ملكشاه بن قلج أرسلان والثانى من المغل الذين هم أعداء للترك فمال الأمير أرطغرل بقومه إلى معاونة جيش السلطان علاء الدين وانضم إليه فاشتد القتال بين الفريقين شدة بالغة ومازالوا يقاتلون حتى دارت الدائرة على المغل وتم النصر للسلاجقة وجاء الخبر بذلك إلى السلطان علاء الدين ففرح واستدعى إليه الأمير أرطغرل وأحسن لقاءه وأدناه من مجلسه وخلع عليه وعلى أخيه كوندز وأنزلهما وقومهما بمراعى نومانىة وأرمينية أو بجبال قراجاطاغ عند أنقرة وأخلص أرطغرل فى خدمة السلطان علاء الدين وبالع فى طاعته وقاتل معه فى حروبه المتتابعة مع الروم والمغل وأبلى فى كل منها بلاء حسنا فأقطعه أيلة عظيمة واقعة بين بلاده وبلاد الروم يقال لها سلطانية فنزل فيها بجماعة ممن لادوا به وأحسن السيرة فى أهلها فعلت كلمته فلما كان حوالى سنة سبعمئة للهجرة أى سنة سبع وتسعين ومائتين وألف ميلادية مات أرطغرل وقيل بل كانت وفاته حوالى سنة تسع وتسعين وسبعمئة للهجرة أى سنة ست وتسعين وثلاثمئة وألف ميلادية بعد أن تغلب على قوطاهية وأخذها من الروم سنة ثمانين وستمئة هجرية أى سنة إحدى وثمانين

ومائتين وألف ميلادية، وفى قول بعض المؤرخين من المتقدمين ومنهم المؤرخ جورجى فرانزس الرومى المولود بمدينة القسطنطينية إن أصل الدولة العثمانية أت عن ملوك الروم بالسلالة وملوك الفرس بالكلالة. قال بعد كلام فلما كانت سنة ثلاثين ومائة وألف ميلادية خرج الإمبراطور يوحنا كونيوس إمبراطور الروم ومعه ابن أخيه أوغسطس المدعو يوحنا أيضا لقتال الملوك السلجوقيين فقاتلهم أياما حتى تغلب على كثير من قلاعهم وحصونهم وأقام على هذا الحال حتى نفذت الذخيرة أو كادت وعز القوات فى تلك الأصقاع الباردة ومات أكثر دواب الحمل والخييل من قلة العلف فخاف الإمبراطور شر العقابة إذا ظل على هذا الحال وجعل يدبر حيلة للخلاص ورسم بتوزيع ما بقى من الخيل على أعظم فرسانه وأشدّهم بأساً وهم من طوائف الروم والإيطاليان وجعل يجول بين الصفوف ويتقى منهم من يتوسم فيه سمة الفتوة والشجاعة فينما هو على هذا الحال إذ رأى بين الصفوف فارسا من الطليان حسن الشكل أعجبه منظره فنظر إلى ابن أخيه أوغسطس وقال له: ادفع فرسك إلى هذا الشاب ليمتطيه فاستعظم أوغسطس هذا الأمر فشدد عليه الإمبراطور فى ذلك فترجل أوغسطس عن فرسه وهو يتميز غيظا ودفعه إلى الشاب وسار من ساعته مغضبا قاصدا ملك العجم فلما علم ملك العجم بقدمه وما وقع له مع عمه فرح به وأحسن لقاءه وقربه إليه ورفع منزله فدان أوغسطس بدين الإسلام فزوجه ملك العجم بابنته وأقطعهما بلادا كثيرة وأجزل عطاءهما، وكان أوغسطس هذا شابا جميلا رفيق الشمائل عارفا بعلوم اليونان ولغة العرب مهذبا طلق الوجه كريما مقداما لين الجانب فلقبه الفرس بالشلبى وأحبه الناس كثيرا ومالوا إليه بقلوبهم فعملت كلمته وطارت شهرته وعمت مهابته سائر مدن آسية وولدت له زوجته ولدا فسماه سليمان وهذبه وعلمه العربية واليونانية وبالع في تهذيبه فترعرع وشب على مكارم الأخلاق وأحسن الطباع فأحبه الرعية ومالت إليه فلما مات أبوه تولى مكانه وسار فى قومه سيرة حسنة وكان ميالا إلى الفتح والجهاد فاستولى على الكثير من البلدان وضم إلى مملكته كثيرا من مملكة الروم المجاورة لبلاده فاتسع نطاق مملكته وارتفعت كلمته وطار صيته فى الآفاق. قال: فكان أوغسطس هذا الذى هو يوحنا جدّا للأمير أرطغريل خان الذى هو أبو الأمير عثمان رأس ملوك آل عثمان، وأوهم بعض أهل التاريخ من المتأخرين ومنهم أوداردس فوكوك الذى ترجم تاريخ أبى الفرغ الملقب إلى اللاتينية وجعله هدية لكرلوس الثانى ملك الإنكليز عام ثمان وأربعين وستمائة وألف ميلادية أى عام ثمان وخمسين وألف هجرية فقال بعد

كلام، ولم يتسن لأصحاب التاريخ إلى الآن معرفة شيء حقيقى عن سليمان شاه جد آل عثمان ولا إلى من ينتهى نسبهم وحاصل ما نقلوه من أخباره هو أنه لما تغلب جنكيزخان ملك التتر على أكثر البلاد ودان له أكثر مدن آسية خرج سليمان شاه المذكور حوالى سنة إحدى عشرة وستمئة للهجرة فى نفر من قومه وسار إلى تحت الدولة السلجوقية وكان معه أربعة بنين وهم سنقور زنكى وكدنطغدى وأرطغريل وكوندز فيينما هم يعبرون الفرات إذ غرق سليمان شاه المذكور فافترق بنوه واختلفت كلمتهم فذهب اثنان منهم وهم سنقور زنكى وكدنطغدى ببعض القوم إلى الجهة الجنوبية من الفرات وسار أرطغريل بك وكوندز مع من بقى إلى تحت السلطان علاء الدين السلجوقى صاحب قونية ونزلوا فى جواره فأحلهم محلا رحبا وأقطعهم قرجيطاغ فمازالوا بها حتى مات أرطغريل حوالى سنة سبع وثمانين وستمئة هجرية أى سنة ثمان وثمانين ومائتين وألف ميلادية. أهـ

وقال العلامة ابن خلدون بعد كلام طويل : والظاهر أن ملوك بنى عثمان كانت إلى هذا العصر من أعقاب على بك وعلى بك صهر محمد بك أحد أمراء التركمان من بنى جق أو أقاربه يعنى أعقاب أقاربه قال : ويشهد بذلك اتصال هذه الإمارة فيهم يعنى الإمارة على التركمان مدة هذه المائة سنة قال : فلما اضمحل التتر من بلاد الروم واستقر بنو ارتتا بسواس وأعمالها غلب هؤلاء التركمان على ماوراء الدروب إلى خليج القسطنطينية ونزل ملكهم مدينة برضا من تلك الناحية وكان يسمى أرخان ابن عثمان جق فاتخذها داراً لملكهم ولم يفارق الخيام إلى القصور وإنما ينزل فى خيامه فى بسيطها وضواحيها إلى أن قال أهـ.

قلت : ومع اجتماع كلمة بعضهم على أن الترك إنما هم من ولد يافث بن نوح عليه السلام واختلاف السواد الأعظم منهم فيمن هو جد آل عثمان الأول فقد عادوا بعد تأويل وتعليل إلى القول بأن سليمان شاه هو رأس هذه العائلة العظيمة التى دوخت بخروبها وغاراتها المتتابعة ثلاثة أرباع المعمور من الأرض وقلبت تحت الممالك العظيمة وأبادت الكثير من الأمم والشعوب الذين قاموا فى وجهها فاستولت على ممالك الدولة العباسية وعلى بعض مملكة الدولة الغزنوية لآل سبكتكين والدولة السلجوقية فى الروم وفى كرمان والشام ودولة المماليك فى مصر والشام ودولة الأتابكية فى الموصل ثم الفرنجة فى بعض مدن الشام وقارة أوروبا وجزائر العرب وجزء عظيم من قارة أفريقية وجزائر بحر الروم وغيرها مما هو باق بعضه فى حوزتها إلى يومنا هذا وأنه بموت سليمان شاه المذكور ظهرت كلمة ابنه أرطغريل واتسعت

شهرته ودوّخ أكثر البلدان المجاورة لولايته الصغيرة التي أقطعه إياها علاء الدين ومازال على ذأبه من الغزو والجهاد وتوسيع أرجاء مملكته كل أيام حياته حتى مات فى سنة ثمانين وستمائة هجرية أى سنة إحدى وثمانين ومائتين وألف ميلادية فكانت مدة تصرفه فى هذه الإمارة زهاء اثنتين وخمسين سنة بالتبعية لسلاطين قونية السلجوقيين .

وبموته قام بعده ولده الأمير عثمان وكان يقال له عثمان جق كما رواه ابن خلدون فحذا حذو أبيه فى الغزو والجهاد ولبث يقاتل الروم ويهاجم بلادهم حتى استخلص من أيديهم بلادا كثيرة ووقعت هيبة فى قلوبهم وخافوه فأرسل إليه سلطان السلجوقيين منشورا ولواء أبيض وطبولا إعلانا بإمارته وولايته على تلك الأصقاع ولقبه بالغازى فعلت من ذلك الحين كلمته وكبرت مهابته وأحسن السياسة والتدبير ومازال مثابرا على الغزو والجهاد وفتح البلدان وتدويخ المدن حتى أحسن بزوال الدولة السلجوقية ورأى من اختلال أحوالها وزوال هيبة القيصرية الرومية وضعضة أمورهما بسبب الخلاف الواقع فى أمر الدين بين جماعة المسيحيين ما دفعه إلى طلب الملك ومال به إلى جانب الظهور والاستبداد بملك السلجوقيين فجعل حيثنذ يمهّد الأسباب ويأتى على كل أمر منها من أقرب الأبواب حتى قدر الله بانقراض الدولة السلجوقية فى سنة تسع وتسعين وستمائة هجرية أى سنة تسع وتسعين ومائتين وألف ميلادية واندرست معالمها من الأناطولى ولم يبق أحد من سلاطينها واستقل كل من كان تحت حكمها من الأمراء وتقاسموا البلاد فاختص الأمير عثمان المذكور بجزء من مملكة بروسة وخطب له فى بعض أعمالها ولما استقرت به الإمارة أحسن السياسة ورتب أمور البلاد على ما فيه المصلحة ثم تجرد للغزو وفتح المدن والأمصار، وكان شهما جليل القدر عارفا بفنون الحروب والقتال ففتح الفتوحات العظيمة بنفسه وعلى يدى ولده أوزخان بك وأخذ كثيرا من المدن القياصرة فكبرت مملكته واتسعت أرجاؤها وظهرت وعرفت من ذلك الحين بالدولة العثمانية ثم نقل تخت مملكته هذه إلى مدينة ينى شهر وأقام بها على أحسن ما يكون من الصولة والبأس حتى مات فى سنة ست وعشرين وسبعمائة هجرية أى سنة خمس وعشرين وثلثمائة وألف ميلادية وكان كريما على الهمة أبى النفس جوادا قيل ولذلك لم يترك بعد موته شيئا لا من الأموال ولا من النفائس التي جمعها فى غزواته وفتوحاته الكثيرة ولم يوجد عنده إلا بعض الملبوس ومسبحة كانت أعز شىء لديه وكانت مدة ملكه خمسا وعشرين سنة وقيل بل سبعا وعشرين .

وقام بالأمر بعده ولده أورخان الغازى تولى السلطنة فى السنة التى مات فيها
 أبوه سنة ست وعشرين وسبعمائة هجرية أى سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وألف
 ميلادية فأحسن التدبير ونظم الأمور وعدل فى الرعية فاجتمعت القلوب على
 محبته وولى أخاه علاء الدين الوزارة فقام بها خير قيام وأخذ فى تنظيم الأمور وسن
 القوانين وإعلاء شأن المملكة وكان الغازى أورخان المذكور محبا للغزو والفتح كأبيه
 ميالا لتوسيع نطاق المملكة ففتح مدينة بروسة وبالق فى تحسينها بالمباني الفاخرة
 والآثار العجيبة ثم نقل كرسى مملكته إليها ولم تقعه كثرة حروبه عن تنظيم عسكره
 وترتيبهم على أسلوب جديد بعد أن كانوا فى أيام أبيه أخلاطا من فرسان التركمان
 وغيرهم فأنشأ وجاق الانكشارية ورتبه وأحسن تربيته فكان له عوناً على كثرة الفتوح
 والمغازى وهابه الملوك وبلغت شهرته مبلغا عظيما ولكن عاد أولئك الانكشارية بعد
 قليل فصاربوا أعداء لمن تولى السلطنة فكان السلطان لا يأتى أمرا إلا بإشارتهم
 ولا يعمل عملا إلا برضا كبارهم فتبدل خيرهم شرا ونفعهم ضرا وكثرتهم وبالا
 ومازلوا على هذا الحال من التصرف فى معظم الأمور واختصاصهم بالرياسة
 والسياسة حتى أذلهم السلطان محمد الثانى ومزق شملهم وفرق كلمتهم وشردهم
 تشريدا ، ولما دانت للسلطان أورخان الأمور عمد إلى غزو بلاد اليونان فجهرز
 عليها جيشا عظيما للغاية وقاتلها ففتح مدنها وبلدانها وأحسن معاملة أهلها فمالت
 إلى محبته القلوب واجتمعت على طاعته الخواطر وسار فى غزواته يرافقه الأقبال
 حتى بلغ خليج القسطنطينية ويوغاز كاليولى وكان الإمبراطورية الرومية فى هذا
 الحين آخذة فى الانحطاط إلى حضيض الدمار لاسيما بعد أن ضعفتها الحروب
 الداخلية التى سببتها فتنة يوحنا كاتا كوزين نائب الإمبراطور يوحنا بالبولوغوس
 ووصيه ، وتحرير الخبر بالإيجاز أنه لما كثر عبث كاتا كوزين المذكور بأمور الدولة
 وأساء التصرف أبغضه الناس بغضا شديدا وهم الروم بخلعه فلما آتس منهم ذلك
 راسل آل عثمان واستمدتهم فأمدوه وقويت عزيمة الترك على التوغل فى وسط
 أوروبا فغزوا وفتحوا عدة مدن منها وكثيرا من القلاع والحصون واستولوا عليها
 وتصرفوا فيها وسار الأمير سليمان أكبر أولاد السلطان أورخان فاجتاز بوغاز شناق
 قلعة فى سنة ستين وسبعمائة هجرية أى نحو سنة تسع وخمسين وثلاثمائة وألف
 ميلادية وفتح مدينة غاليلولي التى هى مفتاح القسطنطينية ثم اخترمته المنية ، فحزن
 عليه أبوه حزنا عظيما وأفرط فى البكاء والنحيب فمات غما فى السنة التى مات فيه
 ولده أى سنة اثنتين وستين وسبعمائة هجرية .

فقام بالأمر بعده ولده السلطان مراد الأول وكان شجاعا مهيبا مغازيا فلما استقرت به السلطنة عمد إلى فتح أدرنه ففتحها وسار إلى الصرب والبلغار فأخضعهما وكانت بلاد الأناطولى لم تزل مستقلة فى حكمها تابعة لبعض الأمراء من الترك يتصرفون فى حكمها كما يشاؤون فحاربهم وأخضعهم وأدخلهم تحت طاعته وروج ابنه الأمير بايزيد بابه أمير كرميان تزلقا إلى ولاية آسية الصغرى وتقربا منهم ليتسنى له بذلك ضم بلادهم إلى أملاكه، ففاز بذلك وضم إلى بلاد مقاطعة كرميان وغيرها من مدن آسية الصغرى واستولى على مدينة كوتاهيا وكان أمير كرميان وهبها لابنته يوم زفافها ثم سار بعسكره بعد ذلك للحمل على مقاطعتى مقدونية وبلاد الأرنود فأخضع كثيرا من مدنها واستفحل أمره واتسعت كلمته وتهيأ منه جميع الأمراء المجاورين له فنهض أهل الصرب والقللاخ وأهل دلماطيا والمجر والبلغار وتحالفوا على قتاله وإيقافه عند حده وخرجوا فى جيش جرار فركب عليهم وقاتلهم جميعا وهزمهم وشتت شملهم وأبلى فيهم بلاء حسنا وبينما هو يغدو ويروح فى ساحة القتال ويكر بجواده أذ وثب عليه جندى من البلغار كان بين جثث القتلى وطعنه بخنجر فى أحشائه فمات لحينه فتقهقرت عساكره وانكفوا عن القتال. قال بعض أصحاب التاريخ: وهذا القرن هو الدور الأول للدولة العثمانية فإنها فى مدة المائة سنة هذه عظم أمرها وتمكنت وثبتت أركانها وظهرت فى مظهر الدول الكبار بعد أن كانت إمارة صغيرة ولم يتم لها هذا إلا بحفاظة سلاطينها على وصية الغازى عثمان قالوا: وذلك أنه لما حضرته الوفاة دعا إليه ولده أورخان وأوصاه بوصايا ثلاثة فقال له: يا بنى تمسك فى كل أمورك بالشريعة الغراء وشاور فى المهمات أهل الرأى والدهاء، وأعط كل ذى حق حقه من التكريم والإنعام لاسيما العلماء الأعلام الذين هم دعائم الدين مصداقا لقول صاحب الشريعة خير الناس من ينفع الناس. وتنبه لما هو أعظم من ذلك هو التعظيم لأوامر الله والرافة بعباد الله واطلب خير النتائج من إعلاء كلمة الله والغزو لوجه الله فإنك خليفتى من بعدى أه.

قالوا فكانت هذه الوصية سنة مرعية بين سلاطين آل عثمان يتلقاها الخلف عن السلف والملك لله يؤتیه من يشاء.

ولما مات السلطان مراد الأول قام بالأمر بعده ولده السلطان بايزيد الأول فى السنة التى مات فيها والده وكان بطلا مقداما عارفا بفنون الحرب والقتال وضروب السياسة ميالا إلى الغزو والجهاد فلما استقرت به السلطنة عمد إلى إخضاع ما بقى

من الممالك الصغيرة التي كانت إلى هذا الحين مستقلة فى الأناطولى فدوخها وأخضعها لسلطانها ثم سار فى عسكر جرار إلى آيالات مقدونية والبلغار والروم إلى فتحها وأدخلها تحت طاعته فكبر أمره وعظمت هيئته ودانت له الأمور فلما أنس من الأيام النصر تهيأ لفتح القسطنطينية وإخضاع ممالك الفرنجة فزحف بجيش كبير نواحى أوروبا واستولى على مدينة سالونيك وشن الغارة على بلاد المجر وانتصر على جيوش الفرنجة فى موقعة هائلة ثم سار إلى القسطنطينية فحاصرها وكان إمبراطورها يومئذ مانوئيل فخاف وهاله كثرة عساكر السلطان بايزيد فأرسل إلى من جاوزه من الملوك يطلب منهم المدد على قتال الترك فخاف السلطان بايزيد من اتحادهم وخشى عاقبة أمرهم فعقد مع الروم صلحا لعشر سنين وأن يعطوا له فى كل سنة ثلاثين ألف ريال وأن يجعل فى القسطنطينية قاضيا من المسلمين ويبنى فيها مسجدا ثم رحل عن القسطنطينية ولبت قليلا حتى تبين من الفرص أنفعا فعاد إلى حصارها وشدد فى الحصار ولم يراع ميثاقا ولا عهدا وبينما هو يرأس الرمي على أسوارها وحصونها إذ جاتته الأخبار بركوب تيمورلنك بعسكره إلى بلاده وفتح الكثير منها وضمها إلى سلطنة التار فاضطرب السلطان بايزيد من ذلك واستعظمه جدا ورحل عن القسطنطينية ليدفع تيمورلنك عن بلاده فالتقى الفريقان عند مدينة أنقرة واقتتلا قتالا عنيفا يوما كاملا وقد مات فى ذلك اليوم خلق كثير جدا حتى خاضت الخيول فى الدماء ثم انكشفت المعركة عن نصره تيمورلنك وهزيمة السلطان بايزيد وسقوطه فى قبضة تيمورلنك فسجنه فى قفص من الحديد ومازال فى سجنه هذا إلى أن مات سنة خمس وثمانمائة هجرية أى نحو سنة إحدى وأربعمائة وألف ميلادية. قال بعض كتاب الأخبار: وكان قد تغلب السلطان بايزيد فى آخر أيامه هوى النفس فتهاوت على ما لا يليق من الإسراف والتبذير والاسترسال فى اللهو والخلاعة وغير ذلك من دواعى التأخير فاغتنم تيمورلنك هذه الفرصة وسار على مملكة بايزيد فى سبعمائة ألف مقاتل فقابله السلطان بايزيد وقاتله فوقع فى يده أسيرا وفرح ملوك أوروبا بسقوط السلطان بايزيد فى قبضة تيمورلنك فرحا عظيما وأرسلوا إلى تيمورلنك رسائل التهاني فكان ممن أرسل ذلك شارلس الثالث ملك الفرنسيس فرد عليه تيمورلنك ردًا حسنًا جدا وأوصاه خيرا بمن يقدم إلى بلاد الفرنسيس من تجار الفرس كما أنه ضمن لتجار الفرنسيس الذين يقومون على بلاد فارس كمال الراحة والرفاهية.

(مطلب)

(ما جرى بعد موت السلطان بايزيد من الاختلال)

ولما مات السلطان بايزيد كاد يختل نظام الملك إذ قامت الفتنة بين أولاده واستبد كل واحد منهم بقسم من مملكة أبيه فتجزأت المملكة إلى عدة إمارات صغيرة وجرى عليها ماجرى لدولة آل سلجوق وخرجت عن الطاعة في خلال هذه الفتنة ولايات البلغار والصرب والقلاخ واستمر النزاع بين أولاد السلطان بايزيد زهاء إحدى عشرة سنة وكان أحد أولاد بايزيد المدعو عيسى قد استبد بحكم البلاد الواقعة على مقربة من أنقرة وسينوب والبحر الأسود فوثب عليه أخوه محمد وقتله بعد حروب يطول شرحها واستولى على جميع تلك الأصقاع وسار بلا منازع من إخوته إلى آسية الصغرى واستخلص أخاه موسى وكان في أسر تيمورلنك وسيره في جيش عظيم إلى قارة أوروبا لقتال أخيه سليمان فلم يقو عليه بل انهزم أمامه وعاد إلى آسية مدحورا ثم أصلح حال جيوشه وعاد بهم مرة ثانية لقتال أخيه سليمان المذكور فالتقى الجمعان واقتتلا قتالا شديدا فقتل سليمان خارج أسوار مدينة أدرنة وتم الظفر للسلطان محمد، وكان آل عثمان لما اشتد الخصام بين أولاد السلطان بايزيد وعمت الفتنة واستفحل أمرها اختاروا الأمير سليمان هذا سلطانا عليهم في مملكة أبيه التي بقارة أوروبا فبايعوه بالسلطنة وولوه أمورهم ولكنه كان ضعيف الرأي سيء التصرف منهمكا في الملاذ مولعا بالملاهي والفجور خامل الفكر فلم تطل سلطته حيث مات في سنة اثنتى عشرة وثمانمائة هجرية أى نحو سنة عشر وأربعمائة ألف ميلادية، ولما تم الظفر لموسى المذكور سار بمن معه من العساكر وركب على بلاد الصرب وعاقب أهلها على خروجهم وتمردهم وقاتل سمسون ملك المجر حيث أنجد أهل الصرب عليه وكاد يظفر به فظهر من هذا الحين نبه وعلت كلمته واتسعت شهرته فدخله الطمع وطمحت نفسه إلى الاستقلال بالملك والخروج عن طاعة أخيه السلطان محمد وأخذ جميع بلاد أبيه التي بقارة أوروبا وسار بعسكره لحصار القسطنطينية فحاصرها وضيق عليها ليفتحها ويجعلها تحت ملكه فأحس السلطان محمد بما وراء ذلك وخشى العاقبة وأتت إليه رسل قيصر الروم تشكو من فعال أخيه موسى وتستنجده فسار إلى القسطنطينية في جيش عظيم جداً وقاتل أخاه فكانت الحرب بينهما سجالا ثم تقوى السلطان محمد بعسكره فزحزح الأمير موسى عن القسطنطينية وتحالف

السلطان محمد مع قيصر الروم وأمير الصرب على إذلال الأمير موسى وتمزيق شمل من معه من الجنود فأعملوا الفتنة ويثوا الدسائس بين عسكر الأمير موسى حتى نفرت منه قلوب الجند وخانه كبار القواد ثم ركب عليه السلطان محمد بعسكره وانتصر عليه نصرة عظيمة وفر موسى هاربا فتبعه فارس من فرسان أخيه محمد وقتله واحتز رأسه وأتى به إلى أخيه وذلك سنة ست عشرة وثمانمائة هجرية أى نحو سنة ثلاث عشرة وأربعمائة وألف ميلادية وفي رواية أنه قتل بين يدي أخيه صبرا.

(فصل)

(في استقلال السلطان محمد الغازي بالملك)

ولما مات الأمير موسى انفرد محمد بالسلطنة على ما بقى من ملك آل عثمان وبايعه الناس كافة فكان هو الخامس من ملوك آل عثمان على المتفق عليه عند أصحاب التاريخ وقد عرف عندهم بالسلطان محمد جلبي الغازي وكان ملكا جليل القدر واسع المعرفة حليما فصفت له الأيام ودانت له الأمور وجاءت إليه رسل ملوك الفرنجة برسائل التهاني والتبريك فأكرمهم وأحسن وفادتهم وأخذ يمهّد الأمور ويدبر أحوال المملكة فعقد الصلح مع الأجانب وقوى معهم روابط المودة والاتحاد وحافظ على مخالفة مانوئيل قيصر الروم الذي لولاه لحيف على ملك آل عثمان من الدمار وردّ إليه جميع ما أخذه أسلافه من القلاع والحصون الرومية فمالت إليه الخواطر واجتمعت على محبته القلوب وعلت كلمته وكان عادلا ذا شفقة على الرعية موفقا في غزواته ونقل كرسى مملكته إلى مدينة أدرنة وأنشأ السفن البحرية وجعل لها جنودا يقاتلون على ظهور تلك السفن وأعاد رونق السلطنة إلى ما كان عليه بعد أن كاد يتولاها الدمار بأسباب غارات تيمورلنك ، وظهر في أيامه رجل اسمه بدر الدين من كبار علماء زمانه وكان متوليا القضاء في عسكر الأمير موسى أخى السلطان محمد فلما انهزم عسكر الأمير موسى وتمزق شملهم حكم على بدر الدين القاضي المذكور بملازمة مدينة أزنك فلبث بها حيناً ثم هرب منها واختفى خبره أياماً ثم ظهر يدعو إلى مذهبه وهو المساواة بين الناس على اختلاف طبقاتهم فى الأموال والمتاع وعدم التفرق فى ذلك بين الغنى والفقير والمسلم والمسيحى فتبعه خلق عظيم من المسلمين والمسيحيين وكان يقول إن الناس جميعا إخوة لأب واحد وأم واحدة

فداع خبره وكثرت أحزابه ولبى دعوته القاصى والدانى وخيف على بهجة الدولة العثمانية من الزوال بسبب دعوته فسير إليه السلطان محمد جيشا عظيما ومقدمه ابن أمير البلغار الذى كان أسلم وتولى العمالة على مدينة سمسون فخرج عليه أحد زعماء مذهب بدر الدين المذكور فى جيش كبير وقتله وهزم عسكره. شر هزيمة وقبض على ابن أمير البلغار وقتله فلما جاء الخبر بذلك إلى السلطان محمد اضطرب واستعظم هذا الأمر جدا وجمع جيشا عظيما وجعل رئيسه الوزير الأول بايزيد فسار بايزيد لقتال ذلك الزعيم فلاقاه على مقربة من أزمير وكان بدر الدين قد سار إلى بلاد مقدونية فاقتلت عساكر الوزير مع عساكر بدر الدين واشتد القتال بين الفريقين وانكشف عن هزيمة عسكر بدر الدين وسقوط مقدمهم المدعو مصطفى فى قبضة الوزير فأمر بقتله فقتلوه بين يديه وقتلوا عددا كثيرا ممن كانوا معه وسيروا من يقبض على بدر الدين فى بلاد مقدونية فتحرز بدر الدين وكانت بينهم وبينه وقائع كثيرة وحروب يطول شرحها ثم قبض عليه وقتل شقا فى سنة عشرين وثمانمائة هجرية أى سنة سبع عشرة وأربعمائة وألف ميلاديه بعد استصدار فتوى فى شأن ذلك. قال عمر فى تاريخه ونص الفتوى من أتاكم وأمركم جميعا على رجل يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه، فسكنت بقتله الفتنة وزالت أسبابها واطمأنت قلوب الناس وبقي السلطان محمد عزيزاً مهيباً محبوباً مطاعاً إلى أن أدركته الوفاة سنة أربع وعشرين وثمانمائة هجرية أى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة وألف ميلادية. قال بعض كتاب الأخبار: والسلطان محمد هذا أول من أرسل الهدية إلى أمير مكة قدرا من الذهب فى كل عام للنفقة على فقراء مكة والمدينة وهى التى يطلق عليها اسم الصرة الآن ولكنها لم تكن تبلغ ما بلغته الآن وقال آخران: السلطان سليم الأول هو أول من أرسل الصرة المذكورة سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة هجرية بعد فتح الديار المصرية وإزالة دولة الجراكسة الثانية والقول الأول هو الذى عليه المعول.

وبموت السلطان محمد جلبى قام بالأمر بعده (ولده السلطان مراد الثانى) ببيع له بالملك سنة أربع وعشرين وثمانمائة هجرية أى نحو سنة إحدى وعشرين وأربعمائة وألف ميلادية وعمره يومئذ ثمان عشرة سنة فلما استقرت به السلطنة قام بتدبيرها أحسن قيام ووسع نطاقها وأبرم صلحا مع أمير القرمات وقرر اتفاقا مع ملك المجر على هدنة خمس سنوات وتفرغ لتدوين من عصى وخرج عن الطاعة من ولايات آسية فلم يتم له ذلك حتى جاءته رسل مانويل قيصر الروم فى طلب العهد منه على

ان لا يحارب القيصرية الرومية بوجه ما وأن يسير إلى القسطنطينية اثنين من أولاد السلطان محمد الغازى رهينة على وفاء العهد فإن أبى ذلك أطلق القيصر سراح الأمير مصطفى ابن السلطان بايزيد وكان الأمير مصطفى المذكور قد اختفى خبره ولم يوقف له على أثر بعد واقعة أنقرة التى أسر فيها أبوه السلطان بايزيد الأول ثم ظهر فى أيام السلطان محمد الغازى عقب واقعة بدر الدين الخارجى وطالب أخاه السلطان محمد بالملك وأعانه على ذلك أمير القلاخ تعظيما للفتنة وإضراما لتارها فأغار الأمير مصطفى المذكور على إقليم تساليا من أملاك اليونان فطاردته جنود أخيه السلطان محمد ففر إلى سلاطيك وكانت قد عادت إلى مملكة الروم مع غيرها من بعض الأيالات التى أرجعها السلطان محمد إلى قيصر الروم ونزل على عاملها مستجيرا فأجاره وطلبه السلطان محمد فلم يجبه قيصر إلى ذلك ووعد أنه يقيه عنده ولايفك سراحه مادام السلطان على قيد الحياة فقبل السلطان منه ذلك ورتب لأخيه شيئا فى كل سنة فلبث فى جوار قيصر حتى سير قيصر رسله إلى السلطان مراد فى طلب ذلك العهد فامتنع السلطان مراد من إجابة قيصر إلى ما طلب فسير قيصر الأمير مصطفى المذكور ومعه عشر مراكب حربية فأتى بها وحاصر مدينة جاليولى وضيق عليها فاستسلمت وامتنعت عليه قلعتهما فأحاطها بطائفة من العسكر ليمنع عنها المدد وسار بمن بقى معه يريد أدرنه فسير إليه السلطان مراد جيشا عظيما ومقدمه وزيره بايزيد فلما التقى الجمعان برز الأمير مصطفى أمام صفوف ابن أخيه السلطان مراد ونادى على العسكر وخطب فيهم وقال : إنه هو أولى بالملك وأحق بالسلطنة من ابن أخيه واستنهض العسكر إلى نصرته فليت الجيوش دعوته وقاموا لنصرته وقبض جماعة منهم على بايزيد وزير السلطان وقتله ثم سار الأمير مصطفى للقاء السلطان وكان السلطان متحصنا مع عسكره عند نهر صغير فلم يقترب الأمير مصطفى من ذلك المكان حتى وقعت الفتنة بين عسكره وخانه بعض قواده وتركه أغلب العسكر فكر راجعا إلى جاليولى ولم يدخلها حتى قبض عليه بعض أتباع السلطان وأتوا به إليه فأمر به فقتلوه شتقاء ولما سكنت الفتنة بموت الأمير مصطفى عميد السلطان مراد إلى الانتقام من قيصر الروم فسار إلى حصار القسطنطينية بجيش جرار وحاصرها وضيق عليها أياما ثم عاد عنها مدحورا لقيام الفتنة وخروج بعض الأيالات عن طاعته ومازال يراقب القرص حتى مات مانوئيل قيصر وخلفه على سرير الملك يوحنا باليولوجوس فراسل يوحنا المذكور فى دفع مبلغ من المال فى كل عام جزية وأن يسلم إليه جميع البلاد التابعة للقسطنطينية ويستثنى من ذلك

القسطنطينية وضواحيها أو أنه يتأهب لقتاله فقبل. يوحنا هذه الشروط وسلم إلى السلطان مراد جميع القلاع والحصون التي كانت إلى هذا الحين في حيازة الروم على سواحل البحر الأسود وسواحل الروم ايلي. ومملكتي مقدونية وتساليا ثم ركب بعد ذلك بعسكره واستخلص أيضا جميع المدن والبلدان التي هي داخل برزخ كورنثوس ومازال يتقدم في غزواته حتى توغل في بلاد المورة وضم أكثرها إلى أملاكه، ولما شاع بين ملوك أوروبا خبر فتوحات آل عثمان ومثابرة ملوكهم على الغزو والجهاد خافوا من سقوط القسطنطينية في قبضة الترك ومن زحفهم على بقية الممالك المسيحية فنهض عند ذلك أوجينيوس البابا وشرع في عقد محالفة بين ممالك الفرنجة على مقاومة الترك ومنعهم وقام لادسلاس ملك بولونيا والمجر وأخذ على نفسه مقاومة الترك وجيش لذلك جيشا عظيما ومقدمه يوحنا هودياس القائد الشهير وانضم إلى هذا الجيش جمهور من الحربيين والمتطوعة من الفرنسيين والجرمانيين وساروا للقاء الترك فالتقى الفريقان واقتتلا قتالا عنيفا ظفر فيه يوحنا في معركتين عظيمتين واستظهر على الترك فخشى السلطان مراد شر العاقبة وعمد إلى المصالحة فبقررت القاعدة على أن يسحب السلطان مراد بمن بقي من جيوشه فانسحب راجعا إلى كرسي مملكته فلما سكنت الفتن وزالت أسباب القلاقل خلع السلطان نفسه عن الملك وتنازل عنه لولده محمد فبايعه الناس وطبروا الخبر بذلك إلى الأفاق ولقبوه بالفتاح واعتكف السلطان مراد عن الناس واعتزلهم والتزم العبادة والتهجد فلما علم لادسلاس صاحب بلونيا والمجر بخبره خالف العهد ونبذ الهدنة ظهريا وتقدم بعساكره لقتال الترك وحجب إلى ملك القرمات شن الغارة عليهم أيضا ليقعوا بين نارين فتقدم عند ذلك كبار الدولة إلى السلطان مراد في رجوعه إلى منصب السلطنة لرد العدو عن البلاد فعاد إلى المنصب وجيش جيشا عظيما وسار به لقتال الأعداء فالتقى الفريقان عند مدينة وارهنا واقتتلا قتالا عنيفا وثبتت جيوش المسيحيين أمام عسكر الترك واشتد القتال شدة بالغة وجرى الدم بين الصفوف مجرى الماء قال بعض كتاب الأخبار: وكانت العساكر المسيحية قليلة في هذه الواقعة لانفصال المحاربين من الفرنسيين والألمان عنهم بعد نصرتهم الأولى وكان لادسلاس في حومة القتال ينادى على العساكر ويحرضهم ويستنهضهم ويكر بين المواكب وصفوف الترك كأنه الأسد الضاري حتى أصابه سهم فسقط ميتا وذاع خبر موته بين جنوده ففترت هممهم وتفرق شملهم فهم مقدمهم هودياس بجميع شتاتهم والرجوع بهم إلى ساحة القتال فلم يفلح وقد أعمل فيهم الترك القتل بحد السيف فكانت قتلهم

زهة عشرة آلاف فى هذه الواقعة الهائلة على ما رواه بعض أصحاب التاريخ وعاد السلطان مراد بعد هذه الواقعة وراية النصر تخفق على رأسه وتنازل عن السلطنة ثانية لولده وعكف على العبادة فلم ترض بذلك جماعة الانكشارية وأبوا إلا عوده إلى المنصب فعاد إليه كارها ثم لم يلبث أن جيش جيشا عظيما وسار به إلى بلاد الأرنؤد ليضمها إلى مملكته وكان ممن تولى الحكم على شىء من تلك البلاد بالتوريث أمير اسمه يوحنا كاتريو فلما علم بقدم السلطان مراد بجيوشه وتحقق أن لا قبل له على رده راسله فى أمر الصلح وعاهده على دفع الجزية فأجاباه السلطان إلى ذلك وعاهده وأبقاه على ما بيده من البلاد وأخذ أولاده الأربعة رهينة عنده فاختلط ثلاثة منهم بماليك السلطان حتى صاروا لا يمتازون عنهم فى شىء والتزم رابعهم وهو أصغرهم واسمه جورج بخدمة باب السلطان وما زال حتى تقدم وارتقى المناصب العالية لشجاعته وبأسه وذكائه ثم أسلم بعد ذلك وتجرّد للغزو والجهاد وعرف باسم اسكندر بك فكانت له مواقع هائلة وحروب عظيمة فى خدمة الترك قال بعض كتاب الأخبار: ثم عاد بعد ذلك فتدم على ما فرط منه من قتال المسيحيين وارتد إلى دينه وتعصب وصار من أكبر أعداء المسلمين وأشدّ المبغضين لآل عثمان فحرض الأهالى على الخروج وشق عصا الطاعة فكان من وراء ذلك من الحوادث والخطوب ما لا محل لذكره هنا، وركب أيضا السلطان مراد على قسطنطين صاحب المورة وباقى الأقاليم المتاخمة لتلك البلاد فدوخهم وأخضعهم للملكه ورتب عليهم الجزية وجرت بسبب ذلك حروب هائلة كثيرة بينه وبين الأرنؤد والمجر ومازال يغزو ويفتح البلاد حتى أصابته سكتة فمات فى سنة خمس وخمسين وثمانمائة هجرية أى نحو سنة إحدى وخمسين وأربعمائة وألف ودفن بمدينة بورسه .

فقام بالأمر بعده ولده (السلطان محمد الثانى) بايعه أهل الدولة فى اليوم الذى مات فيه أبوه فكان سابع سلاطين آل عثمان . قال أصحاب التاريخ : وهو من أعظمهم همة وأعلامهم قدرا وكان بطلا مقداما شجاعا قوى الجنان موصوفا بالمغازى والحروب وكان أبوه السلطان مراد قد أوصاه قبل موته أن لا يغمد له سيفا ولا يطل له جهادا حتى يفتح مدينة القسطنطينية فجيش جيشا عظيما وأخذ يتأهب لحصارها وكان نظام القيصرية الرومية فى هذا الحين على شفا جرف هار بسبب المنافسات الدينية ولذلك أصبحت القيصرية فى غاية الضعف فزالت هيبتها وانحطت عظمتها فلم يبق للقيصر من السلطنة إلا مجرد الرسوم والعادات البسيطة . قال بعض كتاب الأخبار: وبلغ من خلل أحوال الامبراطورية الرومية وانحطاط قدرها أنه لما وردت

الأخبار إلى القسطنطينية بأن السلطان محمد الثانى ابتنى قلعة بوغاز كسن وكان قد ابتناها لغرض سد خليج القسطنطينية على سفن الإمبراطورية والتضييق عليها خاف الروم واضطربت أحوالهم وعقدوا للمذاكرة فى ذلك مجلسا كبيرا فى كنيسة أيا صوفية فلما اجتمعوا أخذوا يتزاحمون ويتقدم بعضهم على بعض فى الجلوس ولم يراعوا درجات بعضهم فأدى بهم ذلك إلى السباب والملاكمة وانفطرد عقد اجتماعهم ولم يعملوا عملا يذكر اهـ.

وكان الإمبراطور على القسطنطينية يومئذ قسطنطين دراغيس بن إيمانويل فأرسل إلى السلطان محمد رسلا يستعطفونه ويستميلونه إلى تقرير قاعدة للصالح فطردهم السلطان ولم يسمع كلامهم وأخذ فى التأهب والاستعداد ورسم ببناء الحصون والقلاع على شاطئ بوغاز القسطنطينية فزاد خوف قسطنطين وهاله الأمر جدا وأرسل إلى السلطان سفراء آخرين يقول على أيديهم إن ما وراء بناء هذه القلاع إلا القتال وإضرار نار الحرب فإن لم تراع ما كان بين بلادى وبلادك من العهود والمواثيق وتقرر بيننا قاعدة للصالح فذاك إليك وقد فوّضت أمرى إلى الله. فإن هداك سبحانه وعطف قلبك كان ذلك غاية المراد وإن كان قد قضى لك بفتح القسطنطينية فلا مفر مما قدره وقضاه وإلا فلا أسلم فيها وفى لسان ينطق فلما وصلت رسله وقالوا للسلطان مقالته لم يلتفت لقولهم وشدد فى بناء الحصون والقلاع وبالع فى التأهب والاستعداد فكتب قسطنطين إلى دول الفرنجة يطلب منهم المعونة والإسعاف ويستحثهم على نصرته وأقسم أنه ينجز لهم ما وعدهم به أسلافه من ضم الكنيسة الشرقية إلى الكنيسة الغربية فسر البابا بذلك سرورا عظيما وسير إليه نجدة عظيمة من طوائف الفرنجة فأغضبت فعال قسطنطين جماعة الروم لكراهم ضم كنيستهم الشرقية إلى الكنيسة الرومانية لما بين الفريقين من العداوة القديمة والشحناء المستمرة ونقموا على إمبراطورهم وتفرقوا عنه وخذلوه وفضلوا سقوط المدينة فى أيدي المسلمين على خلاصها وضم الكنيستين إلى بعضهما وقال الدوق نوتاراس كبير وزراء القسطنطينية يومئذ جهارا أحب إلى أن أرى فى هذه المدينة يريد القسطنطينية تاج السلطان محمد من أن أرى فيها إكليل لبابا ثم تخلص أكثرهم عن حماية أسوار المدينة وتفرقوا عنها فلم يبق منهم إلا نحو عشرة آلاف بين روم وفرنجة وبينما هم على هذا الحال من فتور الهمة واختلاف الكلمة وتفرق الرعية عن راعيها إذ أقبل السلطان محمد فى مائتين وستين ألف من المقاتلين وذلك فى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة وألف ميلادية أى سنة سبع وخمسين وثمانمائة هجرية ومعه عمارة حربية مؤلفة من ثلاثمائة

سفينة كبيرة فتزل بجيوشه على أسوار المدينة وحاصرها من جميع الجهات وأرسل إلى قيصر يطلب إليه أن يسلم البلد تحت شروط كلها شدة وإهانة فأبى قسطنطين وصمم على القتال جهد الاستطاعة فغضب السلطان محمد لذلك وأمر فشددوا فى الحصار وجاءت الأخبار إلى قسطنطين بعزم السلطان على الهجوم على الأسوار وأخذ المدينة عنوة فى يوم كذا فهاله الأمر جدا وجمع إليه خواصه وكبار قومه ومن كان عليهم معتمدة من الروم وشكا إليهم حاله وبالغ فى الشكوى وبكى وانتحب وعظم البلوى فبكوا جميعا لبكائه وأقسموا على الذب والدفاع واقتحام نار الوغى حتى يقضى الله أمر كان مفعولا ثم قاموا وتعانقوا وقبل بعضهم بعضا قبلة الوداع وطلبوا على الأسوار وتحصنوا فيها وكذلك فعل قسطنطين وكان لى دعوة قسطنطين وقام لتصرته على المسلمين أهالى جنوه فسيروا لتجذته عمارة بحرية ومقدمها الأمير جوستينيانى فأتى بها يريد الدخول إلى مياه القسطنطينية فعارضته السفن التركية فاقتتلوا قتالا عنيفا وانتصر جوستينيانى نصرة عظيمة فدخل المينا غامما فاستعظم السلطان هذا الأمر جدا وصمم على إدخال مراكبه إلى المينا أيضا ومحاصرة المدينة برا وبحرا. قال بعض الكتاب: وفكر كثيرا فى هذا الأمر فخطر على باله أن ينقل المراكب على البر حتى تجتاز السلاسل الحديد الموضوعة على مضيق البوغاز فمهد لذلك طريقا على البر طوله فرسخان وقيل أكثر وغطاه بالخشب وصب عليه الزيت والدهن ونقل عليه فى ليلة واحدة أكثر من سبعين سفينة. قلت: ولعل فى ذلك مبالغة، ولما حل الأجل المعهود هجم عساكر المسلمين على الأسوار هجمة الأسود وكانوا زهاء مائة وخمسين ألفا من الأبطال المشهود لهم فلقبهم الروم بقلوب مطمئنة واشتبك القتال وحمل الوطيس فخرت الأبطال من فوق الأسوار وكان قسطنطين قائما ما بين النارين ينادى على الروم بالتجلد والثبات وإعمال السيف فى أعناق الأعداء وهو يقاتل قتال الأبطال والمسلمون يندفعون على الأسوار من كل فج عميق فلما أيس قسطنطين من الظفر وأيقن بالغلبة وسقوط المدينة فى أيدي المسلمين نزع عنه أسلحته المذهبة وألقى بنفسه بين صفوف المسلمين فقطعوه بحد السيف ولم يعلموا من هو فلما شاع بين من بقى على الأسوار من الروم خبر موت قسطنطين انقضوا فظفر بهم المسلمون وتغلبوا على الأسوار وأخذوها ثم اقتحموا المدينة وأعملوا فى أهلها السيف ودخلوا كنيسة القديسة صوفية وقد كان فيها بطرق القسطنطينية يصلى وحوله خلق عظيم وقتلوا من فيها بحد السيف ولم يبقوا على أحد ونهبوا وأسروا وأحرقوا وخرّبوا ما فى المدينة من الأبنية العظيمة والآثار

الفاخرة وأحرقوا جميع مكاتبها فكان عدد ما أكلته نار الحريق منها مائة ألف مجلد وعشرين ألفاً.

ورأى السلطان محمد من أبنية القسطنطينية ومراسمها ومنتزهاتها ما حجب إليه نقل كرسى مملكته إليها فترح الروم عنها فراراً من الترك وكادت تخلو من السكان فرسم لكل من عاد إليها من الروم أن يبقى على دينه وعاداته ولا يتعرض له أحد بسوء فلم يأت إليها إلا القليل بل كثر النازحون منها لاسيما بعد إقامة الأذان والصلاة في كنيسة أيا صوفية وتبديل حالها فهال السلطان هذا الأمر واستعظمه وأتى إليها بكثير من أهل القرى والضواحي ثم أقام للروم بطركاً ليجتمعوا حوله وسلم له عصا البطريركية وخاتمها كما كانت تفعل القياصرة في سالف الأزمان وقسم ما في المدينة من الكنائس بين النصارى والمسلمين وجعل لكل فريق منهم حداً لا يتعداه وفرض على النصارى قدراً من المال يقومون به إلى الخزينة السلطانية في كل عام. قال بعض كتاب الأخبار: وبقي الحال على ذلك زهاء ستين سنة حتى جاء السلطان سليم الأول ففسخه وسيرهم على ما أراد.

(مطلب)

قيام البابا كالستوس الثالث وحثه المسيحيين على قتال السلطان محمد

ولما استقامت للسلطان محمد الأمور بعد فتح القسطنطينية عمداً إلى فتح جزيرة رودس فسير إلى أهلها يتهدهم ويطلب منهم الجزية وكان عظيمهم يومئذ يوحنا دولستيك فأرسل إليه يوحنا يقول: كف عنا فوالله إن فرسان رودس لم يأخذوها إلا بسيفهم ومعونة الله سبحانه وتعالى ولم تطأ أرجلهم أرضاً بعناية أحد من ملوك الأرض فلن نسلم لك فيها وفيها ومق، وعرض للسلطان محمد بعد ذلك ما شغله عنها فوجه عنايته إلى فتح الصرب فسار إليها في جيش عظيم وتوغل في جوفها فقام عند ذلك البابا كالستوس الثالث يستنهض جميع ملوك المسيحية على قتال المسلمين ويحضهم على استخلاص البلاد من أيديهم ويحثهم على الجهاد في سبيل الله وجاءت الأخبار بذلك إلى السلطان محمد فسار في مائة ألف وخمسين ألفاً من الجند المدربة وحاصر مدينة بلغراد وضيق عليها براً وبحراً حتى كادت تسقط في يديه وطارت الأخبار بذلك إلى الآفاق فأخذت حمية الدين أحد رهبان القديس فرنسيس

فطاف يحث النصرارى ويحضهم على الجهاد واستخلاص بلغراد من أيدي المسلمين وأكثر من التطواف والحض والمناداة فاجتمع حوله رهاء أربعين ألفا من الجنود النمساوية فسار بهم إلى القائد هونيادس الشهير قائد الجيوش المجرية وجعله المقدم عليهم فسار بهم هونيادس وقاتل السلطان محمد قتالا عنيفا للغاية فانتصر عليه وأتلف سفنه الحربية وأغرق أكثرها فلبث السلطان محمد يهاجم المدينة أربعين يوما فلم ينل منها ورجع بمن بقى من عسكره وقد مات منهم خلق عظيم وأصابته هونيادس قائد العساكر المسيحية بعد نصرته جراحات بليغة فاعتل ومات بها بعد انسحاب السلطان محمد بعسكره فلما علم السلطان بموته فرح وسير وزيره محمد باشا إلى فتحها فحاصرها ولبث يقاتل عليها ستة ونصف سنة حتى تم له النصر وسقطت في يده فخسرت بذلك استقلالها وأصبح حكمها حكم بقية المدن التى وقعت فى قبضة العثمانيين.

(مطلب)

زحف السلطان محمد على ولاية أثينا وما كان من وراء ذلك

ولما كانت سنة إحدى وستين وثمانمائة هجرية أى نحو سنة ست وخمسين وأربعمائة وألف ميلادية زحف السلطان محمد على ولاية أثينا وفتحها بعد حروب هائلة وضمها إلى أملاكه واتفق فى هذه الأثناء أن وقع الخلاف ما بين الملك توما والملك ديمتريوس باليولوغوس أخى قيصر الروم بشأن مملكة المورة التى كانا يحكمانها بالاشتراك معا ويدفعان عنها الخراج للسلطان محمد واشتد بينهما الخصام واستفحل أمره فقامت الحرب بينهما على ساق فظفر توما بدمتريوس وهزمه فاستنجد دمتريوس بالسلطان محمد وطلب منه المدد وروجه بابته ليستميله إليه فلبى لذلك دعوته وأنجده على توما وسير إليه جيشاً ضخماً فهرب توما بعد انهزامه شر هزيمة وخللا الجو لدمتريوس فجعل يتصرف فى الأمور ولكن لم تكد تستقر به الراحة بعد تلك الحروب الهائلة حتى داخل السلطان الطمع ومالت نفسه إلى ضم مملكة دمتريوس إلى بلاده فركب على دمتريوس بخيله ورجله وقبض عليه ونفاه إلى إحدى الديارات واستولى على بلاد المورة إلا بعض الحصون التى كان سليمها توما إلى البابا وأهل البندقية قبل فراره من وجه دمتريوس ، ولم تأت سنة سبع وستين وثمانمائة هجرية أى سنة إحدى وستين وأربعمائة وألف ميلادية إلا وقد زالت آثار السلطنة

المشرقية العظيمة ولم يبق منها سوى مملكة طرابزون فعمد السلطان محمد فى تلك السنة إلى أخذها وضمها إلى مملكته وجيش جيشا وسار به إليها وقتلها حتى أخضعها لحكمه ودخلت فى عداد ممالكه ثم سار منها فأخذ ولاية سنوب وجاء بصاحبها داود كومومين أسيرا إلى القسطنطينية ومثل به شر تمثيل ثم أمر فقتلوه صبيرا وكان قد اتهمه بمكاتبة ملك فارس والتألب معه وقتل كذلك أولاده بين يديه وكانوا ثمانية وعاد إلى القسطنطينية ظافرا غنائما، ثم جيش بعد قليل جيشا عظيما وسار به لقتال أمير الفلاخ وكان سبب ذلك تعدى بعض أهالى الفلاخ على جماعة من التجار العثمانية النازلين هناك فلما علم صاحب الفلاخ بحضوره أرسل إليه رسلا فى طلب الصلح وقيامه بدفع جزية فى كل سنة قدرها عشرة آلاف دوكا وأن يصادق على جميع الشروط التى تقرر فى معاهدة سنة ست وتسعين وسبع مائة هجرية أى سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة والى ميلادية ما بين السلطان بايزيد وأمير الفلاخ يومئذ فقبل السلطان محمد الثانى بذلك وانسحب بجميع جيوشه وكان هذا القول من أمير الفلاخ خدعة ليتمكن من عقد محالفة مع ملك المجر على قتال الترك فلما تم له ما أراد وعلم السلطان بالخبر سير إليه رسولين يسألانه فى ذلك فقبض عليهما وقتلهما ثم لم يلبث أن رحف فى جيش عظيم وأغار على بلاد بلغاريا التى هى من أملاك آل عثمان فعاث فيها وأفسد وخرب وأحرق وعاد بخمس وعشرين ألف أسير فسير إلى السلطان رسلا فى طلب فك الأسرى والرجوع إلى الطاعة وعدم مخالفة العهد فلما مثلوا بين يديه قيل إنه أمرهم بخلع عنائمهم عن رؤوسهم إجلالا له وتعظيما فأبوا ذلك فأمر بأن تسم عنائمهم على رؤوسهم بمسامير من حديد ففعلوا بهم ذلك وهم بين يديه وجاءت الاخبار إلى السلطان بما وقع لرساله فكاد يتميز غيظا ونادى فى جنده بالتأهب ثم خرج فى مائة ألف لقتال أمير الفلاخ ومازال حتى اخترق جوف بلاده ووصل إلى مدينة بخارست عاصمة مملكته بعد أن هزمه شر هزيمة ومزق شمل عسكره فهرب صاحب الفلاخ ونزل على ملك المجر مستجيرا فنادى السلطان محمد بخلعه من منصب الإمارة وأقام أخاه راوول مكانه وكان راوول هذا قد تربى فى حضانة السلطان محمد وللسلطان به ثقة فصارت بذلك بلاد الفلاخ تابعة لأملاك السلطنة العثمانية.

وركب فى سنة سبع وستين وثمانمائة هجرية أى سنة اثنتين وستين وأربعمائة وألف ميلادية على البوسنا لامتناع أميرها عن دفع الجزية فحاربه وانتصر عليه وقتله هو وولده بعد قتال عنيف للغاية فدانت له بقتله جميع بلاد البشناق وكبر الأمر على

صاحب المجر فهم باستخلاص البوسنا من أيدي العثمانيين وخرج في عسكر عظيم فركب عليه السلطان في جيش جرار وهزمه وفرق شمل عساكره فعاد خائباً وشدد السلطان على أهل البوسنا فسلبهم جميع ما كان لهم من الامتيازات والحقوق وأدخل في البصوف الانكشارية زهاء ثلاثين ألفاً من شبان البوسنا وشدد على كبار أهلها وأشرفهم فتدين أكثرهم بالدين الإسلامي وصارت البلاد ولاية كبقية الولايات الداخلة في حكم آل عثمان، ولما كانت سنة ثمان وستين وثمانمائة هجرية أى سنة ثلاث وستين وأربعمائة وألف ميلاديه ابتدأ الخلاف بين العثمانيين وأهل البنادقة وكان سبب هذا الخلاف أن عظيمًا من العثمانيين هرب إلى ناحية كورون التابعة للبنادقة فطلب فلم يسلّموا فيه وامتنعوا وقالوا إنه تنصر واعتنق الدين المسيحي فلا يحل اعتباره عبداً رقيقاً وكان في نفس السلطان أن يشن الغارة على جميع أعمال البندقية ويضمها إلى أملاكه فاتخذ ذلك حجة للقتال وجيش جيشاً عظيماً وسار به في سنة خمس وسبعين وثمانمائة هجرية ونزل على جزيرة اغريوز المعروفة أيضاً بارجوس يريد قتالها فقاتله أهلها قتالاً عنيفاً وأرسلوا يستجدون حكومتهم فسيرت لنجدتهم عمارة عظيمة فوصلت إلى بلاد المورة وأنزلت البر من بها من الجنود والمقاتلة فتقوت بهم عزائم سكانها وثاروا معهم على من كان عندهم من عسكر السلطان فأجلوهم عن البلاد ثم رموا ماكان تهدم من أسوار برزخ كورنشيه وحاصروا مدينة كورنشيه واستخلصوا مدينة اغريوز فاستعظم السلطان هذا الأمر وأكبره جداً وزحف في زهاء ثمانين ألفاً فخاف أهل البندقية وسقط في أيديهم وتركوا البرزخ المذكور ورجعوا القهقري فوصل السلطان بعسكره ودخل البلاد بعد قتال خفيف واسترجع كل ما أخذوه وأرجع الأمور إلى سابق مجراها.

واشتد بغض أمم أوروبا للعثمانيين وكرهوا جوارهم فقام البابا بيوس الثاني يدعو المسيحيين إلى قتال المسلمين ويستحثهم على نصره الدين ومحو آثار العثمانيين من قارة أوروبا وأكثر أتباعه من النداء والتحريض فهاجت الخواطر وامتألت القلوب بغضا فقام صاحب ألبانيا بعسكر جرار وشن الغارة على المملكة العثمانية وقاتل العثمانيين قتالاً الأبطال فخرّب وأحرق وأهلك الحرث والنسل وأراق الدماء الكثيرة ومازال يقاتل حتى أدركته المنية فمات سنة ثمان وستين وثمانمائة هجرية حتف أنفه وقد كان من أشد خصوم العثمانيين وألد أعداء سلاطين آل عثمان فحاربهم خمساً

وعشرين سنة لا يغمد له فيها سيف ولا يثنى له عزم ولم يقو السلطان محمد على قمعه وإدخاله تحت الطاعة .

(مطلب)

فيما أصاب عسكر السلطان في بلاد البغدان وفي هزيمتهم

وسير السلطان بعد ذلك بقليل عمارة حربية لفتح مينا آق كرمان ففتحتها وأقلعت السفن تريد مصاب نهر الدانوب لإعادة الكرة على بلاد البغدان وأخذها فلاقته العساكر البغدانية وفي مقدمها الأمير اصطفن الرابع صاحب البغدان عند نهر الدنواب فاجتاز السلطان النهر فلم تقف أمامه عساكر اصطفن وتقهقروا خديعة ومكرا ولم يقاتلوا السلطان فتبعهم السلطان بعساكره وساق خلفهم بخيله ورجله حتى دخلوا في غابة كثيفة للغاية لا تعرف مفاوزها فلم يمهلهم اصطفن المذكور حتى انقض عليهم بعسكره وقهرهم وأعمل فيهم القتل بحد السيف ففر السلطان ونجا وتمزق شمل من بقى من عسكره وانتصر اصطفن في هذه الموقعة نصرة عظيمة وكان ذلك في سنة إحدى وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة ست وسبعين وأربعمائة ألف ميلادية ففرح المسيحيون بنصرة اصطفن فرحا عظيما وسير إلى الباب رسولا يهتته بالنصر ويقول له إن البابا قد سماه من هذا اليوم بطل النصرانية وحامى حى الديانة المسيحية .

(مطلب)

حصار سفن السلطان لرودس والرجوع عنها

وجهاز في سنة خمس وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة ثمانين وأربعمائة ألف ميلادية عمارة أخرى عظيمة وعليها مائة ألف مقاتل وشيء كثير من الذخيرة ومعدات الحرب وسيرها مع ميشطس باشا أحد العائلة الباليولوجية الإمبراطورية الرومية وكان قد اعتنق الدين الإسلامى بعد فتح القسطنطينية فسار بها إلى جزيرة رودس وحاصرها وضيق عليها وأقام تحت أسوارها تسعين يوما فلم يئل منها فجاءه الأمر بالارتحال عنها فارتحل ولم يقدر الله للسلطان محمد قتالها بعد ذلك . قال

أصحاب التاريخ: ولما وصلت عمارة السلطان محمد إلى جزيرة رودس كان صاحبها قد تمكن من إبرام صلح مع سلطان مصر وبأى تونس بعد أن وقعت الحرب بينهما وبينه أياما كثيرة ليتفرغ بذلك إلى دفع غارات العثمانيين عن الجزيرة التى هى مقر رهبنة القديس يوحنا الأروشليمى فحاصرتها عمارة السلطان محمد حصارا تاما ومنعت عنها المدد وضيق عليها من كل جانب ووالث الرمى عليها بالمكاحل فكان أهلها يصلحون فى الليل ما تخزبه المدافع من أسوارها فى النهار فطال حصارها تسعين يوما وفى كل يوم يهجم العثمانيون على الأسوار فلم تنل منها وقد قتل منهم خلق كثير للغاية فلم يبق إلا القليل وجاء مرسوم السلطان برفع الحصار والارتحال عنها فارتحلوا.

(مطلب)

وفاة السلطان محمد وولاية ابنه بايزيد

ومازال السلطان محمد على قدم الغزو والجهاد لا ينكف عن القتال وتدوين البلاد حتى أدركته المنية وهو سائر بعسكر جرار لقتال ملك فارس مات فى مدينة أرنكميد فى سنة ست وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة وألف ميلادية فى سلخ ربيع الأول وله من العمر ثلاث وخمسون سنة فكانت مدة سلطته إحدى وثلاثين سنة.

قال أصحاب التاريخ : وله الفعال الماثورة فى داخل بلاده فهو الذى دعا الحكومة العثمانية بالباب العالى وقسم هيئتها إلى أربعة أقسام وهى الوزير وقاضى عسكر والدفتردار والنيشانجى أى كاتب سر السلطان ورتب وظائف الجند على أسلوب جديد فجعل لطائفة الانكشارية كبرا سماء الأغا وسلمه حراسة القسطنطينية وضبط أحوالها الداخلية وآخر لأصحاب المكاحل وآخر لما تحتاجه الجيوش من الذخيرة والمونة ومعدات الحرب واهتم بترتيب وظائف القضاء وسن القوانين النظامية المناسبة للزمان والمكان، وأعقب ولدين وهما بايزيد وجم فبايع الناس بايزيد بالسلطنة فى اليوم الذى مات فيه أبوه وهو الرابع من ربيع الأول سنة ست وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة وألف ميلادية وطبروا الخبر بذلك إلى الآفاق فأخذت له البيعة العامة فى خلال سنة ست وثمانين هجرية وكان سلطانا جليل القدر عالما شاعرا ليبياً مواظبا على العلم حسن السيرة. قال أصحاب التاريخ:

لما مات السلطان أبو الفتح محمد وكان أكبر أولاده بايزيد وولى عهده من بعده مقيماً باماسيا يحكمها من قبل أبيه أخفى الوزير قرمانى محمد باشا خبر موت السلطان حتى يأتى ابنه بايزيد المذكور ولكنه لما كان بينه وبين أصغر أولاد السلطان مودة ومحبة أكيدة وكان يفضل على بقية إخوته سير إليه سرّاً من يعلمه بخبر موت أبيه ويستقدمه على عجل ليسلمه مقاليد السلطنة قبل أخيه بايزيد فشاع خبر ذلك بين الناس وعلم به جماعة الانكشارية فشاروا على الوزير وقتلوه وعاثوا يومئذ فى المدينة وأفسدوا وقتلوا ونهبوا وولوا الأمير كركود ابن السلطان بايزيد السلطنة مكان أبيه حتى يأتى أبوه فلما كان الثالث عشر من ربيع الأول وصل الرسول إلى بايزيد وأعلمه بخبر موت أبيه فركب فى اليوم الثانى فى أربعة آلاف وسار مجدداً فدخل مدينة القسطنطينية بعد مسير مائة فرسخ وستين فرسخاً فى تسعة أيام فخرج أمراء الدولة وكبارها وأعيانها للقاءه ودخل المدينة فى أبهة وجلالة عظيمة للغاية وأخذ فى مباشرة الأمور. أما الأمير جم فإنه لما وصل إليه الخبر بموت أبيه ركب من فورهِ فى جماعة من أصحابه وسار قاصداً مدينة بروسه فمانعه من دخولها من كان بها من المرابطين فقاتلهم بمن معه وانتصر عليهم نصرة عظيمة ودخلها غنوة وأقام بها ولم يستقر به المقام حتى جاءه أخوه السلطان بايزيد فى جيش عظيم وقاتله وقهره وساق خلفه بخيله ورجله حتى أوصله إلى تخوم ديار مصر فلما رجع ظافراً منصوراً سأل الانكشارية أن يبيح لهم بروسه ليتقموا منها فلم يوافقهم على ذلك ولكنه خاف عاقبة أمرهم فأقطع كل رجل منهم قرشين.

وأقام جم بمصر ما شاء ثم عاد إلى حلب واتحد مع الأمير قاسم بك آخر سلالة أمراء القرمان على قتال أخيه بايزيد فلم ينالا شيئاً فراسل أخاه فى طلب الصلح بشرط أن يقطعه بعض الولايات ليقيم بها فلم يقبل بايزيد منه ذلك فخاف جم العاقبة وسار إلى جزيرة رودس وطلب إلى رئيس رهبنة القديس يوحنا الأورشليمى أن يساعده على أخيه بايزيد فقبله عنده وأنزله منزلاً رحباً فجاءت وفود السلطان بايزيد إلى رئيس الرهبنة وكلموه فى أمر جم المذكور وأنه إن بقى عندهم بالجزيرة تحت الحفظ تعهد لهم السلطان بعدم من استقلال جزيرتهم مدة حياته وأن يتحمل لهم فى كل ستة مبلغاً من المال قدره خمسة وأربعون ألف دوكا فقبل الرئيس ذلك ووفى بالوعد فلم يمكن جمّاً من الخروج ولم يسمح له بالذهاب إلى ملك المجر ولا إمبراطور الألمان وقد كان كل منهما يطلبه ليتخذه واسطة لتذليل السلطان بايزيد وإذهاب هيئته وسيره إلى مدينة نيس ليبقى بها محجوراً عليه لا يفارقها ثم نقله إلى

شمبرى وجعل بعد ذلك يتقل من بلد إلى آخر من بلدان فرنسا زهاء سبع سنوات فلما كانت سنة خمس وتسعين وثمانمائة هجرية بعثه رئيس رهبنة القديس يوحنا إلى البابا توسان الثامن ليقبى عنده فراسل البابا السلطان بايزيد فى أمره وطلب إليه أن يبعث بالمال الذى كان يحمل فى كل سنة إلى رئيس رهبنة القديس يوحنا فأجابه السلطان إلى ما طلب وظل الأمر على ذلك حتى مات البابا توسان وقام بعده البابا إسكندر بورجا واشتغل السلطان بايزيد بما جاءه من أخبار إغارات شارل الثامن ملك الفرنسيس على بلاد إيطاليا وعقده النية على فتح القسطنطينية وقد اشتدت رغبة شارل فى ذلك فبعث البعوث إلى بلاد مقدونية واليونان لإضرام نار الفتنة والخروج على السلطان بايزيد فلما علم ملك نابولى وجمهورية البنادقة بما ينويه شارل خافوا من تعاضم شأن دولة الفرنسيس واستفحال أمرها وأرسلوا إلى السلطان بايزيد يحذرونه شر العاقبة ويحثونه على الأخذ بأسباب التأنى والحزامة وأن يسير إلى بلاد إيطاليا طائفة من عسكره ليصد بها جيوش ملك الفرنسيس فأحس شارل بذلك وأكبره فسار إلى مدينة رومة وحاصرها وضيق عليها من كل جانب وطلب من البابا إسكندر أن يسلمه چما أخوا السلطان بايزيد فلم يردا من تسليمه فسار چم مع جيوش الفرنسيس حيث ساروا حتى أدركته المنية فى مدينة نابولى فدفنوه فى بلدة من بلاد إيطاليا ثم نقل إلى مقابر أجداده بمدينة بروسه .

(مطلب)

وتاقت نفس السلطان بايزيد إلى فتح الديار المصرية

وتاقت نفس السلطان بايزيد إلى فتح الديار المصرية وضمها إلى أملاكه فسار فى جيش عظيم لقتال سلطانها فالتقىا جهة القرمان واقتتلا قتالاً شديداً فلم يفلح السلطان بايزيد وراسلها يابى تونس بالكف عن القتال بدعوى أنه لا يصح قيام الحرب بين ملكين مسلمين فتقررت بين الفريقين قاعدة للصلح وعاد السلطان بايزيد بعسكره وعادت كذلك العساكر المصرية وبينما هو يغزو ويحارب ويفتح المدن والأمصار والتوفيق ملازمه إذ قامت الفتنة داخل بلاده بخروج اثنين من أولاده عن طاعته وإضرارهم نار الحرب . قال بعض كتاب الأخبار : وقد كان له ثمانية أولاد

ذكور مات منهم خمسة فى حادثتهم وعاش ثلاثة وهم كركود وأحمد وسليم وكان كركود مولعاً بالعلوم والآداب ميالاً لمخالطة العلماء والأدباء فكانت العساكر لا تميل إليه لهذا السبب وكان الثانى عاقلاً رزيناً محبوباً من الأمراء والأعيان موقراً عند كبير الوزراء مكرماً وكان الثالث ميالاً للغزوات والحروب فكانت طوائف الجنود والانكشارية تحبه وتجتمع عند كلمته ولذلك ولى السلطان بايزيد كلا منهم منصباً يليق بحاله فولى الأمير كركود إحدى الولايات البعيدة وولى الأمير أحمد ولاية اماسيا وولى الأمير سليماً ولاية طرابزون فلم يقبل الأمير سليم هذا المنصب واستصغره وسار من طرابزون إلى كافا وسير منها رسلاً إلى أبيه يطلب إعطاءه إحدى الولايات الكبرى من مملكته التى فى أوروبا فاستعظم السلطان ذلك وأكبره ولم يجبه إلى ما طلب وردّ الرسل كما حضروا فكبر الأمر على الأمير سليم وركب فى جيش من التتار وسار لقتال أبيه فأرسل أبوه كذلك جيشاً لإرهابه فلم يرعو واشتد فى التأهب والاستعداد لإضرام نار الوغى فخشى السلطان شر العاقبة وأجابه إلى ما طلب وعقد له الولاية على مدينتى ودين وسمندرية فداخل نفس الأمير كركود من ذلك ما داخلها وأغار على ولاية صاروخان وجعلها له مقراً حتى لا يكون بعيداً عن تخت مملكة أبيه عند الحاجة.

(مطلب)

خروج الأمير سليم على أبيه السلطان بايزيد فى طلب الملك

ولم يستقر بالأمير سليم المقام فى سمندرية حتى تآقت نفسه إلى ارتقاء منصب السلطنة والانفراد بالملك فسار من سمندرية فى جيش إلى أدرنه واستقر بها ونادى بسلطته عليها وطير الأخبار بذلك إلى الآفاق فلما وصل الخبر إلى السلطان بايزيد هاله جداً وأغضبه فسير جيشاً لإخضاع الأمير سليم وإرجاعه إلى الطاعة فيقاتله فانتصرت عساكر السلطان بايزيد وفر الأمير سليم إلى بلاد القرم واختفى وتفرق من كان معه من العساكر والأحزاب، ولما تم للسلطان بايزيد النصر على ابنه سليم سير جيشاً آخر لقتال ولده كركود بصاروخان فخرج كركود لقتال عسكر أبيه فالتقى الجمعان واقتتلا فانهزم أصحاب كركود شر هزيمة واختفى كركود حتى كان من أمره

ما سيذكر في محله. ولم يكذب يتم الظفر للسلطان حتى قامت طوائف الانكشارية على قدم وساق وسألوه العفو عن ولده سليم وإرجاعه إلى ولاية سمندرية فطاولهم فأكثروا من الإلحاح وشددوا وأرهبوا وهددوا ومازالوا حتى أجابهم السلطان إلى ما طلبوا وسير إلى الأمير سليم فرمان الرضا والولاية على سمندرية كما كان فظهر الأمير سليم عند ذلك من مخبئة وسار في نفر يريد سمندرية فخرج للقاءه جماعة من الانكشارية وساروا في ركابه وعرجوا به إلى القسطنطينية ودخلوها في كبكة وضجة زائدة ومازالوا على ما هم عليه من الجلبة والصياح حتى صاروا تحت قصر السلطان بايزيد وسيروا إليه جماعة يطلبون إليه خلع نفسه والتنازل لولده الأمير سليم عن الملك وأكثروا من النداء والصياح وشددوا في الطلب فاجتمع الناس وكثر الزحام وعلت الضوضاء وعم الخوف سائر من في المدينة واشتد الهرج فخاف السلطان بايزيد شر العاقبة وأجابهم إلى ما طلبوا وخلع نفسه في اليوم الثامن من صفر سنة ثمان عشرة وتسعمائة هجرية أي سنة اثنتي عشرة وخمسمائة وألف ميلادية وله من العمر يومئذ سبع وستون سنة.

وفي رواية أنه لما قامت الفتنة في داخلية البلاد بخروج اثنين من أولاده عن طاعته أمر بقتلهما فقتلا فكثرت لذلك القلاقل وعلت كلمة الانكشارية فعاهدوا الأمير سليما بالملك وكلموه في أمر السلطنة فاجتاز بوغاز القسطنطينية لاستخلاص الملك من أبيه فحاربه أبوه وهزمه فهرب إلى بلاد القرم وأقام بها ثم قصد القسطنطينية ثانية في جيش وجرى بينه وبين أبيه وقائع كثيرة فلما اشتد الحال بالسلطان بايزيد خلع نفسه من السلطنة وعهد بها إلى ابنه سليم المذكور وسار إلى أدرة فدرس له ابنه من سقاء السم خوفاً من رجوعه إلى دست السلطنة فلما مات بايعوا بعده السلطان سليماً البيعة العامة واستقرت به السلطنة فقبض على أخويه أحمد وكركود وقتلها ومثل بهما ليخلو له الجو ثم سار لقتال ملك فارس ثم كان ما كان من انتشاب الحرب بينه وبين السلطان قانصوه الغوري صاحب مصر وتغلغله بعساكره في داخل البلاد حتى وطئت خيله القاهرة وتصرفه في الأمور بعد أن بدد شمل عساكر الملك الأشرف طومان باي وظنه موت الأشرف مع من قتل من الأمراء والأجناد والممالك في الواقعة التي حصلت عند الريدانية كما مر بك بيان هذا كله في محله.



(المقالة التاسعة وفيها فصول)

(الفصل الأول)

(فيما جرى بعد دخول السلطان سليم القاهرة)

وفى سلطنته على ديار مصر ولبسه شعار الخلافة)

لما استقر بالسلطان سليم المقام بالقاهرة بعد انتصاره على السلطان الملك الأشرف طومان باى ومن معه من كبار الأمراء والماليك وتبديد شملهم وإعمال السيف فيمن بقى منهم ظن موت السلطان الملك الأشرف وأن قد دانت له البلاد فعمد إلى ترتيب الأمور وتقرير قواعدها ورسم فى يوم الثلاثاء رابع المحرم افتتاح سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة هجرية بتقليد بعض أصحابه المناصب العالية وأمر ونهى وقضى يومه هذا فى أنس وصفاء وهو لا يعتقد إلا هلاك الأشرف ، فما أذن لوقت العشاء من ليلة الأربعاء حتى أطبقت عساكر الأشرف على السلطان سليم من كل جانب والأشرف ينادى فيهم بالحمل وإعمال السيف وأن لا يبقوا أحداً فاندفعت عساكر الأشرف على عساكر السلطان اندفاع الوحوش الضواري وأعملوا فيهم السيف وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأحرقوا بعض خيامهم ويحثوا عن السلطان سليم فلم يقفوا له على أثر من شدة الظلام وهرع العامة وعياق بولاق من التوتية وغيرهم وأحاطوا بخيام عسكر السلطان وصاروا يرجمون بالمقالع وفيها الحجارة وكثر الصياح وعلت الأصوات واشتدت الجلبة واستمروا على هذا الحال الليل كله حتى مطلع الفجر فتمزق عساكر السلطان سليم كل ممزق وتفرقوا فى الشوارع والحارات يريدون النجاة وذهب فريق منهم إلى ناحية النصرية فلاقاهم الأمير عيلان الدوادر الكبير عند الميدان وقاتلهم

قتالاً عنيفاً ومازال حتى استرد منهم الطريق من رأس الجزيرة الوسطى إلى قنطرة باب البحر وإلى قنطرة قديدار واستمر القتال بين الفريقين من مطلع الفجر إلى ما بعد الغروب واشتدت عزائم الجراكسة وقويت قلوبهم فأفحشوا في قتل العثمانيين وأخرجوهم من جميع الأماكن التي كانوا مخفّين بها وجعلوا يحتزون رؤوسهم كما فعلوا بهم عند الريدانية وكانوا يأتون بالرؤوس بين يدي السلطان الملك الأشرف وهو يستحث المماليك على القتال والأخذ بالثار وأصبحوا يوم الأربعاء الخامس من المحرم والقتال قائم على ساق بين الفريقين والمناداة من السلطان الملك الأشرف متواصلة بالقبض على كل من يجدونه من عساكر السلطان سليم فجدا الناس كافة في طلبهم والقبض على من يجدونه منهم فكان يوماً شره مستطيراً، ورتب السلطان سليم من بقى من عسكره ونادى فيهم بالقتال فقويت قلوبهم وصدموا المماليك عند بولاق وجزيرة الفيل صدمة قوية للغاية فأجلوهم عنها وأخذوهم وهجموا على زاوية الشيخ عماد الدين بالنصرية وقبضوا على من كان بها من المماليك الشراكسة وأحرقوا البيوت التي حول الزاوية وقتلوا جماعة كثيرة من العامة والنساء والأطفال والشيخ وأجلوا من بقى من المماليك عن النصرية فتوجهوا إلى قناطر السباع ونزل الأشرف طومان باي إلى جامع شيخون بالصليبة وأخذ يجمع من تفرق من عسكره ثم رسم بحفر خندق في راس الصليبة وآخر عند قناطر السباع وآخر عن راس الرملة وآخر عند جامع ابن طولون وآخر عند جزيرة البقر ورسم بإحراق خان الخليلي فمنعه بعض الأمراء من ذلك ثم قسم عساكره إلى أربع طوائف. طائفة تقاتل عند قناطر السباع وطائفة عند الرملة وطائفة عند جامع ابن طولون وطائفة عند راس الصليبة ولكن قد كان الخوف استولى على قلوب عساكره ففترت همهم وكبر خوفهم لمثابرة عسكر السلطان سليم على القتال وكان القتلى من الفريقين مطروحين في الطرق من بولاق إلى قنطرة السباع وإلى الرملة وإلى تحت قلعة الجبل وبقي الحال على هذا الوصف إلى يوم السبت ثامن المحرم فلم يشعر السلطان الملك الأشرف إلا وقد اختفى من بقى من أصحابه ولم يبق معه في ساحة القتال إلا بعض العبيد الرماة والمماليك السلطانية وقليل من الأمراء فلما رأى أنه مأخوذ لا محالة ترك القتال وهرب إلى بركة الحبش وشاع الخبر بفراره فانقض عسكر السلطان سليم على الصليبة وأحرقوا جميع البيوت التي حولها من درب ابن عبد العزيز وقتلوا كثيراً من العامة وأفحشوا في القتل والنهب والإحراق وعاثوا في البيوت والمساجد والأضرحة سعيّاً

وراء الممالك فمن وجدوه منهم ضربوا عنقه فى الحال وفعلوا بالجامع الأزهر ما لا يحسن وكذلك فعلوا بجامع الحاكم وجامع ابن طولون وغيرهما من الجوامع فكانت الكلاب من كثرة الرمم تنهش فيها نهشاً وتمزقها تمزيقاً وكان المنظر مدهشاً مريعاً جداً والناس فى شغل عن دفن تلك الجثث لانتشار عسكر السلطان سليم فى الحارات وقتلهم كل من يجدونه فى طريقهم.

ورسم السلطان سليم بالمناذاة فى العسكر بالكف عن القتل وإراقة الدماء فانكفوا وعاد السلطان إلى خيمته فى الجزيرة الوسطى واشتغل الناس بدفن الموتى فكانوا لا يكادون يميزون بعضهم عن بعض وانتشر البكاء والعيول فى مصر والقاهرة وقامت المآتم ببعض البيوتات الكبيرة فكان الخطب عظيماً والمصاب شديداً. وأخذ السلطان سليم بمشورة أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله العباسى وعمل بقوله فظهرت كلمة الخليفة يومئذ وعظمت شوكة ووقفت فى دهليزه الأمراء من المقدمين وأمرء الطبلخانات والعشروات فرأى من عسكر السلطان سليم وكذلك المخدرات من النساء وأصحاب البيوتات العالية ونزلت عنده خونده ابنة الأمير آق بردى زوجة السلطان الملك الأشرف طومان باى وقد فرض عليها السلطان سليم مبلغاً من المال غرامة فلم تقدر على وفائه واستغاثت بالخليفة على استرضاء السلطان فأخذ يتلطف به حتى تجاوز عن شئ منه وألزمته بإبقاء الباقي ومازال الحال فى شدة والناس فى خوف ما عليه من مزيد حتى يوم الثلاثاء حادى عشر المحرم نادى منادى السلطان سليم بالأمان لجميع من بقى من الأمراء المقدمين وأمرء الطبلخانات وأمرء العشروات والمباشرين وأصحاب الوظائف الديوانية فخرجوا من مخبئهم وأتوا إلى معسكر السلطان فأمنهم ورسم لهم بالذهاب إلى مدرسة الغورى فلما اجتمعوا بها جاءت طائفة من العساكر العثمانية وأحاطت بالمدرسة فتخوف الأمراء من ذلك وظنوا الغدر بهم ثم رسم لهم بعد أيام بالصعود إلى قلعة الجبل فصعدوا إليها والجند تحرسهم فأقاموا بها تحت طلب السلطان فلما كان يوم الخميس عشرين المحرم صعد السلطان إلى القلعة فى موكب حافل للغاية وأمامه الجنائب والطبول والزمر وطوائف الجند من الممالك الذين كانوا مع خير بيك والغزالي والعساكر العثمانية ومرّ من الصليبة فانطلق العامة بالدعاء له.

ولما استقر به المقام رتب من قومه كشافا على الغربية والشرقية ونظر فى بعض المهمات من الأمور وقيد بعض المأمورين بمساحة الشرقية وكشف ما فيها من

أقطاعات الممالك الشراكسة وغير ذلك من الرزق والأوقاف وكذلك فعل بالغربية والمحلة وجميع الجهات القبلية واحتجب عن الناس بالقلعة ولم يجلس على الدكة السلطانية للنظر فى الظلامات كما كانت تفعل ملوك مصر وسلطانها قبله. وبينما هو على هذا الحال إذ جاءت الأخبار من الأقاليم القبلية بظهور السلطان الملك الأشرف طومان باى ومعه جموع كثيرة من الممالك والغلمان السود والعربان والعامه والكثير من الخيل والدواب والأسلحة وأنه عازم على المجئ إلى القاهرة ليقاتل السلطان سليماً ويجليه عن البلاد وشاع هذا الخبر بين الناس وتأكد بوصول مكاتبه من الأشرف إلى السلطان يقول له فيها:

وبعد فإن شئت أن أجعل الخطبة باسمك وكذلك السكة وأكون نائباً عنك بمصر وأحمل إليك فى كل سنة الخراج حسبما يقع الاتفاق عليه بيننا فأرجل عن مصر إلى الصالحية أنت وعسكرك وصن دماء المسلمين بيننا ولا تحمل وزر إراقة دماء الشيوخ والنساء والأطفال بغير سابق ذنب وإلا فأخرج للقائى بعسكرك فى الجزيرة والله سبحانه يعطى النصر لمن يشاء. فلما وقف السلطان سليم على ما فى المكاتبه جمع إليه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة وجماعة من وزرائه وكتب بحضرتهم صورة يمين إلى الملك الأشرف وكتب بخطه ووقع عليها ثم تكلموا فى الأمر طويلاً فوقع الاتفاق بينهم على تسيير الخليفة والقضاة الأربعة إلى الأشرف بذلك اليمين وخلع السلطان سليم على القضاة وأمرهم بالتأهب للسفر فتركوا من عنده على ذلك، أما الخليفة فإنه امتنع عن السفر فرسم السلطان بتسيير دودار بدلاً عنه فساروا ولما صاروا على مقربة من البهنا خرج عليهم جماعة من الشراكسة وقبضوا عليهم وسلبوا ما كان معهم من متاع وسلاح وهدايا وخيول وجمال وغير ذلك. وقتلوه فلم ينج منهم سوى القضاة الأربعة ودودار السلطان ورجعوا إلى القاهرة وهم فى أسوء حال فلما علم السلطان سليم بما جرى لهم أمر فنقلوا معسكره من الجزيرة الوسطى إلى بركة الحبش ونزل فى يوم السبت حادى عشر صفر من قلعة الجبل ومعه الجمل الغفير من العساكر والمباشرين والغلمان ورماة البنادق وقد أشيع خبر اتحداً عسكر الأشرف طومان باى من البهنا إلى ترسة بالجزيرة فرسم السلطان بعمل سقائل على النيل بناحية طرا ومصر القديمة وبولاى لعبور العساكر عن الاقتضاء وأخذ فى التأهب والاستعداد وقد ظهرت عليه وعلى جميع قومه علامات الاضطراب وخاف الناس كثيراً لاسيما وهم لم يتناسوا ما حل بهم بأسباب الوقائع التى وقعت بالصليبية والناصرية وغيرهما.

ولما كان يوم الأربعاء ثانی شهر ربيع الثانی أمر السلطان سليم فجئ بجميع الأمراء الذین كانوا بقلعة الجبل وقد كانوا ظهروا بأمان من السلطان كما تقدم القول فأنزلوهم مكبلین بالحديد والجند من حولهم إلى بركة الحبش فلما مثلوا بین یدی السلطان أخبرهم بما فعله الملك الأشرف بالقضاة والدوادار وامتناعه من الصلح بعد أن طلبه وأكثر من تأنيبهم وتوبيخهم ثم أمر بضرب أعناقهم جميعاً فضربوا أعناقهم بین یدیه وكانت عدتهم أربعة وخمسين أميراً ما بین مقدمی ألوف وأمراء طبلخانات وعشروات وغير ذلك وألقوا جثثهم للكلاب فكانت نساؤهم تسعى فی أخذها بدفع شیء من المال إلى الموكلين بالعمل ثم قام السلطان سليم من ساعته إلى بركة الحبش وعبر النيل بعسكره إلى الجيزة فجاءته الأخبار بوصول عسكر الأشرف إلى المناوات فأقام بالجيزة إلى يوم الخميس عاشر ربيع الثانی فظهرت طلائع عسكر الأشرف ولاقتها عساكر السلطان عند المناوات وقيل بل عند وردان فالتحم القتال بین الفريقین واشتد وحمى الوطيس والتقت السنايك بالسنايك والرماح بالرماح والصفاح بالصفاح فاستظهر الممالیک على عساكر السلطان وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وساقوهم حتى ألقى أكثرهم بأنفسهم فی النيل فماتوا غرقاً وكاد يتم النصر للأشرف طومان باي وعسكره وجموعه فجاءت فی وسط هذه الشدة لعساكر السلطان نجدة من أصحاب البنادق ورموا بالبنادق على الممالیک واصلوا الرمی بشدة حتى ردوهم ومازالوا بهم حتى فرقوا جمعهم ومزقوا شملهم وعادت الهزيمة عليهم فولوا الأدبار وولى الأشرف مهزوما يريد قرية من أعلى تروجة اسمها البوطة فلما تم للسلطان سليم النصر عاد إلى القاهرة ودخلت عساكره ومعهم العدد الكثير من رؤوس القتلى وهم فی كبكبة عظيمة ثم نودى بالزينة فزينت البلد ثلاث أيام والناس مع ذلك فی شاغل بما سيكون من وراء ذلك لعلمهم بما هو عليه الأشرف من البسالة والجلد على الحروب، أما الأشرف فإنه نزل بقرية البوطة فأقام بها ثلاثة أيام وهو متحزز فی نفر من أصحابه ثم حضر إليه الشيخ حسن بن مرعى وشكر ابن أخیه مشايخ عربان البحيرة، وكان بین المذكور و بین الأشرف صداقة قديمة فدعاه حسن للضيافة وألح عليه فی ذلك فركن إليه الأشرف ونزل عنده فلما استقر به المقام طلب مصحفاً ووضع بين یدی حسن واستحلفه عليه هو وابن أخیه أنهما لا يخونانه ولا يغدرانه ولا يدلان عليه ولا يخبران بخبره أحداً ولا يسعيان ضده عند السلطان سليم فحلفا على ذلك ثلاثاً فطاب قلب الملك الأشرف وسكن جاشه ويات ليلته وأصبح وقد أحاط العربان

بالمكان الذى هو فيه وأحدقوا به من كل جانب فخاف من كان معه من الغلمان والمماليك وتفرقوا عنه وأرسل ابن مرعى المذكور الى السلطان سليم يعلمه بالقبض على الأشرف ففرح السلطان بذلك فرحاً عظيماً وسير طائفة من عسكره فقبضوا عليه وقيدوه بالحديد وأتوا به بين يدى السلطان وهو فى زى العريان فقام له السلطان إجلالاً وعاتبه ثم أشار إلى بعض الواقفين من أصحابه فخرجوا بالأشرف من حضرته وأدخلوه فى خيمة أعدت له وأقاموا حولها الحرس من الغلمان الرماة والانكشارية فلبث إلى يوم الاثنين ثانى عشرى ربيع الآخر نحو سبعة عشر يوماً والاختبار عنه بين الناس كل يوم فى شأن.

(مطلب)

قتل السلطان الملك الأشرف طومان باى

فلما كان يوم الاثنين المذكور أركبوه على اكديش بعد أن عبروا به النيل من انبابه إلى بولاق وهو مكبل بالحديد فى زى العريان الهوارة وأمامه زهاء الأربعمائة من العثمانيين وساروا من سوق مرجوش ومروا به من القاهرة فتسابق الناس لرؤيته وهم فى دعاء له وصياح وجلبة عظيمة وكان يحييهم بلطفه المعهود وهو لا يدرى أين هو ذاهب فلما جاءوا به عند باب زويلة وقفوا له وأنزلوه عن الاكديش وأرخوا حبالاً قد نصبوها له على السبيل الذى هناك ووقفت حوله العساكر بالسيوف فلما رأى ما فعلوه قال أو أنتم قاتلى اليوم ؟ قالوا بلى فتبسم والتفت إلى من حوله من جمهور الناس وقال وهو ثابت الجنان راسخ القلب اقرءوا لى الفاتحة يا إخوانى ثلاثاً واعفوا عما فرط منى فضج الناس وارتفعت أصواتهم بالبكاء والنحيب وعلت الضوضاء وارتفعت أصوات النساء من أعالي البيوت والتفت الأشرف إلى الجلاد وقال له: تقدم وافعل ما شئت فالله ولى الأمر فتقدم الجلاد ووضع الحبل فى عنق الأشرف وجذبه فانقطع الحبل وسقط الأشرف فضج الناس وصاحوا وولولوا فرفعوه ثانياً فانقطع الحبل فاشتد صياح الناس وعلت أصواتهم بالبكاء ففارقته روحه فبكاه الناس بكاءً مرّاً وكان عند ذلك مكشوف الرأس وعليه ثياب من الجوخ الأحمر وفوقها ملوطة وفى رجليه سراويل من جوخ أزرق ثم تركوا جثته معلقة ثلاثة أيام حتى فسدت وأنتنت فأنزلوها وساروا بها إلى مدرسة عمه السلطان الغورى فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه فى الخوش الذى خلف المدرسة. رحمة الله برحمته الواسعة.

قال أهل التاريخ: وقد كان شاباً حسن الوجه لا يتجاوز الرابعة والأربعين من العمر بطلاً مقدماً حازماً تولى النيابة في القبة لما خرج عمه السلطان الغوري إلى قتال السلطان سليم بحلب فأحسن التدبير وأمن السبيل ودفع المظالم وأبطل الإحداثيات والبدع وكان محباً للرعية شفوفاً كثير البر والإحسان وقوراً. قال بعض كتاب الأخبار: ولما جهز لقتال السلطان سليم حُب إليه بعض الأمراء أن يجبي الأموال من الرزق والأقطاعات معجلاً لنفقة الحرب فقال: لا ولا أجعلها نقطة سوداء في صحيفة أعمالي وكانت مدة سلطته ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً إذ كانت ولايته في الرابع عشر من رمضان وهروبه في التاسع والعشرين من ذي الحجة وهي كلها حروب وكروب وخطوب. روى أنه لما كثر ظلم ممالك الغوري وزاد عبثهم بأمور الرعية وكثر فسادهم في الأرض أبغضهم الناس جداً وضجوا إلى الله يطلبون الخلاص، واتفق أن رجلاً من خيار الناس رأى جندياً من عسكر الغوري أخذ متاعاً من دلال ولم ير ضه في قيمته فتبعه الدلال يطالبه بحقه وهو ممتنع فقال الدلال بيني وبينك شرع الله فضربه الجندي بدبوس شج رأسه وسقط مغشياً عليه فرفع الرجل يديه إلى السماء وقال: إلهي أنت أعلم بما تفعل هذه الفئة فاحكم فأنت خير الحاكمين ثم نام في تلك الليلة وهو حزين مما رأى فرأى في منامه أن ملائكة نزلت من السماء وبأيديهم مكانس وهم يكنسون الشراكسة كنسا فاستيقظ مدهوشاً وإذا بقارئ يقرأ قوله تعالى: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ فعلم الرجل أن الله يأخذهم أخذاً ويبلاً فلم يمض إلا القليل من الأيام حتى قدم السلطان سليم وبدد شملهم وأباد سلطانهم ومزقهم أيدي سباً فزالت بموت الأشرف طومان باي دولة الشراكسة المعروفة في عرف أصحاب التاريخ بالدولة الثانية فكانت مدة تصرفهم مائة سنة وإحدى وعشرين سنة وجملة سلاطينهم اثنان وعشرون سلطاناً أولهم برفوق وآخرهم الأشرف طومان باي.

ولما دانت الأمور للسلطان سليم بموت الأشرف أخذ يرتب أمور البلاد على ما يشاء فجعل إدارة البلاد ثلاث طبقات وجعل في كل طبقة منها رئيساً وجميعهم طوع أمر وزير الديوان الكبير ورتب هذا الديوان من والي المتدب من قبل السلطنة على البلاد ومن بكوات سبع وجاقات عسكرية وخص والي المذكور بتبليغ الأوامر السلطانية إلى الديوان وحماية البلاد وتوصيل الخراج إلى الخزينة السلطانية وفصل الخصومات بين أرباب الديوان وبعضهم وإيقاف كل عند حده وخص أرباب الديوان

بتنقض أوامر الوالى عند الحاجة وخلعه من المنصب عند الضرورة والتصديق على ما يصدر منه من المراسيم الديوانية المتعلقة بأمور البلاد وقسم البلاد القبلية والبحرية إلى أربع وعشرين مديرية وولى جماعة من الممالك عليها فكان عليهم جمع الخراج وجباية الأموال ورد العريان عند خروجهم عن الطاعة وقيد هؤلاء الحكام ولم يطلق لهم العمل إلا بمشورة أرباب الديوان العالى ولقب أحدهم المقيم بالقاهرة بشيخ البلد، ثم قسم الخراج الذى يتحصل فى كل سنة إلى ثلاثة أقسام، الأول لمرتبات الجند من المشاة والفرسان والثانى لحاجات الحرمين والثالث للخزينة السلطانية وأقام من المرابطين لحراسة البلاد عشرين ألفاً من المشاة واثنى عشر ألفاً من الفرسان وجعل مقدمهم خير الدين أغا الانكشارى ورسم له بملازمة قلعة الجبل وعدم البراح منها. قال بعض كتاب الأخبار: ولم يلتفت إلى تحسين أحوال الرعية ولا نظر فى رفع تلك المضار السائدة على أهل البلاد ولا خفف عنهم شيئاً مما أتت به الحروب المتوالية والخطوب المتراكمة فكان هذا كله أكبر الأسباب التى آلت بهذا النظام إلى الزوال ويشوكة السلطنة العثمانية إلى الضعف والذبول على توالى الأيام. ثم انتقل بخيامه من الجزيرة الوسطى إلى الروضة وابتنى له كشكاً فوق قاعات المقياس وهو مشرف على النيل والروضة والمقياس فكان يجلس فيه محتجباً إلا عن بعض خواصه وكبار دولته ثم نزل من ذلك الكشك وسكن فى دار الأشرف طومان باى التى خلف حمام العراقى المثل على بركة القيل وكان سبب ذلك أن بعض الانكشارية تآمروا على قتله فأحس بذلك ونزل من الروضة وسكن فى الدار المذكورة وأمر فقبضوا عليهم وكانوا كثيرين وأعملوا فيهم القتل والتفريق والشنق على أبواب القاهرة كباب زويلة وباب النصر وباب الفتوح حتى أفناهم.

وجاءت الأخبار إلى السلطان سليم بتأهب ملك فارس لقتاله ورد ما أخذ من أملاكه فأهمه هذا الأمر جداً وأخذ يتأهب للخروج من مصر إلى الشام فعرض جميع الخزائن وحواصل الحكومة وأخرج ما فيها من سلاح ومتاع وكراع وغير ذلك ونقل جميع التحف والنفاثس التى بالديوان الكبير بقلعة الجبل وكذلك التى كانت فى قاعة البيسارية والدهيشة وغيرهما وجمع جميع الكتب التى كانت فى خزائن المدارس على اختلافها وخاف أن يترك أمير المؤمنين المستوكل على الله فى منصب الخلافة فتطمع نفسه فى السلطنة فقبض عليه ليحمله معه إلى القسطنطينية وقيل بل أمره بالشخص إليها فخرج يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى وخرج معه ابنا عمه خليل

وهما أبو بكر وأحمد وخرج معه أيضاً الناصرى محمد العلانى على بن خاص بيك صهر الخليفة وكذلك الشرفى يونس ابن الأتابكى سودون، وقبل خروج الخليفة نزع السلطان سليم منه الخلافة قهراً ولبس شعارها فى محفل حافل فخرجت فى هذا اليوم. الخلافة من بني العباس إلى آل عثمان وزالت عنهم كما زال الملك من ديار مصر بزوال دولة الغورى فسبحان من بيده تصاريق الأمور وهو المعز المذل يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء إنه على كل شىء قدير.

وتأهب السلطان للرحيل عن مصر فسير أمامه إلى القسطنطينية من أولاد الملوك والسلاطين الذين كانوا بديار مصر وكبار الأمراء والقضاة ونواب القضاة والشهود والعدول والمباشرين والكتاب من القبطة وهم المعلم بانوب كاتب الخزينة السلطانية والمعلم يوحنا الصغير والمعلم أبو المكارم وغيرهم وكثير من الأعيان وكبار التجار وأرباب الصنائع من مثل المهندسين والبنائين والتجارين والحدادين والمرحمين وصغار الفعلة فساروا بهم فى يوم الجمعة سابع عشر رجب الفرد إلى الإسكندرية ثم إلى القسطنطينية وأنزلوا معهم شيئاً كثيراً من الرخام والعمد مما أنزلوه من قلعة الجبل والقاعات الكبرى وأخذوه من بيوت الأمراء والأعيان من القاهرة ومصر القديمة وكانت شيئاً كثيراً.

قال بعض كتاب الأخبار : كان عدد من خرج من الأمراء وأولاد الملوك والقضاة وغيرهم زهاء ألف وثمانمائة وقيل بل أكثر من ذلك جداً فكانت شدة عظمة للغاية.

(مطلب)

خروج السلطان سليم من مصر إلى مقر سلطنته بالقسطنطينية

ولما كان يوم الخميس ثالث عشرى شعبان سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة خرج السلطان سليم يريد الرحيل إلى القسطنطينية فسار من بيت الأشرف ومر من الصليبة إلى الرملة وهو فى موكب وجلالة وأمامه العساكر والأجناد من المشاة والفرسان وطوائف الأمراء وكبار الجند وعدة جنائب حربية والأمير خير بيك نائب مصر وجان بردى الغزالى وكان السلطان راكباً على بغلة قيل إنها كانت للسلطان الغورى كان يركبها فى الأسفار وحوله جماعة الوزراء وبينهم يونس باشا والدفتردار فسار بموكبه على السور ومر بتربة الأشرف قايت باى ووقف أمام القبر لحظة لطيفة ثم مرّ من بين

المقابر إلى تربة العادل التي بالفضاء واستمر على ذلك حتى نزل بالمخيم الذى نصبوه له ببركة الحج ولم تعلم العامة بخروجه فى ذلك اليوم فلم تقف للقاته والدعاء إليه كعادتهم فى مثل هذه المواقب، ثم سار من بركة الحج إلى الخانقاه السرياقوسية . قال بعض كتاب الاخبار : ولما وضع رجله بالركاب يريد المسير تقدم إليه خير بيك بمفاتيح البلد فردها عليه وقال له : وليتك إياها إلى أن تموت بها فشاوره على أن أبناء الشراكسة يريدون الدخول فى خدمة الأجناد فأجابه إلى ذلك فشاوره أيضاً فى إبقاء أوقاف الشراكسة وهى نحو عشرة قراريط من أرض مصر فأجابه بإبقائها على ما كانت عليه فاستاء وزيره وقال فى مالنا وعسكرنا ونسلمهم بلادهم وندخلهم فى عسكرنا ونبقى أوقافهم يستعينون بها علينا . قال فغضب السلطان وقال أين الجلال فضرب عنق الوزير ووضع رجل الثانية فى الركاب وسار . قلت : ويقال إن لقتل الوزير المذكور سبباً آخر، ولما نزل السلطان الخانقاه لاطفوه وسألوه عن سبب قتل الوزير فقال عاهدناهم على أنهم إن ملكونا بلادهم أبقيناها لهم وجعلناهم عليها فهل يجمل بنا أن نخون العهد؟ وإذا أدخلنا أبناءهم فى جندنا فهم مسلمون أولاد مسلمين وأما أرضهم فأصلها ملك الفاتحين ومنهم من أوقف ومنهم من قامت ذريته من بعده فهل يجوز لنا أن ننازع الملاك فى أملاكهم وإنما أزلت الوزير كراهة أن يغير على اعتقادی بتكرار كلامه .

وسار من الخانقاه يريد بليس فلما صار على مقربة منها أصابه مرض حال بينه وبين ركوب دابته فأرسل إلى الأمير خير بك يطلب منه أن يعجل بإرسال محفة فأرسلها إليه فركبها وسار إلى الشام لقتال ملك الفرس فأقام هناك أشهراً وقد اشتدت به علته فسار إلى القسطنطينية فكانت مدة إقامته بمصر ثمانية أشهر إلا أياماً وكان من يوم قتاله للسلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى فى مرج دابق إلى قيامه من القاهرة سنة واحدة وشهر واحد وقد تملك فى هذه المدة من الفرات إلى مصر والعراقين وما حولهما . قال بعض كتاب الأخبار : وكان دخول السلطان سليم بجيوشه إلى مصر من أكبر الضربات على البلاد وأهلها فقد هلك بسببه العدد العديد من الرجال والنساء والأطفال حتى الدواب وتخرّب الكثير من المساكن والشوارع والحارات وكسدت التجارة وتعطلت الصناعة حتى بطل منها خمسون صنعة من أعظم الصنائع وأشرفها وزالت منها الخلافة كما زالت السلطنة وأصبحت أيلة تابعة لدار السلطنة العثمانية .

ولما ارتحل السلطان بعسكره إلى القسطنطينية اشتد به المرض وظهرت في ظهره قرحة عظيمة عجز الأطباء عن علاجها فكانت توضع الدجاجة في قرحته هذه فتدوب وشوهدت معاليق أكباد من خلف ومارال يشتد به المرض حتى مات سنة ست وعشرين وتسعمائة فكانت مدة سلطته تسع سنين فتولى الملك بعده ولده السلطان سليمان.



(الفصل الثاني)

(في سلطنة السلطان سليمان ابن السلطان سليم)

ثم قام بالأمر بعده ولده السلطان سليمان ببيع له بالملك يوم موت أبيه سنة ست وعشرين وتسعمائة هجرية أى سنة تسع عشرة وخمسمائة وألف ميلادية وعمره يومئذ ست وعشرون سنة فكان عاشر ملوك آل عثمان وكان يوم مات أبوه مقيماً بإقليم سارخان فأخفى الوزراء خبر موت السلطان سليم حتى يحضر خوفاً من قيام الانكشارية وإضرار نار الفتنة فلما جاء الخبر بموت أبيه سار إلى القسطنطينية فدخلها فى سادس عشر شوال وكانت طوائف الانكشارية فى انتظار قدومه فلما رآه صاحوا بأصوات التهليل وطالبوه بالعطايا حسب العادة فطيب خواطرمهم ووعدهم بالإحسان وفى غد ذلك اليوم أغدق عليهم من إنعامه وطير الخبر بخلافته إلى الآفاق وراسل جميع العمال والولاة وأمراء مكة والمدينة فى أمر الحكم بين الناس بالعدل فكان يستهل رسائله بآية : ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

وعلم السلطان سليمان بما كان من إخلاص خير بك فى خدمة أبيه السلطان سليم فأعجبه ذلك ونظر إلى مصر نظرة الراغب فى فلاحها فأخذ فى تقرير أمورها على أحسن القواعد ورتب فيها ديوانين ينظران فى مصالح الرعية ويفصلان فى الخصومات فكان إذا انعقد هذان الديوانان جلس الوالى خلف ستار المنبر لسمع ما تدور عليه رعى الحديث بعد أن يرسم الكتخدا والدفتردار بذلك فإذا تمت مباحثات المجلس رفع الكتخدا والدفتردار ما استقر عليه رأى إلى الوالى فيرسم بتنفيذه وبلا نقض ولا إبرام فيقضيه الكتخدا من الدفتردار . ويختص الديوان الكبير من هذين الديوانين برؤية أهم الأمور التى لا علاقة لها بدار السلطنة العثمانية فكان لذلك

يتألف من أغوات الوجاقات الست والدفتردارين والرزنامجيين والنواب فى جميع وجاقات العساكر وأمير الحاج وقاضى القضاة والمشايع والعلماء والأشراف وأصحاب الفتوى الأربعة والأئمة الأربعة، وكان لا يجتمع إلا فى المهمات من الأمور ولا يصح اجتماعه إلا بناء على طلب الوالى وكانت تأتى إليه المراسيم السلطانية على يد الوالى. وأما الديوان الثانى فكان ينعقد كل يوم فى بيت الوالى من الكتخدأ والدفتردار والأغا وكبار وجاق المتفرقة ونائب من كل وجاق فينظر فى الأعمال وما تحتاج إليه البلاد من الأمور النافعة. ورسم السلطان بأن يكون مقر الوالى بقلعة الجبل وأن لاتزيد ولايته عن سنة واحدة ثم تعطى لغيره ممن يقع الاختيار عليه ورسم أيضاً بإبطال بعض المكوس والمغارم وأزال بعض العوائد والرسوم وهى الحصون ومهد المسالك وزاد فى نظام الجند فأنشأ وجاقاً سابعاً ممن بقى من المماليك الشراكسة ورتب لكل وجاق ديواناً ينظر فى شئونه ويتألف هذا الديوان من كبار الوجاق وأفراد من ضباطه وكان لكل منهم لباس مخصوص وعلامة مخصوصة تدل على مرتبته ووظيفته وكان عدد جند هذه الوجاقات كلها عشرين ألفاً وربما زادوا أو نقصوا وكان لوجاق الانكشارية الأفضلية على سائر الوجاقات وكبير مقدم على جميع كبارهم وله الكلمة النافذة عليهم فى كل حال وهم ينجلون ولا يخالفون له أمراً.

(مطلب)

تقرير الأمير خير بك على عمالة مصر وما جرى له

ولما أتم نظام الأمور على ما أراد أقر خير بك على عمالة البلاد وأجاز له التصرف فى الأمور بما فيه المصلحة وأن يعدل فى الرعية ولا يحدث شيئاً من المغارم والمكوس فجعل خير بك يتصرف تصرف الملوك والسلاطين وبدت من دلائل الجفاء والشدة. قال بعض كتاب الأخبار: ثم لم يلبث أن طغى وظلم وأخذ الناس بالشبهات. وأساء إلى طوائف الجند فأبغضوه وتربصوا به الشر فلما أحس منهم بذلك أخذ فى تدبير الحيلة وجمع إليه من بقى من طوائف المماليك الشراكسة وقربهم إليه وأدنى كبارهم منه وأباح لهم ركوب الخيل وحمل السلاح وقد كان ذلك محرماً عليهم منذ دخول السلطان سليم القاهرة بعسكره ورسم فنادوا بذلك فى القاهرة ومصر القديمة وسوق السلاح وقلعة الجبل فشق هذا الأمر على طوائف الجند وأحسوا بما وراء ذلك من الخيبة إن هم ظلوا متقاعسين فقاموا قومة رجل واحد

وسيروا طائفة منهم فوققوا لخير بك فى حوش الديوان وكلموه فى ذلك وأغلظوا عليه فى القول ومنعوه من الدخول إلى بيته وسبوه وهم بعضهم بقتله فأقلت منهم وانزوى فى بيته فعاثوا فى قلعة الجبل وأزعجوا من فيها. وتناولت أيديهم إلى النهب وثاروا على خير الدين نائب القلعة وهموا بقتله فأغلق دونهم الأبواب واختفى منهم فى ذلك اليوم فنزلوا إلى المدينة وتفرقوا وهم حاقدون على خير بك ناقمون عليه واشتدوا على الرعية فصاروا يشوشون على جميع الخلق بلا فرق ولا تمييز حتى على السوق والباعة وكانوا يأخذون ما فى البيوت من الأبواب والشبابيك وخشب الأسقف للوقود وكان إذا احتاج أحدهم إلى وقود للحريق ذهب إلى أقرب البيوت لبيته وأخذ منه ما يحتاجه ليوم أو ليومه وغده على مرأى من صاحب البيت حتى أخذوا جميع ما فى الأماكن التى فى زقاق الكحل والسطاحى والتى فى الجسر وحكر الشامى والأزكية من الأخشاب وكانوا يبيعون ما فضل منهم بأبخس الأثمان. قال بعض كتاب الأخبار: فضج الناس وعجوا واجتمع أصحاب البيوت وتبعهم العامة وساروا إلى بيت قاضى القضاة العثمانى وشكوا إليه من فعال أولئك الجند وصاحوا واستغاثوا وقالوا: ما يحل ذلك يامولانا فشق الأمر على القاضى وركب من ساعته وسار إلى بيت الأمير قايتباى الدويدار وأخذه وسار إلى خير بك بمقره وأعلماه بالخبر وأغلظ القاضى فى القول وهدد خير بك إن لم ينشط إلى العمل فجمع خير بك كبار الجند واختيارية الوجاقات وكلمهم فى ذلك فطيسوا خاطره وهونوا عليه الأمر وطلبوا منه أن يمنع فتح الحوانيت ليلاً فأمر فنادوا بذلك فكانت السوق تقفل الحوانيت قبل غروب الشمس.

واتفق فى هذه الأثناء أن جاء رسول من دار السلطنة فى طلب بعض الأمراء المصريين وعدد من العساكر الشاهانية يعنى الانكشارية والأصبهانية نجدة ففرح خير بك بذلك ونادى فى العسكر بالتأهب للرحيل فغضبوا وظنوها خدعة من خير بك وأبوا الرحيل وزادوا فى الإفساد والإضرار بخلق الله فكانوا كلما أكثروا فيهم المنادة زادوا تمرداً وطغياناً ثم خرج منهم جماعة إلى الشرقية وآخرون إلى الغربية فعاثوا وأفسدوا وأحرقوا الحرث والنسل وانضم منهم جماعة أيضاً إلى بعض العربان وقطعوا السبل على المارة واختفى منهم جماعة بالقاهرة ومصر القديمة فشدد خير بك فى التفتيش عليهم وقبض على جماعة منهم وسجنهم فى قلعة الجبل ورسم لرسول دار السلطنة بالتأهب للسفر معهم بلا إبطاء فلما كانت الليلة التى قبضوا فى نهارها

عليهم اجتمع جميع الذين كانوا فى القلعة منهم بالحوش وكسروا باب القلعة ونزلوا منها ليلاً إلى مصر القديمة وركبوا بعض السفن التى وجدوها هناك وساروا إلى الصعيد متفرقين فخشى خير بك شر العاقبة ورسم للأمير قايتباى الدويدار بالخروج خلفهم بخيله ورجله وأن يقتل كل من لقيه منهم فى الطريق بغير معاودة فقام قايتباى ومعه الأمير جاتم الحمزاوى والأمير على العثمانى وعبروا النيل إلى الجزيرة فلبثوا بها يومهم حتى تكامل خروج عسكرهم ثم ساروا إلى ناحية الميمون بالقرب من جزيرة عدى فالتقوا هناك مع الانكشارية فقاتلوهم قتالاً عنيفاً وانتصر الأمير قايتباى عليهم نصرة عظيمة وحرق مراكبهم وقتل منهم خلقاً كثيراً بالمكاحل والبنادق وقبضوا على من بقى منهم وحزوا رؤوس كبارهم وأصحاب الكلمة فيهم وعادوا إلى القاهرة ففرخ خير بك بذلك ورسم لوالى القاهرة برفع تلك الرؤوس على أبواب المدينة فلم يمكنه كبار الانكشارية من ذلك وكادت الفتنة تقوم بالقاهرة، وخاف من بقى من الانكشارية والأصبهانية وانكمشوا وأطاعوا وخرج منهم طائفة كبيرة مع رسول دار السلطنة إلى الريدانية ثم رحلوا عنها بعد أيام إلى الشام مع بعض الأمراء المصريين الذين جاءهم الطلب فكانت هذه الواقعة أول فتن الانكشارية بعد أن تسلموا حراسة البلاد والذب عنها، ولما ظهرت الفتنة على النحو المذكور ضعفت شوكة خير بك وكادت هيئته تزول وطمع العربان فى البلاد وخرج حسن بن مرعى شيخ عربان البحيرة فى طائفة كبيرة من قومه وانضم إلى جماعة من عربان الشرقية وغيرهم وعاثوا فى بلاد البحيرة وأفسدوا ونهبوا وقتلوا وسلبوا وقطعوا السبل على المارة وسار بهم ابن مرعى المذكور يريد القاهرة ووردت الأخبار بذلك إلى خير بك فاضطرب ونزل من قلعة الجبل إلى الميدان وعرض جميع الممالك الشراكسة والعساكر العثمانية واختار منهم جماعة وسيرهم مع الأمير قايتباى الدويدار والأمير خورشيد كبير العثمانيين وكانت الامور قد ضاقت جداً على أهالى الشرقية والغربية واتسع نطاق الفتنة واستفحل أمر الفساد وفعل أولئك الناس بالقرى ما لا يطاق من الجور وظهر عبد الدائم بن بقر وإخوته وهو من زعماء عربان الشرقية فعاث أيضاً وأفسد وخرب بلاداً كثيرة من الشرقية والغربية وعمت الفتنة البر والبحر فكبر خوف الأمير خير بك وشدد على قايتباى الدويدار وخورشيد بالقيام إلى البحيرة أولاً وقطع شاقة ابن مرعى وأصحابه فحثوا السير فلما أحس ابن مرعى بقدمهم وعلم أن لا قبل له على قتالهم أرسل أخاه شكرا إلى الأمير خير بك يطلب له الامان فكتب إليه خير بك يؤمنه

وبعث إليه صورة يمين ليحلفه على يدى القاضى فخر الدين بن عوض وأرسل إليه كذلك قفطان حرير مخمل وخلع على أخيه شكر خلعة أخرى وكتب إلى الأمير قايتباى أن يتربص بعساكره فتربصوا فى المكان الذى أدركهم فيه الخبر وجاء حسن بن مرعى صحبة القاضى فخر الدين بن عوض وصعد إلى قلعة الجبل فأكرم خير بك لقاءه وخلع عليه خلعة سنية ثم أنزله فى موكب حافل وعادت الأمور فى البحيرة والغربية إلى سابق مجراها واطمأنت قلوب الرعية وتحول قايتباى بمن معه من العساكر نحو الشرقية فلما علم بقدمه عبد الدائم بن بقر زعيم العصاة بها أرسل إلى خير بك يطلب الأمان فأجاب إلى ذلك وأرسل يستقدمه فحضر إلى القاهرة ومعه جماعة من العربان وحضر معه أبوه أحمد بن بقر فلما مثل بين يدى خير بك أكرم لقاءه ولقاء أبيه وهم أن يخلع عليهما ويقرر عبد الدائم المذكور على شياخة عربان الشرقية فقال أبوه: إن أنت فعلت ذلك أيها الأمير جلبت على أهل الشرقية وبالا ومكنت ولدى هذا من رقاب الأبرياء وزدت نار الفتنة إضراماً فعجب خير بك بكلامه وأمر فى الحال فقبضوا على عبد الدائم وكيّلوه بالحديد وقبضوا على جميع من جاءوا معه من أصحابه وسلموهم إلى خير الدين بك نائب القلعة ففرح الناس بذلك فرحاً لا يوصف لاسيما أهل الشرقية والغربية واطمأنت قلوب الخلق وزالت عنهم المخاوف ثم بعد أيام قلائل أخرجوا من أولئك العربان عدة أشخاص وأماتوهم شنقاً بعضهم على قنطرة الحاجب وبعضهم على رأس الحسينية وبعضهم عند باب النصر وقتلوا آخرين بغير ذلك أيضاً. وأما حسن بن مرعى شيخ عربان الغربية فإنه بعد أن خلع عليه خلعة الرضا وأعادته إلى الغربية معزراً لم يلبث بها إلا قليلاً حتى دس خير بك إلى إينال السيفى طراباى كاشف الغربية بأن يقتله مع أخيه شكر فأخذوا إينال المذكور يكاذب ابن مرعى ويتودد إليه ويظهر له غاية الإخلاص والمودة حتى أمن جانبه ومال إليه ثم أدب له مأذبة عظيمة فى بلدة قرية من دمنهور ودعاه إليها مع أخيه شكر فأجابا دعوته وأتيا إليه فأحسن لقاءهما وبالع فى الترحيب بهما حتى حضر الطعام فأكلوا جميعاً ثم انتقلوا إلى مجلس الشراب فشربوا فينما هم كذلك إذ خرج على حسن وأخيه جماعة من المماليك الشراكسة من مكان كانوا مختفين به وعاجلوهما بضرب السيوف واحتزوا رأسيهما فأرسل بهما إينال الكاشف إلى خير بك ففرح ورسم لوالى القاهرة برفعهما على باب النصر فرفعهما وتزاحم الناس لمشاهدتهما . قال بعض كتاب الأخبار : وحسن بن مرعى هذا هو الذى غدر

بالسلطان الملك الأشرف طومان باى وقبض عليه وسلمه إلى السلطان سليم واتفق إنه لما سار حسن المذكور إلى مأدبة الكاشف إينال السيفى كان راكباً على فرس السلطان الملك الأشرف التى كان أخذها يوم سلمه الى جند السلطان سليم بعد أن أقسم أنه لا يخونه ولا يدس عليه فلما احتز الممالك رأسه ورأس أخيه شكر ربطوهما فى عنق ذلك الفرس ودخلوا بهما القاهرة على هذه الصورة فعد ذلك من النوادر العجيبة فى بابها.

وفرح خير بك بموت ابن مرعى وعده من أكبر أسباب الظفر وبث العيون والأرصاد حول جماعة العربان فى البحيرة والغربية والشرقية وشدد فى ذلك فانكمشوا وخافوا وتمكن كاشف المنوفية من قتل شيخ العرب على الأسمر بن أبى الشوارب فاختمى من بقى من كبار العربان وأصحاب الكلمة فيهم وسلكت بعض الطرق التى قطعها العربان واطمأنت قلوب الناس ولكن لم تطل هذه الأيام حتى عاد عربان السوالم إلى الخروج بالشرقية وكاد يستفحل أمرهم وعاد الناس إلى التخوف فأعمل إياس كاشف الشرقية الحيلة للقبض على مشايخهم ومازال يتقرب منهم ويتودد إليهم حتى استدعاهم إلى مأدبة أعدها لهم فركنوا إليه واطمأنت من قبله قلوبهم وأتوا إليه فآكرهم لقاءهم وأحسن وفادتهم ولم يقضوا معه يومهم حتى قبض عليهم وقتلهم وسلخ جلودهم وحشاها بالتبن وأرسل يعلم الأمير خير بك بالخبر فسير إليه خير بك طائفة من الانكشارية والأصبهانية والجراكسة فأحاطوا بمنزل عربان السوالم وقتلوا من وجدوه بها من الشيوخ والنساء والأطفال وغنموا ما فيها من الخيل والإبل والأغنام والإماء والعبيد والملبوس والمفروش وقبضوا على الشيخ نجم شيخ عربان العائد لاتهامه بإمداد عرب السوالم وأتوا برؤوس من قتلوا مع جلود المشايخ إلى القاهرة فتفرق من بقى وطلع جماعة إلى الجبال. ونزل جماعة إلى الصالحية فأحرقوها وأحرقوا ما جاورها من القرى والكفور وقتلوا ونهبوا أخذاً بالثأر واشتدت الفتنة وعمت جميع أنحاء الشرقية فولى خير بك أخا نجم شيخ عربان العائد شيخاً بدل أخيه نجم وجهاز لقتال السوالم طائفة من الانكشارية والأصبهانية وأخرى من الممالك الشراكسة وطائفة من الرماة بالبنادق وبعض المكاحل وكان لما قبضوا على نجم شيخ عربان العائد قام أيضاً أصحابه وعاثوا فى بلاد الشرقية وقطعوا الطرق على أبناء السبيل وانحدروا حتى أتوا على رأس المطرية فكانوا يقبضون على المارة ويسلبون ما يجدونه معهم فلما وصلت العساكر إلى الشرقية هرب من بقى من السوالم وأطاع

من كبارهم من لم يهرب وسلموا بأنفسهم إلى إياس كاشف الشرقية فتزل بهم إلى القاهرة ودخل بهم على الأمير خير بك فأكرم لقاءهم وخلع عليهم خلع الرضا وأقرهم على المشيخة بشرط الطاعة وحسن الولاء والإخلاص فى خدمة الدولة فأطاعوا.

(مطلب)

خروج الغزالي والى الشام عن طاعة السلطان وعزمه على الزحف على مصر وضمها إلى الشام

ورسم خير بك بشنق شيخ العرب أبو الشوارب فشنق ومعه آخرون من كبار العربان ثم عاد فعفا عن نجم شيخ العائد وأفرج عنه. وولاه المشيخة ثانية وأطلق آخرين من كبار السوائم وكان الحامل له على ذلك ما ورد إليه من الأخبار بخروج جان بردى الغزالي والى الشام عن طاعة السلطان واستقلاله بملك الشام واتخاذة لنفسه شعار السلطنة، وأنه قد خضع له جميع الولاة والعمال وقبلوا الأرض بين يديه ورينت له جميع المدن والبلدان أياماً ثلاثة فلعب نفسه بالملك الأشرف أبى الفتوح وكتب إلى جميع الولاة يستحثهم على تجنيد الجند وإعداد آلات الحرب لقتال خير بك بمصر وأخذ البلاد منه وضمها إلى الشام كما كانت على عهد من سلف من الملوك والسلاطين. وكان الحامل له على قتال خير بك أنه لما هم بالخروج وشق عصا طاعة السلطان راسل خير بك فى ذلك وحبب إليه الخروج وألح عليه فى الطلب وهون عليه الأمر، فخدعه خير بك وسير كتب الغزالي إلى السلطان وعلم الغزالي بخبر ذلك فأكبره وأعظمه جداً وتجرد لقتال خير بك فخاف خير بك من هذه الأخبار وخشى سوء العاقبة فأطلق لذلك من أطلقهم من مشايخ وكبار العربان الذين كانوا فى السجون وعاهدهم وأمدهم بالأسلحة والكرام ورسم لهم بقتال جان بردى الغزالي فى طريقه قبل أن يصل إلى الديار المصرية فخرج منهم جماعة وساروا إلى الشام لمنع الغزالي ولمومه وكان الغزالي قد جمع إليه جموعاً كثيرة من الأكراد وعربان جبل حوران ونابلس وعربان بنى عطا وبنى عطية وغيرهم من طوائف العربان وخرج من دمشق فى جيش عظيم للغاية وجموع كثيرة جداً يريد الديار المصرية فاهتم الأمير خير بك لذلك وعرض العساكر والأجناد وجمع طوائف الانكشارية والأصبهانية والكبالية المماليك الشراكسة وغيرهم ممن شاء الدخول فى خدمة الدولة وجماعة

كثيرة من المغاربة والروم أصحاب الحرف والصنائع وأكثر من جمع السلاح وإنشاء المركبات والعجلات لجر المكاحل وتنادى فى هذه الجموع والأجناد بالتأهب والاستعداد.

(مطلب)

قتل الغزالي وإرسال رأسه إلى دار السلطنة

وبينما كان خير بك يجند الجنود ويكثر من جمع السلاح كانت رسل الغزالي تأتي إلى مصر بالرسائل إلى بعض الأمراء من الروم وبعض التجار والجواسيس تنقل من أخبار خير بك إلى الغزالي كل ما وصلوا إلى معرفته فأحس خير بك بذلك وشدد ومنع من دخول الأعراب إلى القاهرة إلا بعد البحث والتنقيب عن أحوالهم وقبض على بعض الروم من تجار خان الخليلي وأمر بقتلهم فقتلوا تحت قلعة الجبل بتهمة نقل الأخبار وكان من أمره أنه إذا نقل إليه أن أحد الناس مهما كانت درجته ذكر الغزالي فى مجلس أو تكلم عن زحفه على ديار مصر أو عن استقلاله بملك الشام أمر بصلبه على أحد أبواب القاهرة ثم أمر بإلقاء جثته للكلاب فتنهشها فخاف الناس جداً وانكمشوا وقل خروجهم إلى الأسواق وجلسهم على الحوانيت، وجاءت الأخبار بوصول طلائع لموم الغزالي إلى اقطيا فجرد خير بك لقتالهم طائفة من الأصبهانية. وأخرى من الكمالية فساروا من الريدانية إلى بليس ومنها إلى الصالحية فافسدوا فى طريقهم وعاثوا ونهبوا الكثير من الضياع وعلى الخصوص ما كان منها حول بليس والصالحية وأخذوا ما فيها من الشعير والسمن والطيور وأذاقوا أهل البلاد مرارة الجور وانقطع الوارد من الديار الشامية وسدت المسالك فى وجوه أصحاب التجارة فانكفوا وانقطعت العلاقات مع أهل الشام وكتب خير بك بتحرير الخبر إلى دار السلطنة فاهتم السلطان بأمر الغزالي وجند لقتاله الجنود وسيرها على قدم السرعة ومقدمها الوزير فرحات باشا فلاقته العساكر السلطانية عند حلب الشهباء وكان الغزالي محاصراً لها فقاتلته قتالاً عنيفاً أياماً كثيرة ثم انتصرت عليه ومزقت شمل جنوده ففر وسار يريد الشام وقد كسر جسر الرستين فنبعته العساكر السلطانية وقاتلته خارج دمشق قتالاً شديداً أياماً مات فيه خلق كثير قيل عشرة آلاف وقيل أكثر من ذلك وضيق عليه العساكر السلطانية وسدوا عليه المسالك حتى قبضوا عليه وقتلوه ذبحاً كذبح الشاة وأخذوا رأسه مع رؤوس كثير من كبار قومه وأرسلوها إلى دار

السلطنة. قال بعض الكتاب: وكان الغزالي هذا من عماليك الأشرف قايتباي اشتراه وأعتقه وأخرج له خيلاً وقماشاً وصار من جملة المماليك السلطانية ثم استخدمه الأمير تغرى بردى الأستاذار شادا على ضيعة له بالشرقية يقال لها منية غزال فنسب إليها وقيل له جان بردى الغزالي مضافاً لاسم تلك الضيعة ثم إن الأشرف قايتباي قرره جمداراً وجعله في كشف الشرقية ثم صار أمير عشرة في آخر دولة الناصر محمد بن قايتباي ثم تولى محتسباً للقاهرة في دولة السلطان الغوري ثم ولاء في حجابة الحجاب بمدينة حلب فخرج إليها من يومه ثم نقله السلطان الملك الغوري إلى نيابة صفد وذلك سنة سبع عشرة وتسعمائة ثم إلى نيابة حماة فلبث بها حتى كان ما كان بين الغوري والسلطان سليم فانضم الغزالي بعسكره إلى جيوش السلطان سليم فولاه السلطان سليم الشام وجعل له التحدث على الشام وحماة وحمص وصيدا ويبروت وبيت المقدس ورملة والكرك وغير ذلك من الأعمال الشامية فلما استقر به هذا المنصب تأقت نفسه إلى الاستقلال بملك الشام فصار يجند الجنود ويكثر من المعدات وآلات الحرب وضم إليه الكثير من عربان حوران وناپلس والكرك وغيرهم واستمال كثيراً من المماليك الجراكسة ممن كانوا في خدمة الدولة في مصر فساروا إليه ولحقوا بعسكره ولحق به أيضاً كثير من الأكراد والتركمان ومازال حتى بلغت جنوده اثني عشر ألف مقاتل وبينهم كثير من الرماة بالبنادق فزحف بهم يريد فتح المدن والأمصار وألبس نفسه شعار السلطنة وتلقب بالملك الأشرف أبي الفتح وضربت السكة باسمه وخطب له على المنابر في دمشق وغيرها من المدن قيل خطب له بدمشق جمعيتين، وكان طائشاً عديم الرأي غير بصير بعواقب الأمور كثير الأخذ بالشبهات كبير البطش وكانت مدة ولايته على نيابة الشام ثلاث سنين وسبعة أشهر إلا أياماً ولقد صدق من قال :

والنفس لا تنتهى عن نيل مرتبة حتى تروم الذى من دونه العطب

ولما جاءت الأخبار بزوال ملك الغزالي وسقوطه في قبضة العساكر السلطانية وقتله فرح الأمير خير بك فرحاً عظيماً إذ لم يكن عنده من الجنود ومعدات القتال ما يقوى معه على مبارزة جموع الغزالي وجيوشه المنظمة لاسيما وقد كانت الفتنة ضارية بين كبار جند خير بك ورؤساء عسكره وكان كلما أخرج طائفة وسير بها لقتال الخوارج عاثت في البلاد وأهلكت الحرث والنسل وفعلت ما لا تفعله جنود العدو إذا احتلت البلاد عنوة وكان يخاف جداً من طوائف المماليك الشراكسة حيث

تحقق له أن بعض كبارهم مالوا عنه وانضموا إلى دعوة الغزالي وأنهم يراقبون الفرص ويتأهبون للخروج عند أول سبب، وعادت المواصلات التجارية ما بين مصر والشام بعد موت الغزالي وجاءت قوافل التجارة بأصناف البضائع على اختلافها وزالت وحشة الناس وسكنت خواطهم بعد الخوف وزاد اطمئنانهم بوصول الأخبار من دار السلطنة بأن السلطان سليمان أجاز لمن كان أحضرهم أبوه من الأمراء المصريين والقضاة ونواب القضاة والشهود والعدول والمعتبرين والتجار وأرباب الحرف والصنائع من المصريين يوم خروجه من مصر بعد فتحها أن يعودوا إلى أوطانهم فلم تكن إلا أيام بعد ذلك حتى حضر منهم من لم تخترمه المنية. قال بعض كتاب الأخبار: وقد ذاقوا الذل ألواناً وأصبح الأعيان والمباشرون منهم لا يملكون شروى نقيير حيث نفذت أموالهم، وجاءت أيضاً خاتون سلطنة عمه السلطان سليمان ومعها ولدها الأمير مصطفى تريد الحج إلى بيت الله الحرام وكان حضورها في كبكبة زائدة وخدم وحشم وكثير من الخصيان فقبولت بغاية الاحتفاء والاحتفال وسار الأمير خير بك وجميع الأمراء وكبار المالكة في ركابها حتى نزلت في بيت مظل على بركة الفيل ورتبت لها ولخدمها المآكل والمشارب ووقف على بابها بعض الحجاب وزارها نساء الأمراء وقدمن لها التحف والهدايا النفيسة فلما خرج المحمل خرجت مرافقة له في هودج وأمامه الخدم والحشم وبالغ أمير الحج في تنظيم الركب وسير أمامه المركبات وعليها المكاحل والمدافع النحاس وأنفقت السلطنة في الحرمين أموالاً عظيمة وشيئاً كثيراً من الأقمشة والغلال وتصدقّت على الفقراء ونزلاء التكايا وكثر في هذا الحين إفساد الانكشارية والأصبهانية بأسباب عدم صرف جماكيهم وتأخير مرتباتهم فترعوا إلى الثورة وتعرضوا لخير بك في طريقه وتحت القلعة وخاطبوه ببذئ القول وفحش الكلام وأقسموا أنهم ينهبون المدينة إن هو أصر على إيقاف صرف جماكيهم ومرتباتهم ووقف جماعة منهم على أبواب الأمراء يهددونهم إن لم يكلموا خير بك في ذلك فكلّموه وحذروه شر العاقبة فصرف لهم بعض المال على قدر الحاجة واعتذر بقلّة ذات اليد وعجز المباشرين عن جباية الأموال وتعذر البيع والشراء وكساد الحال وبوار الكثير من المزارع وتشرد أصحابها بسبب فعال العساكر وعبثهم بالبلاد ثم شدد على المباشرين وطالبهم بالمال فانبثوا في البلاد وطلبوا قسط الخراج معجلاً قبل وفاء النيل وزرع الأراضي وضيقوا على أهل البلاد وبالغوا في التشديد وقد كان متحصل خراج مصر في هذه الدولة أي دولة السلطان سليمان على ما قاله بعض الكتاب ألف

ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار ذهباً ومن الغلال ستمائة ألف أردب منها ثلاثمائة ألف قمحاً وثلاثمائة ألف شعيراً وفولاً وغير ذلك فى كل سنة.

(مطلب)

كم كان خراج مصر فى دولة السلطان سليمان وما بعده إلى هذا الحين

(قلت): وكان خراج مصر على عهد المقوقس عظيم القبطه على ما رواه تقي الدين فى خططه مائة ألف ألف دينار وثمانين ألف ألف دينار وكانت مساحة أرضها على عهد الفراعنة مائة ألف ألف فدان وثمانين ألف ألف فدان تزرع غير البور وبلغ خراج مصر على عهد عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى السرح فى صدر الإسلام اثنى عشر ألف ألف دينار وفى أيام أحمد بن طولون أربعة آلاف ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار غير ما يتحصل من المكوس والغلال، وجبى خراجها فى الدولة الإخشيدية فكان ألفى ألف ألف دينار وجبى خراجها فى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارى فكان اثنى عشر ألف ألف دينار (قلت): وهو اليوم عشرة آلاف ألف ألف وخمسمائة ألف وبضع مئات ذهباً أى جنيهاً، وكانت جوامك ومرتبات العساكر فى ذلك الحين درجات بعضها فوق بعض فكانت جمكية الأصهبانية منهم ستين ديناراً وخمسين وأربعين وثلاثين وعشرين فى كل شهر والانكشارية ما بين خمسة عشر واثنى عشر ديناراً فى كل شهر والصوباشية ثلاثين ديناراً فى كل شهر والكمالية ما بين اثنى عشر وعشرة دنائير فى كل شهر والمماليك الشراكسة سبعة دنائير فى كل شهر هذا عدا مرتبات الأمراء وكبار الجند وعظمائهم وكانت هذه الجوامك والمرتبات لا تصرف إلا من خراج الشرقية والغربية والبحيرة والأقاليم القبلية فقط دون الأموال الخارجة من الشغور كغنى الإسكندرية ودمياط ورشيد والبرلس وعبدية وغيرها فإنها كانت تحمل إلى خزائن السلطان مباشرة فلا يأخذ الوالى منها شيئاً حتى ولا للجهاد والغزو وكانت أيضاً بعض المغارم والمكوس تحمل كذلك إلى خزينة السلطان فلا يأخذ الوالى منها شيئاً وسرى ذلك إلى ما كان مقررأ على الرزق والاقطاعات والأرزاق الأحباسية والأوقاف وترك الأموات من طوائف الترك والمماليك الشراكسة، ثم تعدى ذلك أيضاً إلى ما كان مقررأ لنواب القضاة والشهود على عقود الانكحة فقيدوا به قاضياً مخصوصاً اسمه القسام فضرب على عقد البكر ستين نصفاً والشيخ ثلاثين نصفاً كانت تحمل إلى الخزينة السلطانية.

(مطلب)

إبطال السلطان سليمان لقضاة المذاهب الأربعة

ولما كانت سنة ثمان وعشرين وتسعمائة رسم السلطان سليمان بإبطال قضاة المذاهب الأربعة من التصرف في القضاء بديار مصر وتسليم جميع الأحكام الشرعية لقاض واحد من قضاة الروم وأن تبطل وظائف سائر النواب والشهود وأن لا يبقى سوى أربعة من النواب لكل مذهب نائب لاغير ولكل نائب منهم اثنان من الشهود لاغير وأنهم يكونون جميعاً بالمدرسة الصاحية فلا يصح بعد ذلك لأحد أن يوقف وقفاً أو يعقد عقداً أو يكتب وصية أو عتقاً أو إجارة أو حجة أو غير ذلك من الأمور الشرعية حتى تعرض على قاضى العسكر المذكور ونودى فى القاهرة ومصر القديمة بذلك فاضطربت أحوال الناس كافة وانكمش جميع القضاة والنواب والشهود وصاروا يتوقعون حضور قاضى العسكر المذكور فى كل يوم فلما كان يوم الاثنين عاشر رجب من السنة أى سنة ثمان وعشرين وتسعمائة قدم إلى القاهرة القاضى المذكور واسمه سيدى چلبى فأركبوا له موكباً حافلاً وساروا به حتى أنزلوه فى بيت الأمير جانم مصيفة الكائن خلف المدرسة الغورية فلما استقر به المقام قدم عليه قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقاضى القضاة المالكى محبى الدين الديميرى وقاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى الحنبلى وكان قاضى قضاة الحنفى مريضاً فى هذا الحين فلم يحضر. قال بعض كتاب الأخبار: فلما دخلوا عليه لم يجلبهم ولم يقيم لقدومهم وكان شيخاً مسناً أبيض اللحية طويل القامة على عينه سحابة فصيح اللسان يحسن العربية جيداً فكلهم ساعة ثم انصرفوا فلما كان اليوم الثانى نزل الأمير خير بك من قلعة الجبل إلى الميدان وجلس بالمصطبة وجلس معه الأمراء العثمانيون والأمير قايتباى الداودار ثم حضر القاضى المشار إليه وبين يديه المرسوم السلطانى فقرئ المرسوم بحضرة من ذكروا وهو يتضمن تسليم زمام جميع الأحكام الشرعية فى المذاهب الأربعة إليه وأن يكون القائم على جميع الأمور الشرعية على اختلافها ثم كان منه بعد ذلك أن رتب جميع الأمور التى تتعلق بالأحكام والقضاة فأقام قاضياً للحنفية من الروم يحكم بالنيابة عنه وجعل مقره بالمدرسة الصاحية وأقام آخر للحكم على مذهب الإمام الشافعى بالنيابة عنه وأقام لكل قاض من الروم نائباً من قضاة مصر فجعل القاضى شهاب الدين بن شيرين الحنفى نائباً عن القاضى

صلاح الدين العثماني وجعل القاضى شمس الدين محمد الحليى الشافعى نائباً عن القاضى فتح الله العثماني وجعل القاضى أبا الفتح الوفائى أحد نواب المالكية يحكم بين الناس على قاعدة مذهبه والمرجع فى جميع الأحكام إلى قاضى العسكر المشار إليه ثم رسم بأن لا يبقى مع كل نائب من هؤلاء الأربعة سوى شاهدين اثنين وأبطل سائر النواب والشهود ورسم للرسل والوكلاء الذين بالمدرسة الصالحية بأنهم إذا وقفوا أمامة يأخذون بأيديهم العصى فاجتمع منهم بالمدرسة زهاء الستين .

(مطلب)

ما تقرر من الرسوم على التركات لبيت المال وما أحدث من الإحداثات

ثم أقام أيضاً شخصاً من الروم للتحدث على التركات سماه (القسام) فضرب على كل تركة الخمس لبيت المال مع وجود الورثة من الذكور والإناث وشدد فى طلب ذلك ونودى فى القاهرة ومصر القديمة بذلك وبأن لا يعقد أحد من الشهود قاطبة عقداً ولا يكتب وصية ولا إجارة ولا مبايعة ولا شيئاً من الأمور الشرعية إلا فى المدرسة الصالحية وشدد فى السير على مقتضى الشريعة والعمل بموجب السنة وعامل الغنى والفقير والجليل والحقير على السواء فهابه الناس كافة وخافه الأمراء والكبراء حتى إذا كان لأحد من العامة فى ذمة أحدهم شئء بادر إلى إرضائه وتلطف فى معاملته خوفاً من الشكوى . ورسم فنادوا فى القاهرة ومصر القديمة بأن لا تخرج امرأة إلى الأسواق إلا العجائز منهن ومن خالفت تضرب وتربط من شعرها بذنب أكديش ويطاف بها فى القاهرة ومصر فخاف النساء خوفاً عظيماً وانكمشن ولم يخرجن . واتفق أنه صعد إلى قلعة الجبل يوماً فوجد بعض النسوة يتحدثن مع جماعة من العسكر الأصهبانية فى وسط السوق فعز عليه هذا الأمر وكلم الأمير خير بك فى ذلك فرسم الأمير خير بك بأن لا تخرج امرأة من بيتها ولا تركب على حمار مكارى وكل مكارى أركب امرأة شتى من يومه فخاف المكارية وبارت حرفتهم فباعوا حميرهم قاطبة واشتروا بدلها أكاديش وشدوها فصارت النساء يركبن عليها وتحتهن الطنافس والمكارى يقود لجام الأكديش كما يفعل المكارية بالقسطنطينية ، ورسم القاضى أيضاً بمسح أطيان الأقاليم القبلية وترتيب سائر الرزق الأجاسية على قاعدة نظمها هو لذلك وقيد بهذا العمل القاضى فخر الدين ابن عوض فسار إلى

الصعيد ومعه جماعات المساحين والقياسين وطوائف الكتاب والمباشرين فجعل يدخل كل ما يجده من أطيان الرزق الأحباسية فى المساحة العمومية وحبس غلاتها ومنع أصحابها من أخذ شيء منها فاضطربت أحوال أصحابها ووقفوا إلى الأمير خير بك فى طريقه يشكون له مما يفعله القاضى فخر الدين بن عوض وأبرز إليه بعضهم مكاتيبهم بتلك الرزق وبعضهم أبرز مريعاتهم فأخذها منهم وصرفهم خائبين ورسم بإدخال رزقهم فى أطيان الذخيرة. قال بعض أهل التاريخ: ولم يكن ليتعرض لهذه الرزق قط أحد من سلاطين مصر ولا أخرج منها شيئاً عن أصحابها منذ أنشأها الإمام الليث بن سعد فإنه هو الذى دون الأحباس وأنشأ لها فى أيامه ديواناً يختص بها دون ديوان الجيش واستمر ذلك باقياً بعد الإمام الليث حتى قام القاضى فخر الدين بن عوض المذكور فنقضه وهو على جهات البر والإحسان.

قلت: ومن هذا الحين زالت ولاية الأحكام الشرعية أيضاً عن قضاة مصر الأربعة كزوال الخلافة والسلطنة عنها وآلت إلى قضاة الروم يتناوبها الواحد بعد الواحد فيولى ويعزل من القضاة والتواب والشهود من يشاء وقد تبدلت هيئتها وزالت رسومها القديمة وخرجت من طور إلى آخر وضاعت حدودها إلا على من أجازهم قاضى العسكر المشار إليه بتولى الأحكام وبطل من هذا الحين أيضاً جلوس الشهود على الخوانيت للفصل فى الخصومات لا سيما ما كان منها بين المتزوجين وزوجاتهم ومن كان منهم له حانوت لذلك أغلقه وزالت عن أولئك القضاة والشهود والتواب بهجتهم ورونق وظيفتهم وصارت المدرسة الصالحية دار الشريعة ومقر المتحدثين عليها دون بقية الجهات ولبت القاضى المشار إليه على هذا الحال من الشدة وعدم التهاون حتى بصغائر الأمور مدة والناس فى قلق واضطراب عظيمين يضجون ويعجون إلى الله بزوال منصبه وإذهاب سلطته.

(مطلب)

خروج قاضي القضاة إلى الحج

فلما كان السادس والعشرون من شعبان خرج القاضى المشار إليه يريد الحج من طريق القلزم فركب وركب معه إلى تربة العادل مودعاً الأمير خير بك وبقية الأمراء من العثمانيين والشراسة وكبار الجند ودموا له بعض التقادم والهدايا النفيسة فسار إلى مدينة بليس ثم إلى السويس ومنها إلى مدينة جدة ففرح الناس بخروجه وكانت النساء أشد فرحاً وأكبر سروراً فغنت بعض المغنيات منهم بهذه الكلمات :

قوموا بنا نقحب ونسكر قد خرج عنا قاضى العسكر

فكانت عند العامة من أطرب المغانى وأحسنها توقيعاً وأكثرها استعادة واستحساناً وأعمها تداولاً على ألسنة الكبار والصغار، ومرض الأمير خير بك فى هذه الأثناء مرضاً شديداً فانقطع عن الخروج ولازم الفراش أياماً واشتد به المرض شدة بالغة فاعتق جميع جواريه وعبيده ومماليكه وأمر بأن يتصدق من ماله على العلماء والفقهاء وأولاد المكاتب وأصحاب المزارات والمتقطعين من ذوى البيوتات ففرقوا شيئاً كثيراً من المال ومن القمح نحو عشرة آلاف أردب وأكثرت نسأؤه وجواريه من التصدق والإحسان لعل الله تعالى يشفيه وأمر بأن يخرجوا مراسيم للقاضى فخر الدين بن عوض بالإفراج عن الرزق الأحباسية لأصحابها ويردها إليهم وقد كان ما ضبط منها وأدخل إلى الديوان السلطانى ألف رزقة وثمانمائة رزقة فأفرج عنها لأصحابها وأعاد لهم أيضاً مكاتيب الرزق الجيشية التى كان أخرجها عنهم يوسف بن الجاكية ثم رسم بإطلاق المحاييس من الرجال والنساء وكانوا كثيرين فلم يغن عنه هذا شيئاً واشتدت به علته فاستقدم إليه الأمير سنان بك العثمانى ودفع إليه الخاتم الذى سلمه إليه السلطان سليم يوم ولاه عمالة الديار المصرية وأعلمه بأن فى خزائنه من المال ستمائة ألف دينار ذهباً عينا خلافاً ما هو فى بيت المال.

(مطلب)

موت الأمير خير بك

فلما كان يوم الأحد رابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة مات خير بك المذكور فاجتمع جميع الأمراء وبينهم الأمير سنان بك وتولوا غسله ودفنه فى موكب حافل للغاية واستقر الأمير سنان بالقلعة يريد التصرف فى الأمور حتى يأتیه مرسوم السلطان فعارضه فى ذلك خير الدين نائب القلعة ومنعه من التصرف حتى يأتى مرسوم السلطان فأبرز الأمير سنان مرسوماً سلطانياً يتضمن جواز تصرفه إذا مات خير بك حتى يأتى فرمان بما يستقر عليه رأى وقيل كان الخلاف على التصرف بين الأمير سنان المذكور وبين الأمير خضر أحد كبار أمراء العثمانيين فلما أبرز الأمير سنان المرسوم السلطانى لم يبق بينهما من موجب للخلاف واستقر الأمير سنان بالقلعة وأخذ من يومه يتصرف فعرض ما فى بيت المال من الأموال فوجد لخير

بك بينها ستمائة ألف دينار ذهباً عيناً وكثيراً من الذخائر والتحف والنفائس والأقمشة البعيدة النوال مما لا يكاد يدخل تحت الحصر .

وكان الأمير خير بك هذا من ممالك الأشرف قايتباى وهو شركسى الجنس أباطيا وكان اسم أبيه ملباى الشركسى ولهذا كان يدعى خير بك ملباى إلى الأشرف قايتباى وكان له أخوان أحدهما اسمه خضر ولم يعش طويلاً ومات والثانى اسمه جان بلاط وكان مقدم ألف وله شهرة مات فى دولة الملك الناصر محمد بن قايتباى وكان موته بالطاعون وأقام خير بك المذكور بالطباق وصار فى عداد ممالك الطباق السلطانية فأخرج له السلطان خيلاً وقماشاً وأدخله فى عداد الجمدارية ثم الخاصكية وصار داودار سكين ثم صار فى سنة إحدى وتسعمائة أمير عشرة فى دولة الملك الناصر محمد بن الأشرف قايتباى ويعد به رسولا إلى دار السلطنة العثمانية فى مهمة فى سنة ثلاث وتسعمائة ثم صار مقدم ألف فى دولة الأشرف جان بلاط وخرج مع من خرج من العساكر والأجناد إلى الديار الشامية فلما وصلها حجر عليه فى دمشق فلما حضر العادل إلى مصر أرسل بالإفراج عنه واستقدمه فلما حضر أنعم عليه بتقدمة ألف وأقره على ما كان عليه فلما تولى السلطنة الملك الأشرف الغورى جعله حاجب الحجاب فلبث بها حتى تولى نيابة حلب فى سنة عشر وتسعمائة وما زال بها حتى زحف السلطان سليم على الديار الشامية يريد ملك مصر فجرى منه ماجرى من الانضمام بجيوشه إلى جيوش السلطان سليم كما فعل الغزالي، وكان من أمر توليته على نيابة مصر ما تقدم بيانه فاستمر على النيابة إلى أن مات فى يوم الأحد رابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة فكانت مدة نيابته خمس سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً بما فى ذلك مدة انقطاعه عن المحاكمات، وكان جباراً عنيداً سفاكاً للدماء كثير الأخذ بالشبهات طاغية قتل فى أيامه ما لا يحصى من الخلائق ظلماً فلما جاء الخبر بموته إلى السلطان سليمان وهو على حصار رودس ولى الأمير الوزير مصطفى باشا وكان صدر الوزراء العثمانيين وزوج أخت السلطان سليمان فحضر إلى الإسكندرية وجاءت الأخبار بوصوله إليها فنادوا بذلك فى القاهرة ومصر القديمة .

(مطلب)

ولاية الوزير مصطفى باشا

فلما كان يوم الأربعاء ثالث عشرى ذى الحجة وصل إلى ساحل بولاق فنزل للقاءه الأمير سنان وخير الدين نائب القلعة والأمير خضر وجميع الأمراء وكبار الجنود وجميع الانكشارية والأصبهانية والكمالية والشراكسة وقابلوه ثم أركبوه على فرس وعليه الخلعة السلطانية وسارت أمامه العساكر والأجناد قاطبة والأعيان والمقدمون فدخل من باب البحر وسار إلى باب القنطرة فمر من سوق مرجوش ثم من القاهرة وكان الأمير سنان على يمينه والأمير جاثم الحمزاوى على يساره والأمير خير الدين والأمير خضر أمامه فارتفعت له الأصوات من العامة بالدعاء وكان أبيض اللون عربى الوجه أشقر الشاربين حليق اللحية معتدل القامة عليه حشمة ووقار ومازال فى موكبه حتى مرّ من الرميّة ودخل من الميدان وصعد إلى قلعة الجبل. قال بعض كتاب الأخبار: تولى مصطفى باشا نيابة مصر وهو فى ركاب السلطان سليمان على حصار رودس يوم السبت خامس ذى الحجة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة ودخل مدينة الإسكندرية فى التاسع عشر من ذى الحجة فكانت مدة ولايته مذ تقررت برودس أربعة عشر يوما وكانت مدة حضوره من الإسكندرية إلى ساحل بولاق أربعة أيام فدخل فى يوم الأربعاء ثالث عشرى ذى الحجة فتكون مدة ولايته من حين ولى برودس إلى أن دخل الديار المصرية ثلاثة وعشرين يوما أهـ.

(مطلب)

إبطال نظام قلعة الجبل القديم

ولما استقر به المقام بالقلعة تحول عنها الأمير سنان ونزل إلى داره يدرب ابن البابا فكانت مدة نيابته بالقاهرة ثمانية وثلاثين يوما وفى ثانى يوم نزل مصطفى باشا إلى الميدان واجتمع جميع الأمراء والأكابر والأعيان والقضاة والعلماء وقرئ عليهم المرسوم السلطانى القاضى بولايته ثم أخذ يتصرف وجلس للناس عامة فترادفت عليه القصص بحوائج الناس وأخذ فى تدبير الأمور فأبطل نظام القلعة القديم الذى كان على عهد من سبق من الملوك وأبطل البوابين والركابة والبوابية والسوّاس والفراشين

وغلمان السلطان قاطبة والمقرئين والمؤذنين وغير معالم ذلك النظام ورسومه وتصرف
فى الحواصل السلطانية والأشوان وبيت المال كما يجب ويختار وجمع إليه أعيان
المباشرين وكلهم فى أمر الخراج فشرعوا فى تحصيله ورتبوا له وللماليكه خاصة
وحاشيته ويطانته ثمانية آلاف دينار ذهباً فى كل شهر يقومون بدفعها نفرة فكان إذا
تأخر المباشرون فى شىء من هذا المال المقرر فى أجله ضيق عليهم وشدد وبالع فى
الوعيد فتنبث أعوانهم فى البلاد يضيقون على أهلها ويشددون فى الطلب ويأخذون
كل ما وصلت إليه أيديهم من الماشية والغلال ويبيعونها بأبخس الأثمان قياماً بأداء
تلك النفقة فى آجالها فاشتد بسبب ذلك الكرب على الفلاحين وأصحاب الرزوعات
وعم الخطب ونزح الكثير من أهالى الأقاليم القبلية إلى الأقاليم البحرية وأهالى
الأقاليم البحرية إلى القبلية وأهملت الأرض فراراً من المطالب المتابعة فبارت وقل
الوارد من الغلال إلى مصر وبولاق فارتفعت الأسعار وشكى الناس من هذا الحال
وضجوا وابتهلوا إلى الله فلم تطل مدة ولايته وجاء الخبر بعزله وولاية أحمد باشا
ففرح الناس بذلك فرحاً عظيماً وانكف المباشرون عن التضييق على أهالى البلاد فى
جباية الأموال فكانت ولايته سنة واحدة وعشرة أشهر ويومان.

(مطلب)

ولاية أحمد باشا

ولما جاء الخبر بوصول أحمد باشا المذكور إلى بولاق نزل الأمراء وكبار الدولة
والعلماء والقضاة وأصحاب العكاكيز للقاءه، فركب فى أبهة وكبكية عظيمة وصعدا
إلى قلعة الجبل وأمر فقري فرمان التولية فى محفل حافل، قيل وكان السبب فى
توليته هو أنه لما جلس السلطان سليمان على تخت السلطنة العثمانية صادف وزير
أبيه وهو محمد باشا الصديقي فأقره على الصدارة وكان محمد باشا هذا كبير السن
بطئ الحركة فى قيامه وقعوده وتصرفه فرأى عجزه عن القيام بأعباء هذه الرئاسة
فأنزل نفسه وولى مكانه إبراهيم باشا المعروف بأودة باشا وكان أقدم من إبراهيم باشا
فى الخدمة آخر هو أحمد باشا وكان يؤمل أن الصدارة لا تفوته إلى غيره من بقية
الأمراء فزاحم إبراهيم باشا المذكور وجلس بقوة قربه من السلطان فشكاه إبراهيم باشا
إلى السلطان فدبر فى إزالته وولاه مصر ليستجلب خاطره فلما تولاه وأخذ
يتصرف فى أمورها جعل إبراهيم باشا الصدر يتعقبه للعداوة السابقة ويرميه بما

يوجب قتله ومازال بالسلطان حتى أبرز الأمر لجماعة المرابطين بمصر أن يجتمعوا عنده ويقتلوه فى محله ثم يولوا أحدهم مكانه حتى يرد عليهم الأمر بولاية خلافة وأرسلت الأحكام بذلك إلى الأمراء بمصر. قال بعض أصحاب الأخبار: فوقع الأمر فى يد أحمد باشا المذكور قبل أن يصل إلى الأمراء فخاف وجعل يضرب أخماسا فى أسداس حتى سولت له نفسه العصيان والخروج عن طاعة السلطان وأن يقاتل بجيش يجمعه من مصر فأبدى الخروج وادعى السلطنة وضرب السكة باسمه على الدنانير والدراهم وتحصن بقلعة الجبل وقبض على الأمير وهب جانم الحمزاوى والأمير محمود بك وسجنهما يريد قتلهما ولبث الحال هكذا أياما اختل فيها نظام القاهرة وظهرت الغوغاء وانقطعت السبل وأغلقت الخوانيت نهارا وعاث أهل الفساد فسقوا ونهبوا وفعلوا ما لا خير فيه.

واتفق أن دخل أحمد باشا المذكور الحمام يوما للغسل فعلم الحمزاوى والأمير محمود بك بذلك فكسرا الأبواب وخرجا ورفعوا صنجقا سلطانيا وناديا من أطاع الله ورسوله والسلطان فليقف تحت الصنجق فوقف تحت الصنجق خلق كثير وجم غفير فساروا وسار أمامهم الحمزاوى ومحمود بك إلى الحمام فكبسا الحمام على أحمد باشا وكان قد حلق نصف رأسه وأعجله على حلق النصف الثانى هجوم أصحاب الحمزاوى فهرب إلى سطح الحمام وتسلق من مكان إلى مكان فنهبوا جميع ما عنده من سلاح ومتاع واقتفوا أثره فأدركوه بمنية جناح بالغريسة فقتلوه وذلك فى أخريات سنة ثلاثين وتسعمائة واحتزوا رأسه وجيء به فعلقوه على باب زويلة ثم بعثوا به إلى دار السلطنة فكانت مدة تصرفه بمصر سنة واحدة لاغير لم يأت فيها عملا يذكر فيشكر.

(مطلب)

ولاية قسام جزل باشا وخلعه وولاية إبراهيم باشا

وقد تولى بعده قسام جزل باشا فدخل القاهرة فى السنة المذكورة وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل وأمامه أرباب الوظائف وطوائف الجند من المشاة والفرسان وعليه خلعة التشريف السلطانية فلم يكذ يستقر به المنصب حتى جاء الأمر بخلعه وولاية إبراهيم باشا فتزل من القلعة فى المحرم افتتاح سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة ولم يلبث إلا أياما حتى جاء إبراهيم باشا الوالى المذكور ودخل القاهرة

فى كبكية عظيمة وصعد إلى قلعة الجبل ثم نزل فى ثانى يوم وجلس على المصطبة بالميدان وبين يديه جميع الأمراء والقضاة والعلماء والمباشرين وأصحاب الوظائف فلقى فرمان التولية ورفعت إليه القصص فى ذلك اليوم فنظر فى مصالح الخلق وكان عاقلاً ذكياً محباً للخير، واهتم السلطان سليمان فى أيامه بترتيب أمور الديار المصرية فأجاز لطوائف المماليك الشراكسة الذين أقرهم والده على خدمة الدولة أن يتولوا رتبة الباشوية عند الحاجة وضم إليهم اثنى عشر أميراً فكان من يصح انتخابهم إلى هذه المرتبة العظيمة الكيخيا وقباطين ثغور السويس ودمياط والإسكندرية وأمير الخزينة السلطانية والدفتردار وأمير الحج وصناجق الشرقية والغربية وجرجا والبحيرة، وكان لدار السلطنة اهتمام عظيم وعناية كبرى بالثغور الثلاثة المذكورة لأنها أبواب البلاد فكان الجند المرابطون فيها يقدمون من دار السلطنة مع القباطين فيقيمون سنة ثم يستبدلون بآخرين وهكذا فى كل سنة فكان مرابطو الثغور المذكورون غير محسوبين فى عداد العسكر المصرى وكانهم أجنب عنه .

(مطلب)

ولاية سليمان باشا الخادم وفيها رسم به السلطان من مساحة أطيان سائر البلاد وجعلها ملكاً للسلطان

ولم تطل مدة إبراهيم باشا فقد جاء الأمر بعزله فرحل عن مصر فى شعبان سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة فكانت مدة تصرفه سبعة أشهر وتولى بعده سليمان باشا الخادم فدخل القاهرة فى تاسع شعبان من السنة وجعل يتصرف فى الأمور فرسم فى أيامه السلطان سليمان بمساحة جميع قرى مصر وضبط أراضيها على يدى الأمير كيوان وربط خراجها على من كان يستغلها فطاف المساحون البلاد ومسحوها وقسموها إلى أحواض سموها بالقراريط وأحكموا عملهم فزاد الخراج زيادة عظيمة وجباه الولاية فكان بعد ذلك شيئاً كثيراً، ورسم بأنه هو صاحب جميع أرض مصر ومالكها يعطيها لمن يشاء ويمنعها ممن يشاء فكان يقطعها لطائفة من الأهالى يعرفون بالملتزمين فكانوا يتصرفون فى الأرض تصرف الملاك ما بين هبة وإسقاط وإيقاف وغير ذلك وكان أصحاب الأرض الذين هم ملاكها من أهل البلاد يحرقونها ويفلحونها لأولئك الملتزمين، ولا يأخذون من غلاتها إلا بقدر الحاجة ولا يتصرفون فيها مع نورثها لأعقابهم من بعدهم وكان لا يحل لأحدهم ترك ما بيده من الأرض

أو التخلي عن تعهدا بالحرث والزرع بل كان يجبر على ذلك ويضرب ويقوم بدفع ما عليها من الخراج إلى أولئك الملتزمين فإذا مات الفلاح ولم يعقب نسلا أعطيت أرضه للملتزم وهو يعهد بحراثتها لمن يشاء فإذا مات الملتزم ولم يعقب وارثا انحلت التزامه وعاد إلى ملك السلطان وكان إذا تأخر الفلاح والملتزم في دفع الخراج أخذت منهما الأرض وسلمت لغيرهما ليقوم بما عليها في آجاله وبعد أن أتم مساحة جميع الأتبان سموها من هذا الحين أطيانا سلطانية ورزقا وأوقافا وإقطاعات وغير ذلك وكتب بها دفاتر محررة ووضعت بديوان مصر المحروسة وتسمى دفاتر ترايع سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ولم تلبث أن أحرقت ثم جددت وقيل بل أهملت ولم تتجدد.

(مطلب)

ولاية خسرو باشا وخلعه ورجوع

سليمان باشا إلى الولاية ثانية

وكان سليمان المذكور ميالا للخير يحب إنشاء المباني العظيمة والآثار الفاخرة فعمر جامعا بقلعة الجبل وآخر ببولاق القاهرة ويجواره وكايل وأسواق وربوع وغير ذلك ثم ورد عليه مرسوم السلطان سليمان بالتوجه إلى اليمن فكانت مدة تصرفه بديار مصر تسع سنين وأحد عشر شهرا وستة أيام فتولى بعده خسرو باشا ودخل القاهرة في عشرى رمضان سنة إحدى وأربعين وتسعمائة وصعد إلى قلعة الجبل في الموكب المعتاد ولم يقع في أيامه من الحوادث شيء يذكر وعمر صهريجا بين القصرين بالقاهرة وتصرف إلى سادس جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة فكانت مدة تصرفه سنة وثمانية أشهر وستة أيام وعزل ثم عاد سليمان باشا الخادم إلى ولاية البلاد عند عوده من اليمن في حادى عشر رجب سنة ثلاث وأربعين فتصرف إلى حادى عشر المحرم سنة خمس وأربعين وكانت ولايته الثانية سنة واحدة وخمسة أشهر وواحدا وعشرين يوما، وكان حسن التدبير عظيم السياسة واسع الرأى مطاعا محبوبا ثم عزل.

(مطلب)

ولاية داود باشا

وتولى بعده داود باشا فدخل القاهرة فى سابع المحرم سنة خمس وأربعين وتسعمائة وجلس للناس على المصطبة بالميدان فرفعت إليه القصص فنظر فى مصالح الخلق وجعل يتصرف مع الكياسة والعدل وكان كريما مهيبا محبا للعلوم والعلماء كلفا بالمطالعة واقتناء كتب العرب وقد جمع منها شيئا كثيرا واستنسخ كل ما ظفر به منها وسعدت فى ولايته البلاد واطمأنت الرعية وساد الأمن وسلكت السبل وبنى فى ولايته مدرسة عظيمة بسويقة صفية اللالة بالقاهرة ووقف لها أوقافا وهى باقية إلى الآن وتصرف إلى ثالث عشر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وتسعمائة فكانت مدة ولايته إحدى عشرة سنة وشهرا واحدا وعشرين يوما وتوفى بالقاهرة ودفن بالقرافة وكانت أيامه كلها بركة وإسعادا .

(مطلب)

ولاية مصطفى باشا صفصافان وخلعه وولاية علي باشا

وتولى بعده مصطفى باشا صفصافان فوصل القاهرة فى الخامس من ربيع الأول سنة ست وخمسين وتسعمائة وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد ولم يقع فى أيامه شئ يذكر فتصرف إلى شهر رجب من السنة المذكورة وعزل فكانت ولايته أربعة شهور ونصف شهر وتولى بعده على باشا فى خامس عشر سنة ست وخمسين وتسعمائة وتصرف إلى غاية المحرم سنة إحدى وستين وتسعمائة وعزل فكانت مدته أربع سنين وخمسة أشهر وستة وعشرين يوما وكان على باشا هذا وقورا معززا محبوبا من الرعية شفوفا عليها بعيدا عن العنف والظلم ميالا إلى إنشاء العمائر العظيمة والآثار النافعة فشاد منها فى رشيد والقاهرة وفوه وحذا حذوه الأمراء والكبراء ففعلوا كذلك بمصر والقاهرة وغيرهما من المدن، ولما انصرف عن ولاية مصر عاد إلى دار السلطنة فجعل يتقلب فى الوظائف العالية والمناصب الرفيعة حتى بلغ مسند الصدارة فدبر الأمور وسار سيرة حسنة للغاية فأحبه الناس ومالت إليه القلوب .

(مطلب)

ولاية محمد باشا المعروف بدوفتركين زاده

وتولى بعده على مصر محمد باشا المعروف بدوفتركين زاده ودخل القاهرة فى أوائل صفر سنة إحدى وستين وتسعمائة فلما جاء الخبر بوصوله إلى بولاق نزل الأمراء والعلماء والقضاة للقاءه فصعد إلى قلعة الجبل فى المركب المعتاد ثم تحجب عن الناس وزاد فى التحجب وكان فظا غليظا جبارا عنيدا فأساء التصرف وعبث بالأمور وأكثر من المغارم ومصادرة الناس فى أموالهم فكثر الوشاة على أبوابه وأخذ بالشبهات فكرهه الناس كافة وأبغضه الأمراء وأعرضوا عنه ثم خلع فكانت مدة تصرفه سنة واحدة وشهرين وتسعة عشر يوما.

(مطلب)

ولاية إسكندر باشا

وتولى بعده إسكندر باشا فدخل القاهرة فى جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وتسعمائة فتصرف إلى غاية رجب سنة ست وستين فكانت ولايته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثمانية أيام وكان شهما حازما حسن التدبير والسياسة وقورا مهيبا عمر فى ولايته المدرسة التى بباب الخلق المطلة على الخليج الناصرى وهى من أفخر المباني وأتقنها وعمر تكية تجاهها وسبيلا بجوار المدرسة فعمل له بعض الشعراء تاريخا نصه: رحم الله من دنا وشرب سنة ٩٦٦. ووقف على ذلك أوقافا جليلة.

(مطلب)

ولاية علي باشا الخادم خلعه وولاية شاهين باشا

ولما خلع تولى بعده على باشا الخادم فدخل القاهرة فى سابع عشر شعبان سنة ست وستين وتسعمائة فتصرف إلى سادس عشر صفر سنة ثمان وستين فكانت مدة تصرفه ستين وستة أشهر ولم يقع فى أيامه من الحوادث شئ يذكر، وتولى بعده شاهين باشا فدخل القاهرة فى ثانى ربيع الأول سنة ثمان وستين وأخذ يتصرف فى الأمور فكان رجلا جليل القدر حسن السياسة والتدبير ومازال حتى عزل فى غاية

جمادى الآخرة سنة إحدى وسبعين وتسعمائة فكانت مدة ولايته ثلاث سنين وثلاثة أشهر .

(مطلب)

ولاية علي باشا الصوفي

وتولى بعده علي باشا الصوفي فدخل القاهرة فى أول رجب سنة إحدى وسبعين وتسعمائة ولقاه الأمراء والعلماء والقضاة وأصحاب الوظائف وصعدوا به إلى قلعة الجبل فلم يجلس للناس كعادة الأمراء والولاة وتحجب ثم لم يلبث أن تجبر وظلم وكان قبل حضوره إلى مصر واليا على بغداد وكان له فيها أحوال غريبة وأحكام جائرة فأبغضه الناس وشكوا منه وضجوا وعجوا فعزل عنها وأتى به إلى مصر وكثر عسفه فكثر الفساد فى البلاد وارتفع الأمن وعاث اللصوص فنهبوا وسلبوا بغير ممانع وأحاط قطاع الطرق بضواحي مصر والقاهرة فانكمش الناس وانكفوا عن الخروج خارج السور وضجوا وشكوا إلى علي باشا المذكور فلم يلتفت لشكواهم وكأنه كان يقاسم أهل الفساد فيما يسرقونه فبلغت الجراءة بالغوغاء والخرافيش مبلغها وقامت طائفة من الفداوية فأوقدوا النار فى المدينة طمعا فى النهب فسرى الحريق إلى الجامع الأبيض واشتدت النيران وعلا اللهب وكثير النهب والسلب وخرجت النساء والأطفال والشيخوخ من الديار هائمين على وجوههم فرارا من فعال الفداوية ومازالت النار تعمل فى جميع ما وصلت إليه حتى كادت تدمر جميع المساكن والوكائل وغيرها .

(مطلب)

فى سبب إقامة السور من قنطرة الحاجب إلى الجامع الأبيض

وكلم الأمراء علي باشا المذكور فى أمر اللصوص وفيما آلت إليه حالة المدينة من الخراب فلم يلتفت لقولهم فراوا أن يقيموا سورا من قنطرة الحاجب إلى الجامع الأبيض ليمنعوا البلد من تطاول أيدي اللصوص إليها فأقاموه ووكلوا به من يحرسه فاطمأنت القلوب وسكنت الخواطر قليلا ومازال علي باشا المذكور يتصرف بالجور والظلم حتى خلع .

مطلب)

ولاية محمد علي باشا المعروف بالمقتول

وتولى بعده محمد علي باشا المعروف بالمقتول فقدم من دار السلطنة في كبة عظيمة فكان كلما مر ببلد من الإسكندرية إلى القاهرة قدمت له التحف والهدايا ومدت له الموائد وبالح الناس في تعظيمه وإجلاله فرحا بخلاصهم من ظلم الصوفى وجوره. فلما دخل القاهرة لاقاه جميع الأمراء والعلماء والقضاة والمباشرين وأصحاب الوظائف العالية والأمير محمد بن عمر متولى الأقاليم القبلية يومئذ وقدم له عدة هدايا نفيسة للغاية وخمسين ألف دينار نقرة فأجله محمد علي باشا المذكور وأذناه من مجلسه وقد طمع فيه فلما استأذنه بالانصراف وخرج من مجلسه أمر فقبض عليه جماعة من أعوان الباشا وقتلوه خنقا فاندعش الناس من ذلك جدا وأخذتهم الطيرة وسأل عن قاضى القضاة يومئذ الشيخ يوسف العبادى فقيل له إنه لم يحضر فرسم بإحضاره فأحضروه فلما مثل بين يديه أمر بخنقه وهو يستغيث وليس من يغيثه ثم تحجب عن الناس أياما ثم ظهر وبث العيون والجواسيس بين الأمراء وأرباب الدولة فزاد عسفه وأخذة للناس بالشبهات وأكثر من القتل وإراقة الدماء وبالح في إذلال الرعية والتكيل بالأمراء وكان لا يسير فى المدينة إلا ومعه الشوباصى وهو كبير الجلادين فإذا مر بأحد وأراد قتله أشار بيده إلى الشوباصى المذكور فينزع حالا رأسه عن جسده ويهدر دمه على الفور فانكمش الناس وزاد خوفهم وضجوا إلى الله وابتهلوا بالدعاء وزاد سخطهم عليه وتواردت قصص الأمراء بمصر على دار السلطنة مستغيثين من عسف محمد علي باشا المذكور وظلمه للرعية فلم يلتفت السلطان إليهم لاشتغاله يومئذ بفتح جزيرة مالطا التى كانت إلى هذا الحين مقر رهبنة القديس يوحنا الأورشليمى وإعداد سفن الحرب ومراكب النقل اللازمة لذلك لأنه لما اتسعت أملاك السلطنة العثمانية وبسطت يدها على الكثير من سواحل البحر الأبيض المتوسط وكانت جزيرة مالطا واقعة بين إقليم تونس وجنوبى إيطاليا وكان لمن يملكها اليد الطولى على البحر المذكور عمد السلطان سليمان إلى فتحها وسير إلى ذلك مائتى سفينة حربية فحاصروها حصارا تاما وضيقوا عليها تضيقا شديدا وواصلوا الرمي عليها بالمكاحل وداموا على هذا الحال أربعة أشهر مات فى خلالها الأمير طرغول أمير تلك العمارة العظيمة وكانت الفرنجة تسميه دراجوت

ومع كل ذلك لم ينالوا منها وجاء الشتاء وكثرت الزوايع وارتفعت أمواج البحر فارتفع عنها الحصار وعادت العمارة إلى القسطنطينية فعاد الأمراء بمصر إلى الاستغاثة بالسلطان من شر محمد على باشا الوالى وأكثروا من رفع الظلامات وترادف القصص فلم ينالوا منه شيئا لخروجه فى جيش عظيم فى سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة لصد هجمات النمسا عن بلاد المجر إذ كانت له السيادة عليها إلى هذا الحين وبينما هو فى الطريق بلغه أن صاحب سكودار إحدى مدائن بلاد المجر التى يقال لها أيضا زيجت قد ظفر ببعض الجيوش العثمانية التى كانت تقاتل فى تلك الأصقاع فسار إلى قتاله وحاصر المدينة المذكورة وشدد عليها حتى أخذ جميع معاقليها الأمامية فأخلى عساكرها المدينة وتحصنوا بقلعتها فلم تفتقر للسلطان همة فى قتالهم واشتد فى القتال وقد نهكه التعب فمرض وثقل عليه المرض فلما كان العشرون من صفر سنة أربع وسبعين وتسعمائة اشتد عليه مرضه ومات فأخفى وزيره خبر موته تخاشيا من وقوع الفشل فى العسكر وسير إلى ولده الأمير سليم بكوتهاية يعلمه بخبر موت أبيه ويحثه على الحضور إلى القسطنطينية ليتولى منصب السلطنة ولم ينكف الوزير عن القتال مع من تحصنوا بقلعة سكودار ووالى الهجوم عليها ومازال بها حتى احتلتها العساكر العثمانية عنوة فهرب من كان بها من الأعداء فلم يستقر بها مقام العساكر العثمانية حتى انخسفت بهم أرض القلعة وسقط جميع بنائها عليهم جميعا فماتوا تحت الردم وذلك أن العدو كان قد دبر المكيدة بأن عمل عدة ألغام تحت بناء القلعة فلما دخلتها العساكر واستقروا بها أشعل العدو تلك الألغام فانخسفت أرض القلعة وتهدم جميع بنائها وهلك جميع من دخلها ولما تم النصر للعساكر السلطانية على هذه الكيفية طير الوزير خبره إلى الآفاق وسير الرسائل بخاتم السلطان كى لا يعلم أحد بخبر موته ثم عاد إلى القسطنطينية مع من بقى من العساكر ومعهم جثة السلطان فوجد أن الأمير سليم قد حضر وقبض على زمام الأمور وأخذ يتصرف فى أعمال المملكة. قال أصحاب التاريخ: ولم تكن ولاية العهد قد أتت إليه بالارشدية أو الاستحقاق بل بدسيسة أمه روكسلان إحدى حظيات السلطان وقتل السلطان لولده الأرشد الأمير مصطفى وابنه الثانى الأمير بايزيد مع أولاد بايزيد الخمسة، وتحرير الخبر، أنه كان للسلطان سليمان حظية مجهولة النسب تسمى روكسلان وكان يحبها حبا شديدا فولدت له من الذكور الأمير سليمان وابنتين وكانت تمنى أن يكون الملك لابنها بعد موته ولكنها كانت تخفى ذلك عن السلطان وتراقب من الفرص

أنفعها فلما مات إياس باشا صدر الدولة سعت روكسلان المذكورة لدى السلطان فى تولية رستم باشا منصب الصدارة وكان بينها وبين رستم المذكور كلام فى أمر مبايعة ولدها بالملك بعد أبيه فولاه السلطان الصدارة وأدناه منه كثيرا وزوجه بابنته من روكسلان هذه فزاد تعلق روكسلان به وعمد هو إلى ارضائها بتمهيد الطريق لتولى ابنها الملك بعد أبيه فلما انتشبت الحرب بين الدولة ومملكة فارس سير السلطان الأمير مصطفى أكبر أولاده على رأس جيش إلى ساحة القتال وكان محبوبا عند طوائف الانكشارية لحسن سياسته ومعرفته بفنون الحرب والقتال وبسالته وإقدامه فأبلى فى الفرس بلاء حسنا وظهرت شجاعته فازداد حب طوائف الانكشارية له ومالت قلوبهم جميعا إليه فانتهمز رستم باشا هذه الفرصة وكتب إلى السلطان يخوفه من ولده ويقول إنه عامل على الخروج وشق عصا الطاعة مع طوائف الانكشارية وعزل السلطان وتولية هو منصب السلطنة كما فعل السلطان سليم الأول بأبيه بايزيد فأكبر السلطان هذا الخبر واستعظمه وكاد لا يصدق وأهمه للغاية فأنست منه روكسلان الحيرة والاضطراب فسألته عن سبب ذلك فأخبرها بخبر ولده مصطفى وما قاله رستم باشا فظهرت غاية الخوف والانزعاج وأخذت تقبح له فعال الأمير وترميه بالخيانة والغدر وتحذره من عاقبة التهاون بهذه المكيدة وما زالت به حتى التهب قلبه غيظا وقام فى طائفة من عسكره يريد بلاد فارس وطير الخبر بأنه إنما قام ليتولى قيادة هذه الغزوة فلما اقترب من المعسكر خرج ولده مصطفى وجميع الأمراء وكبار الجند للقاءه وساروا فى ركابه حتى أنزلوه فى سرادقه وفرح ولده مصطفى بقدمه فرحا عظيما فلما كان الثانى عشر من شوال سنة ٩٦٠ هجرية استدعى السلطان ولده مصطفى إلى سرادقه ليكلمه فى أمر القتال مع الفرس فدخل عليه وهو فى لباسه المعتاد فلم يكده يصل إلى أبيه حتى قبض عليه جماعة من الخدم وقتلوه خنقا وهو يصيح ويستغيث بأبيه حتى مات وأبوه ينظر إليه ثم نقلوا جثته إلى مدينة بروسة فدفنت فى تربة أجداده. قالوا ولم تكتف روكسلان بقتل الأمير مصطفى بل أرسلت أيضا إلى مدينة بروسة بعض خواصها فقتلوا ابنه الرضيع وشاع هذا الأمر بين الناس فاستعظموه وانحرفت خواطرهم عن السلطان وبكى الأمير مصطفى أهل العلم والأدب وراثه الشعراء ولم يخشوا بأس أبيه فقال بعضهم فى ذلك:

يادهر ويحك ما أبقيت لى جلدا وأنت والد سوء تأكل الولدا

ونار طوائف الانكشارية على السلطان وطلبوا قتل رستم باشا المذكور وهاجوا

وماجوا حتى كادت الفتنة تعم فرسم السلطان بخلعه وولى مكانه أحمد باشا تسكينا للفتنة واسترضاء لطوائف الانكشارية وكان للأمير مصطفى أخ اسمه الأمير جهانكير فحزن على أخيه حزنا عظيما جدا وبكاه وبكاء شديدا للغاية حتى مات كمدا عليه بعد قليل من الأيام وقيل بل قتل نفسه أمام أبيه بعد أن وبخه وأنبه على قتل أخيه فلم يبق بعد موته من أولاد السلطان سوى الأمير بايزيد والأمير سليم بن روكسلان، وكان للأمير بايزيد مرب اسمه لاله مصطفى فولاه السلطان النظر على بيت الأمير سليم بعد روكسلان أمه فأحبه الأمير سليم وقربه منه وأعلمه بما كان يخشاه من مزاحمة بايزيد له في الملك بعد أبيه وطلب منه أن يعمل على هلاك بايزيد وأولاده ليخلو له الجو فهون عليه لاله مصطفى الأمر ومناه بالفوز وجعل يستعمل الحيلة فكتب إلى بايزيد يوما يقول إن أخاك سليما منهمك في اللذات غافل عن واجب السلطنة وما هو مفروض على أبناء الملوك فضلا عما هو عليه من الطيش وعدم الأهلية لنصب الخلافة ومع ذلك فإن أباك أبي إلا مبايعته بولاية العهد من بعده فهل لك في هذا الأمر رغبة؟ وتعددت بينهما الرسائل وركن الأمير بايزيد إلى لاله مصطفى وأتمن جانبه فكاشفه بما في نفسه ولم يخف عنه أمرا ثم كتب الأمير بايزيد إلى أخيه سليم يوما يعيب فعال أبيه ويرميه بالجفاء وغلظة الطبع ويسمه بالقسوة وفقدان الخنو الأبوى فأشار لاله مصطفى على الأمير سليم بإعطاء تلك المكاتبه لأبيه فلما اطلع السلطان على ما بها مما يمس كرامته غضب غضبا شديدا وزاده غضبا وشاية لاله مصطفى بالأمير بايزيد فسير إلى بايزيد يقول له إذا أتاك كتابي هذا تحول من فورك عن قونية إلى أماسية وكان واليا على قونية فخاف بايزيد من ذلك وظن أن أباه إنما يضممر له الشر فامتنع من الذهاب إلى أماسية وجيش له جيشا عظيما وتحصن في قونية فسير إليه أبوه جيشا ومقدمه الوزير محمد باشا الملقب صقللي فالتقى الجيشان عند قونية واقتتلا قتالا عنيفا مدة ثلاثة أيام كانت فيها الحرب سجالا ثم انكشف القتال عن هزيمة بايزيد وفراره إلى مدينة أماسية فلدحقته عساكر أبيه فرحل عنها إلى بلاد فارس ولجأ هو وأولاده إلى طهماسب ملك فارس فقبله وأكرم مثواه ولكنه سير إلى السلطان سليمان خفية يعلمه بخبره فأرسل السلطان سليمان رسلا في طلبه. فسلمه إليهم طهماسب مع أولاده ولم يرع ذمتهم فأمر بهم السلطان فقتلوا جميعا في مدينة قزوين إحدى مدائن فارس ونقلت جثثهم إلى مدينة سيواس وخنقوا طفلا كان لبازيد بمدينة بورسة ودفنوه مع أبيه وإخوته بسيواس. قال أصحاب

التاريخ: فكانت هذه الأمور الشنعاء نقطة سوداء فى تاريخ حياة السلطان سليمان وكادت تذهب بجميع حسنه وشهرة غزواته وكثرة فتوحاته أدراج الرياح مع أنه كان ملكا جليل القدر واسع الكلمة عارفا بفنون الحرب وأساليب السياسة محبا للخيرات وافر الصدقات. قال بعضهم: ومن آثاره الحميدة السحابة الكبرى بطريق الحج ولها أوقاف كثيرة يشتري من ريعها فى كل عام جمل لحمل الفقراء والمنقطعين والعواجز والماء والزاد وغير ذلك ومقرر بها من المغاربة أربعون نفرا ومن المطاوعة أربعون نفرا (يريد بهم العسكر) ذهابا وإيابا مات فكانت خلافته نحوا من تسع وأربعين سنة وله من العمر أربع وسبعون سنة قضاهما كلها فى الغزو والفتوحات.

ومات فى أيامه مرقس بطرك المتأصلين بعد أن أقام أربع عشرة سنة وفى أيام سليمان المذكور اشتد الولاة على قبضة مصر وضيقوا عليهم وعملوا على تبيدهم عن أوطانهم فبعدوا منهم خلقا من العظماء والوجهاء وخيار الناس ثم صادروا من بقى وأفحشوا فى تخريب بيوتهم وتبديد أرزاقهم فكانت شدة عظيمة للغاية وبعد موت مرقس المذكور أقيم يوحنا وهو خامس ثمانيه وأصله من الشام فأقام ست سنين وومات فأقام المتأصلون بعده غبريال وهو سادس ثمانيه وكان راهبا من دير المحرق فأقام ثمان سنين وومات فأقيم بعده متاوس وهو سابع ثمانيه وكان راهبا بدير المحرق فأقام ثلاثين سنة وومات وكان عالما تقيا عاقلا محبا للخير معينا للفقراء كثير التصديق ولم تكن أيامه أقل شدة من أيام سلفه فقد ذقت فيها النصرانية من البلايا والمحن أشكالا وبموته أقام المتأصلون غبريال وهو ثامن ثمانيه وكان راهبا بدير القلامون ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله وبموت السلطان سليمان كما تقدم القول تولى السلطنة بعده ولده السلطان سليم الثانى .



(الفصل الثالث)

(فى سلطنة السلطان سليم الثانى)

ثم قام بالامر بعد السلطان سليمان ولده السلطان سليم الثانى ببيع بالملك تاسع ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وتسعمائة هجرية أى سنة ست وستين وخمسمائة والى ميلادية وعمره ست وأربعون سنة ولم يمض إلا ثلاثة أيام على

بيعته حتى سار فى جيش عظيم إلى نجدة العساكر الذين كانوا يقاتلون بناحية سكودار فلما وصل إلى ناحية سردم لاقاه الوزير محمد باشا وكان هو القائد لجيوش تلك الغزوة فأعلمه بما يعانىه العسكر من البرد وسقوط الثلج وكان الوقت وقت شتاء وأعلمه بمنعة قلعة سكودار ووجوب عودهم إلى الأوطان حتى ينتقضي الشتاء وأشار عليه أن يتربص ناحية سردم حتى يأتى إليه بجميع الجند والأمراء المحاصرين للقلعة، فلبث السلطان سليم أياما حتى اجتمع العسكر وساروا فى ركابه إلى دار السلطنة، ووردت الأخبار إلى مصر بسلطنة السلطان سليم فزينت المدينة ثلاثة أيام وأطلقت البشائر وفرح الناس بولايته وتقوت آمالهم بالخلاص من مظالم محمد على باشا واستعباده لهم فرفع الأمراء وكبار الرعية والعلماء والمباشرون عندئذ ظلامتهم إلى دار السلطنة واستغاثوا وضجوا فورد مرسوم السلطان إلى محمد باشا المذكور بإجراء العدل فى الرعية والرفق بالناس والتهى عن الجور وكان قد تزايد جوروه وأخذ للناس بالشبهات فأفحش فى القتل والسلب وتبع العورات فلم يرعو ولم تأخذه أخذه من الخوف فعادوا إلى الشكوى وعظموا للسلطان البلوى ولبشوا ينتظرون ما سيكون بعد ذلك، واتفق فى هذه الغضون موت الأمير إبراهيم بك الدفتردار الذى كان متوليا امارة الحج فاستولى محمد باشا المذكور على خزائنه وعاليكه وجواريه وكل ماله وجملة ذلك مائة ألف دينار ذهبا فضمها إلى خزانة السلطان التى يبعث بها فى كل عام من مصر وأرسل معها أيضا شيئا كثيرا من الهدايا والتحف التى لا مثيل لها هدية منه للسلطان ورجال الدولة استجلابا لخواطرهم فلم يكن بعد ذلك من يسمع للمصريين شكوى ودامت الحال على ذلك مدة، فلما كان يوم الأربعاء غاية جمادى الأولى سنة خمس وسبعين وتسعمائة خرج محمد باشا المذكور فى كسبة وحوله طائفة من أعوانه ومر من جهة الناصرية يريد مصر القديمة فلما صار على مقربة من حائط هناك أطلقت عليه بندقية من خلف الحائط فأصاب رصاصها صدره فسقط عن فرسه فهاج لذلك أعوانه وبحثوا عن القاتل فلم يعثروا له على أثر واتفق فى هذه الأثناء أن مر رجلان من الفلاحين بالقرب من موضع الحادثة فقبضوا عليهما واتهموهما بالفعل وقتلوهما ظلما وقيل إنه قتل فى يوم الأحد تاسع عشرى شهر جمادى الآخرة سنة خمس وسبعين وتسعمائة فكانت مدة تصرفه سنة واحدة وتسعة أشهر وعشرين يوما وفرح الناس بموته فرحا ما عليه من مزيد فقال فيه بعض الشعراء :

موت محمود حياة فيه للعالم رحمه
قتله بالنار نور وهو فى التاريخ ظلمه
سنة ٩٧٥ هجرية

وقال بعضهم أيضا :

أتى محمود باشا يوم نحس فساقتة منيته غصيبه
نجاه الناصرية خلف حبط بغيط جاءه منه مصيبه
ببندقية رماه كف رام فحررها فجاءته مصيبه

(مطلب)

ولاية سنان باشا

فلما وصل خبر موته إلى دار السلطنة أرسل للولاية بعده سنان باشا فدخل القاهرة فى ثالث عشرى شعبان سنة خمس وسبعين وتسعمائة وكان قبل مجيئه واليا على حلب فلم تستقر به الولاية على مصر حتى ورد عليه مرسوم السلطان بالقيام إلى فتح اليمن واسترجاعها من الزيديين وكانوا قد خرجوا ثانية وشقوا عصا الطاعة فسار من القاهرة فى الرابع من شوال سنة ست وسبعين فكانت مدة تصرفه فى مصر نحو من تسعة أشهر وسار معه من الأمراء المصريين حمزة بك ومعاى بك وغيرهما من الصناجق، قيل وكان استصحابه لهؤلاء الصناجق لأمر نسبوه إليه وهو قتل محمد باشا الوالى السابق، وأقام سنان باشا المذكور يقاتل اليمانيين ستين وأربعة أشهر حتى يسر الله له الفتح واستنقاذ اليمن من أيدي الزيديين وطير الأخبار بذلك إلى مصر والقسطنطينية ففرح السلطان بذلك فرحا عظيما وتزاحم على أبوابه الشعراء بقصائد التهاني وألف العلامة قطب الدين محمد بن أحمد المكي تاريخه لهذا الفتح سماه البرق اليماني فى الفتح العثماني. قيل وهو غاية فى البلاغة وبه قصيدة لا بأس بإيراد بعض أبيات منها هنا وهى :

لك الحمد يا مولاى فى السر والجهر على عزة الإسلام والفتح والنصر
كذا فليكن فتح البلاد إذا سعت لها الهمم العليا إلى أشرف الذكر
جنود زهت من كوكبان خيامها وآخرها بالنيل من شاطئ المصر

(ومنها)

فهل يطمع الزيدى فى ملك تبع ويأخذها من آل عثمان بالمكر
أبى الله والإسلام والسيف والقنا وسر إمام المسلمين أبى بكر
وهى طويلة للغاية...

(مطلب)

ولاية إسكندر باشا الفقيه الشركسي بدلا من سنان باشا

فلما سار سنان باشا إلى فتح اليمن أتى للولاية بعده إسكندر باشا الفقيه الشركسى فدخل القاهرة فى رابع جمادى الآخرة سنة ست وسبعين وجعل يتصرف إلى غاية المحرم افتتاح سنة تسع وسبعين فكانت مدته ستين وسبعة أشهر وخمسة عشر يوما وكان عادلا تقياً محباً للرعية أبطل بعض المغارم والمكوس ورفعها عن الفقراء والعواجز وأهل العلم وأمنت فى أيامه السبل واطمأنت قلوب الرعية فكانت أيامه كلها بركة ورخاء على البلاد وأهلها ولم يقع فيها شئ من الإحن والبلايا ومازال يتصرف فى الأمور ويعمل فى الرعية حتى مات، وعاد سنان باشا من فتح اليمن بعد موت اسكندر باشا بأيام قلائل ولم يرجع معه أحد من الأمراء والصناجق الذين كانوا قد ساروا فى ركابه إلى هذه الغزوة وكانهم قد ماتوا جميعا فلما دخل القاهرة جاءه الأمر بولايته على مصر ثانية فتولاهما من أول شهر صفر سنة تسع وسبعين فزاد البلاد اطمئنانا وأمن السبل وأتى على إصلاح الأمور من أبوابها فحضر خليج الإسكندرية وأحسن مجراه وأنشأ عدة مساجد وتكايا وربط وجوامع بديار مصر فى الثغور والبنادر ولم يكن إلى ذلك الحين أحد من الولاة أمثاله فعل ما فعله سنان باشا من البر والخيرات وكان كثير العناية بمصالح الرعية شفوفا عليهم يسأل العمال عن الصغيرة والكبيرة وقد بلغه أن الأمير منصور بن بغداد أمير ولاية المنوفية حدث متلاعب أهمل أمور الولاية وهو منهمك فى اللذات واتباع الشهوات وأن جماعة من السفهاء قد استولوا على عقله وهم المتصرفون فى ولايته وقد زاده إهمالا وجراءة معرفته بالوزير الأعظم ميلوش باشا وتقربه منه وكان قد عهد له بأن لا قدرة لأحد على خلعه من ولاية المنوفية فسار سنان باشا فى القعدة من السنة أى سنة تسع وسبعين وقبض على الأمير منصور المذكور وخلعه وولى مكانه الأمير علام بن بغداد واستمر الأمير منصور مسجوناً فى البرج بقلعة الجبل من سنة تسع

وسبعين إلى سنة ثمان وثمانين وتسعمائة عندما قدم حسن باشا وأطلق سبيله وأرجعه إلى ولاية المنوفية فكانت مدة حبسه نحو من عشر سنين.

(مطلب)

ولاية حسين باشا

وما زال سنان باشا يتصرف فى الأمور مع الرفق واللين بالرعية حتى جاءه أمر السلطان سليم بالحضور إلى دار السلطنة فرحل عن مصر والقلوب راضية عنه فكانت مدته الثانية ستين اثنتين وتولى بعده حسين باشا فدخل القاهرة فى سادس عشرى المحرم افتتاح سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وجعل يتصرف فى الأمور ثم خلع فى سنة اثنتين وثمانين فكانت ولايته سنة واحدة وعشرة أشهر وخمسة عشر يوما وكان عاقلا رزينا شفوفا بالرعية ميالا إلى الخير والإحسان ووقع فى أيامه غلاء عظيم وانقطع الوارد من المأكول والمشروب ثم وقع قحط عظيم جدا فأكل الناس بذر الكتان والحشيش اليابس واشتد الجوع بالناس اشتدادا عظيما وأعقبه الموت فجاءه حتى أن الرجل أو المرأة أو الخادم إذا خرج من بيته لقضاء حاجته أدركته المنية فى الطريق فيموت سريعا بلا ألم ولا وجع وبقي الحال على هذا الوصف أياما كثيرة فهاجر الناس إلى ضواحي القاهرة ومصر ونزحوا إلى بعض القرى والبلدان فرارا من الموت ولكنه لم يلبث أن عم جميع القرى والمدن وكثر واشتد شدة بالغة ثم أخذ يزول، وماتم زواله حتى كثرت اللصوص وظهر قطاع الطرق فعاثوا فى البلاد وسلبوا ونهبوا وأفسدوا وقطعوا الطرق على أبناء السبيل وكانوا لا ينفكون ليلا ولا نهارا وعجز حسين باشا المذكور عن ردعهم فتمادوا وكثر شرهم وعم الخوف جميع البلاد فكانت شدة عظيمة وازدادت الأحوال اضطرابا والأمور خللا وفسادا بتطاول أيدي الجند أيضا إلى أموال الناس وعبثهم بمصالح الدولة وعدم وقوفهم عند طاعة كبارهم وإيذائهم للسوقة والباعة وأصحاب البيوت حتى ضج الناس وترقبوا مرور حسين باشا فى الطريق وصاحوا فى وجهه وقبحوا عجزه وأقسموا إنهم إنما هم رافعون ظلامتهم إلى السلطان وكان السلطان فى هذا الحين فى شغل ليس عن مصر فقط بل عن جميع الأيالات التابعة إلى مملكة أبيه بما تولى عليه من الخمول وضعف النفوذ. قال أصحاب التاريخ: وذلك لأنه لم يكن متصفا بما يؤهله للقيام بحفظ فتوحات أبيه ولا هو متصفا بالحزامة وأصالة الراى فارتبكت لذلك أحوال المملكة

وانفصلت أمورها وطمع فيها الأعداء ومالت بعض الولايات إلى الخروج فشدد بعض الدول الكبرى في طلب كثير من الامتيازات كدولة الفرنسيين فقد نالت في أيامه حقوقا مهمة غير الذي نالته منها في أيام أبيه وكان صدر الدولة يومئذ صقلى محمد باشا وهو رجل موصوف بالتدبير على الهمة كبير السياسة خبير بفنون الحرب صادق الخدمة فبذل العناية في بقاء مركز الدولة غير محقر ولا مهان وأجهد النفس في حفظ ما بيدها من الثغور والعمالات وفتح ما يمكن فتحه من المدائن والثغور فسير لفتح جزيرة قبرص عمارة عظيمة من سفن الحرب تحمل زهاء مائة ألف مقاتل ومقدمها لاله مصطفى باشا فحاصرت الجزيرة إلى أن دخل الشتاء فانصرفت عنها ثم عادت لحصارها حتى تم فتحها وأقلعت بعد ذلك هذه العمارة إلى جزيرة كريت لفتحها فلم تنل منها فأخذت من البندقية بعض المدن الواقعة على بحر الأدرياتيك فأكبر البنادقة هذا الأمر جدا وعمدوا إلى محاربة دولة أسبانيا فلما تمت لهما المحالفة تعاهدا مع بابا رومة على قتال الترك ومنازلة عمارتهم ومحو آثارهم من البحار فأعدوا لذلك عمارة عظيمة من مائة وأربعين من سفن البنادقة وسبعين من سفن الأسبانيول واثنتى عشرة سفينة للبابا وتسع من سفن رهبنة القديس يوحنا الأورشليمي بمالطة وكان مقدم هذه العمارة الأمير دون جوان وهو ابن للإمبراطور شرلكان من إحدى عشيقاته وكانت سفن الترك ثلثمائة سفينة فلما التقى الفريقان عند ليونة اقتتلوا قتالا عنيفا للغاية نحو من ثلاث ساعات ثم انكشف الأمر عن هزيمة السفن التركية وانتصار سفن الأحزاب فاستولوا على مائة وثلاثين سفينة عثمانية وأحرقوا وأغرقوا أربعاً وتسعين وغنموا زهاء ثلثمائة من المدافع وأسروا نحو ثلاثين ألفاً من المقاتلين فكانت هذه الواقعة من أتعس الوقائع وأشدّها خطراً على مقام الدولة العثمانية في عرض البحار، وجاءت الأخبار إلى دار السلطنة بما حل بالعمارة فهاج المسلمون وماجوا وهموا بقتل رسل البابا الذين هم رعاة المذهب الكاثوليكي فلم ينالوا منهم لاهتمام صقلى محمد باشا بمنع القلاقل وعدم تطاول أيدي الرعية إلى الإيذاء. قال بعض كتاب الأخبار : ولم تكن هذه الكسرة المشؤمة لتقعد همة صقلى محمد باشا عن لم شعث العمارة العثمانية وإعادة ما كان لها من الرونق والبهجة حيث أنشأ لها عدة سفن وجهزها وبالع في تجهيزها وأنقن نظامها وسيرها في عرض البحار طلباً للشار فلم يقع بينها وبين سفن الأحزاب شيء من القتال لانقسام عرا الاتحاد ما بين البنادقة والإسبانيول وعقد معاهدة ما بين

العثمانيين والبنادقة على شروط يرضاها الفريقان فلما كان فى خلال الحوادث الأخيرة مرض السلطان سليم واشتد به مرضه أياما ثم مات فى سابع رمضان سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة هجرية أى سنة أربع وسبعين وخمسمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته نحو من تسع سنين فولى السلطنة بعده ولده السلطان مراد خان .



(الفصل الرابع)

(فى سلطنة السلطان مراد ابن السلطان سليم)

ثم قام بالأمر بعد السلطان سليم ولده السلطان مراد ببيع له بالملك عاشر رمضان سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة هجرية أى سنة أربع وسبعين وخمسمائة وألف ميلادية وله من العمر يومئذ ثلاثون سنة وكان شهما مقداما عالى الكلمة واسع المعرفة خبيرا بالأمور محبا للفتح والغزوات فغزا عدة غزوات وسار بجيش ضخم لإخضاع المجر وردّها إلى طاعة الدولة بعد أن كادت تخرج عنها فقاتلها وأذلها إذلالا كبيرا وأعادها إلى ما كانت عليه وفتح عدة مدائن وحصون ودوّن كثيرا من البلدان فاستعت كلمته وكبرت هيئته وعاقده كثير من الملوك وتقربوا إليه .

(مطلب)

ولاية مسيح باشا

وكان حسين باشا والى الديار المصرية قد عزل من منصب الولاية قبل أن يتولى السلطان مراد السلطنة بقليل فأقام بدله مسيح باشا وكان من خزنة دار السلطان سليم فدخل القاهرة فى أوائل سنة اثنتين وثمانين وكان ذا مهابة وعفة يكره أهل الفساد واللصوص وقطاع الطرق وكانوا فى ولاية حسين باشا قد كثروا فى الأرض وعاثوا وأفسدوا فيها كما تقدم فعمل على قطع شأفتهم وصار يتجسس أخبارهم ومواطنهم ويبعث بالحكام فيقبضون عليهم ويأتون بهم عشرات عشرات فيقتل منهم ويشنع فى قتلهم فخافوا وانكفوا وارتجع أهل التهم وسكن الحال واستتب الأمن واطمأنت قلوب الرعية واشتدت يقظة الحكام وهابوه وانكفت أيدي الولاة والكشاف

جميعا عن التجري على ما لا يصلح عمله من أخذ الرشاوى والبراطيل وأخذ الأموال من أصحابها بالسوط والنبوت وبالغ مسيح باشا فى القتل والتمثيل لأقل سبب قيل فكان عدد من قتل فى أيامه زهاء عشرة آلاف وقد علق شناكل من الحديد بالرميلة وبولاق والشون بمصر القديمة لقتل المفسدين وأصحاب الكبائر فكان لذلك وقع فى قلوب الرعية وخافه جميع الناس ومالت إليه القلوب وأحبته الرعية وتصرف فى الولاية التصرف العام إلى ثانى عشرى جمادى الأولى سنة ثمان وثمانين وتسعمائة ثم جاءه الأمر بالانصراف عنها فقام إلى القسطنطينية على الأثر فكانت مدة تصرفه خمس سنين وسبعة أشهر وخمسة عشر يوما وكان قد بنى له مدرسة ومدفنا بالقرافة وأوقف عليها أوقافا عظيمة وكان يؤمل أن يدفن فى مصر ﴿وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت﴾ فحزن الناس لعزله.

(مطلب)

ولاية حسن باشا الخادم

فلما عزل مسيح باشا تولى بعده حسن باشا الخادم فدخل القاهرة فى سادس عشرى جمادى الأولى من السنة وكان قبل ولايته هذه خازن دار السلطان مراد فلم يستقر به المنصب حتى ظهرت عليه علامات الغلظة وجعل يتصرف مع العسف والكبرياء فكان ظلوما غشوما عتلا زنيما معجا للمال ومصادرة الناس ميالا للرشاوى والبراطيل فصادر كثيرا من أهل الوجاهة وذوى البيوتات فأصبحهم بعد الغنى والإثراء فقراء لا يمتلكون شروى فقير واشتد بالرعية شدة بالغة وأخذهم بالشبهات فقتل وشرد وألزم اليهود فى أيامه بلبس الطراير الحمر وألزم النصارى بلبس القلنسوة السوداء وكان قليل الرأى ضعيف التدبير سفاكا للدماء ولكنه جبان صغير القلب متحجبا إلا على بعض خواصه فأبغضه الناس كافة وضجوا من فعالة ورفعوا القصص إلى دار السلطنة واستغاثوا فجاءه الأمر بالعزل فى ثالث عشر ربيع الآخر سنة إحدى وتسعين وتسعمائة فكانت مدة تصرفه ستين وأحد عشر شهرا وثمانية عشر يوما كلها بلایا وإحزن وقد عمر ببولاق وكالة تجاه الترسخانة وصهريجا مقابلها يعلوه مكتب للأيتام وكان قصده أن يزيل الترسخانة ويبنى مكانها جامعا فلم يتمكن من ذلك لعزله.

(مطلب)

ولاية الوزير إبراهيم باشا

وتولى بعده الوزير إبراهيم باشا فدخل القاهرة فى رابع عشر ربيع الآخر من السنة وسار من وسط المدينة فى موكب لم يعهد لأحد من قبله وفرح الناس به فرحا لا يوصف قيل وكان معه مرسوم من السلطان بتحقيق ما ارتكب فعله حسن باشا والقبض عليه وتعويقه حتى يتم ذلك فأحسن حسن باشا بذلك وسار من القاهرة خفية قبل وصول إبراهيم باشا إليها وطلع من باب المقابر ليلا فى نفر من أتباعه وبطانته فلما وصل إلى دار السلطنة قبضوا عليه ثم أبعدوه عن خدمة الدولة وبالغوا فى إذلاله ومازال حتى صادفته العناية والعناية صدف فارتقى مسند الصدارة العظمى وعلت كلمته واتسعت صولته ثم عزل وقتل شر قتلة وأما إبراهيم باشا فإنه أخذ يتصرف فى الأمور وأقام بجامع السلطان فرج بن برقوق ديوانا لسماع القصص التى كانت ترفع من الناس على حسن باشا فلبث الديوان ينظر فى تلك القصص من العاشر من رجب من السنة إلى غاية رمضان من السنة فأبان الفتيش عن شىء كثير من مظالم تكاد لا تحصر ولا تعد وكان منها ألف أردب وأربعمائة واثان وخمسون أردب قمحا بيعت من الشون وأخذ ثمنها حسن باشا المذكور وغير ذلك من الاختلاسات الأخرى قيل فلما رفع أمر هذا كله إلى السلطان مراد وكان حسن باشا المذكور قد ارتقى منصب الصدارة العظمى أمر بإعدامه خنقا وجاءت الأخبار بذلك إلى مصر ففرح الناس بموته لما قاسوه فى أيامه من البلايا والإحزن.

وسار إبراهيم باشا من القاهرة إلى داخلية البلاد ليستطلع أحوال الأهالى ووصل إلى بئر الزمرد فأحاط بها علما وظفر منها بالزمرد النفيس وسار إلى دمياط وإلى المحلة الكبرى وكان بها كنيسة عظيمة للغاية وهى من أفخر العمائر القديمة وبها جماعة من قسوس المتأصلين أى أهل البلاد فلم يشأ أن تكون لهم واستعظمها عليهم فأمر بهدمها وبنى مكانها مدرسة وسماها الوزيرية فعدت له هذه نقطة سوداء فى تاريخ حياته ثم سار إلى كثير من المدن والبنادر ثم رجع إلى القاهرة وأنزل نفسه عن الولاية فى سنة اثنتين وتسعين فكانت ولايته سنة واحدة وتسعة عشر يوما وسافر إلى دار السلطنة فى شهر شوال من السنة.

(مطلب)

ولاية سنان باشا الدفتردار

فتولى بعده سنان باشا الدفتردار ودخل القاهرة فى ثالث عشر شوال من السنة وإبراهيم باشا بها فلما استقر به المنصب طغى وتجبّر وظلم الرعية وصادر الناس فى أموالهم وأراق الدماء لأقل الأسباب وأضعفها واشتد شدة بالغة فضج الناس ورفعوا أمره إلى دار السلطنة فأتاه الأمر بالعزل وقد تصرف إلى ثالث عشر ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وتسعمائة، فكانت مدة تصرفه ستين وستة أشهر وعشرة أيام ولبت بالقاهرة إلى أن قدم أويس باشا واليا ونزل بناحية شبرا قريبا من بولاق فأرسل إلى أويس باشا المذكور هدية عظيمة للغاية ومعها حصان أشهب مسرج بسرج مرصع وعدة تليق به وكان يؤمل أن أويس باشا حال طلوعه من المركب إلى الوطاق المنسوب له يركب الحصان المذكور فعذل عنه وركب أكديشا أشهب كان أحضره معه ثم إن سنان باشا قدم ناحية شبرا وقابل أويس باشا عند غروب الشمس فشاهد علامات الغيظ على وجهه فهاله ذلك وداخله الخوف فلما رجع من عنده إلى القاهرة اختفى ولم ير بعد ذلك إلا فى الديار الرومية .

(مطلب)

ولاية أويس باشا

وتصرف أويس باشا فى أمور البلاد من ثالث عشر جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وكان قبل ذلك قد ولى القضاء ثم صار دفتردار الروم إيلى ثم جاء إلى ولاية مصر فكان جبارا غنيدا شديد البطش سفاكا للدماء كثير الأخذ بالشبهات ثم تطاولت يده أيضا إلى العبث بأمر العساكر والأجناد والتصرف فى مرتباتهم وجمالكهم بما يناسب هواه فخرجوا عليه وأحاط جماعة منهم بديوانه ودخل عليه جماعة وأوسعوه ضربا ونهبوا داره فأخذوا جميع ما كان بها من مال ومتاع وقاموا على عثمان أغا أغاة الجاويشية وذبحوه ذبح الشاة وأحرقوا دار القاضى وقتلوا اثنين من قضاة مصر ثم عمدوا إلى حوانيت القاهرة ومصر فنهبوا ما فيها وعاثوا وأفسدوا وفعلوا ما لا خير فيه وذلك فى شوال من سنة ثمان وتسعين فخاف الناس خوفا شديدا وانكمشوا فى البيوت وتحصنوا بها وقد تطاولت أيدي العامة والغوغاء إلى

النهب والسلب أيضا فكانت فتنة عظيمة للغاية لم تقدر الامراء ولا كبار الجند على تسكينها وبذل الباشا الجهد فى ملاطفة أصحاب الفتنة وكبار العصابة وبعث إلى القضاة يعلمهم بأن لا يخالفوا للتأثيرين أمرا عسى أن ينكفوا عن فعالهم فزاد تمردهم وطغيانهم وقبضوا على أولاد الباشا وأخذوهم رهنا على ما يطلبون وكان أولاد البلد إلى هذا الحين يدخلون فى خدمة الدولة ويلبسون لباس العسكر لهم ما لهم وعليهم ما عليهم فلما وقعت هذه الفتنة حرموا من ذلك وحظر عليهم الدخول فى مصاف العسكر إيجابا لطلب أهل الثورة وحدثت عقب ذلك مصادرات كثيرة من وجوه شتى. قال بعض كتاب الأخبار: فكان لاويس باشا المذكور يد فى هذه الحركة لأمر خفى وطالت أيام الفتنة فقلت الأقوات وعز وجودها وضج الفقراء واجتمعوا تحت قلعة الجبل وسبوا أويس باشا ورجموا الناس بالأحجار، ولما كان يوم الأحد رابع صفر سنة تسع وتسعين حصلت زلزلة بالقاهرة ومصر بعد ظهر اليوم المذكور فمكثت درجة وسدس درجة وسقط بسببها عدة منارات وبيوت وربوع وقاض الماء من حيضان الحمامات ومظاهر الجوامع وهدمت عقبة أيلة فنهب العرب جميع ما كان بها من ذخيرة للحجاج والمرابطين قيل ولم يسبق وقوع مثل هذا الزلزال إلا من عهد بعيد للغاية ووقعت بعدها بثلاثة أشهر أى فى يوم الأربعاء عاشر جمادى الأولى من السنة زلزلة أخرى ولكنها لم تلبث إلا يسيرا جدا فزاد تشاؤم الناس وكرههم إلى أويس باشا وعجوا إلى الله تعالى وتضرعوا إليه وكثر الدعاء بالجوامع وغيرها فلما كان سادس شهر رجب سنة تسع وتسعين أصابته سكتة قلبية فجأة فمات بها ودفن بالقرافة ففرح الناس بموته فرحا لا يوصف وكانت مدة تصرفه أربع سنين وشهرا واحدا وثمانية أيام فنظم بعضهم تاريخا فى موته فقال:

أهلك الله أويسا أنه	جار فى الحكم ولم يخش الوعيد
مذ أنى مصر تعدى حدّه	وبه الظلم تبدى فى مزيد
هلك الحرث وكم من فتنة	قد أثيرت منه فيما لا يفيد
مذهاه الموت ما أفلته	لا ولا كان له عنه محيد
خاب سعيًا بوفاة أرخو	ها وخاب كل جبار عنيد

١٣٤ ٢٠٦

سنة ٩٩٩ ٦٠٩ ٥٠

(مطلب)

ولاية أحمد حافظ باشا الخادم

فلما مات تولى بعده أحمد حافظ باشا الخادم فدخل مصر فى سابع عشر رمضان سنة تسع وتسعين وتسعمائة وأيتصرف فى الأمور فكان نعم الرجل ذا رأى وتدير مجبا للعلم والفقراء حسن السياسة فأمنت فى أيامه السبل وانتظمت أحوال الرعية وامتنع أهل الفساد وانكف الولاة والعمال عن العبث بأمور الرعية وكان يجلس للناس فترفع إليه القصص بحاجات الخلق وعمر فى أيامه وكالة كبرى وأخرى صغرى وسوقا وربوعا وبيوتا ببولاق من القاهرة بجوار شون الخطب وعمل مصلى بالوكالة الكبرى مطلة على النيل وعمر كذلك برشيد عمائر أخرى عظيمة وعمل محابة بطريق الحاج وبه النفع للحجاج فلما كان التاسع من شعبان سنة ثلاث وألف هجرية جاء الأمر بالعزل والقيام إلى دار السلطنة فكانت مدة تصرفه ثلاث سنين وعشرة أشهر واثنين وعشرين يوما ولما بلغ دار السلطنة حمدت مساعيه بديار مصر فولى الصدارة العظمى ثم أنزل نفسه عنها واستأذن فى الحج فأذن له وجاء إلى مصر بحرًا فتلقيه الكبراء والأمراء أحسن ملتقى وأهدوا إليه الهدايا النفيسة فحج ورجع إلى الديار الرومية فمات بها.

(مطلب)

ولاية قيودر باشا

وتولى بعده على ديار مصر قيودر باشا فدخل القاهرة فى ثالث عشر رمضان سنة ثلاث وألف وكان أمياً ذا ذكاء محباً للهو واللذات قليل الحيلة ضعيف الرأى لا هم له غير اللعب واللهو ويروى عن لهوه حكايات كثيرة أضربنا عن إيرادها هنا صفحا.

وكان لما تولى السلطان مراد السلطنة أمر فانشئوا بالمدينة تكية ورباطا بظاهر المدينة وقرر بها أرباب وظائف ومجاورين ورتب بالتكية طعاما وجوبا للحرمين ووقف على ذلك قرى من قرى مصر المحروسة بإقليم البحيرة ناحية نكلا وناحية الضاهرية وبالمنوفية ناحية سبك الأحد وناحية شبرازنكى وبالقليوبية ناحية طنان وناحية كفر زريق وناحية طوخ الملقى وناحية سد طنان وناحية سنهرا وبالدقهلية ناحية سندوب

وناحية منية سمنود وناحية أبو الحسن وبالجيزة ناحية كوم برا وناحية نهيا وناحية العتامة وناحية ديشنا وبالوجه القبلي البهنساوية وناحية بلينا وناحية الذيل وناحية العتامة وناحية ديشنا وناحية نها بلفية وناحية دنديل وناحية العتامة وناحية الضوابط وناحية اهناس الخضراء فكان يجهز إلى بندر السويس من متحصل النواحي المذكورة فى كل عام من الحب ألفى أردب ومائتى أردب تحمل فى مراكب فى وقف الدشائش الدارية إلى الينبع يرسم التكية المذكورة ومجاورى الحرمين هذا عدا ما كان يجهز من النقد من متحصل النواحي المذكورة فى كل عام صحبة أمير الحج المصرى وقدره سبعة عشر كيسا توزع على أربابها من مجاورى الحرمين، ولعل هذا كله باق إلى الآن، فتطلع قيودر باشا إلى هذه الأوقاف وطمعت نفسه فى أخذ بعضها فلم يقدر ثم خشى العقابة وانعطف إلى غيرها من موارد الأموال فشكاه الدفتردار إلى دار السلطنة وبالحق فى فساد الأحوال وعدم صلاحيته للولاية. قال أصحاب التاريخ: ولم تكن هذه الأوقاف والخيرات والتكايا لتكفر عن ذنوب السلطان مراد وما اقترفه من جريمة قتل إخوته الخمسة بعد توليته منصب السلطنة فإنه بعد أن تمت له البيعة واستقر به المنصب أمر فقتلوا إخوته المذكورين صبرا ليأمن على ملكه من النزاع ولم يخش الخزى والعار فكانت هذه الفعلة الشنعاء نقطة سوداء فى صفحات أيامه مع ما يضاف إلى ذلك من تحجبه عن الناس وعدم اكتراثه بالأمور وتركه الغزو والخروج فى مقدمة الجند كما كانت تفعل أجداده حتى طمع العدو فى البلاد وتغلبت دولة النمسا على كثير من القلاع والحصون العثمانية وانتصرت فى عدة وقائع عظيمة مات فيها كثير من رجال الدولة، ومقدمى العساكر وخرجت بعض الأيالات عن الطاعة فقاتلت حتى انتصرت ونالت الاستقلال واسترجعت ما أخذ من مدنها وبلدانها عنوة واستخفت طوائف الانكشارية بقدر الدولة فتمردوا وأهانوا كبارهم ومقدميهم وثاروا على بعض العمال وكبار الدولة فقتلوهم جهادا ولم يقو السلطان على منعهم حتى كاد يبلغ الخلل حده وكانوا سببا فى دوام الحروب ومعاداة الممالك المجاورة لدولة القسطنطينية لاجتماعهم على الخلاف وعيبتهم بأمور الدولة وتقويض أركان الأمن فيها بما يفعلونه من القتل والنهب وإذلال كبارهم عند أقل سبب وقد كان مما أهاجهم وخرج بهم عن حد الطاعة أنه لما كثر فسادهم وكبر شرهم بما فشا فيهم من الإدمان على السكر والإفراط فيه أمر السلطان بمنعهم من ذلك وبالحق فى عقاب من يقبض عليه سكران فقاموا عند ذلك قومة رجل واحد وحاصروا السلطان فى قصره وضيقوا

عليه وصمموا على قتله جهارا ولبثوا على هذا الحال أياما كثر فيها النهب والسلب والعريضة وتطاوت أيدى الناس لسلب أموال بعضهم ولم تسكن هذه الفتنة إلا بعد أن أباح لهم السلطان السكر وتعاطى الخمر والرجوع إلى ما كانوا عليه من العريضة والفساد.

وظلت الأحوال فى مصر ودار السلطنة فى قلق واضطراب بعضه بسبب الحروب المتواصلة بين السلطنة والممالك المجاورة وبعضه بسبب كثرة العزل والتولية فى ولاية مصر وتحزب الأحزاب وظهور كلمة الجند فيها وعدم وقوف كبارهم عند حد إلى أن مات السلطان مراد فى السابع عشر من جمادى الآخرة وقيل سابع عشر رمضان سنة ثلاث وألف هجرية فكانت سلطته عشرين سنة وتسعة أشهر وستة أيام فخلفه ابنه السلطان محمد.

ومات فى أيام السلطان مراد غبريال بطرك المتأصلين بعد أن أقام تسع عشرة سنة وكانت الأمور فى أيامه على طرفى نقيض ما صفت يوما إلا وتكدرت أياما فأقيم بعده يوحنا وهو تاسع ثمانتهم ولم يكن لرهبانيته دير وكان حازما هينا محبوبا محبا للخير ميالا للفقراء آوى إليه كثيرا من ذوى الحاجة فمد لهم يد المعاونة وبذل لهم المعروف وأقام أربعا وعشرين سنة ومات فخلفه متاوس وهو المتمم للتسعين وكان قبل ذلك راهبا فى دير المحرق ووقع من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.



(الفصل الخامس)

(فى سلطنة السلطان محمد ابن السلطان مراد)

ثم قام بالأمر بعد السلطان مراد ولده السلطان محمد ببيع له بالملك فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وألف هجرية أى سنة أربع وتسعين وخمسمائة وألف ميلادية ولم يستقر به مقام السلطنة حتى قام على إخوته فقتلهم ليأمن على ملكه من المنازع وكان هذه الفعلة الشنعاء قد صارت سنة عند ملوك آل عثمان يعمل بها الخلف عن السلف ثم تحجب بعد ذلك عن الناس وانعكف على الملاذ وترك أمور المملكة لجماعة الوزراء فعاثوا وأفسدوا وتصرف كل

منهم على هواه وعمل على ما فيه مصلحته فباعوا الوظائف وألقاب الشرف بأبخس الأثمان وسلموا مقاليد الدولة للأغرار والسفلة فبلغ الخلل حده وزالت حرمة الدولة وكبر طمع العدو فيها فخرجت عليها الخوارج وقامت الحروب من كل جانب واشتدت الخطوب وظهر الأمير ميخائيل صاحب الفلاح على عساكرها فى عدة مواقع عظيمة وضم إلى مملكته إقليم البغدان وجزءاً كبيراً من نسلفانيا وساعدته على غير ذلك أيضاً عساكر الفساد فعم الخلل جميع أنحاء المملكة وقامت الفتنة وتطايير شررها إلى جوف الأناطولى وظهر رجل اسمه قره يازجى كان من مقدمى المتطوعة الذين نفاهم السلطان إلى آسية لجنبهم فى الحروب وادعى أن صاحب الشريعة الإسلامية أتاه فى منامه وأمره بالغزو والجهاد فى آل عثمان ووعدته بالنصر والغلبة عليهم وأخذ جميع ولايات آسية منهم ويث الدعاة بذلك فى الآفاق فتبعه خلق عظيم من أولئك اللوم فتنزل بهم على بلاد القرمآن وقتال عامل الدولة عليها حتى ظفربه وأخذ مدينة عين تاب عنوة فكبرت عند ذلك لمومه وظهرت كلمته واشتهر أمره فسير السلطان لقتاله جيشاً من الانكشارية فحاصروا مدينة عين تاب وضيقوا عليها وشددوا، فلما أحس قره يازجى بالغلبة وأنه مأخوذ لا محالة عمد إلى استعمال الحيلة فعرض على مقدم الانكشارية الطاعة للسلطان بشرط أن يوليه أماسيا فأجابته إلى ذلك ورفع عن المدينة الحصار فلم يكن بأسرع من أن عاد قره يازجى المذكور إلى العصيان وكان له أخ اسمه والى حسن قد ولاه السلطان على بغداد فسير إليه قره يازجى رسلاً تستفزه إلى شق عصا الطاعة والقيام لنجدته فأجابته إلى ذلك وسير إليه جماعة كثيرة من أصحابه فاشتدت عزيمة قره يازجى واستفحل أمر الفتنة وظهرت كلمة قره يازجى وأخيه والى حسن واتسعت شهرتهما وكادت تعم دعوتهما فكبر الأمر على السلطان واستعظمه وسير لقتالهما عسكرياً عظيماً ومقدمهم صقللى حسن باشا فقاتلوا أولاً قره يازجى حتى ظهروا عليه وجرحوه فترفع إلى الجبال ومات بجراحته ثم انحازوا لقتال والى حسن صاحب بغداد فقاتلهم قتالاً عنيفاً وانتصر عليهم فى عدة مواقع وقتل صقللى حسن باشا على أسوار (توقات) ومزق شمل عساكره، ثم سار ونزل على دمشق بخيله ورجله فهزم واليها شر هزيمة وهزم ولاية حلب وديار بكر ونزل على مدينة كوتاهية فحاصرها وضيق عليها من كل جانب فاشتد عند ذلك الخلل وتعاضم وهمت أكثر أيلات الدولة إلى الخروج وتأهبت إلى شق عصا الطاعة إلا مصر فإنها كانت فى شغل عن هذا كله بما قد انتابها من

كثرة التولية والعزل فى ولايتها وعدم وقوف الجند والأمراء فيها عند حد وعسف
واليها قيودر باشا وعبثه بجميع الأمور وتناول يده إلى أموال الناس بلا استثناء
وما زال الحال على ذلك إلى سابع عشر رجب سنة أربع وألف ثم جاء قيودر باشا
المذكور الأمر بالعزل فكانت مدة ولايته عشرة أشهر وعشرة أيام فتولى بعده الشريف
محمد باشا ودخل القاهرة فى ثالث شوال سنة أربع بعد الألف وكان مهيبا ذا بصيرة
وخبرة بالأمور واسع الاطلاع بإدارة البلاد فلما استقرت به الولاية وجلس للناس
رفعت إليه القصص ضد كوسى حسن الشاغرت وأحمد المسلمانى وكان الأول على
الأموال والثانى على الشئون السلطانى وكانا قد اختلسا منهما شيئا كثيرا فعين عليهما
من ضبط حسابهما ثبت عليهما ماقيل فأمر بشنقهما على باب زويلة وتركت
أجسادهما معلقة ثلاثة أيام فهابه الناس وخافوه خوفا ما عليه من مزيد فخامره لذلك
الغرور حتى بلغ به إلى الأخذ بالشبهات والبطش بمن يتوسم فيه سمة الإنكار وأراد
أن يبطش ببعض كبار الناس فأشيع عنه ذلك فتحدروا منه وأبغضه الناس والأمراء
كافة فلما كان فى بعض الأيام أراد التوجه إلى الربيع فمنعه بعض أصحابه وأنذروه
بسوء العاقبة إن هو ذهب فى يومه فنبت كلامهم، فلما خرج قام عليه جماعة من
العسكر وتعرضوا له عند انصرافه وهو بباب الوزير بموكبه الخاص وعساكره وطائفة
من السامانية وهم معدون بالبنادق فلما عاين من معه كثرة العساكر تفرقوا عنه فى
الأزقة وتركوه فى نفر قليل من أتباعه فدعاه العسكر للمحاكمة أمام قاضى القضاة
بمدرسة السلطان حسن فأظهر لهم الانقياد والطاعة وسار معهم إلى أن وصل إلى
الرميلة فأركض فرسه نحو باب السلسلة ودخل القلعة وأغلق الأبواب بينه وبين
العسكر فهاج العسكر وأثاروا الفتنة وقتلوا كل من كان يكثر التردد على محمد باشا
من الأمراء والعلماء وأصحاب الوظائف وأخذوا الناس بالشبهات فعم الخوف وكبر
اضطراب الناس وبقي محمد باشا بقلعة الجبل مكفوف التصرف قاصر الكلمة
محجورا عليه إلى أن جاءه الأمر بالعزل فى خامس عشرى ذى الحجة سنة ست بعد
الألف وكان جبارا عنيدا سفاكا للدماء وقع فى أيامه قحط شديد للغاية استمر مدة
وأعقب القحط وباء عظيم فكثر الموات فى الناس بالقاهرة ومصر وضواحيها وزاد
زيادة بالغة ثم عم القرى وانتقل أيضا إلى بقية البلدان فكانوا يدفنون الأموات فى
الليل والنهار وكثرت الجثث فى البيوت وفى الطرق والحارات واشتد الوهم بالناس
وفر محمد الشريف باشا من القاهرة هربا من الموت واستخلف على البلاد ببرى بيك

أحد كبار الأمراء فلم تستقر به الولاية حتى أدركه الموت فولى الأمراء بدله عثمان
بيك فأقام إلى أن كانت الفتنة وعزل محمد الشريف باشا وأتى خضر باشا واليا
فكانت مدة تصرف محمد الشريف باشا ستين وشهرين وثلاثة عشر يوما وخرج من
مصر في موكب عظيم وعلى رأسه عمامة خضراء وركب معه خاصة العسكر وعامته
فلما وصل إلى الديار الرومية أرسله السلطان لقتال ملك فارس فأسر وبقي ببلاد
فارس إلى أن مات .

(مطلب)

ولاية خضر باشا

ودخل خضر باشا القاهرة في عشرى ذى الحجة سنة ست بعد الألف فتصرف
ثلاث سنوات وخمسة أيام فلم يقع في أيامه من الحوادث شيء يذكر إلا ما كان من
سكون الفتنة ورجوع الجند والعسكر إلى الطاعة وزوال الخوف من قلوب الرعية ثم
عزل في خامس عشر المحرم افتتاح سنة عشر وألف .

(مطلب)

ولاية علي باشا

وتولى بعده علي باشا فدخل القاهرة في تاسع صفر سنة عشر وألف، وكان لما
قدم إلى الإسكندرية لبث بها أياما فتراكت عليه القصص وتساقطت بين يديه
بالشكوى من الكشاف وبعض رجال الدولة وأكثرها من برويز كاشف المنوفية وكان
برويز هذا عتلا زغيا ظالما محبا للمال كثير المصادرة للناس سفاكا للدماء لا دين له
ولا ذمة ولا حرمة ولا أدب فلما أتى الكشاف للقاء علي باشا المذكور وبينهم برويز
هذا أمر به علي باشا فقبضوا عليه وقتلوه بين يديه، وقيل إن لقتل برويز المذكور سببا
غير ذلك هو أن شيخى افندى الذى كان متوليا قضاء المنوفية وانصرف عنها قد
اجتمع بعلى باشا فى جزيرة رودس فسأله علي باشا عن مصر وأحوالها وما فيها من
الأمور الخارقة فحدثه بما علمه من أحوال البلاد وأهلها وبالحق فى الواقعة ببرويز
كاشف المنوفية المذكور وأخذ يعدد فظائعه فلما وصل علي باشا إلى كفر الخضر
رفعت إليه القصص ضد محمد بن نجا حاكم النحراوية فقبض عليه وقتله بفناء الكفر

فهابه الحكام وخافه الكشاف ودخل القاهرة فى هبة وجلالة وقبض على بروجز وقتله
فلقبوه من يومئذ بالنمر، ولما استقرت به الولاية أرسل قوسا وأمر أن يعلق على باب
زويلة بالمرمى ولصق به ورقة ذكر أنه مكتوب فيها كل من أدنى هذا القوس يعطى ما
هو مقيد بالورقة فلم يجسر أحد أن يمس القوس تأدبا واستمر وهو معلق أياما ثم
رفع ثم اشتد بعد ذلك على العسكر وضيق عليهم وصار يؤاخذهم على الصغائر
والكبائر فأبغضوه وجعلوا يراقبون فرصة للانتقام منه فاتفق أنه سار إلى طندتا لزيارة
السيد البدوى فعارضه بعض العسكر ومنعوه من الخروج من القاهرة إلا إذا أعطاهم
ما كانوا طلبوه منه فأجابهم إلى سؤالهم صاغراً وعاد إلى القاهرة، وقد كاد يتميز
غيظا فمرض واشتد به مرضه فأرسل إلى دار السلطنة يطلب الإذن بالعود إلى
القسطنطينية فأذن له فسافر فى سادس ربيع الآخر سنة اثنتى عشرة وألف فكانت مدة
تصرفه سنتين وستة أشهر وعشرين يوما فلما وصل إلى دار السلطنة قلد منصب
الصدارة العظمى ثم وجه لقتال المجر فلم يلبث إلا قليلا وعأوده المرض فمات هناك
وكانت أيامه بمصر كلها خير وبركه وظهر فى أيامه التبغ بديار مصر وكثر استعماله
ولم يكن إلى ذاك الحين شيئا يذكر وظهر الطاعون فمات به خلق كثير جدا وعم
القرى والمدن والبنادر ومكث أياما وفك فتكا ذريعا ثم ارتفع، وجاءت الأخبار فى
هذه الأثناء بموت السلطان محمد، مات فى رجب سنة اثنتى عشرة وألف هجرية
فكانت مدة سلطته تسع سنين وخمسة عشر يوما وتولى بعده ابنه السلطان أحمد .



(الفصل السادس)

(فى سلطنة السلطان أحمد ابن السلطان محمد خان)

ثم قام بالأمر بعد السلطان محمد ابنه السلطان أحمد ببيع له بالملك فى ثالث
رجب سنة اثنتى عشرة وألف هجرية أى سنة ثلاث وستمائة وألف ميلادية وله من
العمر ثمانى عشرة سنة فاستوزر الأمير قويجى مراد باشا وكان شيخا كبيرا صادق
الخدمة تولى الوزارة وأركان الدولة متزعزعة فى جميع جهات آسية والفتنة قائمة ونار
الحرب مستعرة على حدود فارس شرقا والنمسا غربا والسبب فى ذلك أنه لما تولى

عباس شاه على ملك فارس بعد موت محمد مرزا فى سنة أربع وتسعين وتسعمائة هجرية نهض إلى استرجاع ما أخذه ملوك آل عثمان من ملك فارس فأعد المعدات وجيش الجيوش ورمم القلاع والحصون وسار فى عسكر من خراسان إلى مشهد وكانت قد استولت عليها قبائل الأربك فاستخلصها منهم وانتصر عليهم عند هرات أيضاً نصرة عظيمة فلما تقوت عزيمته بما ناله من الظفر عمد إلى قتال آل عثمان فنال منهم واسترجع جميع ما أخذه من مملكة فارس عنوة ولم تقو الدولة على رده يومئذ لاختلال الأحوال وسريان الفساد فى جميع ولايات الدولة الشرقية وخروج الخوارج بعضهم يستفز بعضاً فلما بطلت الحرب مع عباس شاه سار قوينجى مراد باشا الصدر فى مقدمة جيش عظيم إلى إطفاء نار الفتنة وقمع أولئك الخوارج فى جميع الولايات الشرقية فقاتلهم وانتصر عليهم ومزق شمل لمومهم وقبض على كبارهم وأعمل فيهم القتل بحسد السيف ومازال بهم حتى زالت الفتنة وعادت الأمور إلى سابق مجراها ورجع بمن بقى من جيوشه إلى القسطنطينية ظافراً غانماً فلقب يومئذ بسيف الدولة ثم مات بعد ذلك فكان موته خسارة عظيمة على الدولة لصدق خدمته وأمانته وسعيه فى إعلاء منار الدولة وإرجاع رونقها القديم، فتولى بعده الوزارة نصوح باشا واتفق بعد ولاية نصوح باشا هذا أن عادت سفن رهينة مالطة وسفن الحرب الأسبانيولية إلى مهاجمة مراكز الدولة وسد المسالك عليها فى عرض البحر الأبيض وأعانتها على ذلك المراكب الإيطالية أيضاً، فرسم نصوح باشا لجميع مراكز الدولة بالاجتماع فى البحر الأبيض والمحافظة على المواصلات ما بين القسطنطينية والولايات المغربية فاجتمعت وكان مجئ بعضها من البحر الأسود، فلما خلا البحر الأسود منها قامت طائفة من القوزاق وزحفت على ثغر سينوب فنهبا وعاثوا وأفسدوا وفعلوا ما لا خير فيه وجاء الخبر بما وقع إلى دار السلطنة فأكبره السلطان واتهم الصدر الأعظم بالخيانة وسوء القصد وكان للصدر خصوم وأعداء لا تغفل عن الوشاية به فزينوا للسلطان قتله وحببوا إليه التخلص منه فأمر به فقتلوه خنقاً فى قصره. وكانت مصر إلى ما بعد خلع واليها على باشا وقيامه إلى دار السلطنة بأيام كثيرة بلا وال والأحوال فيها فى اضطراب والأمراء والجند على طرفى نقيض حتى جاء مرسوم السلطان إلى أمير الحاج بالتصرف فى ولاية البلاد فتصرف من عاشر ربيع الآخر فكان لا بأس به أصلح بعد الأمور ورفع بعض المغارم وأبطل كثيراً من المظالم وأعاد الجند إلى جد الطاعة وأزال الشحنة من بين كبارهم ولكن لم تطل مدته إذا اخترمته

النية في يوم الثلاثاء سادس شعبان سنة اثنتى عشر وألف من الهجرة فكانت مدة تصرفه نحواً من خمسة أشهر ودفن بالقرافة. فاتفق الأمراء وكبار الدولة على تولية عثمان بك أمير اللواء، فولوه المنصف في سابع عشر شعبان المذكور إلى أن يقدم من دار السلطنة من يتصرف وكان الأمير عثمان هذا مشهوراً بالعفة والاستقامة وله جلالة وهيبة ورأى وخبرة بالأمور فتصرف مدة ثلاثة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً.

(مطلب)

ولاية إبراهيم باشا المعروف بالمقتول

ثم جاء الخبر بولاية إبراهيم باشا المعروف بالمقتول فدخل القاهرة في يوم السبت ثانى عشري ذى الحجة سنة اثنتى عشرة وألف فلما استقر به المنصب وتصرف في الأمور منع الكثير من طلبات العسكر وجعل يتبع عشرائهم ويتجسس أخبارهم ولاسيما مجالس هزلهم فأشار عليه أصحاب المعرفة بأن يقلع عن هذا فلم يقبل وكان مستقلاً برأيه فخوراً مختالاً لا ينقاد إلى نصيح ولا يهتدى لقول مشير. واتفق أن أتت له الأخبار يوماً بأن جماعة من العسكر بالغيظ الذى بقناطر السباع يتعاطون الخمر ويفعلون ما لا خير فيه فقام وغير لباسه وسار إليهم ومعه ثلاثة رجال من خواصه فلما علم العسكر بحضوره فروا هاربين وزاد بغضهم له ونووا قتله فلما كان فى تاسع عشر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة خرج إبراهيم باشا فى نفر من الجند والأتباع وأصحاب الوظائف والصنائع لقطع جسر أبى المنجى بين شبرا وقلوب فأشار عليه بعض أصحابه أن لا يخرج وأن الذى يخرج عادة لقطع هذا الجسر هو زعيم مصر فإن كان ما يمنعه أرسل بعض أتباعه لقطعه فقال وما علىّ لو ذهبت بنفسى قالوا إن خواطر الجند منحرفة وقلوبهم متغيرة عليك بسبب فعلك بهم فقال لا بد من الذهاب وخرج بغير إحجام وقد أدركته صلاة الجمعة ببولاق القاهرة فصلّى بها وهيئت له سقينة عظيمة وزينت بالستائر والرايات والفرش والطنافس الثمينة فركبها وصحبته الأمير محمد بن خسرو وأمير اللواء بمصر المحروسة وبعض أكابر خدمة الديوان ومازال إلى أن وصل إلى الجسر فقطعه فى يوم السبت مستهل جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة بعد الألف، وكان إبراهيم باشا قد هيا طعاماً بالغيظ الذى أنشأه محمود باشا تجاه قناطر أبى المنجى فدخل الغيط ومن معه وصحبته الأمير محمد بن خسرو وعزى زاده قاضى القضاة يومئذ وحصل لهم الصفو والمباسة قبل

الطعام فلما حضر الطعام رأى الأمير محمد بن خسرو وطائفة من العسكر مقبلين
بسلاحهم يريدون الفتك بهم فأسرع إليهم وعارضهم وسألهم عما يطلبونه فسألوا من
إبراهيم باشا شيئاً كان يمكن قضاؤه فى الحال فلما رأى إبراهيم باشا ما هم عليه من
التهديد والجفاء والتحزب لم يجبههم إلى ما طلبوه وأغلظ عليهم القول فتقدموا نحوه
فمانعهم الأمير محمد وزجرهم وصاح فى وجوههم فطعته أحدهم بخنجره فسقط
يختبب فى دمه فعلا صدره آخر واحتز رأسه وهجم آخرون على إبراهيم باشا
واحتزوا رأسه وهو على مائدة الطعام فامتلات أوانى الطعام من دمه ورفغوا
رؤوسهما على جريدتين من نخيل الغيط وعادوا إلى القاهرة وهم فى ضجة وجلية
وطافوا بهما الشوارع وساروا من وسط المدينة إلى باب رويلة وعلقوهما هناك فخاف
الناس وأغلقت جميع الحوانيت فى ذلك اليوم وسدت أبواب الدور من خلف وأيقن
الناس بوقوع الفتنة واضطرام نارها وأغلقت أبواب المدينة كباب الحسينية وباب النصر
وباب البحر وتعطلت جميع الأعمال فكان يوماً عبوساً وفى قول أن قتل إبراهيم باشا
المذكور كان فى قلعة الدولاب وهو راجع مع من كانوا معه إلى القاهرة لما بلغه خبر
حضور العسكر لقتله . وكان قد أشار عليه بعض الصناجق بالهروب ببحراً وعدم
العود إلى القاهرة فلم يلتفت لقولهم ولا أخذ بمشورتهم فلحق به العسكر وقتلوه
واحتزوا رأسه وطافوا به فى الشوارع وعيثوا وأفسدوا فى ذلك اليوم وفعلوا ما لاخير
فيه فكانت مدة تصرف إبراهيم باشا المذكور فى الولاية أربعة أشهر وثمانية أيام لاغير
وقد نظم بعضهم تاريخاً فى موته فقال :

إن إبراهيم باشا ————— قد سعى فى الخير سعياً
قتله قد أرخصوه ————— وأرى التاريخ بغياً

سنة ١٠١٣

(مطلب)

ولاية جرجى محمد باشا الخادم

ولما قتلوه على الصورة المتقدمة أقاموا قاضى القضاة عزمى زاده والياً بعده فى
ثالث جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة بعد الألف وقد كانوا أرادوا أن يولوا الأمير
عثمان بك فامتنع ولم يقبل . فلما وصل خبر قتل إبراهيم باشا إلى دار السلطنة
غضب السلطان ورسم بولاية جرجى محمد باشا الخادم وأمره بقتل الثائرين وقطع

دابِر جميع من كان له يد فى هذه الثورة، فدخل القاهرة فى سابع رجب سنة ثلاث عشرة بعد الألف وأتى إلى الصناجق أيضاً مرسوماً السلطان بما ذكر فلما استقر محمد باشا بالقلعة وطلب الأمراء ليقراً عليهم مرسوم السلطان وأن يأتوا بأهل الفساد وأصحاب الثورة خاف الأمراء وامتنعوا من الصعود إلى القلعة واجتمعوا بقراميدان تحت القلعة وتشاوروا طويلاً وكان بعض أكابر الدولة يترددون ما بين الباشا والصناجق حتى استقرت القاعدة بينهم على تسليم زعماء الثورة والعفو عن الصناجق فسلموهم فأمر الباشا برمى أعناقهم بين يديه فرميت فى الحبال وتشتت من بقى من أصحاب الثورة فى البلاد فراراً من وجهه فجحد فى طلبهم من الكشف فمنهم من جىء به حياً فقتل ومنهم من قتله العربان، قال بعض كتاب الأخبار: فكان ما قتله منهم نيفاً ومائتين فى مدة تصرفه، وكانت مدة يسيرة إذ جاءه الأمر بالعودة إلى الديار الرومية فسار فى يوم الأحد ثمانى عشر ربيع الأول سنة أربع عشرة فكانت مدته سبعة أشهر وسبعة عشر يوماً وتقلبَت به الأحوال إلى أن ولى مسند الصدارة العظمى وكان حازماً شهماً قوى الجأش حسن التدبير صائب الرأى ذا خبرة بالأمور واسع الكلمة مهيباً.

(مطلب)

ولاية حسن باشا الدفتردار

وتولى بعده حسن باشا الدفتردار وقد كان والياً على اليمن ثم صرف عنها وقدم منها صحبة الحج إلى القاهرة فتردد عليه الناس وزاره الأمراء والعلماء والأكابر فشاهدوا منه رجلاً عاقلاً أديباً محتشماً وأقام بالقاهرة أياماً كان يبحث فيها عن أحوال البلاد وسير الكشف ومعاملة أرباب الحل والعقد لأهالى البلاد فوردت الأخبار إلى القاهرة فى يوم الاثنين ثالث ربيع الأول سنة أربع عشرة وألف بولاية حسن باشا المذكور على الديار المصرية وقد كان إذا أتى لزيارة الكبراء والأمراء والعظماء توجع لهم عما يشاهده من ضنك الأهالى وفاقة الناس واشتداد الكروب ويقول إذا أتانى الله سبحانه ولاية مصر بذلت فى إصلاح الأحوال مهجتى، فلما جاءته الولاية واستقر بها لم يمنع ولم ينفع واختلت أموره وقصرت كلمته وعمت البلوى وانتقل فى وجه أصحاب الظلمات باب الشكوى فعاث العسكر فى أيامه وعادوا إلى التمرد والإفساد فلم يقدر على ردهم فاشتدت الفتنة وظهر أهل الفساد

وارتفع الأمن وسدت الطرق فى وجوه أبناء السبيل وقل الوارد من المأكول إلى القاهرة ومصر القديمة فغلت الأسعار وتعذر على الفقراء الحصول على قوت اليوم ولبت الحال على هذا الوصف حتى صرف عن الولاية فى يوم الأربعاء رابع صفر سنة ست عشرة وألف فكانت مدته سنة واحدة ونصفاً وستة وعشرين يوماً.

(مطلب)

ولاية الوزير محمد باشا

ثم تولى بعده الوزير محمد باشا فدخل القاهرة يوم الخميس خامس عشر صفر سنة ست عشرة وألف وكان حازماً عاقلاً ذا فكرة وتدبير ساكن القلب هادئ اللب كثير الصبر والجلد فلما استقرت به الولاية التفت إلى أمور البلاد وحاجات الخلق وبأبلغ فى ترتيب الأحوال وتأمين السبل وإبعاد أهل البغى والفساد وأخذ الكل بالشبهات فانحرفت لذلك خواطر الأمراء عنه وأبغضه الجند وكثرت عليه الشكاوى من جور الكشاف وأخذهم أموال الناس فلما كان غاية جمادى الأولى من السنة المذكورة استقدم إليه ابن درغت كاشف المنوفية وبروز مجر كاشف الغربية وكوسى كاشف البحيرة وعوقبهم عنده بقلعة الجبل إلى غروب اليوم ثم أمر يرمى أعناقهم وولى مكانهم آخرين وأخذ عليهم العهود والمواثيق أن لا يظلموا الرعية ولا يتعدوا الحدود وكان ممن عين لكشافة الغربية الخلوجى فاتفق أنه بعد توليته ذهب إلى بولاق القاهرة لقضاء مصلحته فالتقى بطائفة من العسكر وقد علموا بولايته على إقليم الغربية فسألوا منه حاجة فلم يجبهم إليها وأغلظ معهم فى القول ونهرهم فأطلق عليه بعضهم طبنجة محشوة بالبارود فانزعج وألقى بنفسه فى النيل فأنقلته ثيابه فمات غريقاً، وبلغ الخير محمد باشا فجمع إليه الأمراء وأكابر العسكر بالميدان تحت قلعة الجبل ونشروا البيرق السلطانى ونادى مناد من كان مطيعاً لله ورسوله محمد عليه السلام وولى الأمر فليدخل تحت لواء السلطنة الشريفة العثمانية، فاجتمع عالم كثير من الأمراء وأكابر العسكر ومكثوا بالميدان ثلاثة أيام ثم طلع الأمراء إلى قلعة الجبل فكلّمهم الباشا طويلاً فى أمر هؤلاء الخوارج وقد كانوا بعد موت الخلوجى اجتمعوا خارج سور القاهرة وانضم إليهم طوائف أخرى من العساكر والأجناد وقسموا بينهم بلاد مصر وأقاموا عليهم سلطاناً منهم واختص كل فريق بجهة من جهات مصر العليا والسفلى وتفرقوا على ذلك فعاثوا وأفسدوا الحرث والنسل وسدوا الطرق

وقطعوا السبل ومنعوا ورود الأقوات إلى القاهرة فاستقرت القاعدة ما بين محمد باشا والأمراء في ذلك اليوم على الخروج بطائفة من الجند لقتالهم فخرجوا واقتتلوا معهم قتالاً شديداً وظفروا بهم ومزقوا شملهم وقبضوا على زعمائهم وأصحاب الكلمة منهم وقدموهم إلى محمد باشا فأمر بقتلهم بين يديه وتبع الجند من بقى منهم في المدن والقرى وأبادوهم إلا من طال عمره وخمدت نار الثورة ثم لم تكد تطمئن خواطر الخلق حتى ظهر جماعة من لموم الأشقياء في أوائل القعدة سنة سبع عشرة وألف واجتمعوا من الأقاليم القبلية والبحرية وتآلفوا حزباً واحداً وحلفوا لمن بقى من متشردى أولئك العسكر بعد الواقعة الأولى على الأخذ بشارهم وقطع دابر الأمراء وأكابر الدولة ونصبوا خيامهم بالمرج والزيات وتحالفوا على الهجوم والقتال فلما علم محمد باشا بخروجهم أرسل لهم جماعة من الاختيارية الموصوفين بالعقل والتجربة فوعظوهم وحذروهم عاقبة هذا الأمر فلم ينتهوا فعادوا وأخبروا الباشا بما كان فجمع الباشا طوائف العربان ومشايخها من الأقاليم وجميع العساكر والأجناد وجيش منهم جيشاً عظيماً مدججاً بالسلاح وآلات الحرب وعدة من المدافع وجعل مقدمه الأمير مصطفى بك سردار العساكر فسار مصطفى بك بهذا الجيش لقتال الخوارج فلما وصل إلى بركة الحاج تراءى الجمعان فاقتتلا قتالاً شديداً وظفر بهم مصطفى بك وضيق عليهم المسالك فطلبوا الأمان واختلط الجيشان فقبضوا على أشرارهم ومقدميهم وهرب من خلص منهم فتبعتهم العربان وقتلتهم وعاد مصطفى بك إلى القاهرة بمن معه من الخوارج وهم مشاة حفاة حاسرو الرؤوس مكبلون بالحديد ورؤوس القتلى مرفوعة على الرماح ودخلوا جميعاً من باب النصر والناس ينظرون إليهم ومروا بالقصبة إلى أن وصلوا إلى القلعة فلما تمثلوا بين يدي محمد باشا أمر بجماعة منهم فقتلوا في ساعة وصولهم والباقي منهم قتل في ليلة وصوله وألقوا جثثهم في النيل ثم أخذوا يتتبعون أثر من بقى منهم فكانوا إذا عثروا بأحد نفوه إلى اليمن، ومازالوا حتى لم يبق منهم أحد وصفت الحال وسكنت خواطر الخلق واطمأنت قلوب سكان مصر والقاهرة، ووجه الباشا عنايته إلى ترتيب خراج البلاد وإبطال الكلف والمغارم وتخفيف الضرائب وإبطال طريقة جباية الأموال التي كانت جارية من عهد دولة المماليك الشراكسة ورسم بجبايتها على ما جاء في حكم السلطان سليمان الموقع في سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة وكان شفوفاً بالرعية محباً للضعفاء أخذاً بناصر المظلوم نافذ الكلمة لا يرد له أمر وما زال محفوظاً إلى أن اختار العود إلى دار السلطنة

وتنزىل نفسه عن ولاية مصر فخرج فى يوم السبت ثانى جمادى الآخرة سنة عشرين وألف فى جلالة وموكب عظيم ما تخلف عنه أحد من العسكر والأجناد والأمراء فكانت مدة تصرفه أربع سنوات وأربعة أشهر واثنى عشر يوماً وعمر فى ولايته جملة مبان وعدة عمارات بثغر رشيد وأخذ الجزر المقابلة لرشيد وأطياناً بالمتوفية والجزيرة وعمل سحابة بطريق الحاج فلما بلغ دار السلطنة ولئى مسند الصدارة ثم أرسل بجيش جرار لقتال ملك فارس فلم يقارن أعماله توفيق ولم ينجح له تدبير وعاد مهزوماً ففولاه السلطان ولاية حلب فأقام بها قليلاً ومات.

(مطلب)

ولاية حاجى باشا وخلعه

وولاية محمد باشا المعروف بالصوفي

فتولى بعده على مصر حاجى باشا بأمر سلطاني أحضره إليه محمد باشا قبل سفره إلى بالديار الرومية وسلمه إليه إياه بمدينة بلبس فى يوم السبت ثالث رجب سنة عشرين وألف ودخل القاهرة وتصرف لغاية يوم الخميس العشرين من شعبان من السنة المذكورة فكانت مدة شهرًا واحدًا وسبعة عشر يوماً وتولى بعده محمد باشا المعروف بالصوفي ودخل القاهرة فى ثانى عشرى شعبان وجعل يتصرف فى الأمور فكان ظاهره اللين والرفق بالرعية وتأمين السبل وقطع شاقة أهل الفتن والفساد فلما كان فى شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وألف قدمت إلى مصر طائفة من عسكر الدولة يبلغون زهاء أربعة آلاف غير الاتباع وكان السبب فى قدومهم أنهم ثاروا على الدولة وخرجوا عن طاعة كبارهم وكادت فتنتهم تعم فدبر الصدر الأعظم فى إبعادهم إلى مصر وأشاع بينهم أنه يريد بقاءهم بها رباطاً مستديماً فلما وصلوا إلى القاهرة أتى إلى محمد باشا مرسوم سلطاني بتجهيزهم إلى بلاد اليمن وإمدادهم بما يلزم من المؤن والعلائف ودواب الحمل قدر الاستطاعة فلما تحققوا أنها مكيدة عصوا وتمردوا فأعجلهم محمد باشا بالخروج بعد أن صرف لهم جوامك السفر وسير معهم فندق بك أحد الأمراء ليسير بهم إلى مدينة السويس فبرز فندق بوظافة يوم ثالث عشرى ربيع الآخر من السنة المذكورة فمر الوطاق ببناب زويلة ثم باب النصر وكان به أولئك العسكر فقاموا عليه ورموا بالخيام من فوق ظهور الجمال ومنعواهم من الخروج وهاجوا وماجوا ونادوا بالويل والثبور على السلطان ورجال دولته فوصل

الخبر إلى محمد باشا فجمع من وجد بمصر إذ ذاك من العسكر ورسم إلى فندق بك بالخروج إلى الريدانية بالعسكر وإجهاز السدء بأن جميع العسكر الذين قدموا من دار السلطنة يخرجون صحبة السردار المعين ومن خالف قبض عليه وجوزى فامتنعوا جميعاً وأغلقوا بابى النصر والفتوح ورموا خلف البابين بالأحجار وتحفظوا من كل جانب ومنعوا كبارهم من الخروج إلى الريدانية والطلوع إلى الديوان ونصبوا حواجز بالشوارع الموصلة إليهم وتحصنوا بكثير من المتاريس وصعد جماعة منهم إلى أعالي الخانات والربوع والبيوت والجوامع والمنارات وهم ينتظرون من يقدم عليهم فلما بلغ محمد باشا خبر هذا التحصين وأن لا طاقة لفندق بك ومن معه على إخضاع أولئك الخوارج جمع الصناجق والكشاف ومقدمى الخفر بميدان الرميطة وتشاوروا فى الأمر فاستقرت القاعدة بينهم على أن يسيروا إليهم فساروا فلما عاين الخوارج ذلك الجمع أذعنوا للطاعة وأجابوا ورفعوا الحصار وأزالوا المتاريس وفتحوا الأبواب وطلبوا الأمان ودواب الحمل فأحضروا لهم ما يزيد عن ثمانين جملاً فلما وصلت إليهم الجمال عادوا إلى العصيان وضربوا الجمال بالسيف فنفرت وتشردت وقللوا الأبواب ثانية وعادوا إلى أقوى مما كانوا عليه من التحصين وشاع الخبر بأنهم قتلوا كبارهم ولم يبقوا على أحد فأمر محمد باشا السردار بالخروج فخرج ومعه جمع كبير من الأمراء والأجناد واثنى عشر من كبار الأمراء وطائفة من حارة القوالة وساروا إلى الخوارج بستة مدافع كبار محشوة بالفلوس الجدد والمسامير ونودى للرعايا الملاصقين لأماكنهم وبيوتهم بغلق الخوانيت والبيوت فلما وصلوا إليهم وجدوهم متيقظين بعلر الأسطحة والمآذن فلما تراءى الجمعان التحم القتال فكان كل ما ألقى العسكر من الرصاص والنشاب والأحجار لا يصل إلى الخوارج لعلوهم على العسكر وكل ما ألقاهم على العساكر نال منهم فقتل من العساكر سبعة فهال مقدم عسكر الوالى هذا الأمر وخشى استفحال أمر هذه الفتنة وقد اشتد رمى الخوارج وتتابع على العسكر فجعل مقدم عسكر الوالى يتدبر فى الوصول إليهم من وكالة البطيخ ومازال حتى اتصل إليهم بجماعة من العسكر واتصل الأمير قاسم والأمير عبدى من خلفهم وتقدم الأمير يوسف الغاص بأصحابه فرفع الحواجز والمتاريس ونقبوا عليهم أماكنهم ودخلوا عليهم فلما اشتد الحال عليهم ولم يجدوا لهم قوة على القتال وعلموا أنهم مأخوذون لا محالة طلبوا الأمان وأجابوا بالامتثال فى السفر إلى حيث شاء الباشا فأخرجوا جميعاً ولم يتخلف منهم أحد وسيروا بهم إلى السويس وزالت الفتنة

وسكن الحال واطمأنت خواطر الناس وعادت جميع الأمور إلى سابق مجراها. وسار محمد باشا في الرعية سيرة حسنة وكان شفوفاً عليهم ميالاً لخيرهم فرفع كثيراً من المغارم القديمة وأبطل بعض المكوس الفادحة وكان يجلس بنفسه للنظر في مصالح الخلق ويوقع على ما يرفع إليه من القصص فزالت في أيامه القلاقل والفتن ودرت الأرزاق وحصل رخاء عظيم حتى بيع أردب القمح بخمسة وعشرين نصفاً فلوساً نحاساً والفول كل أردب بخمسة عشر نصفاً والعدس والبسلة كل أردب بثمانية عشر نصفاً وكثر وارد المأكولات وتنازلت أثمان غير ما ذكر ففرح الناس فرحاً عظيماً ومالوا إليه بقلوبهم وأحبوه محبة عظيمة. فلما كان في يوم الأربعاء عاشر ربيع الأول سنة سبع وعشرين وألف ورد مرسوم سلطاني بصرف محمد باشا عن ولايته فكانت مدتها ثلاث سنوات وستة أشهر وثمانية وعشرين يوماً فحزن الناس عليه كثيراً.

(مطلب)

ولاية أحمد باشا الدفتردار

وتولى بعده أحمد باشا الدفتردار ودخل القاهرة في يوم الخميس حادى عشر ربيع الأول سنة سبع وعشرين وألف في موكب عظيم مشى فيه جميع العساكر والأجناد وهو على فرس وعلى رأسه عمامة بريشتين قيل إن قيمة كل ريشة منهما ألف دينار فلما وصل بموكبه إلى الجواخين سقط على فرسه حجر من طاقة بيت بالربع الذى يعلو حوائت الجواخين فالتقى إحدى الريشتين على الأرض ومزق جانباً من القماش فقبض في الحال على من ألقى الحجر فتطير أحمد باشا من ذلك وأمر برمى عنق الرجل فرموا عنقه وكان الرجل يوصف بخبال العقل، وما زال في موكبه حتى صعد إلى قلعة الجبل واحتجب أياماً لا يراه أحد ثم جلس للناس وتصرف في الأمور فكان حاكماً سياسياً صاحب تدبير سهلاً في أموره قريباً من الناس ليس عنده تحجب ولا غلظة محباً لخير الرعية ميالاً لإسعاد البلاد، فكان يأتى إلى أحسن الأمور من أبوابها حتى اجتمعت القلوب على محبته واتحدت على طاعته وهابه الحكام وخافه الولاة والكشاف وساروا بسيرته إلا القليل وعمت الراحة أفراد الرعية وراجت أسباب الزراعة وكثرت غلات البلاد كثرة عظيمة.

فلما كان شهر شوال وردت الأخبار إلى أحمد باشا بموت السلطان أحمد مات في اليوم العاشر من القعدة سنة سبع وعشرين وألف حتف أنفه وهو آخر السلالة

المتصلة من عمود هذا النسب وكان عادلاً محباً للغير أرسل إلى حرم صاحب الشريعة الإسلامية حجراً من الماس قيمته يومئذ اثنا عشر ألف دينار وأكثر، ورسم بأن يوضع فى الحجرة وهو موجود إلى الآن وأرسل أيضاً جملة هدايا وتحف وميزابا من الفضة موهبا بالذهب فوضع موضع الميزاب العتيق. قيل وله خيرات أخرى كثيرة وكانت مدة سلطته أربع عشر سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام، فتولى بعده السلطان مصطفى ابن السلطان محمد وهو أخو السلطان أحمد المشار إليه.

ومات فى سلطته متاوس بطرك المتأصلين بعد أن أقام ثلاث عشرة سنة وكانت أيامه كلها هادئة مطمئة فأقيم بعده غبريال وهو حادى تسعيهم فأقام ثمان سنوات و مات فأقيم بعده ميخائيل وهو ثانى تسعيهم وكان تقياً فاضلاً متواضعاً فلم تطل مدته غير سنة واحدة و مات فأقيم بعده يوحنا وهو ثالث تسعيهم وأصله من بلدة نقادة من صعيد مصر وكان فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.



(الفصل السابع)

(فى سلطنة السلطان مصطفى ابن السلطان محمد خان)

ثم قام بالأمر بعد السلطان أحمد أخوه السلطان مصطفى ابن السلطان محمد وهو أول من ارتقى على سرير السلطنة من إخوة ملوك بنى عثمان. بويغ له بالملك ثالث عشرى ذى القعدة سنة سبع وعشرين وألف هجرية أى سنة سبع عشرة وستمائة وألف ميلادية وكان فى مدة سلطنة أخيه أحمد مقيماً فى محل داخل السراى السلطانى ممنوع التصرف والاجتماع بالناس لا يمكن من الخروج من مكانه وعنده بعض صبيان يخدمونه قيل وهو موصوف بالصلاح والتقوى لا التفات له إلى سلطنة ولا إلى تصرف فى أمر من الأمور وكان كلما اجتمع بأخيه السلطان أحمد يقول له لا حاجة لى بسلطنة مطلقاً وكان يقال إن السلطان أحمد كلما خطر بفكرة شىء من قبل أخيه السلطان مصطفى كان مصطفى يقول له ارجع يا أحمد عما تقصده. قيل فكان ذلك سبباً للكف عنه فلما تولى السلطنة ظهر عجزه إذا كان ضعيف الرأى منبوذ الكلمة لا هية له ولا وقار مغلوباً على أمره والكلمة لوزيره الأعظم واتفق عقب توليته بأيام أن هرب أحد أشراف بولونيا وكان معتقلاً فى دار

السلطنة بعد الحرب التى أخذ فيها أسيراً وكان هروبه بمساعدة سفير دولة الفرنسيس فى دار السلطنة فأكبر الصدر الأعظم هذا الأمر وأعظمه وأمر فقبضوا على السفير وكتبه وترجمانه وألقوهم جميعاً فى السجن ووصل الخبر بذلك إلى عاصمة الفرنسيس فهاجوا وماجوا وكادت الحرب تقوم على ساقها وبالغت دولة الفرنسيس فى التهديد والوعيد والتأهب والاستعداد وكثر الأخذ والرد بين الفريقين أياماً ثم كان من أمر ذلك ما سيذكر فى سلطنة السلطان عثمان خان الثانى .

واستمر أحمد باشا الدفتردار يتصرف فى ولاية مصر لا راد لكلمته ولا مانع لأمره وقد خافه الجند وهابه العسكر فاعتنى بأمرهم واهتم بصرف مرتباتهم وجماكيهم وعلوفاتهم فساروا سيرة حسنة وانكفوا عن الإيذاء والشر وأمسوا وهم طوع أمره ثم ورد إلى الباشا المشار إليه مرسوم السلطان بأن يجيش نحو ألف من العسكر المصرى نجدة لعسكر السلطان القائم إلى اليمن لقتال الخوارج من الزيدين وقيل لقتال ملك فارس فأرسلهم صحبة الأمير صالح بك أمير الحاج وزودهم بالمال والسلاح والعلوفة فساروا ومروا بالأقاليم المصرية ولم يقع منهم شئ ولا لحق بالأهالى من مرورهم ضرر وقد كان قبل ذلك إذا مر عشرة منهم بقرية أو مدينة عاثوا فيها وأفلقوا راحة أهلها وأهلكوا الحرث والنسل وفعلوا ما لا خير فيه فلما فرق فيهم المال نال الرجل منهم عشرين ديناراً وبينما هو يتصرف فى الأمور على ما ألفه من العدل وإغاثة الملهوف إذا جاءه الخبر بخلع السلطان مصطفى وتولية السلطان عثمان . وتحرير الخبر، إنه لما كان السلطان مصطفى ممن تربي فى حجر الانزواء وكانت أحواله مخالفة للمألوف من حال الزمان وكان مغلوباً على أمره كما تقدم القول لم تطل مدة تصرفه سوى ثلاثة أشهر وعشرة أيام ثم قام عليه كبار الدولة وأصحاب الكلمة وبينهم شيخ الإسلام وقظلال أغاسى السراى السلطانية وبعض الحرم فخلعوه ليلة الأربعاء ثالث ربيع الأول سنة ثمان وعشرين وألف هجرية، ثم أودع فى جب داخل السراى . قال بعض الكتاب : وسد عليه بابها ماعدا روزنة لطيفة يتزل منها الطعام والشراب وولوا بدله السلطان عثمان ابن السلطان محمد خان الثانى .



(الفصل الثامن)

(فى سلطنة السلطان عثمان بن السلطان محمد خان الثانى)

ثم قام بالأمر بعد السلطان مصطفى السلطان عثمان ابن السلطان محمد خان الثانى ببيع بالملك يوم الأربعاء ثالث ربيع الأول سنة ثمان وعشرين وألف هجرية أى سنة تسع عشرة وستمائة وألف ميلادية وله من العمر إحدى عشرة سنة لاغير . قال بعض أصحاب التاريخ : فكان مع صغر سنه واسع الفكر هماماً ذا هبة فأول عمل بدأ به هو أنه أمر فأطلقوا سفير الفرنسيس وكاتبه وترجمانه من الحبس وسير إلى ملك الفرنسيس وهو يؤمئذ الملك لويز الثالث عشر رسولاً يستعطفه ويستميله إلى الصفح فأجابه إلى ذلك وعادت الأمور بين البلادين إلى سابق مجراها فعمد السلطان بعد ذلك إلى إصلاح ما فسد من أحوال الدولة ودفع ما استولى على جميع أمورها من الخلل فلم يتمكن لخروج العساكر عن الطاعة وتطرق الفساد إلى جميع المصالح وأخذ الأوغاد والأغرار بزمام جميع الأمور وتصديرهم فى الوظائف العالية والمراتب السامية ومع ذلك فإن هذه الشوائب لم تقعه عن الغزو وفتح المدن والبلدان فتأهب لقتال مملكة بولونيا وجعلها حداً بين أملاكه وبين أملاك الروس وجيش لذلك الجيوش وأعد المعدات وخاف أن يترك أخاه الأمير محمداً فى دار السلطنة فينازعه فى الملك فأمر بقتله صبراً وكان إلى هذا الحين لا يرم أمراً فى دار السلطنة إلا بإشارة مفتيها ولا يتم للسلطان ورجال الدولة عمل إلا برأيه فكان يعزل ويولى من يشاء من الولاة والحكام ويمضى الأحكام بلا معارض ولا منازع فخاف السلطان منه وخشى من تركه فى دار السلطنة على هذا الحال من نفوذ الكلمة ويسيطر اليد لاسيما وقد كان الانكشارية لا يقفون عند حد وقد تفشى الخلل والفساد بين كبارهم وصغارهم فترع منه ذلك النفوذ وأبعد عنه تلك الهيبة وأوقفه عند حد الإفتاء لا غير ليأمن شره وسير فى طلب أحمد باشا الدفتردار والى ديار مصر فجاءه المرسوم السلطانى بالانصراف عن الولاية فانصرف عنها فى يوم الخميس ثالث عشر صفر سنة تسع وعشرين وألف هجرية فكانت مدة تصرفه سنتين وأحد عشر شهراً وثلاثة أيام كلها إسعاد وبركة وخير ورفاهية على البلاد وأهلها .

(مطلب)

ولاية مصطفى باشا السلحدار

وولى بعده مصطفى باشا السلحدار فدخل القاهرة فى ثالث عشر صفر من السنة ثم سار السلطان بجيوشه لغزو مملكة بولونيا فالتقى الجمعان واقتلا قتالاً عنيفاً للغاية ولما كانت طوائف الانكشارية مضطربة الأحوال نائمة على السلطان تقاعست عن الحرب وأظهرت الملل وطلبت مخابرة البولونيين فى تقرير قاعدة للصلح والكف عن القتال فمانع السلطان فى ذلك وأبى إلا القتال حتى يتم له النصر فلم يفلح وأبى الانكشارية إلا عقد الصلح وألحوا فى الطلب وبالغوا فى التهديد فتقرر الصلح بين الفريقين وعاد الانكشارية إلى دار السلطنة إلى أن كان من أمرهم ما سيتلى عليك فى موضعه . ولما عاد السلطان إلى القسطنطينية خلع مصطفى باشا عن ولاية الديار المصرية أخريات سنة تسع وعشرين فكانت مدة تصرفه سنة إلا شهراً لم يأت فيها من الأعمال شئ يذكر فإنه كان ضعيف الرأى خامل الفكر كثير التحجب والانتزواء .

(مطلب)

ولاية جعفر باشا

وولى بعده جعفر باشا وكان جعفر باشا هذا لما قدم من اليمن أقام بالقاهرة أياماً والناس يترددون عليه فكان ذا علم وفضل ومشاركة فى غالب العلوم العالية وأبحاث جيدة فلما رأى إقبال الناس عليه وميل قلوبهم إليه طمع فى الولاية فأرسل إلى دار السلطنة التماساً بذلك ولبث يتنظر الجواب وكان لما علم مصطفى باشا بذلك خشنى الفتنة وساء ما فعله جعفر باشا فأرسل إليه بعض كبار الأمراء يحثه على الرحيل عن مصر ويعلمه شر عاقبة البقاء فامتنع أولاً ثم عاد فأذعن وسافر براً فى نفر من أتباعه وحاشيته ولكنه لم يلبث أن عاد بمرسوم الولاية فخرج لاستقباله الأمراء والعلماء وأكابر الدولة وكبار العسكر ودخل القاهرة فى موكب لم يعهد له مثيل وفرح العامة والخاصة بقدومه وكان دخوله القاهرة فى أواسط صفر سنة ثمان وعشرين وألف كما تقدم القول فلم يستقر به المقام حتى فشا الطاعون بمصر والقاهرة ثم عم جميع القرى والمدن وكثر الموات فى الناس واشتد اشتداداً عظيماً فقفلت الأسواق بمصر والقاهرة . قال بعض كتاب الأخبار: إلا أسواق الأكفان فلم تقفل ليلاً ولا نهاراً ومنع جعفر

باشا عامل الأموات من التعرض للأموات، فكان الناس يدفنون موتاهم بغير إذن في الليل والنهار واستمر الحال على هذه الشدة نحو الشهرين مات فيهما خلق كثير لا يكاد يدخل تحت حصر ثم ارتفع الموات وزال فسكنت القلوب واطمأنت الخواطر وكره الناس جعفر باشا وتطيروا من ولايته وحسبوا شؤماً على البلاد، فلما كان شهر رمضان سنة ثمان وعشرين وألف جاءه مرسوم السلطان بالعزل فسافر بحراً إلى الديار الرومية فكانت مدة تصرفه ستة أشهر وأياماً قال بعض كتاب الأخبار: فلم يقم بالديار الرومية إلا أشهراً قلائل ومات فعاد ولده إلى مصر وعاش بها فقيراً وليس له من يسأل عنه.

(مطلب)

ولاية مصطفى باشا

وتولى بعده مصطفى باشا فدخل القاهرة في عاشر رمضان سنة ثمان وعشرين وألف فلم تستقر به الولاية حتى جار وظلم وضرب المغارم والمكوس وأكثر من جمع الأموال بجميع وسائل العنف والقهر وشدد على أصحاب الأموال وضيق وهدد ويألف في الإرهاب فكثر الوحشة وأصحاب السعاية على بابه ينقلون له أخبار الناس فضاقت أحوال أصحاب الأموال واختلت جميع الأمور فكان من وشى به إليه وبذل ما طلبه منه سلم ومن تقاعس ولم يبذل حقر وأخذ منه أكثر مما طلب منه، قال بعض كتاب الأخبار: وتبع أثر مصطفى بك البقجلى زعيم ثورة الجند التي حصلت على عهد مصطفى باشا وقبض عليه وقتله بيده فظن الناس قيام الفتنة بسببه وتمنوا ذلك فلم يحصل فكبر خوفهم منه ورفعوا ظلامتهم إلى دار السلطنة وضجوا وطلبوا خلعه فجاءه مرسوم السلطان بخلعه في ثالث رمضان سنة تسع وعشرين وألف فكانت مدة تصرفه سنة إلا ثلاثة أيام.

(مطلب)

ولاية حسين باشا

وتولى بعده حسين باشا في ثالث عشر الشهر المذكور ووصل إلى القاهرة وأدرك مصطفى باشا المعزول قبل سفره فمنعه من السفر وأنزله من قلعة الجبل إلى بيت مراد باشا بالسبع قاعات بالقاهرة وجعل على بابه الحرس وتركه على هذا الحال

أياماً ثم طلبه فلم يجده وكان قد تخلص بتدبير أحد كبار الدولة وسار إلى الديار الرومية فتبعه كثير من صادرهم وأخذ أموالهم فادعوا عليه ونالوا منه وأخذوا جميع ما كان اغتاله منهم وسار حسين باشا الوالى الجديد سيرة حسنة للغاية فأبطل بعض المغارم والمكوس المستحدثة على أيام مصطفى باشا ورتب أمور الدولة وأحكم نظام ما اختل منها أيام أسلافه ووقع فى أيامه غلاء عام حتى بيع أردب القمح بالكيل المصرى بمائتى نصف فضة والشعير بمائة وعشرين نصفاً والبقول بمائة وستين نصفاً وكذلك بقية الغلال فكانت شدة عظيمة للغاية . ثم زاد النيل زيادة فوق الحد وعم جميع الأرض وثبت على الزيادة فوق جميع الأراضى لغاية شهر هاتور القبطى حتى كاد الناس يأسون من زرع الأرض ثم هبط فتمكنوا من الزرع ولكنه لم يأت إلا بما قل من المحصول وضريت على الناس فى أيامه أيضاً ضريبة جديدة هى ضريبة النظرون وقد فرضت على جميع المدن والثغور فتألم الناس منها وراجعوه فى رفعها فلم يرض فأنحرفت الخواطر عنه وابتعدت القلوب ونقموا عليه وظهر الخلل فى جميع أمور الدولة واستخف الناس بحرمة وزالت عنهم هيئته فعاد أهل الفساد فى جميع المدن والقرى للبعث وكاد يستفحل أمرهم فلما كان عاشر ربيع الآخر سنة إحدى وثلاثين وألف جاء مرسوم السلطان بعزله فكانت مدة تصرفه سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام.

(مطلب)

ولاية محمد باشا البستنجى

وتولى بعده محمد باشا البستنجى فى حادى عشر ربيع الآخر ولكنه لم يقدم إلى مصر لقيام الفتنة فى دار السلطنة وخروج طوائف الانكشارية عن طاعة السلطان عثمان وخلعهم إياه ثم سجنه ثم قتله فتاب عنه فى الولاية على مصر حسن أفندى الدفتردار . قال أصحاب التاريخ : لما ظهر عصيان الانكشارية أيام قتال البولونيين أمام مدينة شوك زم وإكراههم السلطان عثمان على عقد الصلح مع البولونيين والكف عن القتال وإلحاحهم فى ذلك عاد السلطان إلى القسطنطينية وقلبه يلتهب غيظاً وأقسم أن يستأصل الانكشارية ويمحو آثارهم عن وجه الأرض فرسم من هذا الحين بجمع عسكر جديد فى بعض عمالات آسية وجعل يعد لهم المعدات ويبالغ فى إتقانهم وتنظيمهم فأحسن الانكشارية بذلك وعلموا ما وراء التقاعد والسكوت فقاموا على

قدم واتحدوا على خلع السلطان فخلعوا بيعته فى التاسع من رجب سنة إحدى وثلاثين وألف هجرية ودخلوا عليه فى قصره وهو بين نسائه وجواريه وقبضوا عليه وأخذوه قهراً إلى محلّتهم وسبوه بأقبح السب والشتم ثم نقلوه إلى قلعة يدى قله فلبث بها يوماً وبعض يوم ثم دخل عليه جماعة من كبار الدولة وأصحاب الفتنة فقتلوه ونادوا بولاية السلطان مصطفى الأول ثانية بدله وطبروا الخبر بذلك إلى الآفاق فكانت سلطنة السلطان عثمان أربع سنين وأربعة أشهر وعشرة أيام وكان جليل القدر واسع المعرفة كبير السياسة عظيمها شديداً فى الحروب عظيم التدبير ومع هذا كله فإنه لم يفلح مع جماعة الانكشارية ولم يقدر على إبادتهم كما كان يتمنى .

ومات فى سلطنة السلطان عثمان يوحنا بطرك المتأصلين فكانت أيامه كلها شدة وعناء وضيق وفناء ومصائب وأحزن ومحزن ذاق فيها القبضة من جور العمال وظلم الحكام وعسفهم أشكالا وكانت مدة تصرفه ثلاث سنوات فأقيم بعده يوحنا وهو رابع تسعيهم وأصله من بلدة صدفة يعرف بابن المصرى وكان تقياً ورعاً كثير الصدقة مهيباً محبوباً ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله .



(الفصل التاسع)

(فى سلطنة السلطان مصطفى الثانية)

ثم قام بالأمر بعد قتل السلطان عثمان السلطان مصطفى أرجعوه إلى تخت الملك ثانى يوم قتل السلطان العثماني فى ثامن رجب سنة إحدى وثلاثين وألف هجرية أى سنة ثمان وأربعين وستمائة وألف ميلادية ولم تستقر به السلطنة حتى قامت الفتنة واشتد لهيبها فإنه لما تم لطوائف الانكشارية ما أرادوه من خلع السلطان عثمان وقتله كبر استخفافهم بالأمور واستصغارهم لكبار الدولة ورجال السلطنة فعاثوا فى القسطنطينية وأفسدوا وصاروا يعزلون ويولون من يشاؤون من الوزراء وكبار الدولة ويبيعون الوظائف جهاراً ويقبضون على من يتوسمون فيه سمة الإنكار حتى اختلت جميع الأمور وفسد نظام الدولة وزالت هيئة السلطنة وظهر الأوغاد وأسافل الناس وقبضوا على زمام الأمور واشتد الكرب وسرت نار الفتنة إلى جميع

العمالات التابعة لدار السلطنة فنهض والى طرابلس الشام ووالى أرضروم إلى شق عصا الطاعة وركب والى أرضروم فى عسكر عظيم للغاية ونادى بالثارات عثمان ونزل على مدينة سيواس وأنقره وفتحهما وأعمل السيف فيمن كان فيهما من طوائف الانكشارية وضبط أموالهم وأرزاقهم ثم سار إلى مدينة يروسة وقد تبعه والى سيواس ووالى سنجق قره شهر فحاصروها وأقاموا على حصارها ثلاثة أشهر حتى دخلوها عنوة ووردت الاخبار بذلك إلى القسطنطينية فلم يلتفت إليها لاشتغال طوائف الانكشارية بالنهب والسلب والقتل وإراقة الدماء ظلماً وظل الحال على ذلك من الخلل والارتباك سنة ونصف سنة والناس فى ضيق ما عليه من مزيد ثم اجتمع رجال الدولة واتحدت كلمتهم على تولية على باشا كما نكش منصب الصدارة وتفويض الأمور إليه لعله يتمكن بخبرته من إرجاع الأمور إلى سابق مجراها فتولى المنصب وجعل يتصرف فى الأمور ويدبر الأحوال جهداً استطاعة ويعمل على إعادة الأمن إلى داخلية البلاد ويدفع غارات الانكشارية عن أهلها بالتى هى أحسن حتى كان من أمره بعد ذلك ما سيذكر فى محله . ولم تثبت نيابة حسن أفندى الدفتردار فى ولاية مصر عن محمد باشا البستانجى فقد صرف محمد باشا المذكور عن الولاية قبل أن يقدم إلى مصر فكانت مدة تصرف حسن أفندى الدفتردار أربعة أشهر وسبعة أيام .

(مطلب)

ولاية إبراهيم باشا السلحدار

ثم تولاه إبراهيم باشا السلحدار ودخل إلى رشيد فى يوم الجمعة ثانى عشرى شعبان سنة إحدى وثلاثين وألف ووصل إلى القاهرة فى أوائل رمضان من السنة وكان ذا فكر ومهابة واسع الدراية صاحب تدبير ولكنه كان محباً للمال والكسب بكل ما تصل إليه قدرته واتفق أنه وقع فى أيامه غلاء زائد جداً فجاء الناس من الأقطار الحجازية والديار الشامية ومن غزة وغيرها إلى مصر ليمتاروا فمن كان ذا مال امتار ما يحتاج إليه ورجع إلى أهله ومن لا مال معه وله قدرة على الكسب أو الخدمة صار يقات من خدمته أو كسبه ومن لا مال له ولا قدرة له على الكسب ولا الخدمة صار يستعطى حتى امتلات مصر وقراها منهم فكان ما بيع فى مصر والمدن والكفور والثغور والقرى من القمح والفول والعدس والشعير وبقية الحبوب شيئاً كثيراً جداً لا يكاد يدخل تحت حصر، ولما طالت أيام إبراهيم باشا تغيرت أحواله وتزايد

جوره وجود أتباعه وكثرت على الناس طلباته وطلبات أتباعه فكانت له تجارة واسعة فى بن القهوة يأتيه من اليمن فى كل عام فكان يلزم به التجار ومشايخ الأسواق فحصل لهم بسبب ذلك خسارة عظيمة فشكوا إليه فلم يلتفت لشكواهم فرفعوا ظلامتهم إلى بعض كبار الدولة فتحرك عليه جماعة منهم ومنعوه من ذلك فانحط قدره وقصرت كلمته وبقي مقهوراً مدحوراً إلى أن صرف عن الولاية فى يوم الأربعاء سابع رمضان سنة اثنتين وثلاثين وألف هجرية فكانت مدة تصرفه سنة واحدة وتسعة عشر يوماً.

(مطلب)

ولاية مصطفى باشا

وتولى بعده مصطفى باشا فدخل القاهرة فى الثانى والعشرين من رمضان فلما صعد إلى قلعة الجبل أتى إليه كتبة الديوان يشكون من إبراهيم باشا المعزول وقالوا إنه أخذ من مال الخزينة السلطانية أموالاً جزيلة فسير مصطفى باشا فى أثره جماعة من العسكر فالتقوا به فتهددهم فرجعوا وأخبروا بما كان فسير إليه مصطفى باشا الأمير صالح بك فأدركه وقد نزل البحر عند الاسكندرية فسأله أن يتربص فقال إنى سائر إلى دار السلطنة فإذا كان على للخزينة شئ دفعته هناك فألح عليه صالح بك فلم يلتفت لكلامه وأقلعت به المركب فأطلقوا عليه المدافع من طابية منارة الإسكندرية فلم ينله منها ضرر ونجا بما كان معه من الأموال والمتاع وكان شيئاً كثيراً، فلما وصل إلى القسطنطينية لم يصبه من جانب السلطنة شئ لاشتداد الفتنة يومئذ وارتباك الأحوال وتعذر إرجاع الأمور إلى سابق مجراها وانكماش على باشا الصدر الأعظم ورفضه البقاء فى منصب الصدارة إن بقى السلطان مصطفى فى منصب السلطنة مع ما هو فيه من وهن العزيمة وضعف العقل وعدم الوقوف عند حد، فلما رأى رجال الدولة أن لا خلاص من هذه الفتنة إلا بخلع السلطان قاموا عليه وخلعوه فى يوم السبت الثالث والعشرين من ذى القعدة وقيل فى الخامس والعشرين منه سنة اثنتين وثلاثين وألف هجرية ولولا بدله ابن أخيه السلطان مراد ابن السلطان أحمد فكانت سلطنة السلطان مصطفى سنة واحدة لاغير.



(الفصل العاشر)

(فى سلطنة السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد)

ثم قام بالأمر بعد خلع السلطان مصطفى ولد أخيه السلطان مراد ببيع له بالملك يوم الأحد فى الرابع والعشرين من ذى القعدة سنة اثنتين وثلاثين وألف هجرية أى سنة ثلاث وعشرين وستمائة وألف ميلادية فكان مغلوباً على أمره لا كلمة له لحداثة سنه إذ كان لا يناهز الثانية عشرة من العمر وكانت كلمة الانكشارية فوق كل كلمة ويدهم فوق كل يد. قال أصحاب التاريخ: ولما كان كل من يتولى الحل والعقد فى تلك الأيام من أهل هذا الاختلال والغش كان الخروج من هذه الدائرة الفاسدة وإصلاح الأمور من المحال وشاع الخبر بذلك عند ملوك الدول المجاورة وكثر تحذيرهم به وكان ممن سره هذا الخلل وأفرحه وهن أركان الدولة العثمانية عباس شاه ملك فارس لما كان بين الدولتين من البغضاء والشحناء فاغتنم هذه الفرصة وعمد إلى أخذ بعض بلاد الدولة العثمانية وإرجاع ما أخذ من بلاده وسار فى جيش عظيم إلى بغداد فحاصرها وكان بها عسكر السلطان فأقام على حصارها حتى احتلها عنوة وأعمل السيف فى أعناق من بها من العسكر السلطانى وقتل جميع كبار الدولة وعظماء الجند ووردت الأخبار بذلك إلى القسطنطينية فهال السلطان هذا الأمر وأزعجه جداً وكان للصدر الأعظم كثير من الأعداء والخصوم من بطانة السلطان وقرنائه فوشوا به عند السلطان وقالوا إن سقوط دار السلام فى يد العدو إنما كان بخيانة الصدر الأعظم فغضب السلطان وأمر بقتله فقبضوا عليه وقتلوه وولى مكانه شركس محمد باشا فلم تطل مدته ومات وتولى الصدارة بعده حافظ باشا.

وورد مرسوم السلطان إلى مصطفى باشا وإلى مصر بتشبيته فى مقام الولاية والإيعاز إليه بالرفق بالرعية والقيام بما يلزم للحرمين وخروج الحاج فى أوقاته فقرئ بحضرة العلماء والأمراء والمشايخ وأخذ مصطفى باشا يتصرف فى الأمور ولكنه لم يلبث أن جاءه الأمر بالعزل والعود إلى الديار الرومية فلما شاع خبر عزله اجتمع طوائف العسكر على عادتهم وساروا إلى عيسى بك نائب الغيبة وطلبوا أن يعطيهم العطايا التى كانوا يأخذونها عند تولية الولاية فلم يعطهم ومنعهم من الإتيان إلى ديوانه فألحوا فى الطلب وكرروا النداء فلم يلتفت إليهم فاجتمعوا وساروا من وسط

المدينة وهم يضجون وينادون لانريد أحداً يتولى أمور البلاد غير مصطفى باشا وكان مصطفى باشا بعد أن جاءه الأمر بالعزل لبث ينتظر الخلف ومازال الجند يطوفون وينادون إلى أن وصلوا إلى قره ميدان فتحالفوا على أن يكونوا جميعاً يداً واحدة وقلباً واحداً ووصل الخبر بذلك إلى مصطفى باشا ففرح فرحاً لا يوصف وتقوت عزيمته وكتب إلى دار السلطنة يلتمس البقاء على ولاية مصر وكذلك كتب العلماء والمشايخ والقضاة فلم تكد تصل رسل مصطفى باشا إلى دار السلطنة حتى وصل الخبر. بوصول على باشا الوالى الجديد إلى ثغر الإسكندرية فسيروا إليه فى الحال من يعلمه بأن الجند وأهل البلاد كافة لا تقبله فبعث هو كتاباً إلى العسكر وكافة الأمراء والأجناد وأعيان البلاد يمتدحهم ويثنى عليهم ويقول :

أما بعد، فإننى لم آت إلى مصر إلا طائعاً لأمر السلطان الذى يجب على وعلى كل مسلم صحيح الدين طاعته فلما قرئت الكتب على أهل الحل والعقد سيروا إليه ثانية يقولون إنا لا نقبلك فقبض عند ذلك على الرسل وقيدهم فى سجن قلعة الإسكندرية وكان العسكر الم رابطون فيها إخواناً لأولئك الرسل ففكوا فى الحال قيودهم وهجموا جميعاً على وطاق على باشا المذكور بسيفهم وقبضوا عليه وأنزلوه فى مركب وأخرجوه من ميناء الإسكندرية وكانت الريح معاكسة فأعادت المركب إلى الميناء قهراً فأطلق عليه الأمير مصطفى أمير جند قلعة المنارة عدة طلقات ثقت المركب عدة ثقوب ولم تغرقها فخرج القارب من فوره قاصداً الديار الرومية وعاد الرسل إلى القاهرة فأخبروا بما جرى ففرح مصطفى باشا بذلك .

ولما كان العشرون من ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين قدم إلى القاهرة من الاسكندرية طائر البطاق يحمل الخبر يقرب وصول قابوجى (أى رسول) من دار السلطنة ومعه مرسوم سلطانى فبعد أيام قلائل وصل القابوجى المذكور ودخل القاهرة فى موكب حافل للغاية وصعد إلى قلعة الجبل وجمع الأمراء والعلماء وجميع الصناجق وتلا عليهم فرمان بتثبيت ولاية مصطفى باشا على مصر إجابة لطلبهم ثم ألبس مصطفى باشا خلعة سنية وقلده سيفاً عظيماً ففرح الجند بذلك فرحاً لا يوصف حيث فازوا بمقصودهم واستقر المنصب بمصطفى باشا فتصرف وعلت كلمته ومالت إليه القلوب وأحبته وزاد النيل فى أيامه زيادة عظيمة فارتفع إلى أربع وعشرين ذراعاً وثبت على ذلك أياماً فخاف الناس من وقوفه إلا أنه هبط بعد ذلك سريعاً وانكشفت الأراضى ففرح الناس وأخذوا فى الحرث والبذر . وبينما هم على هذا الحال والقلوب

مطمئنة ساكنة إذا ظهر الطاعون بالقاهرة ومصر فى أوائل ربيع الأول سنة خمس وثلاثين ، وامتد امتداداً سريعاً فى جميع المدن والبنادر والقرى وعم البلاد شرقاً وغرباً فمات به خلق كثير .

(مطلب)

ولاية بيرم باشا

قال بعض الكتاب : كان عدد من مات فى هذا الطاعون نيفاً وثلاثمائة وألف بين الخامسة عشرة والعشرين من العمر واشتد اشتداداً عظيماً لم يسبق له مثل ثم أخذ فى التناقص فى شعبان من تلك السنة وارتفع فى أوائل رمضان فتناولت يد مصطفى باشا إلى أخذ تركات ومقتنيات جميع من ماتوا فى هذا الوباء وادعى لنفسه حق التوريث فشكا الوراث من ذلك فلم يسمع منهم فرفعوا أمرهم إلى دار السلطنة وأكثروا من الشكوى فجاء الأمر بعزله وتولية بيرم باشا بدله فدخل القاهرة فى جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وألف فكانت مدة تصرف مصطفى باشا المذكور فى المدة الأولى والثانية نحو ثلاث سنين وبضع أشهر ، ولما استقر بيرم باشا المقام منع مصطفى باشا من السفر وحجزه فى بيت بالقاهرة ووكل به من يحرسه وحاسبه على ما فى ذمته من أموال الخزينة وتركات الأموات وألزمه بإرجاع جميع ما أخذه فباع كل متاعه وجميع مقتنياته ودفع ما عليه ورحل إلى الديار الرومية ولبث بها إلى أواخر سنة سبع وثلاثين ثم أمر السلطان بقتله فقتل .

وتصرف بيرم باشا فكان يرى فى الجند شدة العناد الذى يكاد يذهب بنفوذه ويحط بمرتبه إذ كان تحرشهم لعزل وتولية الولاة والخروج عند أقل سبب وتدخلهم فى أمور الدولة مجلبة للبوار وإذهاب رونق النظام الذى أسسه السلطان سليم الفاتح لكل طائفة من الطوائف الحاكمة بديار مصر وقد زاد الجند جرأة وتدخلأ تهاون رجال السلطنة وإجابتهم إلى كل ما يطلبون وعدم الالتفات إلى ما ينجم عن ذلك من الخلل والفساد فبذل بيرم باشا جهده فى ترتيب الأمور ومنع هذه المضار وإعادة نفوذ الدولة إلى ما كان عليه قبلاً فلم يفلح ولم يتم له الأمر إلا بقدر الحاجة فاطمأنت مع ذلك قلوب الرعية وسكنت الجواطر المضطربة بسبب الفتن المتوالية والإحسان المتراكم بعضها فوق بعض وراجت أسباب المعاملات وتحسنت التجارة ولكنه أكثر من المكوس والضرائب على أغلب البضائع ولاسيما الصابون فلما كان شهر

شعبان سنة ثمان وثلاثين استدعى بيرم باشا المذكور إلى دار السلطنة فسار إليها فكانت مدة تصرفه سنة ونحو ثلاثة أشهر.

(مطلب)

ولاية محمد باشا الوزير

وتولى بعده محمد باشا الوزير فدخل القاهرة في أواخر شعبان المذكور وصعد إلى قلعة الجبل في موكب حافل وتصرف وجلس للناس على العادة فكان رجلاً حازماً مهيباً واسع الرأي نافذ الكلمة متحجباً عن الناس لا ينزل المدينة ولا يتجول في الشوارع ولا يزور المتزهات قيل ولم يظهر في طرق القاهرة في مدة تصرفه إلا ست مرات وكانت الأحوال في أيامه هادئة والقلوب مطمئنة وظهرت في أيامه الفتنة في بلاد اليمن وخرج أهلها عن الطاعة فعرض على السلطان إخضاعها وتمهيد سبلها وإرجاعها إلى طاعة الدولة فأجابهُ السلطان إلى ذلك وعهد إليه بالأمر فنظم جيشاً من العسكر المصرى وبالع في تنظيمه وعقد لواءه إلى قانصوه بيك أمير الحاج يومئذ فأعجب السلطان ذلك وولى قانصوه بيك ولاية اليمن وأعطاه رتبة الباشاوية فجعل قانصوه المذكور يرتب أمور جيشه ويكثر من معدات الحرب فاجتمع تحت لوائه ثلاثون ألفاً وبينهم زهاء الألف من العساكر العثمانية وقد حضروا من دار السلطنة لهذه الغزوة وأخرج قانصوه خزائنه فكانت كثيرة للغاية وبعد أن رتب أمور جيشه على ما أراد انقطع في داره أياماً لغير سبب معلوم ولا أمر ظاهر فأركنت العساكر إلى البغى والفساد وعانت في الأسواق وأخذت من الباعة سلعها بغير ثمن فكان إذا مانع البائع عن ماله ضربه وربما قتلوه وتعرضوا للنساء والصبيان في الطرق والحارات فانكف الناس عن الخروج وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم واحتاج الناس إلى الخبز فلم يتيسر الحصول عليه لغلق الحوانيت والأفران فضج الناس إلى محمد باشا فجمع إليه كبار العسكر العثماني وكلمهم في أمر ذلك فكفلوا له الراحة ورد العسكر المصرى عن فعاله وألزموا قانصوه بالخروج والسفر إلى اليمن فخرج صاغراً قيل وكان امتناعه لأسباب يطول شرحها وسار بالعسكر وقاتل اليمانيين حتى أخضعهم وأرجعهم إلى الطاعة وكان خروجه في المحرم افتتاح سنة تسع وثلاثين ولبت هناك يتصرف في الولاية فلما كان شهر شعبان من السنة جاء الخبر إلى محمد باشا والى مصر بأن قد نزل في الشهر المذكور بمكة سبيل عظيم فأغرق معظم أرضها

وهدم جميع بنيان البيت الحرام ولم يبق منه إلا الجدار الأيمن فأبلغ محمد باشا هذا الخبر إلى دار السلطنة فعهد إليه السلطان أمر ترميمه فقام بذلك وتوسع فى النفقة فكان ما أنفق عليه مائة ألف قرش رومى .

وفى سنة أربعين وألف قصر النيل فى الزيادة وجاء شهر توت ولم يبلغ الستة عشر ذراعاً فتخاف الناس من حصول القحط فاعتنى محمد باشا بأمر رى الاراضى وتقسيم المياه بقدر الاستطاعة فأمنت البلاد من الجوع وأعطت الاراضى بعض المحصول فاطمأنت القلوب ومالت إلى محمد باشا خواطر الرعية وأحبوه وتعلقت آمالهم به . ولكنه لم يلبث أن جاء إليه الأمر بالقيام إلى دار السلطنة فى السنة المذكورة واعتزال المنصب فاعتزله وقام إلى الديار الرومية فى ربيع الآخر من السنة فكانت مدة تصرفه ستة وثمانية أشهر .

(مطلب)

ولاية الوزير موسى باشا

وتولى بعده الوزير موسى باشا فلما وصل محمد باشا إلى القسطنطينية قوبل بأحسن قبول وولاه السلطان مسند الصدارة العظمى ودخل الوزير موسى باشا القاهرة سلخ ربيع الآخر سنة أربعين وألف فى موكب حافل وكان الناس قد خرجوا لملاقاته عند شبرا وصعد إلى قلعة الجبل فى كبكية فلما استقر به المنصب أطاع هوى النفس فتطاوت يده إلى أخذ أموال الناس وقبول الرشاوى والبراطيل فأداه ذلك إلى الجور والظلم والعسف بالناس وترصد أحوال الأغنياء من أهل البلاد وبالع فى التجسس عليهم وتعقب زلات الأكابر منهم وتفنن فى أفانين السلب والنهب جهد الاستطاعة واتفق أن أرسل السلطان يعهد إليه تجريد حملة من الجند المصرى وتسييرها لقتال ملك فارس فجتمع جيشاً كبيراً وجعل مقدمه الأمير قيطاس ثم فرض على البلاد النفقة لهذه الحملة وبث أصحاب الجباية فطافوا البلاد شرقاً وغرباً وجمعوا من ذلك مالا جزيلاً فلما جاءوا إليه بالمال أخذه لنفسه ولم يتفق منه شيئاً فى لوازم الحملة فطالبه قيطاس بىك فقال لا قدرة للبلاد على القيام بنفقة العسكر لاسيما وأن الحرب التى أعدت لها هذه الحملة لا تفيد مصر بشئ ما فراجع قيطاس بىك وألح عليه فى الطلب وبالع فى الشدة وكذلك فعل أشياخ قيطاس بىك، وكان الباشا يكره قيطاس المذكور ويتمنى هلاكه فلما عظم الخلاف بينهما استدعى الباشا قيطاس يوم عيد

الأضحى العاشر من الحجة من السنة إلى قلعة الجبل فصعد إليه في نفر قليل من غلمانه فلما دخل قبض عليه جماعة من أعوان الباشا وقتلوه بالسيوف وأنزلوا جثته في نعش إلى بيته بالمدينة وكان ممن تأهب من الأمراء المصريين للخروج مع قيطاس بيك لقتال ملك فارس الأمير كنعان بيك والأمير على بيك فلما جاءهما الخبر بموت قيطاس قاما واجتمعا بكبار الجند وأعلماهم بخبر قيطاس فاجتمع الجند في الحال بالرميلة تحت قلعة الجبل وحاصروها من كل جانب واجتمع العلماء والمشايخ والقضاة والصناجق وكبار الدولة بجامع السلطان حسن وتناجوا في الأمر واتفقت كلمتهم على خلع موسى باشا المذكور وتولية من يحل محله حتى يأتي أمر السلطان فخلعوه وولوا حسن بيك مكانه وكتبوا إلى دار السلطنة بالواقعة وطلبوا صرف موسى باشا وتولية من يصلح فلم يكن بأسرع من أن ورد الخبر بعزله وتولية خليل باشا.

(مطلب)

ولاية خليل باشا

فلما كان شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ألف وصل خليل باشا المذكور إلى القاهرة وخرج موسى باشا وهو في أسوء حال من الخزي والعار فكانت مدة تصرفه نحو سنة إلا بضعة أيام وجعل خليل باشا يتصرف في الأمور فكان جليل القدر عادلاً حازماً فسكنت في أيامه الفتن وزالت عن البلاد الرزايا والإحن وأخصبت الأرض وكثرت محصولاتها فهبطت الأسعار وكثر وارد الغلال والمأكولات وفرح الناس بذلك وخرج في أيامه الشريف نامى شريف مكة بجماعة من اللصوص فعاثوا في الأرض ونهبوا مكة فلما جاء الخبر بذلك إلى خليل باشا جيش له جيشاً عظيماً وجعل مقدمه الأمير قاسم بيك فسار وقاتل الشريف ومن معه فاستظهر عليه وظفر بزعماء الفتنة وأعمل فيهم السيف ثم عاد ظافراً منصوراً فدخل القاهرة في صفر سنة اثنين وأربعين فخلع عليه خليل باشا خلعة سنية واتسعت من هذا الحين كلمة خليل باشا وظهر نبه وكبرت هيئته وأحبته الرعية. حكى ابن أبي سرور أنه جرى إلى خليل باشا المذكور يوماً ثلاثة من اللصوص قبض عليهم وهم يسرقون فرسم بمحاكمتهم فقال رجل من ديوانه ليس في الأمر ما يدعو إلى المحاكمة وقد قبض عليهم وهم يسرقون فلا شيء بعد ذلك إلا الحكم عليهم بالقصاص فلما سمع خليل باشا مقالته نظر إلى أحد أعوانه وقال: اذهب الساعة واهدم بناء بيت هذا

وأشار إلى المتكلم فقال: ولماذا أيها الأمير؟ قال إذا كان هدم بيتك المبنى من حطام الدنيا قد دعاك إلى معارضة فكيف يكون حالنا عند ذلك الباني العظيم إذا هدمنا ما بناه ظلماً. قال ناقل الحكاية: وأطلق اللصوص فتابوا من ذلك الوقت خوفاً من الباشا، وفي أخريات سنة اثنتين وأربعين وألف أنزل خليل باشا المذكور نفسه عن منصب الولاية وكتب إلى دار السلطنة بذلك فأرسل السلطان يستقدمه فسافر فكانت مدة تصرفه سنة وثمانية أشهر كلها خير وبركة على البلاد وأهلها.

(مطلب)

ولاية أحمد باشا الجورجي

وتولى بعده أحمد باشا الجورجي فدخل القاهرة في موكب حافل وكان قبل ولايته على ديار مصر أميراً خور للسلطان مراد فتصرف وجعل يدبر الأمور على النحو الذى نجاه خليل باشا فكان حازماً كاملاً واسع المعرفة بأساليب السياسة فلما كان شهر صفر من سنة ثلاث وأربعين جاءه مرسوم سلطاني بتجريد ألف مقاتل من العسكر المصرى ليسيروا مع العسكر المنصور إلى قتال طائفة الدروز بلبنان وأن يسير معهم أربعة آلاف قطار من البارود وخمسة آلاف من البقسماط فجيش ذلك الجيش ولم يتم تنظيمه حتى جاءه مرسوم آخر بتجريد ألفين آخرين وثلاثة آلاف قطار من البارود وتسييرهم لغزو ملك فارس فهاله هذا الأمر وكتب إلى دار السلطنة يقول إن البلاد فى فاقة ولا قدرة لأهلها على القيام بهذه المطالب الجسيمة فبعث إليه السلطان بائني عشر ألف قطار من النحاس ليضربها سكة ويبعث بدلها إلى خزينة السلطان ثلثمائة ألف محبوب ذهباً نفقة لتلك الحروب فجمع لذلك العمال وأعد المعامل ولكنه لم يفلح إذ مات أكثر العمال وعجز من بقى عن القيام بهذا العمل فجمع إليه أهل الديوان وأصحاب الشورى من الأمراء والقضاة والعلماء وشاورهم فى الأمر وقال إنه يرى وجوب صرف هذا المال من ماله رحمة بأهل البلاد وأن يجعل ذلك النحاس سبائك صغيرة ويبعث بها إلى السودان فتباع فيها وقد رأى أحد القضاة غير ذلك وأن تجبر أهالى القاهرة على أخذ النحاس ودفع مطالب السلطان ثم تقرر القاعدة بينهم على عمل تفريدة على أهالى القاهرة فأقاموا لذلك عمالاً وقيدوهم بالعمل فجعلوا يوزعون النحاس ويجمعون عوضه الذهب وبدءوا بذلك من السادس عشر من ذى الحجة سنة ثلاث وأربعين إلى أواخر شعبان من سنة أربع وأربعين

فعمت هذه البلوى الغنى والفقر والتاجر والصانع بلا فرق ولا تمييز فكانت من أشد الضربات ويلاً وأثقلها حملاً فضجوا وعجوا إلى الله وقلت النقود ثم امتنعت وارتفعت أسعار المأكولات وغلت غلاء فاحشاً جداً وأعقب ذلك تقصير النيل فى وفاء أذرعه المعتادة وتشريق الكثير من الأراضى فاستغاث الناس وانكشف حال المسورين وضائق الدنيا برحبها فى وجوه الفقراء والمحتاجين وظهرت بعض إصابات بالطاعون بأسباب الجوع ولكنه لم يتشر ولم تشتد وطأته، فلما أتم الجياة جمع أموال هذه التفريدة طمعت نفس أحمد باشا فآخذها لنفسه ولم يرسل منها شيئاً لخزينة السلطان فلم يمض عليه بعد ذلك إلا القليل حتى أتاه الطلب من الباب العالى فرحل عن القاهرة فى سلخ القعدة من سنة أربع وأربعين وألف فكانت مدة تصرفه نحو ستين إلا أياماً فلما وصل القسطنطينية قام بعض أهالى القاهرة وشكوا أمره إلى الباب العالى وطالبوه بما أخذه من المال فى ضريبة النحاس فعين السلطان جماعة لتحقيق ذلك ثم أمر بقتله فقتل.

(مطلب)

ولاية الوزير حسين باشا

وتولى بعده الوزير حسين باشا فدخل القاهرة فى الثانى من الحجة سنة أربع وأربعين وألف ومعه طائفة من العسكر من دروز لبنان وهم أخباط من الأشقياء وقطاع الطرق فلما استقرت به الولاية واستقر بهم المقام جار وجاروا وظلم وظلموا وساموا أهل البلاد الخسف وأكثروا من قتل الباعة وهدر دماء السوق لأقل سبب وتعرضوا للسبابة وقطعوا الطرق وتناولت أيديهم إلى نهب أموال الناس بغير ممانع واشتدت مظالم حسين باشا أيضاً إلى حد لم يسبق له مثيل فكان إذا مات الرجل أرسل أتباعه وأعوانه فيحملون إليه ماله ويحجرون على عقاره فيأخذونه لنفسه أيضاً ويحرم ورثته وعم فعله هذا جميع المدن والبنادر وكان يكثر التطواف فى الشوارع والحارات راكباً ويقتل فى كل مرة طائفاً من الرجل والرجلين أو أكثر بلا موجب ولا سبب وربما قتل كل ما صادفه من الدواب فى طريقه. قال بعض الكتاب: فكان من قتله فى مدة تصرفه زهاء ألفى رجل وكان كثير الأخذ بالشبهات فكثير فى أيامه الوشاة وتزاحم أهل السعاية على بابه فكان إذا وقع بين رجل وآخر مخاصمة وذهب أحدهما ووشى إلى الباشا المذكور بأن خصمه من ذوى الأموال قبض عليه الباشا

وآلقاه في السجن فلا يخرج منه إلا بالبذل الكثير ومازال على هذا الحال من القتل والسلب حتى جاءه الأمر بالعزل من منصب الولاية في سلخ القعدة سنة ست وأربعين فكانت مدة تصرفه سنة ونحو أحد عشر شهرا.

(مطلب)

ولاية الوزير محمد باشا ابن أحمد باشا

وتولى بعده الوزير محمد باشا ابن أحمد باشا فدخل القاهرة في آخر القعدة من السنة المذكورة وصعد إلى قلعة الجبل في موكب حافل من العسكر المنصور وتصرف فكان شهما مهيبا صاحب فكر وتدير ثم لم يلبث أن تبدلت حاله وتغيرت أخلاقه وركب متن الجور فأفسد وظلم وتتبع خطوات السلف في مصادرة الناس ومد اليد إلى تركات الأمراء والأغنياء والمستورين من أهل البلاد فأثرى وكثر ماله ومنع الصدقات والمرتبات الخيرية عن الأراذل واليتامى وأخذها لنفسه فضج الناس واستغاثوا وعجوا إلى الله تعالى وتضرعوا إليه بزوال ولايته فكان كلما طالت أيامه زاد عسفه وكثر فسادة وسام الناس الخسف ، وجاءه الأمر من الباب العالي في شوال من سنة سبع وأربعين بتجريد حملة للغزو مع العسكر المنصور ببغداد لخروج أهلها ففرح الناس بذلك وظنوا خروجه مع الحملة حسب مرسوم السلطان فلم يخرج وسلم قيادتها إلى قانصوه بك أمير الحاج فسارت في المحرم من السنة أى سنة ثمان وأربعين وعاد من بقي منها في صفر سنة تسع وأربعين ومحمد باشا الوالى على ما هو عليه من الجور والعسف فضج الناس ورفعوا ظلامتهم إلى دار السلطنة فلم يلتفت لشكواهم لقيام الفتنة في دار السلطنة وخروج طوائف الانكشارية عن طاعة السلطان وقتلهم حافظ باشا الصدر الأعظم في السراي السلطانية وإصرار كبارهم على إرجاع خسرو باشا الصدر المعزول وعدم مراعاة حرمة المراسيم السلطانية . قال بعض كتاب الأخبار: لما كانت سنة تسع وثلاثين وألف هجرية أو نحوها مات شاه عباس ملك فارس وتولى الملك بعده ابنه شاه مرزا وكان صيبا لم يبلغ أشده فلما جاءت الأخبار بولايته إلى دار السلطنة تقوت عزيمة كبار العسكر المنصور وفرح خسرو باشا الصدر الأعظم بذلك وسار في جيش عظيم إلى بلاد فارس لرد ما أخذ من بلاد الدولة ونزل على همدان ودخلها ثم سار منها قاصدا بغداد فلاقته في الطريق عساكر فارس فقاتلهم وانتصر عليهم وساق خلفهم حتى نزل على بغداد

وحاصرها من كل جانب وشد في حصارها ووالى الرمي عليها بالمكاحل بالليل والنهار فلم ينل منها وطالت أيام الحصار ودخل الشتاء فتذمر الانكشارية وطلبوا رفع الحصار والعود إلى القسطنطينية فمناهم بالأمانى الكثيرة فلم يقبلوا وأبوا إلا الرجوع فسار بهم عن بغداد إلى الموصل ولبت معهم حتى انقضى الشتاء وعزم على الرجوع إلى حصار بغداد فلم تطعه العساكر فآلح عليهم فأبوا إلا الرجوع إلى القسطنطينية فسار بهم إلى حلب خوفا من أن يداهم العدو وهو بالموصل ولا قبل له على رده ووصلت الأخبار بما جرى إلى السلطان فاستعظم هذا الأمر جدا ورسم بخلع خسرو باشا من منصب الصدارة وسير إليه فرمان بذلك وأعاد حافظ باشا ثانية إلى منصبه فكبر الأمر على خسرو باشا ودس إلى طوائف الانكشارية من يعلمهم أن خلعه من منصبه إنما كان للذب عنهم والعمل برأيهم فهاجوا عند ذلك وساروا إلى دار السلطنة وأشعلوا نار الفتنة ودخلت طائفة منهم إلى السراي السلطانية وقبضوا على حافظ باشا الصدر وقتلوه في الثامن والعشرين من رجب سنة إحدى وأربعين وألف ولم يراعوا للسلطان حرمة ولا حفظوا له عهدا ولا ذمة فكبر الأمر جدا على السلطان وسير إلى خسرو باشا جماعة فقتلوه وولى الصدارة محمد باشا بيرم وتجرد السلطان من هذا الحين إلى إخضاع الانكشارية وإذلال كبارهم فأعمل فيهم القتل لأقل سبب ورسم بمنع الناس كافة من شرب القهوة والدخان فكان يخرج في كل ليلة متكررا ويمشى في أسواق القسطنطينية بدعوى تأديب المولعين بشرب القهوة والدخان ومعه جماعة من أعيوانه وهو إنما يخرج لإتلاف الأشرار وقطع شأفة أهل الفساد من الانكشارية وغيرهم فخافوا وانكماشوا وامتلأت قلوبهم رعبا منه وخشيه الكبير والصغير فمهدت الطرق وزال البأس عن الناس وأمنوا على أموالهم وأعراضهم ولبشوا على الطاعة والانكماش إلى سنة إحدى وأربعين وألف هجرية فهابوا إلى الحركة وتجردوا إلى الثورة ومقدمهم يومئذ رجل اسمه رجب باشا فعاجلهم السلطان وقبض على رجب باشا المذكور وأمر به فذبحوه وألقوا جثته من شباك السراي السلطانية بين جمهور الانكشارية فكبر عند ذلك خوفهم وتفرق جمعهم وعادوا إلى السكينة وملازمة الحدود وزالت من هذا الحين سطوتهم وانحطت شهرتهم وتفرقت كلمتهم وكفى الله الناس شرهم، ولما دانت للسلطان الأمور وزالت عن مقر سلطنته المخاوف بقطع شأفة أهل الفساد سار في جيش عظيم لغزو بلاد فارس فحارب ملكهم واسترجع كثيرا من القلاع والحصون التي أخذها ملك فارس على عهد الفتن

المتابعة ونال أيضا من بلاد فارس ففتح بغداد واريوان فسير إليه ملك فارس من يخبره في الصلح وطال الكلام في أمر ذلك ثم تقررت القاعدة بين الفريقين على بقاء دار السلام في حوزة السلطان ورد اريوان إلى مملكة فارس وتم الصلح على ذلك وعاد السلطان ظافر منصوراً، ثم مرض بعيد ذلك وطال مرضه فلما كان تاسع عشر شوال سنة تسع وأربعين وألف هجرية مات من غير عقب ولم يتجاوز التاسعة والعشرين من العمر فبكاه أهل الفضل من الناس وتولى السلطنة بعده أخوه السلطان إبراهيم الأول فكانت سلطنة المتوفى ست عشرة سنة وأحد عشر شهراً وخمسة أيام رحمه الله تعالى .



(الفصل الحادى عشر)

(فى سلطنة السلطان إبراهيم الأول)

ثم قام بالأمر بعد السلطان مراد أخوه السلطان إبراهيم الأول ابن السلطان أحمد ببيع بالملك فى عاشر شوال سنة تسع وأربعين وألف هجرية أى سنة أربعين وستمائة وألف ميلادية . قال بعض الكتاب : ووافق تاريخ توليته (٩٨١ ٦٨ سنة ١٠٤٩) استعنت بالله ولما كان مشابها فى أحواله وأطواره لعمه السلطان مصطفى تولى أمور السلطنة الأغوار وقرناء سوء فاختلفت أحوال المملكة وعادت إلى ما كانت عليه من الفساد وهبت طوائف الانكشارية من رقدة الخمول والانكماش إلى الظهور فعاثوا على عاداتهم وطلبوا المطالب الطويلة العريضة فمناهم وأجزل عطاءهم وفتح أمامهم أبواب الحرب ليشغلهم عن العبث بأمور الدولة ومضالح السلطنة فسير طائفة منهم لاسترجاع مدينة أزاز من بلاد القرم التى أخذها القوزاقيون فقاتلوا وأبلوا بلاء حسنا حتى استردوها ثم سير طائفة أخرى لغزو جزيرة كريد إحدى الجزر التابعة يومئذ إلى جمهورية البندقانية وسير لذلك سفنا حربية ومقدمها يوسف باشا ففتحوا الجزيرة المذكورة بعد قتال خفيف فسيرت جمهورية البنادقة سفن حربها إلى بتراس وكورون ومورون من ثغور كريد فأحرقوها تشفيا وانتقاما نظير فتح جزيرة كريد فكبر هذا الأمر على السلطان وهم بقتل جميع النصارى الذين فى بلاد الدولة فمنعه من ذلك على ما قيل أسعد زاده أبو سعيد مفتى دار السلطنة وهون عليه الأمر فأطاعه

وبذل السلطان جهد الاستطاعة فى إصلاح ما اختل من أحوال المملكة الداخلية ، وقد وصل إلى مسامعه خبر ما يلاقيه أهل مصر من جور محمد باشا واليها وظلمه فأمر بعزله وورد الخبر بذلك إلى القاهرة ففرح الناس به فرحا لا يوصف وتأهب محمد باشا للرحيل إلى الديار الرومية وأخذ فى جمع أمواله ومتاعه فكان شيئا كثيرا للغاية وتباطأ فى السفر والخروج من مصر أياما كانت على أهل البلاد كأنها أعوام ثم نزل من قلعة الجبل وأقام فى بيت أحد الأمراء أياما أخرى جاءه الأمر فيها ثانيا من دار السلطنة ببقائه فى منصب الولاية فلما شاع الخبر بذلك حزن الناس حزنا ما عليه من مزيد فصعد إلى قلعة الجبل وعاد إلى التصرف فى الأمور فضاعف الجور وبالعنف فى الظلم واشتد على الرعية وأكثر من مصادرة الناس على اختلافهم وقتل وأراق الدماء ظلما ومازال على هذا الحال من الجور والعسف حتى قدر الله سبحانه وتعالى بخلعه فجاءه الأمر بذلك فى سلخ جمادى الآخرة سنة خمسين وألف فكانت مدة ولايته ثلاث سنين ونحو ستة أشهر .

(مطلب)

ولاية مصطفى باشا البستانجي

وتولى بعده مصطفى باشا البستانجي فدخل القاهرة فى غرة الحجة سنة خمسين فى موكب حافل وتصرف فكان عاقلا أبى النفس قنوعا لا يتطلع إلى ما بأيدى الرعية وكان له ديوانى اسمه أحمد افتدى وهو جاف خشن الطباع ظلوم فخور مختال وكان بيده مقاليد الأمور فاستبد وجار وظلم وأعاد أيام أحمد باشا من الأخذ بالشبهات ومصادرة الأغنياء والعظماء وأخذ أموال الصدقات والخيرات فشكا الناس أمره إلى مصطفى باشا المشار إليه فلم يفلحوا لتحجبه عن الناس وترك الأمور إلى ديوانيه المذكور يتصرف فيها كما يشاء فاضطربت لذلك الأحوال غاية الاضطراب واختل النظام وفشا الخصام وظهر أهل الفساد واللصوص وقطاع الطرق وكثرت السرقات فى حارات القاهرة وبيوت مصر القديمة وما جاورها من القرى وقصر النيل فى الزيادة فغلت الأسعار وقل وارد الحبوب واشتد البلاء على الناس فكانوا بين قمرمين عنيدى الغلاء واللصوص وكان إذا أتى إلى والى القاهرة بلص أو بجماعة منهم أطلق سبيلهم وكذلك كانت تفعل كشاف البلاد والأقاليم فلما اشتد الحال بالناس اجتمعوا زمرا تحت قلعة الجبل وصاحوا على الباشا وشكوا من أفعال والى

القاهرة وكشاف الأقاليم وضجوا ونادوا ما يحل من الله ياباشا اتق الله فى خلقه فاضطرب الباشا وخشى العاقبة وخلع فى الحال والى القاهرة وولى بدله كنعان بك ورسم بالقبض على كل من تقع عليه شبهة فقبض على كثير حتى ملئوا السجون فاطمأنت القلوب وسكنت الخواطر وظنوا بقاء الحال على ذلك، فلما كان شهر شوال سنة إحدى وخمسين ثار جند وجاق الجاوشية على كبارهم واشتدوا على أميرهم على بك وقالو بأنه لم يفرق عليهم شيئا من أموال العطايا وأن الكتاب هم الذين يأخذون هذه العطايا وطلبوا من الباشا خلعه فسايرهم وطاولهم فلم يرتجعوا وشدوا فى طلب عزله فعزله وأقام مكانه عابدين بك، فلما رأى جماعة العسكر ما كان من فوز إخوانهم الجاوشية ثاروا هم كذلك وشكروا من فراغ مخازن ذخرتهم وطلبوا بمعاشاتهم المتأخرة واتهموا أحمد افندى ديوانى الباشا السابق الكلام عنه ببيع ما فى تلك المخازن وأخذ أثمانها فعين لتحقيق ذلك قاضى قضاة المحروسة فبحث عما فى الأشوان والخواصل فلم ير فيها شيئا وثبت أن الكاتب المذكور باع ما كان فيها وأخذ الثمن لنفسه فخلعه الباشا تسكينا للفتنة واسترضاء لخواطر الجند فاستبعد الكاتب المذكور بجماعة الجاوشية فأجحدوه وأرجعوه إلى منصبه فهرا فزاد عسفه وتضاعف جوره وظلمه وبالع فى إيدائه ومازال والناس فى شدة وضيق حتى صرف مصطفى باشا عن الولاية فى جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين.

(مطلب)

ولاية مقصود باشا

وتولى بعده مقصود باشا فدخل القاهرة فى رجب من السنة فكانت مدة تصرف مصطفى باشا المذكور سنة وثمانية أشهر ولما استقرت بمقصود باشا الولاية جعل ينظر فيما وقع من مصطفى باشا وعوقه عن السفر من مصر وقبض على كاتبه أحمد افندى وعلى الكيخيا وجلدهما جلدا مبرحا وأخذ منهما مائتى كيس نفرة من أموال الخزينة السلطانية وقد كانا أخذاهما لأنفسهما غيلة ثم بعث مصطفى باشا المذكور إلى دار السلطنة تحرسه طائفة من الجند فلما وصل إليها أخذ منه مائة كيس للخرينة السلطانية ثم أدخل سبيله ولبث حيناً متحجبا عن الناس ثم أدخل فى خدمة الدولة ومازال حتى بلغ مسند الصدارة العظمى ودبر مقصود باشا أمور البلاد أحسن تدبير فأبطل كثيرا من المكوس والمغارم وأزال بعض الضرائب وأعاد حقوق الوراثة لأهلها

وضرب على الورثة ضريبة يدفعونها للخزينة السلطانية فقط ثم جعل يتعقب اللصوص وقطاع الطرق فقبض على كل من نالته شبهة منهم وسجن وغرق وقتل فخافوا واختفى خبرهم وارتاحت الأفكار من شرورهم، وبينما كانت القلوب هادئة والخواطر مطمئنة إذ ظهر الطاعون واشتد وعم القاهرة ومصر القديمة وضواحيهما ثم تفشى فى جميع المدن والقرى وعم وكثر الموات وكان ظهوره أولا من ناحية بولاق القاهرة فى أوائل شعبان من سنة اثنتين وخمسين وألف ومازال على هذا الحال من الاشتداد والانتشار من ابتداء ذى القعدة من السنة إلى غاية صفر سنة ثلاث وخمسين وألف ثم بدأ بالتناقص إلى آخر شهر ربيع الأول ولم يسمع بمثل هذا الطاعون فى الفتك والشدة فكانت تنقل الجثث عشرات عشرات والجنازات تسعى خلف بعضها حتى أبطلت الصلاة على الأموات لكثرتهم وفتك بالقرى كذلك فتكا ذريعا جدا. حكى أن مائتين وثلاثين قرية أصبحت خرابا ليس فيها ديار ولا نفاخ نار وكانوا يجدون الأموات فى الطرق وعلى جوانب الجدران والكلاب تحوم حولها ومازال على شدته حتى ارتفع وزال .

وبعد انتهاء الطاعون بقليل من الزمان ظهرت فى العشرين من القعدة فتنة بمدينة الإسكندرية والسبب فى ذلك أن ستمائة من الروم المسيحيين كانوا مقيدين بسجن الاسكندرية وقاسوا من العذاب أمره فأنت بعد حين لخلاصهم سفينة وجاءت إليهم أخبار قدومها فقاموا وكسروا أبواب السجن فى اليوم المذكور والمسلمون فى صلاة الجمعة وطافوا فى شوارع المدينة وجعلوا يتهبون البيوت والخوانيت ومخازن الأرزاق وعاثوا وأفسدوا فلم يبقوا ولم يذروا ثم نزلوا بتلك السفينة وأقلعوا من فورهم ونجوا بما كسبوا ولم يظفروا بأحد منهم، وضيق مقصود باشا على الصناجق وطالبهم بثلك الأموال المرتبة على الإقطاعات التى بأيديهم لصرف علائق الجند ورواتب العسكر المنصور فأغضب ذلك الجماعة الصناجق ولم يقبلوا فأرأوا منه قرما عنيدا فاجتمعوا فى بيت الأمير رضوان أبى شنب فى يوم الجمعة ثانى عشر رمضان سنة أربع وخمسين وتحالفوا على خلعه إن هو شدد فى الطلب فطولبوا فرفضوا وطلبوا عزل كبار مشورة الباشا فأجابهم إلى ذلك وطالبهم فأبوا وكتبوا إلى الباب العالى يشكون من تصرف مقصود باشا فورد إليه مرسوم السلطان بالاستعلاء عن السبب الموجب لتلك الشكوى، فأجاب بما دفع عنه الزيبة وأفحم أصحاب الخصومة وقد علم أن زعماء هذه الفتنة الأمير على بك والأمير مامى بك وشعبان الدفتردار

فعزم على الفتك بهم ورتب لذلك كميناً وأقام لهم رصداً ليقتلهم في الديوان إذا نزلوا إليه. في يوم الاثنين الثالث والعشرين من ذي الحجة سنة أربع وخمسين. فلم ينزل من الديوان من ذلك اليوم إلا الدفتردار فقط فأمسك عن قلته وأبقى العمل إلى يوم آخر فلما كان يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة جاء الأمر السلطاني بالخلع واعتزال المنصب وتولية شعبان بك الدفتردار النيابة حتى يأتي الوالي الجديد، قيل فشق هذا الأمر على مقصود باشا واستعظمه جداً وسلم الأمر إلى الدفتردار صاغراً ثم جاء الخبر من الباب العالي بتولية أيوب باشا فلبثوا ينتظرونه وهم في خوف حتى انصرف مقصود باشا عن الولاية فكانت مدة تصرفه سنة ونحو سبعة أشهر.

(مطلب)

ولاية أيوب باشا

وقدم أيوب باشا إلى مصر ودخل القاهرة في موكب خافل قيل ولم يقبل هذا المنصب إلا بعد إقدام وإحجام لما يعلمه من اختلال الأمور واستفحال أمر الجند واتساع سلطتهم وصعد القلعة في العاشر من صفر سنة خمس وخمسين وألف وأخذ في تدبير الأمور وترتيبها على الوجه الأتم فأحكم نظامها وقطع دابر اللصوص واقتفى أثر من فر منهم وأعمل فيهم القتل والشق والتغريق وأخذ على الصغار فخافه أهل الفساد وانكمش أصحاب الغابات واستتب الأمن وزال الخوف وسادت الراحة واطمأنت قلوب الناس ولارم كل حده ففرحت بأيامه الرعية ولبث يتصرف سنتين ثم كتب يستأذن السلطان في الانصراف عن منصبه فأذن له فسافر في سلخ رجب سنة سبع وخمسين وألف فكانت مدة تصرفه سنتين ونحو ستة أشهر وخرج في موكب خافل جداً والناس في حزن عليه.

(مطلب)

ولاية الوزير محمد باشا ابن حيدر

فتولى بعده الوزير محمد باشا ابن حيدر فلما وصل أيوب باشا إلى دار السلطنة رقى إلى مسند الصدارة العظمى فأحسن التصرف والتزم الحزمة وحسن التدبير ثم

نزل وترك المنصب وعكف على العبادة وتنازل عن جميع أمواله ومقتنياته إلى خزينة السلطان وتزيا بزى الدراويش وانفرد في جامع من جوامع الروم إيلى، وتصرف ابن حيدر المذكور في ولاية مصر فأساء التصرف وعكس التدبير وأفسد ما نظمه مقصود باشا فكانت أيامه كلها خروج وطغيان واشتد حوله الجند واستفحل أمرهم فكانوا يثورون عند أقل حادثة أو لأصغر سبب وقامت منهم طائفة الانكشارية في العاشر من رجب سنة سبع وخمسين وألف بمصر القديمة فعاثوا وأفسدوا وفعلوا ما لا خير فيه فركب عليهم والى القاهرة وتهلدهم إن هم بقوا على هذا الحال فضجوا في وجهه وساروا إلى ما تحت قلعة الجبل ونادوا بقتل الوالى المذكور وكان الوالى من وجاق الجاويشية فجاءهم الخبر بعزم الباشا على قتل الوالى انتصارا للعامة فركبوا جميعا ونادوا على الباشا بالويل والثبور فخشى الباشا العاقبة فدعا إليه قانصوه بك وشاوره فى الأمر وكان قانصوه ناقما على الأمير رضوان بك والأمير على بك فإشار إليه أن يكتب إلى دار السلطنة بما جرى ويسند حدوث جميع هذه الفتن إلى الاميرين المذكورين ويقول إنهما قد أخذوا أيضا مال الخزينة واختلسا المناصب بغير استحقاق وكان قصد قانصوه بذلك رجوعه هو وماماي إلى منصب إمارة الحاج وولاية جرجا فجئح الباشا إلى مشورته وطلب بعض الأعيان للتوقيع على محضر بذلك فاتصل الخبر برضوان بك فبادر هو بالكتابة يشكو الباشا إلى الباب وبالع في الشكوى وعظم البلوى فورد الجواب من الباب بتفويض رضوان بك وعلى بك فى تحقيق جميع ما أسند فعله إلى الباشا وقانصوه بك وورد إلى الباشا فرمان بذلك فى الحادى والعشرين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وألف وفى السابع والعشرين منه استدعاهما الباشا إلى الديوان الخاص بقلعة الجبل فصعدا إليه وعقدا مجلسا وتجادلا مع من حضر من الأمراء والعلماء ثم تقرر قتل قانصوه بك وماماي بك ومن كان على دعوتهما فقتلا وقتل معهما عدة من الأمراء ثم قام بعد ذلك على بك إلى مقر وظيفته بجرجا وسكنت الفتنة وزالت بعض القلاقل وتسابق بعض الأمراء إلى أخذ منصب قانصوه بك وكان ممن تقدم إلى ذلك وبذل الجهد فى الحصول عليه مصطفى كتحدا الملقب بالششيز فلم يفلح وخاب سعيه فتجرد للعصيان وشق عصا الطاعة وكادت تستفحل فتته لولا ماكانه رضوان بك من إيقاف تيارها بحسن تدبيره، واستدعى الباشا الأمير رضوان بك إلى وليمة كان أعدها عنده بقلعة الجبل فخاف رضوان بك على نفسه وأبى الحضور فغضب الباشا ورسم بتجريدته من

إمارة الحاج وكأنه كان ينوى له ذلك فقام رضوان بك من القاهرة فى نحو مائتى رجل وكثير من الأمراء والكشاف ولحق بالأمير على بك بجرجا فجهز الباشا ألفين من الجنود ونحو خمسمائة من الانكشارية وأمرهم فاجتمعوا بالرميلة تحت قلعة الجبل وتأهبوا للسفر ثم عدلوا واتفقوا على نبذ طاعة الباشا إن هو أصر على قتال رضوان بك وعلى بك فخاف الباشا وتخير فى أمره وليثت العساكر أيا ما بغير حركة فورد فى هذه الأثناء فرمان السلطان بإبقاء رضوان بك وعلى بك فى منصبيهما فخاب الباشا سعيًا وأرسل يستقدمهما إلى القاهرة فقدا فى التاسع عشر من رمضان من السنة أى سنة سبع وخمسين وسعى فى مصالحتهما مع مصطفى كتحدا وأعقب رجوع رضوان بك وعلى بك إلى القاهرة الإشاعة بخلع الباشا وتولية آخر اسمه مصطفى باشا فلهج الناس بهذا الخبر وعم واتصل بالباشا فأخذ يتأهب للسفر وجمع أمواله وأمتعته ولم يبق إلا أن ينزل من قلعة الجبل فلما كان السادس والعشرون من رمضان المذكور ورد فرمان السلطان بتشييته فى منصب الولاية فعاد وتصرف فى الأمور على ما كان عليه، وفى غاية شهر رجب سنة ثمان وخمسين وألف وردت الأخبار إلى القاهرة بخلع السلطان إبراهيم ابن السلطان أحمد وتولية ابنه السلطان محمد بدله ففسار المتادى بذلك فى شوارع القاهرة ومصر القديمة وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق، قال أصحاب التاريخ: ولما كثر عبث طوائف الانكشارية وزاد تمردهم وعمت شرورهم كبر أمرهم على السلطان إبراهيم وعمد إلى الفتك بكبارهم وأصحاب الكلمة فيهم وأخذ يدبر الحيلة فى ذلك فأسر إلى بعض خواصه أن يقتلوه إذا حضروا وليمة زفاف إحدى بناته على ابن الصدر الأعظم فتأهبوا لذلك واستعدوا فأحس كبار الانكشارية بما فى عزم السلطان فخافوا عاقبة السكوت وتجردوا لخلعه وساروا إلى مسجد أورطة جامع ونادوا بخلع بيعته فوافقهم على ذلك بعض العلماء والمفتى عبد الرحيم وشاع الخبر بذلك فهاج الانكشارية وطوائف السباه نادوا جميعا بخلعه وولاية ابنه محمد بدله وهو لم يبلغ يومئذ إلا السابعة فخلعوه فى ثامن عشرى رجب سنة ثلاث وخمسين وألف هجرية وحجروا عليه فى مقره فاضطربت عند ذلك الأحوال واختل النظام وزاد عسف الانكشارية وبقي الحال على ذلك عشرة أيام فعادت طوائف السباه وطلبت إرجاع السلطان إبراهيم إلى منصب السلطنة وألحت فى ذلك وتجردت لإرجاعه فخشى زعماء الثورة عاقبة ذلك وعمدوا إلى قتل السلطان إبراهيم فساروا إلى مقره ومعهم الجلاذ ودخلوا عليه وقتلوه خنقًا فمات شهيدًا وكان مدة تصرفه نحو ثمان سنين وتسعة أشهر.

ومات فى أيامه يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام أربعين سنة وفى أيام يوحنا المشار إليه كان من حوادث الطاعون والغلاء وتوالى الإحن ومصادرة الناس فى أموالهم وتطاول أيدى العساكر والأجناد وانتشار أصحاب السعاية والوشاة والأخذ بالشبهات وغير ذلك من فرض الفرض والمغارم والمكوس ما مر بيانه فى محله فأقيم بعده غبريال وهو خامس تسعينهم واسمه روفائيل من رهبان دير السريان ومولده فى منشاة المحرق وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله .



(الفصل الثانى عشر)

(فى سلطنة السلطان محمد الرابع ابن السلطان إبراهيم)

ثم قام بالأمر بعد خلع السلطان إبراهيم وقتله ابنه السلطان محمد الرابع بويج بالملك فى العشرين من رجب سنة ثمان وخمسين وألف هجرية أى سنة ثمان وأربعين وستمائة وألف ميلادية وكان عمره يومئذ سبع سنين فكانت سلطته بالاسم فقط والتصرف للوزراء وكبار الانكشارية فصارت لذلك أحوال المملكة فى انحلال وأمورها فى اختلال ونظامها فى زوال لعدم وقوف طوائف العسكر عند حد وتداخلهم فى جميع أمور الدولة وعزلهم للولاة والحكام عند أقل سبب وتطاول أيديهم إلى أموال الناس وإراقة الدماء ظلما فكان إذا عمد صدر من الصدور إلى إصلاح الأمور وإرجاع الأحوال إلى سابق مجراها قاموا عليه وخلعوه وربما قتلوه وطافوا بجثته فى الشوارع والطرقات فلم يجسر قط أحد على فعل ما لا يرضونه وقد أخلدوا إلى الترف وكبرها الحروب فكانوا إذا ساروا إلى غزوة تشاقلوا وركبوا متن هواهم ولم يسمعوا لكبارهم كلمة فيستخف بهم العدو ويتم له النصر عليهم . قال أصحاب التاريخ : وقد سرى هذا الداء أيضا إلى الجنود البحرية فتولى عليهم الخمول ولازمهم الفشل فأنست جمهورية البندقية منهم ذلك وسيرت مراكبها لقتالهم عند مدخل الدردانيل فانتصرت عليهم نصره عظيمة واحتلت مدينة تينندوس وجزيرة لمنوس وغيرهما وقطعت الطريق على السفن الحاملة للغلال والمؤنة فلم تتمكن من الوصول إلى القسطنطينية فارتفعت لذلك الأسعار ووقع الغلاء وعز وجود الخبز واشتد الحال بالفقراء وطالت أيام هذه الشدة إلى سنة ست وستين وألف هجرية وقد

تولى الصدارة محمد باشا الكوبرلى وفوض إليه تدبير جميع الأمور وكان شيخا قوى العزم ثابت الجأش حسن التدبير عظيم السياسة خبير بأحوال المملكة فأخذ بزمam جميع الأمور وأتى أوجه الإصلاح من أبوابها واشتد على طوائف الانكشارية شدة عظيمة للغاية فقتل منهم وغرق وشرذ وسام كبارهم الخسف فثاروا فاشتد عليهم وضيق فخافوا وانكمشوا ولازموا الطاعة وسير سفن الحرب لاسترجاع ما أخذته مراكب جمهورية البندقية من الجزائر والثغور العثمانية وفتح طريق القسطنطينية فلاقته سفن البندقية واقتتلوا فكانت الحرب بينهم سجالا ثم انتصرت سفن الدولة واستردت ما أخذ من الجزائر والثغور ومازال يقاوم أعداء الدولة فى الداخل والخارج ويأتى على أوجه الإصلاح من أبوابها حتى مرض واشتد به مرضه فسأله السلطان عمن يتولى المنصب بعده فقال ولدى وعليه فى إتمام ما لم أتمه معتمدى، ومات فى سنة اثنتين وسبعين وألف هجرية فتولى الصدارة بعده ولده أحمد باشا فكان كأييه فى الحزم وأصالة الرأى وحسن السياسة والتدبير فخافه طوائف الانكشارية وتجرد لمحاربة أعداء الدولة فجاز وظفر ونهى وأمر وغلب وقهر وفتح القلاع والحصون ودوخ المدن والأمصار وأتم الإصلاحات التى كان بدأ بها أبوه فأعاد للدولة مجدها القديم.

(مطلب)

ولاية الوزير أحمد باشا

وكان لما تولى السلطان محمد الملك وبلغ مسامعه خبر الخلاف الواقع ما بين محمد باشا والى الديار المصرية ورضوان بيك وعلى بيك مقدمى الأمراء المصريين رسم يخلع محمد باشا المذكور فجاء الفرمان بالعزل فى أواخر رمضان سنة ثمان وخمسين وألف، وتولى مكانه الوزير أحمد باشا فسافر محمد باشا المعزول فى العشر الأولى من شوال فكانت مدة تصرفه سنة ونحو ثلاثة أشهر ودخل أحمد باشا القاهرة فى غاية شوال وصعد إلى قلعة الجبل وتصرف فكان سىء التدبير ضعيف الرأى مششوم الطالع على البلاد فإنه منذ قبض على زمام الأحكام ظهرت الفتن وبدأت القلاقل ودرج أهل الفساد وقصر النيل عن زيادته المعتادة فلم يبلغ فى سنة ستين وألف زيادة عن الستة عشر ذراعا فشقت الأراضى فى الأقاليم القبلىة جميعها وبعض أراضى الأقاليم البحرية وغلت الأسعار وعزت الأقوات وانقطع واردها إلا القليل جدا وتجرد أحمد باشا من ذلك الوقت إلى تجديد المغارم وفرض

الفرض وإحداث المكوس وتتبع أهل اليسار وعادى جميع الأمراء وخص بالملكة رضوان بيك أمير الحاج وكاتب دار السلطنة فى شأنه وطلب عزله من منصب إمارة الحاج وتولية على بيك بدله ليقع النفرة بينهما فلم يفلح إذ كان رضوان بيك وعلى بيك على غاية المودة والإخاء .

(مطلب)

ولاية عزل أحمد باشا وولاية الوزير عبد الرحمن باشا

فلما كان يوم السبت السادس من صفر سنة إحدى وستين وألف جاء فرمان السلطان إلى أحمد باشا المذكور بالعزل وولاية الوزير عبدالرحمن باشا فدخل عبدالرحمن باشا القاهرة فى سلخ صفر وصعد إلى قلعة الجبل وقبض ومن ساعته على أحمد باشا وسجنه فى بيت وحاسبه على ما فى ذمته من أموال الخزينة فكانت شيئا كثيرا ولم يفرج عنه إلا بعد أن دفعها وسافر إلى الديار الرومية فكانت ولايته نحو ستين .

(مطلب)

ولاية الوزير محمد باشا

وتصرف عبدالرحمن باشا المذكور فأساء السلوك وحذا حذو السلف فأكثر من جمع الأموال السحت وزاد فى التعرض لأموال الناس وأكثر من الفرض والعوائد والمغارم وتطاولت يديه إلى مال الخزينة السلطانية ولم يقف عند حد فجار وظلم ومازال إلى غرة شوال سنة اثنتين وستين وألف فخلع من منصبه، وأتى مكانه الوزير محمد باشا ولم يدخل القاهرة فى موكله إلا فى ثامن المحرم افتتاح سنة ثلاث وستين وألف وصعد إلى قلعة الجبل وقبض على عبدالرحمن باشا الوالى المعزول وسجنه ثم حاسبه على ما كان فى ذمته من مال الخزينة السلطانية ولم يفرج عنه من السجن إلا بعد أن أدى ما عليه صاغرا .

وتصرف محمد باشا المذكور فكان حازما عاقلا مدبرا واسع الكلمة مهيبا فخافه الجند وخشوا بأسه فتجرد إلى إصلاح ما أفسدوه ورتب أمور البلاد على أحسن ترتيب فأمن الطرق وقطع دابر اللصوص وأهل الفساد فسكنت فى أيامه القلاقل

واطمأنت قلوب الرعية ودرت الأرزاق وكثرت الأقوات وزال الغلاء وانقطعت أسبابه ومازالت أيامه زاهية زاهرة حتى جاءه فرمان السلطان بالخلع سلخ المخرم سنة ست وستين وألف هجرية فأسف الناس على فراقه أسفا ما عليه من مزيد وخرج جميع الأمراء والكبراء والعلماء والأعيان في ركابه مودعين .

(مطلب)

ولاية غازي باشا وعزله وولاية عمر باشا

وتولى بعده غازي باشا فأقام بضعة أشهر وجاءه الأمر بالعزل فسار إلى الديار الرومية وتولى بعده عمر باشا في أواخر سنة سبع وستين وألف هجرية فطالت أيامه، ولما كانت سنة إحدى وسبعين وألف قامت الفتنة بين العساكر المصرية على اختلاف طبقاتها واشتدت نارها وعلا لهيبها في القاهرة ومصر القديمة ثم امتدت إلى الأقاليم القبلية وعظم أمرها فتناولت أيدي الجند والغوغاء معا إلى السلب والنهب وهتك الحرمات وظهر العربان فتخطفت كل من خرج من مصر فرارا من الفتنة فكانت شدة عظيمة للغاية مات فيها الجمل الغفير من الناس وجرى الدم في الشوارع والحدارات ومات الكثير من الأمراء الفقارية وغيرهم وطالت أيام الفتنة ثم انحسرت أسبابها ولبت عمر باشا الوالي المذكور يتصرف إلى سنة سبع وسبعين وألف هجرية، قلت: فإن صح ذلك كانت ولايته زهاء عشر سنين وهذا بعيد في جانب ما تعوده رجال السلطنة من كثرة العزل والتولية في ولاية مصر لاسيما وقد كانت أيام عمر باشا المذكور مفعمة بالفتن والكوارث والمحن وخروج الجند بعضهم على بعض فكان لابد لتسكين الفتنة ومنع حدوث مثل هذه القلاقل من تغيير وتبديل في الولاية.

(مطلب)

ولاية أحمد باشا أو وهه إبراهيم باشا وعزله وولاية حسين باشا

ثم عزل عمر باشا المذكور وتولى بعده أحمد باشا وقيل إبراهيم باشا وذلك في أواخر سنة سبع وسبعين فأقام سنة وعزل في أواخر سنة ثمان وسبعين وألف هجرية وفي رواية أنه أقام يتصرف إلى سنة خمس وثمانين وألف هجرية فكانت مدة تصرفه زهاء تسع سنين، وتولى بعده حسين باشا وجاء الخبر بوصوله إلى بولاق مصر

فخرج الناس للقائه وركب فى موكب حافل للغاية وصعد إلى قلعة الجبل ومعه كثير من الخدم والحشم فأخذ يتصرف مع الحكمة والعقل وكان محبا للرعية غير متحجب كان يجلس للناس فترفع له القصص فيأمر وينهى مع الرفق واللين وجاءه فرمان السلطان بطلب ثلثمائة كيس قروش كلاب على حساب القرش الكلب ثلاثون نصف فضة . قال بعض الكتاب : وكانت قيمة القرش الكلب إلى ذلك الوقت أربعين نصف فضة ، وكانت قيمة الريال اثنين وأربعين ، والشريف البندقي خمسة وتسعين نصف فضة ، والشريف المحمدى خمسة وثمانين .

(مطلب)

ولاية حسن باشا جانبلاط

ولبت حسن باشا يتصرف حتى جاءه الأمر بالعزل فى المحرم افتتاح سنة سبع وثمانين وألف هجرية وتولية حسن باشا الجانبلاط فكانت مدة تصرف حسين باشا سنة وبضعة أشهر ودخل حسن باشا الجانبلاط القاهرة فى منتصف المحرم فخرج للقائه العلماء والمشايخ والأمراء وكبار الجند وأصحاب العكاكيز فصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد وأطلقت لقدمه البشائر فأخذ يتصرف فى الأمور فكان مشئوم الطالع وقع فى أيامه غلاء عظيم وانقطع الوارد من المأكول وعز وارتفعت الأسعار جدا فبيع الأردب القمح بمائة وثمانين ونصف فضة والأردب الشعير بمائة وثلاثين وكذلك الفول والتبن كل حمل بمائة وخمسين نصفاً فضة واشتد الحال على الفقراء حتى أكلوا الميتة وجذور الأشجار وطافوا فى الشوارع يتخطفون الخبز من الأفران ويرجمون بيوت الأمراء بالأحجار ويصبحون ويضجون . قال بعض أصحاب التاريخ : ومع هذا فقد كان النيل فى غاية الكمال .

(مطلب)

ولاية عثمان باشا

وأقام حسن باشا يتصرف إلى أن جاءه الأمر بالعزل فى المحرم سنة إحدى وتسعين وألف هجرية وتولية عثمان باشا فكانت مدة تصرفه أربع سنين ، ودخل عثمان باشا القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل وأخذ يتصرف فى الأمور فكان عادلا

كاملا حسن السيرة قنوعا غير محب لأخذ ما بأيدي الناس وزاد النيل في أيامه زيادة عظيمة فعم جميع الأراضي القبلية والبحرية ورواها وأخصبها فأثمرت وأنتجت غلاتها فزت الأسعار وكثر الوارد وامتلات العرصات بالقمح والبقول والشعير والعدس والأرز وكثر الخبز بالأفران والدكاكين وشبع الفقراء ووجه غايته إلى ضبط المقاييس والمكايل وتحرير عيار النقود على اختلافها فلم يتم ذلك حق جاء الأمر من دار السلطنة بأن يكون وزن الألف نصف فضة مائتين وثلاثين درهما وكل مائة درهم فضة يدخله خمسة وعشرون درهما من النحاس ونودي بذلك في القاهرة ومصر القديمة فتكدر الناس من ذلك جدا وخصوصا السوق وأصحاب التجارة وراجعوا الباشا في ذلك فرفع الأمر إلى دار السلطنة وبألف في شكوى الناس من ذلك فلم يلتفت إليه وجاءه الأمر بالتعجيل ففعل.

وكانت إلى هذا الحين لم تبطل الحرب القائمة ما بين الدولة وخصومها ولم يتم جميع الإصلاحات التي بدأ بها كوبريلى أحمد باشا بعد توليته الصدارة العظمى إنجازه لمقاصد أبيه إذ عاجلته المنية فمات حتف أنفه في سنة سبع وثمانين وألف هجرية، فولى الصدارة بعده زوج أخته قره مصطفى. قال بعض الكتاب: فلم يكن كفوا لهذا المنصب الجليل ولا هو موصوف بحسن السياسة التدبير فلما استقر به المنصب تغلب عليه هواه فركب متن الشطط وباع المناصب العالية وعاقد الدول على ما ياباه شرف دولته وعزة جانبها وخلط وخطب فأبعد عن الدولة قلوب معاهديها وأزال بسوء تدبيره ما أسسه كوبريلى الكبير وابنه من بعده فظهر الخلل وتطرف إلى جميع مصالح الدولة وتقدمت الأوغاد وعلت كلمة الأغرار واشتد خصوم الدولة عليها فسار قره مصطفى الصدر المذكور في جيش عظيم يريد محاصرة ويانه عاصمة النمسا فنزل عليها وحاصرها وضيق عليها وأقام على حصارها زهاء شهرين واستولى على جميع قلاعها الأمامية ورمى عليها بالقنابل وراسل الرمي ليلاً ونهاراً حتى هدم بعض أسوارها ولما يأخذها فسير بابا رومه رسله إلى ملك بولونيا وملك ساكس وبافيرا يستنهضهم إلى نجدة النمساويين وقتال المسلمين وخلاص البلاد من أيديهم فقاموا جميعاً للقتال وهاجموا عساكر المسلمين وقتلواهم قتالا عنيفا للغاية فظفروا بهم وانتصروا عليهم نصرة عظيمة. وفشلت جنود قره مصطفى باشا وتمزقت فاستولت الأحزاب على جميع مدافعهم وما تركوه من مؤنة ودواب وآلات الحرب وكانت شيئا كثيرا للغاية ثم جمع قره مصطفى باشا مابقى من جنوده على نهر داب وقفل

راجعا بهم إلى مدينة بور فستبعه ملك بولونيا في عكسره وصار يتخطف من خلفه ووصل الخبر بذلك إلى دار السلطنة فكبر الأمر على السلطان وسير على الفور أحد حاشيته إلى قره مصطفى باشا فقتله وبعث رأسه إلى القسطنطينية وولى مكانه إبراهيم باشا وكبر الأمر على دولة النمسا وتعلقت آمال ملكها بالنصر بعد استخلاص ويانه من هجمات العساكر العثمانية فتحالف مع مملكة بولونيا وجمهورية البندقية ورهينة القديس يوحنا وبابا رومية ودولة الروس على قتال المسلمين وأخذ جميع ما بأيديهم من البلاد في قارتى آسية وأوربا ودعوا هذه المحالفة بالمحالفة المقدسة ثم فتحوا الحرب على الدولة من كل صوب وحذب فسارت سفن جمهورية البنادقة تهدد سواحل اليونان وبلاد الموره ومعها سفن حرب البابا وسفن رهينة القديس يوحنا فتغلبوا على مدن اليونان وأخذوا كورنثيه وأثينه وزحفت جيوش الملك سويسكى على بلاد البغدان وأغارت عساكر النمسا على بلاد المجر فاحتلت مدينة بست وحاصرت مدينة بور وضيق عليها فلم تزل منها فهاجموا بعض القلاع والحصون وأخذوها عنوة وفاز الأحزاب وانتصروا عدة نصرات متتابعة فكبر ذلك على السلطان وظنه خيانة من الصدر الأعظم فسير إليه الأمر بالعزل والإبعاد إلى جزيرة رودس وعين مكانه سليمان باشا السردار فلم يغن عزله شيئا ولم يفلح لسليمان باشا السردار عمل وافتتح النمساويون مدينة بور ودخلوها وأعملوا فيمن بها من العساكر العثمانية القتل، وقتلوا عاملها المدعو عبدى باشا فكان سقوط هذه المدينة فى أيدي الأعداء خسارة عظيمة على الدولة العثمانية وفشلت بعد ذلك عساكر سليمان باشا وتولى عليها الجبن والضعف وفازت عساكر الأحزاب وتقدمها النصر فى جميع حروبها والسلطان فى شاغل عن جميع أمور السلطنة بالصيد والقنص ومنادمة قرناء السوء فى القسطنطينية وضواحيها.

ولما وردت الأخبار إلى دار السلطنة بشوالى هزيمة العساكر العثمانية وفوز الأحزاب ودخول الشتاء رسم السلطان بأن يكون الروم إيلى مشى العساكر فى ذلك العام أيضا وقد كانوا أشتوا فيها عدة سنين فهاج العسكر عند ذلك وماجوا وأبوا إلا الغود إلى دار السلطنة فلما صاروا على مقربة منها كتبوا محضرا بما عليه السلطان من سوء الأخلاق وعدم صلاحيته لمنصب الخلافة وطلبوا خلع بيعته فوافقهم على ذلك العلماء والمشايخ وأهل الدولة وخلعوه فى غرة المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين وألف هجرية وأجلسوا بدلا منه أخاه السلطان سليمان الثانى وبقي السلطان محمد محجورا عليه حتى مات سنة خمس ومائة وألف هجرية..



(الفصل الثالث عشر)

(فى سلطنة السلطان سليمان خان الثانى)

ثم قام بالأمر بعد خلع السلطان محمد أخوه السلطان سليمان خان الثانى ببيع له بالملك فى الثانى من المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين وألف هجرية أى سنة سبع وثمانين وستمائة وألف ميلادية وطُيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فلما تمت له البيعة دخل جميع العساكر الذين كانوا فى حومة القتال إلى دار السلطنة بسلاحهم وكراعهم ودوابهم وضربت كتائب السباهيين خيامهم فى المكان المعروف بميدان السلطان أحمد وضرب الانكشاريون خيامهم فى المكان المعروف بأب ميدان وما غنموا حتى قبضوا بعد ذلك على أزيمة الأحكام وأمروا ونهوا وصاروا يعزلون ويولون ويقصون ويدنون من شاءوا ويقتلون ويصادرون الوزراء والأمراء والحكام على السواء وتطاولت أيديهم أيضا على أموال الرعية واشتدوا على الناس شدة بالغة وعاثوا وأفسدوا وهتكوا الحرمات ودخل جماعة منهم يوما إلى الباب العالى وقبضوا على الصدر الأعظم سيواس باشا وقتلوه شر قتلة فعم الخلل وظهر أهل الفساد فتبعوا العسكر فى النهب والسلب وعاثوا وعربدوا واتفق أن جماعة منهم دخلوا إلى بيت شريف من الأشراف يتهبون فمانعهم الشريف فلم يقدر فخرج وهو يصيح ويضح ثم رفع منديلا على رأس عصا وصار ينادى من كان مؤمنا بالله ورسوله فليأت تحت الصنّج فلما سمع الناس نداءه أتوا إليه من كل صوب وحذب وأحاطوا به وهم يضحون ويعجبون إلى الله وذاع الخبر فى جميع أطراف القسطنطينية بخروج البيرق النبوى أى بيرق صاحب الشريعة فهرع الناس أفواجا أفواجا إلى السراى السلطانية وهم لا يشكون فى أن منديل ذلك الشريف هو البيرق النبوى فتعجب الأمراء وكبار الدولة من هذا الأمر الغريب وظنوا أن اجتماع هذه الجموع الكثيرة على هذه الصورة إنما هو بإرادة سماوية ومشية إلهية فأسرعوا فى إخراج البيرق النبوى للحال ووقع السيف فى أعناق أهل الشقاوة والفساد وكثر القتل والتفريق وعمت الثورة واستفحل الخطب واشتد الويل والكرب وأغلقت الأسواق وتترس الناس فى البيوت والدروب فكانت فتنة كبرى .

وبينما كانت القسطنطينية تتأجج بنار الفتنة والدماء تسيل فى طرقاتها كانت

عساكر الأحزاب تقاتل بلاد الدولة وتحتل الثغور وتأخذ القلاع والحصون فاستولى البندقيون على إيالة المورة ووصل النمساويون إلى بلغراد ثم استولوا على قلاع ودين وفتح الإسلام ونيس والافلاق وغيرها ووردت الأخبار بذلك إلى دار السلطنة فاجتمع كبار الدولة وأهل الحل والعقد فيها وتشاوروا في الأمر واعترفوا بعجزهم وعدم قدرتهم على إطفاء نار هذه الفتنة وبعد إقدام وإحجام اتفقت كلمتهم على تسليم كوبريلى مصطفى باشا خاتم الصدارة العظمى فاستقدموه في الحال وسلموه الخاتم فقبض على زمام الأمور بهمة عالية وأبطل كثيرا من البدع والمظالم المستحدثة وأزال جميع الامانات والالتزامات وأبطل رسوم وعادات الوزراء في الأعياد والمواسم وبالع في إرجاع الجند إلى حدود الطاعة وملازمة النظام وصرف لهم جميع جمالكهم وعلوفاتهم المتأخرة وبث حول كبارهم العيون والأرصاء فخافوه وأخلدوا إلى السكينة وقطع دابر أصحاب الشقاوة وأهل الفساد وأمن الطرق فأحبه الناس ومالت إليه قلوب الجند فأذعنوا لأمره واجتمعوا عند كلمته وانطلقت السنة الناس كافة بالدعاء له فلما تم ما أراد من تنظيم أمور المملكة الداخلية تجرد للغزو وأخذ الثار من الأعداء وأثار الحزب على النمسا وجمهورية البندقية وبقية الأحزاب وسير لقتالهم عسكرا جرارا فكانت بينهم سجالا، وبينما كانت نار الحرب تشتعل بين العساكر السلطانية وجيوش الأحزاب تحرك كذلك بطرس الأكبر قيصر الروس ونكث العهد وزحف بجيش عظيم يريد إما التخلص من الجزية المفروضة على مملكته لبكوات القريم وإما الحرب والقتال فكبر هذا الأمر على الصدر الأعظم ورسم لجيوش التار بقتال الروس فقاتلوهم قتالا عنيفا وهزموهم شر هزيمة وغنموا ما كان معهم من المدافع وآلات الحرب والخيام والدواب وكانت شيئا كثيرا وعادت التار ظافرة وتفرغ الصدر الأعظم حينئذ لقتال الأحزاب وشدد في ذلك فهزمت العساكر السلطانية عساكر جمهورية البندقية وانتصرت عليها نصرا عظيما وركب هو بعسكره أيضا على دولة النمسا فافتتح قلعة نيس وجميع القلاع والبقاع المتصلة إلى قلعة بلغراد وقلعة سمندرة واسترجعت أيضا السفن العثمانية قلعة ودين وسير طائفة من العسكر إلى أطراف أردل ففتحوها وانتصروا على من كان بها من الأعداء.

(مطلب)

ولاية حسن باشا السلحدار

ولم تكن هذه الحروب المتتابعة لتشغل رجال السلطنة عن التولية والعزل في ولاية

مصر فإنه بعد أن لبث عثمان باشا يتصرف جاءه الأمر بالعزل فى أوائل سنة تسع وتسعين وألف هجرية وتولية حسن باشا السلحدار فكانت مدة تصرفه نحو ثمان سنين وبضعة أشهر، ووصل حسن باشا إلى الإسكندرية فخرج للقاءه الأمراء وكبار الجند والعلماء والوجهاء فدخل القاهرة فى موكب حافل للغاية وصعد إلى قلعة الجبل وأخذ يتصرف فى الأمور فلما كانت سنة ألف ومائة هجرية وقع الغلاء بمصر وامتنع الوارد من الغلال إلى القاهرة فبيع الأردب القمح بمائة وعشرين نصفاً فضة والأردب الشعير بثمانين والفول بخمسة وتسعين نصفاً. قال بعض الكتاب: وأجرة طحين وية القمح أربعة أنصاف فضة فضج الفقراء وطاقوا بالأرقعة والحارات يتساءلون وصاروا يتخطفون ما يجدونه من الخبز فى الأفران وفى الدكاكين واهتم حسن باشا بأمر الغلاء ففتح الأشوان السلطانية وأطعم حتى زال الغلاء وكثر الوارد من الغلال واطمأنت قلوب الناس.

(مطلب)

ولاية أحمد باشا جانبلا

وبث حسن باشا يتصرف إلى ربيع الثانى سنة إحدى ومائة ألف هجرية فجاءه الأمر بالعزل وتولية أحمد باشا فتزل من قلعة الجبل، ودخل أحمد باشا القاهرة فى آخر ربيع الثانى المذكور فكانت مدة تصرف حسن باشا ثلاث سنين غير كوامل وتصرف أحمد باشا تصرفاً حسناً إلا أنه لم تطل مدته وكان السلطان سليمان قد رحل عن القسطنطينية إلى أدرنه وأقام بها يستطلع أخبار الحرب ويستشق نسمات النصر بعد ذلك الخذلان المتتابع فينما هو على هذا الحال جاءت الأخبار بظفر جنوده وقهرهم للأعداء ففرح بذلك فرحاً لا يوصف وسار من أدرنه إلى دار السلطنة فضربت لقدمه البشائر وعاد بعد أيام أيضاً الصدر الأعظم بجميع عساكره ورايات النصر تخفق على رؤوسهم كان ذلك فى وقت الشتاء فتفرغ من الحرب إلى إمضاء الأحكام وتنظيم أمور الدولة وإعادة ما خسرت من العز والجاه وبقي كذلك إلى دخول الربيع فخرج بجيوشه يريد بلغراد للغزو والجهاد وخرج السلطان إلى أدرنه تشجيعاً للمقاتلين فلم يلبث بها إلا أياماً حتى مرض واشتد به مرضه فمات فى العشرين من رمضان سنة اثنتين ومائة ألف فكانت سلطته ثلاث سنين وتسعة أشهر وتولى الملك بعده أخوه السلطان أحمد خان الثانى ابن إبراهيم خان.



(الفصل الرابع عشر)

(فى سلطنة السلطان أحمد الثانى ابن إبراهيم)

ثم قام بالأمر بعد السلطان سليمان أخوه السلطان أحمد الثانى ابن السلطان إبراهيم ببيع له بالملك يوم موت أخيه سنة اثنتين ومائة وألف هجرية أى نحو سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف ميلادية فلما استقرت به السلطنة أخذ يتصرف فى الأمور ولم تكن الحرب القائمة بين جيوش مصطفى كوبرلى صدر الدولة وبين جيوش النمسا قد انقضت إلى ذلك الوقت فاهتم السلطان أحمد بأمرها وسير مصطفى باشا المشار إليه إلى بلاد النمسا لإخضاعها واسترداد ما بقى تحت يدها من المدن والبلدان فسار مصطفى باشا ومازال يحارب حتى مات فى ساحة الحرب وانهزم جيشه شر هزيمة ومات منه زهاء العشرين ألفا وتشرد من بقى منه فاضطرب السلطان من ذلك وصمم على الأخذ بالثأر فجعل يعد المعدات ويجهز الجيوش ويراقب الفرص ويتبين انتفاعها فبينما هو على هذا الحال إذ قام الحريق بالقسطنطينية واشتد بها شدة بالغة جدا فاحترق نحو ربع المدينة ومات كثير من الشيوخ والأطفال وعم الخطب فتعوق تسير الحملة على بلاد النمسا ولم تخرج إلا فى سنة خمس ومائة وألف وكانت جيوش النمسا فى هذا الحين تشدد الحصار على مدينة بلغراد فلما جاء الخبر بمقدم العساكر العثمانية خاف قائد جيوش النمسا وفك الحصار عن بلغراد ورجع عنها فنزلت العساكر العثمانية حول بلغراد ولبثت هناك من غير قتال ولم يقع الاتفاق بين قائد الجيوش العثمانية وقائد جيوش الفرنجة على شىء من أسباب الصلح أو المهادنة ولم تزل الحال كذلك إلى أن مات السلطان أحمد سنة ست ومائة وألف هجرية فكانت سلطته ثلاث سنين وبضعة أشهر وقيل أربع سنين ومات فى أيامه أحمد باشا والى مصر فدفن بالقرافة.

(مطلب)

ولاية علي باشا قلعج

وجاء فرمان السلطان بتولية على باشا قلعج بدله فدخل القاهرة فى ربيع الثانى سنة اثنتين ومائة وألف هجرية فكانت مدة تصرف أحمد باشا سنة وبضعة أشهر

وتصرف على باشا قلعج فكان غير موفق فى جميع أعماله ميالا للإيذاء غير قنوع وقصر فى أيامه النيل عن زيادته المعتادة فرسم للشيخ يوسف السادات بأن يبيت فى قاعة المقياس ويتلو حزبه فى كل ليلة حتى يحصل الوفاء وأقام بطرك المتأصلين كذلك الصلاة ودعاء الله سبحانه وتعالى، قيل فزاد النيل ووفى فى السابع والعشرين من مسرى القبطى وعم الأراضى ثم انحدر عنها فأخصبت وأنتجت غلاتها ولبت يتصرف حتى تولى السلطنة السلطان مصطفى الثانى ابن السلطان محمد الرابع وكان من أمره ما سيذكر فى محله .



(الفصل الخامس عشر)

(فى سلطنة السلطان مصطفى الثانى)

(ابن السلطان محمد الرابع)

ثم قام بالأمر بعد السلطان أحمد ابن أخيه السلطان مصطفى الثانى ابن السلطان محمد الرابع وبويع بالملك سنة ست ومائة وألف هجرية أى سنة خمس وتسعين وستمائة وألف ميلادية وكان متأدياً حسن السيرة محباً للعلوم والمعارف رزيناً كريم الأخلاق فلما استقرت به السلطنة جيش على جزيرة ساقس ففتحها ثم سار إلى قتال النمسا إذ الحرب لم تكن خمدت نارها بين الفريقين فلما التقى الجمعان واقتتلا انهزمت جيوش السلطان شر هزيمة فقفل راجعاً بمن بقى معه ثم سار بجيش آخر لقتال الروس فلاقته جيوشهم وقاتلته قتالاً عنيفاً فانتصرت عليه نصرة عظيمة وأخذت منه مدينة أزوف ولما رأى السلطان من توالى نصرة أعدائه وموت عساكره سلم خاتم الصدارة إلى حسين باشا عموجه زاده من عائلة كوبريلى ففرح الناس بذلك وعدوا هذا الفعل من تدابير السلطان الحسنة وكانوا يودون لو أن الصلح يقع مع الدول المحاربة على يد حسين باشا الصدر المذكور فتحقق الدماء وتزول ويلات الحروب وكان الصدر الأعظم يرى وجوب التمسك بقول القائل: إذا أردت الصلح والصلاح كن مستعداً للحرب والكفاح. فسار من فوره بالعسكر السلطانى إلى نواحي بلغراد يريد القتال فتدخلت عند ذلك دولتا الإنجليز والقلمنك

فى تقرير قاعدة للصلح فأذعن الصدر بذلك خوفا من ملل الجنود من توالى الحروب عليهم فى أربع جهات مختلفة ونفساد الأموال فضلا عما طرأ على البلاد من الخراب فتم أمر الصلح مع الأحزاب ولكن لم يرق هذا العمل الخطير فى عين فيض الله افندى شيخ الإسلام وحسد الصدر الأعظم على هذا الفوز فندس فى حقه إلى السلطان وأكثر من التهمة والشاية به وأثار عليه الخواطر ورماه بالمروق ووسمه بالخيانة فلم يطق الصدر هذا الحال واعتزل المنصب وكتب إلى السلطان بذلك فجاءه جواب السلطان بالقبول. قال أصحاب التاريخ: وقد خست بهذا الوزير سياسة محمد باشا الكوبريلى ولم تلبث الأحوال أن تغيرت وظهر الأغرار وقبضوا على زمام الأحكام وكان للسلطان ميل تام إلى فيض الله افندى شيخ الإسلام لأنه شيخه ومريه فأركن إليه واعتمد فى كل الأمور عليه فتاقت نفس فيض الله إلى الانفراد بالأمر ففعل ما لم يفعله أحد قبله من سلفائه وأمضى ما لا يليق بشأن العلماء فولى أولاده ومن ينسب إليه المناصب العالية وإرقاهم المراتب السامية وقبض على أزمة جميع الأمور فنهى وأمر وفاز واشتهر وغلب وقهر وحضر المنافع فيه وفى أولاده وأتباعه وأقبلت عليه الدنيا بحذافيرها فلم تبق كلمة فوق كلمته ولا يد فوق يده، وتولى السلطان مصطفى والوالى على مصر على باشا قلع فأتى إليه فرمان الرضا فلبث يدبر الأمر وكان على باشا هذا سئ الطالع قليل الرأى عديم التدبير متحجبا عن الناس إلا عن بعض خواصه وكانت أيامه كلها شذائد وقع فيها غلاء شديد جدا فقل ورود الغلال يوما عن يوم حتى انقطع وعزت الأقوات وضافت أمور الفقراء واشتد بهم الجوع شدة بالغة فأكلوا الجيف وجذور الأشجار ثم اجتمع منهم السواد الأعظم رجالا ونساء وصبيانا وضعد إلى قلعة الجبل وذلك فى منتصف المحرم من سنة سبع ووقفوا بحوش الديوان وصاحوا من الجوع واستغاثوا ونادوا على الباشا فلم يجبههم أحد فرجموا بالأحجار وأكثروا من العريضة فركب والى وطردهم فترلوا إلى الرميلة ونهبوا ما بها من حواصل الغلال وكذلك وكالة القمح وحواصل كتخدا الباشا وكانت ملأى بالشعير والفول وأصناف الحبوب الأخرى فلم يقدر أحد على ردهم واشتد الغلاء حتى بيع الأردب القمح بستمائة نصف فضة والشعير بثلاثمائة والفول بأربعمائة وخمسين والأرز بثمانمائة نصف فضة أما العدس فكان لاوجود له بالكلية وحصلت شدة عظيمة بمصر والأقاليم كافة وجاء أهالى القرى والأرياف إلى القاهرة ومصر القديمة فامتلات منهم الأزقة والحارات واشتد الكرب وعم الخطب

ومات الكثير من الناس جوعاً وخلت أكثر القرى من أهلها وخطف الأهالي الخبز من الأسواق ومن الأفران والذي على رؤوس الخبازين مع ندرته فكان يذهب الرجال والثلاثة مع طبق الخبز يحرسونه من الخطف وبأيديهم العصي حتى يخبزه ويعودوا به واستمر الأمر على ذلك إلى أن عزل على باشا المذكور في ثامن عشر من المحرم افتتح سنة سبع ومائة وألف هجرية.

(مطلب)

ولاية مسلم باشا إسماعيل

وخلفه في الولاية مسلم باشا إسماعيل وهو من ولاية الشام فلما جاء الخبر بعزله فرح الناس فرحاً لا يوصف واستبشروا بالفرج بعد الضيق وقام إبراهيم بك أبو شنب في نيابة الغيبة حتى يقدم مسلم باشا إسماعيل المذكور إلى مصر، ونزل على باشا المخلوع إلى بيت أحمد كتحدا العزب المطل على بركة الفيل واستقر به فكانت مدة تصرفه أربع سنين وثلاثة أشهر وأياماً وحضر إسماعيل باشا الوالي الجديد من البر وصعد إلى قلعة الجبل بالموكب في يوم الخميس السابع والعشرين لصفر من السنة فلما استقر به المنصب ورأى ما فيه الناس من الجوع والكرب والموات رسم بتوزيعهم على بيوت الأمراء والأعيان كل إنسان على قدر حاله وقدرته وأخذ لنفسه جانباً ولأعيان دولته جانباً وعين لهم ما يكفيهم من خبز وطعام في الصباح والمساء إلى أن انقضى الغلاء ثم أعقب ذلك وباء عظيم للغاية فرسم الباشا لأصحاب بيت المال بأن يكفوا جميع الفقراء والغرباء كافة فكانوا يحملون الموتى من الطرقات عشرات عشرات ويذهبون بهم إلى مغسل السلطان عند سبيل المؤمن ومازالوا على هذا الحال إلى أن انقضى الوباء أيضاً فكان عدد الموتى لا يكاد يحصر وكان انقضاء الوباء في آخر شوال من السنة فعمل الباشا أفراحاً وختن ولدا له اسمه إبراهيم وختن معه ألفين وثلثمائة وستة وثلثين غلاماً من أولاد الفقراء ورسم لكل غلام بكسوة كاملة ودينار، وكان من ملتزمي دار الضرب على عهد على باشا الوالي المنفصل يهودي اسمه ياسف وكان طاغية داهية وقد طلب إلى دار السلطنة وسئل عن أحوال مصر وما يتعلق بها فأملى على أمور والتزم بتحصيل أموال الخزينة زيادة عن القاعدة المقررة في كل عام وحسن إحداث بعض إحداثيات فأجارت له الدولة ذلك وأعطت له مرسوماً فلما حضر مصر تلقته طائفة اليهود من بولاك وأصعدوه إلى الديوان في

كبكة فقرئت الأوامر التي حضر بها ووافقها الباشا على إجرائها والعمل بها وأشهر النداء بذلك فى شوارع مصر والقاهرة فاغتم الناس وتوجه التجار وأعيان البلد إلى الأمراء وراجعوهم فى ذلك فركب الأمراء والصناجق وطلعوا إلى القلعة وكلموا الباشا فلم يقبل منهم فغضبوا وسألوه أن يسلمهم اليهودى فامتنع فأغلظوا عليه وصمموا على أخذه فأمرهم بوضعه فى العرقانة وأن لا يشوشوا عليه حتى ينظروا فى أمره ففعلوا به ذلك فقام الجند على الباشا وطلبوا أن يسلمهم اليهودى ليقتلوه فامتنع فمضوا إلى السجن وأخرجوه وقتلوه عند بابه وجروه من رجله وألقوه فى الرميلة فقام العامة وجمعوا حطباً وأحرقوه بمرأى من الناس كافة وذلك فى يوم الجمعة بعد الصلاة ثم سكنت الفتنة ، كأنها لم تكن ، ومن هذا الحين انحرف الجند على الوالى ونقموا عليه وصاروا ينكرون عليه كل فعل ولو لم يستحق الإنكار حتى قاموا عليه فى الثانى والعشرين من ربيع الأول من السنة وعزلوه فكانت ولايته ستين اثنتين .

(مطلب)

ولاية حسين باشا

وقام مصطفى بك بالأمر إلى أن حضر الوالى الجديد واسمه حسين باشا واليا على صيدا من أعمال الشام فلما حضر إلى القاهرة طلع إلى قلعة الجبل فى موكب حافل فى منتصف رجب سنة تسع ومائة وألف فلما استقرت به الولاية أخذ ينظر فى أمور البلاد ومصالح الخلق فكان يرى نفسه مغلوبا على أمره لا كلمة له بين الجند والأمراء والصناجق فعمل على تعزيز جانبه وإعلاء كلمته فلم يتمكن لقصر أيامه ، واتفق فى ولايته أن خرج المغاربة من أهل تونس وفاس المقيمين بالقاهرة فى رابع عشر شوال من السنة ليحملوا كسوة الكعبة التى تحمل فى كل عام للبيت الحرام وكانت عادتهم فى ذلك اليوم إنهم يمرون بالكسوة فى وسط القاهرة مغ غاية الاحتفاء والاحتفال ويضربون كل من رأوه يشرب الدخان فى أثناء مرورهم فأروا رجلا من أتباع مصطفى كتخدا القازدغلى يدخن فكسروا أنبوتيه وضربوه وشجوا رأسه وكان فى مقدمتهم أناس منهم متسلحون فزاد التشاجر واشتد الأمر فقام عليهم أهل السوق وأوقعوا الضرب فى بعضهم بعضا وكادت الفتنة تعم القاهرة ومصر وخاف الناس العاقبة وحضر أودة باشا البوابة فقبض على جماعة منهم وقيدهم

بالحديد وصعد بهم إلى حيث الباشا فأمر بهم فحبسوا حتى سافر الحاج من مصر.
ومات منهم جماعة فى السجن ثم أفرج عنهم بعد ذلك.

(مطلب)

ولاية قره محمد باشا

وورد عقب هذا الحادث بقليل الخبر بعزل حسين وولاية قره محمد باشا فحضر
مصر فى منتصف ربيع الآخر سنة إحدى عشرة ومائة وألف فكانت ولاية حسين بشا
سنة وسبعة أشهر وأياماً ولم يكن لقره محمد من حظ الولاية على البلاد إلا ما كان
لسلفه فإنه كان مغلوباً على أمره وكانت الكلمة للأمراء والصناجق ولم يبق له إلا
صغائر الأمور فوجه عنايته إليها وما هى إلا إزالة بعض السقائف والدكاكين لتوسعة
الطرق والأسواق وقطع الأرض وتمهيدها ورسم بترميم جامع الأربعين الذى بجوار
باب قره ميدان وأنشأ فى الميدان المذكور جامعاً بخطبة وتكية لفقراء الخلوتية من الروم
وأسكنهم بها وأنشأ تجاهها مطبخاً ودار ضيافة للفقراء وفى علوها مكتبة للأطفال
ورتب لهم ما يكفيهم وأنشأ فيما بينها وبين البستان المعروف ببستان الغورى حماماً
فسيحاً مفروشاً بالرخام الملون وجدد بستان الغورى وغرس فيه الأشجار ورسم قاعة
الغورى التى بالبستان وعمر بجوار المنزل سكن أمير اخور وبنى مسطبة عظيمة برسم
الباس القفاطين وتسليم المحمل لأمير الحاج وأرباب المناصب، قلت : وهى موجودة
إلى يومنا هذا، وعمر مسطبة يرمى عليها بالنشاب وأنشأ الحمام العظيم بقره ميدان
ونقل إليه من قلعة الجبل حوض رخام ضمن قطعة واحدة وعملوا به فسقية فى
وسط المسلح وعمر بالقرافة مقام سيدى عيسى بن عبدالقادر الجيلانى وجعل به فقراء
مجاورين ورتب لهم ما يكفيهم وأنشأ صهريجاً بداخل القلعة بجوار نوبة الجاويشية
ورتب فيها خمسة عشر نفراً يقرؤون القرآن كل يوم بعد الشمس.

أما فيض الله افتدى شيخ إسلام دار السلطنة فإنه لما اتسعت كلمته وبسط يده
على جميع الأمور وصار السلطان طوع يده أبغضه الناس وكثرت خصومه وناواه
جميع أعيان الدولة وأركانها وظهرت الفتنة وعظمت واستفحل أمرها فقامت الجنود
على السلطان فخلعوه وقبضوا على شيخ الإسلام وقطعوا عنقه بحد السيد وسجنوا
السلطان مصطفى ووكلوا به طائفة منهم تحرسه وذلك ستة خمس عشرة ومائة وألف

هجرية فكانت مملكته تسع سنين وقيل ثمان سنين ومازال مسجوناً حتى مات فى نحو سنة تسع عشرة وخلفه أخوه السلطان أحمد ابن السلطان محمد .
ومات فى أيام السلطان مصطفى متاوس بطرك المتأصلين بعد أن أقام أربع عشرة سنة وكان اسمه جرجس من رهبان دير البراموس ونقل فى أيامه دار البطركية من حارة زويلة إلى حارة ابروم بالقاهرة وسكن بها وكان تقياً عالماً فاقم بعده يوحنا وهو الثالث بعد المائة واسمه إبراهيم من رهبان دير انطونيوس وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله .

(الفصل السادس عشر)

(فى سلطنة السلطان أحمد ابن السلطان محمد)

ثم قام بالأمر بعد السلطان مصطفى أخوه السلطان أحمد ابن السلطان محمد ببيع بالملك بعد خلع أخيه سنة خمس عشرة ومائة وألف هجرية أى سنة اثنتين وسبعمائة وألف ميلادية فلما استقر به الملك اشتد على العسكر وضيق عليهم وكان شديد البطش عظيم البأس سفاكاً للدماء فهابه العسكر وخافته الرعية فأصلح بعض الأمور التى فسدت على عهد السلف وأعاد للدولة بعض القوة والنظام وظهرت فى أيامه وقعات الروس مع الأسوجيين وزحف بطرس الأكبر قيصر الروس بعسكر عظيم للغاية على قلعة ازاك فى بلاد القريم وحاصرها وضيق عليها حتى فتحها وطمحت آماله إلى ضم بلاد اسوج إلى مملكته فسار لقتالها وكان ملكها كرلوس الثانى عشر جليل القدر واسع المعرفة بأساليب السياسة وتدبير الممالك وكان يعرف عند أهل الإسلام باسم تيمور باش وقد أئذ الدولة العثمانية بالخطر الذى يلحق بها إذا تركت بطرس قيصر الروس وشأنه يغزو ويدوخ الممالك المجاورة له فلم تلتفت يومئذ لقوله فلما نال بطرس الغلبة وكاد يأخذ ملك أسوج أسيراً هرب ملك أسوج إلى دار السلطنة العثمانية فنال بطرس من بلاد أسوج وضم جانباً عظيماً منها إلى مملكته من ناحية بحر البلطيق وتجاوزت العساكر الروسية بعض الحدود العثمانية فرسم السلطان إلى بلطجى محمد باشا الصدر الأعظم بالمسير لقتال بطرس ورد غارات عسكره فسار فى جيش عظيم وعبر الطونة وقطع أياله بساراييا وكانت عساكر الروس قد عبرت قبل ذلك نهر بروت فتزلوا على ساحل الطونة فلم يلتفت إليهم وظل

سائراً بجيوشه حتى بلغ بحر فالجى وقصد عبور نهر بروت من هذا الممر فلما تحقق ذلك القيصر ظن الظنون البعيدة وسير فريقاً من عساكره لمنعهم من العبور فلم يقدروا وتمكنت العساكر العثمانية من العبور وقاتلوا الروس فهزموهم وساقوا خلفهم حتى ألحقوهم بمعسكرهم بعد الزوال ولم يطلبوا الراحة من التعب بل فاجئوا العدو وهجموا عليه هجمة رجل واحد فانهمز وتقهقر فعارضه نهر بروت من جهة وسد عليه أيضاً خان القريم الطريق من الجهة الثانية فنظر القيصر وإذا به قد وقع بين متطحن عزيزين فسير رسله إلى الوزير فى طلب الأمان وتقرير قاعدة للصلح فأجابه الوزير إلى ذلك وتقررت بين الفريقين القاعدة وتم الصلح على ما سيذكر وكتب به أيضاً عقد مؤقت وهو:

الباعث لتحرير هذا الكتاب الصحيح النصاب هو أنه بتوفيق الله الملك العلام انتهت حرب عساكرنا المنصورة مع قيصر الروس وعسكره فى طرف نهر بروت وبعد حصارهم والتضييق عليهم فبلفظه تعالى الكريم وفضله العميم طلب القيصر المرقوم إجراء المصالحة وعند ذلك عقدت وربطت قيود وشروط الصلح والصلاح على الوجه الآتى بيانه: وهو أن قلعة أزازق مع أراضيها وسائر ملحقاتها يجرى تسليمها كالأول للدولة العلية، والقلعة الجديدة الكائنة فى أعالي طغيان وقمانكة وصمصار المختصة بالقيصر تهدم بالكلية والمدافع والجبنانة الموجودة ضمن قمانكة يجرى تسليمها بتمامها للدولة العلية، وفيما يأتى من الزمن لا ينشأ فى المحل المذكور قلعة ولا تحصل مداخلة بعد الآن من طرف القيصر المرقوم مع اللهيون والتابعين لهم وهم راياش والبورتغال ولا إلى القزاق التابعين لحضرة صاحب السعادة دولتكرائى خان القريم بل يرفع القيصر يده عن جميع تلك المواضع بحيث تعود كما كانت قبل الآن وبعد اليوم لا يحق للقيصر أن يقيم سفيرا فى استانبول من طرفه. وأما التجار الروسون الذين يأتون برا للممالك المحروسة لأجل التجارة فإنهم مأذونون فى الإقامة بها. والأسرى من المسلمين الذين أسروا من قبل ومن بعد يلزم ويجب على القيصر أن يسلمهم للدولة العلية مهما كان عددهم. وملك أسوج حيث إنه التجأ ووقع تحت جناح عناية الدولة العلية فبعد الآن يتوجه إلى مملكته بالأمن والسلامة ولا يحصل له التعرض والممانعة من طرفهم قطعياً. وإذا وجد بينهم عدم توفيق ورضا اتحاد فعليهم أن يجريا المصالحة. وأنا أرجو من كمال أفضال مولانا وسلطاننا صاحب الشوكة والعناية والعظمة ومن فيض مكارمه الملوكية غض النظر من طرف الدولة

العلية عن الحركات الخارجية عن الأدب التي سبق وقوعها في جانب رعايا الدولة وسائر المنسوين إلى الممالك المحروسة وأن لا يصير عليهم فيما يأتي من الزمان تعد كما تقرر ذلك في الشروط والعهود. وبحسب الوكالة المطلقة حرر هذا الصك وأعطى لطرف القيصر إلى أن يعقد العهد والميثاق إن شاء الله تعالى في دار السعادة بالوجه المشروح وتعطى صورته له. وبعد أن يأخذ القيصر صك العهد فلا تكون حينئذ ممانعة ومداخلة في أمر ذهاب عساكره إلى بلاده في الطرقات المستقيمة لا من طرف العساكر المنصورة ولا من فرد من أفراد طوائف التتار وجماعتهم. وأما أمين أسرار القيصر قدوة أعيان الملة المسيحية قبارون قانجلير بترد شافروف والجنرال ميخائيل أولدبورس حفيد شربت. ختمت عواقبهما بالخير حيث إنهما كانا حضرا من طرف القيصر للمعسكر المنصور ليكونا رهنا فمن بعد تسليم المواد المذكورة وإعطاء صك العهد من طرف القيصر وإتمام خدمتهما يعطى لهما الأذن والرخصة من طرف الدولة العلية بذهابهما إلى بلادهما بلا تأخير وليان ذلك حرر هذا في اليوم السادس من جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف .

بيور لدى صحراء التوقيع خدش كجدي

قال بعض كتاب الأخبار : وكان الوزير المحكى عنه صاحب حيل ودهاء دقيق الفكر في أعماله وحركاته ولم ينل مسند الصدارة العظمى إلا بما أجراه من الدسائس الكثيرة والحيل الغريبة فلما علم السلطان أحمد بحقيقة حاله وأنه من الطغاة أعرض عنه ثم عزله من منصب الصدارة وبقي معزولا حتى قامت الحرب بين الروس وأسروج وكان من أمرها ما تقدم بيانه فاقتضت المصلحة إعادته إلى مقام الصدارة ثانية فأحسن فيها العمل وفاز بالظفر والغلبة على ذلك الرجل العظيم وهو بطرس الأكبر ولكن لم تطل أيامه حيث وشى به خصومه ورموه بالخيانة وقالوا إنه إنما عقد هذا الصلح بالرشاوى والبراطيل وقد كان في وسعه أن يقطع شافة جميع الجيوش الروسية بعد أن تحقق له أن بطرس الأكبر لم يسلم بهذه الشروط مع ما فيها من الفضيحة والعار عليه وعلى بلاده إلا بعد أن أكلت جيوشه جميع دواب الحمل حتى جذور الأشجار وبعد أن سدت عليهم جميع المسالك ومازالو يحسنون للسلطان الانتقام منه إلى أن أمر بعزله ونفيه قبل أن يصل إلى دار السلطنة بعد نصرته في تلك الحرب الهائلة. قال بعض الكتاب: وهو وإن كان بريئا من هذه التهمة فقد ارتكب في صدارته الأولى من المعاصي والذنوب ضد الكثير من خيار الناس ما لا يكاد يعد فظهر به الآن سر قولهم. إن الجزء من جنس العمل.

(مطلب)

ولاية رامي محمد باشا

وكان الوالى على ديار مصر عند تولى السلطان أحمد للسلطنة قره محمد باشا فأقره فى منصبه وأتاه فرمان الرضا فلبث يتصرف بعد ذلك أشهراً ثم خلعه. وولى مكانه رامي محمد باشا وكان قد تولى مسند الصدارة على عهد السلطان مصطفى وعزل منها وتولى على جزيرة قبرس ثم حضر منها واليا على مصر فصعد إلى قلعة الجبل يوم الاثنين سادس شعبان سنة ست عشرة ومائة وألف هجرية وجعل يتصرف فى الأمر فكان مشثوم الطالع قليل الحظ توقف النيل عن الزيادة فى سنته فضج الناس وعجوا وابتهلوا إلى الله بالدعاء وطلب الاستسقاء واجتمعوا على المقطم وغيره فاستجاب الله لهم فى حادى عشر توت وزاد النيل فكان من النواذر الغريبة وقد أرخه بعضهم بهذين البيتين:

النيل فى مصر وافى فى توت حادى وعاشر
والناس قد أرخوه لله جبر الخواطر

فروى بعض البلاد وهبط سريعاً فشرقت البلاد الآخر وحصل الغلاء وبلغ سعر الأردب القمح مائتين وأربعين نصف فضة والفول كذلك والعُدس مائتى نصف فضة والشعير مائة نصف فضة والأرز أربعمائة نصف فضة وبيع اللحم الضأن كل رطل بثلاثة أنصاف فضة والجاموسى والبقرى بنصفى فضة والسمن القطار بستمائة نصف فضة والزيت بثلاثمائة وخمسين والدجاجة بثمانية أنصاف. قال الراوى: فكثرت الشحاذون فى الأزقة وعزت الأقوات وعم الكرب واشتد الخطب على الفقراء وخشى الناس العاقبة بظهور الوباء فلم يقع شئ من ذلك.

(مطلب)

ولاية علي باشا

وجاء الخبر بعزل رامي محمد باشا فى رجب سنة ثمان عشرة ومائة وألف هجرية وشاع القول بولاية علي باشا فتزل محمد باشا من قلعة الجبل فى موكب عظيم وسكن فى بيت أحمد كتخدا العزب المطل على بركة الفيل بالقرب من حمام

السكران حتى قدم على باشا الوالى الجديد من طريق البحر وذهب الناس للملاقاته فأرسى بساحل بولاق يوم الاثنين تاسع شعبان من السنة وهو فى نحو ألف ومائة رجل خلاف الأتباع فلبث ببولاق إلى ثانى عشرى رمضان وركب فى موكبه وصعد إلى قلعة الجبل فأطلقوا المدافع لقدمه وزينت القاهرة ومصر ثلاثة أيام ولم يكذ يستقر به المنصب حتى قامت الفتنة على ساق بين وجاق العزب والمتفرقة . وتحير الخبر أن شخصا من وجاق العزب اسمه محمد افتدى من صغار الكتاب كان بعد عزله من منصبه تولى خليفة أى ثانى كاتب فى ديوان المقابلة وحصل له تهمة عزل بسببها من هذا الديوان أيضا فجعل يسعى ويجد حتى نال وظيفة سردار على طائفة العزب النازلين بالإسكندرية ثم كتحدا القبطان وافق بعد ذلك أن سافر فى إحدى المراكب فشاع الخبر بموته غرقا فحلوا اسمه وماله من المعلقة فى بابه ولكنه لم يلبث أن عاد إلى مصر وصعد إلى الديوان وضح اسمه الذى فى سجلات العزب وجراياته ومتعلقاته وبقي له بعض تعلقات لم يقدر على خلاصها ولم يساعده أهل بابه على ذلك وأهملوا أمره فأعظم هذا الأمر وأكبره وذهب من فوره إلى تلك المتفرقة وطلب الانضمام إليهم وسألهم أن يخرجوه من العزب فأجابوه إلى ذلك فجعل يركب معهم كل يوم للديوان ويمر على باب العزب . وبينما هو ذات يوم سائر إلى الديوان إذ وقف له جماعة من العزب وقبضوا عليه وأنزلوه وحبسوه فى بابهم فبلغ الخبر جماعة المتفرقة وهم فى الديوان فحضر أمين بيت المال إلى باب العزب وكان يومئذ نائبا عن باشا ویش لتمرصه فعاتبه جماعة المتفرقة على ما فعله جماعة العزب فأغلظ عليهم فى الكلام وخاطبهم بفحش القول فقبضوا عليه من أطواقه وأرادوا ضربه فحال بينهم وبين بعض المصلحين وخلصوه من أيديهم فنزل إلى باب العزب وأخبرهم بما فعله المتفرقة فاجتمعت طائفة العزب ووقفوا على بابهم فمر بهم اثنان من جماعة المتفرقة ذاهبين إلى منازلهما فهجم عليهما جماعة العزب وضربوهما ضربا مبرحا وأنزلوهما عن الخيل وشجوا رؤوسهما ونهبوا ما على الخيل من العدد وأخذوا ما عليهما من اللبوس فلما جاء الخبر للمتفرقة اجتمعوا مع بقية الوجاقات وجلسوا على باب الانكشارية ورفعوا أمرهم إلى الأغوات والصناجق وأهل الحل والعقد ووقفوا على هذا الحال ثلاثة أيام إلى أن وقع الاتفاق على إبعاد أربعة أشخاص عن الديار المصرية وهم سبب إشغال ناز هذه الفتنة فوافق الجميع

على هذا رأى وصمموا عليه ويعثوا بهم إلى الصعيد الأعلى وانحسمت هذه الفتنة وكفى الله الناس شرها .

وأعقب هذه الفتنة ورود مرسوم السلطان بعزل على باشا الوالى فعزل فى أوائل رجب من السنة ثم حبس فى قصر يوسف بك وبيعت جميع موجوداته لوفاء ما عليه لبعض تجار القسطنطينية ثم أفرج عنه . ووردت الأخبار بولاية حسين باشا فقدم إلى الاسكندرية وجاء منها إلى القاهرة فى ثالث عشرى شعبان سنة تسع عشرة ومائة وألف هجرية فكانت ولاية على باشا سنة واحدة وأياما وكانت قبل قدوم حسين باشا المذكور بأيام قد وقعت فتنة أخرى بباب الانكشارية لها وكادت تشتعل نارها ويعلو لهيها فتسارع الأغوات وأصحاب الحل إلى تسكينها خوفا من قدوم الوالى الجديد فىرى ما هى عليه البلاد من الخلل وعدم طاعة العسكر وعزلوا أحمد أوده باشا المشهور بأفرنج أحمد وحسين أوده باشا وأبعدوهما إلى الطينة بدمياط فسكنت الفتنة وخمدت نارها فلبثا بالطينة أياما ثم هربا وعادا إلى القاهرة واختفيا عند أغوات الشراكسة والتجأ أحدهما حسين إلى باب النفكشية فلما علم الانكشارية بقدومهما فارين اجتمعوا ببابهم وطلبوا رجوع فرنج أحمد إلى منفاه فلم تقبل طائفة الشراكسة وامتنعوا من تسليمه وقالوا لا يد من نقله من وجاقتكم وساعدكم على ذلك بقية الوجاقات فصمم الانكشارية على طلبهم ووقفوا ببابهم يومين وليلتين وكذلك فعل كل بك ببابه فعم الخوف الناس وانقطعوا عن الخروج من بيوتهم وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم وكاد ينقطع الوارد من المأكول والمشروب إلى القاهرة ومصر خوفا من عبث العساكر فاجتمع العلماء والمشايخ والتقوا بالصناجق والأعيان وخاطبواهم فى أمر العسكر وفيما كان عليه الناس من الخوف وما يتهدد راحتهم من هذه الفتن المتراكمة وسألوهم فى حسم الفتنة منعاً من تفاقم الخطب وانتشار العامة والجرافيش فى الأسواق للعريضة والنهب ثم كلموا الباشا فى ذلك أيضا وأخوا فى الطلب فوق الاتفاق على أن يولوا فرنج أحمد المذكور رئاسة طبلخانة وأرسلوا له القفاطين مع كتخدا الباشا وأصحاب الدرك وأحضره إلى مجلس الأغا وقرءوا عليه مرسوم الصنجدية وأنه إن خالف ولم يطع عوقب بغير معاودة فأطاع وقبل وخرج بموكب عظيم إلى بيته ونزل له الصنجدى السلطانى والطبلخانة فانحسمت الفتنة وسكن الاضطراب واطمأنت قلوب الخلق .

وكان الوالى يرى أنه غير مسموع الكلمة مقهور على جميع أعماله وأقواله ولا قدرة له على دفع هذا الخلل الضارب على البلاد فكان كثير التوجع والشكوى قلقا مضطربا لا يستقر له قرار حتى مال إلى وِجاق الانكشارية واستمال كبارَه إليه واستخلصهم لنفسه ليقوى بهم على قمع الفتن ومنع الدسائس . فبينما هو يدبر هذا الأمر إذ وقعت الفتنة بين طوائف العسكر وكان من خبرها أن مملوكا لرجل من آحاد الناس وقف على دكان فصاب بباب زويلة يشتري منه لحما فوقع بينه وبين حمار عثمان أوده باشى نزاع أدى إلى المشائئة ثم إلى الملاكمة فوصل الخبر إلى عثمان أوده باشى المذكور فأرسل أعوانه وأتباعه فقبضوا على ذلك المملوك وأحضروه إليه فأمر بحبسه فى سجن الشرطة فلما بلغ سيده خبر حبسه حضر هو وأولاده وأتباعه إلى باب صاحب الشرطة لخلاص المملوك فتناول بعضهم على بعض بفحش القول ووقعت بينه وبين صاحب الشرطة مشاجرة فقبض عثمان أوده باشى على سيد ذلك المملوك ووضعهُ فى السجن وأعلم باش أوده باشى وكتخدا مستحفظان بما فعله فلم يرضيا بما وقع وأمرأ بإطلاق المملوك وسيده على الفور فرجع وأخرجهما من السجن فاجتمع فى ثانى يوم الحادثة طائفة الجاويشية مع طائفة المتفرقة والأسباهية والأمراء والصناجق والأغوات فى الديوان وطلبوا إبعاد عثمان أوده باشى المذكور جزاء ما فعله من حبس ذلك المملوك وسيده فلم يوافق الانكشارية على ذلك ومانعوا فى إبعاده فوقع بينهم جدال طويل ثم صعدوا جميعا إلى الديوان وطلبوا عثمان المذكور للدعوى فحضر وأقيمت الدعوى بحضرة الباشا والقاضى فأمر القاضى بخبس عثمان كما حبس محمد جاويش سيد ذلك المملوك فلم يرض الأخصام بذلك وقالوا لا بد من عزله وإبعاده فلم يوافقهم الانكشارية فطلب العسكر من الباشا أن يرسم بنفيه فأبى عليهم ذلك فزلوا مغضيين واجتمعوا بمترل كتخدا الجاويشية. وأنزلوا مطبخهم من نوبة خاناه إلى مترل كتخدا صالح آغا وأقاموا به ثلاثة أيام وامتنعوا من الذهاب إلى الديوان ثم اجتمع أهل البلكات وتحالفوا على أن يكونوا على قلب رجل واحد وصمموا على نفى عثمان أوده باشى المذكور ثم اجتمعوا على الصناجق واتفقوا على أن يكونوا معهم على طائفة الانكشارية وأرسل الأسباهية الرسائل إلى أصحابهم المحافظين على الكشاف بالولايات يلزمونهم بالحضور فلما شاع الخبر بذلك رسم الباشا بعزل عثمان أوده باشى المذكور إخماد النار الفتنة فلم يغن عزله شيئا ووردت الأخبار إلى وِجاق الانكشارية بأن العسكر على أهبة القتال وأنهم قد

تجهزوا لذلك فجمعوا هم كذلك يطلبون أصحابهم من الجهات فاجتمعوا على الأثر ومروا بالأسواق فانزعج أهلها وأغلقوا الحوانيت كافة واستمر أهل الوجاقات الستة يجتمعون ويتشاورون في الأمر وكذلك الانكشارية كانوا يجتمعون بالبasha ويتشاورون معه فيما يفعلونه مع العسكر وفي كيفية قتالهم وبالغ كل من الفريقين في التأهب والاستعداد. وقدم في هذه الأثناء محمد بك حاكم الأقاليم القبلية في جند كثير وأنباع وعدة وطلع إلى ديوان مصر على عادة حكام الصعيد المخلوعين ثم لبس الخلع السلطانية ونزل إلى بيته بالصليبة فظن الناس أنه إنما أتى بعسكره لقتال العسكر أو وجاق الانكشارية فخافوا وانكماشوا حتى كادت الأسواق كلها تستعطل وطال الحال بين أخذ ورد أياما فكانت الانكشارية لا تنفك عن مراقبة الحوادث والأخذ بصغائر الأمور. وقد شاع أن بعض الأمراء يسعى للحصول على منصب إمارة الحاج بدلا من قيطاس بك المعتاد تقريره في كل عام لهذا المنصب فلما علم الانكشارية بذلك اجتمعوا بسلاحهم ووقفوا خارج الباب الكبير على طريق الديوان كي لا يمكنوا أحداً من تولي إمارة الحاج خلاف قيطاس بك وعلم الصناجق والأمراء بذلك فخافوا شر العقابة واجتمعوا رأيهم مع أهل الوجاقات الستة على نفى ستة أشخاص من الانكشارية وهم الذين بيدهم الحل والعقد وإخراجهم من مصر إلى بلد التزامهم تسكيناً للفتنة وعلم الانكشارية بما دبره هؤلاء فاجتمعوا في بابهم أيضاً في عدددهم وعدادهم فلم يهملهم الأمراء والصناجق أمر اجتماعهم وقالوا لابد من نفيتهم أو محاربتهم واجتمعوا هم كذلك في أبوابهم واستعد الانكشارية في بابهم وشحنوه بالأسلحة والذخيرة والمدافع وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم وخلت الطرق من المارة ونقل جماعة الجاوشية مطبخهم من قلعة الجبل من النوبة إلى دار كتحدا الجاوشية وأقام الانكشارية منهم طوائف يحافظون على أبواب القلعة وباب الميدان والصحراء الذي بالمطبخ الموصل إلى القرافة خوفاً من أن العسكر يستميلون البasha وينزلون إلى الميدان واجتمع الصناجق بعد ذلك وكبار العسكر واستقر الرأي بينهم على أن يتدبوا محمد بك الذي كان بالإقليم القبلي لحصار القلعة من جهة القرافة على المقطم بالمدافع والعسكر فقبل ذلك وأسرع في عمل الحصار فأتمه على أحسن ما يرام وتخاف العسكر من وقوع النهب والفتنة بالمدينة إذا انتشب القتال بينهم وبين الانكشارية فالزموا مصطفى آغا الشراكسة بالتطواف في الأسواق وفي شوارع البلد وحاراتها وأقاموا أحمد بك المعروف بإفرنج أحمد أغات التفكشية لحصار طائفة

الانكشارية من بابهم الموصل إلى المحجر وباب الوزير ومنعوا من يصل إليهم بالمدد.

أما الانكشارية الذين كانوا بالقاهرة فإنهم اجتمعوا بباب الشرطة واتفقوا على أن يدهموا العسكر المحافظين بالباب ويدخلوا إلى باب الانكشارية فلما بلغ الصناجق والعسكر ذلك انتدبوا إبراهيم الوالى ومصطفى أغات الجبجية فى طائفة من الأسباهية فتزلوا إلى باب زويلة وعلم الانكشارية الذين اجتمعوا فى باب الشرطة بنزولهم ففرقوا واختفوا فجلس مصطفى أغا محل جلوس أوده باش وإبراهيم بك فى محل جلوس العسس وانتشرت طوائفهم فى نواحي باب زويلة وباب الخرق واستمروا على هذا الحال ليلة الأحد وأصبحوا وقد خرج نقيب الأشراف والعلماء وقاضى القضاة وأرباب الأشائر واجتمعوا بالشيخونية فى الصليبة وتكلموا فى الأمر طويلاً ثم كتبوا فتوى بأنه إن لم يذعن الانكشارية إلى نفى المظلوين وإلا جاز محاربتهم بغير معاودة. وأرسلوا الفتوى صجبة جوخدار قاضى القضاة إلى باب الانكشارية فلما قرئت عليهم فترت عزائمهم وانفسلوا وأذعنوا إلى إبعاد المظلوين بشرط ضمانهم من القتل فضمنهم الأمراء والصناجق وكتبوا بذلك حجة وسلموها لهم ثم أنزلوهم إلى أمير اللواء إيواز بك ورضوان أغا فساروا بهم فى الحال إلى بولاق ومن هناك سيروهم إلى الريف فلبثوا حيناً ثم عادوا ففرقوهم على الوجاقات بعد رضا الأمراء والصناجق.

ولم تكن الفتنة قد سكنت تماماً حتى جاء الخبر بعزل حسين باشا الوالى وتولية إبراهيم باشا القبودان وأن يكون حسين باشا المعزول نائباً عن إبراهيم باشا حتى يحضر فحضر فى منتصف الحجة سنة اثنتين وعشرين ومائة وألف هجرية وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد ونزل حسين باشا من القلعة إلى بيت الأمير يوسف أغا دار السعادة بسوقة عصفور وأمامه الصناجق والأغاوات وكثير من أرباب المناصب فكانت مدة تصرفه ثلاث سنين وأربعة أشهر وثلاثة عشر يوماً. ولم يستقر المنصب بإبراهيم باشا الوالى المذكور حتى أنه الأمر بخلع وتولية آخر اسمه خليل باشا وذلك فى الخامس عشر من رجب سنة اثنتين وعشرين فترى إبراهيم باشا من القلعة إلى بيت عباس أغا ببركة الفيل وأقام به أياماً فكانت مدة تصرفه ثمانية أشهر لم يعمل فيها عملاً يذكر. ووصل خليل باشا وكان بصيداً والياً فأقام بالير يوم الثلاثاء خامس شعبان سنة (١١٢٢) اثنين وعشرين ومائة وألف وصعد إلى القلعة فى

الموكب المعتاد فلم يمض على جلوسه إلا شهران حتى قامت الفتنة الثالثة بين أصحاب الوجاقات واستفحل أمرها وعم ضررها . وتحرير الخبر أنه فى صفر من السنة أى سنة ثلاث وعشرين اجتمع من يدعى حسن جاویش القازدغلى وآخر اسمه الأمير سليمان جريجى وآخر اسمه إبراهيم جوريجى وعقدوا النية على ترك خدمة باب مستحفظان والانتقال إلى خدمة أخرى فذهب إليهم اختيارية بابهم واستعطفوهم وسألوهم الرجوع عن هذا العزم فلم يقبلوا وصمموا على الخروج ثم طلب آخر اسمه موسى جوريجى الخروج كذلك فلم يرض رؤساؤه بذلك فذهب موسى إلى إبراهيم بك وإيواز بك وقيطاس بك فسألهم الوساطة فى أمره فلم يقبل رضوان أغا رئيسه إجابة طلبهم ومانع فى ذلك وشد فى المنع فلما رأوا منه الشدة وعدم الرضوخ لطلبهم من إخلاء سبيل موسى المذكور اتفقوا على إغراء الوالى على عزل رضوان أغا وتولية على أغات الانكشارية سابقاً بدله وأن يعزل أيضاً سليمان كتحدا الجاوشية ويولى بدله إسماعيل أغا تابع إبراهيم بك فكلموا الباشا فى ذلك والحوا عليه فى عزلهم فامتنع وقد كان اختيارية وجاق الجميلة توافقوا مع الأمراء والصناجق على عزل رضوان أغا المذكور واجتمعوا ببيت باشجاویش واجتمع أهل كل وجاق ببابهم واستمروا على ذلك أياماً والوالى لا يجيبهم إلى ما يطلبون خوفاً من قيام العسكر عليه . أما الانكشارية الذين انتقلوا إلى العزب فإنهم اجتمعوا بباب العزب وقطعوا الطريق الموصلة إلى القلعة ومنعوا من يريد الصعود إلى باب الانكشارية من العسكر والأتباع فلم يبق فى الطريق الموصلة إلى القلعة إلا باب المطبخ ثم قصدوا سد السواقى لمنع الماء عن القلعة فمنعهم العسكر من الوصول إليها فكسروا آلات السواقى التى بعرب اليسار وخربوها وسار نفر من الانكشارية من طريق الحجر يريدون الصعود إلى قلعة الجبل فقبضوا عليهم وضربوهم وشجوا بعضهم فمضى أحدهم من طريق الجبل ودخل من باب المطبخ واجتمع بافرنج أحمد وبقية الانكشارية وأخبره بحالهم وما جرى لهم فأخذه جماعة منهم ورفعوا أمره إلى الوالى وقاضى القضاة وبالغوا فى الشكوى وعظموا البلوى فقال القاضى قد جاز قتال هؤلاء القوم حيث منعونا الماء وخرجوا عن طاعتنا وأخافوا الناس وسلبوهم فحقت محاربتهم . فلما فاض الخبر بذلك تقدم أحمد أوده باشا إلى الوالى فى محاربة أصحاب باب العزب فأذن له بذلك وتعوق القاضى عن التزول ولبث مع الوالى وخرج أحمد أوده باشا وشرع فى القتال وراسل الرمى بالمدافع على أصحاب باب العزب من بعد الزوال إلى

ما بعد العشاء واشتد عليهم شدة بالغة فقتل من جماعة العزب كثيرين وعم الخوف
 أهالي مصر والقاهرة وياتوا ليلتهم تلك وهم في خوف ما عليه من مزيد وأصبحوا
 وقد اجتمع الأمير إيواز بك أمير الحاج والأمير إبراهيم بك أبو شنب وقانصوه بك
 ومحمود بك ومحمد بك تابع قيطاس بك الدفتردار وتحادثوا فيما أصاب أصحاب
 باب العزب واتفقوا على أن يلبسوا آلة سلاحهم ويذهبوا إلى الرميلة مددا للعزب
 على الانكشارية وهموا بذلك فأخبروا أن أيوب بك قد وضع المدافع على طريق
 المارين على منزله وعلى قلعة الكيش فامتنعوا من الركوب وجلسوا في بيوتهم
 بسلاحهم خوفاً من طارق واستمر إفرنج أحمد يقذف نيران مدافعه على أصحاب
 باب العزب ثلاثة أيام بلياليها واجتمع على رضوان أغا طائفة من نفره وتذكروا فيمن
 كان السبب في إثارة هذه الفتنة فعرفوهم وهم أربعة من الاختيارية فخلعوهم وكتبوا
 لهم مرسوماً بأن يخرجوا من بيوتهم ثم ذهبوا إلى بيت قيطاس بك وأرسلوا من كل
 بك اثنين من الاختيارية إلى منزل أيوب بك يطلبون رضوان أغا فأركبوه في موكب
 حافل ثم عادوا إلى منزل أيوب بك وتناجوا في أمر الصلح وكتبوا إلى أحمد أوده
 باشي الذي هو إفرنج أحمد بالكف عن القتال فأبى فكتبوا عرضاً إلى الباشا من
 جميع الصناجق وأغوات الوجاقات الخمسة بطلب الكف عن القتال فأرسل الباشا
 إلى الانكشارية بالكف فامثلوا وتركوا القتال وتكلم الصناجق والأغوات المذكورون
 مع بعض الاختيارية من وجاق الانكشارية في أمر الصلح فتقررت القاعدة بينهم على
 إرسال حسن كتحدا العزب وأحمد بن بقر رسلاً إلى المعسكر في طلب ذلك
 فاجتمعوا بالعسكر والصناجق في بيت إسماعيل بك وحضر معهم أيضاً جميع أهل
 الحل والعقد وتشاوروا في إخماد نار الفتنة بالتي هي أحسن وأرسلوا إلى باب
 الانكشارية في ذلك فقالوا لا نأبى الصلح بشرط أن هؤلاء الثمانية الذين كانوا سبباً
 في إثارة هذه الفتنة لا يكونون في باب العزب بل يذهبون إلى وجاقهم وأن يسلم
 الأمير حسن الأحميمي إلى الباشا يتصرف في أمره كيف يشاء فأبى أهل باب العزب
 ذلك ولم يرضوه فأرسل الأمراء إلى إفرنج أحمد يشفعون عنده بأن الأشخاص
 المذكورين يرجعون إلى وجاقاتهم فقط ويعفون من النفي ومن القبض على الأمير
 حسن الأحميمي فلم يوافق إفرنج أحمد على ذلك وقال إن لم يرضوا بشرطي وإلا
 حاربهم ليلاً ونهاراً حتى أمحو أثرهم فنفروا على غير صلح وبقي الحال على ذلك
 أياماً ثم اجتمع جميع الأمراء بمنزل إبراهيم بك بقناطر السباع وتذكروا في أمر

الصلح على كل حال وكتبوا حجة على أن من صدر منه بعد اليوم ما يخالف رضا الجماعة يكون خصم الجماعة كلهم وكتبوا أيوب بك في أن يرسل إلى إفرنج أحمد بصورة الحال وأن يكف عن القتال إلى تمام الأمر المشروع فيه فبطل القتال نحو الخمسة عشر يوماً وأخذ إفرنج أحمد في خلال هذه الأيام في تحصين جوانب القلعة وعمل المتاريس ونصب المدافع وتعبية الذخيرة وقد ملأ الصهاريج بالماء وصار على تمام الأهبة والاستعداد واتفق أن حضر في هذه الأثناء محمد بك حاكم الأقاليم القبلية ونزل بفضاء البساتين ولبث به ثلاثة أيام ثم دخل القاهرة ومعه السواد الأعظم من العربان والمغاربة والهواره فلم يكن بأسرع من أن جعل يقاتل كذلك بمن معه من جامع السلطان حسن ومن بيت يوسف أغاة الجراكسة فلم يفلح وقتل من أصحابه جماعة كثيرة وانتصر عليه محمد بك المعروف بالصغير مع من انضم إليه من أتباع إبراهيم بك وإيواز بك ومماليكه وكانوا قد تترسوا في سوق السلاح ووضعوا المتاريس في شبابيك الجامع الذي هناك فانتقل محمد بك المذكور وسار إلى طولون وتترس بها وهجم على طائفة العزب الذين كانوا بسبيل المؤمن فوقعت بينهم موقعة عظيمة مات فيها خلق من الفريقين ولم يطق أهل العزب المقاومة فتركوا السبيل وذهبوا إلى باب العزب فعند ذلك انكف محمد بك عن القتال وترك جماعة من أصحابه بالسبيل رباطا وسار بمن بقى إلى غير ذلك المكان. ولما اشتد الحال وضافت أمور أهل البلد وكبر خوفهم سار جماعة من كبارهم إلى الشيخ الخليفى أحد كبار المشايخ وشكوا إليه ما يلاقيه الناس فسار الشيخ الخليفى إلى إفرنج أحمد وتكلم معه ومع من كان معه من الاختيارية في أمر الصلح والكف عن القتال وشدد في ذلك فرد عليه إفرنج أحمد ببذى الكلام ويفتحش القول وأرسل في الحال إلى أصحاب المدافع أن يطلقوا مدافعهم على أصحاب باب العزب وأن يوالوا رمى القنابل فجعلوا يطلقونها تباعاً فانزعج الناس كافة وكبر خوفهم وقام سكان باب العزب وأخذوا ما خف من أمتعتهم وتركوا بيوتهم ونزلوا بالمدينة وتفرقوا في الحارات بالقاهرة ومصر وأغلقت جميع الوكائل والخانات والأسواق وخرج أكثر السكان القرييين من قلعة الجبل كالرميلة والخطابة والمحجر هائمين على وجوههم وقد هدمت المدافع أكثر بيوتهم وأحرقتهم نارها وطاف الانكشارية يحرقون ما بقى من تلك الدور ولم يصب باب العزب شيء من ذلك إلا القليل من أماكنه ثم إن إفرنج أحمد وأيوب بك أقاما بعض أصحابهما بالمدرسة بقوصون وجامع مزداره بسويقة العزى وجامع قجماس بالدرب

الأحمر ليعطلوا الطريق على العزب واختار إفرنج أحمد جماعة من الانكشارية وأعطى لكل واحد ديناراً وأرسلهم بعد الغروب إلى تلك الأماكن مدداً لمن بها وجعل هو يقاتل من كان مع الجانبية . واتفق أن مرّ في صباح ذلك اليوم رجل من أهل العزب ممن كانوا مرابطين في جامع مزدارة من ناحية السلطان حسن يريد منزله فقبض عليه طائفة من الانكشارية وسلبوه ثيابه وتركوه عرياناً وبعثوا به إلى إفرنج أحمد فلما بلغ أهل العزب ما حل برجلهم أرسلوا طائفة منهم إلى المترسين بجامع مزدارة فدخلوا من بيت الشريف يحيى بن بركات ونقبوا منزل عمر كتخدا مستحفظان إذ ذاك وما يجاوره من الدور إلى أنه وصلوا منزل مراد كتخدا فلما رأهم العسكر الذين كانوا بالجامع المذكور فروا هارين وتركوا الجامع وما فيه من أسلحة وذخيرة . أما عمر أغاة الشراكسة ومن كانوا معه بجامع قجماس فإنهم بعد أن ترسوا وأحكموا متارسهم بشبايك الجامع فرقمهم عمر المذكور جهة باب زويلة وجهة التبانة فوقع الخوف في قلوب سكان تلك الجهة ونزحوا منها إلى حواري القاهرة حتى ضاقت بهم فأرسل أهل العزب صالح جوريجي الرزاز بجماعة من عسكر العزب وآخرين ممن انضم إليهم من الانكشارية وغيرهم فقاتلوا من كان بجامع قجماس واستولوا على الجامع والمتارس وأخذوا كذلك جامع المرداني وقهروا من كانوا فيه وأقام به طائفة منهم وأخرى بجامع أسلم وانتشرت طوائفهم بتلك الأخطاط والأماكن فسكنت خواطر أهلها وأطمأنت قلوبهم قليلاً .

وهجم طائفة من تلك المتفرقة والأصبهانية على بيت الأمير قرا إسماعيل كتخدا مستحفظان فدخلوا من بيت مصطفى بك ابن إيواز ونقبوا الحائط بينه وبين بيت قرا إسماعيل المذكور فلما جاء الخبر إلى أهل العزب أرسلوا طائفة منهم ومعهم بيرق ومقدمهم أحمد جوريجي فلم يتمكن أحمد من الدخول من جهة الباب فخرق صدر دكان هناك وتوصل منه إلى بيت أحمد أفندي كاتب الشراكسة ثم نقبوا منه محلاً توصلوا منه إلى حيث المتفرقة والأصبهانية فداهموهم وهم مشغولون بنهب الأثاث والأمتعة وهجموا عليهم هجمة واحدة فألقوا ما بأيديهم من السلب ورجعوا القهقري إلى المكان الذي دخلوا منه فتبعوهم واقتتل الفريقان قتالاً عنيفاً إلى أن دارت الدائرة على طائفة المتفرقة والأصبهانية وتمزقوا كل ممزق ونهبت طائفة العزب بيت مصطفى بك المذكور حيث مكن المتفرقة والأصبهانية من الدخول إلى بيته وانتقل أحمد بمن معه من العسكر إلى قوصون ودخل جامع الماس وتحصن به وكان محمد بك حاكم

الأقاليم القبلية فى هذا الحين يغدو ويروح ما بين جامع الماس والصليبة فكمن له أحمد بطائفة من أصحابه بمنزل البيرقدار فى محل فيه يشرف على الطريق فلما مر بهم فى وسط قومه أطلقوا عليه البنادق فأصابوا أربعة من أصحابه فظن أن النيران أتت من بيت محمد كتخدا البيرقدار فوقف على بابه وأضرم فيه النار فاحترق أكثره ونهبوا ما فيه من أثاث وأمتعة ولحقت النار بالبيوت الملاصقة والمواجهة له فعلمت بها وعلا لهيبها وطار شررها إلى جميع بيوت تلك الحطة فأحرقت أكثرها من الرباع والدكاكين التى هناك من ناحية جامع الماس إلى تربة المظفر يمينا وشمالا وأفسدت ما بها من أثاث ومتاع وما لم يحترق نهبه النهابة والخرافيش الذين كانوا يتبعون الحريق ويزيدونه ضرما فكان المنظر مخيفاً جداً وخرجت النساء حاسرات مكشفات الوجوه هائلمات فى الأزقة والحارات يطلبن الملجأ وعم النهب والسلب فى هذا اليوم إلى حد لم يسبق له مثال وتعطلت الطرق من المارة والهاربين من نيران الحريق وعلى الخصوص طريق بولاق القاهرة ومصر القديمة والقرافة فقد كانت ملأى بالأخلاط من طوائف الدجوية والهوارة وغيرهم الذين جاءوا مع محمد بك حاكم الأقاليم القبلية كما تقدم القول وقد أحاطوا بأطراف البلد وصاروا يسلبون المارة واستاقوا جميع جمال السقائين وأخذوها فكان الخطب شديداً والكرب عميماً. وانقسم العسكر فى هذه الآونة إلى فريقين فريق مؤلف من إيواز بك وقيطاس بك وإبراهيم بك أمير الحاج سابقاً ومحمد بك وقانصوه بك وعثمان بك ابن سليمان بك ومحمد بك ومعهم بلوكات الأصهبانية الثلاثة والجاوشية والعزب والثانى من أيوب بك ومحمد بك الكبير وأغوات الأصهبانية ومحمد بك أغاة متفرقة باشى وأهل بلكة وسليمان أغا كتخدا الجاوشية وبلك الانكشارية المقيمين بقلعة الجبل مع إفرنج أحمد والوالى وقاضى القضاة ونقيب الأشراف وأغلقوا أبواب القلعة جميعها ما خلا باب الجبل فامتنع الناس من النزول من القلعة أو الصعود إليها إلا من الباب المذكور واستمر إفرنج أحمد ومن معه يطلقون المدافع على باب العزب ليلاً ونهاراً وبالباب المذكور خلق كثيرون متشرون حوله وحول ما قاربه من الحارات ورتبوا لهم جوامك تصرف إليهم فى كل يوم . ولما طال الأمر على هذا الحال واشتد البلاء على الرعية اجتمع الأمراء بجامع يشبك بدرج الجماميز وأجمعوا على خلع الباشا وتعيين نائب من الأمراء حتى يزد الأمر من السلطان بما يراه واتحدت كلمتهم على إقامة قانصوه بك ثم ولوا أغوات البلوكات وأرباب الرتب والوظائف وأحكموا الترتيب فبلغ الخبر

أغوات الانكشارية فأعلموا خليل باشا الوالى به فكبر عليه وأعظمه وكتب إلى أغوات جميع البلكات الثلاثة يحضهم على قتال الصناجق ومن معهم لخروجهم على نائب السلطان ثم جمع جماعة للقتال ورتب لهم جوامك ومرتبات واتفق محمد بك حاكم الصعيد مع إفرنج أحمد على أن أحدهما محمد بك يهجم بأصحابه على طائفة العزب من طريق قراميدان ويكسر باب العزب الموصل إلى الميدان فوصل خبر ذلك أيضاً إلى طائفة العزب فاستعدوا وكنموا على مقربة من بابهم فلما كان بعد العشاء الأخيرة هجم محمد بك وأصحابه على الباب وكان جماعة العزب قد أحضروا شيئاً كثيراً من حطب القرطم وطلوه بالزيت والقار والكبريت فلما تكامل عسكر محمد بك أوقد جماعة العزب النار فى ذلك الحطب فأضاء لهم قراميدان وصار كالنهار فأطلقوا على أصحاب محمد بك البنادق وأحكموا الرمى وتابعوه ففر جماعة محمد بك وتقهقروا وقد قتل منهم خلق كثير وأرسل خليل باشا إلى إبراهيم بك وإيواز بك وقيطاس بك يطلبهم إلى الديوان ليتفاوضوا فى الأمر فاعتذروا بما هم عليه من ترتيب أمور الدفاع وعدم فتح الطريق فلما أيس منهم جمع إليه أيوب بك ومن انضم إليه من العسكر واستقرت القاعدة بينهم على استمرار القتال حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً وبرزوا جميعاً إلى ظاهر القاهرة وأخذوا فى التهاوب للقتال . فلما كان يوم الأحد ثالث ربيع الأول أرسلوا أيوب بك ومحمد بك إلى العربان ليأتوا بجميع جمال السقائين وحميرهم ويمنعوا الماء عن البلد ففعلوا وأخذوا جميع ما وجدوه من الجمال والحمير فعز الماء وبلغ ثمن القرية خمسة أنصاف فضة فضج الناس وعجوا وابتهلوا إلى الله تعالى وكبر الأمر على أصحاب العزب فسار طائفة منهم إلى القصر العيني ليستخلصوا تلك الدواب وجلسوا يراقبون من يمر بهم من المعتصين فلم يكن بأسرع من أن دهمهم محمد بك بجماعة من طائفة الهوارة فدافعوا ساعة ثم هربوا وقد قتل منهم جماعة كثيرة وأرسلت رؤوسهم إلى الباشا قيل فسرده ذلك جداً ورجع المنهزمون إلى بيت قانصوه بك وإيواز بك وأخبروا بما حل بهم فكبر الأمر على قانصوه بك وإيواز بك وصمما على البراز فركبا فى يوم الاثنين رابع عشر ربيع الثانى وخرج الفريقان إلى جهة قصر العيني والروضة واقتلا قتالاً عنيفاً قتل فيه من العسكر خاصة زهاء الأربعمائة من الفريقين خلاف العربان والهوارة وغيرهم من الأخلاط وركب إيواز بك على محمد بك حاكم الأقاليم القبلى فانهزم محمد بك إلى جهة المجرى فساق خلفه وكان محمد المذكور قد اجلس

كميناً فوق المجرى فلما مر بهم إيواز بك أطلقوا عليه الرصاص وعلى من معه فأصابوه فى صدره فسقط عن جواده ميتاً وتفرق من كان معه فقام عليه من بالكمين واحتزوا رأسه وجاء الخبر بقتله إلى أصحابه ففترت عزائمهم وضعفت قلوبهم وذهبوا فى طلبه فوجدوه جثة بغير رأس فحملوه وذهبوا به وتفرقوا وتمزق جمعهم . أما جماعة الانكشارية فإنهم طلعوا بالرأس إلى مقر الباشا وأعلموه بما جرى ففرح وظن تمام الامر وسكون الفتنة بموت إيواز بك وأمر بالرأس فسلخ ثم طلبه أصحاب إيواز من أيوب بك فدفعه لهم فدفنوه مع الجثة . واشتد حزن أصحاب إيواز بك على فقدته وكبر كيدهم مما حل به فاجتمعوا ببقية الأمراء ولوا ابنه بدله وتجهزوا للقتال فتجهز الفريق الثانى أيضاً وخرجوا فى يوم السبت تاسع عشر ربيع الثانى والتقى الجمعان فوقع بينهما أمور يطول شرحها فلما رأى جماعة العزب اشتداد الأمر وعدم التمكن من الوصول إلى قلعة الجبل وامتناع من بها وتوالى الرمى عليهم بالمدافع ليلاً ونهاراً اتحدت كلمتهم على أن يولوا كتحداً جديداً لطائفة الانكشارية ويجلسوه بباب الوالى بطائفة من العسكر وينادوا فى الشوارع أن كل من له علوفة فى وجاق مستحفظان يأتى تحت البيرق بالبوابة ومن لم يأت بعد ثلاثة أيام نهب بيته من غير معاودة ففعلوا ذلك وركب الكتحدا المذكور والبسه قانصوه بك النائب قفطانا وسلمه البيرق فسار العسكر أمامه بالبيرق والمنادى ينادى بما ذكر إلى أن وصل إلى بيت الوالى . وعادوا إلى القتال فبرزوا إلى خارج القاهرة من باب قناطر السباع واجتمعوا بقرب قصر العينى بالمدافع وآلات الحرب واقتتلوا من ضحوة النهار إلى العصر فقتل من الفريقين خلق ثم افرقوا وعاد بعضهم إلى البلد وتخلف طائفة من العزب فأتى إليهم محمد بك حاكم الأقاليم القبلية وأحاط بهم من كل جانب فلما بلغ الخبر قانصوه بك أرسل إليهم مدداً فقاتلوا محمد بك وهزموه شر هزيمة وتبعوه إلى قنطرة السد وكان أيوب بك فى هذه الأثناء مترساً بداخل التكية المجاورة لقصر العينى فلما شاهد احتدام الوطيس فر ونجا بنفسه فأحرق طائفة العزب القصر ونهبوا ما فيه واستمر الحال على هذا المنوال أياماً متتابعة .

وأرسل قانصوه بك إلى من بالقلعة من الوجاقات يتهددهم بحرق بيوتهم ونهب ما فيها إن لم يتركوا ما هم فيه من القتال والعمل بإشارة إفرنج أحمد فاختلفت عند ذلك كلمتهم وخارت عزائمهم وأرسل قانصوه بك بعض الأمراء والعسكر إلى نهب بيت أيوب بك وغيره من بيوت الأمراء فاتصلوا بها من ربح يجاورها وأطلقوا على

من بها النيران فهرب أيوب بك وأتباعه فدخلوا ونهبوا ما فى البيت وعم النهب فى ذلك اليوم جميع دور الأمراء وأحرقوا منها ما قدروا عليه ونهبوا ما جاورها من الدور والربوع والدكاكين وغيرها وتقوت بذلك عزيمتهم فأرسلوا طائفة منهم إلى الجيوشى ومعهم بعض المدافع فجعلوا يطلقونها تباعاً على بيت الباشا وعلى قلعة المستحفظان وأحاطوا بالقلعة من أسفل ورموا بالبنادق فرفع الباشا عند ذلك على بيته يبرقاً أبيض يطلب الأمان وفر من كان داخل القلعة من العسكر فهجمت العساكر الخارجة على الباب واقتحموه عنوة ودخلوا الديوان فانزعج الباشا وأرسل القاضى ونقيب الأشراف يطلبان له الأمان فتلقيهما بالتكريم فقالا إن الباشا يقرؤكم السلام ويقول لكم إنا كنا اغتررنا بهؤلاء الشياطين وقد فروا والمراد أن تعلمونا مطلوبكم فلا نخالفكم فقالوا اعلمنا بأن الصناجق والأمراء والأغوات وسائر العسكر قد اتفقوا على خلعه وأن قانصوه بك يكون نائباً وأما الباشا فإنه ينزل ويسكن فى المدينة إلى أن تعرض الأمراء على الدولة ويأتينا الجواب فأرسل القاضى نائبه إلى الباشا يعرفه بذلك فأجابه بالطاعة واستأمنهم على نفسه وماله وأتباعه وركب من ساعته فى خواصه يقدمه قانصوه بك وأغات مستحفظان على يمينه وأغات المتفرقة على شماله واختيارية الوجاقات من خلفه وأمامه ونزل من باب الميدان إلى الرميطة على الصليبة وقد اصطف العامة على جانبي الطريق وهم يسبونه ويلعنونه ويخاطبونه بفحش القول إلى أن وصل إلى بيت على أغا الخزندار بجوار المظفر . وهجم بعد ذلك أصحاب العزب على باب مستحفظان فملكوه ونهبوا ما وجدوه فيه من متاع وغيره وقتلوا من صادفوه بالباب ويطريق للحجر من أصحاب الفتنة وطلع الذين كانوا بباب العزب من الانكشارية إلى بابهم فكانت عدتهم ستمائة ثم اجتمع الأمراء جميعاً ببيت قانصوه بك وكتبوا محضراً بصورة ما وقع وطلبوا من دار السلطنة إرسال وال آخر وانقضت الفتنة وسكنت الخواطر...

(مطلب)

ولاية والى باشا

ولبت خليل باشا محجوراً عليه بالقاهرة حتى جاء والى باشا من دار السلطنة وصرح له بالسفر فسافر فى ثامن عشر جمادى الأولى سنة أربع وعشرين ومائة وألف هجرية فكانت أيامه كلها فتناً وقتالاً وهى سنة وتسعة أشهر وأيام وكانت أيام

هذه الفتنة خمسة وسبعين يوماً. وطلع والى باشا إلى مقره بقلعة الجبل فى أواخر شهر رجب سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف هجرية.

واتفق أن جلس فى مستهل شهر رمضان واعظ من الروم بجامع السلطان الملك المؤيد وأخذ يعظ الناس فكثر عليه الجمع وازدحم المسجد بالأتراك وصار يجلس كذلك فى كل عام ثم انتقل الوعظ إلى ذكر ما يفعله أهل مصر بأضرحة الأولياء من إيقاد الشموع والقناديل فى القبور وتقيل أعتاب الأولياء وغير ذلك وصرح بأن فعل هذا كله منكّر يجب على الناس الإقلاع عنه وعلى ولاة الأمر السعى فى إبطاله وعرض بذكر ما قاله الشعرانى فى طبقاته أن بعض الأولياء اطلع على اللوح المحفوظ وقال إنه لا يجوز ذلك أبداً وإن الاطلاع على اللوح المحفوظ لا يمنح حتى ولا للأنبياء فضلاً عن الأولياء وتندد ببناء القباب على أضرحة الأولياء والتكايا وجزم بهدمها وذكر أيضاً وقوف الفقراء بباب زويلة فى ليالى رمضان فكان لقوله وقع مهم فى قلوب السامعين وما أتم كلامه حتى خرج الناس بعد الصلاة ووقفوا بالنبايت والمساوق والأسلحة على مقربة من باب زويلة فهرب الذين يقفون هناك فقطعوا الجوخ والأكر التى كانت معلقة وهم يقولون أين الأولياء فتأثر الناس من ذلك جداً وذهب بعض العامة إلى العلماء بالأزهر وحدثوهم بما قاله الواعظ الرومى وما فعله الناس بباب زويلة فأفتى الشيخ أحمد الغزاوى والشيخ الخليفى بأن كرامات الأولياء لا تنقطع بالموت وإن إنكار الواعظ المذكور اطلاع الأولياء على اللوح المحفوظ لا يجوز ويجب على الحكام كفه عن ذلك فأخذ بعض الناس تلك الفتوى ودفعها للواعظ وهو فى مجلس وعظه فلما قرأها غضب وقال: أيها الناس إن علماء بلدكم قد أفتوا بخلاف ما ذكرت لكم وإنى أريد أن أتكلم معهم وأباحشهم فى مجلس قاضى القضاة فهل منكم من يساعدنى على ذلك وينصر الحق فصاحوا جميعاً نحن معك لا نقارئك فنزل عن كرسيه واجتمع عليه من العامة خلق كثير ومر بهم من وسط القاهرة إلى أن دخل بيت قاضى القضاة فانزعج القاضى وخاف وسألهم عن السبب لحضورهم فرفعوا له ورقة الفتوى وطلبوا منه إحضار المفتين والبحث معهم بحضرته فقال القاضى: لا بأس عليكم اصرفوا أولاً هؤلاء اللوم ثم نحضر من أفتى بهذه الفتوى فقالوا: وما تقول أنت فى هذه الفتوى؟ فقال هى باطلة قالوا: اكتب لنا حجة بطلانها فقال إن الوقت قد فات والشهود قد انصرفوا. قال الراوى: وكان الذى يخاطبهم ترجمان القاضى فقبضوا على الترجمان وأوسعوه ضرباً وطلبوا

القاضى فهرب فقبضوا على النائب فكتب لهم حجة بما شاءوا ففترقوا وانصرفوا واجتمعوا بعد ذلك لسماع الواعظ على عادتهم فلم يحضر فأخذوا يسألون عنه فقال بعضهم ربما منعه القاضى من الجلوس فقام فى الحال رجل منهم وقال: أيها الناس من أراد أن ينصر الحق فليتبعنى فتبعه الجم الغفير فمضى بهم إلى مجلس القاضى فدخلوا عليه وقالوا أين شيخنا؟ قال لا أدري فقالوا قم واركب معنا إلى الديوان لنكلم الباشا فى هذا الأمر ونسأله أن يحضر لنا أخصامنا الذين أفتوا بقتل شيخنا وتباحث معهم فإن أثبتوا دعواهم نجوا من أيدينا وإلا قتلناهم فركب القاضى مكرها وتبعوه إلى أن طلعا الديوان فسأله الباشا عن سبب حضوره فعرفه بقصة القوم الذين حضروا معه وما وقع منهم بالأس واليوم وأنهم ضربوا ترجمانه وأخذوا الحجة قهراً وأتوا اليوم وأركبوه قهراً فأرسل الباشا إلى كتخدا الانكشارية وإلى كتخدا العزب وقال اسألا هؤلاء عن مرادهم فقالوا نريد إحضار الغزوى والخليفى لبيحثا مع شيخنا فيما أفتيا به فرسم الباشا بإحضارهما وافترقوا على ذلك فأرسل الباشا بعد افتراقهم إلى إبراهيم بك وقيطاس بك يعلمهما بما حصل من العامة ويقول: إن لم يعاقب هؤلاء فلا بد لى من السفر أنا وقاضى القضاة. أما العامة فإنهم نزلوا بمرسوم الباشا إلى جامع الملك المؤيد وأتوا بالواعظ وأصعدوه إلى كرسىه فصار يحضهم على الاجتماع فى غد بالمؤيد كى يذهبوا بجملتهم إلى القاضى ويحضهم أيضاً على الانتصار للدين وقمع طائفة المفسدين ثم افترقوا على ذلك. ولما وصل مرسوم الباشا بمعاقبة العامة إلى الأمراء اجتمعوا جميعاً ببيت الدفتردار وتناجوا فى الأمر فاتفقوا على أن تركب الأغوات وتطوف بالشوارع والحارات فمن وجدوه من أهل تلك العصاة قبضوا عليه وأن يطردوا كل من يجدونه فى جامع المؤيد من طائفة الترك فلما كان اليوم الثانى صباحاً ركب الأغا وأرسل الجاوشية إلى جامع المؤيد فلم يجدوا منهم أحداً وجعل يفحص ويفتش على أفراد المعتصين فمن ظفر به أرسله إلى بابه فضرب بعضهم ونفى بعضهم ومازالوا كذلك حتى سكنت الفتنة وعادت الأمور إلى ما كانت عليه.

وما كادت تطمئن القلوب بسكون هذه الفتنة حتى ظهرت فتنة أخرى ومنحة كبرى وذلك أن رجلاً من الأشراف تشاجر مع تركى فى سوق البندقانيين فضرب التركى الشريف فقتله وفر ولم يعلم أين ذهب فقام الأشراف كافة ووضعوا المقتول فى نعش وظافوا به الأسواق حتى طلعا به إلى الديوان وأثبتوا القتل على القاتل فلم

يقفوا له على أثر فنزل الأشراف وأصبحوا وقد قفلوا الأسواق التي بالقاهرة وصلوا
يرجمون أصحاب الخوانيت بالحجارة كي يقفلوا خوانيتهم ويضربون كل من عثروا
عليه في الطريق من المارة ومكثوا على هذا الحال يومهم وأصبحوا كذلك وأرسلوا
إلى الأشراف القاطنين بقرى مصر ليحضروا ثم اجتمعوا بالمشهد الحسيني وخرجوا
وأمامهم بيرق وساروا إلى بيت قيطاس بك الدفتردار فخرج عليهم أتباعه وطردوهم
وهزموهم بعد قتال فرجعوا وقد عاثوا بالطرق وفعلوا ما لا خير فيه فلما تفاقم
أمرهم وكادت الفتنة تتسع تحرك عليهم العسكر وركب أغوات الأصبهانية الثلاثة
وأغوات الإنكشارية في عدددهم وعددهم وطافوا المدينة فخاف الأشراف وتفرقت
جموعهم ثم نادوا بالأمن والأمان وفتح الخوانيت ففتحت وسكنت الفتنة بعد أن كاد
يستفحل أمرها.

وأعقب هذه الفتنة المتراكمة والمحن المتوالية طاعون شديد أمارت خلقاً كثيراً جداً
وبقى على شدته بالقاهرة ومصر من ربيع الأول من السنة إلى أواخر جمادى الثانية
ففتك فتكاً ذريعاً وعم وامتلات البيوت والطرق بالموتى والدفن مستمر ليلاً ونهاراً
فكانت شدة عظيمة للغاية ثم ارتفع وزالت بزواله ولاية والى باشا وجاءت الأخبار
بعزله وتولية عابدين باشا فقدم إلى مدينة الإسكندرية ثم حضر إلى القاهرة في صفر
سنة خمس وعشرين ومائة وألف هجرية فنزل والى باشا وسافر إلى الديار الرومية
فكانت مدة تصرفه عشرة أشهر وأياماً. وأخذ عابدين باشا يتصرف في الأمور فقدم
له الأمراء كافة التقادم والتعابى النفيسة وقدم له إسماعيل بك أيضاً مقدمة نفيسة
لله غاية فاستعظمها عابدين باشا ومال إليه وأحبه واختص به ومال إلى طائفة القاسمية
إرضاء لإسماعيل بك المذكور فجعل يوليهم المناصب العالية حتى ظهرها بمظهرهم
القديم من الأبهة والتكريم وزال عنهم البأس ولأرمتهم النعمة فصارت أمور البلاد
على أحسن ما يرام واستتب الأمن وعم واطمأنت قلوب الرعية وكثرت الأقوات
ودرت الأرزاق وارتفع الغلاء. وزال الوباء وراجت أسباب التجارة وسلكت الطرق
وأخصبت الأرض وأجادت فكانت أيام عابدين باشا المذكور كلها راحة وهناء.

(مطلب)

ولاية علي باشا

فلما كانت أخريات سنة ثمان وعشرين ومائة وألف جاء الخبر بعزله وولاية آخر

اسمه على باشا فأسف الناس لذلك وحزنوا عليه ونزل عابدين باشا من قلعة الجبل عند ما وصل الخبر بوصول على باشا إلى الإسكندرية ثم سافر إلى الديار الرومية قبل وصول على باشا إلى القاهرة فكانت مدة تصرفه ثلاث سنين إلا شهراً وسافر إلى الاسكندرية أرباب الخدم والعكاكيز وكبار الأمراء للقاء على باشا المذكور وحضروا معه إلى القاهرة فصعد إلى قلعة الجبل على الرسم المعتاد واستقر به المنصب والأمور والفتن نائمة والقلوب مطمئنة فلم تبق الحال كذلك مستتية إلا قليلاً حتى قامت الفتنة بين أهل بولاق القاهرة من حارة الجوايز وبين بعض الجمالة أتباع أمير الحاج وذلك أن بعض سكان الحارة المذكورة تشاجروا مع نفر من الجمالة لأسباب طفيفة للغاية فأدت هذه المشاجرة إلى الملاكمة والمضاربة بالأيدى ثم بالهراوى والمساوق وعلا الصياح واجتمعت الغوغاء والحرافيش وكثرت الجلبة فخرج لمعاونة الجمالة أميرأخور الاصطبل ومعه نفر من الاتباع فقام عليهم أهل الحارة كافة وأوسعوهم ضرباً بالمساوق فوصل خبر ذلك إلى الأمير إسماعيل بك أمير الحاج فأرسل إليهم أغات الأنكشارية والوالى فقاموا عليهما كذلك وضربوهما وكانت النساء فى هذه الأثناء يصوتن بأعلى أصواتهن والصغار يضحجون ويسبون كل من يحضر إليهم ويرجمون بالأحجار فى الحارات ومن أعالي البيوت فعاد الوالى ورجع إليهم بطائفة من الجند وقصدوا الحارة فترس فيها أهلها وعلت الأصوات وصعدت النساء على أسطحة البيوت وصرن يرجمن بالأحجار فأطلق الجند البنادق فقتلوا عدة رجال ثم هرب من بقى فدخلوا البيوت وأخرجوا النساء والأولاد وحملت النساء متاعهن ثم قفلوا الأبواب ودقوا فيها المسامير فسكنت الفتنة ولما بلغ خبرها من بالقاهرة ومصر القديمة خافوا وظنوا أنها من الفتن الكبرى فانكمشوا ليلتهم تلك وتعطلت الأسواق حتى شاع الخبر بسكون الفتنة ورجوع الحال إلى سابق مجراه .

واتفق ان أرسل الوالى الخزينة السلطانية صحبة محمد بك ابن إبراهيم بك أبى شنب وكان بين محمد بك المذكور وبين إسماعيل بك ابن إيواظ وعلى باشا الوالى نفور ووحشة فلما وصل محمد بك إلى دار السلطنة واجتمع يصدر الدولة يومئذ وشى فى حق إسماعيل بك وبالحق فى الواقعة به وقال إنه إن استمر على هذا الحال وطالت أيامه فى مصر استقل بملكها وأزال عنها نواب الدولة فقد تمكن منها وبث فى خدمتها أتباعه ومماليكه ومماليك أبيه وأن لا حرمة للوالى عنده ولا كلمة فوق كلمته وقد أبعد كل من كان ناصحاً للدولة وصادقاً فى خدمتها وجعل للدولة أربعة آلاف

كيس إن هي أزالته إسماعيل بك المذكور وخلعت على باشا الوالى وأتت بغيره قبل فأجابه الصدر الأعظم إلى ذلك وبقي الأمر مكتوماً بينهما إلى أن تعين أمير للحاج الشامي اسمه رجب باشا فرسم له الصدر بأنه إذا وصل مصر يعرج على القاهرة ويقبض على علي باشا واليها ويقتله ثم يحتال على قتل إسماعيل بك ابن إيواظ مع جميع عشيرته ماعدا علي بك الهندي . ورجع محمد بك أبو شنب ظافراً مطمئناً وجاء رسول رجب باشا ومعه مرسوم بحبس علي باشا الوالى وإقامة أحمد بك الأعرس نائباً فحبسوه فى قصر يوسف بك ثم جاء رجب باشا إلى القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل فلما استقر به المقام أحضر على باشا بين يديه وكذلك خازن داره وكتاب الخزينة والروزنامجى ورسم بعمل حساب على باشا ثم أمر به فذبحوه ذبح الشاة واحتزوا رأسه وسلخواها وبعث بها إلى دار السلطنة . قال بعض الكتاب : فمات علي باشا شهيد الزور والافتراء ودفن بمقام أبى جعفر الطحاوى بالقرافة قال : ويعرف قبره إلى الآن بعلى باشا المظلوم ثم رسم بضبط جميع مخلفاته واستحضر إليه خفية محمد شركس وشاوره فى كيفية قتل إيواظ بك وجماعته فدبروا له ولكن لم يتم له تدبير إذ اختفى ابن إيواظ مدة ثم ظهر ومعه فرمان السلطان بخلع رجب باشا فدفعه إليه وأنزله من قلعة الجبل إلى بيت مصطفى كتحدا عزبان ووكل به من يحرسه ولبث على هذا الحال أياماً إلى أن جاء للولاية من قبل الدولة محمد باشا البستاجى وذلك فى أوائل سنة ثلاث وثلاثين فكانت مدة ولاية على باشا المظلوم سنتين وبعض أشهر .

(مطلب)

ولاية محمد باشا البستاجى وخلع رجب باشا

ولما استقرت بمحمد باشا الولاية أبرز فرماناً سلطانياً بالعفو عن ابن إيواظ وسرح رجب باشا بالسفر فسافر مهاناً مرذولاً وقد كان استفحل أمر محمد بك شركس واعتز جانبه فى أيام رجب باشا فظهر بمظهر الكبرياء والعظمة والاستخفاف بأقرانه من الأمراء وكان حقه على الأمير ذى الفقار وقومه يزداد يوماً عن يوم فطلب من محمد باشا الوالى مرسوماً بالخروج على ذى الفقار المذكور وقتله فأبى محمد باشا ذلك فآلح عليه فلم يقبل فقام من عنده يوماً مغضباً وانقطع من ذلك اليوم عن الصعود إلى الديوان وأهمله فغضب لذلك الباشا وأبرز مرسوماً بخلع محمد شركس

المذكور من منصبه وكتب إلى المشايخ وأرباب الوجاقات بذلك فلما علم محمد شركس بالخبر أسرع وجمع إليه أصحابه ورتب أموره وقام معهم وأحاطوا بالرميلة وحوالى قلعة الجبل ونادوا بخلع محمد باشا البستانجي ثم أنزلوه من القلعة وسجنوه فى بيت ابن الوالى وكان ذلك فى أخريات سنة سبع وثلاثين فكانت مدة تصرفه فى هذه المدة التى هى المرة الثانية أربع سنين وأرسل إلى محمد بك أبى شنب فخلع عليه وولوه النيابة وأخذوا منه مرسوماً بقتال ذى الفقار وأصحابه وأرسلوا من يقتله ويأتى برأسه فلم يظفروا به واختفى ذو الفقار فنهبوا داره وأخذوا ما فيها وكتبوا بصورة الحال إلى دار السلطنة وطلبوا أن ترسل لهم والياً آخر بدل محمد باشا البستانجي .

(مطلب)

ولاية علي باشا

وكان محمد باشا المذكور قد كتب أيضاً بصورة ما وقع فأرسلت الدولة آخر اسمه على باشا فدخل القاهرة فى أوائل المحرم سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف هجرية فلم تستقر به الولاية حتى عمد إلى العزل والتنصيب فى الأمراء والحكام ونقض فيهم وأبرم والكلمة يومئذ لمحمد بك أبى شنب وإسماعيل بك ابن إيواظ . قال بعض الكتاب : ولما كان هذا العزل والتغيير لم يتناول إلا ذو الفقار وجماعته اجتمعوا وتشاوروا فى الأمر وتكلموا فى كيفية خلاصهم من فعال على باشا المذكور وقد تحققوا ما وراء ذلك من الخيبة إن هم تراخوا ومازالوا حتى أحكموا تدبير أمورهم وعلى باشا وبقية الأمراء فى شاغل عنهم بالمناصب وتفريق الوظائف والعزل والتولية ثم ظهر ذو الفقار من مخبئه واجتمع بمحمد باشا البستانجي المعزول ولم يكن إلى ذلك الحين قد سافر إلى الديار الرومية وكلمه فى أمر الخروج واضطرام نار الفتنة فاستقرت القاعدة بينهم على أعمال الخيلة على قتل كتخدا العزب فإذا تم لهم قتله امتلكوا باب العزب وظفروا بمقصودهم ثم جمعوا لذلك طائفة من الفقارية وأخرى من الشواربية وركب أبو دفيه أحد المقدمين عند فجر ذلك اليوم ومعه بعض الأمراء وقيطاس ذو الفقار وحوله عدة من الكبراء من قومه وربطوا الأربطة بالطريق الموصل إلى قلعة الجبل وساروا إلى الرملة ووقفوا هناك فلما مر بهم كتخدا العزب المذكور تقدم إليه أحدهم ليسلم عليه وقبض على يده وتبعه آخر وضربه بسيفه فسقط على

الأرض فتركوه وتراكضوا جميعاً إلى الباب وأجلوا من كانوا عليه وامتلكوه ووصل الخبر إلى محمد باشا البستانجي فركب في الحال وجاء إلى جامع المحمودية وأتى إلى على باشا من أعلمه بالخبر فنزل إلى باب العزب وهو في دهشة وحيرة واجتمع جميع الصناجق وتشاوروا في الأمر طويلاً فلم يروا بداً من أن يعيدوا الوظائف إلى ما كانت عليه تسكيناً للفتنة وقسموها بين الفقارية . واتفق أن قبطانا من قباطين دار السلطنة كان قد قدم إلى القاهرة في نفر من العسكر السلطاني ولبث بها فلما ظهرت هذه الفتنة ووصل إليه خبرها ركب في عسكره وأتى إلى جامع السلطان حسن واستقر به مع ذى الفقار بك وظهرت كلمة محمد باشا البستانجي في الحال فجعل يقسم المناصب العالية ويتصرف في الولاية وخلع على الأمراء أصحاب الفتنة ولبث على هذا الحال بجامع المحمودية مع أصحابه أياماً . فلما رأى محمد بك شركس أن قد تمّت الحيلة ودارت عليه وعلى أعوانه الدوائر كبر عليه هذا الأمر جداً وجعل يتأهب للذب والقتال وسير من فوره إلى بيت قاسم بك عدة كبيرة من الجند والمدافع ورسم فأقاموا المتاريس عند درب الحمام وجامع الحصيرة وهجمت عساكره على من كانوا بسبيل المؤمن بالبنادق حتى أجلوهم وهزموهم وهربوا إلى جهة القلعة وسوق السلاح ولكنهم تمكنوا من عمل متاريس عند مذبح الجمال ورموا على من كانوا بجامع المحمودية وتتابع الرمي من كل صوب وحذب فهرب المجتمعون بالرميلة وبنى أصحاب شركس المذكور المتاريس أيضاً عند وكالة بالأشكمنية ومازال في دفاع وقتال حتى كاد يتم له الظفر بالفقارية وبدأت شارات النصر وعلائم الفوز والغلبة فبرز يوسف الجريجى البركاوى وألقى بنفسه وتسلى على باب العزب ونط الحائط تحت رمى البنادق واتصل بمحمد باشا البستانجي ومن معه بجامع المحمودية وطلب أن يعطوه مرسوماً إلى كتخدا العزب كي يعطيه بيرقاً ومائة مقاتل وضمن لهم إجلاء الذين كمنوا بسبيل المؤمن ثم يتحول بعد إجلالهم بمن معه إلى بيت محمد شركس فيخبره تخريباً بشرط أن يولوه منصب كتخدائية العزب إن عاد إليهم ظافراً فأجابوه إلى ما طلب فنزل بمن معه من باب الميدان وسار بهم من جانب تكية إسماعيل باشا ووقف بجانب باب كان هناك يوصل إلى الرميلة وطوى البريق وهجم بمن معه على سبيل المؤمن يطلق النيران المتتابعة وهم يهللون ويكبرون فانزعج من كانوا بالسبيل وتحيروا في أمرهم وولوا جميعاً الأدبار إلى درب الحصيرة وأصحاب يوسف جوريجى في أفقيتهم يعملون فيهم الضرب والطعن حتى جاوزوا جميع متاريسهم

ودخل بيت قاسم بك فحولوا المدافع صوبه وصعدوا منارة جامع الحصارية ورموا بالبنادق على البيت فنزلت عند ذلك سائر اليارق من الأبواب وساروا إلى جهة الصليية وطلع القبطان إلى قصر يوسف بك ووضع مدفعاً على بيت محمد بك شركس وأطلق عليه الكلل تباعاً وقد كان قاسم بك أصيب برصاصة ممن كانوا بمنارة جامع الحصارية فمات فلما رأى محمد شركس ما حل بقومه وما يترصده من المكاره خرج هارباً فخرج معه محمد بك الأعسر ومحمد شركس الصغير وأخذ جميع أمواله وذهب بأصحابه إلى ناحية مصر القديمة وعبروا النيل إلى الجانب الغربى خفية وركب محمد باشا البستانجى وصعد إلى قلعة الجبل فى أهبة وكبكة ثانية فنزل على باشا وسافر إلى جزيرة جريد وقبض ذو الفقار بك على زمام الأمور فارتفعت كلمته وظهرت بعد الخمول والانكماش عظمتة وبعث بمن يقبض على محمد بك جركس فجند الرسل السير خلفه فلم يدركوه ورجعوا فأخبروا أنه سار إلى الجبل الأخضر ومنه إلى أدنة وكان خروج محمد جركس المذكور فى يوم السبت سابع جمادى الآخرة سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف فسكنت بعد خروجه الفتنة وزالت أسبابها ووقف كل عند حده قال بعض الرواة: وهذه الفتنة كانت بإيعاز من دار السلطنة .

وافق بعد ذلك بقليل أن على بك المعروف بأبى العزب ومصطفى بك ابن إيواظ ويوسف بك الحائن ويوسف بك ابن الشرابى وعبد الله أغا كتخدا الجاويشيه وسليمان أغا آباديه وهم جميعاً من طائفة القاسمية جلسوا على عادتهم فى بيت أحدهم على بك أبى العزب يشربون الخمر فلما أخذ الشراب من عقولهم فى تلك الليلة تأوه مصطفى بك ابن إيواظ وقال: يموت أخى العزيز الصغير والكبير ويصير الهندى مملوكنا سلطاناً على مصر وله الكلمة النافذة علينا والوالى فى قبضة يده وكان النيل قريب الوفاء فقال على بك: خفف عنك والله إنى لقاتل الباشا يوم جبر البحر فقال أبو دفية وإنى لقاتل ذو الفقار وقال مصطفى بك وإنى قاتل الهندى مملوكنا ثم تحالفوا على ذلك وتعاهدوا على العمل وكان معهم فى تلك الليلة مملوك من محاليلك عبد الله بك وقد كان هرب عند قتل سيده ولحق بالهندى وأقام فى خدمته أياماً فلما ارتقى مصطفى بك المناصب العالية أخذه من الهندى وجعله فى خدمته فلما سمع هذا المملوك ما تحالفوا عليه ذهب إلى على بك الهندى وأعلمه بالخبر فبعث به إلى ذى الفقار فأخبره أيضاً فبعثه إلى محمد باشا فأخبره . فلما كان يوم الديوان وقد صعد على بك أبو عزب إلى الخدمة بالديوان أمر به الباشا فقبضوا عليه وقتلوه من

ساعته تحت ديوان السلطان قايت باى وأحاط بداره ونهب ما فيها وكان شيئاً كثيراً للغاية وأرسل فى الحال مرسوماً إلى الأغا بالقبض على باقى أصحاب هذه المؤامرة فكان أول من قبض عليه منهم ابن إيواظ فأركبوه حماراً وأتوا به إلى الباشا فأمر به فقتل فى الحال واختفى الباقرن فضعف بذلك جانب القاسمية وانحط قدرهم وعلت كلمة الفقارية ولم يبق ظاهراً من القاسمية إلا على بك الهندى فعمل ذو الفقار على قتله أيضاً فقتله وقتل معه آخرين .

واتفق أن عاد فى هذه الأثناء محمد بك شركس من فراره على ما تقدم بياناً فلما علم أصحابه برجوعه جاءوا إليه وأقبلوا جميعاً عليه فركب معهم ونزل إلى البحيرة يريد الإسكندرية فلأقاه حسين بك الخشاب فى جنوده يريد منعه والظفر به فهزمه جركس وغنم خيامه وخيله وجماله ثم هبط إلى الفيوم ونزل على بنى سوف ثم إلى القطيعة على مقربة من جرجا فاجتمع عليه من بقى منهم من القاسمية المتشردين فقام لصدده حسين بك حاكم جرجا فركب عليه جركس المذكور وقاتله فقتل حسين بك وجماعة كثيرة من أتباعه وغنم جركس آلاتهم وجميع معداتهم وجاءت الأخبار بذلك إلى القاهرة فجمع ذو الفقار الأمراء وشاورهم فى الأمر فجهزوا لذلك عسكرياً عظيماً صحبة عثمان بك وآخر اسمه على بك قطامش فتلاقوا مع جركس بوادى البهنسا واقتتلوا فكانت الهزيمة على عسكري ذى الفقار ومن معهم واستولى جركس على ما كان معهم من آلات الحرب والخيام والخيل وحال الليل بينهم فافترقوا ورجع المنهزمون إلى القاهرة فشق أمرهم على ذى الفقار وهاله جداً وجمع الأمراء ثانية واتفقوا على إرسال حملة أخرى ولكنهم لم يجدوا ما ينفقونه فطلبوا مرسوماً من محمد باشا البستانجى بثلثمائة كيس من مال الخزينة نفقة وعليهم رده من أموال السنة القابلة فامتنع الباشا فألحوا عليه فصمم على الامتناع فشكوا فلم يسمع فركبوا عليه وأنزلوه من قلعة الجبل وأقاموا محمد بك قطامش نائباً وأخذوا منه مرسوماً بالنفقة وجهزوا العسكر واهتموا بأمرها اهتماماً عظيماً فسارت هذه الحملة والتقت بجركس ومن معه فوقعت بين الفريقين حروب هائلة ووقائع متوالية المجت عن هزيمة جركس وتبديد شمل جماعته وتمزيقهم كل ممزق .

(مطلب)

عزل محمد باشا البستانجى وولاية شاكر باشا

أما محمد باشا البستانجى فإنه بعد أن خلعه أنزلوه من قلعة الجبل وحجروا

عليه أياماً حتى ورد الخبر بولاية باكر باشا وذلك فى سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف فكانت مدة تصرفه الثانية أربع سنين وأشهرأ ووصل إلى مصر باكر باشا الوالى الجديد فكان وصوله فى خلال الفتن واشتداد الخطوب والحن فلم يعمل عملاً يذكر لأن البلاد كانت فى شدة وضنك بأسباب الحوادث المتراكم بعضها فوق بعض ولم يستقر به المقام إلا أياماً قلائل حتى ثار من فى البلد من القاسمية المختفين وثار معهم سليمان أغا أبو دفية فدخل منهم جماعة على ذى الفقار بك وقت العشاء فى رمضان من السنة وقتلوه وكان ذلك بتدبير من محمد بك جركس وهو مختف جهة الشرقية ينتظر موعدهم بعد قتل ذى الفقار بك ففضى الله بموت جركس قبل أن يعلم بخبر موت ذى الفقار وذلك أنه لما بعث ذو الفقار قومه فى طلب محمد جركس المذكور شددوا فى البحث عنه وتبعوا خطواته فكان يتقل من جهة إلى أخرى حتى سار إلى الشرق ومعه جماعة من عربان خويلد فتبعه عثمان بك قطامش بعسكره وسالم بن حبيب البدوى وقومه فتلاقوا معه واقتل الفريقان قتالاً عنيفاً جداً انجلى عن هزيمة جركس ومن معه ففروا وألقوا بأنفسهم إلى النيل ونزل جركس بفرسه يريد العبور إلى الجانب الغربى من النيل فانغرز الفرس فى روية تحتها الماء غزير فترجل عنه ليخلصه فسقط ومات غريقاً وكان على مقربة منه شادوف وعليه رجلان من الفلاحين ينقلان الماء إلى مزرعة لهما فتزلا إليه فوجدا الفرس وجركس ميتين ولم يعلما من هو فأخرجاه وأخذوا ما عليه من الملابس وسلاحه وزرعه وما فى جيوبه ودفناه بالجزيرة ومر بها قارب صيد فطلباه ووضعاه فيه، وكان على بك جالساً بجانب النيل ومعه سالم بن حبيب فنظر سالم إلى القارب وهو مقبل فقال: ما هذا إلا سمكة عظيمة مقبلة إلينا فأوقفوا القارب فتقدم أحد الشدافين إلى على بك وقبل يده فقال له ما خبرك؟ قال وجدنا جندياً من المهزومين غريقاً ومعه حصان فلعله من المطلبين وإلا ألقيناه فى الماء فقال لأحد أصحابه اذهب وانظر من هو فلعلك تعرفه فذهب وعاد فأخبر أنه محمد جركس الكبير وقد أحضر معه خاتمه فأمر به فأخرج من القارب وقبض على بك على أحد الشدافين وألزم الآخر باستحضار ما أخذه من الثياب والسلاح فأحضرها ثم أمر فاحتزوا رأس محمد بك جركس وغسلوا جثته ودفنوه ناحية شرونة وارتحلوا إلى القاهرة وكان القاسمية الذين بالقاهرة قد دخلوا على ذى الفقار وقتلوه كما تقدم القول ولبثوا ينتظرون قدوم محمد جركس وكان أبواب المدينة مقفلة وعلى كل باب منها صنجق والوجاقلية يطوفون فى الشوارع

ويأيدهم السيوف والقرايين المحشوة فلما وصل على بك قطامش إلى الآثار النبوية المعروفة عند العامة (بأثر النبي) أرسل يخبر بما جرى فخرج إليه عثمان بك ودخل صحبته بموكب حافل والرأس أمامهم محمولة في صينية حتى طلعوا بها إلى قلعة الجبل ووضعوها بين يدي الباشا فخلع عليهم الخلع السمور ونزلوا إلى بيوتهم فأتهم التقادم أيضاً من جميع الأمراء. قال أصحاب التاريخ : وكان جركس المذكور من أظلم خلق الله وأشدهم طغياناً وكان أتباعه على شاكلته فكانت أيامه شر الأيام وكانت الحروب في عهده لا تقعد لها قائمة فاشتدت على الرعية الخطوب وتوالى المحن والكروب وتعاقب الغلاء وعم الويل والوباء واشتد البلاء وقتل البنون والآباء وكان موت محمد جركس المذكور في أواخر سنة اثنتين وأربعين. أما الأمير ذو الفقار فقالوا أنه كان أميراً جليل القدر شجاعاً بطلاً كريم الأخلاق مع قلة ثروته وعدم ظلمه وكان كثير الحسنة يرسل في كل شهر رمضان من السنة لجميع الأمراء والأعيان والوجاقلة اليلكات والكساوى وللعلماء بالأزهر ستين كسوة ودراهم تفرق على الفقراء والمجاورين فكان محبوباً محترماً مهيباً نافذ الكلمة بكاه الناس كافة وحزنوا على فقدته هذا ما كان من أمر الفتن بديار مصر.

أما ما كان من أمرها في دار السلطنة فإنه لما تم لخصوم محمد باشا البلطه جى الصدر الأعظم النكاية به وعزله وتبعيده كما تقدم القول تولى الصدارة بعده عدة من الوزراء فلم تطل أيامهم ولم يقلحوا إلى أن تولاهما على باشا دمداد فأحسن التدبير وأصلح ما أفسده السلف وساق الجيوش إلى إخضاع أهل الجبل الأسود لتمردهم وخروجهم عن طاعة السلطان ثم سار لتدوين البلاد التابعة لجمهورية البندقانيين وضماها إلى أملاك الدولة ومحو أثر الجمهورية المذكورة حيث كانت الدولة قد ملت من حروبها المتتابعة ففتح كثيراً من البقاع والقلاع كاستنديل وكورودوس وأتابولى وقتل وسبى وخرب ثم عاد إلى دار السلطنة ظافراً غانماً ولبت إلى أن زال الشتاء وكر راجعاً في جيش عظيم لأخذ ما بقى من جمهورية البندقانية فلما علمت دولة النمسا بما وراء ذلك من استيلاء العثمانيين على خليج البندقانيين وأن هذا مما يفتح للعثمانيين باباً واسعاً لنقل مهماتهم وذخائر حربهم ويسهل لهم الهجوم على بلادهم ويغنيهم عن المجيء إليها عند طريق بلغراد وطمشوار أفاقت من غفلتها وراستت الدولة العثمانية في مجانبه الحرب مع جمهورية البندقانيين وأنذرتها بأنها إذا أبت ذلك أشهرت الحرب عليها فاستعظم الصدر هذا الأمر جداً وحول وجهه عن محاربة

البندقانيين إلى قتال النمسا فسار بجيوشه وشن الغارة على أملاكها فسيرت لقتاله جيشاً عظيماً للغاية ومقدمه البرنس أوجين دى سافوا وهو من أكبر قواد ذلك العصر وأعظمهم خبرة بفنون الحرب والقتال فاشتبكت الحرب بين الفريقين واشتد القتال فانصر النمساويون نصرة مؤثرة في موقعة بترواردين وقتلوا الصدر الأعظم في ساحة الحرب ثم سار قائد الجيوش النمساوية إلى مدينة طمشوار فافتتحها بعد حصار أربعة وأربعين يوماً ثم نزل على مدينة بلغراد وحاصرها وشدد في حصارها وكان قد تولى مسند الصدارة العظمى خليل باشا فحضر في عسكر عظيم لاستخلاص المدينة ورفع الحصار عنها فلم يفلح وتغلب عليه العدو ودخل المدينة عنوة وأعمل فيمن بها من عساكر المسلمين السيف ووصلت الأخبار بذلك إلى القسطنطينية فعمدوا إلى طلب الصلح وأرسلوا إلى النمسا في ذلك وكان الذي قد تولى هذا الأمر إبراهيم باشا نائب الركاب الهمايوني فاستكبر الجند هذا الأمر جداً وقالوا لا نترك طمشوار الجميلة في أيدي الأعداء فأخذ الناس بقولهم ووافقهم على استدامة القتال وتبعهم في ذلك أيضاً طلبه العلم فسقط إبراهيم باشا في يده وانفرد برأيه وبقي الكلام في الصلح نسيا منسيا وأعيدت الحرب ثانية فانهمز العسكر الهمايوني هزيمة أشد من الأولى وانفشلوا وركبهم النمساويون بحد السيف فعادوا إلى طلب الصلح وكان إلى هذا الحين قد تولى إبراهيم باشا مسند الصدارة فعقد النمساويون الصلح بعد أخذ ورد فكانت شروطه شديدة على الدولة إذ تركت للنمسا ولاية طمشوار ومدينة بلغراد مع جزء عظيم من بلاد الصرب وآخر من بلاد الفلاخ وتركتم لجمهورية البندقية غور شاطئ دلماسيا واسترجعت هي بلاد المورة ليس إلا. قال بعض الكتاب: ولو أظهرت الدولة يومئذ للعدو علامات القوة مع عزة النفس لثم عقد الصلح على وجه أليق بشرفها. فلما تمت شروط الصلح على هذه الصورة طمع الأعداء فيها واستخفوا بقدرها فتحركت دولة الروس إلى نكث العهود وسيرت سفيرها إلى دار السلطنة في طلب إلغاء بعض الشروط المأخوذة على الروس في معاهدة الصلح الأخيرة والتقى السفير بالصدر وكلمه في الأمر وشدد عليه في الطلب وقال إن لم تعجلوا بتعديل الشروط وإلا نقضناها بسيوفنا وكان الصدر الأعظم يكره الحرب ميالاً إلى الترف والراحة فخاف سوء العاقبة وأجابه إلى جميع ما طلب فلم يبق للدولة بعد ذلك شيء من الامتيازات والحقوق التي أريقَت بسببها الدماء الكثيرة وقاتلت الأشهر والأعوام الطوال. قال بعض الكتاب: ومع أن المشاركة بين الدولة وخصومها

كان لأجل أن تتمكن الدولة من لم شعث جنودها لتقوى بهم على قمع الأعداء وإيقاف كل عند حده فقد كانت سبباً في إدخال عوائد جديدة على الناس مالت بطباعهم إلى السفاهة وما شاكلها من نتائج الطيش فأصبح السواد الأعظم أسيراً للملاهي وعبدًا للملاذ ففسدت الآداب وانحلت الرابطة الطبيعية القائمة بين الأزواج وزوجاتهم وبالع الناس في السرف والترف واندفعوا إلى تشييد المباني الفاخرة والقصور العظيمة وأنشئوا القاعات الفسيحة المزينة بأنواع النقوش والرخام وغرسوا في أطرافها الأزهار وأوقدوا فيها المصابيح وجعلوا ظهور السلاحف منائر لها فكانت تلك السلاحف تتجول في طرق القاعات والجنان والأنوار تسطع على ظهورها وتنبث مرتبة على أحسن نظام فكانوا لذلك يطلقون عليها اسم جراغان ومعناها الشموع. قال: وقد بنى إبراهيم باشا الصدر الأعظم قصرًا جميلًا بجوار بشكطاش سماه بقصر جراغان فكان يادب فيه في كل سنة مأدبة حافلة للسلطان وأولاده فيأتي إليها للتفرج على تلك السلاحف الحاملة للأنوار فكان يقيم على هذه الحال أياما وكان هذا الدور في دار السلطنة محسوباً من أحسن الأدوار صفاء وذوقاً إلا أنه قد أورث الدولة خللاً والأمور خطلاً والناس كسلاً وذهب بكثير من حقوقها وامتيازاتها العظمى.

وانتبه الصدر الأعظم من رقدة ذلك الترف وسكرة تلك الملاذ فرأى أن دولة فارس قد انحلت أو كادت وأن الأفغانيين قد تغلبوا عليها واستولوا على أصفهان فخاف شر العاقبة واستعد لإرجاع ما كان في حوزة الدولة العثمانية قديماً من البلاد والإيالات ودخلت في يد فارس قبل أن يبتزها غيرها وسير لذلك جيشاً عظيماً فرافقه النصر وتغلب على عدة إيالات كههمذان وكنجه وروان وشروان وكورجستان وقام كذلك الروس واحتلوا ضاغستان وكافة سواحل بحر الخرز فلم تلبث تلك الإيالات تابعة للدولة حتى قام نادر شاه وتولى ملك فارس واستردها جميعها واسترد كذلك ما كان بيد الروس بعد حروب هائلة جداً كادت تخرب بسببها الأناطولى وغيرها وجعل نادر شاه من هذا الحين يشن الغارة على الحدود العثمانية ولا ينكف عن السلب وإراقة الدماء فكبر أمره على أصحاب الحل والعقد وأنكروا هذه الأحوال على إبراهيم باشا الصدر الأعظم ورموه بالمروق عن جادة العمل وتبعهم العامة في ذلك فطعنوا في الصدر وقالوا إنه ترك ما كان عليه أسلافه من الاعتناء بتدريب الجند وتنظيم أحوال المقاتلين وأنه منغمس في الملاذ واللعب وقد عود السلطان على اللهو

والخلاعة وجعل مراتب الدولة ورتبة الوزارة فى أيدى الندامى بعد أن كانت لا تعطى إلا لأهل الخبرة والدراية بجميع الأمور والمستعدين للقيام بها من المجاهدين وأنه ترك لنادر شاه ما كان قد استولى عليه بالحرب والجهاد فلما أنس إبراهيم باشا منهم ذلك أخذ يستعمل الخيلة فضرب السراقات الهمايونية فى إسكدار لإرهاب نادر شاه المذكور وأذاع السفر إلى بلاد فارس للانتقام منه وليث على هذه الحال عدة أيام فاشمأزت من ذلك النفوس وتكدرت خواطر الناس وظهرت الفتنة فى القسطنطينية وتأججت نارها وارتفع لهيها وكان بعض مجبى الصدر الأعظم قد حذروه أمر الفتنة فلم يلتفت لقولهم وكذلك تقدم بعضهم إلى كتحدا بك وحذره وقال: إن الخطب شديد والفتنة قائمة فأنكر عليه ذلك وأنبه . واجتمع جماعة من أركان الدولة وأبلغوا السلطان ما كان عليه الناس عليه من الهياج والفتنة إن طال بقاء الصدر فى منصب الصدارة فلم يلتفت لقولهم نظراً لعلو مكانة الصدر عنده فانكمش أهل النصيح ولبثوا يتظرون ما يظهره القضاء وقد اتسع الخرق واشتدت نار الفتنة فرسم الصدر عند ذلك بإخراج البيروق الشريف . وهو يبرق صاحب الشريعة المحمدية، ونادى بالاجتماع حوله فلم يلتفت أحد للنداء وطاف العامة يفسدون وينهبون كل ما وصلت إليه أيديهم وكان زعيم هذه الفتنة رجلاً اسمه بطرونا خليل .

فلما كان خامس عشر ربيع الأول من السنة أى سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هجرية سير بطرونا المذكور إلى السراى السلطانية جماعة يطلبون قتل الصدر الأعظم والمفتى وقبطان باشا السفن الحربية فامتنع السلطان من إجابة الطلب فشددوا وهددوا وتوعدوا بما لا خير فيه فخاف السلطان شرهم ورسم لهم بقتل الصدر وأمير سفن الحرب ومانع عن المفتى فقتلوهما وألقوا جثتهما فى البحر على مشهد من جميع الناس . ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى عاد أهل الثورة إلى الهياج والجلبة والتطواف فى شوارع القسطنطينية وهم ينادون بخلع السلطان وتنزيله عن منصب الخلافة وتولية ابن أخيه السلطان محمود الأول بدله ثم ساروا إلى السراى السلطانية وأبلغوه ذلك فأسرع إلى إجابتهم وخلع نفسه وبايع ابن أخيه بالملك وذلك فى ليلة التاسع عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هجرية وبقي معزولا إلى أن توفى فى أول المحرم افتتاح سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف هجرية فكانت سلطنته زهاء سبع وعشرين سنة .



(الفصل السابع عشر)

(فى سلطنة السلطان محمود خان الأول)

ثم قام بالأمر بعد السلطان أحمد ابن أخيه السلطان محمود خان الأول ابن السلطان مصطفى بويج بالملك فى الليلة التى خلع فيها عمه ليلة التاسع عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هجرية أى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية وقد تولى الأمور فى اضطراب والأحوال فى اختلال ولا كلمة فوق كلمة البطرونا خليل فإنه منذ خلعه للسلطان أحمد وقتله للصدر الأعظم وأمير سفن حرب الدولة بسط يده على جميع الأمور وصار يتصرف فى أعمال الدولة كيف شاء فأكثر من العزل والتولية وسام الناس الخسف ولم يفرق بين الجليل والحقير فأمر ونهى وجار وظلم وكان إذا رأى من طوائف الانكشارية تدمراً بالغ فى التضييق عليهم وشدد وأوقع بكبارهم فيخافون ويخلدون إلى السكون صاغرين فلما ضاق بهم الخناق ونفذ منهم الصبر اجتمع كبارهم حول السلطان وحببوا إليه قتل البطرونا خليل المذكور وكان السلطان يتمنى حصول ذلك فوافقهم فقاموا وركبوا عليه فقتلوه وتأهبوا لقتال أصحابه إن هم قاموا للأخذ بثأره فلم يقو أصحابه على الخروج وأوقعت بهم طوائف الانكشارية وأعملوا فى كبارهم السيف فعادت الأمور إلى سابق مجراها من الهدو والسكينة وأمن الناس على أرواحهم وأموالهم وانطلقت كلمة السلطان فتصرف ودانت له الأمور فسير الجيوش لقتال ملك فارس واسترجاع ما أخذه من الإيالات على أيام عمه السلطان أحمد ف وقعت بينه وبين العسكر السلطاني عدة حروب كان النصر فيها لعسكر السلطان ثم أقام عثمان باشا الأعرج أحد مقدمى العسكر الموصوفين فى المعامع والحروب سر عسكر جيوش الشرق فقاتل ملك فارس وظفر به فى صحراء كركوك ومزق شمل عساكره ففر ملك فارس مجروحاً ثم عاد فى جيش جرار للقتال ثانية فكانت الحرب بين الفريقين سجلاً وطالت أيامها فمات فى خلالها السر عسكر عثمان باشا وأرسلت الدولة إلى ملك فارس فى طلب الصلح فأجابها إليه بشرط رد جميع ما أخذته الدولة من مملكته وإرجاع حدود الدولتين إلى ما هو مذكور فى معاهدة إبراهيم باشا فتم الصلح على هذا الوجه وبطلت الحرب وارتفعت أوزارها.

ورأت النمسا أن الدولة بعد عقد الصلح مع فارس تفرغت أو كادت ولا بد من أن تنوبها الشرور فخافت ولم تمهلها وحشدت فى سنة ثمان وأربعين ومائة وألف جيشا عظيما وانفقت معها أيضا حنة قيصرة الروس على هذه الحرب فسافت عسكرها على عسكر الدولة تحت قيادة الجنرال مونيخ فجعل القائد المذكور يذيع الخبر بأنه سيجيء بهذه الغزوة دولة الروم القديمة ويعيد لها مجدها الأول ففرح بذلك الروم وأشربت نفوسهم إلى هذا المأمول وتلقى أهالى البغدان عساكر الروس عند دخولهم إلى بلادهم بالفرح والقبول وسهلوا أمامهم السبل والعقبات فاشتبك القتال بين الروس والعثمانيين وتمزق جمع العثمانيين وأبلى فيهم الروس بلاء حسنا وأخذوا إقليم البغدان واحتلوا مدينة ياسى عاصمة الإقليم المذكور وانتصرت عساكر النمسا أيضا وأغارت على بلاد البوسنة والصرب والفلاخ فكبر كيد الدولة وكادت تسقط فى يدها، واتفق أنه تولى فى هذه الأثناء مسند الصدارة الحاج محمد باشا وهو من نخبة السياسيين المشهورين بالكياسة وحسن التدبير فرأى من تهقر عساكر الدولة وانتصار الأعداء عليهم ما أدهشه فأسرع فى حشد الجيوش وإعداد المعدات وسار لمنع تقدم العساكر الروسية وإيقافهم عند حدهم وسير فريقا آخر لقتال عساكر النمسا فظفروا بهم وانتصروا عليهم وانهزموا شر هزيمة وتهقروا إلى ماوراء نهر الدانوب ثم ساق الحاج محمد باشا بعسكره فرافقه النصر وقبض الله له الظفر فركنت النمسا عند ذلك إلى طلب الصلح ووافقها أيضا على طلبه حنة قيصرة الروس وخابروا الحاج محمد باشا فى أمره وسعت الرسل بين الفريقين وبعد أخذ ورد تمت شروطه على تنازل النمسا للدولة العثمانية عن مدينة بلغراد وجميع ما أعطى لها من بلاد الصرب والفلاخ بمقتضى المعاهدات السابقة لهذه الحرب وتعهدت كذلك قيصرة الروس بهدم قلاع وحصون مينا أراق وعدم إعادتها مرة ثانية وبعدم إنشاء سفن حربية أو تجارية بالبحر الأسود أو ببحر أراق وبأن ترد للدولة العثمانية جميع ما أخذته من الأقاليم والبلدان . قال أحد الكتاب: وسميت هذه المعاهدة معاهدة بلغراد ولما تم الصلح على ما ذكر بطلت الحرب وسكنت القلاقل أياما كثيرة .

(مطلب)

عزل أحمد باكير باشا وولاية عبد الله باشا التكفويرلى

وما كانت هذه الحروب المتتابة والخطوب المتواصلة لتشغل رجال الدولة عن

كثرة العزل والتولية فى ولاية مصر فإنه لما تولى السلطنة محمود خان كان الوالى على مصر من قبل السلطان أحمد باكير باشا فجاء الأمر بالعزل وتولاها عبد الله باشا التكفويلى فدخل القاهرة فى سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هجرية . قال أصحاب التاريخ : وكان من أرباب الفضائل وأصحاب المعارف العالية والعلم والشعر وله ديوان شعر جيد على حروف المعجم ومدحه شعراء مصر لفضله وميله إلى أهل العلم والأدب فقال بعضهم .

ولما جاء مصرا أرخوه لقد سعدت بعبد الله مصر

١٣٤ ٥٣٤ ٧٨ ٦٦ ٣٣٠

سنة ١١٤٢

وكان خيرا صالحا منقادا للشرعية أبطل المنكرات وحانات الخمارين ومواقف المؤسسات والبوظ من بولاق وباب اللوق وطولون ومصر القديمة وجعل للوالى والمقدمين عوضا عما كان مرتبا لهم على تلك المحال فى كل شهر كيسا من كشوفيات الباشوات وكتب بذلك حجة شرعية ولعن فيها من تسبب فى إعادة تلك المحال ولم يحدث فى أيامه شئ يذكر إذ كانت قصيرة جدا حيث عزل فى أواخر سنة أربع وأربعين ومائة وألف هجرية .

(مطلب)

عزل عبد الله باشا وولاية محمد باشا السلحدار

وتولى بعده محمد باشا السلحدار والى البصرة فدخل القاهرة فى أوائل سنة خمس وأربعين ولبث يتصرف إلى سنة ست وأربعين ولم يعمل فى أيامه عملا يذكر وجاء الخبير بعزله وتولية عثمان باشا الحلبي فحضر إلى مصر عن طريق العريش ونزل بالعادلية ولاقته أرباب العكاكيز وأصحاب الوظائف فصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل ونزل منها محمد باشا المنعزول وسافر إلى الديار الرومية فأخذ عثمان باشا يتصرف وجاءه فرمان السلطان بإحصاء اليهود والنصارى وجمع ما عليهم من الجزية فى كل بلد البال أربعمائة نصف وعشرون نصفًا والوسط مائتان وسبعون والدون مائة نصف فاهتم عثمان باشا بالأمر وقيد بذلك عمالا فطافوا البلاد كافة وأحصوا أهلها وفعلوا من الجور والعسف بأهل البلاد ما لا يكيف فضج الناس وشكوا فلم يلتفت إليهم وظل الحال على ذلك حتى دخل شهر رمضان واشتغلوا بظهور رجل

تكرورى بالجامع الأزهر يدعى النبوة وقد ذاع خبره وكادت تعم شهرته فأحضروه بين
يدى الشيخ أحمد العماوى فسأله عن حاله فأخبره أنه كان فى شريرين فنزل عليه
جبريل وعرج به إلى السماء ليلة سابع عشرى رجب فصلى بالملائكة ركعتين وأذن له
جبريل فلما فرغ من الصلاة أعطاه ورقة وقال له أنت نبي مرسل فأنزل وبلغ الرسالة
وأظهر المعجزات فلما سمع الشيخ كلامه قال له أنت مجنون فقال لست بمجنون وإنما
أنا نبي مرسل فأمر به فضربوه وأخرجوه من الجامع فجعل يطوف الأزقة والحارات
ويكثر من الجلبة والصياح فسمع عثمان كسدا بخبره فأحضره وسأله فقال مثل ما
قاله للشيخ فبعث به إلى دار المجانين فاجتمع الناس وكثرت حوله العامة رجلا
ونساء وكادوا يصدقونه ويدفعون عنه الإيذاء فخاف الوالى شر العاقبة وأمر فأخفوه
عن أعين الناس لتسكن الفتنة ثم طلبه الباشا وأمر بحبسه فحبسوه ومنعوا من دخول
أحد إليه أياما، فلما كان النصف من رمضان اجتمع العلماء وأحضروه بين أيديهم
فسألوه فلم يتحول عن كلامه فعاجلوه فشدد فأمروه بالتوبة فامتنع وصمم على ما هو
عليه فأمر الباشا بقتله فقتلوه فى حوش الديوان وهو يقول : فاصبر كما صبر أولو
العزم من الرسل . ثم أنزلوه وألقوه بالرميلة ثلاثة أيام فكاد الناس يفتنون ولم تهدأ
الخواطر حتى شاع بين الناس بالقاهرة ومصر القديمة أن القيامة قائمة يوم الجمعة
سادس عشرى ذى الحجة من السنة أى سنة سبع وأربعين وفشا هذا الكلام فى الناس
قاطبة حتى فى القرى والأرياف وودع الناس بعضهم بعضاً وهم بين راغب فى التوبة
وداع بطلب المغفرة وبك على ما فات من أيامه ومنهم من كان يقول لرفيقه بقى من
عمرنا يومان فقد كانت هذه الأشاعة فى يوم الأربعاء رابع عشرى الحجة . وانتشر
أهل الخلاعة فى الجنائن والمتزهات ليودعوا الدنيا كما كان يقول بعضهم لبعض
وخرج أهل الجيزة نساء ورجالا وصاروا يغتسلون فى النيل ومن الناس من علاه
الحزن والوهم واعتقدوا صحة الإشاعة ووقع صدقها فى نفوسهم موقعا عظيما وكثر
فيها الهرج واشتد بهم الخوف فتعطلت الأعمال وكادت تقفل الأسواق وما زالوا على
هذا الحال إلى يوم الجمعة فلم يقع شئ مما كانوا يتوقعون ومضى يوم الجمعة وأصبح
يوم السبت فلم يقع كذلك شئ . قال صاحب عجائب الآثار : فانتقلوا يقولون فلان
العالم قال : إن سيدى أحمد البدوى والدسوقى والشافعى تشفعوا فى ذلك وقبل الله
شفاعتهم فيقول الآخر اللهم نفعنا بهم فإننا يا أخى لم نشبع من الدنيا وشارعون فى
عمل حظ ونحو ذلك من الهذيانات أهـ.

(مطلب)

عزل عثمان باشا وولاية باكير باشا الولاية الثانية

وأقام عثمان باشا يتصرف فى الولاية إلى سنة ثمان وأربعين ومائة وألف هجرية ثم عزل وتولى بعده باكير باشا وهى ولايته الثانية فكانت مدة تصرف عثمان باشا سنة وخمسة أشهر وحضر باكير باشا من جدة إلى السويس إذ كان واليا بجدة بعد عزله من ولايته الأولى على مصر وكان دخوله القاهرة فى يوم السبت رابع عشرى شوال سنة سبع وأربعين ومائة وألف وصعد إلى القلعة فى موكب حافل للغاية وخلفه من الحشم والأتباع زهاء الثلاثين على ظهور الخيل الملبسة بالزروخ المذهبة وله من الأولاد خمسة ذكور ركبوا أيضا أمامه فلما مر من وسط المدينة صاح الناس فى وجهه وعلا صراخ العامة من ثقل المغارم والكلف وفساد العملة فلم يلتفت لبصراخهم وسار حتى صعد القلعة ولم يلبث حتى جعل يدس الدسائس بين الأمراء وصار يعمل على فساد أمورهم وتفريق كلمتهم ومازال حتى كاد يتم له ما أراد ولكن ظهر فى غضون ذلك الطاعون وفشا فى المدينة وانتشر فى البلاد قاطبة وفتك بالناس فتكا ذريعا لم يسبق له مثال فسماه العامة طاعون كرو وسموه أيضا الفصل العاقل يأخذ على الراقى ومات به خلق كثير للغاية وكان فعله كثيرا فى الأعيان فكانت الناس تدفن الموتى فى ضوء المشاعل حتى كاد لا يوجد من يدفن الموتى التى كانت تقع فى الشوارع والحارات واشتد شدة بالغة جدا وطالت أيامه . وبينما الناس على هذا الحال من الشدة وهم يضجون ويعجبون إلى الله من كثرة المواب إذ اضطربت نار الفتنة بين الأمراء وعلا لهيها واشتد سعيها . وتحرير الخبر: أن كاشفا اسمه صالح زوج ابنة إيواظ بك كان ملتجئا إلى عثمان بك ذى الفقار وكان صالح هذا من القاسمية فحرضته زوجته على طلب إمارة القاسمية فطلب من عثمان بك أن يساعده على ذلك فوعده وخاطب محمد بك قيطاس المعروف بقطامش وهو إذ ذاك كبير القوم فى ذلك فلم يجبه خوفا من أن يعود القاسمية إلى مظهرهم القديم فيظفروا بالفقارية ويستأصلوا شأفتهم بعد الذى وقع بين الفريقين فبعث عثمان بك بصالح المذكور إلى البحيرة كاشفا نائبا عنه حيث كانت له فلما كملت السنة رجع إلى القاهرة وتحركت همته إلى طلب الإمارة وألحت عليه زوجته فى ذلك فعاود عثمان بك فى الخطاب وهو تكلم مع محمد بك فصمم محمد بك على الامتناع ووافقه على ذلك على بك تابعه وآخر اسمه خليل افندى فذهب صالح

المذكور إلى عثمان كتحدا القزدغلى وشكا إليه حاله وما يلاقيه من قيطاس ثم بكى واستمال عثمان كتحدا المذكور تابعه وخليل أفندى على أن يكونوا معه على قيطاس فقام القزدغلى من ساعته واجتمع برضوان بك أمير الحاج سابقا وسليمان بك الفراش وتكلم معهما فى أمر قتل المذكورين فوافقتاه على أن يكون قتلهم فى بيت محمديك الدفتردار على علم من باكير باشا والى وأخبروا محمد بك بذلك فرضى وكتب يطلب اجتماع الأمراء كافة فى بيت الدفتردار للمداولة فى أمور الخزينة فركبوا جميعا إلى بيت قيطاس بعد العصر ومن هناك توجهوا معه إلى بيت الدفتردار فلما تكاملوا ولم يبق منهم أحد أمر محمد بك قيطاس بتحرير عريضة وأملى الكاتب بصورة ما يكتب فخرج الكاتب وكان قد دخل الغروب فأراد القوم الانصراف فوقف الدفتردار وقال: مهلا هاتوا لنا شربات وكان هذا القول هو الإشارة مع صالح المذكور وعثمان كاشف وآخر من بمالك سليمان بك ففتحوا باب خزانة كانت بالمكان الجالسين فيه فخرج منها جماعة على رؤوسهم طرايش وبأيديهم الأسلحة فوقف عند ذلك محمد بك قيطاس على أقدامه مذعورا فأطلق عليه أحدهم طبنجة فى صدره ووقع الضرب وهاج من كان فى المكان وامتلأ المكان بدخان البارود وظلام الليل فلم يعلم القاتل من المقتول وألقى على الترجمان بنفسه من شباك مطل على الجنية وأصاب عثمان بك ذا الفقار ضربة سيف قطعت شاشه وقاوقه فأخذ بيده صالح صاحب هذه الفتنة وأنزله فنجا بنفسه وركب حصان أحد الطوائف وخرج من باب البركة وأصيب مستحفظان البرلى بجراح عظيمة فحملوه إلى بيته ثم أوقدوا الشموع ونظروا إلى الأموات وإذا هم محمد بك قيطاس وعلى بك تابعه وصالح بك وعثمان بك كتحدا القازدغلى وأحمد كتحدا الخربطلى ويوسف كتحدا البركاوى وخليل أفندى وأغات الجميلية وعلى صالح جربجى والأسباهى فكانت عدتهم عشرة غير مستحفظان البرلى الذى مات بجراحه بعد ثلاثة أيام فعروا المقتولين من ثيابهم واحتزوا رؤوسهم وأتوا بهم إلى جامع السلطان حسن فوجدوه مغلقا فأحرقوا الباب الذى جهة سوق السلاح ووضعوا الرؤوس العشرة على الدرج ووضعوا عند كل رأس شيئا من التبن ولما شاع الخبر بما جرى سار صالح كاشف رأس هذه الفتنة إلى باكير باشا ليلا من باب الميدان وأعلمه بما جرى فخلع عليه رتبة الإمارة فطلب منه مالا يفرقه على العسكر المجتمعين إليه فوعده بأن يرسل إليه ما طلب فنزل صالح إلى جامع السلطان حسن فوجد محمد كتحدا الداودية وأتباعه وجماعة آخرين فلبث معهم ينتظر المال وصعد عمر جلبي بن على

بك قيطاس بطائفة من قومه إلى باكير باشا يطلب بثار أبيه وكان وصوله بعد نزول صالح كاشف فخلع عليه الباشا إمارة أبيه قيطاس ورسم له بقتال قاتلى أبيه ومن معهم وكان يود لو أنهم يقطعون بعضهم بعضا فنزل ابن قيطاس وأصحابه وأمامهم يبرق من الحجر خلف جامع المحمودية وبيت الحصري وزاوية الرفاعي وعملوا متاريس على باب الدرب قبالة باب جامع السلطان حسن وجعلوا يطلقون بنادقهم تباعاً على كل من يمر بهم من الخصوم وعلى من هم بجامع السلطان حسن وكذلك من باب العزب وبيت الأغا.

(مطلب)

عزل باكير باشا وولاية مصطفى باشا أميراخور

أما صالح كاشف رأس هذه الفتنة فإنه لبث ينتظر حصول المال للنفقة على الجند فلم يرسل له الباشا شيئاً فخاف وخشى العاقبة ونزل إلى خان الخليلي ومعه رضوان بك وعثمان كاشف ومملوك من عماليك سليمان بك واختفوا وظل ابن قيطاس وأصحابه يوالون الرمي على الجامع حتى انقطعت أصوات بنادق من كانوا به فاقتحم هو وأصحابه باب الجامع فلم يجدوا به أحداً فرجعوا وباتوا ليلتهم خلف المتاريس فلما أصبحوا ذهبوا إلى بيت الدفتردار ونهبوه وبيت رضوان بك ودخلوا على سليمان بك فقتلوه واحتزوا رأسه ونهبوا ما في بيته فلما رأى كبار الوجاقات ما بلغت إليه هذه الفتنة وأنها إنما هي بإيعاز من باكير باشا قاموا على قدم رجل واحد وأحاطوا بالقلعة وأنزلوا باكير باشا ذليلاً مقهوراً وسجنوه وكتبوا إلى دار السلطنة بما وقع وطلبوا إرسال وال آخر فأرسل السلطان الأمير مصطفى باشا أميراخور لضبط أموال من قتلوا في هذه الفتنة فلبث شهرين ثم ورد الأمر بولايته فتولاها فكانت مدة تصرف باكير باشا سنة وبضعة أشهر .

(مطلب)

عزل مصطفى باشا وولاية سليمان باشا الشامي

المعروف بابن العظم

وجعل مصطفى باشا المذكور يتصرف إلى سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف هجرية ثم عزل ولم يقع في أيامه شيء يذكر وتولاها سليمان باشا الشامي المعروف بابن العظم فلما استقر به المنصب عمد إلى إيقاد نار الفتنة ثانية بين أمراء الوقت

وجعل يدبر لذلك فاستمال إليه عمر بك ابن على بك قطامش واختصه لنفسه ثم كاشفه بما فى ضميره واتفق معه على قتل عثمان بك ذى الفقار وإبراهيم بك قطامش وعبد الله كتحدا القزدغلى وعلى كتحدا الجلفى وهم إذ ذاك أصحاب الرئاسة ووعدته إمارة مصر والحاج إن هو أنفذ ذلك فجمع عمر بك أربعة من أخصائه وأطلعهم على ما وقع الاتفاق عليه مع الباشا فتعهد كل واحد بقتل واحد منهم فكان أول من قتل منهم على كتحدا قتله رجل اسمه لاظ إبراهيم عند بيت اتبرى وهو صاعد إلى الديوان وشاع خبر قتله ففرح الباشا بذلك ظنا منه أن قد قضى الأمر فهم بضبط باب العزب وسير لذلك مائتى جندى فمنعهم جند الباب من العبور وطلب متولى الباب اثنين من كبارهم يسألهما عن مرادهم فقالا: إننا آتينا لتشفع لنا عند الباشا فإنه لم يعطنا علائقنا فأرسل معهم من يشفع لهم فلم يفلحوا فى هذه المرة ثم انكشف أمر الباشا وانفضح سره فقام حسين بك الخشاب وصعد إلى باب العزب ومازال يمتوليه حتى أنزله وتولى هو أشغال الباب وجمع إليه جميع أصحابه بالمكان الذى كان فيه الباشا وأرسلوا يقولون له انزل إلى قصر يوسف بك فركب من ساعته وأراد العبور من باب الانكشارية فوجهت أصحاب الباب أفواه البنادق نحوه فعداد ودخل قصر يوسف بك ثم نزل بعد أيام إلى بيت البيرقردار ومازال به حتى سافر إلى الديار الرومية فكانت مدة تصرفه إلى شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف هجرية وكانت أيامه كلها قلائل واضطرابات.

(مطلب)

عزل سليمان باشا وولاية على باشا حلیم أوغلى

وتولى بعده الوزير على باشا حلیم أوغلى وهى الولاية الأولى على مصر فدخل القاهرة فى جمادى الأولى سنة ثلاث وخمسين وأقام إلى عاشر جمادى الأولى سنة أربع وخمسين فكانت أيامه كلها هداً واطمئناناً والفتن فيها راقدة.

(مطلب)

عزل على باشا وولاية يحيى باشا

ثم جاء الأمر بخلعه فنزل من قلعة الجبل وأقام فى بيت القازدغلى ولبت ينتظر الوالى الجديد. فجاء إلى القاهرة يحيى باشا وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد

وصعد إليه على باشا المخلوع فلاقاه وأكرمه ثم نزل هو كذلك فسلم عليه وسرحه فسافر إلى الديار الرومية وأخذ يحيى باشا يتصرف فى الأمور إلى أن جاءه الأمر بالعزل مستهل رجب سنة ست وخمسين ولم يقع فى أيامه شئ يذكر .

(مطلب)

عزل يحيى باشا وولاية محمد باشا اليدكشى

وتولى بعده محمد باشا اليدكشى فلما استقرت به الولاية لم يأت عملاً ما سوى النهى عن تعاطى الدخان فى الشوارع والدكاكين والجلوس على أبواب البيوت وشدد فى ذلك جداً فكان يطوف الأغا والوالى وهما فى التبديل كل يوم ثلاث مرات . وشدداً فى الإنكار والنكال بمن يفعل ذلك وكان الوالى إذا رأى فى يد أحد أنبوبة الدخان عاقبه وربما أطعمه حجر الأنبوبة الذى يوضع فيه الدخان بالنار وكذلك كان يفعل الأغا ولم يأت من أعماله شيئاً غير ما ذكر حتى جاءه الأمر بالعزل سنة ثمان وخمسين فكانت مدة تصرفه نحو ستين ففرح الناس بخلعه فرحاً لا يوصف .

(مطلب)

عزل محمد باشا اليدكشى وولاية محمد راغب باشا

وتولى بعده محمد راغب باشا وحضر إلى الإسكندرية فذهب لملاقاته أصحاب العكاكيز وأرباب الرتب العالية فلما استقرت به الولاية أخذ يدبر الحيلة لقتل من بقى من الأمراء أصحاب الوقت واستمال إليه حسين بك الحشاش واستخلصه ثم كاشفه بما فى نفسه ثم أقسما الأيمان على أن لا يخونا بعضهما وأعلمه أن السلطان محمود إنما يريد قطع دابر بيت القظامشة والدمايطة وهم أصحاب الكلمة يومئذ فأجابه إلى مرغوبه وهون عليه الأمر وأخذ من يومه يدبر الحيلة ويتبين أنفع الوسائل وأحسن الطرق حتى اجتمع بمن يعتمد عليه من أصحابه وأخبرهم بما علمه من الباشا فاتفقوا على قتل كبارهم بالديوان عند صعودهم إليه وتحالفوا على ذلك وأغلظوا فى الأيمان . فلما كان يوم الديوان أخذ الأمراء فى الحضور جماعة بعد جماعة وحضر بينهم خليل بك وعلى بك الدمايطى ومحمد بك وجلسوا فى أماكنهم فبرر شخص اسمه عثمان أغا أغات المتفرقة وجلس بجانب خليل بك وقال: له لماذا لم تدخل

على الباشا وقد مضى عليك أيام ولم تفعل ذلك؟ فقال خليل بك: دعنا فإننا لسنا من يهتم بأمره وقد تركناه لك فأظهر عند ذلك عثمان أغا المذكور الغيظ وصاح في وجه خليل بك وكأنك تهزأ بي وجرّد خنجره في الحال وطعن خليل بك فسقط ميتا لا حراك به وكان بقية المتوأمين مختفين فلما سمعوا الصياح خرجوا جميعا والسيوف بأيديهم مسلولة فضربوا عمر بك بلاط واحتزوا رأسه ورأس خليل بك فهرب من كان بالمجلس ودخلوا بالرأسين على الباشا وهرب على بك الدمياطي ومحمد بك ونزلا إلى نوبة الجاوشية واختفيا فيها فأرسل الباشا يطلبهما وقال: إن السلطان رسم بذلك فاتوا بهما إليه فأمر بهما فقطعت أعناقهما أيضا وعم خبر ماجرى الآفاق فخاف من بقى من الأمراء وتجرّد إبراهيم بك وعمر بك وسليمان بك الألفى للمقاومة فرسم الباشا بقتالهم وأمر العسكر بالتأهب لذلك فاجتمعوا وأخذوا ما لزمهم من آلات الحرب والمدافع والمكاحل وساروا إلى القاهرة ونصبوا بعض مدافعهم على قنطرة سنقر وكان بها بعض أولئك المشاغبين فلم يقووا على القتال مع العسكر وتفرقوا إلى الأقاليم القبلية فدخلت العساكر بيت إبراهيم بك ونهبوه وكذلك نهبوا بيت خليل بك وذهبوا إلى بيت على بك فوجدوا فيه صنجقا قد احتله وامتلكه بما فيه فلم يتعرضوا له وكذلك لم يتعرضوا ليوسف بك ناظر الجامع الأزهر بسوء.

ولم تكّد تحف دماء الذين قتلوا بالديوان حتى طلب الباشا من حسين بك الخشاب أن يعمل على قتل إبراهيم جاويش القازدغلى ورضوان كتخدا الجلفى وأطمعه فى ولاية الأمر والانفراد بالكلمة فتعهد له بذلك وقام لساعته يدبر أمره مع أصحابه الذين عليهم معتمده فاتضح أمره وانكشف سره وعلم إبراهيم جاويش ورضوان كتخدا بالمكيدة فقامت معهما الجند والعسكر وامتلا باب الإنكشارية وباب العزب بطوائف الجند واجتمع أمراء العسكر كافة بسبيل المؤمن والأسباهية بالرميلة وأرسلوا يطلبون من الباشا مرسوما بالركوب على بيت حسين بك الخشاب وقتله فلم يرض وامتنع فبعثوا له طائفة من كبار العسكر يطلبون ذلك فلان أبى أنزلوه من القلعة فامتنع فأنزلوه هو وجميع عياله وأتباعه من قراميدان إلى أن صار بالرميلة فأراد أن ينزل على شيخون إلى بيت حسين بك الخشاب وإذا بالعزب المرابطين فى جامع السلطان حسن أطلقوا عليه البنادق لرده فقتل أحد أتباعه فنزل على بيت آق بردى إلى بيت ذى عرجان تجاه المظفر فأرسلوا إليه إبراهيم بك بقلية صحبة كتخدا

الجاويشية فلم ير بدا من أن يوليه النيابة وعاد إبراهيم بك إلى بيته فأخذوا منه مرسوما بجر المدافع إلى ناحية الصليية وسار أمراء الجند يتقدمهم عمر بك أمير الحاج وآخرون أمثاله واحتاطوا ببيت حسين بك الخشاب وبيت محمد بك أباطة من الجهات الأربع فحاربهم من داخل البيت من الصباح إلى الظهر وكان فى أثناء المناوشة يخرج أمتعته وأمواله وأثقاله وهم لا يشعرون فلما لم يبق فى البيت شىء خرج بمن معه من أصحابه وأتباعه إلى ناحية زين العابدين وسار إلى الإقليم القبلى وكذلك هرب عمر بك ابن على بك فى طائفة من أصحابه إلى أرض الحجاز ودخل العسكر بيت حسين بك الخشاب بعد انقطاع أصوات البنادق والمدافع فلم يجدوا فيه شيئا وكان ذلك فى أواخر سنة إحدى وستين ومائة وألف فعاد كل إلى مقره وسكنت الفتنة قليلا وجعل إبراهيم بك بلفية يتصرف ومحمد راغب باشا محجور عليه إلى أن سافر إلى الديار الرومية فكانت مدة ولايته ستين ونصفا .

(مطلب)

ولاية أحمد باشا كوروزير

وجاء الخبر بولاية الوزير أحمد باشا المشهور بكوروزير ووصل إلى الإسكندرية فنزل إليه الملاقون وأرباب العكاكيز وأصحاب الخدم فدخل القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد فى غرة المحرم افتتاح سنة اثنتين وستين ومائة وألف وعمل الديوان وخلع الخلع على الأمراء والأعيان والمشايع ولكنه لم يتمكن من التصرف إذ كان مغلوبا على أمره والكلمة يومئذ لإبراهيم بك جاويش ورضوان كتخدا وهما صاحبا العقد والحل فأقام فى المنصب إلى عاشر شوال سنة ثلاث وستين ومائة وألف .

(مطلب)

عزل أحمد باشا وولاية عبد الله باشا

وجاء الخبر بعزله وولاية عبد الله باشا فكانت مدة تصرفه سنة وعشرة أشهر وكان عالما مدقفا فاضلا كريما محبا للعلم والعلماء مقربا إليهم وكانت أيامه هادئة

مطمئنة لم يقع فيها شيء من الحوادث والفتن. قال بعض الكتاب : وكان مولما بالرياضيات وعمل عدة منحرفات على ألواح كبيرة من الرخام صناعة وحفرأ وعمل له تاريخا منظوما نقشه عليها وهو :

مزولة متقنة	نظيرها لا يوجد
راسمها حاسبها	هذا الوزير الأمجد
تاريخها أنقنها	وزير مصر أحمد
٥٥٧	٢٢٣ ٣٣٠ ٥٣

سنة ١١٦٣

ونصب من هذه المنحرفات واحدة بالجامع الأزهر فى ركن الصحن على يسار الداخل بالركن فوق رواق معمر وهى لفضل دائر العصر وأخرى بسطح جامع الإمام الشافعى وفيها خيط مسطرة وفضل دائرة وقصى عصر وفضل دائر الغروب وأخرى بمشهد السادات الوفائية وهى بشاخص للظهر والعصر أهـ.

(مطلب)

عزل عبد الله باشا وولاية محمد أمين باشا

وحضر الشريف عبدالله إلى الإسكندرية ونزل أحمد باشا من قلعة الجبل إلى بيت اليرقدار وسافر الملاقون إلى عبدالله باشا فدخل القاهرة فى رمضان سنة أربع وستين فأقام إلى سنة ست وستين. ثم عزل عنها ولم يقع فى أيامه شئ من الحوادث والفتن وولى حلب فتزل إلى القصر بقبة العزب وهاداه الأمراء وسار إلى حلب فتولى بعده محمد أمين باشا فكانت ولايته سنة وبضعة أشهر لا شئ فيها من الحوادث أو الإحن ودخل محمد باشا المذكور القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل وهو مريض فلبث شهرين على فراش الأوجاع ومات فى خامس شهر شوال سنة ست وستين ومائة وألف ودفن بجوار قبة الإمام الشافعى فبقيت مصر بلا وال سنة وخمسة أشهر والكلمة يومئذ لإبراهيم بك ورضوان بك، وفى خلال هذه الحوادث حضر إلى القاهرة من دار السلطنة بطرك الروم ومعه مرسوم سلطانى بمنع نصارى الشوام من الدخول إلى كنائس الفرنجة فإذا دخلها أحدهم عوقبوا جميعا بدفع غرامة قدرها ألف كيس لخرينة السلطنة واستفاض الخبر بذلك بين الشوام ثم أعقب ذلك أن سير إبراهيم كتحدا فى طلب أربعة من قسيسى الفرنجة فجاءوا بهم فحبسهم وأخذ منهم مالا كثيرا ومع ذلك لم تنكف الشوام عن الدخول إلى كنائس الفرنجة فانكشف

الغطاء وبرح الخفاء عن أنها حيلة من بنات أفكار إبراهيم بك لحصوله على المال من قسيبي الفرنجية. واتفق عقب هذا الحادث بقليل أن قصد القبط بمصر الحج إلى بيت المقدس وكان عظيمهم يومئذ المعلم نيروز كاتب رضوان كتحدا فكلم الشيخ عبدالله الشبراوى فى ذلك وقدم له هدية سنية وألف دينار فكتب له فتوى وجوابا يتضمن أن أهل الذمة لا يمنعون من القيام بشعائهم الدينية وزياراتهم فشرعوا فى قضاء أشغالهم ثم خرجوا فى هيئة وأحمال ومواهى وتختروانات فيها النساء والأولاد ونصبوا خيامهم عند قبة العزب وأحضروا العريان ليسيروا فى خفارتهم وشاع أمر خروجهم بعد أيام فاستعظم المسلمون ذلك وأنكروه واتفق ذهاب الشيخ عبدالله الشبراوى إلى حيث الشيخ البكرى: لزيارة أخى البكرى حيث كان مريضا فلما استقر به المكان قال له البكرى متهمكما: ما هذا الحال يا شيخ الإسلام كيف ترضى وتفتى النصارى وتأذن لهم بهذه الفعال هل كان ذلك لأنهم أرشوك وهادوك؟ فقال: إن ذلك لم يكن. قال: بل أرشوك بألف دينار وهدية وعلى ذلك تصير لهم سنة ويخرجون فى العام القابل بأزيد من هذا ويصنعون لهم محملا. ويقال حج النصارى وحج المسلمين وتصير سنة عليك وزرها إلى يوم القيامة قال صاحب عجائب الآثار: فقام الشيخ الشبراوى وخرج من عند البكرى وهو مغتاظ وأذن للعامه فى الخروج عليهم ونهب ما معهم وخرج عليهم كذلك طائفة من مجاورى الأزهر فاجتمعوا عليهم ورجموهم وضربوهم بالعصى والمساوق ونهبوا ما معهم ونهبوا أيضا الكنيسة القريبة من دمرdash. قلت: وهى كنيسة رويس. قال: وانعكس النصارى فى هذه الحادثة عكسة بليغة وراحت عليهم وذهب ما صرفوه وأنفقوه فى الهباء انتهى قوله.

(مطلب)

ولاية مصطفى باشا

وتولى بعد محمد باشا أمين الذى مات كما تقدم القول مصطفى باشا فدخل القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل ثالث عشر ربيع الأول سنة سبع وستين ومائة وألف هجرية واستمر على الولاية إلى أن جاء الأمر بالعزل كما سيذكر فى محله . ورأى السلطان محمود بعد تقرير الصلح مع خصومه شرقا وغربا أن لابد من قيام الروس يوما على دولة السويد وإبتلاعها مضغة لينة ثم لا يمنعها بعيد ذلك مانع من شن الغارة على بلاده وأخذ كل ما يمكن أخذه منها فجعل يتدبر الأمر فحين

له سفير الفرنسيين بدار السلطنة يومئذ تعضيد دولة السويد وعقد محالفة دفاع وهجوم معها ضد الروس وكشف له عما فى ذلك من الفائدة للدولة وكبح جماح الروس ورد كيدهم فوافق السلطان على ذلك وعقد محالفة مع السويد فكانت حدا فاصلا بين الروس وبين مطامعهم السياسية وهذات الاحوال وسكنت الخواطر وتفرغ رجال الدولة للإصلاح داخلا وخارجا ودبر الصدر الاعظم أمور الدولة فأحسن التدبير وأمضى الأحكام وأزال بعض الخلل وما زال الحال فى هدو وسكون حتى مات السلطان فى يوم الجمعة السابع والعشرين من صفر سنة ثمان وستين ومائة وألف هجرية أى سنة أربع وخمسين وسبعمائة وألف ميلادية فكانت سلطته نحو خمس وعشرين سنة. قال بعض أصحاب التاريخ: وهو آخر ملوك بنى عثمان فى حسن السيرة والشهامة والحرمة واستقامة الأمور والمآثر الحسنة وله كثير من المزايا التى خلدت فى بطون التواريخ. وخلفه على سرير الملك السلطان عثمان الثالث ابن السلطان أحمد خان.

ومات فى سلطته يوحنا بطرك الإسكندرية بعد أن أقام اثنتين وأربعين سنة وكان ورعا تقيا عالما فاضلا مسموع الكلمة وهو من بلدة طوخ وكانت أكثر أيامه شدائد وخطوبا متراكمة بعضها فوق بعض كادت بسببها تتعطل شعائر الدين لولا لطف الله فأقيم بعد موته بطرس وهو الرابع بعد المائة واسمه مرجان من رهبان دير انبابولا فأقام سبع سنين ومات ولم يقع فى أيامه من الحوادث شىء يذكر فأقيم بعده يوحنا وهو الخامس بعد المائة واسمه عبد السيد من رهبان انبابولا ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.



(الفصل الثامن عشر)

(فى سلطنة السلطان عثمان الثالث)

(ابن السلطان أحمد خان)

ثم قام بالأمر بعد السلطان محمود السلطان عثمان الثالث ابن السلطان أحمد وقيل ابن مصطفى بويج بالملك فى اليوم الذى مات فيه السلطان محمود فى السابع والعشرين من صفر سنة ثمان وستين ومائة وألف هجرية أى سنة أربع وخمسين

وسبعمائة وألف ميلادية، وجاءت بذلك الأخبار إلى مصر فدقت البشائر ودخل
الأمراء والعلماء والمشايخ على مصطفى باشا الوالى يهتئون .

(مطلب)

عزل مصطفى باشا وولاية على باشا حكيم أوغلى

ثم ورد بعد أيام إلى مصطفى باشا فرمان التثبيت فبقى يتصرف فى الامور إلى
أن جاءه الأمر بالعزل فى أوائل ربيع الأول سنة تسع وستين ومائة وألف فكانت مدة
تصرفه ستين إلا أياماً ولم يقع فيها من الحوادث شئ يذكر وتولى بعده على باشا
حكيم أوغلى الولاية الثانية وقدم إلى الإسكندرية فنزل إليه الملاقون وأرباب
المناصب ثم دخل القاهرة فى يوم الاثنين غرة جمادى الأولى من السنة وجعل
يتصرف فسار فى الرعية سيرة حسنة ودبر أمورهم أحسن تدبير وأسكن الفتن وطمن
القلوب فلم يقع فى أيامه شئ من الخطوب والمحن واستمر على الولاية معززا
محبوبا من الرعية وكان قريب الاعتقاد بالخرافات ميالا إلى الزايرجات وأصحابها
وكان له تعلق بالشيخ على بن تاج الدين محمد بن الحسن بن محمد بن سالم
القلعى الحنفى المكى لغزارة معرفته بهذه العلوم وكان أول اجتماعه به فى الديار
الرومية قيل إنه أخبر على باشا بأمور فوقعت كما قال فازداد عنده مهابة وأنزله فى
منزل بالقرب من جامع أزيك بخط الصليبية وصار يركب فى موكب حافل مثل
موكب الوزير وكان فيه الكرم المفرط والمروءة وسعة الصدر فى إجازة الوافدين مالا
وشعراً ومدحه شعراء عصره بمدائح جليلة جدا وكان على باشا لا يفارقه قيل ولا
يعمل عملاً إلا بإشارة منه فله كثير من المزايا ومع ذلك فقد كان حسن التدبير موفقاً
محبوباً من الرعية .

وسار السلطان عثمان فى الرعية سيرة رديئة للغاية وكثر تحجبه عن الناس
وتحجسه على أحوال الرعية فكان كثير الأخذ بالشبهات ظلوماً غشوماً عسواً فظاً
غليظاً سفاكاً للدماء قيل إنه قتل فى أيام سلطته ستة وزراء فتقلت أيامه على الرعية
وأبغضوه بغضاً كبيراً وابتهلوا إلى الله تعالى وعجوا إليه وظل على هذا الحال من
الجزور والعسف إلى أن مرض واشتدت به علته فمات وجاء الخبر إلى القاهرة خامس
عشر صفر سنة إحدى وسبعين ومائة وألف هجرية أى نحو سنة سبع وخمسين
وسبعمائة وألف ميلادية فكانت مدة سلطته أربع سنوات غير كوامل فخلفه فى الملك
السلطان مصطفى الثالث .

(الفصل التاسع عشر)

(فى سلطنة السلطان مصطفى الثالث)

ابن السلطان أحمد)

ثم قام بالأمر بعد السلطان عثمان السلطان مصطفى الثالث ابن السلطان أحمد ببيع بالملك يوم موت السلطان عثمان خامس عشرى صفر سنة إحدى وسبعين ومائة وألف هجرية أى سنة سبع وخمسين وسبعمائة وألف ميلادية فاستقرت به الخلافة وكان المتولى الصدارة العظمى الوزير محمد راغب باشا فأقره على منصبه وسلم إليه مقاليد جميع الأمور واعتمد عليه فى تدبير مهام الدولة فأحسن التدبير وأحكم السياسة وكان عالماً عاقلاً رزيناً كيساً حازماً محباً لنجاح الأمة فبالغ فى إصلاح الأحوال الداخلية وأحدث كثيراً من النظامات المألوفة ورتب الأمور على ما فيه المصلحة فزهت أيامه وسعدت ثم مات فتبدلت بعد موته الأحوال وتغير مجرى الحوادث وتحركت دولة الروس إلى نكث العهود وتجردت إلى الشر وطلبت كاترينة الثانية قيصرية الروس يومئذ التداخل فى شئون مملكة بولونيا فأقامت ستاسلاس بونيا توسكى ملكاً على بولونيا بدل ملكها الذى مات خلافاً للعهد المتفق عليه بين الروسية والعثمانية. قال أصحاب التاريخ : وقد قصدت كاترينة بذلك العمل بما أوصى به بطرس الأكبر من إزالة الموانع الثلاثة الحائلة بين أملاك الروس وأروبا الغربية وهذه الموانع هى مملكة السويد ومملكة بولونيا والمملكة العثمانية. قالوا وقد تمت إزالة المانع الأول منها بوضع يد الروس على جميع الإيالات السويدية وكاد يتم لها زوال الثانى بتولية ستانلاس عشيق كاترينة ملكاً على بولونيا فلم يبق منها سوى الدولة العثمانية فتنبهت الدولة لذلك وحضت خان القرم على قتال الروس فزحف بخيله ورجله وقتلهم وانتصر عليهم عدة نصرات وخرب الكثير من أملاكهم وسار البرنس جالتسين بعساكر الروس إلى مدينة شوكرزيم فحاصرها وضيق عليها فسير السلطان الصدر الأعظم محمد باشا البرشنجى لنجدتها فى عسكر عظيم فلم يفلح فاستعظم السلطان هذا الأمر وأكبره وسير إلى الصدر المذكور من قتله وأتى برأسه إلى القسطنطينية وانهزمت العساكر السلطانية مرة ثانية عند نهر دينستر بسبب فيضان النهر المذكور عند عبور العساكر السلطانية له فأعمل فيهم الروس القتل والتفريق وتمكن البرنس جالتسين من الدخول إلى شوكرزيم واحتل إيالتى الفلاخ والبغدان.

وكانت المراكب السلطانية فى هذه الأثناء تتجول فى عرض البحار فلاقتها مراكب الروس فى المضيق الواقع ما بين جزيرة ساقص وساحل أسية فاقتتلوا قتالا عنيفا للغاية ثم افترقوا ودخلت المراكب السلطانية مينا جشمه فتبعهم حراقتان من مراكب الروس والتحما بالمراكب السلطانية وألقيا عليها النيران فاشتعل ما بها من البارود واحترقت جميعها فكان المنظر مريعا للغاية والخطب عظيم جدا وطال الأخذ والرد بين الدولتين وطالت أيام الحرب والقتال برا وبحرا ثم تخابر الفريقان فى أمر الصلح فشطت الروسية فى الطلب واشترطت على الدولة شروطا مهينة مزية فأبت الدولة إجابتها إلى ذلك وعاد الفريقان إلى ما كانا عليه من الحرب والقتال فخرجت من يد الدولة مدينة بندر وعدة من جزائر الأرخبيل ودست الروس إلى اليونان والأرنؤد فثاروا وأشهروا الحرب وخرجوا عن طاعة السلطان ونهض أيضا على بك الكبير أحد أصحاب الكلمة بديار مصر يريد الاستقلال بملك مصر والخروج عن طاعة السلطان وقام أيضا أحد مشايخ عربان الشام المسمى ظاهر العمر وتملك بعض مدن الشام وأخذ يتصرف فى أمورها تصرف المالك المطلق حتى اختل نظام المملكة وسقطت كلمة السلطان وذهبت هيئته أو كادت واستخف به على بك واستصغر شأنه وهم بالخروج وشق عصا الطاعة وجعل يتأهب لذلك. وبينما هو على هذا الحال من التأهب والاستعداد إذ ظهر الطاعون بمصر والقاهرة وكان ظهوره عقب أن أمطرت السماء مطرا غزيرا جدا سالت منه السيول وامتألت الأودية واشتد الطاعون شدة بالغة فكثر الموات وصارت الموتى تلقى فى الطرق والحارات لكثرتها وعدم وجود من يدفنها وكثرت الجيف واجتمعت حولها الكلاب تنهشها وطالت أيام الرباء فسمته العامة (قارب شiche الذى يأخذ المليح والمليحة) واهتم الأمراء عند ذلك بدفن الموتى وأعملوا الجهد حتى خف الموت فى أواخر رمضان من السنة ولكنه لم يرتفع تماما إلا فى أوائل سنة اثنتين وسبعين.

(مطلب)

عزل على باشا حكيم أوغلى وولاية محمد باشا سعيد

وجاءت الأخبار عقب ذلك بعزل على باشا حكيم أوغلى وتولية محمد باشا سعيد فدخل القاهرة فى أواخر رجب سنة إحدى وسبعين وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد فلم يكن لقدمه رونق ولا بهجة بأسباب الطاعون واشتغال الناس بدفن موتاهم ولم يكن لولايته أثر يذكر عند على بك الكبير إذ كانت الكلمة

والرياسة يومئذ له لا سيما بعد موت حسين بك القزداغلى على ما تقدم لك بيانه وكان لما أن بسط يده على جميع الأمور وقبض على زمام الأحكام ودانت له الرغائب استقدم أصحابه الذين كانوا مبعدين وولاهم المناصب العالية فانتسعت من ذلك الحين كلمته وبعدت شهرته ولكنه كان فى شاغل من جانب عبدالرحمن بك كتخدا المتولى مشيخة البلد فكان لا ينكف عن أعمال الحيلة فى قتله ولا تفر له همة حتى اتفق مع بعض أعوانه على أن يقتلوه بعد قيامه هو بركب الحاج إلى المدينة وأن يولوا بعد قتله على مشيخة البلد خليل بك الدفتردار وبقي الأمر مكتوما بينهم حتى قام بركب الحاج فجعل أصحابه يعملون على قتل عبد الرحمن بك فأحس عبد الرحمن بك بالمكيدة واستكشف السر وعلم بخفى أمرهم فأسرع هو إلى عمل الحيلة والتدبير فى تبعيدهم وأغرى بهم على بك بلاط فتمكن من تبعيد خليل جاويش المعروف بحبيضان مصلى وأحمد جاويش إلى الأقطار الحجازية وحسن كتخدا الشعراوى وسليمان بك الشابورى إلى فارسكور فتمزق جمعهم وتفرقت كلمتهم . فلما نزل على بك بالعقبة وهو راجع بالحاج علم بما جرى لأصحابه فكتمه وأمر الجند بعمل بعض الأشكال الخريبة ليوهم الناس أن الذى جاءه من القاهرة أخيره بخبر يسره ثم سار بركب الحاج إلى قلعة نخل فانحاز إلى القلعة وسلم الحاج والمحمل إلى بعض أمرائه وركب فى خاصته وسار إلى غزة ولبث بها زهاء ثلاثة أشهر وكاتب دار السلطنة وشى لها فى حق الكثير من الأمراء بالديار المصرية وبالحق فى الوقيعه بهم فجعل رجال الدولة يوعدهونه ويعلمون منه الآمال بنيل أغراضه ومازالوا حتى استصفوا ما معه من مال ومتاع ولم يتم له أمر فعاد إلى القاهرة بوساطة صهره فلما دخل القاهرة لم يبق بها سوى ثمانية أيام ومات كمدا وقيل بل أطعمه بعض أصحابه سما فاطمأنت القلوب بموته فقد كان داهية قرما عنيدا كثيرا الصبر عظيم الجلد .

(مطلب)

عزل محمد باشا وولاية مصطفى باشا

الصدر الأعظم وعزله أيضا وولاية أحمد باشا سبيلان

وجاءت الأخبار من دار السلطنة بعزل محمد باشا عن الولاية وتعيين مصطفى باشا الصدر الأعظم بدله فدخل القاهرة فى أواخر السنة وأقام يتصرف فى الأمور إلى سنة أربع وسبعين ومائة وألف هجرية ثم نزل إلى القبة متوجها إلى جدة ليقوم بها

ولم يقع فى أيامه شىء يذكر وحضر بدله أحمد باشا كامل المعروف بسيلان ودخل القاهرة فى أواخر سنة أربع وسبعين فلما استقرت به الولاية صار يشدد فى الأحكام وينزل فى كل يوم لمعرفة أخبار الناس وأحوالهم ويكشف على أرزاق الأمراء ومصادر أموال الخزينة السلطانية وغير ذلك وكان شهما شديد العناد فخافه الأمراء وخشوا عاقبة أعماله فاجتمعوا وتشاوروا فى أمره فاتحدت كلمتهم على خلعه وصاروا يراقبون الفرص حتى دبروا أمرهم وركبوا عليه يوما فخلعوه وكان مصطفى باشا الوالى المعزول لم يزل بالقاهرة يتأهب للسفر إلى جدة فساروا إليه وأصعدوه إلى قلعة الجبل وسلموه زمام الأمور وشكوا إلى دار السلطنة ما وقع وسيروا بشكواهم الشيخ عبدالباسط السنديونى.

(مطلب)

عزل أحمد باشا كامل وولاية بكير باشا وموته وولاية حسن باشا

فلما وصلت شكواهم إلى صدر الدولة وهو يومئذ محمد راغب باشا سير أحمد باشا المذكور إلى ولاية كاندية وسير مصطفى باشا إلى ولاية حلب ووجه بكير باشا والى حلب واليا على مصر فحضر إلى القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل فلم يتصرف إلا زهاء شهرين ومات مبطونا سنة خمس وسبعين ومائة وألف ودفن بالقرافة فجاءت الأخبار بولاية حسن باشا وقدم إلى القاهرة فى أواخر سنة ست وسبعين فكان محجورا عليه لا كلمة له والأمر يومئذ لعللى بك بلاط فإنه بعد موت على بك الكبير وتشريد كبار عصابته كما سبق ظهر شأن على بك بلاط وارتفعت كلمته فجمع أصحابه وأعظام المناصب العالية وسلمهم زمام الأمور كغيره من الأمراء الذين تقبل عليهم الرياسة مسرعة وشاع ذكره ونما صيته فلما رأى عبدالرحمن بك كتخدا الذى هو ابن أستاذ على بك بلاط ما ناله على بك من الشهرة ورفعة القدر انطوى على ممالأته ومال إلى مصادقته ليقوى به على أرباب الرياسة وكل منهما يريد تمام الأمر لنفسه وجعل على بك من هذا الحين يمهد الأمور ويذل العقبات ثم استكثر من شراء الممالك وبدأ فى مصادرة الناس وأعمل الحيلة على أخذ الأموال من أصحاب البيوتات والأعيان لأقل سبب. وكان يخشى جانب بعض من بيدهم الرياسة مثل عبد الرحمن كتخدا ابن أستاذه وعلى كتخدا الخربطلى وعمر جاويش الداورية ورضوان جرجى الرزاز وغيرهم فلما استتب قدمه فى المنصب

وتمكن وقوى جأشه ركب يوما فى مماليكه وأتباعه وهجم بهم على أبواب القلعة وأجلوا عنها من كانوا بها من أصحاب وأتباع من ذكروا فامتلكوها واحتل قومه بها فخاف الأمراء عند ذلك وانكمشوا فلم يمكنهم من عمل شيء وقبض فى الحال على عبد الرحمن كتحدا وأبعده إلى الأقطار الحجازية وأبعد باقيهم جميعا إلى الأقاليم البحرية فأخاف الناس خروج عبدالرحمن بيبك كتحدا إلى منفاه فإنه كان ذا هبة ووقار وحرمة كبيرة وقد ارتفعت به كلمة الإنكشارية وظهروا على طائفة العزب وكان له عز وأبهة وممالك وأتباع وجند وغير ذلك من الأخلاط حتى ظن الناس وقوع فتنة عظيمة فى ذلك اليوم فلم يحصل شيء من ذلك سوى ما نزل بالناس من الدهشة والتعجب وأبعد بعد ذلك صالح بيبك إلى مدينة غزة فلم يقم بها إلا أياما حتى أرسل إليه بعض الجنود فحملته من غزة إلى رشيد فبقى فيها ثم رتب له ما ينفعه بحسب الحاجة فلبث برشيد مدة فلما جاء الخبر بعزل حسن باشا والى وتعيين حمزة باشا بدله أرسل على بيبك جماعة من أتباعه ليحملوا صالح بيبك المذكور من رشيد إلى دمياط كى لا يجتمع بحمزة باشا إذا حضر إلى رشيد فوصلت إلى صالح بيبك الأخبار بقيام أولئك الأتباع فأسرع وركب فى نفر قليل وأسرى ليلا إلى جهة البحيرة فأقام بها ما شاء الله ثم ذهب من خلف جبل الفيوم إلى الأقاليم القبلية فوصل إلى منية ابن خصيب فأقام بها واجتمع عليه خلق كثير ممن شردهم على بيبك بلاط فابتنى له أبنية وعمل متاريس ومحال للدفاع وكان له معرفة وصداقة مع شيخ عربان تلك النواحي وطوائف الهوارة وسكان أكثر البلاد الجارية فى أقطاعاته فاجتمع عليه الكثير منهم وقدموا إليه التقدام والذخيرة وما يحتاج إليه وتترس فى منية ابن خصيب وهو آمن مما يخشى فلم يجسر على بيبك على قتاله ولم يناوشه الحرب خوفا من اتساع الخرق واستفحال الخطب .

(مطلب)

عزل حسن باشا وولاية حمزة باشا

ودخل حمزة باشا الجديد القاهرة فى أخريات سنة تسع وسبعين ومائة وألف هجرية وصعد إلى قلعة الجبل فنزل حسين باشا قاصدا السفر فكانت ولاية حسين باشا المذكور نحو ثلاث سنين . ولما استقر بحمزة باشا المنصب وأخذ يتصرف فى الأمور بقدر الاستطاعة شكوا إليه أمر صالح بيبك وتترسه فى منية ابن خصيب وإضراره بالناس ومنعه لورود الغلال وأموال الخزينة السلطانية وبالفوضى الشكوى

وعظموا فى البلوى فرسم بقتاله فبعثوا له طائفة من الجنود مع أحد الأمراء المدعو حسين بيك كشكش وولوه أيضا الإمارة على إقليم جرجا وسافر معه عدة أمراء آخر فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا شديدا فانهزم صالح بك وهرب إلى شرقى أولاد يحيى فأقام حسين بيك كشكش بالمنية أياما يتأهب للمسير إلى جرجا مركز إمارته فبينما هو على أهبة الرحيل إذ ورد عليه مرسوم من على بيك بلاط بالتباعد إلى جهة قد عينها له فكاد حسين بيك يتميز غيظا وركب من فورهِ فى مماليكه وأتباعه وأمرائه وحضر إلى القاهرة فوصلها ليلا فوجد الباب الموصل إلى قناطر السباع مغلقا فطرقه فلم يفتحوا له فكسره ودخل بمن معه وذهب إلى بيته وبقي الأمر بينه وبين على بيك بلاط على المسألة أياما. واتفق لحظ على بيك بلاط أن حسين بيك المذكور طلب فى غضون هذه الأيام من عبدالله الحكيم طبيب الأمراء أن يصنع له معجونا صالحا للباء فأخبر الطبيب بذلك على بيك بلاط فأمره بأن يدس له فيه سما ففعل وذهب به إلى حسين بيك وبالع لهُ فى فوائده فقال له: لا بأس به ولكنى أحب أن تأكل أنت منه أولا فتلجج الطبيب واضطرب فأمر به حسين بك فقتلوه بين يديه وعلم أنها من عزيمة على بيك بلاط فتأكدت بينهما الوحشة وأضمر كل منهما لصاحبه سوء وتوافق على بيك مع أصحابه على الغدر بحسين بيك أو إخراجه فوافقوه ظاهرا واشتغل حسين بيك أيضا بإخراج على بيك أو الغدر به وجمع إلى كلمته كثيرا من قومه فلما كان ذات يوم ركب وركبوا ومعهم المدافع والبنادق وساروا إلى بيت على بيك فصوبوا أفواه المدافع نحوه، فأرسل على بيك لأصحابه يستجدهم فلم يأتَهُ أحد وخذلوه فشق عليه الأمر واستعظمه جدا وأرسل إلى أصحاب حسين بيك يسألهم عن مرادهم فحضر إليه منهم من يأمره بالركوب والخروج من الديار حالا فقام لساعته وركب وخرج من بيته فسلموه إلى من يوصله إلى متفاه بالديار الشامية ومعه مماليكه وأتباعه وكان ذلك فى أواخر رمضان سنة تسع وسبعين فأنزلوه بالعادية ثلاثة أيام حتى حاسبوه وحاسبوا أتباعه على ما هو عليهم وهم محاطون بالجند والسلاح والمدافع حتى فرغوا واستخلصوا ما بقى وسافروا إلى غزة، وكانت العادة فيمن ينفى من الأمراء بديار مصر أنه إذا خرج من الديار لم يخلوا سبيله حتى يستصفوا ما عليه وسار صحبة على بيك المذكور جميع أصحابه وكبار قومه وعزلوا من لم يسافر منهم من منصبه. وما كادت تستقر الأمور وتسكن الفتنة حتى جاء الخبر برجوع صالح بيك من شرق أولاد يحيى إلى منية ابن خصيب واستقراره فيها وتحصينها فجيشوا لقتاله جيشا عظيما فبرز بعضه إلى جهة البساتين وبينما هم على هذا الحال من

تجيش الجيوش وإعداد آلات الحرب والاشتغال بأمر القتال مع صالح بيك إذ رجع على بيك بلاط وأصحابه من غزة فلم يشعر أحد برجوعهم ودخلوا القاهرة ليلا ونزل على بيك بيت حسين بيك كشكش ونزل باقى من كانوا معه فى بيوت آخر فلما علم حسين بيك بقدمه على هذه الصورة جمع إليه أصحابه بجهة الآثار المعروفة بأثر النبى وشاورهم فى الأمر فاختلفت كلمتهم وتباينت أغراضهم فمنهم من أشار بتبعيده إلى جدة ومن أشار بقتله ومن أشار بغير ذلك ثم عادوا فاتفقوا على أن يرسلوه إلى جدة وأرسلوا إليه من يلزمه بالخروج والسفر فقال لا أخرج أبدا من بيت سيدى إلا إذا كان إلى الجهة البحرية فرضوا بذلك واتفقوا على أن يعطوه النوسات أقطاعا وأن يذهب إليها فرضى وذهب إلى النوسات وأقام بها وأرسلوا أصحابه والذين كانوا معه إلى أسبوط وجهاتها وكان بها خليل بيك الأسبوطى فتعرفوا به وتقربوا إليه وصادقوه فأعانهم ومدّ لهم يد المساعدة فتيسرت أمورهم وراجت أحوالهم ولبثوا هناك ما شاء الله .

وعاد حسين بيك بعد تبعيد على بيك وأصحابه إلى تدبير أمر الجيش وإرساله لقتال صالح بيك كما تقدم القول فسار إلى منية ابن خصيب والتقى الجمعان واقتلا فانهمزت العساكر وانفثلت فأرسلوا له جيشا آخر وأميره حسن بيك جوجو وكان حسن بيك المذكور ميالا فى الباطن إلى خذلة حسين بيك وأصحابه فلم يقاتل إلا بالأمر الخفيف ورجع بالعسكر كأنه مهزوم مذعور فأرسلوا جيشا آخر فكانت الحرب بينهم سجالا ثم رجعوا فلم يروا بدا من مصالحة صالح بيك فخابروه فى الصلح واستقرت القاعدة بينهم على أنه يذهب بمن معه إلى جرجا فتكون له التزاما ويقم بها بشرط أن يدفع الأموال ويرسل الغلال فى حينها ويقوم بجميع المطالبات وكان ذلك فى شهر جمادى الأولى سنة ثمانين ومائة وألف . أما على بيك بلاط فإنه لم يمض عليه بالنوسات إلا القليل من الأيام حتى تخيلوا أن حسن بيك الأذربكاوى يرأسه ويطلعه على عوراتهم فقاموا عليه فى ثانى شعبان من السنة وقتلوه بقصر العينى ورسموا بنفى أصحابه إلى الأقاليم البحرية وخشوا عاقبة بقاء على بيك بلاط بالنوسات فأرسلوا إليه خليل بك المعروف بالسكران فحمله إلى مدينة السويس لسييره إلى جدة من القلزم وأنزله بإحدى السفن وسلمه إلى ربانها فكانت الريح غير صالحة فبقيت السفينة تنتظر اعتدال الريح فرجع خليل بك إلى القاهرة .

وجاءت أيام عيد الإفطار فركب الأمراء فى ثانى يوم شوال إلى قرانيدان ليهنئوا حمزة باشا بالعيد وكان معتاد الرسوم فى مثل هذه الأعياد والمواسم أن كبار الأمراء

يركبون بعد الفجر من يوم العيد وكذلك أرباب العكاكيز فيصعدون إلى قلعة الجبل ويسرون أمام الباشا على الأقدام من باب السراى إلى جامع الناصر بن قلاوون فيصلون صلاة العيد ويرجعون كذلك ثم يقبلون طرف ثيابه وينزلون إلى بيوتهم فيهنئ بعضهم بعضا على رسمهم واصطلاحهم وينزل الباشا ثانياً يوم إلى كشك بقراميدان وقد هيئت مجالسه بالفرش والمساند والستور والطنافس واستعد فرأشوا الباشا بالقهوة وأطباق الحلوى والقماقم والمباخر ورتبوا جميع الاحتياجات واللوازم من الليل واصطفت الخدم والجاويشية والسعاة والملازمون وجلس الباشا بذلك الكشك وحضرت أرباب العكاكيز والخدم قبل كل أحد ثم يأتى الدفتردار وأمير الحاج والأمراء والصنائق والاختيارية وكتخدا الإنكشارية والعزب أصحاب الوقت والمقادم والأودة باشية والجربجية ويعيدون عليه بالترتيب على قدر مراتبهم ثم ينصرفون. فلما حضروا فى ذلك اليوم وهتوا الباشا وخرجوا إلى دهليز القصر يريدون الانصراف إلى بيوتهم برز لهم طائفة من الجند وسيوفهم بأيديهم مسلولة وآخرون يحملون البنادق واندفعوا عليهم وأطلقوا البنادق وأعملوا فيهم السيوف فأصيب عثمان بيك الجرجاوى بضربة سيف فى وجهه وأصيب حسين بيك كشكش بطلق نارى فى خاصرته وجرح كثير من جراحا بليغة فعند ذلك ارتفعت الأصوات وعلت الجلبة وصاح الأمراء بماليكهم وأتباعهم لنجدتهم فاقتحموا الدهليز والسيوف بأيديهم وحالوا بينهم وبين المتوأمين حتى تسلقوا من حائط البستان وركبوا خيولهم وهم لا يصدقون بالنجاة وأركبوا عثمان بيك وهو يصيح إلى باب العزب وقد قطع السيف وجهه وفمه فذهبوا به إلى باب العزب وأنزلوه فلم يلبث إلا هنيهة ومات فحملوه إلى بيته وجهزوه ودفنوه ولم يمت ممن جرحوا أحد غيره وباتوا على ذلك وأصبحوا فاجتمعوا وصعدوا إلى الأبواب وأرسلوا إلى حمزة باشا يأمرونه بالنزول من القلعة على عجل فتزل من ساعته إلى بيت أحمد بيك كشك بقوصون ومر بباب العزب فوقف له حسين بيك كشكش وسبه سباً فاحشاً وخاطبه ببذى القول وفحش الكلام فلم يجبه بشيء ثم رتبوا أمورهم وسلموا بعض الوظائف المهمة لمن يعتمدون عليه واستكشفوا خفى هذه الحادثة فتيبنوا أنها كانت بإغراء من حمزة باشا وقيل بل هى خليقة على بيك بلاط فإنه ما برح منذ تبعيده إلى النوسات يرأسل حسن بيك جوجو ويكاتبه سرا ومازالا على هذا الحال حتى تم التدبير لحسن بيك واستحضر طائفة من الجلفية وأطلعهم على ما فى نفسه فوافقوه فأخفاهم فى بيته أياما كثيرة وقد دبروا أن يكون إيقاعهم بالأمراء فى أول يوم العيد وذهبوا إلى

الكشك بقراميدان فى ذلك اليوم وكانوا نحو الأربعين فاختلفت عندئذ كلمتهم وانتقضوا ثم عادوا فاتفقوا على أن يتمو الأمر فى ثانى يوم بدهليز بيت القاضى وتفارقوا على ذلك وقد اتحلت رابطتهم إلا أربعة فإنهم ثبتوا على هذا الاتفاق وساروا فى ثانى يوم إلى الدهليز وضربوا من صادفوه بالسيوف والبنادق، وبطل من هذا اليوم أمر العيد من قراميدان وتهدم القصر وخرب وكذلك البستان وذهبت نضارته وبعد وقوع هذا الحادث سيروا من يستكشف خبر على بيك بلاط وهل أقبلت به السفينة إلى جدة فوجدوه بالسويس فردّوه وأركبوه مع أتباعه ومالكيه إلى القاهرة ومروا به من طريق الجبل وذهبوا إلى جهة شرق إطفيح ثم إلى أسيوط . فلما استقر به المقام اجتمع عليه المبعدون كافة وطوائف الهوارة وأخلاق آخر كثيرة فراسل صالح بيك بمنية ابن خصيب يريد الانضمام إليه بمن معه من هؤلاء الأخلاق فلم يرص صالح بيك ونفر منه فجعل يخادعه ويسايره وأرسل إليه خليل بيك الخربطلى أحد المبعدين يكلمه فى ذلك ومازال به حتى جنح لطلبه واجتمع به بكفالة شيخ العرب همام وتحالفا وتعاقدا وتعاهدا على الكتاب والسيف وكتبت بذلك حجة وكان العهد بينهما أنه إذا تم لهما الأمر أخذ صالح بيك الأقاليم القبلية بتمامها قيد حياته وأرسلوا بما وقع الاتفاق عليه إلى شيخ العرب همام قيل فسر بذلك ورضى به إرضاء لصالح بيك وأمدّهما بالعطايا والمال والرجال واجتمع عليهم جميع المتشردين من الغز والأجناد والهوارة والأبطال فصار لهم جيش عظيم فساروا إلى منية ابن خصيب وكان بها خليل بيك السكران عاملا فلما علم بقدمهم رحل عنها وجاء القاهرة هاربا فاستقر على بيك بلاط وصالح بيك ومن معهما بالمنية وبنوا حولها الأسوار والأبراج وركبوا عليها المدافع وقطعوا الطرق على المسافرين بروا وبحرا وأرسل على بيك بلاط إلى ذى الفقار بيك وكان مبعدا بالمنصورة ومعه جماعة من الكشاف يستقدمه إلى المنية بمن معه فارتحل من المنصورة ليلا إلى المنية فلما وردت الأخبار إلى القاهرة بما فعله على بيك وصالح بيك وأنهما فى عدة عظيمة جدا خافوا شرهما وخشوا عاقبة فعلهما فاجتمعوا جميعا وبينهم الشيخ الحفناوى شيخ الوقت يومئذ وتشاوروا فى الأمر وطال بينهم الأخذ والرد ثم اتفقوا على أن يرسلوا لهما عسكريا لقتالهما فقام الشيخ الحفناوى وخطأ رأيهم واستنقصه وأطال الكلام على ما أصبحت فيه البلاد من الضنك والاضمحلال بأسباب توالى الفتن وتعاقب الحروب والمحن وقال : ماذا عليكم لو أرجعتم على بيك وصالحتموه فيأتى ويقيم فى بيته آمنا مطمئنا؟ فقالوا إن لم نذهب لقتاله أتى هو لقتالنا بخيله ورجله

قال: لا تأتوا شيئا حتى آكأته ويأتى منه الجواب وقام وكتب له يوينه ويزجره تارة وينصحه أخرى وينهاه عن فعل ما لا تحمد عاقبته ويعث إليه بالخطاب فلم يلبث الشيخ بعد ذلك إلا أياما ومرض ورمى بالدم ومات فشاع يومئذ أنهم أعطوه سما لينالوا أغراضهم من قتال على ييك وصالح ييك.

(مطلب)

عزل حمزة باشا وولاية محمد باشا راقم

ووردت فى هذه الأثناء الأخبار بعزل حمزة باشا وهو فى سجنه لا كلمة له كما تقدم القول وتولية محمد باشا راقم فقام إليه الملاقون ودخل القاهرة فى غرة ربيع الثانى سنة إحدى وثمانين ومائة وألف هجرية فسافر حمزة باشا إلى بلاد الروم فكان لبثه بمصر ستين وشهرا .

وعاد الأمراء بعد دخول محمد راقم باشا إلى جمع الجموع وتجهيز معدات القتال للحمل على على ييك بلاط وصالح ييك وكلموا محمد باشا فى أمرهما وأعلموه بأسباب خروجهما وموؤهوا عليه الحال وأخذوا منه مرسوما بالقتال وسيروا حسين ييك كشكش ومعه عسكر جرار فطلب حسين ييك النفقة فلم يجدوا فى الخزينة شيئا من الأموال فجعلوا يصادرون التجار ويستصفون أموالهم وطلبوا أمراء البهار المعروفين بالتواخيد وألزمهم بدفع مال البهار معجلا فادعوا الإعمار فهددوهم وأخذوا جميع ما عندهم من مال ومتاع ثم سار حسين ييك بعسكره والتقى الفريقان بناحية يياضة تجاه بنى سويف فاقتلا قتالا عنيفا فانهمزمت عساكر حسين ييك شر هزيمة وانفشلوا وقتل كثير من أمراء العسكر ورجع المهزمون إلى القاهرة يوم السبت سابع عشرى الشهر وهم فى أسوأ حال، وأصبح يوم الأحد فطلعوا إلى أبواب القلعة وطلبوا من الباشا مرسوما بإعادة القتال وبأخذ مائتى كيس من مال الخزينة السلطانية نفقة للجند فامتنع الباشا من ذلك فراجعوه فلم يرض، وبينما هم ينازعونه فى ذلك إذ جاء يوم الاثنين الخبير بوصول على ييك وصالح ييك ومن معهما إلى ناحية غمازة وكان حسن ييك جوجو ومن معه من الأمراء نازلين بخيامهم جهة البساتين فارتحلوا ليلا وهربوا وانزعج خليل ييك وحسين ييك ومن معهما من الجند والعسكر وتحققوا أن لا قبل لهم بقتال على ييك بلاط وأن لا بد من زوال دولتهم. وأرسل الباشا إلى أصحاب الوجاقات بملازمة كل وجاق لبابه فوصل على ييك وأصحابه إلى البساتين فلم يروا فيها أحدا وتسلل خليل ييك وحسين ييك وأصحابهما وطلعوا إلى

الأبواب فوجدوها مقفلة فرجعوا إلى قراميدان وأقاموا بها ساعة ثم رجعوا على أعقابهم وقد خرج الكثير فى تلك الليلة من الأمراء هارين إلى حيث على بيك وصالح بيك وفى مقدمتهم حسن بيك جوجو ومن انضم إليه من الأمراء والأجناد وهرب خليل بيك شيخ البلد يومئذ وجميع أتباعه وأعوانه ومماليكه وحسين بيك كشكش وأتباعه وأعوانه وكانوا عدة كبيرة. وأصبح يوم الخميس فخرج الأعيان وغيرهم للملافة على بيك وصالح بيك ومن جاء معهما من الأمراء فدخلوا القاهرة فى ذلك اليوم ومعهما جميع الذين كانوا مبعدين ولبثا إلى يوم الأحد ثم طلعا ومعهما باقى الأمراء المبعدين والذين تخلفوا عن الذاهين إلى الديوان بقلعة الجبل فخلع الباشا على على بيك خلعة الرضا وقرره شيخا للبلد وخلع على صناعقه خلع الاستمرار أيضا فى إماراتهم واستقر المنصب بعلى بيك فى إمارة مصر ورياستها وظهر نبه وعلت كلمته حتى ساعدته الأقدار وملك الديار المصرية والأقطار الحجازية والبلاد الشامية كما سيأتى بيان هذا كله فى محله إن شاء الله تعالى .

وتأقت نفسه ﴿ إن النفس لأماراة بالسوء ﴾ إلى الانتقام من بعض الأمراء وأعيان البلد وتبعيدهم فرأى أن لا قبل له بذلك خوفا من حسن بيك جوجو وأنه مادام حيا لا يصفو له الحال فأخذ من هذا الحين يدبر على قتله وأطلع بعض خواصه على ما فى سره فهوّنوا له الأمر وتعهدوا له بالعمل فلما كانت ليلة الثلاثاء ثامن رجب سنة إحدى وثمانين ومائة وألف حضر حسن بيك جوجو ومعه آخر اسمه على بيك جن وآخر اسمه محمد بيك أبو الذهب وأيوب بيك إلى بيت على بيك بلاط لزيارته فلبثوا عنده برهة من الليل يتحادثون ثم قام حسن بيك ومعه على بيك جن وركبا ومعهما الأمراء المذكورون ونفر من أصحاب على بيك يسايرونهم وهم المتكفلون بالقتل فلما صاروا فى الطريق التى عند بيت الشابورى خلف جامع قوصون جردوا سيوفهم وطعنوا حسن بيك فقتلوه وقتلوا معه على جن وتركوهما ورجعوا فأخبروا على بيك بلاط بما جرى فسرّ سرورا عظيما وبات وأصبح على بيك المذكور مالكا لجميع الأبواب لا راد لكلمته ولا يد فوق يده فلما صفا له الوقت ودانت له الأمور أبعد كثيرا من الأمراء والأعيان والوجهاء وشردهم فى الأقاليم القبلية والبحرية وضيق على كل من كان يتوسم فيه سمة الإنكار فخافه الناس وهابه الأمراء وعمت شهرته واتسعت صولته وجعل يتصرف فى الأمور كما يشاء. وبينما هو على هذا الحال من تتبع الخصوم وقطع دابر المخالفين إذ جاءه الخبر برجوع حسين بيك كشكش وخليل بيك من جهة غزة وهما فى جموع كثيرة للغاية وأخلاط من الجند والعسكر

يريدون القتال والزحف على الديار المصرية فأكبر هذا الأمر جدا وجيش لقتالهم جيشا ضخما للغاية فى البر والبحر واجتمع الفريقان عند الديرس والجراح من بلاد المنصورة وكان حسين بيك كشكش وأصحابه قد عرجوا أولا إلى دمياط فنهبوا وسلبوا شيئا كثيرا ثم حضروا إلى المنصورة ففعلوا كذلك فلما التقى الجيشان واقتلا انهزم أصحاب على بيك بلاط وانفشلوا وولوا راجعين وقتل منهم عدة كبيرة من الأمراء والجاويفية ولم يزلوا فى هزيمتهم إلى أن وصلوا دجوة فلما جاء الخبر بذلك اهتم له على بيك ونزل الباشا من قلعة الجبل وخرج إلى قبة باب النصر خارج القاهرة وجمع أمراء العسكر كافة والعلماء وأرباب السجاجيد ورسم أن كل من كان من الجند وأصحاب الوجاقات يبادر بالتأهب للخروج أو يخرج بدلا عنه واحدا واهتم كذلك على بيك بجمع العسكر وإعداد معدات الحرب فجمع جيشا عظيما وسلم لواءه إلى محمد بيك أبى الذهب فصار أبو الذهب من فوره والتقى بمن بقى من العساكر المتشردين فضمهم إلى عسكره وسار بهم فى طلب حسين بيك وخليل بيك وكانا قد نزلا بإقليم الغربية وساروا سيرا حثيثا يريدون القاهرة ليدخلوها فلاقتهم جيوش أبى الذهب بمدينة طتدا وهم معسكرون فيها فأحاط أبو الذهب وعسكره بالمدينة من كل جانب فوقع الحرب بين الفريقين ولم يزل القتال قائما حتى فرغ ما عندهم من الذخيرة وقلت الأزواد فأرسلوا إلى أبى الذهب يطلبون الأمان فامتنهم وبطل القتال وكاتبهم أبو الذهب وخادعهم وتعهد لهم باسترضاء على بيك فانخدعوا وانحلت عزائمهم وتفرقت كلمتهم وباتوا ليلتهم تلك على بساط الطمان . فلما كان ثانى يوم أرسل أبو الذهب إلى حسين بيك كشكش يستدعيه إلى معسكره ليتكلم معه فى أمر الصلح فصار إليه وليس معه سوى خليل بيك السكران أحد أتباعه فلما وصلا ودخلا مجلسه لم يجدها فجلسا برهة لطيفة ينتظرانه وإذا بجماعة من العسكر قد دخلت عليهما وضربتهما بالسيوف حتى ماتا وجاء فى أثرهما حسن بيك شبكة ولم يعلم بما جرى لأستاذه حسين بيك فلما اقترب من العسكر داخله الخوف وشعر برجفة فأراد الرجوع فعاقه رجل سائس اسمه مرزوق وضربه بنبوت فوقع إلى الأرض فلحقه أحد الجند واحتز رأسه . وجاء الخبر إلى خليل بيك الكبير ومن معه بما جرى على حسين بيك وأتباعه فخافوا خوفا عظيما وذهبوا إلى ضريح السيد أحمد البدوى والتجئوا إلى قبره وأيقنوا أنهم لاحقون بإخوانهم وأرسل أبو الذهب إلى على بيك بلاط يستشير به فى أمر خليل بيك ومن معه فرسم بتبعيده إلى الإسكندرية فقبض عليه وبعث به إليها فلم يلبث بها إلا أياما وقتلوه خنقا ورجع

أبو الذهب ومن معه ودخلوا المدينة من باب النصر فى موكب عظيم وأمامهم رؤوس القتلى محمولة فى صوان من الفضة والخدم أمامهم يقولون « صلوا على محمد » وكانت عدة تلك الرؤوس ستا وهى رأس حسين بيك و خليل بيك السكران وحسن بيك شبكة وحمزة بيك وإسماعيل بيك أبو مدفع وسليمان أغا الوالى وكان دخولهم على هذه الصورة فى يوم الجمعة سابع عشرى المحرم افتتاح سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف هجرية .

واشتد على بيك بلاط على ما بقى من الأمراء المخالفين وأبعد منهم عدة كثيرة إلى الصعيد الأعلى وأخرى إلى الأقطار الحجازية وقبض على أولاد سعد خادم ضريح السيد أحمد البدوى وصادرهم وأخذ أموالهم وكانت كثيرة وأبعدهم عن طنطا وأرسل آخر بدلهم اسمه الحاج حسن عبد المعطى وشرع فى بناء الجامع والقبة والسيل والقيصرية العظيمة وأبطل عنها مظالم أولاد الخادم والحمل والنشالين والخرامية والصيادين وضمان المومسات وغير ذلك من أنواع المغارم التى كانت مفروضة عليها وبلغ على بيك شهرة عظيمة وكبر اسمه فى دار السلطنة العثمانية فأرسل إليه السلطان هدية قفطانا وسيفا صحبة رسول مخصوص بمرسوم سلطاني فتقاطر الأمراء لتهنئته ونزل الباشا إلى بيته وتزاحمت على بابهِ أقدام المهنيين فداخل صالح بيك من ذلك بعض الحسد وأأس منه على بيك بعض الوحشة فأصر له على بيك السوء وعزم أن يجعل به قبل أن تستحفل الوحشة فيعجل هو به وكاشف بعض رجاله على ما يريده بصالح بيك فهون عليه الأمر وتعهد له بالعمل فلما جاء صالح بيك إلى بيت على بيك ليهته بهدية السلطان وقفل راجعا إلى بيته ركب معه محمد بيك تابع على بيك وآخرون من الأمراء أتباع على بيك وساروا فى ركابه وخلفهم بعض الجند والأتباع فلما صاروا فى مضيق الطريق عند المفارق بسويقة عصفور تأخر محمد بيك ومن معه قليلا عن صالح بيك وصاح محمد بيك بخادمه ونهره وسبه وجرد سيفه بسرعة غريبة كأنه يريد قتله وطعن به صالح بيك فاخترط بقية من كانوا معه سيوفه وضربوه فسقط عن جواده إلى الأرض ميتا وتركوه وصعدوا من قورهم إلى قلعة الجبل فلما استقر بهم المقام أخذتهم نشوة الظفر بصالح بيك فجعلوا يتحدثون فى أمر قتله وما فعله كل منهم وعابوا أحدهم أحمد بيك بشناق حيث لم يسرع فى إخراج سيفه وأحجم عن الطعن والضرب كما فعلوا هم فقال: إنى ضربته كما فعلتم فكذبوه وقالوا: أرنا سيفك إن كنت صادقا فلم يفعل وخاف أن يخبروا على بيك بلاط بما وقع منه فيقتله ثم انصرفوا وبات هو ليلته يدبر أمر

الخلاصه فلم ير له سيلا غير الفرار إلى أرض الله الواسعة وأصبح فأخبر زوجته بما عزم عليه وشدد عليها أن لا تخبر بخبره أحدا حتى يصل إلى الإسكندرية ثم قام وتزيا بزى المغاربة وسار من ساعته وجدّ في السير من ناحية شلقان فأنت السعاة وأخبرت على بيك بخبره فرسم لحاكم الإسكندرية بالقبض عليه فلم يتمكن من ذلك حيث كان قد نزل بإحدى السفن القاصدة بلاد الروم وكان من أمره بعد ذلك ما كان مما سيذكر في حينه وأحمد بيك هذا هو أحمد باشا الجزار الشهير الذي ملك عكا وتولى الشام وإمارة الحاج الشامي وطار صيته في الممالك شرقا وغربا فساء على بيك فراره وخشى عاقبة أمره.

واتسعت كلمة على بيك وكبرت هيئته فسقطت حرمة محمد باشا الوالي في جانب حزمته وذهب اعتباره وصار مغلوبا على أمره ليس له من الولاية سوى الاسم فخاف على نفسه وأخذ يدبر على قتل على بيك وأعمل في ذلك جهده وكاشف كتحذاه عبدالله بيك بما في خاطره فلم يكتف سره بل أعلم على بيك به وكشف عما ينويه له محمد باشا فلما علم على بيك بذلك أصبح فملك الأبواب والرميلة وحوالى قلعة الجبل والمحجر وأرسل إلى الباشا يلزمه بالنزول من القلعة فتزل من باب الميدان إلى بيت أحمد بيك كشك ولبت فيه محجورا عليه تخفزه العسكر وتولى على بيك النيابة وجعل يتصرف فكثرت مصادرتة للناس في أموالهم ومتاعهم بلا فرق ولا تمييز فكانت هذه السنة السيئة من مبتكراته في يوم نشأت ثم صارت سنة لمن يأتي بعده، وتافت نفسه بعيد ذلك إلى الولاية على الشام أيضا فعمل على ذلك وهيا هدية نفيسة للغاية وخيولا مصرية جيادا وبعث بها إلى السلطان وبعض رجال الدولة وكتب يشتكى من عثمان بيك ابن العظم والى الشام ويطلب من دار السلطنة عزله لقبوله المنفيين من أمراء مصر وانضمامهم إليه والأخذ بقولهم في جميع أعماله وبالغ في الشكوى واستفاض الخبر بذلك في القاهرة ومصر وعلم محمد باشا الوالي به فكان يتحزن ويتوجع ولا قبل له على عمل شيء ومازال على هذا الحال من المحجر والضيق حتى مات في المحرم افتتاح سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف هجرية بقصر عبدالرحمن كتحذا بشاطئ النيل حيث كان مسجوناً لم يخرج منه منذ أنزل من قلعة الجبل وقيل كان موته مسموماً فدفن بالقراة الصغرى عند مدفن الباشاوات بالقرب من الإمام الشافعى ولم يحتفلوا بجنارته .

واجتمع الأمراء المبعدون إلى الأقاليم القبلية على اختلاف درجاتهم بشيخ العرب همام لعله يعاونهم على العود إلى ديارهم فأشار عليهم بالتفرغ إلى أسبوط

وأخذها عنوة وأن يقيموا بها ولم يسمح لهم بالمقام عنده خوفا من على بيك بلاط ووفاء بما بينهما من العهد فارتحلوا جميعا من عنده وترفعوا نحو أسيوط وكانوا عدة كبيرة واجتمع عليهم أيضا طوائف الهوارة وأخلاط من الناس ممن لا شغل لهم وكان بمدينة أسيوط فى هذا الحين من قبل على بيك بلاط عبد الرحمن كاشف وذو الفقار كاشف وقد رموا أسوار البلد وحصنها تحصينا عظيما فلما وصلوا إليها ووجدوها على هذه الحال من المنعة والتحصين جعلوا يتلصصون إلى أن اتصل قوم منهم فى جنح الليل ببوابة البلد ومعهم خرق ملوثة بالقار والكبريت والزيت وأوقدوا فيها النيران فاشتعل الباب فهجموا على المدينة هجمة رجل واحد فلم يكن لهم بهم طاقة لكثرتهم وملكوا أسيوط وتحصنوا بها وهرب من كان فيها من العساكر والكشاف وجاءت الأخبار بذلك إلى على بيك فهاله الأمر واستعظمه وجيش لهم جيشا عظيما وسيره مع إبراهيم بيك بليقية ومحمد بيك أبو شنب وعلى بيك الطنطاوى وبالغ فى إرسال الذخيرة والميرة وغيرها فلما صاروا على مقربة من أسيوط خيموا عند جزيرة منقباط وعلم من بأسيوط بحضورهم فخافوا وتشاوروا فى الأمر فانفتحت كلمتهم على أن يركبوا ليلا ويدهموا عسكر على بيك فركبوا فى ساعة معلومة بينهم وسار بهم الدليل فى طوق الجبل فضل بهم وأسرى وإياهم حتى تجاوزوا المكان المقصود بنحو الساعتين فخافوا وعلموا فوات الوقت وأن القوم متى علموا بخروجهم ملكوا المدينة من غير مانع قبل رجوعهم فما وسعهم إلا الذهاب إلى المعسكر ومصادمتهم على أى حال كان فلم يصلوهم إلا بعد طلوع الشمس وتيقظ القوم واستعدوا لهم والتطموا معهم وهم قليلون فوق القتال واشتد الجلال ويذلوا جهدهم فى الطعن والضرب وبرز رجل منهم يريد محمد بيك أبو شنب فبرز له محمد بيك وهو يقول: لبيك ها أنا ها أنا فقصدته جماعة منهم وقتلوه وقتلهم حتى قتل وحمى الوطيس وكثر الصياح وارتفع الغبار وانكشف عن هزيمة أهل الثورة ونصرة أصحاب على بيك وكانت هذه الواقعة الهائلة عند جبانة مدينة أسيوط فتمزقوا وتفرقوا أيدي سبأ ثم عاد من بقى وانضم إلى كبار الهوارة وملك أصحاب على بيك مدينة أسيوط واحتلوها ولبثوا بها أياما ثم ترفعوا لقتال شيخ العرب همام وكبار الهوارة ومن انضم إليهم من المهزومين فاتحد كبار الهوارة مع الأمراء المهزومين واستعدوا للقاء عسكر على بيك فراسل محمد بك إسماعيل أبو عبد الله ابن عم همام واستماله ومنه ووعد برياسة الصعيد عوضا عن عمه همام إن هو ختل قومه وتخلّى عن القتال معهم ومازال به حتى ركن لقوله وصدق تمويهاته وتشاقل عن

القتال وخذل قومه ومن كان معهم من الأمراء فانفشلوا وتمزقوا كل ممزق وخاف شيخ العرب همام شر العاقبة فارتحل عن فرشوط وانحدر على بعد ثلاثة أيام منها ثم مرض أياما قلائل ثم مات كمدا وحزنا على ماجرى وسار محمد بيك بالجند إلى فرشوط فدخلها من غير ممانع ونهب ما فيها وأخذوا جميع ما كان بدور همام وأقاربه وأتباعه من ذخائر وأموال وغلال فزالت دولة همام المذكور من الأقاليم القبلية من ذلك الحين ثم سار محمد بيك بعد ذلك من فرشوط يريد القاهرة فحضر إليه درويش ولد همام بعد موت أبيه مستجيرا فأحضره معه إلى القاهرة فلبث بها أياما حتى رضى عنه على بيك وأعادته إلى فرشوط تحت عهود عاهدها له قبل السفر، أما محمد بيك أبو الذهب فإنه لم يلبث بالقاهرة إلا أياما قلائل بعد عوده ظافرا منصورا حتى وقعت بينه وبين أستاذه على بيك وحشة فخرج منها مغضبا إلى الأقاليم القبلية ولحق بدرويش بن همام وأقام عنده فخلت البلاد شرقا وغربا لعلى بيك وعماليكه واستتبت كلمته وعمت الآفاق شهرته وتفرغ لقطع شأفة المنفيين فى الثغور كدمايط ورشيد والإسكندرية والمنصورة وغيرها ووكل جماعة من قومه بذلك فكانوا يذهبون إلى تلك الجهات واحدة فواحدة فيقيمون بها أياما ويقتلون من بها من أولئك المبعدين خنقا ثم ينتقلون لغيرها حتى أفنوهم ولم يبقوا منهم أحدا وخاف الناس على بيك خوفا عظيما فاتفق أنه دخل يصى يوما بجماع الداودية فعصد خطيب الجامع وخطب ثم دعا للسلطان ولعلى بيك بالنصر والتأييد فلما انقضت الصلاة وقام على بيك يريد الانصراف استدعى الخطيب وقال له: من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر أقيل لك أنى سلطان؟ وكان الخطيب يغلب عليه البله فقال: نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك فأظهر على بيك الغيظ وأمر به فضربوه بالعصى وتركوه فركب حمارا لشدة ما أصابه من الضرب وسار إلى بيته وهو يصيح فى الطريق «بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ» وأكثر من الصياح على هذا الحال فتبعه العامة إلى أن دخل بيته فلما علم على بيك بذلك خاف العاقبة فأرسل إلى الشيخ كسوة سنية وبعض دنائير واستعطفه لما وقع منه .

(مطلب)

ولاية محمد باشا الأورفلى ثم عزله وولاية الوزير أحمد باشا

وبعد أيام جاء الخبر بولاية الوزير محمد باشا الأورفلى بدلا من محمد باشا راقم الذى مات كما تقدم القول فحضر على البر فى أبهة وكبكية عظيمة وقصد إلى قلعة الجبل وذلك فى آواخر سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف هجرية وجعل يتصرف

بقدر الاستطاعة إلى سنة ثلاث وثمانين ثم عزل وتولى بعده الوزير أحمد باشا فاتى من الأقطار الحجازية إلى السويس بالقلازم ودخل القاهرة فى موكب حافل وهو متوعك ولم يصعد قلعة الجبل وسكن بدرب الحجر أشهراً ثم اشتد به مرضه فمات فى السنة المذكورة .

واشتدت رغبة على بيك بلاط فى الغزو وفتح المدن والأمصار لاسيما الديار الشامية والحجاز وقد تقدم القول أنه كتب إلى دار السلطنة يشتكى من ابن العظم ويرميه بالسوء فكانت رسله لا تنكف عن استطلاع أخبار الشام والحجاز وكان يتمنى لو أن الله يسر له فتحهما فبينما هو على هذا الحال بين الرجاء والتمنى واستطلاع أخبار تلك الأصقاع إذ قدم إلى القاهرة فى المحرم افتتاح سنة أربع وثمانين ومائة وألف هجرية الشريف عبدالله من أشرف مكة وكان من أمره أنه وقع بينه وبين ابن عمه الشريف أحمد أخى الشريف مساعد منازعة فى إمارة مكة بعد وفاة الشريف مساعد فتغلب على الشريف أحمد واستقل بالإمارة وخرج الشريف عبدالله هارباً إلى دار السلطنة مستنجدا فرسم السلطان إلى على بيك بلاط بمساعدته وإعادة الإمارة إليه كما كانت فأنزله على بيك منزلاً رحباً وأكرم وفادته وفرح فرحاً عظيماً ورتب له المرتبات من مأكول ومشروب وأمر بتجهيز الذخائر ومعدات الحرب وملاً بيوت الأمراء الذين قتلوا بالذخيرة وآلات القتال والمؤن واستعرض أصناف العسكر من ترك ومغاربة وشوام ومتاوله ودروز وحضارمة ويمانية وسودان وجيشان ودلاة وغير ذلك وأرسل معهم طوائف فى المقدمات وأنزل المشاة منهم إلى القلازم فى السفن وسار بقية الجند فى صفر من السنة بعد دخول الحاج فى تجمёл رائد وكبكية عظيمة ومعهم محمد بيك أبوالذهب وبعض كبار الأمراء وسار معهم الشريف عبدالله وقد دعه على بيك وطيب نفسه فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالاً عنيفاً على الينبع فانتصر المصريون على العرب نصرة مؤزره وهزمهم شر هزيمة وقتلوا خلقاً كثيراً من الأشراف وقتلوا والى الينبع العامل عليها من قبل الشريف ثم سار محمد بيك بعسكره حتى اقتربوا من سواد مكة فخرج عليهم قوم الشريف أحمد وأصحابه فقاتلهم وانتصر عليهم ودخل مكة عنوة فخرج الشريف منها هارباً فأباحها ثلاثة أيام فنهبوا ما فيها ونهبوا بيت الشريف وبيوت أصحابه وأخذوا شيئاً كثيراً للغاية من متاع وأموال وجواهر وحلى ونفائس وغير ذلك وأجلس الشريف عبدالله فى منصب إمارة مكة وولى حسين بيك أحد الأمراء المصريين على ولاية جدة عوضاً عن واليها من قبل الدولة وأقام أبو الذهب أياماً بمكة حتى استتب قدم الشريف عبدالله ثم سار

بعسكره يريد القاهرة ووصلت الأخبار بذلك فخرج للملاقاة الملاقون بالعقبة، فلما جاء الخبر بوصوله إليها خرج الأمراء إلى بركة الحاج والدار الحمراء لانتظاره فدخل في أوائل شهر رجب من السنة وقدم القاهرة في ثامنه في موكب عظيم للغاية وأتى إليه العلماء وأعيان البلاد وقصده الشعراء بالقصائد والتهاني فعلت شهرة على بيك بالآقطار الحجازية وطار صيته في الآفاق، ولما تكامل ورود عسكره من غزوة الحجاز عزم على أن يوجه بهم لغزو الشام فبدأ بأن أرسل يمهّد الطرق أمامهم وكان بغزة شيخ لعربانها اسمه طيط طاغية شديد المراس وكان يكره على بيك ويتمنى خذلانه وزوال دولته فسير إليه على بيك رجلا من أعوانه اسمه عبدالرحمن أغا ورسم له بقتله فسار إلى غزة في نفر من الجند ولم يزل يتحيل حتى ظفر به وقتله هو وإخوته وأولاده وقد كان عقبة كبرى في طريق الشام ثم استكثر على بيك من جمع طوائف الجند وإعداد معدات القتال والمؤن والذخائر وجيش جيشا ضخما وسلمه إلى إسماعيل بيك ومعه عدّة من الأمراء فبرزوا إلى العاذلية بالآلات والأحمال والخيام وأقاموا بها أياماً ثم ارتحلوا إلى الشام وسار خلفهم جيش آخر بحرا ومقدمه سليمان بيك والتقى الجمعان فقامت الحرب على ساقها بين الطرفين واشتدت وحمل طيسها فتابع على بيك إرسال المدد من جند وسلاح ومؤن وذخيرة في البر والبحر وحتى نفذ ما عنده والطلب متواصل فعمد إلى مصادرة الناس وأخذ أموالهم بأرذل الطرق وأخس الوسائل وفرض على القرى أموالا وقرر على كل طائفة مائة ريال وثلاثة ريال حق الطريق فضج الناس وتعطلت أسباب الرزق وهاجر البعض وطلب من قبط مصر مائة ألف ريال ومن يهودها أربعين ألفا وضيق وشدد وهدد وبالع في الوعيد فأخذها جميعها.

وسير بعد ذلك جيشا آخر كامل العدد والعدد إلى يافا فحاصرها وضيق عليها ومازال منع الواصل إليها متابعا حتى فتحت وأخذت عنوة ثم ركبوا على باقى المدن والقرى وقاتلوا من بها من النواب والولاة وهزموهم ففروا من وجوههم واستولى المصريون على جميع الديار الشامية إلى حلب وطار صيت على بيك وملا الآفاق فدخله الغرور وتاقت نفسه إلى الغزو والفتوح فأرسل إلى محمد بيك أبى الذهب يأمره بتولية الأمراء الذين معه المناصب والولايات على البلاد التى ملكوها وأن يستمر على الغزو والفتوح ويتجاوز الحدود ويستولى على كل ما يصادفه من الممالك والبلدان إلى حيث شاء الله وهو يتابع إرسال المدد إليه من مال ورجال فجمع أبو الذهب من معه من الأمراء والأقران وكبار الجند وشاورهم فى الأمر أخبرهم بما

يريده على بيك فاختلفت كلمتهم وتفرقت أغراضهم وطال الجدل بينهم ثم اتفقوا على الرجوع بجميع العسكر إلى مصر وتحالفوا على أن يكونوا على قلب رجل واحد وساروا من يومهم فجاءوا القاهرة في رجب من السنة ودخلوها على خلاف ما رسم. به على بيك فساء فعلهم واستعظمه جدا وبقي الأمر على السكوت أياما ثم تكلم على بيك مع أبي الذهب في أمر رجوعه إلى الديار الشامية لفتح كل ما تيسر له فتحه من مدنها وأمصارها وشدد عليه في ذلك فأظهر محمد بيك عين السخط وعدم الرضا وعارض في الأمر كثيرا فصمم على بيك وقال لابد من السفر فبدأت بينهما الوحشة باطنا من هذا الحين وأخذت في الازدياد. يوما عن يوم وجعل كل يراقب الفرص ويتبين وجه الانتفاع بها، فلما كانت ليلة الرابع من شوال من السنة دس على بيك بلاط إلى على بيك الطنطاوى وآخرين معه أن يقتالوا محمد بيك أبو الذهب ويقتلوه على كل حال فركبوا عليه في تلك الليلة وأحاطوا بداره ووقفت العساكر بأسلحتها في الطريق فلما أحس محمد بيك بحضورهم ركب من فوره وخرج من بينهم راكبا والسيف بيده وخلفه خواصه وبعض الأتباع وذهب إلى البساتين ثم ارتحل منها إلى الصعيد وعلم من بالأقاليم القبلية من الأمراء المبعدين بحضوره على هذا الحال فساروا إليه وقدموا له ما عندهم من مال ورجال وقدم له أيوب بيك أحد رفاقه هدايا من خيل وأقمشة وخيام وغيرها وقد وضع محمد بيك المذكور بالطريق عيونا وأرصادا لتأتى له بأخبار القادمين عليه من مصر فأحضروا له يوما رجلا يحمل مكاتبة من على بيك بلاط إلى أيوب بيك يأمره بها ويستحثه على سرعة قتل أبي الذهب على أى حال كان ويعدده بإمارته وبلاده وغير ذلك فلما قرأ المكاتبة أكرم الرجل وناولته إياها وقال له: اذهب واتنى بجوابه ولك عند غاية الإكرام فذهب الرجل وغاب ثم عاد بالجواب وناولته إلى محمد بيك فقرأه فإذا هو يذكر فيه أنه باذل ما في الوسع وهو يراقب الفرص لينتهزها فتحقق محمد بيك خبث طوية أيوب بيك فجمع إليه خاصته وأمرائه وأعلمهم بالخبر وأمرهم بالاستعداد والتأهب وأنه إذا حضر أيوب بك إليه أخذ الأمراء نظراءهم من قوم أيوب بيك وتحفظوا عليهم، فلما حضر إليه أيوب بيك جلس معه في خلوة فقال له أبو الذهب: بدا لى أن أسألك هل نحن مقيمون على الإخاء والمصافاة والصداقة والعهد الذى تعاهدنا عليه بالشام؟ قال نعم وزيادة قال: ومن نكث وخان اليمين ونقض العهد؟ قال يقطع لسانه الذى حلف به ويمينه التى وضعها على المصحف فقال له: بلغنى أنه أتاك كتاب من عند أستاذنا على بيك فقال لا. فقال لعل ذلك صحيح

وقد كتبت له الجواب أيضا قال لم يكن ذلك أبدا. ولو أتاني منه خطاب لأطلعك عليه ولا يصح أن أكتمه عنك أو أرد له جوابا فأخرج واستحضر له ذلك الرسول فسقط في يده وأخذ يتنصل ببارد العذر فقال له أبو الذهب لا يصح أن تكون من رفاقي فقم واذهب إلى أستاذك. واهباً به فلما خرج قبضوا عليه وأنزلوه إلى مركب وأحاطوا بوطاقه وأسبابه فتفرقت عنه جموعه ثم أمر محمد بك أحد رجاله فذهبوا وقطعوا يده ثم وضعوا صنارة في لسانه. وجذبوه ليقطعوه كما حكم هو بذلك فأفلت منهم ورمى بنفسه إلى الماء فغرق ومات فأخرجوه وغسلوه ودفنوه.

ولما فاض الخبر بما وقع لأيووب بك تحقق الناس استفحال الوحشة بين أبي الذهب وأستاذه على بك وأقبل الأمراء والأجناد المنفيون إليه ودخلوا تحت لوائه واجتمع إليه جميع أتباع القاسمية والهواره الذين شردهم على بك وسلب نعمتهم فأكرمهم وأنعم عليهم وواساهم وقلدهم الخدم والمناصب فتقيدوا بخدمته وبذلوا جهدهم في طاعته وأخلصوا له النية، فلما وردت الأخبار بذلك إلى القاهرة نزل بعلى بك بلاط من القهر والغيط المكظوم ما لا يوصف وجعل يجيش الجيوش ويعد المعدات وسير إسماعيل بك. أحد أتباعه بجيش عظيم في البر والبحر وذلك في أواخر ذى القعدة من السنة فلما التقى الجمعان لم يقع بينهما من القتال إلا شيء خفيف جدا ثم انضم إسماعيل بك بأكثر جنده إلى جند محمد بك وصاروا جميعا على قلب رجل واحد فاشتد الأمر بعلى بك ولاحت عليه لوائح الغم وكاد يموت قهرا وغما وعاد إلى جمع العساكر والإكثار من السلاح ومعدات الحرب وسير سبعة من الصناجق. قال أحد الكتاب: وكلهم مزلقون أى مترفهون متنعمون وضم إلى كل منهم عساكر وطوائف وماليك وأتباعا وبرز بنفسه إلى جهة البساتين ورسم بعمل المتاريس من النيل إلى طريق الجبل ووضع عليها المدافع وسارت العساكر ومعها على بك الطنطاوى وبقية الأمراء فى منتصف المحرم افتتاح سنة ست وثمانين ومائة وألف فالتقى الجمعان فى الطريق حيث كان أبو الذهب وقومه منحدرين إلى القاهرة واقتتلا عند بياضة أمام بنى سويف ووقعت بينهما مقتلة عظيمة انجلت عن هزيمة عسكر على بك فساق أبو الذهب خلفهم بأصحابه وهم يمانعون عن أنفسهم حتى عبروا النيل ووصلوا إلى دير الطين وكان على بك بلاط مقيما به فلما رأى أصحابه مقبلين على هذا الحال من الهزيمة والفشل اشتد قهره وتحير فى أمره ولكنه أظهر التجلد وأمر بالاستعداد وترتيب المدافع وأقام إلى الغروب على هذا الحال وقد تفرقت عنه عساكره من المغاربة وغيرهم ووصل محمد بك إلى شاطئ النيل المقابل لدير

الطين ونصب صيوانه وخيامه تجاه صيوان وخيام على بيك فنظر إليها على بيك وقلبه يحترق بنار الغيظ ثم ركب عند الغروب ودخل من باب القراقفة وطلع إلى باب العزب فلبث برهة من الليل ثم نزل إلى بيته وقد عقد النية على الفرار فحمل أحماله وأمواله وعياله وخرج سائرا إلى الشام وذلك فى ليلة خامس عشرى المحرم افتتاح سنة ست وثمانين وسار منه على بيك الطنطاوى وجميع صناعقه وماليكه وأتباعه وطوائفه، وأصبح يوم الخميس سادس عشرينه فعلم محمد بيك أبوالذهب بخروج على بيك ومن معه فعبر محمد بيك النيل إلى الجانب الشرقى وأمر فأوقدوا النار فى دير الطين ودمروه تدميراً بعد نهبه ثم دخل المدينة بلا ممانع ونادى أصحاب الشرطة على أتباع على بيك بلاط بأن لا يؤويهم أحد فكانت مدة غيبة محمد بك عن مصر سبعين يوماً، فلما استقر به المنصب أرسل فقتل عبدالله كتخدا الباشا ونادى بإبطال السكة التى كان ضربها على بيك باسمه وكانت قروشاً وأنصاف قروش وكلها من النحاس قد صنعها المعلم رزق أحد قبط مصر وجعل يتصرف فى الأمور وينظر فى مصالح البلاد ويعطى المناصب ويفرق الوظائف وغير ذلك، وبينما هو على هذا الحال من النقض والإبرام إذ جاء الخبر بخروج على بيك بلاط من الشام فى جيش عظيم يريد قتال محمد بيك فتهياً محمد بيك للقائه وبرز بخيامه جهة العادلية ونصب صيوانه فأقام يومين حتى تكامل خروج العسكر وجاء الخبر بوصول على بيك بجنوده إلى الصالحية فارتحل محمد بيك فى خامس صفر سنة سبع وثمانين ومائة وألف هجرية فى جيش عظيم للغاية فالتقى بالصالحية واقتتلا قتالاً عنيفاً جدا فكانت الدائرة على على بيك وأصحابه وأصابته جراحة فى وجهه فسقط عن جواده فاحتاطوا به وحملوه إلى مخيم محمد بيك فخرج إليه محمد بيك وتلقاه بأحسن لقاء وقبل يده وأخذ بيده حتى أجلسه بصيوانه وجلس بين يديه وكان القتلى فى هذه الموقعة كثيرين للغاية وقد قتل بينهم على بيك الطنطاوى وسليمان كتخدا وعمر جاويز وغيرهم من كبار جند على بيك بلاط وكانت هذه الموقعة فى يوم الجمعة ثامن شهر صفر من السنة ثم قفل محمد بيك راجعاً بعسكره إلى القاهرة ومعه أستاذة على بيك بلاط وأنزله فى بيته الكائن بالأزبكية بدرب عبدالحق وحضر الأطباء لعلاجهم فلم يلبث إلا سبعة أيام ومات. قيل: إنه سم فى جراحته ودفن عند أسلافه بالقراقفة وزال دولته العظيمة. قال أصحاب الأخبار: كان شهماً شجاعاً مقداماً فى الحروب داهية طاغية شديد البطش صعب المراس ثابت الجنان سريع الخاطر والانتقام فخلا الجو لمحمد بيك أبى الذهب واتسعت من هذا الحين شهرته وعلت كلمته واستتبت قدمه فى منصب الرياسة أو كادت.

(مطلب)

ولاية الوزير خليل باشا

وجاء الخبر بعد هذا الحادث بقليل بولاية الوزير خليل باشا على ديار مصر فدخل القاهرة فى تاسع عشر ربيع من سنة سبع وثمانين^(١) وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل للغاية وكان وصوله من طريق دمياط فجلس فى ثانى يوم للناس فدخل عليه أرباب الديوان وأصحاب الوظائف فخلع عليهم الخلع المعتادة وجعل يتصرف فى الأمور كما سيذكر مفصلا فى محله .

قال بعض أهل التاريخ: واشتدت رغبة السلطان مصطفى فى ردّ ما أخذه المحاربون من المدن والأمصار وجيش لذلك جيشا عظيما وعزم على الخروج به إلى الدانوب فلم يتمكن لمرض أصابه ولازم الفراش فاشتدت به علته فلما أحس بقرب أجله استدعى إليه أخاه عبد الحميد وأوصاه بولده سليم وكان قاصرا ثم مات فى سنة سبع وثمانين ومائة وألف هجرية أى سنة أربع وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية فكانت مدة تصرفه ست عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة وكانت له عناية ومعرفة تامة بالعلوم الرياضية محبا لأهل العلم وله مؤلفات فى الرياضة تعرف باسمه وكان شهما حازما مهيا أعماله مشهورة للغاية .

ومات فى أيامه يوحنا بطرك الإسكندرية بعد أن أقام ثمان عشرة سنة واشتد فى أيامه على بيك بلاط على النصارى شدة عظيمة وضيق عليهم جدا وضاد الكثير منهم ثم ضرب عليهم غرامة قدرها مائة ألف ريال كما تقدم القول فانثب أعوانه لجمعها وقد عاثوا وأفسدوا وفعلوا ما لا خير فيه وبيعت بسبب هذه الغرامة الجواهر والأحجار الكريمة بأبخس الأثمان وبموته أقيم بعده مرقس السادس بعد المائة وهو من رهبان دير انبا بولا واسمه سمعان من بلدة قلو صنا وكان فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله .

ولما مات السلطان مصطفى تولى الملك بعده أخوه السلطان عبد الحميد ابن السلطان أحمد .

(١) لم أجد فيما راجعته من مذكرات أصحاب التاريخ التي جمعت منها هذا المؤلف اسما لمن تولى مصر من الباشاوات بعد الوزير أحمد باشا الذي قدم من الحجاز فى سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف هجرية إلى ولاية خليل باشا هذا التى هى سنة سبع وثمانين فصارت المدة الخالية زهاء خمس سنين والله أعلم .
أ. هـ مؤلفه .

(الفصل العشرون)

(فى سلطنة السلطان عبدالحميد ابن السلطان أحمد)

ثم قام بالأمر بعد السلطان مصطفى أخوه السلطان عبدالحميد ابن السلطان أحمد ببيع له بالملك يوم موت أخيه سنة ثمان وثمانين ومائة وألف هجرية أى سنة أربع وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية وله من العمر يومئذ خمسون سنة أمضى منها أربعاً وأربعين فى السجن محجوراً عليه لا يجتمع عليه إلا بعض الغلمان والأتباع ولا يدرى من أحوال الدنيا شيئاً فلم تكن فيه الأهلية لسياسة البلاد ولا القدرة على تدبير أمور المملكة فى ذلك الحين وقد كانت الأخطار تهددها من كل جانب بسبب الحروب القائمة عليها من الداخل والخارج وكان السلطان مصطفى قبل موته قد جيش جيشاً عظيماً للزحف به على الروس واسترداد ما أخذ من أملاكه فاخرتمته المنية قبل ذلك كما تقدم فلما تولى السلطنة السلطان عبدالحميد أمر بإنفاذ جيش السلطان مصطفى وبالحجج جداً فى تنظيمه وأعد له كل ما يحتاجه من ذخيرة وميرة وأسلحة وكراع وكان زهاء أربعمائة ألف وسلم لواءه إلى الصدر الأعظم فساروا والتقوا بجيوش الروس واقتتلوا فذب الفشل فى العساكر العثمانية وانحصروا فى مدينة شوملة لسوء تدبير الصدر الأعظم وفساد رأيه فحاصروهم الروس وضيقوا عليهم جداً وكادوا يقتلونهم عن بكرة أبيهم فرأى الصدر أن يرأسل قائد العساكر الروسية فى طلب الصلح فوافقه القائد على ذلك إذ كان كل من الطرفين يرى أن لا قبل له على إطالة زمن الحرب فعقدوا مجلساً فى مدينة بكرش وحرر المرخص العثماني عهداً وأرسل صورته إلى دار السلطنة وكان محصل ما فى العهد المذكور إعطاء الحرية التامة للتتار وبقاء قلعة بكرش ويكى قلعة فى يد الروس وحرية سير السفن الروسية التجارية فى البحرين الأبيض والأسود فرضيت دولة الروس بشروط هذا العهد وتمسكت بها لاسيما ما جاء فيها من إعطاء التتار حرية فقد كان ذلك ما تمناه وتسعى فى الحصول عليه وبناء على ذلك تساهلت هى أيضاً للدولة العثمانية فى كثير من الأمور ولكنها كانت طفيفة فى جانب ما نالته هى. ولما شاع خبر هذا الصلح فى دار السلطنة هاج الناس وماجوا وخشى أكابر الدولة شر العقابة وأنكروا قبول منح الحرية للقرىم وسير السفن فى البحرين وقالوا: الحرب والنار ولا هذا العار. قال بعض كتاب الأخبار: وكان قصد الروس من منح الحرية للتتار إنما هو إيقاد نار الفتنة فى القرىم وبث روح التعصب والفساد كما فعلوا فى لهستان من قبل

فإذا تم لهم ذلك سهل عليهم الاستيلاء عليها كما استولوا على إيالتى قران واردرهان قال: ولم يمنعهم من العمل للمستقبل ما هو واقع من الخلل والارتباك الداخلى وعدم استقامة الاحوال فإنه لما أخذت قيصرتهم كاترينة فى إدخال أولاد الناس فى صفوف الجند وأكثر من المغارم والمكوس لشفقة الحروب أبغض الناس الحرب ونفرت قلوبهم منه وتولى الخراب على الكثير من مدنها وبلدانها وضج الناس وابتهلوا إلى الله بزوال ملكها وأخذت من هذا الحين تذبل نضارة دولة آل عثمان وكادت تزول سلطتها من وراء الدانوب زوالاً تاماً فاشتد الأمر على السلطان عبدالحميد وأعظمه جداً وكان منه ما سيذكر فى محله.

(مطلب)

عزل الوزير خليل باشا وولاية مصطفى باشا النابلسى

وجاء الأمر عقب ولاية السلطان عبدالحميد بخليل بعزل الوزير خليل باشا من ولاية مصر وتوليته على جدة وقيام الوزير مصطفى باشا النابلسى من دار السلطنة ليتولى على مصر فحضر مصطفى باشا إلى القاهرة فى أواخر جمادى الثانية من السنة وطلع إلى قلعة الجبل وقيل إنه سكن ببركة الفيل ، والثانى أصح . وجعل يتصرف فى الأمور فلم يقو على ذلك حيث كانت الكلمة والتصرف للأمير الكبير محمد بيك أبى الذهب وأصحابه وكان وصول مصطفى باشا إلى القاهرة والوقت فى هدو والحال فى سكون والقلوب مطمئنة والأقوات كثيرة والأسعار رخيصة ولكن كما قال الشاعر

وما الدهر فى حال السكون بساكن ولكنه مستجمع لوثوب

ولما اطمأن قلب الأمير محمد بيك بسكون الحال بعد موت أستاذه على بيك بلاط تاقَتْ نفسه إلى غزو الشام واستخلاص ما بيد الظاهر عمرو من المدن والبلدان فجيش لذلك عسكرياً عظيماً وبرز بخيامه إلى العادلية وفرق الأموال على الأمراء والعسكر وسيرهم فى البر والبحر وأنزل الذخيرة والميرة وأكثر من المدافع والقنابل الكبيرة وسار بنفسه مع هذا الجيش فى أوائل المحرم افتتاح سنة تسع وثمانين ومائة وألف هجرية وسلم الإمارة ونيابة الغيبة بمصر إلى إبراهيم بيك أحد كبار مماليكه ثم ترك بقية الأمراء ولم يصحبه منهم إلا القليل فلما وصل مدينة غزة وشاع خبر

وصوله خاف أهل البلاد ولم يظهروا أمامه وتحصن أهل يافا وتحصن كذلك الظاهر
 عمرو بعكا، فلما وصل محمد بيك إلى يافا حاصرها وضيق عليها وشدد فامتنعوا
 عليه وحاربوه من وراء السور فحاربهم ورمى عليهم بالمدافع والمكاحل وواصل الرمي
 عدة أيام وليالي فكانوا يصعدون على الأسوار ويسبون المصريين وأميرهم سبا قبيحا
 فلم يزل المصريون يوالون الرمي بالقنابل حتى نقبوا أسوارها وهجموا عليها من كل
 صوب وحذب وملكوها ونهبوها وقبضوا على أهلها وقيدوهم بالحبال والحديد وسبوا
 النساء والصبيان وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ثم جمعوا الأسرى خارج البلد وذبحوهم
 ذبح الغنم ولم يميزوا بين صنوف الناس وبنوا من رؤوس القتلى عدة صوامع
 ووجوهها بارزة والرياح تنسف عليها التراب ثم ارتحل عنها طالبا عكا فلما بلغ
 الظاهر عمرا ماوقع لأهل يافا اشتد خوفه وخرج من عكا هاربا وتركها وحصونها
 فوصل إليها محمد بك ودخلها من غير ممانع وأذعنت له باقى البلاد وأطاعته وهى
 صاغرة. فلما دانت له مصر والشام أرسل إسماعيل أغا إلى دار الخلافة بهدايا
 وأموال عظيمة جدا ملتصا إمارة مصر والشام وكان السلطان يخشى استقلال محمد
 بيك بملك البلاد والخروج عن طاعته فأجابه على الفور إلى ما طلب وأرسل إليه مع
 رسوله تقاليد الولاية والخلع والبيرق والداقم وجاءت له الأخبار بذلك ووردت عليه
 البشائر بتمام الأمر فوافاه ذلك يوم دخوله عكا فامتلا فرحا فحم بدنه فى الحال
 فأقام محمومًا ثلاثة أيام ومات ليلة الأربعاء ثامن ربيع الثانى من السنة ووافى خبر
 موته دار السلطنة قبل قيام الرسول الذى كان يحمل التقاليد فانتقض الأمر وردت
 التقاليد وفرح السلطان بموته. وكان قد جمع إليه قبل موته الأمراء ومقدمى الأجناد
 وأعلمهم بعزمه على السير إلى الامام وفتح ما يفتح الله به عليه من المدن والبلدان
 فشق الأمر عليهم جدا إذ كانوا قد سئموا الحرب والابتعاد عن الأوطان فلم يجاوبوه
 بشئ خوفا منه. قال ناقل هذه الرواية: وأقمنا علي ما نحن عليه من الغم والكد
 الثلاثة الأيام التى تمرض فيها وأكثرنا لا يعلم بمرضه ولا يدخل إليه إلا بعض خواصه
 ولم يذكروا مرضه إلا فى اليوم الثالث. قالوا إنه منحرف المزاج فلما كان صبح الليلة
 التى مات فيها نظرنا إلى صيوانة وقد انتهزم ركنه وأولاد الخزنة فى حركة ثم راد
 الحال وجرد السيوف بعضهم على بعضهم بسبب المال وظهر أمر موته وارتبك
 العسكر وحضر مراد بيك فكفهم عما هم عليه وجمع كبراءهم فى الحال وشاورهم
 فاتفق رأيهم على الزحيل إلى مصر فقاموا وقد غسلوا جثته وكفنوها ولفوها فى

أقمشة ثخينة وحملوها على عربة وساروا طالبين الديار المصرية فدخلناها بعد ستة عشر يوما وكان دخولنا في ليلة الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الثاني فأرادوا دفن الجثة بالقرافة فحضر الشيخ الصعيدى وأشار بدفنه في مدرسته تجاه الأزهر فحفروا له قبرا بالليون الصغير الشرقى وبنوه ليلا فلما أصبحوا خرجوا بجنازته من بيته الذى بقوصون ومشى أمامه المشايخ والعلماء والأمراء وجميع الأحزاب وأولاده المكاتب وأمام نعشه مجامر العنبر والعود لإخفاء رائحة نتنه حتى واروه التراب أهـ .

واستقر أتباعه أمراء البلاد المشار إليهم فى الحل والعقد ومقدمهم إبراهيم بيك ومراد بيك وكانت عدتهم ستة عشر أميراً .

(مطلب)

عزل مصطفى باشا وولاية الوزير إبراهيم باشا عرب كركلى وموته وولاية محمد باشا المعروف بالعزلى الكبير

ووردت الأخبار بعزل مصطفى باشا النابلسى وولاية الوزير إبراهيم باشا عرب كركلى فدخل القاهرة وسافر مصطفى باشا فى أواخر جمادى الثانية سنة تسع وثمانين ومائة وألف هجرية إلى جدة ومات بالمدينة وكان وصول إبراهيم باشا المذكور إلى القاهرة رابع شعبان سنة تسع وثمانين فنزل بإمبابة وأقام بها ولم يكن له من الولاية سوى الاسم فقط والتصرف لإبراهيم بيك ومراد بيك ومازال بإمبابة حتى مرض ومات فدفن بالإمام الشافعى وتولى بعده الوزير محمد باشا المعروف بالعزلى الكبير فدخل القاهرة فى يوم الخميس سابع عشر ربيع الأول سنة تسعين فكان كمن سبقه مخجورا عليه فى جميع أعماله ليس له من الولاية إلا الاسم فقط والتوقيع على القصص والجلوس فى صدر الديوان . ولم تكن لتسكن الفتى بموت على بيك بلاط وإسماعيل بيك الكبير حتى ظهرت فتنة أخرى بالجامع الأزهر واشتدت نارها وارتفع لهيبها وكان سبب ذلك أن طائفة من المغاربة المجاورين بالأزهر آل إليهم مكان موقوف فطلبوا استلامه واستغلاله فمانع واضع اليد وطعن فى الدعوى واستعان بالأمير يوسف بيك من الأمراء المقدمين ودافع عن المكان المذكور فرفع المغاربة أمره إلى القاضى وترافعوا أمامه فظهر الأمر على خلاف ما يشاء يوسف بيك فحقن لذلك ووسمهم بالغش وارتكاب الباطل وأرسل جماعة من أصحابه ليقبضوا على الشيخ عباس أحد المغاربة العاملين فى هذه القضية فطردهم المجاورون وسبوههم ولم يمكنوهم منه وأخبروا الشيخ الدردير بما جرى فكتب الشيخ إلى يوسف بيك يمنعه

من التعرض لأهل العلم ومعاندة الحكم الشرعى وأرسل المكتابة صحبة اثنين من المشايخ فلما قرأ الرسالة غضب وأمر بالاثنتين فقبضوا عليهما وأودعوهما السجن فوصل الخبر إلى الشيخ الدردير وأهل الجامع فاجتمعوا فى صبح ثانى يوم وأبطلوا الدروس والأذان والصلوات وقفلوا أبواب الجامع وجلس المشايخ بالقبلة القديمة وصعد الصغار على المنارات يكثرون من الصياح والدعاء على الأمراء وأصحابهم وأغلق أهل الأسواق القرية الحوانيت وبلغ الأمراء الخبر فأرسلوا إلى يوسف بيك فأطلق المسجونين وأرسل إبراهيم بيك إلى المشايخ بملازمة الهدوء والسكون فلم يلتفتوا لقوله وسبوا رسوله فحضر الأغا إلى الغورية ونادى بالأمان وفتح الحوانيت فبلغ مجاورى المغاربة ذلك فذهب إليه جماعة منهم وتبعهم العامة والغوغاء وبأيديهم العصى والمساوق وضربوا أتباع الأغا ورجموا بالحجارة فركب الأغا عليهم وركبت مماليكه والسيوف بأيديهم فقتل من مجاورى المغاربة ثلاثة وجرح منهم ومن العامة كذلك وبقي الهرج إلى ثانى يوم فحضر إسماعيل بيك والشيخ السادات وعلى كتحدا الجاوشية وحسن أغا أغاة المتفرقان وغيرهم ونزلوا بالأشرية وأرسلوا إلى الجامع بانفضاض الجمع وتمام المطلوب وكان ذلك عند الغروب فلم يرضوا وطلبوا الجمالكى والمربيات المتأخرة فرجعوا وأصبحوا والهرج فى ازدياد فعاد إسماعيل بيك ومعه الشيخ الشيخ السادات وجلسا بالجامع المؤيد وأرسل إلى المشايخ على يدى الشيخ إبراهيم السندوبى بان إسماعيل بيك المشار إليه قد تكفل بقضاء أشغال المشايخ وقضاء جميع حوائجهم وقبول فتواهم واعتبارها معمولاً بها على كل حال مع صرف جماكيهم وجميع مرتباتهم المتأخرة وأن الضامن له فى ذلك الشيخ السادات فلما وصل الشيخ السندوبى ومعه الكتاب قرأه الشيخ عبد الرحمن العريشى على رؤوس الملا وهو قائم على الأقدام فلما سمعوه أكثروا الهرج والجلبة وعلت أصواتهم وقالوا لا نقبل بذلك وترددت الرسل بين الفريقين بطول النهار ثم وقع الصلح وفتحت أبواب الجامع وعادت أموره إلى ما كانت عليه وبعثوا لهم فى ثانى يوم مبلغا يرسم الجمالكى وقد اشترطوا عدم مرور الأغا والوالى والمحتسب من حارة الأزهر وغير ذلك من الاشتراطات التى لم يتم منها شيء البته . ولم سكنت الفتنة تتبع الأغا كل من كان له يد فيها من أولاد البلد فجعل يقبض عليهم واحدا فواحدا ويقتلهم خنقا وتغريقا ودفنا تحت التراب .

ووقعت الوحشة بعد هذا الحادث بقليل بين إسماعيل بيك وبين مراد بيك الكبير لأسباب يطول شرحها فخرج إسماعيل بك مغضبا يريد العادلة مرتحلا عن

مصر فخرج خلفه إبراهيم بيك الكبير وطيب خاطره وأرجعه فعاد وهو فى غيظ وليث أياما والوحشة ضاربة أطنابها بينه وبين مراد بيك فعمد مراد بيك إلى قتله واتفق مع جماعة من قومه على أن يركبوا عليه ويقتلوه فى بيته وعينوا لذلك يوما معلوما فعلم إسماعيل بيك بخفى سرهم وخاف على نفسه فحمل أثقاله وجمع متاعه وركب فى الصباح إلى العادلية وجلس بالأزبكية وركب مراد بيك ومر بمنزل إسماعيل بيك ليعرف خبره فوجده قد خرج إلى الأزبكية وكان إبراهيم بيك الكبير قد ذهب فى هذا اليوم إلى قصر العينى فبلغه خبر خروج إسماعيل بيك فخشى عاقبة خروجه وشاع الخبر بذلك فخرج خلفه كثير من الأمراء الناقمين على مراد بيك وإبراهيم بيك وكانت عدتهم خمسة أمراء ولحقوا به بالعادلية وعلم إبراهيم بيك ومراد بيك بذلك فركبا لساعتهما وركب معهما بعض الأمراء من خواصهما وصعدوا إلى قلعة الجبل وملكوا الأبواب واستفاض الخبر فكثر الهرج وتوارد الأمراء إلى الرميطة واضطربت المدينة وأغلق الناس الدكاكين وأقفلت أبواب البيوت وانقطع الناس عن الخروج واستمروا على ذلك أربعة أيام بليليتها وخرج الكثير من أهل القلعة سرا ولحقوا بالأمير إسماعيل بيك ويوسف بيك ومن معهما فأرسل لذلك أهل القلعة إبراهيم أغا الوالى فجلس بباب النصر لمنع خروج من يريد الالتحاق بأصحاب إسماعيل بيك وأغلق الباب ونزل الباشا إلى باب العزب فحضر قاسم كتخدا أمين البحرين وعبد الرحمن أغا وهما من أصحاب الأمير إسماعيل بيك ومعهما آخرون إلى باب النصر وفتحوا الباب عنوة وطرردوا الوالى ومن كان معه وملكوا الباب فأرسلوا لهما جماعة من العسكر المغاربة فاقتتل الفريقان وتفرق أصحاب إسماعيل بيك وجرح كثير من المغاربة وانتشر أصحاب إسماعيل بيك حوالى القاهرة ومصر وسارت طائفة منهم إلى بولاق القاهرة فصادفوا فريقا من العسكر يحمل علوفة الخيل التى بالمعسكر فهجموا عليهم وفرقوهم وأخذوا ما كان معهم من فول وتبن وتوجه فريق منهم أيضا إلى المقطم فاشتد الحال وعظمت الفتنة وخاف الباشا شر العاقبة فسعى فى تدارك الأمر قبل استفحال الخطب وأرسل إلى إسماعيل بيك فى طلب الصلح فلم يقبل فراجعته وأرسل ولده إليه وكتخده مراراً فلم يقبل .

ودخل فى ثانى يوم عبد الرحمن أغا من باب النصر ومر من وسط المدينة وأمامه المنادى ينادى على أصحاب الخوانيت يرفع بضائعهم والتحذر فرفع الناس ما بقى منها ولم يزل سائرا حتى وصل إلى باب زويلة ونزل بجوامع المؤيد ورتب عسكرها هناك على السقائف والأسبله ثم سار من هناك فى جند كثير إلى باب زويلة

ومنه إلى الدرب الأحمر إلى جامع المرداني وزحفوا إلى التبانة وعملوا متاريس بالقرب من المحجر ووضعوا بها عسكريا وكذلك فعلوا بتاحية سويقة العزى فنزل إليهم بعض الجند الذين بالقلعة وأطلقوا عليهم النيران فدفعوهم برمي البنادق وقطعوا الطرق على من كانوا بالقلعة إلى ما بعد عصر اليوم فنزل إليهم بعض الفرسان المدرعة فحملوا عليهم وهزموهم أيضا وقتلوا منهم جماعة ورجع من بقي منهم إلى القلعة على أعقابهم وما دخل غروب اليوم حتى انفصل عن القلعة جميع العسكر المغاربة وحملوا سلاحهم وانحدروا وانضموا إلى من كانوا بالمحجر من أصحاب إسماعيل بيك ولاحت على أصحاب إبراهيم بيك ومراد بيك لوائح الخذلان وأصبحوا وقد دخل جماعة كثيرة من أصحاب إسماعيل بيك إلى المدينة ورابطوا في جميع الجهات حتى انحصر من بقلعة الجبل ولم يبق لخلاصهم سبيل وأخذوا يتقبون الأسوار فلما أحسوا بذلك وأيقنوا بالهزيمة انحدر إبراهيم بيك ومراد بيك وجماعة من الأمراء ليلا من باب الميدان وذهبوا جهة البساتين إلى الأقاليم القبلية وتخلف منهم جماعة فخرجوا إلى إسماعيل بيك وخليل بيك وطلبوا الأمان فلما شاع خبر هروب إبراهيم بيك ومراد بيك هجم المرابطون بالمحجر وسوق السلاح على الرميلة ونهبوا جميع خيامهم التي كانت بها وبالميدان ولم يتركوا شيئا حتى ولا جمال الباشا ودخل إسماعيل بيك ويوسف بيك بعد العصر من ذلك اليوم من باب النصر في عدة من الجند والمماليك والأتباع وسارا إلى بيوتهما وأصبح ثاني يوم فسار عبد الرحمن أغا في الشوارع ونادى بالأمان والبيع والشراء فزال عن الناس بعض الخوف ولما كان يوم الأحد ثاني عشرى جمادى الثانية من السنة أى سنة إحدى وتسعين صعد إسماعيل بيك ويوسف بيك إلى الديوان في كبكبة وزينة فخلع عليهما الباشا خلعتى سمور وولى إسماعيل بيك مشيخة البلد بدل إبراهيم بيك فتصرف وجعل يفرق المناصب العالية بين أصحابه وأصحاب يوسف بيك وأتباعهما وقبضوا على الكثير من الأمراء وأصحاب الوظائف على عهد إبراهيم بيك وأبعدوهم إلى أقاصى البلاد ولم يلبث إسماعيل بيك ويوسف بيك طويلا على الإخاء والمودة حتى قامت بينهما الشحناء وتبدل دهما جفاء فجعل إسماعيل بيك يتدبر فى قتل يوسف بيك ومازال على هذا العزم حتى أرسل إليه جماعة من إتباعه الأخصاء ليقتلوه فى بيته فدخلوا عليه فوجدوه جالسا بالمقعد المطل على البركة فجلس أحدهم أمامه وجلس آخرون على شماله وجماعة بقوا واقفين يحادثونه ساعة لطيفة فى أمر من الأمور وتناقشوا مع بعض بحلة فتأخر عنهم الواقفون من المماليك والأجناد فسحب أحدهم

وهو عبد الرحمن بيك خنجرا وطعن به يوسف بيك فهم يوسف بيك ليدفع عن نفسه فداس على فروة من كان جالسا بجانبه فسقط على ظهره فقاموا عليه جميعا وضربوه بسيوفهم وأطلق أحدهم طبنجة على الواقفين من الخدم والأتباع ففروا من أمامهم فزلوا مسرعين من القيطون الموصل إلى البركة وركبوا وذهبوا إلى إسماعيل بيك وأخبروه بالخبر فركب فى الحال وصعد إلى قلعة الجبل وأرسل إلى الباشا وكان بقصر العينى ينتزه فركب من هناك وصعد إلى القلعة وجلس بباب العزب مع إسماعيل بيك فلما بلغ أصحاب خليل بيك وأتباعه خبر موت أستاذهم تلك الليلة ركبوا وخرجوا من المدينة يريدون الصعيد فأركب إسماعيل بيك خلفهم جماعة فلم يدركوهم فأرسل إلى من تخلف منهم فاخفوا ثم خرجوا ولحقوا بمن فر.

(مطلب)

عزل محمد باشا العزتلى وولاية الوزير إسماعيل باشا

وجاءت الأخبار فى هذه الأثناء بعزل محمد باشا العزتلى وتولية الوزير إسماعيل باشا فدخل القاهرة فى يوم الاثنين سادس ذى القعدة من السنة وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل ودخل عليه إسماعيل بيك الكبير وباقى الأمراء فخلع على إسماعيل بيك خلعة سمور وأقره على مشيخة البلد وتدير الدولة والتصرف فى الأمور فرسم إسماعيل بيك بعد ذلك بجمع العسكر والجنود لقتال من هرب من أصحاب يوسف بيك ومن انضم إليهم من الأمراء الهاربين بالأقاليم القبلية واهتم بذلك وسلم قيادة هذه الحملة إلى إسماعيل بيك الصغير وبرز العسكر إلى البساتين ونصبوا خيامهم أياما ثم ساروا فى البر والبحر فالتقى الجمعان عند بياضة تجاه بنى سويف واقتتلا قتالا عنيفا انكشف عن هزيمة أصحاب إسماعيل بيك وتمزيق جمعهم فرجعوا إلى القاهرة على الأعقاب ودخلوها فى أسوء حال وأخذت جميع خيامهم وأسلحتهم ومراكبهم وكانت نيفا وخمسمائة وكان مقدم عسكر إسماعيل بيك فى حراقة صغيرة فلما انهزم العسكر انحدر إلى القاهرة وكذلك بقية الأمراء انحدروا فيما لحقوه من المراكب وكان إسماعيل بيك بالفسطاط فلما علم بخبر حضورهم على هذا الحال من الهزيمة حزن حزنا كبيرا وأحس بزوال دولته ونزل الباشا من قلعة الجبل وخرج إلى الآثار ونادوا فى الناس بالنفير العام فخرج القاضى والمشايخ والتجار وأرباب الصنائع والمغاربة وأهل الحارات كافة وأغلقت الأسواق

حتى ملشوا الفضاء فلما عاين ذلك إسماعيل بيك وعلم أنهم يحتاجون إلى المال والميرة فضلا عن الذخيرة اختار منهم طائفة المغاربة والترك وصرف من بقى من العامة وأرباب الحرف والمشايخ وأصحاب الأشاير والفقراء ووصل الأمراء من الصعيد إلى حلوان وتعلقت آمالهم بالاستيلاء على مصر والقاهرة بعد تلك النصر العظيمة التى انتصروها فأرسل إليهم إسماعيل بيك جيشا عظيما من الترك والمغاربة ومعهم المدافع الكبيرة فنصبوا متاريسهم ما بين التين وحلوان تجاه العدو وركب فى ليلتها إسماعيل بيك وأمرأؤه وأجناده وكان الباشا قد استحضر من ثغر دمياط مركبا حربيا يحمل خمسا وعشرين مدفعا كان رباته ذا خبرة تامة بالحرب وفنونه اسمه حسن الغاوى فألق به ليلا تجاه المعسكر وارتفع حتى تجاوز مراكب العدو وأطلق المدافع على معسكرهم برا وعلى مراكزهم بحرا وساق جميع المراكب بما فيها واشتد الجلاد بين الفريقين فكانت موقعة عظيمة قتل فيها كثير من الأمراء أعداء إسماعيل بيك وانهزموا شر هزيمة وهرب إبراهيم بيك الكبير ولم يظهر مراد بيك الكبير بسبب جراحته وهم أصحاب إسماعيل بيك على خيامهم ومعسكرهم فنهبوه جميعه وفر من بقى منهم إلى الأقاليم القبلية فساقوا خلفهم فلم يدركوهم ودخل إسماعيل بيك بعساكره القاهرة منصورا مؤيدا ولم تكن لهم هذه النصر فى حساب فكان رجوعهم فى يوم الأربعاء غرة شعبان من السنة .

واستوحش إسماعيل بيك الكبير من إسماعيل بيك الصغير بعد ذلك حيث ظهر عليه فى أحكامه وأوامره فكان كلما أصدر أمرا عارضه فيه ورده عنه بل عمل على خلافه حتى ظهرت كلمته وعلت وتراحم الناس على بابه وأقبل إليه أصحاب الظلامات والدعاوى وانضم إليه الكثير من الكشاف والأمراء وحدثته نفسه بالانفراد والاستقلال بحكم البلاد فأنس ذلك منه إسماعيل بيك الكبير فتركه وشأنه وأظهر أنه رمد بعينه وانقطع عن الخروج من أول شهر رمضان ثم خرج فى أواخره إلى زيارة السيد أحمد البدوى ثم رجع وجمع إليه خواصه وشاورهم فى أمر قتل إسماعيل بيك الصغير وكاشفهم بما فى نفسه فاتفقوا على قتله ودبروا لذلك تدبيرا . فلما كان ليلة التاسع والعشرين من رمضان ركبوا فى آخر الليل ومعهم طائفة من العساكر والأجناد وأحاطوا ببيت إسماعيل بيك المذكور فأحس بهم وركب فى مماليكه وخرج فوجد الطرق كلها مزدحمة بالجند فدخل من عطفة القرن يريد الفرار وخرج إلى قنطرة عمرشاه فوجد الجند أمامه وخلفه فصار يقاتلهم ويدفع عن نفسه من عطفة إلى

عظفة حتى وصل إلى عظفة البيدق وقد أصيب بضربة سيف على كتفه وسقطت
عمامته وصار حاسر الرأس والدم يسيل منه إلى أن وصل تجاه درب عبدالحق
بالأزبكية فلقبه عثمان بيك أحد خواص إسماعيل بيك الكبير فردّه وسقط عن فرسه
فاحتاطوا به ونزل على دكان أحد السوق وهو فى أسوأ حال فعصبوا رأسه بعمامة
رجل جمال كان فى الطريق وحمله عثمان بيك إلى بيته وتركه وذهب إلى
إسماعيل بيك فأخبره بخبره فخلع عليه فروة سمور وأعطاه فرسا مرختا وأمر الوالى
فذهب إليه وقتله خنقا ثم وضعوه فى تابوت وأرسلوه إلى بيت صغير كان له بقى
به إلى الصباح فأخرجوه ودفنوه بغير احتفال بجنازته. ورسم إسماعيل بيك بالقبض
على أشياخ إسماعيل بيك المقتول وأنصاره وإبعادهم إلى أقاصى البلاد فأبعدوا منهم
جماعة كثيرة وصادروهم وقتلوا منهم آخرين بعضهم ببؤلاق القاهرة وبعضهم
بغيرها. ولم يطمئن قلب إسماعيل بيك الكبير بموت إسماعيل بيك الصغير وتشريد
أنصاره حتى جاءه الخبر باشتداد أزر الأمراء الهاربين فى الإقليم القبلى واستفحال
أمرهم وأنهم تملكوا جميع البلاد التى من جرجا إلى فوق وقبضوا الخراج ومنعوا
إرسال الغلال فأخذ إسماعيل بيك فى تجهيز الجيوش وإعداد المعدات وضرب لذلك
المغارم على القرى فجعل على كل قرية منها ثلثمائة ريال وأمر جميع الأمراء بالتأهب
والاستعداد للخروج وخرج هو إلى دير الطين يريد السفر وكذلك رسم الباشا
لجميع الأمراء وأرباب المناصب العسكرية فخرجوا جميعا ونصبوا خيامهم عند معادى
الخبيري ونزل الباشا من قلعة الجبل وجلس بقصر العيني وساروا وسار معهم
إسماعيل بيك وقد ترك بالقاهرة جماعة من الأمراء من خواصه الذين يعتمد عليهم
ورسم لمقادم الأبواب بأن يطوفوا فكانوا يطوفون بالأجناد فى الحارات ليلا ونهارا.
فلما وصل إسماعيل بيك بعسكره إلى منية ابن خصيب لم يجد للعدو بها أثرا وعلم
أنهم ساروا إلى مدينة أسيوط ومعهم إسماعيل أبو على أحد كبار الهوارة فسار
لقتالهم وبينما هو يجد السير إلى أسيوط جاءه الخبر من القاهرة بانحياز جماعة من
الأمراء الذين تركهم بها لتدبير أمورها على الانضمام إلى إبراهيم بيك ومراد بيك
وكان زعيم هذه العصاة حسن بيك الجداوى ومعه جميع أصحابه ووافقهم على ذلك
أيضا حسن بيك سوق السلاح وأحمد بيك شنن وأصحاب القلاع بأسرهم فلما
تحقق ما وراء ذلك هاله الأمر جدا وركب من ساعته بمن معه وانحدر يريد القاهرة
وجدّ حتى دخلها فلم يشعروا إلا وهو فى وسطهم وبات ليلته وأصبح فأمر بمنع

المعادي من التعدية وصعد فى ثانى يوم إلى قلعة الجبل وعقد الديوان بحضرة الباشا فاجتمع جميع الأمراء وأرباب الوجاقات والمشايخ وتكلموا فى أمر قتال المحاربين وفيما ظهر من الفتنة بالقاهرة وطال الكلام بينهم فلم يتفقوا على أمر ما وتفرقوا وأخذوا فى توزيع متاعهم وقد اضطربت أحوالهم وأصبح إسماعيل بيك وقد جمع تجار البهار والمباشرين من الأقباط وطلب منهم مالا قرصة لنفقة الحرب وشدد فى الطلب وأرهب وتوعد. وبينما هو على هذا الحال إذ جاءه الخبر بوصول طلائع أصحاب إبراهيم بيك الكبير ومراد بيك إلى البساتين وأن قد وصل بعضهم إلى الجيزة فلما تحقق ذلك وقد كان على أهبة الفرار أمر أتباعه بحمل متاعه والخروج به فحملوه وخرجوا تباعا من بعد العصر إلى الساعة الرابعة من ليلة الثلاثاء رابع عشر المحرم من السنة أى سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف هجرية ونزلوا بالعادلية وخرج معه جميع خواصه من الأمراء والممالك والأتباع ويات الناس تلك الليلة فى وجل ما عليه من مزيد وأصبحوا فعلموا بخروجهم فاندفعت عند ذلك العامة على بيوتهم ونهبوا ما وجدوه فيها، أما هم فلأنهم ساروا فى صبح اليوم قاصدين الديار الشامية وزالت دولة إسماعيل بيك المذكور فكانت مدة تصرفه فى الإمارة على مصر فى هذه المرة ستة أشهر وأياما لاغير.

وعلم إبراهيم بيك الكبير ومراد بك بخبر خروج إسماعيل بيك من القاهرة فعبر مراد بيك ومصطفى بيك وآخرون النيل فى ذلك اليوم إلى مصر القديمة ومروا من وسط المدينة ونودى بالأمان وأرسل إبراهيم بيك يطلب من الباشا الأمر بدخولهم القاهرة فأرسله إليه صحبة ولده وكخذل فدخل إبراهيم بيك ويات ليلته تلك بقصر العيى وكذلك بقية الأمراء ثم ركب إبراهيم بيك إلى بيته ومعه إسماعيل أبو على أحد كبار الهوارة وأصبحا وقد صعدا إلى قلعة الجبل فقابلهما الباشا وخلع عليهما خلع القدوم ثم استدعى الباشا إبراهيم بيك ثانية وخلع عليه وأقامه فى منصب مشيخة البلد كما كان من قبل فلما استقرت بها سلم الوظائف العالية إلى أصحابه وخواصه فانقسم من هذا اليوم الأمراء الذين نكثوا العهد مع أصحاب حسن بيك الجداوى ومن كان معه من الأمراء الذين نكثوا العهد مع إسماعيل بيك الكبير وانضموا إلى عصابة إبراهيم بيك ومراد بيك كما تقدم وسمى هذا القسم بالعلوية والثانى أصحاب إبراهيم بيك ومراد بيك الأولين وسمى بالمحمدية فكان فريق العلوية شامخ الأنف على المحمدية يرى المنة لنفسه والفضيلة

لأنه لولا ما بدا منه من الانحراف وخذله إسماعيل بيك ما دخل المحمدية قط إلى مصر ولا عادت إليهم الأمور فكان المحمدية لا يتصرفون فى أمر من الأمور إلا بإذن من العلوية وبرأيهم فكانوا مغلوبين على أمرهم محجوراً على تصرفهم . واتفق إن حضر بعد قليل من الأيام إبراهيم بيك أوده باشى وهو ممن كانوا هربوا إلى غزة مع إسماعيل بيك الكبير وكان قد طلب الإجازة بالرجوع فأذنوا له فدخل بيته واعتزل عن الناس ولبث منكمشاً أياماً ثم لم يلبث بعدها إلا قليلاً حتى اتهمه رضوان بيك بالموالسة وأنه إنما هو جاسوس من قبل إسماعيل بيك وعمل على تبيده فاستجار أوده باشى المذكور بمراد بيك والتجأ إليه فظمن خاطره وخفف عنه وهون عليه فحرك ذلك ساكننا فى قلوب العلوية وفشت الوحشة بينهم وبين المحمدية وأخذت تزداد يوماً عن يوم إلى أن خرج مراد بيك يوماً ومعه بعض خواصه إلى ضرب الشباب فجعل يكلمهم فى أمر العلوية وتصديهم لساير الأمور وتغلبهم عليها وغير ذلك ويظهر الغيظ والكمد فيهما هو على هذا الحال إذ أقبل عليه عبد الرحمن بيك وعلى بيك الحبشى وهما من العلوية وجلسا عنده برهة فلما أرادوا الانصراف أشار مراد بيك إلى بعض أتباعه بأن اقتلها فوثب عليهما وطعن عبد الرحمن بيك فقتله وهرب الحبشى واختفى فى بعض الأشجار فمروا به ولم ينظروه فركب مسرعاً ودخل على حسن بيك الجداوى وأخبروه بما جرى فجمع حسن بيك أصحابه وخواصه وجميع الأمراء المتحدين معه وشاورهم فى الأمر فاتفقت كلمتهم على القتال والترس فى بيت الجداوى فترسوا به وعملوا متارس أيضاً بباب زويلة وناحية باب الخرق والسروجية والقبطرة الجديدة وجاء الخبر إلى مراد بيك بما هم عليه من التأهب للقتال فجمع أصحابه وخواصه وكانوا عدة كبيرة وركب إبراهيم بيك الكبير من قبة العزب وصعد إلى قلعة الجبل وملك الأبواب وصوب المدافع نحو بيت الجداوى بالداودية وانتشبت الحرب بينهم طول النهار فأغلقت الأسواق وأقفلت كافة الدكاكين وياتوا على ذلك ليلة الأحد وأصبحوا وإطلاق المدافع والبنادق متتابع وهم يزحفون على بعضهم تارة ويتقهقرون أخرى وينقبون البيوت على من يكون داخلها منهم فسقطت بسبب ذلك عدة دور وتهدمت بأصحابها فمات خلق كثير تحت الردم وكثر النهب والحريق والقتل واختل النظام فتطاوت أيدي العامة إلى أصحاب البيوت وقام الخصم على خصمه فقتله من غير مراقب ولا ممانع وتسلق جماعة من المحمدية من الخليج وصعدوا إلى جامع الحين من بين المتارس وفتحوا بيت

عبد الرحمن أغا من خلف وملكوه ووضعوا عليه المدافع ورموا بها على بيت الجداوى تباعا فأيقن العلوية بالغبلة وأحسوا بالهزيمة فركبوا وخرجوا من باب زويلة إلى باب النصر فركب خلفهم المحمدية وأعملوا فى أقفيتهم السيف فقتلوا منهم خلقا ومات أغلب كبارهم وهرب حسن بيك الجداوى ورضوان بيك وكان ذلك وقت القائلة من يوم الأحد وكان يوما شديد الحر ولم يمت أحد من المحمدية بجراحة سوى مصطفى بيك الكبير بعد أيام قلائل .

وسار حسن بك ورضوان بك فى طائفة قليلة على وجوههم هائمين فخرج عليهم جماعة من العربان وقتلوهم قتالا شديدا ومزقوهم فتخلص رضوان بيك وذهب بخاصته إلى شبين الكوم وتبع العربان أثر حسن بيك الجداوى وضيّقوا عليه المسالك حتى قبضوا عليه وأخذوا ما معه وجردوه وشدوا وثاقه ثم قادوه بينهم ماشيا على أقدامه وهو حاف وأرسلوا إلى الأمراء بمصر من يخبرهم بخبره فبعث إليه إبراهيم بيك بمن يستحضره فسار معه حتى دخل القاهرة ثم أفلت منه وسار إلى بولاق ودخل إلى بيت الشيخ أحمد الدمنهورى فرجع الرسول وأخبر بذلك فركبت طائفة من المحمدية وذهبوا إلى دار الشيخ الدمنهورى وطلبوه فامتنع من تسليمه فلم يجسروا على أخذه قهرا واشتد به الخوف فصعد إلى سطح البيت وتسلق إلى سطح آخر ولم يزل حتى نزل بالقرب من وكالة الكتان فصادف بعض المماليك فضربه وأخذ حصانه وركبه وذهب مسرعا يريد النجاة فشاع خبر هزبه فركبت الجند خلفه وسدّوا عليه المسالك وهو يدافع ولم ير للوصول إلى القضاء سبيلا فعاد إلى المدينة ثانيا وذهب إلى بيت إبراهيم بيك وكان جالسا مع مراد بيك فاستجار بإبراهيم بيك فأجاره وأمنه ولبث فى بيته خمسة أيام وهو مفقود الشعور فلما أفاق وحسنت حاله رسموا له بالذهاب إلى جدة وبعثوا به إلى السويس فى محفة فلما نزل بالمركب وأقلعت به طلب من ريانها أن يذهب به إلى القصير فامتنع الريان من ذلك فتهدده بالقتل فسار به وأنزله هناك فترفع إلى الصغيد واختفى خبره ثم أمر إبراهيم بيك ومراد بيك بتباعد من بقى من العلوية فأبعدوهم إلى رشيد ودمياط وشبين وغيرها ثم سبّروا جماعة فقتلوهم جميعا ولم يبقوا على أحد منهم . ولم تكد تسكن الفتنة حتى أحس إبراهيم بيك الكبير بانحراف من الباشا وتدليس مع إسماعيل بيك الكبير فاجتمع بمراد بيك وكلمه فى ذلك فاتفقت كلمتهما على تنزيله من قلعة الجبل والحجر عليه فأرسلوا له أرباب الوجاقات يأمرونه بذلك وأن يسكن فى بيت حسن

بيك الجداوى بالداودية فامتنع فأمر إبراهيم بيك الجند بالركوب عليه فطلعوا إلى حوش القلعة فلما علم الباشا بحضورهم خاف ونزل من ساعته إلى الداودية فأنزلوا خلفه خدمه ومتاعه فى ذلك اليوم وهو يوم الثلاثاء تاسع عشر جمادى الثانية من السنة أى سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف هجرية فكانت ولايته ستين وثلاثة أشهر.

(مطلب)

خلق الوزير إسماعيل باشا وولاية إسماعيل باشا الثانى

وجاء الخبر بولاية إسماعيل باشا (لعله إسماعيل باشا الثانى) فذهب إليه الملاقون وأرباب العكاكيز وأصحاب المناصب فحضر فى يوم السبت خامس المحرم افتتاح سنة ثلاث وتسعين وبات بامبابه ليلته تلك ثم أقام بالعادية إلى يوم الثلاثاء ودخل بالموكب من باب النصر وممر بالقاهرة وصعد إلى القلعة فى الكبيكة المعتادة ولم تكن الأحوال على ما يرام من الهدوء والطمأنينة فلم يبرم أمراً ولم يأت عملاً إذ كان مغلوباً على أمره والكلمة يومئذ لإبراهيم بيك الكبير ومراد بيك ولم يستقر بالباشا المقام حتى جاءه الخبر باستفحال أمر حسن بيك ورضوان بيك بالإقليم القبلى وإنهما جمعا جموعاً كبيرة وانحدروا إلى جرجا وانضم لهم من العربان أولاد همام والجعافرة وإسماعيل أبو على وأنهم سينحدرون إلى مصر فكلم الباشا إبراهيم بيك ومراد بيك فى ذلك فأعلماه بالخبر وجعلوا من هذا الحين يجيشون الجيوش ويعدون المعدات وسيروها مع أيوب بيك الصغير وسار خلفهم كذلك مراد بيك فلما وصلوا جرجا رجع حسن بيك بمن معه إلى الورا فأقام مراد بيك بالعسكر فى جرجا إلى أوئل رجب من السنة وأخذ يعمل الحيلة حتى قبض على إسماعيل أبو على أحد مشايخ العرب وقتله ونهب ماله وعييده ثم رجع إلى القاهرة واختفى خبر حسن بيك وأصحابه بعد ذلك ولم يعلم لهم مستقر ووافق وصول مراد بيك إلى القاهرة من هذه الغزوة الصغيرة وأن خروج الحاج فتولى الإمارة عليه وأخذ يتأهب فكثر الطلبات وجمع الأموال والاحتياج للجمال والبغال والحمير فكانوا يأخذون بغال الناس ومن وجدوه راكباً على بغلة أنزلوه عنها وأخذوها بلا ثمن وإن كان من أصحاب المظهر دفعوا له ثمناً زهيداً فضج الناس وأخفوا دوابهم حتى سافر ركب الحاج وخرج مراد بيك فى كبيكة وزينة وخرج معه عدة كبيرة من الأمراء والصناجق ومشوا فى ركابه.

(مطلب)

وزود الأمر السلطاني بعزل إسماعيل

باشا ثم رجوعه إلى الولاية ثانية

وبعد خروج الحاج بأيام قليلة ، جاء رسول من دار السلطنة ومعه مرسوم سلطاني بخلع إسماعيل باشا عن ولاية مصر وقيامه إلى جدة وتولية إبراهيم باشا والى جدة والياً على مصر فتزل إسماعيل باشا من يومه من قلعة الجبل وسكن بمصر القديمة شهراً ثم تحول إلى العادلية ليسيّر منها إلى السويس ويذهب إلى جدة فقدر الله بموت إبراهيم باشا في جدة فجاء إلى إسماعيل باشا مرسوم السلطان ببقائه على ولاية مصر ففرح بذلك وقد كان لا يود الخروج منها وركب في موكبه وطلع إلى القلعة في كبكة وأبهة رائدة ودخل إليها من باب الجبل فلما استقر به المنصب تأقت نفسه إلى التصرف والانفراد بالأمر فنهأ إبراهيم بك عن ذلك فأظهر الطاعة ولكنه كان يعمل على خلاف ذلك جهد الاستطاعة فنهأ إبراهيم بك ثانية وثالثة فلم يرو فأسل بأمره بالتزول من قلعة الجبل فلم ير بدا من الطاعة ونزل إلى مصر القديمة ولبت بها وتولى إبراهيم بك النيابة فكانت مدة ولايته الثانية ثمانية أشهر تنقص ثلاثة أيام وهو من أصحاب القلم وكبار الكتاب في دار السلطنة. قال بعض أهل التاريخ: وكان مراد بك الكبير من عماليكه فباعه لبعض التجار معاوضة وحضر إلى مصر ورافقته العناية صدف حتى صار أمير البلاد وكبيرها وحضر سيده هذا في أيام إمارته فلم يراع له حرمة وعزله من الولاية لأسباب لم تعلم ولكنه كان يتأدب معه كثيراً ويهابه ويذكر سيادته عليه وكان إسماعيل باشا هذا رئيساً عاقلاً ذا رأى وتدبير. وجاء عقب ذلك بأيام مراد بك ودخل بالحاج وهم في أسوأ حال مما قاسوه بالطريق من العريان فقد فعلوا معهم ما لا خير فيه وسدوا عليهم الطرق وأخذوا منهم كل ما وصلت إليه أيديهم من الدواب والمتاع وأعقب دخولهم وزود الأخبار بظهور حسن بك ورضوان بك ثانية واستفحال أمرهما وانضمام الكثير من الجند والعسكر والعرب وغيرهم من أتباع إسماعيل بك الكبير إلى جموعهم فخاف إبراهيم بك ومراد بك شر العاقبة وجمعاً جيشاً ضخماً وسار به مراد بك ومعه بعض الأمراء من خواصه وطلبوا الأموال وصادروا الكثير من التجار وأصحاب المظاهر وجمعوا المراكب وبرزوا بخيامهم إلى جهة البساتين فجاءهم الخبر بحضور إسماعيل بك

الكبير من الديار الرومية خفية إلى الاقاليم القبلية فانزعج مراد بيك من هذا الخبر وأكبره وسار مسرعا بعسكره إلى الصعيد فكان كلما اقترب من مقام لهم رحلوا إلى آخر وإذا حل بعسكره فى محلة حلوا هم كذلك قبالة ولبثوا على هذا الحال أشهراً ولم يقع بين الفريقين حرب ولا قتال ثم خابروه فى الصلح فرضى به وتقررت القاعدة بينهم على إعطاء أخميم لإسماعيل بيك الكبير مع جميع أعمالها وقنا وقوص وأعمالهما إلى حسن بيك وإسنا إلى رضوان بيك فلما تم الصلح على هذه القاعدة أرسل إليهم الهدايا والتقدم ورجع بعسكره إلى القاهرة ومعه إبراهيم بيك قشطة صهر إسماعيل بيك الكبير وسليم بيك أحد صناعقه رهنا على عدم التظاهر والخروج فكانت مدة غيبة إسماعيل بيك ثمانية أشهر وأياماً .

(مطلب)

عزل إسماعيل باشا وولاية محمد باشا

وبقى إسماعيل باشا الوالى معتقلاً فى دار بمصر القديمة حتى جاء الخبر بولاية محمد باشا ملك فدخل محمد باشا القاهرة أواخر صفر سنة خمس وتسعين ومائة وألف وصعد إلى قلعة الجبل وخرج إسماعيل باشا من حبسه وسار إلى الديار الرومية فلم يكن لمحمد باشا من حظ الولاية أكثر مما لغيره إذ كان كلما هم بالنظر فى الأمور والتصرف فى الولاية وأحوال الدولة رأى من إبراهيم بك خصماً عنيدا ومانعاً لا يتجول فلازم الانكماش واتبع سنة أسلافه واقتصر على ما بيده من التوقيع على المراسيم الديوانية بدون بحث ولا تنقيب . وأعلمه مراد بك بعزمه على الخروج إلى بلاد الشرقية وقراها فأجاز له ذلك كارها فسار إلى بلاد الشرقية وطافها وضرب على أهلها المغارم الثقيلة والأموال الكثيرة والكلف الباهظة وصادر الموسرين منهم وحول عليهم أصحاب الجباية وأعوان المغارم حتى ضج الناس واستغاثوا ورفعوا أصواتهم باللعن والسب ثم نزل إلى الغرية وفعل بها كذلك ثم إلى المنوفية ثم إلى غيرها فكان تطوافه بالبلاد على هذا الحال أشد هولاً من هول الطاعون وأصعب على أهل البلاد.

(مطلب)

عزل محمد باشا ملك وولاية علي باشا القصاب

وتمكن سليم بيك وإبراهيم بيك قشطة صهر إسماعيل بيك الكبير فى غيبة مراد

بيك هذهمن الاتفاق مع جماعة من الأمراء الذين ضاقت بهم الأسباب واشتدت عليهم الخطوب على الفرار والهروب فخرجوا ليلا على الهجن وجرده الخيل وهم نحو الثمانين وساروا إلى الصعيد وأصبح الخبر شائعا بذلك فارتبك إبراهيم بيك ونادى الأغا والوالى فى الناس بترك المشى بعد العشاء وملازمة الناس لبيوتها فخاف الناس وكثر اللغط وتنوعت الأقوال وكادت تتعطل أسباب الرزق وتتوقف المعاملات واشتد الخوف بالناس حتى أنهم أغلقوا حوانيتهم نهارا ولم تسكن الخواطر حتى شاع خبر طلب محمد باشا ملك إلى دار السلطنة ليتولى صدارة الدولة وكأنه هو الباعث على هذا الخوف والاضطراب فنزل محمد باشا من قلعة الجبل فى موكب عظيم فى منتصف شعبان من السنة وأقام بقصر العينى بقية شعبان وسافر إلى الإسكندية فى غرة رمضان فكانت مدة ولايته ثلاثة عشر شهرا ونصفا وهاداه جميع الأمراء بالهدايا النفيسة وكان من أفاضل العلماء متضلعا من الفنون والآداب وكان شيخا جليلا متواضعا لا بأس به . وقدم على باشا القصاب واليا ودخل القاهرة فى أواسط رمضان أو فى عاشر شوال وصعد إلى قلعة الجبل مارا من الصليبة خلافا لعادة أسلافه فلما استقر به المقام تحجب عن الناس إلا القليل ولم يتعرض لشيء من أمور الدولة وقد زاده تحجبا وامتناعا اللغط المستمر والأقوال الشائعة برجوع إسماعيل بيك الكبير ومن معه إلى شق عصا الطاعة وتطواف والى كل قليل من الأيام يكرر المناداة على الناس ويشدد بملازمة بيوتهم ليلا . وانحرفت خواطر الأمراء والصناعج الذين بمصر على إبراهيم بيك ومراد بيك من فعالهما ولا سيما فعال مراد بيك وبدت منهم أمارات الوحشة فخرج منهم أيضا جماعة كثيرة ولحقوا بإسماعيل بيك بالصعيد ولم يبالوا بوعيد مراد بيك ولا بتهديده فكبر خوفه مع إبراهيم بك وأخذ فى جمع العساكر وإعداد آلات الحرب وعزم مراد بيك على الخروج بهذه الحملة فطلب الأموال وقبض على مساتير الناس والتجار وجبستهم وصادرهم فى أموالهم وأخذ ما بأيديهم فجمع من المال ما جاوز الحد وكانت مغارم القبطة فى هذه المرة شيئا كثيرا جدا ثم برز بخيافه فى منتصف ربيع الآخر من السنة أى سنة سبع وتسعين إلى جهة البساتين وخرج معه جماعة من الأمراء وساروا إلى الصعيد فلما صاروا على مقربة من العدو فشل أصحاب إسماعيل بيك وانصرمت حزماتهم وتركهم رضوان بيك وجاء إلى مراد بيك طائعا فقبله وأبقاه عنده وقد تشتت بانفصاله عنهم عصابتهم وتمزق شملها وساروا إلى الجهات القبلية فرجع مراد بيك

إلى القاهرة وسلم قيادة العسكر إلى ثلاثة من الأمراء وهم مصطفى بيك وعثمان بيك الشرقاوى وعثمان بيك الأشقر فلم يستقر به المقام بالقاهرة حتى وقف على سر مؤامرة أخرى من بعض أمراء إبراهيم بيك وماليكه وماليك إبراهيم بيك فعاجلهم بالنفى والتشريد بعضهم إلى المنصورة والمحلة وبعضهم إلى السرو ورأس الخليج والبحيرة وغيرها وكان بينهم إبراهيم أغا الوالى .

(مطلب)

عزل علي باشا القصاب وحضور محمد باشا السلحدار وقيل الصابونجي واليا

وجاء فى غضون هذا الحادث الخبر بخلع على باشا القصاب وولاية محمد باشا السلحدار وقيل محمد باشا الصابونجي فترى على باشا من قلعة الجبل إلى قصر العينى وأقام به ينتظر حضور محمد باشا فحضر كتخداه ومعه مرسوم بالنيابة إلى إبراهيم بيك وخلعه فتولى إبراهيم بيك النيابة وجعل يتصرف فى جميع الأمور ويوقع على القصص وغير ذلك ووصل الخبر بذلك إلى جميع الأمراء المنفيين بالمنصورة والمحلة ورأس الخليج وغيرها فاجتمعوا وساروا معا إلى الإقليم القبلى يريدون اللحاق بإسماعيل بيك ومن معه فأرسل عند ذلك إبراهيم بيك فرمانا إلى عثمان بيك الشرقاوى باستقراره حاكما على جرجا وقد كان تركه مراد بيك مع العسكر على ما تقدم بيانه وشدد عليه بمراقبته الأحوال ومنع تظاهر الأمراء المذكورين فتكفل عثمان بيك بذلك وجعل يتصرف فى الأمور أيا ما كانت فيها رسل إسماعيل بيك ومن معه لا ينكفون عن الاجتماع به والتكلم معه فى أمر انضمامه إلى عصابتهم وما زالوا به حتى انضم إليهم فتقوى جانبهم واجتمعت به كلمتهم فلما علم إبراهيم بيك بذلك هاله الأمر واستعظمه للغاية وأرسل إلى كبارهم يؤمنهم ويمنيهم بالأمانى الكبيرة ويستميلهم إلى عقد الصلح فامتنعوا فطلب إبراهيم بيك حضور عثمان بيك الشرقاوى مصطفى بيك فامتنعوا أيضا وقالوا لا نحضر إلا إذا عاد إخواننا إلى مناصبهم وعادت إليهم إقطاعاتهم وأرزاقهم وإلا دافعنا عنهم حتى يقضى الله بيننا. فخشى إبراهيم بيك ومراد بيك العاقبة وجهزوا لذلك عسكرا عظيما وجعلوا يفتشون بيوت جميع الأمراء المبعدين ويأخذون كل ما فيها فكان شيئا كثيرا من غلال ومتاع ثم برز إبراهيم بيك بخيامه مع العسكر يريد المسير لقتال الخوارج وجمعوا

سائر مراكب النقل وأوقفوها وجمعوا جميع الملتزمين وأصحاب المزارع وأخذوا منهم أموالا جزيلة وسار إبراهيم بيك بالعسكر فى كيكبة وتجهل فلما اقترب من الأعداء راسلهم وطلبهم إلى الصلح فأجابوه إليه وتقررت القاعدة بينهم على رجوعهم إلى القاهرة وإعادة إقطاعاتهم إليهم فحضرُوا جميعا فى سادس عشر ذى القعدة من السنة فساء هذا الصلح مراد بيك ولم يرض عنه ولكنه كظم غيظه وسار إلى زيارة إبراهيم بيك ولم يزر أحدا منهم فسعى إبراهيم بيك فى إصلاح ذات البين فلم ينجح وكبر الأمر على مراد بيك فأخذ فى جمع أرزاقه ومستاغه وأثقال بيته حتى تم له ذلك ثم خرج إلى جزيرة الذهب فتبعه كشافه وأتباعه ومماليكه وأرسل إلى بولاق القاهرة وأخذ منها أرزا وغلالا وشعيرا وبقصماطا وغير ذلك فسير إليه إبراهيم بيك بعض أخصائه ليمنعوه عن الرحيل فلم يقبل وعبر النيل إلى الشرق وسار إلى الصعيد وتبعه أصحابه وأتباعه ومماليكه وأحماله فى البر والبحر فتزل فى منية ابن خصيب واتخذها له مقرا واتفق أن حضر فى هذه الأثناء محمد باشا الوالى الجديد فأنزلوه فى قصر عبد الرحمن كتبخدا على النيل فأقام به يومين ثم صعد إلى قلعة الجبل فى موكب وسافر على باشا القصاب إلى دار السلطنة فلما استقر بالوالى المقام وعلم بما جرى مابين إبراهيم بيك ومراد بيك تكلم مع إبراهيم بيك فى شأن ذلك وحثه على إرجاع مراد بيك فتزل إبراهيم بيك من ساعته وجمع إليه الأمراء فاتفقوا على أن يرسلوا إليه محمد أفندى البكرى والشيخ أبا الأنوار والشيخ السادات والشيخ أحمد العروسى شيخ الجامع الأزهر يومئذ ليرجعوه عن عزمه ويهونوا عليه أمر الصلح فساروا إليه واجتمعوا به وكلموه فاعتذر وقال إنه لم يخرج من القاهرة إلا هاربا خوفا على حياته فإن ضمنوا له عدم مسه بضرر عاد معهم بشرط أن يحلفوا له الأيمان فلم يجيبوه إلى اليمين وقالوا: نضمن الراحة لك ولهم عسى أن ترتاح العباد فصرفهم على ذلك فرجعوا وأخبروا بما جرى ولم يمض على رجوعهم إلا أيام حتى انحدر مراد بيك إلى الجيزة فى جموع كثيرة جدا من الغزو والأجناد والعربان والغوغاء فهال إبراهيم بيك أمر حضوره وجمع أصحابه وجميع الأمراء وحضر بهم إلى ناحية معادى الخبيري قبالة مراد بيك وأصحابه وأرسل إليه بعض الأمراء فى حراسة ليكلموه فى الصلح ويسألوه عن جميع طلباته فلم يأذن لهم بالدخول عليه فرجعوا وكان الباشا قد أرسل كتبخدا أيضا مع إسماعيل أفندى الخلوتى فى حراسة أخرى ليلحقا بمن ذهبوا إلى مراد بيك ويهونوا عليه الأمر فلم تصل بهما الحراسة

إلى منتصف النهر حتى صادفتهم الحراقة الأولى راجعة بمن فيها فتبعها فأطلق
عليهما أصحاب مراد بيك مدفعا فاختطأها فأسرعا بالرجوع وهما لا يصدقان بالنجاة
ورأى ذلك إبراهيم بيك فغضب جدا وأمر بالمدافع فأطلقت على معسكر مراد بيك
فأطلق كذلك مراد بيك مدافعه واستمر الطلق متابعا بين الفريقين ولم يعبر فريق إلى
الآخر وحجزت المعادى جميعها فى الجانبين واستمر الحال على ذلك عشرين يوما
واشتد الخطب وضج الناس وتعطلت الأسباب وقفلت الأسواق وتعطلت الطرق برا
وبحرا وكثر تعدى الأشقياء والمفسدين وتناولت أيدي اللصوص وغلت الأسعار وقل
وجنود الغلال وأفحش قوم مراد بيك فى النهب والسلب من بلاد الجيزة وأكلوا
المزروعات فلم يتركوا على وجه الأرض عودة أخضر وعين مراد بيك بعض الكشاف
والاتباع يطوفون البلاد ويجمعون الخراج ويقضون الكلف والغرامات من أصحاب
المزارع واعتقد الناس تمام الظفر لمراد بيك وأصحابه واشتد خوف الأمراء بمصر منه
وتحدث الناس بعزم إبراهيم بيك على الهروب فكبر خوف أهل مصر والقاهرة وكادوا
يتفرقون أشتاتا فلما كان يوم الخميس أمر إبراهيم بيك برمى المدافع تباعا فلبثوا اليوم
بطوله يوالون الرمى بلا انقطاع فلما خيم الظلام أمر بالكف عن ذلك وعبر خمسة
من أمرائه ليلا إلى الجانب الثانى من النيل وساروا تحت جناح الظلام فقابلهم طائفة
من عسكر مراد بيك فأطلق الأمراء عليهم بنادقهم فولوا منهزمين فملكوا مكانهم
واحتلوه وكان على مقربة من بولاق التكرور وعبر آخرون ومعهم مدفعان وجعلوا
يزحفون قليلا قليلا حتى صاروا على مقربة من معسكر مراد بيك وأطلقوا عليه
المدافع ووالوا إطلاقها فلم يجبههم أحد فباتوا على ذلك وهم فى تحذر وتتابع بهم
عسكرهم وخيولهم فلما ظهر نور الصباح نظروا فلم يروا أحدا فى معسكر مراد بيك
وقد رحلوا وتركوا جميع أثقالهم ومدافعهم فساروا إليه واحتلوه وعبر رجال إبراهيم
بيك وساقوا خلف مراد بيك وأصحابه إلى حد الشيمى فلم يدركوهم فأقاموا بأرض
الجيزة أربعة أيام ثم رجعوا وجازوا بالقاهرة .

ورأى إبراهيم بيك أن بقاء الحال على هذا الوصف مجلبة للدمار ووسيلة للبوارج فآراد
مصالحة مراد بيك فأرسل لذلك اثنين من كبار أصحابه . قال بعض الكتاب : وكان
الحامل له على طلب الصلح واستمالة مراد بيك إليه ما رآه من تحزب عثمان بيك
الشرقاوى وعدة من الأمراء ضده وعقدتهم النية على الانتفاض عليه وقد استخفوا به
وقعدوا له بالمرصاد فأخذ الحذر منهم ثم حضر بعد أيام كتبخدا مراد بيك واجتمع

بإبراهيم بيك ثم عاد فأرسل إبراهيم بيك معه ولده مرزوق بيك وهو طفل صغير قد حملته مرضعته فلما وصل الطفل إلى مراد بيك جنح للصالح ومال إليه وقدم للطفل هدية سنية وتقادم جليلة منها بقرة ولابتتها رأسان وعاد مرزوق بيك مع مرضعته ومعه كتخد مراد بيك ثم عاد الكتخدا وشاع الخبر بقرب قدوم مراد بيك فاجتمع الأمراء عند إبراهيم بيك وخوفوه من حضور مراد بيك وعدم سكونه فحالفهم وعاهداهم أنه إن لم يعتدل يكون الجميع يدا واحدة عليه . فلما كان يوم الجمعة وصل مراد بيك إلى غمارة فركب إبراهيم بيك وقت القائلة في جماعة وخرج إلى ناحية البساتين ثم رجع من الليل وصعد إلى قلعة الجبل وملك الأبواب ومدرسة السلطان حسن والرملة والصليية والتبانة وأرسل إلى عثمان الشرقاوى وأيوب بيك ومصطفى بيك وسليمان بيك وإبراهيم أغا الوالى بأن يخرجوا على الفور من مصر وعين لهم دمياط والمنصورة وفارسكور لينذهبوا إليها فامتنعوا وأظهروا العصيان وأخلدوا إلى الترس والقتال فلم يروا لذلك سبيلا حيث ملك إبراهيم بيك القلعة وجميع المواقع الحصينة وقد بدأت جموع مراد بيك بالدخول إلى القاهرة فلم يروا بدا من الخروج وساروا إلى القليوبية ودخل مراد بيك في كبكة وسار إلى زيارة الإمام الشافعى فبلغه هناك خبر تباعد الشرقاوى ومن معه وقد كان يغضبه بغضا ما عليه من مزيد فأسرع وسار من فوره خلف قلعة الجبل ونزل إلى الصحراء وحث السير حتى أدرك قناطر أبى المنجا ونزل عليها وأرسل خلف الشرقاوى ومن معه طائفة من العسكر فأدركوهم عند شبرا شهاب وناوشوهم القتال وأدركهم مراد بيك فالتظموا فكبا بمراد بيك فرسه وكاد يهلك فأدركه أصحابه ووقعت بين الفريقين مقاتلة خفيفة ثم رجع مراد بيك ومن معه إلى القاهرة وسار الأمراء الخمسة المذكورون وعبروا إلى وردان وكان معهم رجل من كبار العرب اسمه طرهونة يدلهم على الطريق الموصلة إلى الصعيد فسار بهم فى طريق مقفرة وعرة ليس فيها ماء ولا نبات يوما وليلة حتى كادوا يهلكون من العطش وانقطع عنهم جماعة ممن تبعهم وكانوا ينقطعون عنهم كلما اشتد بهم الظمأ حتى اقتربوا من سقارة ورأوا أنفسهم على مقربة من الأهرام فضاق خناقهم وابتغوا بالوقوع فى مخالب العطب فطلبوا هجنا ليركبوها وتركوا أثقالهم ومن معهم فقام عليهم الاتباع ونهبوا الأثقال والأحمال وتفرقوا عنهم فتعطلوا وأناخوا مطاياهم وأسرع مملوك من ممالك الشرقاوى على فرس وحضر إلى مراد بيك وكان بالروضة فأعلمه بخبرهم فأرسل لهم طائفة من الجند فلم تجدهم وقد كانوا رحلوا إلى جهة

أخري خوفا من وقوعهم فى أيدي مراد بك واغتم الناس غما شديدا عندما شاع خبر هروبهم إلى الإقليم القبلى لما ينجم عن ذلك من تعطيل ورود الأقوات مع القحط والغلاء المستحوذ على البلد وبات الناس تلك الليلة وأصبحوا يوم الأربعاء حادى عشرى رجب سنة ثمان وتسعين وقد شاع الخبر بالقبض عليهم وكان من أمرهم أنهم لما وصلوا إلى ناحية الأهرام ووجدوا أنفسهم على مقربة من مصر تواروا قليلا وطلبوا من الدليل أن ينظر لهم طريقا يسلكون منها فركب الدليل وانطلق إلى مراد بيك وأعلمه بمكانهم فأرسل لهم جماعة ليقبضوا عليهم فأحسوا بهم فركبوا هجنا وتركوا أثقالهم ولوا هاربين، وكان أصحاب مراد بيك قد أكمنا لهم كميناً فلما مروا بالكمين خرج عليهم ومسك بزمام هجنتهم من غير ضرب ولا قتال وحضروا بهم إلى مراد بيك بجزيرة الذهب فباتوا عنده ليلتهم وأصبحوا فأنزلوهم بالمراكب كل بمفرده تخفروهم الممالك والأجناد وأبعدوهم إلى الأقاليم البحرية فلبثوا بها زمانا يسيراً ثم راسل بعضهم بعضا واتفقوا على الهروب إلى الصعيد فهرب بعضهم وقبض على بعضهم فشدوهم فى تنكيلهم.

واتفق بعد ذلك بقليل خروج الحاج إلى الأقطار الحجازية فأمرؤا عليه الأمير مصطفى بيك الكبير فخرج فى موكب خافل للغاية وبرز بخيامه إلى بركة الحاج ينتظر ما بقى من مال الصرة فطال عليه الانتظار فذهب إلى إبراهيم بيك وطالبه بالمال فأحاله على مراد بيك فامتنع مراد بيك وأكثر أمير الحاج من الإلحاح على مراد بيك فلم يسع مراد بيك إلا الدفع وعلم أنها مكيدة من إبراهيم بيك فخرج إلى قصره بالروضة مغضبا وأرسل فى الحال إلى الأمراء المنفيين والهاربين بالصعيد أن يتأهبوا فلما علم إبراهيم بيك بذلك أرسل يستعطفه وترددت الرسل بينهما ونظر إبراهيم بيك فلم يجد حوله أحدا من قومه ورفاقه وقد تركوه وذهبوا إلى مراد بيك فساء ذلك جدا وركب إلى الرميطة ووقف بها ساعة حتى سارت أحماله وأثقاله صحبة عثمان بيك الأشقر وعلى بيك أباطة يريد الصعيد وسار هو بعد ذلك من خلف الجبل وليس له من الأتباع سوى على أغا كتخدا الجاوشية وعلى أغا مستحفظان المحتسب وصناجقه الأربعة فلما بلغ مراد بيك خبر ركوبه على هذه الصورة ركب خلفه برهة من الليل ثم رجع وأصبح وهو منفرد بحكم البلاد فسر بذلك كثيرا وجعل يولى المناصب العالية لمن شاء من قومه واستقدم بعض الأمراء المنفيين وقلدهم بعض المناصب ونادى مناديه بالأمان وأخرج الغلال المخزونة لتباع على

الناس وقد كان اشتد بهم الجوع وعظم أمر مراد بيك وعلت كلمته فلم يترك للوالى شيئاً يتصرف فيه بل زاد فى الحجر عليه إذ كان ييغضه لميله إلى إبراهيم بيك عليه واتفق أن قدم فى هذه الأثناء رسول من دار السلطنة ومعه مرسوم سلطانى بتقرير محمد باشا الوالى المذكور على ولاية مصر سنة أخرى فظن الباشا بلوغ الأمل فطلب جميع الأمراء إلى الديوان ليقرا عليهم ذلك المرسوم كالعادة فلم يجبه أحد منهم وأهمل ذلك مراد بيك ولم يلتفت إليه فكرر الباشا الطلب فلم يسمعوا قوله فساء ذلك وأغضبه وأرسل إلى مراد بيك يعاتبه ويسفه رأيه فأرسل إليه مراد بيك فى الحال يأمره بالتزول من القلعة فامتنع فأرسل جماعة من أتباعه فأنزلوه قهرا إلى قصر العينى محجورا عليه وتولى مراد بيك النيابة وعلق الأستار فكانت ولاية محمد باشا المذكور أحد عشر شهرا سوى الخمسة أشهر التى أقامها بشعر الإسكندرية وكانت أيامه كلها شدائد ومحنا وخطوبا وإحنا وجوعا وغلاء وزيادة ونقصا فى النيل وغير ذلك . ولما استقر المنصب بمراد بيك وتم له الأمر أكثر من طلب الأموال وتفريد المغارم على البلاد فلما لم يبق فيها شيء حوّل الطلب على المتزمين وبعث لهم المعينين فى البيوت فاحتاج الكثير منهم إلى بيع متاعه ودوره ومواشيه بسبب ذلك ثم تطاولت أيدي عمال مراد بيك إلى الموارث فكان إذا مات أحدا أحاطوا بمتروكاته سواء كان له وارث أو لا . قال بعض كتاب الاخبار: وصار بيت مال المسلمين من هذا الحين منصبا من المناصب الديوانية التى يتولاها الناس بجملة من المال فى كل شهر ولا يعارض فيما يفعل فحل بالناس ما لا يوصف من أنواع البلى وانقطعت الطرق وكثرت عريدة الأشقياء والغوغاء ومنعت السبل إلا بالخفارة ورجل الفلاحون من بلادهم لقصور النيل وشرق الأرض والمظالم المتراكم بعضها فوق بعض وانتشروا فى جوف المدينة بأولادهم ونسائهم يضجون من الجوع ويأكلون ما يتساقط فى الطرقات من قشور البطيخ وغيره، ثم اشتد بهم الحال فأكلوا الميتات من الخيل والحمير والجمال . قال: فكان إذا خرج من المدينة حمار ميت تراحموا عليه وتضاربوا وقطعوه وأخذوه بل منهم من كان يأكل منه نيئا من شدة الجوع ومات كثير من فقراء المدينة أيضا جوعا وعز الدرهم والدينار فى أيدي الناس وقل التعامل فيما يؤكل أهـ.

ثم وردت الغلال من الديار الشامية والرومية فانفرجت الأزمة بعد الشدة وبيع الأردب منها بألف وثلاثمائة نصف فضة وأرسل شريف مكة إلى المشايخ والعلماء

يتشكى من انقطاع ورود غلال الحرمين فلم يلتفتوا إليه ولا ردوا عليه جوابا فكانت جميع هذه البلايا والمحن ضربة شديدة على هامة مراد بيك وسببا فى عجزه عن القيام بتدبير البلاد وسياستها لاسيما وقد كان إبراهيم بيك الكبير له بالمرصاد فلما أحس بعجزه وأيقن أن لا قبل له على تولى أمور البلاد أرسل إلى إبراهيم بيك الشيخ الدردير وآخرين معه ليكلموه فى أمر الصلح ورجوعه إلى القاهرة على ما يجب فساروا إليه وكلموه وبعد جدال قبل الصلح والعود إلى القاهرة بشرط رجوعه إلى مشيخة البلد ورجوع على أغا كتخدا الجاوشية إلى منصبه فلما رجع الرسل وأخبروا بما يسأله إبراهيم بيك جمع مراد بيك الأمراء وأصحاب المناصب العالية وقرأ عليهم شروط إبراهيم بيك فاذعنوا لها وأحلوها محل القبول وأعادوا الرسل بالإجابة فلما وصلوا إليه عاد فانتقض وطلب طلبات أخرى جديدة فعاد الشيخ الدردير ومن معه وأخبروا بانتفاض إبراهيم بيك فلم ير مراد بيك بدا من معاودته وأرسل إليه ثانياً أيوب بيك الكبير وأيوب بيك الصغير ليهوئاً عليه فلما وصلا إلى بنى سويف أرسلوا فاستقدا إليهما سليمان بيك الأغا وعثمان بيك الأشقر ثم ساروا جميعا إلى إبراهيم بيك وتكلموا معه فى الصلح فأجابهم وساروا جميعا إلى منية ابن خصيب ثم انحدروا منها إلى مصر فدخلوها فى يوم الاثنين رابع ربيع الثانى ستة تسع وتسعين ومائة وألف وحطوا رحالهم عند معادى الخيرى فعبّر إليهم مراد بيك فى عدة كبيرة من الأمراء والوجاقية والمشايخ وعانق مراد بيك إبراهيم بيك وبكى ثم عبروا جميعا النيل إلى مصر ودخل إبراهيم بيك بيته ودخل معه مراد بيك وليثا معا حصّة طويلة فأقام ثلاثة أيام ثم جاءه مرسوم الباشا بالاستقرار على مشيخة البلد ومع المرسوم خلعة الولاية فلبسها بحضرة مراد بيك والمشايخ فقام عند ذلك مراد بيك وقبل يده وكذلك بقية الأمراء وردّت الوظائف إلى أصحابها وأخذ إبراهيم بيك من يومه يتصرف فى الأمور وينظر فى مصالح الرعية فتزاحم أرباب الخصومات على بابه ورفعت إليه القصص فأمر ونهى وأعطى ومنع وقسم المناصب بين ذويها .

وأعقب رجوع إبراهيم بيك إلى القاهرة حصول طاعون شديد فأخذ فى الاشتداد يوما عن يوم وكثر بسببه الموات فخرج الناس من مصر والقاهرة إلى الضواحي والقرى فرارا منه فلحق بهم واشتد وسقط الناس فى الشوارع والطرق واهتم إبراهيم بيك بدفن الموتى فشد على الوالى وأعوانه فكانوا يطوفون فى النهار والليل ويحملون الموتى من الطرق على ظهور الدواب ويدفنونهم بغير غسل ولا كفن عشرات عشرات وطالت مدته فكانت ثقيلة للغاية حتى قدر الله فارفع وعاد الناس

إلى القاهرة وتناسوا أمره وكان عدد من مات لا يكاد يدخل تحت الحصر وأعقب
زوال الطاعون.

(مطلب)

عزل محمد باشا وولاية محمد يكن باشا

ورود الخبر من دار السلطنة بخلع محمد باشا وولاية آخر اسمه محمد يكن
باشا فلما وصل إلى الإسكندرية ومر بشوارعها يريد التفرج وقف له العامة بالطريق
وصاحوا في وجهه وسبوا حاكم الإسكندرية وقبحوا أعماله ونادوا عليه بالويل وكان
قد وقع بينهم وبينه فتنة كبرى وذلك أن أحد أتباعه وقع بينه وبين أحد العامة
مشاجرة أدت إلى الملاكمة فتناول تابع الحاكم وضرب الرجل فقتله فاجتمعت عند
ذلك العامة وعلت الضوضاء وكثرت الغوغاء وحملوا المقتول على نعش إلى مقر
الحاكم وشكوا له ما وقع من تابعه فحول وجهه عنهم ولم يلتفت إلى شكواهم
فألحوا عليه فأمر أعوانه بطردهم فثاروا وقبضوا عليه وأنزلوه من ديوانه وأركبوه على
حمار بالأكف عرضا وهو حاسر الرأس وعلا الصياح وطاقوا به جميع شوارع المدينة
على هذا الحال وهم يضربونه ويصفعونه بالنعال ويلطخون وجهه بالطين فكان يوما
عبوسا أقفلت فيه جميع الدكاكين وسدت الأبواب وانكمش الناس في بيوتهم
وتطاولت أيدي الحرافيش إلى الخطف والسرقة وفعل ما لا خير فيه وما زالوا على هذا
الحال اليوم كله حتى سقط الحاكم بين أيديهم فتركوه وتفرقوا فجاء أتباعه وحملوه
فلبث أياما كثيرة حتى تراجعت إليه صحته فلما كثر صياحهم في وجهه الباشا سأل
عن السبب فحدثوه بخبر ما جرى للحاكم فانقبض وهون عليهم ووعدهم خيرا ثم
نزل من يومه على إحدى السفن يريد القاهرة ووصل إلى امبابة فبات ليلته وأصبح
فذهب إليه الأمراء وأصحاب الوظائف وعبروا معه النيل إلى قصر العيني فلبث به
ثلاثة أيام ثم ركب في موكبه وصعد إلى قلعة الجبل فلما استقر به المنصب سأل مراد
بيك عن مال الخزينة السلطانية وطلب منه سرعة إرساله فأظهر العناية بذلك وسار
في جماعة من كشافه وماليكه وأتباعه إلى الغربية وجعل يطالب أهلها بالأموال وقد
فرض عليهم منها شيئا كثيرا فضلا عن الكلف الخارجية وغير ذلك فكان المعينون
للطلب إذا استوفوا شيئا من ذلك طلبوا حق الطريق فإن تأخرت قرية أو بلدة في أداء

شئ من ذلك قاموا عليها ونهبوها وربما قتلوا منها أناسا ولم يزل مراد بيك وأصحابه على هذا الحال حتى وصلوا إلى رشيد فقررروا على أهلها جملة من المال وكذلك على التجار واشتد الطلب وعين على الإسكندرية أحد كشافه وضرب عليه كذلك مائة ألف ريال نقرة وقيد معه بعض الجباة فعاثوا وشددوا وضيقوا وأمرهم بهدم جميع كنائس الإسكندرية فهدموا منها عدة كنائس وهرب التجار وسافروا إلى الديار الشامية والرومية وغيرهما فرارا من الطلبات المتابعة ثم أقفل راجعا بمن معه إلى الدقهلية ففعلوا بها ما فعلوه برشيد والإسكندرية ثم إلى الشرقية وغيرها. وقد أفحش كشافه بمصر والقاهرة في تعقب الناس وسلب أموالهم ومصادرة أصحاب البيوت. وهجموا يوما على بيت شخص اسمه أحمد سالم الجزار متولئ رئاسة دراويش الشيخ البيومي فنهبوه ولم يبقوا به شيئا ألبة فثار لذلك أهل الحسينية وحضروا إلى الجامع الأزهر وهم في ضجة وأمامهم طبول ودفوف فاجتمع عليهم جماعة كثيرة من العامة والسوقة وبأيديهم المساق والعصى وذهبوا إلى الشيخ الدردير وشكوا إليه فشجعهم وحرصهم على التظاهر والخروج فसारوا من الجامع وقد أقفلوا أبوابه وصعد منهم جماعة على المنارات وجعلوا يضجون ويضربون بالطبول ثم انتشروا في الأسواق وهم في صياح وجلبة وأغلقوا الحوانيت. قال بعض كتاب الأخبار: ومناهم الشيخ الدردير بالركوب معهم في غد ومعه أهل الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة لنهب البيوت أو أن يموتوا شهداء فلما كان بعد المغرب جاء سليم أغا مستحفظان ومحمد كخدا إبراهيم بيك وجلسوا في الغورية ثم ذهبوا إلى الشيخ الدردير وكلموه في الأمر وقد خافوا من تضاعف الخطب واستفحال الفتنة ووعدوه برء جميع ما أخذ من بيوت الحسينية وإجراء ما فيه المصلحة للعميان والمجاورين بالأزهر وبعد جدال تقررت القاعدة بينهم على ما ذكر وسكنت الفتنة وعادت الأمور إلى سابق مجراها.

ولما لم يرسلوا إلى الخزينة السلطانية ما لها من الأموال رغما عن كثرة الطلب أمر السلطان بتسيير بعض مراكب الحرب إلى الإسكندرية ورسولا مخصوصا معه مرسوم سلطاني خطابا إلى الأمراء في شأن ذلك فدخل الرسول القاهرة وسلم المرسوم إلى إبراهيم بيك فجمع إليه مراد بيك وبقية الأمراء وتكلموا في الأمر طويلا فلم يتفقوا على شئ وطال اجتماعهم أياما على غير جدوى فبينما هم على هذا الحال إذ جاءهم الخبر بحضور مراكب أخرى إلى ثغر دمياط وعلى إحدى تلك

كبار البحر المدعو حسن باشا فخاف الأمراء وارتبكوا في أمرهم وشاع الخبر فتحدث الناس به وكثر اللغظ فركب سليم أغا مستحفظان ونادى في الأسواق على الروم والغليونجية والترك المقيمين بمصر بأن يرحلوا إلى بلادهم بلا مهل ومن وجد منهم بعد ثلاثة أيام قتل بلا معاودة فآثر هذا النداء في الناس وتزايد خوفهم وأرسل إبراهيم بيك اثنين من كبار أمرائه إلى رشيد لخفارتها ولكي يتحالفوا مع عرب الهنادى على أن يكونوا عوناً لهم عند ميسس الحاجة ثم كتبوا قصة ليرفعوها إلى دار السلطنة تتضمن أنه لم يكن من مانع يمنع إرسال أموال الخزينة السلطانية سوى كساد الحال وتعطيل أسباب التجارة والزراعة وأنهم سيذلون جهد الاستطاعة في إرسالها في العاجل القريب. فلما كانت ليلة الخميس عاشر رمضان سنة مائتين وألف هجرية ركب إبراهيم بيك ومعهم مراد بيك وجماعة من الأمراء ومشايخ الوقت ودخلوا على الباشا بمقره فأعلموه بصورة ما وقع الاتفاق عليه وطلبوا وساطته بينهم وبين الباب العالي وأنهم من الآن يقومون بترتيب الأمور وتنظيم الأحوال على ما تشاؤه الدولة فكان طورا يمينهم وأخرى يقبح فعالهم ثم بعد أخذ وردّ وافقهم على إرسال قصتهم وسير بها كتخذه وانصرف الأمراء وهم لا يدرون ما ستكون عاقبة حضور تلك السفن. وجاءهم الخبر بعد أيام قلائل من حاكم رشيد بأن قد نزل فريق من العساكر العثمانية المنظمة بالأسلحة وآلات الحرب إلى البر ومعهم قائد من كبار القواد وأنه لم يعرف شيئا من عزمهم فكبر خوف إبراهيم بيك ومراد بيك وهالهما حضور العساكر فشدوا في جمع غلال الحرمين وغلال الأنبار وجمع أموال الخزينة السلطانية وبالغا في التشديد وألزموا المعلم إبراهيم الجوهري عظيم القبط بمصر يومئذ بجميع ذلك وبعثوا سفراء إلى حسن باشا أمير سفن الحرب من المشايخ والعلماء والوجاقية ومعهم هدية مائة فرق من البن اليمني ومائة قنطار سكر وعشر بقج ثياب هندية وتفاصيل كثيرة وعودا وعنبرا وغير ذلك فسافروا في يوم الجمعة ثامن عشر رمضان من السنة فلم يكادوا يبلغون الإسكندرية حتى قدم إلى القاهرة رسول من قبل تلك السفن واجتمع بإبراهيم بيك قيل وعاتبه وقال: كيف تبعثون بسفارة إلى الأمير في طلب الصفح عما وقع والعفو عما فات وقد أخذتم أهبتكم للحرب والقتال وأكثرتم من جمع الأسلحة والكراع؟ فقال إبراهيم بيك: معاذ الله أن نحارب رجال دولتنا وأمناء سلطاننا على عساكره وجنوده وهب أنا فعلنا فقد تبنا وندمنا ورجعنا إلى الحق فقال: وكيف ذلك وقد بعثتم منذ أيام يقوم قد طافوا البلاد فضربوا على أهلها

المغارم الثقيلة والمكوس الفادحة وجمعوا الغلال وضربوا على كل بلد أردبين من بن القهوة وهذا الصنف غريب عن زراعة البلاد حتى ضج الناس وهربوا وتركوا البلاد خاوية على عروشها وهامهم يموتون جوعاً وبرداً على الجسور وسواحل الترع وقد أقلق القبطان صوت صراخهم فقال مراد بيك وقد كان حاضراً ليس فى الأمر شئ من ذلك وما هى إلا وشاية من الأعداء يقصدون بها إبعادنا عن رحمة سلطاننا ورضائه وما أنت قد رأيت أن لا مدافع عندنا ولا بنادق ولا أثر للاستعداد والله الحمد. قال بعض الكتاب: ولم يكن القول من رسول أمير السفن بتطواف الأمراء فى البلاد وأخذ الكلف والمغارم جزافاً فإنه لما سافر الأمراء الاثنان اللذان بعث بهما إبراهيم بيك لخفارة رشيد وسافر معهما أتباعهما وبعض الجند والماليك مروا بالبلاد وطلبوا هذه الكلف والمغارم وحرقوا وردان لعدم إذعان أهلها لطلب فضج الناس وذهبوا إلى المعسكر العثمانى وشكوا إلى مقدم العسكر ما ألم بهم فهوّن عليهم وكتب لهم فرماناً برفع الخراج عنهم ستين ثم سار مقدم العسكر المشار إليه من الإسكندرية إلى رشيد فى أبهة وجلالة وكتب عدة فرامين بالعربية إلى مشايخ البلاد وأعيانها ومشايخ العربان وأصحاب الكلمة من أهالى المدن يقول فيها ما نصه :

صدر هذا فرمان الشريف الواجب القبول والتشريف من ديوان حضرة الوزير المعظم والدستور المكرم على الهمم وناصر المظلوم على الظالم مولانا العزيز غازى حسن باشا سر عسكر السفر البحرى المنصور حالاً ودونائمه همايون أيدت سيادته السنية وزادت رتبته العلية إلى المشايخ وعمد البلاد ومشايخ العرب المقيمين بديار مصر وفقهم الله تعالى. نفهمكم أنه بلغ حضرة مولانا السلطان نصره الله ما هو واقع بالقطر المصرى من الجور والظلم للفقراء وكافة الناس وأن سبب هذا خائنوا الدين إبراهيم بيك ومراد بيك وأتباعهما فتعينا بخط شريف من حضرة مولانا السلطان أيده الله بعساكره المنصورة بحراً لرفع الظلم ولإيقاع الانتقام من المذكورين وتعين عليهم عساكر منصورة براً بسارى عسكر عليهم من حضرة مولانا السلطان نصره الله وقد وصلنا إلى ثغر الإسكندرية ثم إلى رشيد فى سادس عشر رمضان سنة مائتين وألف فحررنا لكم هذا فرمان لتحضروا وتقابلونا ثم ترجعوا إلى أوطانكم مجبورين مسرورين إن شاء الله تعالى فحين وصوله إليكم تعملوا به وتعتمدوه والحذر ثم الحذر من المخالفة وقد عرفناكم ١٠هـ.

فلما علم إبراهيم بيك ومراد بيك بما جاء فى ذلك فرمان من الوعيد والتهديد

كبر خوفهما وكادا يسقطان فى أيديهما واجتمعوا بأصحابهما وتشاوروا فرأوا أن الحرق قد اتسع والوحشة قد استفحلت والقَتال لا بد منه فاستقر رأيهم على العصيان والخروج عن طاعة السلطان وكان النيل قد أخذ فى الزيادة فباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد بدءوا فى جمع العساكر وتجنيد الجند وإعداد معدات الحرب واتفقوا على أن يسيروا هذا الجيش مع مراد بيك إلى مدينة فوة فيمنعوا الطريق ثم يرسلوا إلى حسن باشا المشار إليه خطاباً يعلمونه بأنهم شارعون فى عمل الحساب والقيام بغلاق المطلوب للدولة ويسألونه الرجوع إلى دار السلطنة فإن امثل فيها وإلا فالخرب . وجمعوا السفن وعبوا الذخيرة ونقلوا متاعهم وأثاثهم ورياشهم إلى بيوت أخرى صغيرة بجهة المشهد الحسينى والشنوانى والأزهر وأمروا بغلق الأسواق ليلاً والكف عن الختومات والقراآت فى ليالى رمضان فكثرت عند ذلك اللغط وتزايد الهرج وخاف الناس سوء العاقبة وظهرت على مراد بيك وإبراهيم بيك وأصحابهما لوائح الخذلان وبرز مراد بيك بعسكره إلى ناحية بولاق وعبروا النيل ليلاً إلى انبابه ونصبوا معسكرهم وخرج مع مراد بيك مصطفى بيك الداودية ومحمد بيك الألفى وحسين بيك الشفت ويحيى بيك وعثمان بيك الأغا وعثمان بيك الشرقاوى وعثمان بيك الأشقر فسأيرهم إبراهيم بيك الكبير مودعاً وعانق كلاً منهم وعاد إلى القاهرة وسار مراد بيك قاصداً فوة وأصبح إبراهيم بيك وقد عاد رسله الذين ساروا إلى أمير سفن الحرب العثمانية وقالوا إنهم اجتمعوا عليه ثلاث مرات الأولى عند وصولهم فقابلهم بالإعزاز وأكرم وفادتهم وأنزلهم بمكان ورتب لهم المأكل والمشرب فى الإفطار والسحور ثم دعاهم فى ثانى يوم وكلمهم قليلاً فى أمر البلاد وما يكابده أهلها من جور الحكام وظلم الولاة والحروب المستمرة وأنه قدم ليعاقب الظالم . قال راوى هذه الحكاية : فقال الشيخ العروسى يامولانا رعية مصر ضعفاء وبيوت الأمراء مختلطة ببيوت الأهلالي وهذه طامة كبرى فقال : لا تخشوا من شيء فإن أول ما أوصانى مولانا أوصانى بالرعية وقال إن الرعية وديعة الله عندى وأنا استودعتك ما أودعنيه الله تعالى ثم قال : كيف ترضون أن يملككم ملوكان كافران وترضونهم حكاماً عليكم يسومونكم العذاب والظلم ؟ ولماذا لم تجتمعوا عليهم وتخرجوهم من بينكم ؟ فأجابه إسماعيل أفندى الخلوتى وقال هؤلاء يامولاي عصبة شديدة البأس وكلهم يد واحدة فغضب الأمير من قوله ونهره وقال : ويحك أترهبنى بياسهم وشدتهم ؟ فاستدرك وقال أعنى بذلك يامولاي أنفسنا لأنه أضعفوا الرعية فحول وجهه عنهم

ساعة ثم صرفهم قالوا والثالثة كانت فى يوم الجمعة بعد الصلاة فاستأذنو فى الانصراف فقال فى غد أكتب لكم مرسوماً للرعية فتقرءونه جهاراً فى الجامع الأزهر فاعتذر الشيخ العروسى وقال تشدد الفتنة يامولاي فقبل عذره وقال يكفى الاستفاضة ثم عوقبهم يومين آخرين ثم كتب لهم مكاتبات وسلمها إلى أحدهم سليمان بيك الشابورى وسرحهم فودعوه ورجعوا وحدثوا بما جرى . . أما رسول إبراهيم بيك الذى سار بالهدية إلى مقدم العسكر الشاهانى والمكاتبة كما تقدم فإنه لما وصل إلى الإسكندرية قبض عليه مقدم العسكر المشار إليه وعوقبه عن السفر إلى دار السلطنة وأخذ منه المكاتبة ثم سرحه فعاد إلى القاهرة وأخبر بما جرى له . ووزع مقدم العسكر المذكور عدة مراسيم على مشايخ البلاد وكبار القرى وقد كانت هذه المراسيم وردت إليه من دار السلطنة خطاباً إلى المشايخ والأعيان فشاع خبرها وتحدث الناس بها وبالغوا وهولوا وأرجفوا وقالوا: لم يبق إلا الحرب والقتال فركب إبراهيم بيك عندئذ واجتمع بالشيخ العروسى والشيخ الدردير والشيخ البكرى وكلمهم فى أمر العامة وأراجيفهم وحثهم على مراقبة أحوالهم ولزوم حضهم على ملازمة الهدوء والسكينة وأبلغهم خبر انتصار عسكر مراد بيك على بعض العساكر العثمانية بعد قتال عسى أن تهدأ الخواطر وتطمئن القلوب مع أنه لم يحصل شيء من ذلك إلى يومها . وجعل إبراهيم بيك يوالى إرسال المدد والمؤن والأسلحة إلى مراد بيك فكانوا يمرون بها من وسط المدينة ليراها الناس ويعجبوا بها .

وبينما هم على هذا الحال من المواربة وإخفاء الحقائق إذ رست ببولاق مصر سفينة من السفن التى كانت تتبع عسكر مراد بيك فى النيل وفيها كثير من المرضى والجرحى من العسكر والمماليك والوجاقلية فتسابق الناس لاستطلاع أحوالهم ومعرفة حقيقة أخبارهم فأخبروا بهزيمة مراد بيك وعساكره وتمزيق شملهم . وذلك إنه لما وصل مراد بيك إلى الرحمانية عبر سليمان بيك الأغا وعثمان بيك الشرقاوى والألفى النيل إلى البر الشرقى وساروا فوقع بينهم نزاع أدى إلى الخلف فراجع بعضهم بعضاً فكان ذلك أول الفشل ثم تقدموا إلى محلة العلويين وكان بها فريق من العساكر الشاهانية فأخلوا عنها فدخلوا إليها وملكوها وأرسلوا إلى مراد بيك فى طلب المدد فرسم إلى بعض الأمراء أن يعبروا النيل لإمدادهم فامتنعوا فأكبر مراد بيك ذلك وأعظمه وسير بدلهم جماعة من العربان ثم أمر بالركوب فركب من ركب وتأخر من تأخر وسار العسكر جميعه يريدون قوة فصادفهم فى طريقهم فريق من

العساكر الشاهانية وراء المتاريس فخافوا من التقدم إلى الأمام لسوء الطريق وضيقه وكثرة المساقى والمزارع، وكان في مقدمة العساكر المصرية سليمان بيك أحد كبار الجند فلما صاروا في مقربة من متاريس عسكر السلطان وجهت العساكر السلطانية أفواه بنادقهم نحو سليمان بيك المذكور ومن معه فاندعر ورجع مسرعاً إلى الوراء فكبأ به فرسه وسقط فحصلت في جموعه ضجة وظنوها هزيمة فرجعوا جميعاً القهقري فتبعهم العربان الذين كانوا معهم وأخذوا منهم ما قدروا على أخذه من متاع وسلاح فعبروا النيل وكان مراد بيك محتلاً بمن معه في مكان ضيق وعرة المسالك فأشاروا عليه بتركه والارتحال إلى غيره واجتمعوا وهم على يقين من الهزيمة فكانوا يتخيلون أن العساكر السلطانية سائرة خلفهم ومن أمامهم لتذيقهم مر العطب ومازالوا على هذا الحال من الخوف والطيرة حتى خيم الليل فساروا تحت جنح الظلام ورجعوا القهقري وطارت الأخبار بذلك في مصر والقاهرة فعم الخوف جميع الأهالي وصاروا يضطربون من كل شيء ويتطربون من كل شيء فكان إذا صاح صبي يا أماء ظنوا صياحه مقتلة وإذا نادى مناد على شيء قالوا هي عريضة. واتفق أن مملوكاً أراد الركوب على حمار أحد المكارية فازدحم عليه الحمارة على عادتهم وتراكموا خلفه ناحية الصاغة فظن الناس أنها وقعت وأن العدو على أبواب الصاغة فتراكموا جماعة خلف جماعة وصاحت الصغار فاضطرب أصحاب الحوانيت وأسرعوا في غلق حوانيتهم بالأشراقية والغورية والعقادين إلى باب زويلة وغيره من الجهات القريبة ثم ظهر بعد ذلك أن لا شيء ألبتة فعاد الناس إلى أشغالهم. ووصل في غروب ذلك اليوم كثير من الجرحى والمرضى من عسكر مراد بيك ومماليكه وطوائفه فزاد الإرجاف واشتد القلق ونزل الباشا من القلعة إلى باب العزب واستقر به وهم إبراهيم بيك بأخذ أبواب القلعة فلم يفلح وأرسل الباشا يطلب قاضي القضاة والمشايخ في تلك الليلة، فصعد إليه بعضهم وتأخر البعض إلى الصباح فصعدوا جميعاً وصعدت كذلك طوائف الوجاقلية ورفع الباشا البيرق على باب العزب ونزل جاورش مستحفظان وجاورش العزب وأمامهما المناداة على العسكر والأجناد والطائعين كافة لله تعالى وللسلطان أن يأتوا تحت البيرق فخرج جميع العساكر والأجناد والتجار وأهل خان الخليلي وعامة الناس على اختلافهم حتى امتلأت الرمييلة وقراמידان من الخلائق وأرسل الباشا يستحث أمير السفن العثمانية في القدوم وكان في عزمه التبرص إلى خروج الحاج فيأتي إلى القاهرة ومعه العساكر البرية أيضاً فأخذ يتأهب

للمحضور ووردت الأخبار بذلك إلى إبراهيم بيك .

ولما رأى إبراهيم بيك تسابق الناس إلى الطاعة واجتماعهم بقراميدان والرميلة وغيرهما أخذ فى نقل أمتعته من ثقليل وخفيف إلى دوره الصغيرة واحتجب عن الناس إلا القليل وتركه الأمراء كافة وطلعوا إلى الباشا يطلبون الأمان فكان الرجل منهم يأتى إلى باب العزب فيطرقة وينادى فلان يطلب الأمان ويكرر النداء ويتنظر واقفاً على أقدامه برهة طويلة حتى يأتية فرمان بالأمان فيدخل بغير سلاح خاضعاً ويبقى مع من بالقلعة أما الصغير منهم فإنه بعد أن كان يعطى له الأمان يتحدر إلى الرميّة أو قراميدان ويبقى مع من هم بها وكان الذين طلبوا الأمان من كبار الأمراء جماعة كثيرة وكذلك من الغز والأجناد، ولما تكامل حضور من حضر من المشايخ والعلماء الطائعين أبرز الباشا خطأ سلطانياً وقرأه عليهم وهو يتضمن الحث على سرعة إرسال إبراهيم بيك ومراد بيك إلى دار السلطنة وتأمين كل من يطلب الأمان أو غير ذلك وبعد تلاوة ذلك المرسوم أقر بعض أصحاب الوظائف العالية فى مناصبهم وفرق بقية الوظائف بينهم ونزلوا إلى المدينة ونادوا بالأمان والبيع والشراء ونادوا كذلك فى الناس بالانصراف إلى بيوتهم بشرط الإجابة عند الطلب ولم يبق إلا المحافظون على الأبواب وأصحاب الرتب . أما مراد بيك فإنه حضر فى ثانى يوم هذا الحادث إلى جهة انبابة وبات ليلته تلك وقام غلساً إلى جزيرة الذهب وركب إبراهيم بيك فى تلك الليلة وذهب أيضاً إلى الآثار ونادى المنادى فى ثانى يوم بصعود الناس إلى قراميدان والرميلة فصعدوا أفواجاً أفواجاً وكثر زحامهم فنودى فيهم بالأمان وملازمة الهدوء والسكون . وتخيل الباشا من إبراهيم بيك أمير الحاج وقد كان بمن طلب الأمان فرسم له عند ذلك بالتزول إلى بيته فتزل من القلعة إلى جامع السلطان حسن وأقام به فأرسل إليه الباشا بالذهاب إلى بيته فذهب واجتمع ببعض الأمراء فى تلك الليلة سراً وأصبحوا فخرج سليمان بيك وأيوب بيك الكبير والصغير . وهم ممن طلبوا الأمان أيضاً فأجيبوا إليه وساروا إلى مضرب النشاب وركب إبراهيم بيك أمير الحاج وذهب إلى بولاق ليأخذ جمال المناخ المعدة لخدمة الحاج فمنعه من أخذها عسكر المغاربة فرجع إلى مضرب النشاب فلما جاء الخبر بذلك إلى الباشا بعث إليهم رسولاً ومعه مرسوم خطاب لهم بأن يرجعوا إلى بيوتهم وأن لا يجتمعوا أبداً على هذه الصورة فمزقوا المرسوم وضربوا الرسول وأقاموا على هذا الحال أياماً بالمصاطب فاجتمعت عليهم عند ذلك طوائفهم وركبوا ولحقوا بمن خرج

قبلهم فاضطربت البلد وظن الناس صعودهم إلى المقطم بالمدافع ليطلقوها على المدينة والقلعة وأغلق الناس حوانيتهم فركب الباشا بعد صلاة الجمعة وركب كذلك قائد أغا ومعهما كثير من المماليك والعسكر يحملون البنادق والقرايين ووصلوا إلى الرملة ورموا بالبنادق على جماعة الأمراء وأطلقوا عليهم المدافع فانحدر المتحزبون إلى الصليية ثم باب زويلة ومروا بالغورية والأشرفية وبين القصرين وطلعوا من باب النصر وأمامهم المنادى ينادى أمان. واطمئنان حكم ما رسم إبراهيم بيك ومراد بيك وحكم الباشا بطل فلما سمع الناس ذلك ورأوا اجتماع الأمراء على هذه الصورة انزعجوا وأغلقوا الدكاكين وهاجوا وماجوا وعلم الباشا بخروجهم على هذه الصورة فأمر فحصنوا القلعة والمحمودية والسلطان حسن ونادى الأغا في الجند والعسكر بالصعود إلى قلعة الجبل فصعدوا وجعل كل فريق يتأهب للحرب والقتال وعم الخبر مصر والقاهرة فانتشر عند ذلك الأشقياء في الطرق والحارات ينهبون المارة وتناولت أيديهم إلى القتل فى رابعة النهار وانقطعت الطرق حتى إلى بولاق القاهرة ومصر القديمة وركب إبراهيم بيك وحسين بيك فى نفر وأتوا إلى مناخ الجمال ليأخذوا جمال الحاج فدفعهم المغاربة فعربدوا فى ذلك الصقع عريدة لا توصف وطلعوا بعد العشاء وياتوا فى السبيل الذى على رأس الرملة وشدد الباشا فى طلب العسكر وأنفق عليهم نفقة عظيمة فكثر تواردهم إلى قلعة الجبل وفى مواقع المتاريس والحصون واشتد الكرب بالناس وضاق خناقهم وكان الصياح لا ينقطع فى كل يوم فى أطراف الحارات من قحة اللصوص وتسلبت النشالين ودخلهم البيوت ليلاً وقتالهم مع أصحابها نهائراً وشاع فى هذه الأثناء خبر وصول بعض مراكب حرب الدولة إلى شلقان ومجئ حسن باشا مقدم العسكر السلطانى ففرح الناس وصعدوا إلى المنارات وأعلى الأسطحة ينظرون إلى النيل فلم يروا شيئاً فى ذلك اليوم فاشتد الانتظار وزاغت الأبصار فلما كان بعد عصر اليوم سمع صوت مدافع على بعد فأجابتها مدافع القلعة وفرحوا واستبشروا وحصل بعض الاطمئنان وصعدوا إلى المنارات فرأوا عدة مراكب ونقاير رست على بولاق القاهرة فسروا سروراً ما عليه من مزيد وضجوا ضجيج الفرح فارتجت الأرض من ضجيجهم وكان مراد بيك وجماعة من أمرائه قد ذهبوا إلى بولاق وشرعوا فى عمل المتاريس جهة السبئية وأحضروا عدة مدافع وجمعوا أخشاباً و شيئاً كثيراً من حطب الذرة وزنايل وغير ذلك فبينما هم يشتغلون فى إحكام تلك المتاريس إذ دهمتهم مراكب حسن باشا تجاه المتاريس

فتركوها وولوا الأدبار فضج الناس وصاح الصبيان صياح الهزء والفرح وخرجت النساء يزغردن واحتطن بمدافع مراد بيك. وكسرن أخشابها وأخذنها للحريق.

واجتمع إبراهيم بيك ومراد بيك وجميع الخوارج وكتبوا إلى قاضى القضاة والمشايخ يظهرئون التوبة والرجوع إلى الطاعة فقرئت كتابتهم بحضرة محمد باشا يكن. قال الراوى: فقال سبحانه الله كم يتوبون وكم يعودون فاكتبوا لهم جواباً معلقاً على قدوم قبطان باشا فكتبوا لهم بذلك ووصل حسن باشا فى عشاء ليلة الاثنين ثانى عشر شوال سنة مائتين وألف فأطلقوا لقدمه المدافع من بولاق القاهرة ويات ليلته وأصبح فركب ودخل القاهرة من ناحية باب الخرق ونزل بيت إبراهيم بيك الكبير بأتباعه وحاشيته وعسكره. ووصل بعده الشيخ الأثرم المغربى فى طائفة من المغاربة. فتزل بهم بيت يحى بيك فسكن الحال واطمأنت قلوب الرعية وفتحت أبواب قلعة الجبل ونزل من بها وشاع الخبر بذهاب إبراهيم بيك ورفاقه إلى الإقليم القبلى. من خلف الجبل فسارت خلفهم طوائف العسكر على ظهور السفن لقتالهم فقبضوا على عدة مراكب مشحونة بالذخيرة والمؤن وأنفذ حسن باشا أمير السفن رسلاً إلى إسماعيل بيك الكبير وحسن بيك الجداوى يطلبهما إلى مصر وكانا مبعدين بالإقليم القبلى كما تقدم وجمع محمد باشا يكن من بقى من أهل الخير من الأمراء وقلدهم المناصب العالية وسلمهم الوظائف ورتب أمور البلاد ترتيباً محكماً وأباح على ما قيل للعساكر الشاهانية نهب بيوت الأمراء الفارين فدخلوا بعضها وأخذوا ما وجدوه من أمتعة وأثاث وتبعهم العامة والحرافيش فبلغ ذلك مقدم العسكر فركب بنفسه وطاف المدينة وقبض على من صادفه من العسكر وعلى من وجده فى تلك البيوت فقتل جماعة منهم ممن كانوا يحملون بعض المنهوبات فانكفوا عن النهب ثم نزل من باب زويلة ومر بالغورية ودخل من عطفة الخياطين على باب الأزهر وذهب إلى المشهد الحسينى فزاره وكان قد زاد إعجابه بنفسه أو شى إليه بعض الوشاة فأمر فنودى على النصارى أن لا يركبوا الدواب المظهمة وأن لا يستخدموا المسلمين ولا يشتروا الجوارى ولا العبيد ومن كان منهم عنده شىء من ذلك باعه أو أعتقه وأن يلزموا زيهم الأصلى من شد الزنابير والزنوط فسلط العامة عليهم وتبعوهم بالإيذاء ومن جدوه يغير زنار رجموه بالحجارة وحثوا التراب فى وجهه فانكمشوا وانكفوا عن الخروج أياماً وأرسل يطلب من قاضى القضاة إحصاء ما أوقفه المعلم إبراهيم الجوهري عظيم القبط بمصر يومئذ على الكنائس والديارات من أطيان ورزق وأملأك

وغير ذلك ثم أحس بما وراء ذلك من الفشل وظهور الفتنة فخاف واستدعى إليه المعلم إبراهيم. وكلمه فى الأمر فصالحه المعلم إبراهيم على مبلغ عظيم من المال فأمر فنودى فيهم بالأمان وعدم التعرض لهم بمكره فعادوا إلى ما كانوا عليه وكان ما فعله بالقبط مشجعاً للعساكر السلطانية على العود إلى الخطف من السوق وأصحاب الخوانيت وكثر تعديهم على أهل الحرف مثل القهوجية والحمامية والمزينين والخياطين وغيرهم فكان يأتى الرجل منهم إلى الحمامى أو القهوجى أو الخياط ويخلع عنه سلاحه ويعلقه على باب الحمام أو القهوة أو حانوت الخياط ويرسم رنكه فى ورقة أو على باب دكان آخر وكأنه صار شريكه وفى حمايته ثم يذهب حيث شاء أو يجلس متى شاء ثم يأتى فى آخر اليوم ويحاسبه ويقاسمه فى ربح يومه ذلك قيل وهذه عادتهم إذا ملكوا بلدا ذهب كل ذى حرفة إلى حرفته التى كان يحترفها فى بلده ويشارك ابن تلك البلد فيها، فثقل على أهل مصر هذا الفعل وشكوا للبasha واستغاثوا فنودى بإبطال هذه المحنة ومن أتاها عسكرى يشاركه أو يأخذ منه شيئاً بغير حق قبض عليه وضرب وأتى به إلى الحكام ثم طاف الوالى وقبض على كل من وجده منهم بالحمامات والقهاوى وطردهم ونهرهم فلم ينكفوا إلا بعد حين ورسم حسن باشا أمير السفن فجمعت ودائع جميع الأمراء وأموالهم المحفوظة عند الناس واستحضرت زوجات إبراهيم بك الكبير وأخذ ما كان عندهن من مال وحلى وغيره، وكذلك زوجات مراد بيك وقبضوا على خفراء الحارات ليدلوا على البيوت التى فيها تلك الدوائع فلم يتركوا محلاً إلا فتشوه وأخذوا ما فيه ونودى فى الأسواق بأن من كان عنده وديعة أو شئ من متاع الأمراء الخارجين ولم يظهره فى ثلاثة أيام أهدر دمه من غير معاودة وحجروا على زوجات إبراهيم بك ومراد بيك بيت كتحدا أياماً كثيرة فشفع فيهن العلماء والمشايخ فلم يفرج عنهن واستحضر النحاسين والدلالين وأخرجوا جوارى إبراهيم بيك وباقي الأمراء بيضاً وسوداً وأخباشا ونودى عليهن بالبيع والشراء فى حوش البيت فبيعوا بأبخس الأثمان اشتراهن طوائف الضباط والعساكر السلطانية واشتد أمير السفن فى الغلظة وبالع فى التهديد فأمر ببيع ولدى إبراهيم بيك الكبير وهما مرزوق بيك وعديلة هانم وضيق على زوجاته تضييقاً عظيماً فاجتمع المشايخ وصعدوا إلى قلعة الجبل وكلموا الوالى فى ذلك وقالوا: هذا أمر لا ترضاه الشريعة ولا يجوز قطعاً بيع الأحرار وطلبوا منه أن يراجع أمير السفن فى ذلك فقال: لا قدرة لى على رد كلمته فاذهبوا أنتم إليه وكلموه. قالوا ولا بد من

أن تذهب معنا فذهبوا جميعاً وكلمه الشيخ السادات وقال: يامولانا قد بعثك السلطان لتذب عن الشريعة المطهرة وتقيم الحدود وتقطع عرق الفساد وتمنع الظالم عن المظلوم لا أن تهدم معالم الدين وتبيع الأحرار فلما سمع كلام الشيخ السادات اغتاض وأشار إلى أحد الكتاب أن اكتب أسماء هؤلاء المشايخ كي أبعث بها إلى السلطان وأعلمه بحالهم وتوقفهم في سبيل أعمالي ثم التفت إليهم وقال: لا أجد الآن للإقامة بين ظهرانيكم سبيلاً وقد عازمت على الرجوع فليرسل إليكم مولانا السلطان آخر فتروا ماذا يفعل بكم أو ما كفاكم أنى في كل يوم أقتل من عسكرى طائفة على أيسر شيء دفعا لأذاهم عن البلاد وأهلها وإرهابا لمن لم يعرف الحدود ولو كان قائد هذه الجموع غيرى لنظرتم كيف كانت تفعل بالبيوت والأسواق والناس فخاف المشايخ وسقطوا في أيديهم وتلجلج فصيحتهم وقالوا إنما نحن يامولانا شفيعون والواجب علينا قول الحق ثم انصرفوا وهم على أشد ما يكون من الخجل.

ولما كان يوم السبت غرة القعدة من السنة قدمت إلى القاهرة الجيوش البرية ومعهم أمير اسمه عابدى باشا وآخر اسمه درويش باشا وهما مقدما الجيش المذكور فلاقاهم حسن باشا بالعدالية وسار معهم حتى دخلوا المدينة في أبهة وجلالة وعسكروا بها فلم يحصل منهم إيذاء ولا عريضة بل كانوا إذا اشترى أحدهم شيئاً نقد صاحبه ثمنه حالاً وياتوا تلك الليلة بخيامهم عند سبيل قماز وأصبحوا وقد ركب عابدى باشا ودرويش باشا وسارا أمام العسكر إلى البساتين فمروا بالصحرَاء وباب الوزير وأجروا عليهم الرواتب من الخبز واللحم والأرز وكأنه لما استقر بهم المقام تأقت نفوسهم إلى استخدام الجوارى كما فعل عسكر حسن باشا بجوارى الأمراء المصريين وجوارى قنطرة مصر، فقد نودى بعد أيام على المسيحيين من أهل البلاد كافة بإحضار ما عندهم من الجوارى ثم نزل العساكر بعد النداء وهجموا على بيوت المسيحيين واستخرجوا ما فيها من الجوارى والعبيد فكان شيئاً كثيراً وأحضروهم إلى حسن باشا فباعهم إلى العسكر بأبخس الأثمان ثم صاروا يبيعونهم بالمرابحة فإذا أراد أحد أن يشتري جارية ذهب إلى بيت الباشا وطلب ذلك فيعرض عليه الجوارى من مكان عند بيت النساء فإذا أعجبه جارية أو أكثر حضر صاحبها الذى اشتراها فيخبره برأس ماله ويقول له: وأنا آخذ مكسبى كذا فلا يزيد ولا ينقص فإن أعجبه الثمن دفعه وإلا تركها وذهب ثم وقع التشديد على ذلك وأحضروا الدالين والنحاسين واستدلوا منهم على من عنده واحدة من الجوارى فكانوا يفتشون بيوتهم دفعات

متوالية حتى اشتد الكرب وعم الخطب ولم يقف حسن باشا المذكور عند هذا الحد من الجور والعسف بل أمر فجمعوا المهندسين والبنائين ليدلوا على الخبايا والمطامير التى ربما يكونون قد أنشئوها للأمراء والناس كافة فى بيوتهم فكان لا يشعر صاحب البيت وهو بجانب عياله إلا وقد هجم عليه جماعة من العسكر ودخلوا البيت وأخذوا ينقبون الحيطان وينشون الأرض ويدخلون المحال بلا حياء فيأخذون ما يجدونه من فراش أو نحاس أو غير ذلك ويخرجون وصاحب البيت فى دهشة وجمود لا يدرى ما سبب حضورهم ولا ما أخذوه وهكذا حتى ضج الناس وعم الخوف وراجت السعاية وظهر شأن أصحاب الدسائس والفتن، وعمت الشدة جميع النصارى فضربت عليهم المغارم وطولبوا بخمسة وسبعين ألف ريال نقرة وأمر بإحضاء جميع دورهم وملكهم فأحصيت فقرر عليها أجرة تدفع إلى خزينة السلطان ثم ضرب عليهم غرامة أخرى قدرها خمسة آلاف كيس فضاقت عليهم الدنيا برحبها وباع الكثير منهم جميع ما عنده حتى ملابسه وملابس عياله وقرر على كل شخص منهم جزية جديدة قدرها دينار بلا فرق وذلك خلاف الجزية الديوانية المقررة على كل واحد منهم، وتتبع الديارات وأخذ كل ما وجده فيها من ودائع وقبض على المعلم واصف أحد عظماء القبط يومئذ ورئيس حسابات الديار المصرية وعليه جميع الإيرادات والمصروفات فجلبه وحبسه وطالبه بالأموال وكان المعلم واصف المشار إليه كاتباً حاسباً عاقلاً حاد الذهن وقاد الذاكرة وكان يعرف التركية حق المعرفة وقبض أيضاً على نساء المعلم إبراهيم الجوهري وكن فى بيت حسن باشا كسختها على بيك أمين الحساب وضيق عليهن فاعترفن ببعض الخبايا فأخرجوا منها أمتعة وأواني ذهب وفضة وسروجاً وغير ذلك فأخذها ولم يترك سراج النساء بل بقين تحت الحجر أياماً كثيرة .

وجاء الخبر بوصول إبراهيم بيك الكبير ومراد بيك ومن معهما إلى أسىوط وأن السفن الحاملة للعساكر السلطانية سائرة خلفهم فبعث حسن باشا بسفن أخرى وعليها بعض طوائف الجند فسارت ولحقت بالأولى فلما صاروا أمام أسىوط أطلقوا عليها المدافع تباعاً فأجابتهم مدافع إبراهيم بيك ثم ترفع إبراهيم بيك ومن معه إلى الجبانة فلم تتمكن السفن من إطلاق المدافع عليهم ويعثوا إلى حسن باشا بذلك فعقد الديوان وجمع الأمراء وقلد قاسم بيك أبو سيف ولاية جرجا وقيادة الأجناد والعساكر التى تقرر إرسالها مع عابدى باشا ودرويش باشا وعين معهم عدة كثيرة من

الأمراء ورسم بسرعة التجهيز والرحيل وصرف النفقة فأنفق هو على قومه فأعطى لكل أمير خمسة عشر ألف ريال والوجاقلية سبعة عشر ألف ريال، وأنفق عابدى باشا فى عسكره فأعطى لكل نفر خمسة عشر قرشاً فغضبت من ذلك طائفة الدلاة واجتمعوا بأسرهم وخرجوا إلى ناحية العادلية مغضبين يريدون الرجوع إلى أوطانهم فانزعج الناس ولم يعرفوا ما الخبر فلما بلغ حسن باشا ما وقع ركب فى عسكره وسار إلى العادلية يريد قتلهم فخرج معه بعض العساكر المصرية وركب كذلك عابدى باشا ولحق به عند قصر قايمار وكان هناك أحمد باشا الجداوى فنزل إليه أيضاً وأخذوا يستعطفونه ويسكنون غضبه وأرسلوا إلى الدلاة فاسترضوهم وزادوا أعطيتهم وجعلوا لكل نفر أربعين قرشاً فأذعنوا وأطاعوا وعادوا جميعاً إلى القاهرة. وخرج عابدى باشا ودرويش باشا بعسكريهما ونزلوا بالبساتين يومين ثم ارتحلوا إلى الأقاليم القبلية فخرجت طوائف الوجاقلية أيضاً ونزلوا بخيامهم فى البساتين ولبثوا أياماً قلائل حتى جاء أحد كبار العساكر السلطانية من الشام ومعه طائفة من العسكر فنزلوا بالغادلية يوماً ثم ساروا إلى البساتين وقاموا منها إلى الأقاليم القبلية فقامت معهم طوائف الوجاقلية ونودى بأن لا يتخلف أحد من العسكر ومن ثاقل قتل من غير معاودة.

ولم يكن تسير الجنود وإعداد معدات الحرب ليشغل حسن باشا أمير السفن عن كشف عورات الناس ومصادرتهم فى متاعهم وأموالهم وأخذ كل ما وصلت إليه يده وتفتيش مساكن أصحاب البيوتات العالية وإخراج ما فيها وقد دلوه على مكان بيت المعلم إبراهيم الجوهري مرتفع مهديم الدرج وكان هذا المكان لولد له مات فى عنفوان شبابه من نحو الستين سنة فلما مات هدمت والدته الدرج الذى يوصل إليه حزناً على ولدها وترك بما فيه فصعدوا إليه وأخرجوا منه شيئاً كثيراً من فرش وأمتعة مزركشة وأوانى ذهبية وفضية وصينية وغير ذلك فأحضرت جميعها إلى حسن باشا فباعها بالمزاد بين يديه فى عدة أيام وبالع فى تفتيش البيوت والإصغاء لأهل السعاية والوشاة واشتدت رغبته فى قطع دابر إبراهيم بيك ومراد بيك ومن معهما ومحو آثارهم فأجهد النفس وبالع فى اتخاذ الطرق والوسائل وأكثر من المدد لعساكره الذين ذهبوا لقتالهم، وكان فى كل يوم يبعث بالرسل لتأتى له بالأخبار فلما كان يوم الأربعاء عاشر ذى الحجة من السنة الذى هو يوم عيد النحر وردت إليه الأخبار بوقوع موقعة عنيفة بين إبراهيم بيك والعساكر السلطانية لم يتم فيها الظفر لأحد من

الطرفين فاغتاز من ذلك جداً إذ كان يرجو انقضاء الأمر قبل دخول فصل الشتاء وهبوط النيل وتعذر انحذار سفن الحرب فأمر عند ذلك بعدم فتح الترع التي كانت تفتح عادة بعد عيد الصليب كبحر أبى المنجا وبحر موسى والقرينين خوفاً من نقص الماء وأرسل إلى عابدى باشا ودرويش باشا ومن معهما من كبار العسكر يستحثهم ويستنهضهم إلى الفتك بإبراهيم بيك ومراد بيك فرد عليه عابدى باشا رداً حسناً وأرسل إليه أيضاً بمكاتبة كانت وردت إليه من إبراهيم بيك رداً على خطاب كان بعث به عابدى باشا يقول فيه بعد كلام ما نصه: كم تخاطبونا بالكفرة والمشركين والظلمة والعصاة مع أننا بحمد الله تعالى موحدون وإسلامنا صحيح وحججنا لبيت الله الحرام وتكفير المؤمن كفر ولسنا عصاة ولا مخالفين وما خرجنا من مصر عجزاً ولا جبناً عن الحرب إلا طاعة للسلطان ولنائبه فإنه أمرنا بالخروج تسكيناً للفتنة وحققاً للدماء وقد وعدنا أنه يسعى فى تقرير قاعدة للصلح فخرجنا على هذا الشرط ولم نرض بإشهار السلاح فى وجوهكم وتركنا بيوتنا وعيالنا فى عرض السلطان ففعلتم بهم ما فعلتم ونهيتم أموالنا وهتكتم أعراضنا ويعتم أولادنا وأحرارنا وأمهات أولادنا وهذا الفعل ما سمعنا به حتى ولا فى بلاد الكفر وما كفاكم ذلك حتى أخرجتم خلفنا العساكر ليخرجونا من بلاد الله الواسعة ويهددونا بكثرتهم وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله وأما عساكر مصر فأمرها فى الحرب والشجاعة مشهور فى سائر الأقاليم والأيام بيننا وكان الأولى لكم الاجتهاد والهمة فى استخلاص البلاد التى أخذها الكفار واستولوا عليها مثل القرم والورن وإسماعيل لا أن تأتوا هنا على هذه الصورة المنكرة. وكتب غير ذلك من أقوال أخرى ركيكة المبنى قد أضربنا عن إيرادها. فأجابهم عابدى باشا ونقض عليهم وزحف بعسكره فاشتبك بينهم القتال عند المنشية والتحم الفريقان فقتل منهم جملة كبيرة وأبلى المصريون بلاءً حسناً للغاية فتنحت عنهم العساكر السلطانية ناحية وهجم إبراهيم بيك وأصحابه وألقوا بأنفسهم فى نيران الحرب وطلب كل غريمه، ثم اندفع العثمانيون وظهر من شجاعة عابدى باشا ما شهدت به الأعداء وأصاب إسماعيل بيك الكبير رصاصة فى فمه فخرجت من صدغه فولى منهزماً. وألقى بنفسه إلى النيل وركب فى حراقة صغيرة وانحدر إلى مصر وكان حسن باشا أكثر من استدعائه وهو يعده ويرجوه كتمان خبر طلبه فلما دخل القاهرة اجتمع بحسن باشا برهة ثم ذهب إلى بيت مملوكه على بيك جركس وقد خلع عليه حسن باشا خلعة سمور وأصبح وقد

شاع خبر حضوره على هذه الصورة فتحدث الناس في أمره وكثر اللغظ وأعقب ذلك أيضاً الإشاعة بهزيمة العساكر السلطانية وأرسل حسن باشا فى طلب طوائف العسكر الذين بمدينة الإسكندرية وأرسل أيضاً إلى دار السلطنة يطلب المدد وحضر حسن بيك الجداوى ومعه بعض الجند وقد أصيب بجراحة عظيمة فثبت بحضوره خبر هزيمة العساكر السلطانية وكذلك حضر بقية الأمراء وأكثرهم مصاب بجروح.

(مطلب)

عزل محمد باشا يكن وولاية عابدى باشا

ثم وصل عابدى باشا أيضاً ونزل بقصر العينى أياماً وهو محتجب عن الناس إلا القليل من قومه ولم يظهر إلا للملاقة الرسول الذى حضر من دار السلطنة بمرسوم ولايته على مصر وخلع محمد باشا يكن وتسييره إلى ديار بكر بدلا من عابدى باشا وانتشر الخبر بذلك فى مصر والقاهرة وعم الآفاق وجعل عابدى باشا ينقل أمتعته إلى بولاق القاهرة ويتأهب للصعود إلى قلعة الجبل وذلك فى المحرم افتتاح سنة إحدى ومائتين وألف هجرية وسافر محمد باشا يكن إلى مركز ولايته الجديدة فكانت مدة تصرفه ستين وبضعة أشهر، وكان كريم الأخلاق عاقلاً رزيناً يكره الظلم ويغض أهله فلذلك لم يكن ليرضى عن أعمال حسن باشا أمير السفن بل كان ناقماً عليه كثير التوجع عما أصاب الرعية من عسفه وجوره. وصعد عابدى باشا إلى قلعة الجبل وأخذ يتصرف فى الأمور ويدبر مع حسن باشا أمر الحرب مع الأمراء المصريين فأكثر من إرسال المدد إلى درويش باشا وىث العيون والأرصاء حول إبراهيم بيك ومن معه فجاءه الخبر يوماً بانحدار إبراهيم بيك وجموعه إلى مصر واقترب طلائعهم من بنى سويف وأنه مات منهم عدة كبيرة من الأمراء والكشاف ولكن مازالت نفوسهم قوية على الحرب وقد أحبوا الموت فأزعجه هذا الخبر واستعظمه ثم جاءه بعد قليل رسول من قبل مراد بيك ومعه مكاتبة تتضمن طلب الصلح والإلحاح بالكف عن القتال حقناً للدماء وأنهم قد تابوا ورجعوا عما كانوا عليه، ثم قالوا: فإن لم تجنحوا إلى الصلح فليس بيننا وبينكم غير الحرب والقتال فلما وقف أمير السفن على ما فى خطاب مراد بيك أسرع فى تسيير ما بقى عنده من مراكب الحرب إلى ناحية التبين فاصطفت هناك وأمر فعملوا متاريس وحفروا خندقاً ووضعوا من المدافع

عدة كثيرة وخرج رضوان بيك بليفيا وسليمان بيك الشابورى وعبد الرحمن بيك عثمان وبرزوا بخيامهم ناحية البساتين ليسيروا منها إلى الصعيد وأتت الجواسيس فأخبروا بتريص إبراهيم بيك وجموعه بناحية بنى سويف ومراقبتهم للفرص فأنفق حسن باشا فى العسكر ثلث نفقة وطلب من التجار قرضة لينفقها فشكوا من كساد الحال فشدد فى الطلب فأغلقوا حوانيتهم فهجم الجنود على بيوتهم ونهبوا ما وجدوه فيها وفرض على الأهالى مبلغاً عظيماً من المال فجمعوه بشق الأنفس وطلب الخيول والبغال والحمير والجمال فأخذوا دواب الناس بلا ثمن وجمال السقائين كافة والمكارية فضج الناس وعجوا إلى الله تعالى ووقع الصياح فى العامة والبكاء من نساء السقائين والمكارية وغيرهن وكثرت ولولتهن وطفن حاسرات يندبن فلم يلتفت إليهن ولا رد شيئاً مما أخذ ووردت مكاتبة أخرى من إبراهيم بيك بطلب الصلح وحقن دماء المسلمين فجمع حسن باشا الأمراء كافة وقرأها عليهم فأبوا جميعاً إلا القتال وبعد كلام أشار حسن بيك الجداوى بصرف طائفة المحمدية من العساكر تخوفاً وتخيلاً منهم إذ هم ميالون إلى إبراهيم بيك وأصحابه فأجابه حسن باشا إلى ذلك وأمر فجمعت منهم خيولهم وسروجهم فكان لذلك أثر مهم وكادت جيوشه لذلك تفشل فهاله الأمر ووقف فى وسط الجند وقال مخاطباً لكبار العسكر: قد أمنتكم فلا تكونوا من الخائنين وإياكم والخدعة والأخذ بالوجه فتتجاوزون إلى الأعداء بغضاً فينا أو تزلفاً إليهم وحرصاً على الجنسية فافقهوا واعلموا أنكم إن فعلتم شيئاً من ذلك خربت البلاد سبع سنين عقاباً وجعلت الدماء فيها إلى لب الخيل. ثم نادى المنادى بالتأهب وعدم تخلف أحد وطاف الأغا على العساكر والأجناد يخرجهم من أماكنهم ويقف على الخانات ويسأل عن بها منهم ويحثهم على سرعة الخروج والالتحاق بالعسكر. وعادت رسل إبراهيم بيك إلى معاودة حسن باشا فى أمر الصلح وأحضروا معهم ابن أخ عابدى باشا وكان قد أسر مع بعض العساكر السلطانية فى الواقعة الأخيرة وأرسلوا معه منهوبات عابدى باشا وجميع المجاريح وقد أنفقوا على كل واحد منهم ديناراً فلم يجبههم حسن باشا إلى الصلح إلا بشرط خروجهم من الديار المصرية بعيالهم ونسائهم إلى بلد يختارونها وإلا فالجرب والقتال فلما عادت الرسل بهذا البلاغ اتفقوا جميعاً على الانحدار إلى مصر وإصلاء نار الحرب حتى يقضى الله أمراً كان منفعولاً فانحدروا ووصلت طلائعهم إلى أرض الجيزة وصاروا بين الرق والجيزة وفرضوا الكلف والمغارم ومؤنة العساكر على أهالى الجيزة فبرز عند

ذلك إسماعيل بيك الكبير وحسن بيك الجداوى بخيامهما إلى ناحية طرا ومنعوا السفن والمعادى كافة وأرسوهم بالجانب الشرقى من النيل كي لا يتمكن جموع إبراهيم بيك من العبور إلى مصر ونودى على جميع طوائف المحمدية بالخروج والاجتماع تحت لواء إسماعيل بيك ومن تأخر عوقب وقبضوا على عدة كبيرة منهم ونهبوا بيوتهم وسجنوهم بقلعة الجبل فخرجوا جميعاً من عساكر وماليك وأتباع وطلب إسماعيل بيك من تجار المدينة قرضاً للنفقة فاعتذروا فادعى على تجار البن بمبلغ من المال قال هو باقى حساب له يوم كان قابضاً على زمام مشيخة البلد فصالحوه على مبلغ أربعة آلاف ريال وجاء رسول من قبل إبراهيم بيك إلى حسن باشا ينذره بالحرب والقتال ويعلمه بخروج جموع إبراهيم بيك وانحذارهم إلى مصر فتعجب حسن باشا من ذلك ولم يعوق الرسول بل سرحه ونادى فى عسكره بالتأهب وخرج هو وإسماعيل بيك وحسن بيك الجداوى وجميع الأمراء وساروا إلى نواحي البساتين ثم اجتاز بعض العساكر البحرية النيل إلى انبابة وعملوا هناك متاريس وخنادق وانحاز إبراهيم بيك ومراد بيك وجموعهما إلى ناحية الأهرام بأحمالهم وجعلوا يتربصون الفرص ويتبنون انتفاعها وقد سئمت نفوسهم الحياة على هذا الحال واتفق أنه دخل المحمل والحاج القاهرة فى هذه الأيام بعد أمور وقعت للحجاج فى الطريق يطول شرحها فسار حسن باشا وبعض الأمراء للقائه وتحقق ما جرى على الحجاج فلما علم إبراهيم بيك بتغيب حسن باشا عن القاهرة رحف ليلاً بجموعه على المتاريس التى بانبابة وهجموا عليها هجمة رجل واحد فصدهم أصحاب المتاريس وأطلقوا عليهم المدافع من البحر والبر وتابعوا الرمي من الفجر إلى طلوع الشمس فرجع إبراهيم بيك وأصحابه إلى مواقعهم من غير طائل ثم عادوا بعد ظهر اليوم فردوا على أعقابهم وارتحلوا إلى دهشور وأقاموا بها أياماً فسأت جموعهم وداخلهم الفشل وانسلخ منهم جماعة كثيرة وانحازوا إلى العساكر البحرية فخاف إبراهيم بيك شر العقابة وجنح إلى إعادة الكلام فى أمر الصلح وكتب يطلب أن تعطى لهم بعض الجهات بالصعيد ليقيموا بها ويتعيشوا منها وينكفوا عن القتال فأجابه حسن باشا إلى ذلك بشرط أن لا يسمح بذلك إلا لجماعة قليلة منهم ويحضر باقى الأمراء والعسكر إلى القاهرة ويقيموا بها فلم يرض إبراهيم بيك بذلك وترفعوا إلى ناحية بنى سويف واستقروا بها فرجعت عنهم عند ذلك عزب الهنادى الذين كانوا معهم وفارقوهم وأخذت أحوالهم فى التأخر وشدد حسن باشا فى تسيير

العساكر إلى الصعيد فساروا فى خيل ومدافع وكثير من المعدات وسار خلفهم عابدى باشا ومعه لفيف الأمراء وجاء إلى حسن باشا المدد من عساكر السلطان من قبرس والقرمان وغيرهما فعسكروا فى البساتين ورسم حسن باشا فصنعوا أبراجاً نقالة ومتاريس على أشكال مختلفة وسيرها خلف العساكر ثم وردت الأخبار بعد أيام بارتحال إبراهيم بيك ومن معه من بنى سويف إلى أسيوط وأن قد تخلف عنهم كثير من المماليك والأتباع فى نواحي منية ابن خصيب وغيرها وجاء منهم جماعة إلى القاهرة وحدثوا بأخبارهم وقد انضم جماعة من الأمراء إلى معسكر عابدى باشا طائعين فأمّنهم واستبقاهم ولما وصلت العساكر السلطانية إلى أسيوط ترفع إبراهيم بيك وجموعه إلى طحطا وترسوا بها وتأهبوا للقتال فسارت العساكر خلفهم ثم انقطعت بعد ذلك الأخبار حيناً فخاف حسن باشا وتابع إرسال الرسل لاستطلاع الأخبار ومعرفة ما حل بالعسكر فلم يرجع منهم من يخبر بالخبر وبقي الحال هكذا أياماً ثم قدم رسول ومعه مكتوب من عابدى باشا يخبر بوقوع الحرب فى يوم الجمعة ثامن عشرى ربيع الآخر سنة إحدى ومائتين ناحية الأمير ضرار فكانت الهزيمة على إبراهيم بيك وجموعه بعد أن أبلوا بلاء حسناً جداً وهزموا العساكر السلطانية هزيمتين وهجموا على الحصون والمتاريس والأبراج النقالة هجوماً الأسود الضواري فقتل منهم عدة كبيرة من الأمراء والأجناد والمماليك. قال الراوى: وكانت الحرب بيننا نحو ست ساعات مات فيها من العساكر السلطانية عدة وافرة فلما علم حسن باشا بما ذكر سكن روعه وأمر فأطلقت المدافع من قلعة الجبل نهائراً والحراقات والألعاب النارية ليلاً وطاف المبشرون على بيوت المشايخ والأعيان ييشرونهم بنصر العساكر السلطانية فأتوا وهنثوا حسن باشا بهذا النصر وترفع إبراهيم بيك ومن بقى من جموعه إلى عقبة الهو ثم ساروا منها إلى إبريم والعساكر فى أثرهم تتخطفهم من خلف ثم عادت العساكر إلى إسنا ونزلت بها وكتب عابدى باشا يسأل البقاء بمن معه من العسكر والأمراء بإسنا أو الانحذار إلى مصر فكتب له حسن باشا بالانحذار ومعه إسماعيل بيك الكبير وباقى الأمراء وترك حسن بيك ومحمد بيك المبدول ويحى بيك بإسنا مع سائر العسكر فانحدر عابدى باشا والأمراء المذكورون إلى مصر فدخلوها فى يوم الأحد حادى عشر رجب وصعد عابدى باشا إلى قلعة الجبل من غير أبهة ولا كيبكة فلم يستقر به المقام حتى جاءت الأخبار متبئة بزحف إبراهيم بيك وجموعه إلى أسوان وأنهم عبروا النيل إلى إسنا فأجلوا عنها من كان بها من العساكر

واحتلوها وانحدروا إلى جرجا فارتحل عنها من بها من العساكر أيضاً ورجعوا القهقري فأدهش حسن باشا هذا الخبر وجمع إليه الأمراء وأرباب المناصب وشاورهم في الأمر فاختلفت كلمتهم وتباينت أهواؤهم ثم استقر رأيهم على أن يخابروهم في الصلح بشرط أنهم يقيمون في البلاد التي كانت بيد إسماعيل بيك الكبير وحسن بيك الجداوى وأن يرسلوا إلى مصر أيوب بك الكبير وأيوب بك الصغير وعثمان بيك الأشقر وعثمان بيك المرادى ليقموا بها رهائن وكتبوا بذلك مكاتبات وأرسلوها صحبة الشيخ سليمان الفيومى وبعض الأمراء فقبل إبراهيم بيك ومراد بيك هذا الصلح وجنحوا لشروطه فأرسلوا أيوب بيك الكبير رهينة عن المماليك المحمدية وعثمان بيك الطنبرجى عن مراد بيك وعبد الرحمن بيك عن إبراهيم بيك الكبير فلما تمثل هؤلاء بين يدي حسن باشا سأل الأمراء في أمرهم فقالوا لم يحضر من طلب سوى أيوب بيك الكبير ولا سبيل للصلح إلا بتنفيذ شروطه فكتب حسن باشا بذلك ثانياً إلى إبراهيم بيك ومراد بيك وأرسل إليهما كتخدها فقبلوا بشرط إعطائهما بلاداً زيادة حيث إن ما أعطى إليهما لم يكفهما فزادهم حسن باشا خمسة بلاد آخر فلما استقرت القاعدة بينهم على ما ذكر جاء الطلب إلى حسن باشا بسرعة الرجوع إلى دار السلطنة حيث انتشب القتال بين الدولة العلية والروس وقامت الحرب على ساقها فجمع المشايخ وسائر الأمراء وعابدى باشا في مقره وقرأ عليهم مرسوم السلطان بالطلب وطرف من أخبار الحرب مع الروس وتولى الروس على ما بقى من بلاد القرم وشنهم الغارة على كثير من أملاك السلطنة ثم أبرز مرسوماً آخر يتضمن العفو عن إبراهيم بيك ومراد بيك من القتل وبقاء إبراهيم بيك بقنا ومراد بيك بإسنا وعدم التصريح لهما بالعود إلى مصر أبداً ثم أظهر عزمه على الركوب والسفر في يوم الجمعة بعد صلاة الظهر ثانی عشر ذی الحجة من السنة .

فلما كان اليوم المذكور زكب جميع الأمراء وسار أرباب المناصب لوداعه فلما تكامل حضورهم في مقره أمر فقبضوا على جميع الأمراء الرهائن وسلمهم إلى إسماعيل بيك وأمر فسلموا له أيضاً عدة مدافع وكثيراً من آلات الحرب وقلبونا صغيراً ورتب له جماعة من العساكر السلطانية عددهم ألف وخمسمائة يقيمون بمصر ثم رحل إلى الديار الرومية وأخذ معه الأمراء الرهائن وفرح الناس بارتحاله إذ لم يروا على يديه خيراً وقد ضاقت نفوسهم مما ذاقوه من جورهِ وعسفه فانفرد إسماعيل بيك بإمارة البلاد وعلت كلمته ونفذت إشارته وهابه الأمراء فوزع المناصب العالية بين

قومه وأتباعه ومماليكه واستوزر محمد أغا البارودى فأعانه على فعل ما فى نفسه فتعقب زلات الناس وأخذ على صفائر الأمور وكبائرهم وشدد وهدد فى طلب المغارم وفرضها على الناس على اختلاف أجناسهم فضجوا واستغاثوا واجتمعوا وذهبوا إلى الأزهر وصاحوا من جور هذا النازل وحضر الشيخ العروسى فقاموا فى وجهه وهموا بقفل أبواب الجامع فمنعهم من ذلك فصاحوا عليه وسبوه وسحبوه بينهم إلى جهة رواق الشوام فمنع عنه المجاورون وأدخلوه فى الرواق ودافعوا عنه الناس وأغلقوا عليه الباب ومعه طائفة التعممين وكتبوا كتابةً بذلك إلى إسماعيل بيك وأرسلوها إليه صحبة الشيخ الفيومى فبعث جواباً بالعمو والأمان وعدم المطالبة بتلك التوازل وأنها إنما هى قرص من القادرين على دفعه فلما قرأ عليهم الجواب صاحوا هذه خدعة لا نرضى بها أبداً فركب الشيخ العروسى وحوله هذا الجمع العظيم والغوغاء والمجاورون ولا سيما العميان منهم وطائفة من المجاورين تدفع الناس عن العروسى والعمامة يصيحون عليه ويسبونونه ويخاطبونه بفحش القول إلى أن وصل إلى باب زويلة فنزل بجامع المؤيد وأرسل إلى إسماعيل بيك يخبره بهذا الحال فحنق إسماعيل بيك وظن أنها مكيدة من الشيخ وأنهم إنما فعلوا ذلك بإغراء منه فأجابه الرسول وحلف له أن الشيخ برىء من ذلك ولا قصد له سوى الخلاص فأرسل لهم بالأمان ومعافاتهم من تلك المطالب فبلغهم الشيخ ذلك وأشار عليهم بالانصراف فأطاعوا وانصرفوا ومضى على ذلك يومان ثم أمر إسماعيل بك فانطلق المطالبون إلى أهل الصاغة والجواهرجية والنحاسين وطالبوهم بالمقرر عليهم فقاموا بوفائه صاغرين ثم طالبوا وكلاء الجلابة وتطرقوا إلى مطالبة بقية الأهالى وأرباب الحرف فكانت اثنتين وسبعين حرفة .

ولم تكن لتستقر الراحة بإسماعيل بيك بعد تلك الخطوب حتى جاءه الخبر بانتقاض إبراهيم بيك ومراد بيك ومن معهما من الأمراء وأنهم رحفوا من أسبوط على منفلوط فهرب من كان بها من الجند والكشاف وجاءوا إلى مصر وأخبروا بذلك فلما تحقق الخبر صعد إسماعيل بيك فى صبح اليوم إلى قلعة الجبل وجمع الأمراء وكبار الوجاقات والمشايخ وقص عليهم الخبر وقال: هل يجوز قتالهم الآن؟ فقال المشايخ: يجوز قال حيث جاز قتالهم فقد وجبت النفقة من الخزينة السلطانية وحيث لا خزينة للسلطان فى هذه الديار فقد وجبت عليكم جميعاً فضاقت عند سماعهم هذا الكلام واعتذروا وأظهروا العجز وكساد الحال وضيق ذات اليد فلم يقبل منهم

وشدد فى الطلب وهدد وبالع فى الوعيد فطلبوا مهلة وعادوا إلى الكلام فى هذا الموضوع فاتفقوا على أن يبلغوا دار السلطنة خبر انتقاضهم ورجوعهم إلى العصيان وأن يكتبوا لهم أيضاً إنذاراً وتحذيراً فإن زحفوا على مصر قبل أن يأتى جواب الباب العالى قوتلوا وإلا تربصوا حتى يأتى الجواب . واتفق فى هذه الأثناء حضور وال إلى جدة اسمه محمد باشا بعسكر جرار ونزل بالسويس يريد ركوب السفن بعسكره إلى جدة فكتبوا إليه أن يحضر بعسكره إلى القاهرة وأمر إسماعيل بك بغلق جميع أبواب المدينة إلا باب النصر ووضع على الأبواب طوائف الحراس وضربت المغارم على البلاد من أجل نفقة العسكر فجعلوا على كل بلد مائة دينار نفقة وعشرة عدداً ما يتبع ذلك من الكلف وقيدوا بتحصيلها قوماً وجمعوا جميع محاليك وأتباع الأمراء الذين مع إبراهيم بك وهم الذين تخلفوا بمصر والقاهرة فأخذوا ما وجدوه معهم من خيل وسلاح وأنزلوهم فى سفن إلى الإسكندرية وحبسوهم فى برج هناك وشرع إسماعيل بك فى إعداد معدات الحرب وجمع الذخيرة والمؤن واجتهد فى سبك القنابل وإتقان المدافع ، وكان يباشر ذلك بنفسه فى كل يوم وبينما هو على هذا الحال إذ قدم رسول من قبل إبراهيم بك ومعه مكتوب للأمراء والمشايخ بمصر يكذب فيه ما عزى إليهم من نقض العهد والخروج ويقول إن الذى انتقض وعمل على خلاف العهد هو حسن باشا القبطان حيث أخذ معه الرهائن وأذاق الذرارى والنساء مضض الضيق فكتبوا له يلاطفونه ويهونون عليه حتى يتمكنوا من جمع العساكر والتأهب للقتال ولم يكتبوا له بما وقع الاتفاق حتى جاءت منه مكاتبة أخرى بعزمه هو ومن معه على القتال ومبارزة الأعداء وجهها لوجه فجمع الباشا المشايخ والعلماء والأمراء فى ديوانه وقرأ عليهم مكاتبة إبراهيم بك فوقع فيهم الهرج وكثر القال والقليل فأبرز لهم الباشا فتوى موقفاً عليها من شيخ إسلام دار السلطنة أجاز فيها قتال إبراهيم بك وجموعه ومحاربتهم ثم طلب منهم أن يفتوه هم كذلك بجواز الحرب والقتال ليدفع أذاهم عن البلاد وأهلها فتزل المشايخ فى الحال من قلعة الجبل إلى الجامع الأزهر واجتمعوا جميعاً ونظموا هذا السؤال :

ما قولكم دام فضلكم فى جماعة أمراء وكشاف تغلبوا على البلاد المصرية وحصل منهم الفساد والإفساد ومنعوا خراج السلطان وأكلوا حقوق الفقراء والحرمين ومنعوا زيارة النبى عليه الصلاة والسلام وقطعوا علوفات الفقراء وجماعى المستخدمين والأنبار وأرسل لهم السلطان يأمرهم وينهاهم فلم يطيعوا ولم يمثلوا

وكرر عليهم أوامره فلم يتهموا فعين عليهم عساكره وأخرجهم من البلاد ثم إن نائبه صالحهم وفرض لهم أماكن وعاهدهم على أن لا يتعدوها حقناً للدماء وقطعاً للنزاع وتسكيناً للفتن وأخذ منهم رهائن على ذلك ورجع لمخدومه فعند ذلك تحركوا ثانياً ورحفوا على البلاد وسعوا في إيقاع الفساد وقطعوا الطرق ونقضوا العهود فهل يجوز لنائب السلطان دفعهم وقتالهم بشرط عدم إزالة الضرر بالضرر أم كيف الحال؟ ثم كتبوا الجواب: يجوز قتالهم ودفعهم وأنه يجب على كل مسلم المساعدة. ورفعوا هذه الفتوى إلى الباشا فكتب الباشا فرماناً بالقتال ونزل أغاة مستحفظان ونادى في المدينة بقتال إبراهيم بيك ومن معه ونادى على أصحاب الوجاقات بملازمة أبوابهم وعلى العساكر والأجناد بالتأهب للرحيل إلى الصعيد وأنفق إسماعيل بيك على العسكر وكتب الباشا إلى إبراهيم بيك يلزمه الرجوع إلى مقره والخلود إلى السكون وعدم نقض العهد ودفع الأموال المقررة على إقطاعاته وإقطاعات بقية الأمراء وإلا وجب قتالهم فلم يصل إليه هذا الكلام إلا وقد زحف من طحطا إلى منية ابن خصيب وقسم مراد بيك جميع البلاد التي ما بين منية ابن خصيب ومصر على أتباعه ومالكيه والأمراء الذين معه وصمم على الانحذار وإصلاء نار الحرب فلما علم الباشا بذلك فترت همته وضعفت عزيمته وقل اجتهداه في جمع العساكر وترتيب الأجناد ثم بعثا إلى الباشا ثانياً يقولان: قد تركنا مصر وما فيها ولم نقصد الرجوع إليها وإنما قد اتخذنا هذا الإقليم لنا مقراً فإن قاتلتمونا عليه قاتلناكم إلى النفس الأخير وإن تركتمونا تركناكم ومصر ترتعون فيها وعقدنا معكم صلحاً لا يتخلخل فإن قبلتم ذلك فأرسلوا لنا بعض المشايخ والاختيارية تتفق معهم على ما يحسن السكوت عليه فعقد الباشا الديوان وجمع جميع الأمراء والمشايخ وأرباب الوجاقات وتشاوروا في الأمر فاتحدت كلمتهم على أن يكتبوا لهما بقبول جميع طلباتهما بحيث إنهما يعثان من قبلهما أميرين كبيرين فيهما الكفاية لفض النزاع ثم يعودان ومعهما من يلزم من المشايخ والاختيارية فقبل إبراهيم بيك ومراد بيك بذلك بشرط أن يكون لهما من البلاد من أسيوط وما فوق وطلبا إرسال المشايخ فأرسلوا لهما الشيخ محمد الأمير وإسماعيل أفندي الخلوتى ولم يرتحل الشيخ ومن معه من مصر حتى جاء الأرصاد فأخبروا بزحف إبراهيم بيك في جموعه إلى طحطا وانحذاره منها إلى بنى سويف وتأكد الخبر فخاف إسماعيل بيك الكبير وهاله الأمر وأمر بخروج العسكر فأخرجوا الخيام والمدافع إلى ناحية البساتين وعملوا المتاريس ناحية طرا والمعصرة

والجيزة وجمعوا البنائين والفعلة وحفروا الخنادق وبنوا أبراجاً من الحجر وأسواراً
لوضع المدافع والمتاريس على جانبي النيل شرقاً وغرباً وكبر خوف بعض الكشاف
والعسكر من أصحاب إسماعيل بيك وهربوا إلى حيث مراد بيك فأحاط إسماعيل
بيك بدورهم ونهب ما فيها وأخرج نساءهم حاسرات حفايا تشفيا وانتقاماً وعاد
الشيخ الأمير ومن معه وأخبروا بالحدار إبراهيم بيك في أربعين من أصحابه إلى
ناحية بني سويف ولبث بها وأنه عدل عن الإقامة بالصعيد ويرغب الرجوع إلى مصر
فيعيش مع أصحابه ومن هم بها عيشة راضية هادئة وعفا الله عما سلف وإلا فالحرب
والقتال فانزعج المشايخ عند سماع هذا الخبر، واجتمعوا وصعدوا إلى قلعة الجبل
ودخلوا على الباشا فأدرك إسماعيل بيك ما وراء ذلك من الفشل والخيبة. قال بعض
الكتاب: فزور مرسوماً من السلطان بالحث على الخروج وقتال إبراهيم بيك وجموعه
فلما استقر بالمشايخ المقام كلموا الباشا في أمر مجيء إبراهيم بيك فدخل عليهم
إسماعيل بيك وأخبرهم بوصول المرسوم السلطاني فأمر به الباشا ففرقوا فاجتلفت عند
ذلك كلمتهم وتفرقت أغراضهم وكادوا يفترقون على غير طائل ثم عادوا فاتفقوا
على القتال فنودي في الحال على العسكر بالخروج وملازمة المتاريس ونودي في
الأجناد كذلك بعد أخذهم النفقة فخرجت طوائفهم وملاأت الحصون والمتاريس
واشتد الأمر على الناس فتعطلت الأسواق وارتفع الأمن وكثرت مخاوف الطرق
خصوصاً خارج أبواب مصر والقاهرة وتعطلت الأسفار وقل الوارد برأ وبحراً
واستقدم إسماعيل بيك عرب الهنادى فقدموا في جموع كثيرة وأخلط عزيمة
وانتشروا في الجهة الغربية من رشيد إلى الجيزة فجعلوا ينهاون البلاد ويأكلون
المزروعات ويوقفون السفن في النيل فيقتلون من بها ويأخذون أحمالها قيل إنهم
قتلوا في يوم واحد من بلدة النجيلة نيفاً وثلاثمائة إنسان وكذلك كانت فعال عرب
الشرق والجزيرة ببلاد الجانب الشرقي وجاء المدد من الشام بناء على طلب الباشا
فحضر فريق من الأرئود وكبيرهم اسمه إسماعيل باشا فخرج إسماعيل بيك للقائهم
فدخلوا من باب النصر إلى بولاق واستقروا بها فقدمت لكبيرهم التقدام والهدايا
النفيسة من جميع الأمراء ولبشوا على هذا الحال من الوقوف خلف المتاريس أياماً
حتى سئمت نفوسهم وانسحب الكثير منهم إلى بيوتهم وكاد يتمزق جمعهم وقد
وصل في هذه الأثناء طائفة من جموع إبراهيم بيك على مقربة من متاريس ناحية
طرا وعزموا على أن يدهموا من بالمتاريس في الثالثة من الليل فسبق العين وأخبر

إسماعيل بيك بذلك فانزعج وركب الأمراء كافة وخرجوا إلى المتاريس وركب الوالى والأغا وصاروا يفتحون الدروب والحارات ويخرجون الجند من بيوتهم إلى الحصون والأبراج وباتوا ليلتهم فى هرج واضطراب وأصبحوا والمناداة متتابعة على الأهالى والعساكر والجند بالخروج، فلما كان آخر النهار تحقق الخبر بأن إبراهيم بيك وقومه ترفعوا إلى بياضة ثم إلى الصعيد.

وجاء فى هذه الأثناء سفير من قيل قيصر الروس برسالة سرية إلى إبراهيم بيك ومراد بيك ونزل بالإسكندرية فأقام بها أياماً وعلم إسماعيل بيك بخبره فاستقدمه إلى مصر بحيلة لطيفة وأولم له وليمة فاخرة فى قصر العينى ثم قبض عليه فى صباح تلك الليلة وصعدوا به إلى قلعة الجبل وحبسه ومنع من الوصول إليه. قال بعض أصحاب التاريخ: وكان سبب قدوم ذلك السفير أنه لما كثر عبث الأمراء المصريين بالبلاد وخرجوا عن طاعة السلطان رغب السلطان فى قطع شأفتهم ومحو أثرهم ولكنه كان فى شغل عنهم بشن الروس الغارة على بلاده وحدود مملكته فكان كلما هم بإرسال فريق من عسكره مدداً لمن بمصر منهم قامت الروس وشتت الغارة على أملاكه فيحجم عن تسيير العسكر إلى مصر ويوجه بهم إلى رد الروس وهكذا حتى أعياء الحال وكادت تضعف منه الآمال غير أنه عزم عزمًا ثابتاً على أن لا يبقى لهم أثراً وأمر فجيئوا لذلك جيشاً ضخماً للغاية فلما علم قيصر الروس بذلك وكان من مصلحته أن تضطرم نار الحرب بين الفريقين وتطول أيامها أرسل القيصر المشار إليه رسوله إلى إبراهيم بيك ومراد بيك يخبرهما بقصد السلطان ويحثهما على جمع الكلمة والتكاتف وتحصين الحصون ومنع حسن باشا أمير السفن من النزول بعسكره إلى مدينة الإسكندرية أو غيرها من بقية الثغور واجتمع قنصل الروس بإبراهيم بيك قبل حضور أمير سفن السلطان وأخبره بخبره فلم يلتفت إبراهيم بيك يومئذ إلى قوله فجاء أمير السفن المذكور فى عسكره وكان من أمره وما فعله ما مر بيانه، وكان لما اشتد الضيق بإبراهيم بيك ومراد بيك وأصحابهما أرسلوا إلى القنصل يطلبانه فسار إليهما سراً فسألاه المدد فوعدهما ورجع إلى الإسكندرية كما حضر وكاتب دولة الروس فى ذلك فأجابته إلى ما سأل وأرسلت إليه عسكراً جراحاً وبعض سفن حربية وقدم ذلك السفير ومعه كتاب القيصر إلى الأمراء وكان قد شاع خبر رجوعهم إلى القاهرة فلما وصل السفير بالكتاب وجد الحال على عكس ما سمع فكاتب القيصر بصورة ما رأى وأنه وإن كان الحكم فى البلاد الآن للدولة العثمانية إلا أن بمصر من

الأمراء الذين هم على شاكلة إبراهيم بيك ومراد بيك عدة كثيرة وهم قاهرون للدولة غالبون على أمرها فإذا أمدهم القيصر بعسكره قاموا على الدولة وأخرجوها من البلاد وأذهبوا سلطتها فكتب القيصر إلى الأمراء بمصر يقول ما نصه : أيها الأمراء قد بلغنا أن عبد الحميد الملك الغادر الخائن يريد بكم شراً ويسعى فى إيقاع الفتن بينكم رجاء أن يقتل بعضكم بعضاً ثم لا يبقى على من بقى منكم وبملك بلادكم ويفعل بها ما فعل بغيرها من البلاد التى دمرها بظلمه وجوره فتيفظوا لأنفسكم واطرحوا عنكم الخلاف واطردوا من يأتى إليكم من الترك وارفعوا على حصونكم وقلاعكم رايتنا واختاروا لكم رؤساء منكم وحصنوا ثغوركم وامنعوا من يصل إليكم من هذه الأمة إلا من أتى للرزق ولا تهابوه فنحن نكفيكم مؤنته وقلدوا من قبلكم ولاية وعمالاً بالديار الشامية كما فعل ملوك مصر من قبلكم ويكون لنا الأمر ببلاد الساحل والواصل لكم كذا وكذا سفينة بها كذا وكذا من العسكر والمقاتلين وعندنا من المال والرجال ما تطلبون وزيادة على ما تظنون اهـ.

وجاء السفير بالخطاب ونزل بالاسكندرية وقيل بدمياط وأنفذ الخبير سراً بوصوله وطلب الحضور إلى القاهرة بنفسه فأعلم إسماعيل بيك الباشا بخبره سراً وأرسلوا إليه بالحضور فلما وصل إلى شلقان خرج إليه إسماعيل بيك فى تطريدة كأنه لم يشعر بمقدمه وكأنه على العهد معه وأعد له منزلاً ببولااق وأنزله به ليلاً ثم اجتمع به ومعه على بيك وحسن بيك ورضوان بيك وكأنهم هم زعماء العصاة وقرأوا المكاتبه بينهم ولم يتموا قراءتها حتى جاءهم جماعة من أتباع الباشا فى طلب السفير وكان ذلك بإشارة خفية بينهم وبين الباشا فركبوا معه إلى القصر العيني وأرسل الباشا فى تلك الليلة الأمر بحضور أهل الديوان فى صبحها فلما تكامل حضورهم أخرج الباشا تلك المكاتبه فقرئت عليهم. قال الراوى لهذه الحكاية : فشخصت عند ذلك الأبصار ومدت الأعناق وتفرقت الأقوال وتباينت الأغراض ثم عادوا واتفقوا على أن يعيشوا بها إلى دار السلطنة ففعلوا ووضعوا السفير المذكور بمكان فى قلعة الجبل وأسرعوا فى تسيير بعض سفن الحرب إلى الصعيد للتشديد فى قتال إبراهيم بيك ومن معه. وكانت دولة الروس لا تنكف عن قتال الدولة العثمانية وتحريض جميع الإيالات التابعة لها على الخروج وشق عصا الطاعة فإنها بعد أن سيرت سفنها إلى مصر وكتبت إلى إبراهيم بيك ومراد بيك بما كتبه جعلت تدس الدسائس وتلقى الفتن فى بلاد القرم لتتمكن من احتلالها ووضع اليد عليها بحجة منع القلاقل

والاضطرابات منها وما زالت على هذا الحال والدولة فى شغل عنها حتى قام فريق من أهل القرم على أميرهم دولتكرای وخلعوه وأقاموا مكانه شاهين كراى فخالفهم فى ذلك الفريق الثانى وأبوا تعيينه فاشتد الخلاف بين الفريقين وقامت الفتنة وكان كاترينة قيصرية الروس قد أقامت على حدود القرم زهاء سبعين ألف جندى وجعلتهم على قدم الأهبة والاستعداد فلما بدأت الوحشة تقع بين الحزبين أوعزت إلى مقدم ذلك الجيش فدخل بلاد القرم بلا مناع ولا معارض فتم للدولة الروس وقيصرتها ما كانت تتمناه وأصبحت وهى مالكة لجميع سواحل البحر الأسود من الجهة الشمالية فاستعظم السلطان هذا الأمر وأكبره وهم بالحرب وعمد إلى إعداد معدات القتال وأكثر من تجنيد الجند وتجهيز سفن الحرب فأشار عليه ملك الفرنسيس يومئذ بالتربص وعدم الاندفاع إلى حرب لا تحمد عاقبتها وأعلمه بأن بين كاترينة وإمبراطور النمسا معاهدة سرية على قتاله وتخريب مملكته ومحو أثرها من البسيطة فظفر السلطان فلم ير له قبلاً على فتح أبواب هذه الحرب فجنح إلى مشورة ملك الفرنسيس وغض الطرف عما فعلته الروس بالقرم بل واعترف لكاترينة بتملكها على تلك الإيالات العظيمة فلم ترض كاترينة من السلطان بهذا الإذعان والسكوت وقد تحققت عجزه وتقاعده عن الحرب فعمدت هى ويوسف الثانى إمبراطور النمسا إلى إيقاد نار الفتنة فى إيالتى الفلاخ والبغدان وبلاد اليونان وتوغير صدور مسيحيى تلك الإيالات على الدولة فأحس السلطان بما وراء ذلك وعلم أنهما إنما يريدان الحرب على كل حال فعاجلهما بها وسير إلى سفير الروس فى دار السلطنة يطلب منه تقرير أمور لا ترضاهما كاترينة منها جعل الحق للمامورى السلطان فى تفتيش جميع سفن الروس التجارية التى تمر من بوغاز القسطنطينية فلم يقبل السفير شيئاً من ذلك ألبة فامر السلطان عند ذلك فقبضوا عليه وسجنوه وساق العسكر فانتشبت الحرب بين الفريقين وخاف إمبراطور النمسا من ظفر العساكر السلطانية بالروس فسير إلى مدينة بلغراد جيشاً عظيماً للاستيلاء عليها وإرباك العساكر السلطانية فلم يفلح وعادت عساكره خاسرة وانتصرت عليهم العساكر السلطانية نصرة عظيمة وأدركت السلطان عبد الحميد منيته وهو على قدم القتال ثانى عشرى رجب سنة اثنتين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثمانين وسبعمائة وألف ميلادية فكانت سلطته زهاء ست عشرة سنة وأشهرها فتولى السلطنة بعده ابن أخيه السلطان سليم الثالث ابن مصطفى.



(الفصل الحادى والعشرون)

(فى سلطنة السلطان سليم الثالث)

ابن السلطان مصطفى

ثم قام بالامر بعد السلطان عبد الحميد ابن أخيه السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى ببيع له بالملك فى اليوم الذى مات فيه السلطان عبد الحميد ثانى عشرى رجب سنة اثنتين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثمانين وسبعمائة وألف ميلادية فتولى السلطنة وهى محفوفة بصنوف المكاره والعدو تهدها بتمزيق شملها ويعمل على إبادتها من عالم الوجود فاشتدت لذلك عزيمة السلطان وجعل يعبى الجيوش ويعد المعدات ويكثر من المؤن والذخائر ويستحث العساكر على القتال ودفع العدو عن البلاد وكانت العساكر قد ملت وكرهت الحرب فساقها فالتقوا مع الروس وعساكر النمسا معا واقتتلوا قتالاً عنيفاً للغاية دام زهاء ستين يوماً ثم انكشف عن هزيمة العساكر السلطانية واستيلاء الروس على أكثر مدن الفلاخ والبغدان وبساراييا واحتلوا مدينة بندر الشهيرة واحتل النمساويون بلغراد وفتحوا بلاد الصرب وغيرها ثم سارت بعد ذلك العساكر الروسية إلى مدينة إسماعيل ونزلوا عليها وقتلوا وكان بها الغازى حسن باشا بعسكر عظيم فقاتلوا عنها واشتد القتال بين الفريقين حتى فتحها الروس عنوة وأباحها قائدهم فأعمل فيها العسكر الذبح والنهب وأفحشوا فى ذلك جدا وجاء الخبر بما وقع فى المدينة المذكورة إلى دار السلطنة فهاج الناس وماجوا وقاموا على ساق وقدم ونادوا بالويل والثبور على الغازى حسن باشا وطلبوا قتله أخذاً بثأر تلك النفوس البريئة فقتل واشتدت الحال على السلطان شدة بالغة وهاله اتحاد الروس من النمساويين على قتاله وتحقق أن بقاء الحال على ذلك يدعو إلى تمزيق مملكته وتمكن العدو منها فبالغ فى حشد الجيوش وإعداد معدات الحرب واستنهاض همم كبار الجند وأمناء الحرب وبقي الحال على ذلك أياماً حتى أتاح الله من الأسباب ما أوقف رحى القتال وشغل النمساويين بموت إمبراطورهم فتوسطت عند ذلك دولتا الإنكليز وبروسيا بين المتحاربين فى أمر الصلح فتم على قاعدة تقررت لذلك بعد أخذ ورد قد أضربنا عن إيراد تفصيلهما خوف الإطالة . وزاد اجتهد إسماعيل بيك الكبير بعد القبض على سفير الروس وسجنه فى قلعة الجبل

فى جمع العسكر ومعدات الحرب وأنشأ فى طرا قلعة على ضفة النيل وجعل بها مساكن عديدة ومخازن وحواصل وعمل الأبراج والمتاريس والأبنية ممتدة من قلعة الجبل إلى سفحه وأخرج إليها المهمات والأدوات وغير ذلك وأرسل إلى دار السلطنة يطلب المدد. وارتحل إسماعيل باشا مقدم العساكر السلطانية بعسكره من بولاق إلى الصغيد فتربص إبراهيم بيك وجموعه فى بلدة صول وعملوا بها سبعة متاريس فلما وصلت سفن عسكر السلطان إلى المتراس الأول ورست قبالة وأطلقت مدافعها تباعا فلم تصل إلى من بالمتاريس فأطلقت عليها المتاريس ووالى الرمى بالقنابل فأحرقت بعضها حتى كادت تغرق بمن بقى فيها فخرج فريق من العساكر الذين بالسفن يريدون الهجوم على ذلك المتراس فدهمهم كمين من أصحاب إبراهيم بيك وأعمل فيهم القتل فقتل منهم خلق كثير وهرب من بقى إلى السفن فأخذ أصحاب إبراهيم بيك رؤوس القتلى ورفعوها على الرماح ليراها من بالسفن ومع ذلك فإنهم أرسلوا إلى الباشا فى طلب الصلح فلما جنح إليه الباشا ومن معه من الأمراء عادوا فتعللوا ولم يعطوا الرهائن فكبر هذا الأمر على الباشا وشدد على مقدم الجيوش السلطانية بسرعة القتال وقطع شأفة هؤلاء الخوارج فمال القائد المذكور بعسكره إلى ناحية صول وأخذ من فى السفن مما بقى من العسكر وحملوا على إبراهيم بيك وجموعه فى يوم الجمعة ثامن صفر من السنة أى سنة ثلاث ومائتين حملة رجل واحد فأجلوهم عن بعض المتاريس وقيل بل هم الذين أخلوا لهم فلما صارت العساكر السلطانية خلف ما أخذوه من تلك المتاريس خرج عليهم كمين من الخلف وأعمل السيف فى أفقيتهم فقتل منهم مقتلة عظيمة فتحصنت العساكر واشتبك القتال بين الفريقين يومى السبت والأحد وإطلاق المدافع متتابع ليلا ونهارا فكانت الحرب بينهم سجالا وكان كل من الفريقين يعمل الحيل وينصب الشباك ويكمن ليلا فيجدون الارصاد والعيون التى لا تغفل وكثر الموات فى الفريقين وانفصلوا على غير طائل وقدم المصابون إلى القاهرة فانزعج لقدومهم الناس وخافوا عاقبة الهزيمة وتمكن إبراهيم بيك وأصحابه من مستقرهم وتربصوا مراقبة الأحوال. واحتاجت العساكر السلطانية إلى النفقة فطلبوها من إسماعيل بيك فقررها على البلاد وضيق على أهلها فى جبايتها وعمل لها ديوانا فى بيت على بيك الدفتردار فضج الناس واستغاثوا بمشايخ الجامع الأزهر ولا محيص فلما علم إبراهيم بيك بإلحاح العساكر السلطانية فى طلب النفقة واشتغال إسماعيل بيك بجمعها أرسل من قبله رسولا إلى الباشا

يكلمه فى أمر الصلح وقد أعيا عابدى باشا هذا الحال فعقد لذلك الديوان وجمع فيه جميع الأمراء والمشايخ واستحضر بينهم رسول إبراهيم بيك وسأله عما يطلبه إبراهيم بيك وأصحابه فقال إنهم يطلبون أن يكون لهم من أسبوط إلى الصعيد الأعلى شرقا وغربا بشرط أن يقوموا بدفع الأموال الأميرية والغلال وأن يطلقوا سراح السفن والمسافرين بالغلال والأسباب وأنتم لا تمنعون عنهم الواردين بالاحتياجات إلا ما كان من آلات الحرب أو معدات القتال وبعد أن يتقرر الصلح على هذه القاعدة يعرض منكم ومنهم إلى الدولة وتنتظرون ما يكون فإن جاء الجواب بالعفو والقبول أو تعيين مكان آخر لإقامتهم فلا يجادلوا ولا ينقضوا بشرط أن يطلعوا على ذات الأمر الذى يرد بذلك فوافق الجميع على هذه الطلبات وكتبوا بها جوابا وسيروا به الرسول وآخرين معه. ووردت الأخبار فى هذه الأثناء بخلع عابدى باشا عن ولاية مصر وتولية إسماعيل بيك كتحدا حسن باشا أمير سفن البحر وفاض الخبر بذلك فى مصر والقاهرة وسائر المدن فلما وصل المبعوثون إلى إبراهيم بيك ومعهم المكاتبه على قاعدة ما وقع الاتفاق عليه إقرارا للصلح انتقض وقال: لسنا على ثقة من نجاحنا مع عابدى باشا والاعتماد على صلحه وقد بلغنا عزله عن ولاية البلاد فلا نتقدم إلى عقد الصلح معه إلا إذا أتاه فرمان من السلطان بتأييد ولايته أو أننا نترصد حتى يتولى الأمر غيره ثم كتب جوابا بذلك وسلمه لمن جاءه من قبل عابدى باشا فغضب عابدى باشا وكاد يتميز من الغيظ وجمع إليه المشايخ والعلماء وقاضى القضاة والأمراء وأطلعهم على الجواب فتحيروا فى أمرهم وقالوا لابد من استمرار القتال حتى يرجعوا أو يموتوا عن آخرهم. فقال الباشا: قد عيل صبرى وفرغ تدبيرى فلم يبق عندى إلا أن أقبض على جميع نساءهم وأسكنهم فى الوكائل وأخذ جميع ما فى بيوتهم وأبيعه وأنفقه على العسكر وأكتب لهم بذلك وتوقعوا جميعكم على ما أكتبه فإن خالفتمونى فانا تارك لكم البلاد وما فيها وأرحل إلى دار السلطنة فأعيش فيها هادئا مطمئنا ثم أخذته رجفة فقالوا جميعا لا نخالف لك كلمة فافعل ما أنت فاعل فكتبوا إلى إبراهيم بيك بذلك ووقع الباشا والعلماء والمشايخ والأمراء كافة على الكتابة ونادى الوالى والأغا بمصر والقاهرة بأن من كان عنده ودیعة لأحد من أتباع إبراهيم بيك أو جميع من هم معه وأتباعهم ولم يردها لأصحابها عاجلا قتل من غير معاودة وكان إبراهيم بيك قد عمل جسرا من السفن ممتدا من الجانب الشرقى من النيل إلى الجانب الغربى وعبروا جميعا عليه إلى

الجانب الغربى فلما وصل إليه الجواب بما ذكر خشى العاقبة وعلم ما سيلحق بالنساء والذرائى فأرسل رسله إلى الباشا بارتحال مع من هم معه إلى الصعيد الأعلى وعدم انحذارهم ألبته إلى مصر وأنهم لا يأنفون من عقد الصلح على ما رسم به عابدى باشا والمشايخ فعاد الباشا وعقد لذلك ديوانه فأبلغت الرسل أرباب الديوان رسالتهم فرفضوا بها وضمن الباشا غائلة إبراهيم بيك وأصحابه وضمن المشايخ غائلة إسماعيل بيك الكبير وحرروا محضرا بذلك ووقعوا عليه جميعا وأرسلوه صحبة مقدم الاختيارية وظهرت علامات الطاعة من إبراهيم بيك ومن معه إذ كسروا ذلك الجسر وسرحوا للسنن بالانحذار فكثرت توارد الغلال وغيرها وهبطت الأسعار وزال الغلاء واطمان الفقراء .

(مطلب)

عزل عابدى باشا وولاية إسماعيل باشا

وقدم فى هذه الاثناء ورسول من القسطنطينية يحمل ثلاثة كتب سلطانية فأصعده الباشا إلى قلعة الجبل وأمر فعقدوا الديوان وحضره المشايخ والعلماء والأمراء والوجهاء وقرئت تلك الكتب فكان الأول منها بتقرير عابدى باشا واليا على مصر سنة ثلاث ومائتين والثانى بلزوم مقاتلة إبراهيم بيك ومراد بيك حتى يرجعا إلى الطاعة أو يموتا، والثالث بطلب تسيير سفير الروس الذى كان مسجوناً بقلعة الجبل إلى دار السلطنة فلما أتموا قراءة تلك الكتب أطلقت المدافع من قصر العينى وقلعة الجبل ومراكب البحر ببولاق وذاع الخبر بذلك شرقا وغربا وأصبح وقد طلع الباشا إلى القلعة واستقر بها فجاء إليه المهنتون وأنزل سفير الروس وسيره إلى الديار الرومية وبالف فى التأهب والاستعداد لقتال إبراهيم بيك ومراد بيك حتى يرجعا إلى الطاعة أو أنهما ومن معهما يموتون عن آخرهم فلم يتم له بعض الاستعداد حتى جاءه الأمر بالعزل وولاية إسماعيل بيك ووصل رسول دار السلطنة فى العاشر من جمادى الآخرة عن طريق دمياط فنزل عابدى باشا من يومه إلى قصر العينى وليت به أياما، ثم برز بخيامه إلى بركة الحاج وسار منها إلى ديار بكر وسار معه إسماعيل باشا مقدم العساكر السلطانية التى كانت فى قتال إبراهيم بيك .

ولما استقر بإسماعيل باشا الوالى الجديد منصب الولاية أرسل إلى إبراهيم بيك يطلب الغلال والمال حكم قاعدة الاتفاق فلم يرد عليه جوابا ولم يرسل شيئا من

ذلك فخاف إسماعيل بيك الكبير من انتقاض إبراهيم بيك ونزوله إلى القاهرة بخيله ورجاله وهى خالية من العسكر والمرابطين فأرسل إلى دار السلطنة فى طلب المدد فلم يكن بأسرع من أن أرسلوا إليه أخلاطا من الأرنؤد وأهل الأناضول ممن لا كسب له وتراكم حضورهم فى هيات مختلفة وأشكال متباينة فأنزلهم فى طرا ومصر القديمة والجيزة وبولاق وأجرى عليهم النفقات وجلب له النحاسون المماليك فاشتري منهم عدة كبيرة وخصهم بالغريبة كل ذلك للحرص على مقاومة عدوه وتابع إرسال الهدايا النفيسة والأموال والتحف والخيول العربية وأنواع الأقمشة الفاخرة وغير ذلك إلى دار السلطنة قصد استمالة جانب الدولة إليه وتقربا من رجال الحل والعقد بها وتحريضا لهم على بغض إبراهيم بيك ومن معه ومع ذلك فلم يكن إبراهيم لينكف عن بث العيون والأرصاء حول إسماعيل بيك ومن معه ودس الدسائس واستمالة كل من يقدر على استمالته ومازال حتى تمكن بواسطة المعلم يوسف كساب الشامى معلم الجمارك يومئذ من الاتفاق مع أغاة جماعة الأرنؤد المدعو صالح أغا على أن صالحا المذكور يسلم إلى إبراهيم بيك جميع السفن السلطانية والقلاع التى بناحية طرا والجيزة نظير مبلغ من المال التزم به المعلم يوسف وكتب على نفسه تمسكا به فعلم إسماعيل بيك بخبر ذلك فقبض على المعلم يوسف وسأله فاعترف فأمر به فألقوه فى النيل فمات غرقا وأبعد صالح أغا عن ديار مصر وقيل بل قتله خفية فخابت بذلك مساعى إبراهيم بيك ورأى وجوب الترفع ومراقبة الفرص وأن لا شىء أنجح من المطاولة كى تتفرق جموع إسماعيل بيك وأخلاقه الذين جاء بهم من البلاد الرومية، فلما طال لبث أولئك الأخلاط على هذا الحال بطروا وزاد عسفهم بأهالى بولاق ومصر القديمة والجيزة فضج الناس وملت نفوسهم وضجروا. وكان الأغا الوالى يخشى من إخلاد أهل الحسينية إلى الفتنة والخروج عند أقل إشارة فكان يكثر التعدى عليهم بالضرب والحبس وأخذ الأموال ونهب البيوت لأقل سبب إخضاعا لهم وتذليلا واتفق أنه قبض يوما على شيخ طائفة البيومية وكان له حرمة وافرة بين أهل هذه الخطة فثار طوائفه على أتباع الوالى ومنعوه منهم وتجمعوا واجتمع عليهم خلق كثير من تلك النواحي وساروا وهم فى ضجة عظيمة وأمامهم جماعة يضربون بالبطول إلى أن وصلوا إلى الجامع الأزهر وقد أغلقوا الأسواق والدكاكين وصعد جماعة منهم على المنارات يضجون ويسبون إسماعيل بيك ومن معه وهيجوا من الجامع من المدرسين فقام معهم العميان وهما بالخروج ليفسدوا فى الشوارع

والأسواق فمنعهم المشايخ وركب الشيخ العروسى واجتمع بإسماعيل بيك وأخبره بخبر العامة وما يفعله الوالى بهم فاعتذر وقال: لو كان الوالى من أتباعى لخلعته الساعة إرضاء للعامة ولكنه تابع حسن بيك الجداوى وأرسل إلى حسن بيك يخبره بما وقع ويطلب خلع الوالى فلم يرض الجداوى وقال إن كان مراده الرفق بالرعية فليخلع أولا الأغا تابعه ويخلع رضوان كتخدا المجنون من قلعة الجبل ويخرج مصطفى كاشف من قلعة طرا ويصرف العساكر القليوونجية والأرنؤد الذين عاثوا فى الأرض وملثوها فسادا قال ذلك وخرج إلى العادلية مغضبا وكان الوالى المذكور يركب فى كل يوم ويمر فى شوارع المدينة بالقاهرة ومصر ليرى العامة أنه أكبر من أن يخشاهم فوقف له العامة بالطرق واجتمع منهم خلق كثير ووقعت بينهم وبينه مقتلة قتل وجرح فيها كثير واشتد الهرج وكثر اجتماع العامة جماعات يحملون القرايين والعصى والمساوق وأمام كل جماعة منهم الطبول فركب المشايخ كافة وساروا إلى بيت البكرى فحضر إليهم إسماعيل بيك وطيب خاطرهم والتزم لهم بعزل الوالى ومر الوالى فى ذلك الوقت على بيت البكرى فمنعه العامة وصاحوا فى وجهه وكادوا يبطشون به فاستل سيفه وهجم عليهم وشق من وسطهم وذهب فى طريقه فزاد الحال بالعامة وكثرت غوغاء الناس وعلت الضوضاء وسار جماعة منهم يأمرون الناس بغلق الخوانيت واجتمع آخرون منهم بالأزهر يضجون وينادون بالويل والثبور على الوالى وبقي الحال على ذلك ثلاثة أيام فاجتمع إسماعيل بيك ببقية الأمراء وشاورهم فى أمر العامة فانفقوا على خلع الوالى والأغا معا ونادوا فى الناس بذلك فهلل العامة وانصرفوا وانقضت الفتنة. وعقب هذا الحادث يومين غامت السماء غيما عظيما مطبقا وسحت الأمطار كأفواه القرب مع رعد شديد الصوت وبرق هائل متتابع متصل يخطف الأبصار واستمر ذلك ليلة الجمعة ويوم الجمعة والأمطار لا تنقطع حتى سقطت الدور القديمة فى عدة جهات ومات من كان بها من السكان وانحدر السيل من الجبل شديدا حتى ملأ الصحراء وخارج باب النصر فهدمت المقابر وخسفت وانحدر السيل من باب النصر فدخل المدينة وامتألت الوكائل بالمياه وكذلك جامع الحاكم وسقطت عدة بيوت من الحسينية، وكان ذلك أمرا مريعا جدا فظن الناس أنها تشقى ونقمة من قبل الله سبحانه وتعالى وإنذار للأمراء على ما فعله الوالى بشيخ البيومية وما يفعلونه فى كل يوم بخلق الله وتكلموا كثيرا فى هذا الأمر حتى كاد الأمراء يعتقدونه ولم تكذب الأرض من مياه ذلك السيل حتى ظهر

الطاعون واشتد وكثر الموات فى الأمراء والصناعق وأرباب الوجاقات والممالك
فصار الظن عند الناس يقينا واشتد الطاعون شدة لم يسبق لها مثيل وكثر الموات كثرة
بالغة فمات ما لا يكاد يدخل تحت الحصر من الأطفال والشبان والجارى والعبيد
والممالك والأجناد ومن أمراء الألو ف نحو الاثنى عشر أميرا ومات إسماعيل بيك
الكبير شيخ البلد المشار إليه فكان لموته ضجة ورجة ووقع الموات أيضا فى طوائف
العسكر الذين ببولاق ومصر القديمة والجيزة وعلى الخصوص منهم القليونجية
والأرنؤد فكانوا يحفرون الحفر بجانب أبى هريرة ويلقون الأموات فيها بلا غسل ولا
كفن وكان يخرج من البيوتات الكبيرة فى جنازة واحدة الخمسة أو الستة نعوش معا
لكثرة الموات وقيل العشرة أيضا وكثر تزاحم الناس على الحوانيت لأخذ المغسلين
والمغسلات والنعوش لنقل الأموات واشتد الخوف بالناس شدة عظيمة ونذر جدا
من كان يصاب بالطاعون ولا يموت ونذر ظهور الطعن فى الأبدان ولم يكن يحم
المصاب كما هى عادة الطاعون بل يكون الإنسان جالسا فيرتعش ويبرد فيدثر فلا
يفيق إلا مخلطا ويموت من نهاره أو ثانى يوم وربما زاد أو نقص واستمر الحال هكذا
شهرين إلى أوائل رمضان سنة خمس ومائة وألف ثم ارتفع ولم يقع بعد ذلك إلا
قليلا نادرا وكان ختام انفضاضه موت الأغا والوالى فولوا غيرهما فماتا بعد ثلاثة
أيام فولوا خلفهما فماتا أيضا فكان ذلك من غريب الاتفاق وأعجب ما سمع به .

(مطلب)

عزل إسماعيل باشا وولاية محمد عزت باشا

ولما مات إسماعيل بيك الكبير تنازع الرئاسة حسن بيك الجداوى وعلى بيك
الدفتردار ووقع بينهما نزاع طويل الأهداب واشتد بينهما الخلاف ثم عادا فاتفقا بعد
كلام طويل على تعيين عثمان بيك طبل تابع إسماعيل بيك المذكور فى مشيخة البلد
وإعطائه دار سيده ففعلوا ذلك . قال بعض كتاب الأخبار: وكأنهم تابوا عن إيذاء
الرعية وكفوا عن إحداث المغارم والكلف وقصرت أيديهم عن نهب البيوتات
العامرة بعد الذى رأوه من فعل الطاعون بهم وفتكه فيهم فنادوا بإبطال جميع ذلك
وطاف المنادون أياما متوالية فاطمأنت قلوب الرعية قليلا وقالوا أفلح إن صدق .
وورد الخبر عقب ذلك بقليل بخلع إسماعيل باشا والوالى عن مصر وتولية محمد
عزت باشا الذى كان واليا على جدة فنزل إسماعيل باشا من قلعة الجبل إلى قصر

العينى وأنزل جميع أمتعته وتأهب للسفر إلى موره حيث تقلد منصب ولايتها فمنعه الأمراء من ذلك حتى يحضر محمد باشا عزت ويرى فيما له وما عليه للخرينة فأبى إسماعيل باشا إلا السفر فحجروا عليه بقصر العينى ووقف الحراس على أبوابه أياما حتى حضر محمد باشا عزت إلى القاهرة فى شوال من السنة أى سنة خمس ومائتين ورسى سفينته على بولاق فنزل لاستقباله الأمراء كافة وركب معهم إلى قصر العينى ثم ركب فى يوم الاثنين رابع الشهر وصعد إلى قلعة الجبل فلما استقر به المنصب نظر فى حساب إسماعيل باشا واستخلص ما كان فى ذمته ثم أنزل متاعه بالسفن ولم تقلع من ساحل بولاق حتى ورد الخبر بإعادة محاسبته على مال الخزينة واستخلاص ما أخذه منها فعوقوه وأوقفوا سفنه حتى استصفوا ما عليه وسافر بعد ذلك بأيام قليلة. ولم يتمكن محمد عزت باشا من التصرف حتى جاءه الخبر بتحريك إبراهيم بيك الكبير ومراد بيك للقتال وعقدتهما النية على الانحدار بمن معهما إلى مصر ودخولها إن طوعا وإن كرها وقد تحقق الأمر إذ انحدر مراد بيك من الصعيد إلى منية ابن خصيب وانتشرت جموعه فى المقدمة وعبر بعضهم النيل إلى الشرق ووصلت طلائعهم إلى العياط وتربص إبراهيم بيك بمنفلوط ينتظر ارتحال الحاج من القاهرة فينحدر إليها عاجلا بجموعه ومن معه من الأمراء فأخذ محمد عزت باشا والأمراء بمصر يتأهبون للقتال وأرسلوا على بيك إلى طرا وآخر إلى الجيزة وأخذوا فى الاهتمام وحفروا خندقا من النيل إلى المتاريس وبالغوا فى التأهب وأكثروا من الحيلة فينما هم على هذا الحال من الاهتمام والأرصاء تنقل لهم أخبار مراد بيك وأصحابه إذ جاء عمر أفندى مكرم الأسىوطى بكتاب من إبراهيم بيك خطابا إلى شيخ البلد والمشايع والباشا فعقد الباشا ديوانه وقرئ الكتاب فكان حاصل ما فيه رغبتهم فى العودة إلى مصر بعد هذه الغربة الطويلة والوعد منهم بملازمة الهدوء والسكينة وعدم الخروج عن حد الطاعة وأن قد جاءهم مرسوم من دار السلطنة على يد رسول مخصوص بالعفو عما سلف وأن المشايخ يضمنون حسن سيرهم واستقامة أحوالهم فلما أتموا قراءة الكتاب سأل الباشا المشايخ ماذا تقولون فى هذا الطلب؟ فقال الشيخ العروسى: أصلح الله الأمير إن كان التفاهم بينهم وبين أمرائنا المصريين الموجودين بين ظهرانينا فإننا نترجى عندهم وإن كان ذلك بينهم وبين السلطان فالأمر لنا بمراد السلطان فبعد جدال وقيل وقال اتفقوا جميعا على أن يكتبوا جوابا محصله، إن طالب الصلح لا بد أن يقدم الرسالة

بذلك قبل أن يتحرك من مكانه وذكّرتم أنكم تائبون وقد تقدم منكم القول بالتوبة فلم نر لها أثرا على أن شرط التوبة رد المظالم وعدم إضرار خلق الله تعالى وأنتم لم تفعلوا ذلك ولم تدفعوا ما عليكم من مال الميرى فى هذه السنة فإن كانت نواياكم ثابتة على الصلح وجب أن ترجعوا إلى أماكنكم وترسلوا المال والغلال وسنطلب لكم من مولانا السلطان العفو فإن عفا عدتم إلى دياركم والإفلا . ووقع جميع من حضر على هذا الجواب وبعثوا به على يد السيد عمر ثم قرروا بعد ذلك نفى وتبعد جميع أتباع إبراهيم بيك ومراد بيك الذين بالقاهرة ومصر فأبعدوهم ووضعوا على أبواب المدينة الحراس والمراطين ونادوا على العساكر والأجناد بالخروج إلى طرا وملازمة المتاريس والخنادق وأشار الأمراء على الباشا بالنزول من القلعة إلى طرا وملازمة المتاريس فتزل وخرج إليها وخرج أيضا جميع الأمراء وطاف الأغا والوالى وهما يتناديان على الجند بأن لا يتخلفوا وتسلم المرابطون بقلعة الجبل أبوابها وشدوا المراقبة وأتى الجواسيس فأخبروا أن مراد بيك وأصحابه على عزم الانحدار إلى العادلية من خلف المقطم فأرسل الباشا بعض الأمراء إلى العادلية فعسكروا بها وأرسل أيضا إلى عرب العائد فجاءوا إلى العادلية ونزلوا بها فلما كان الليل تحول الباشا وجميع الأمراء إلى ناحية العادلية وأخذوا بعض المدافع وآلات الحرب والمؤنة وعملوا فيها المتاريس والخنادق فلم يكادوا يفرغون من عملهم حتى شاهدوا إبراهيم بيك ومراد بيك وأصحابهما منحدرين من الجبل إلى العادلية فى أسوأ حال فهم الأمراء المصريون بالهجوم عليهم وأخذهم فى حالة التعب فمنعهم عثمان بيك أبو طبل من ذلك وثبط هممهم وقد كان على عهد مع إبراهيم بيك ومراد بيك بحضورهم فى هذا الحين ثم أمر فرجعت جميع آلات الحرب والذخيرة إلى القاهرة ولبثوا واقفين على ظهور الخيل من غير أن يبدوا حراكا فتمنع إبراهيم بيك وقومه وترفعوا عن مواقع المتاريس ونزلوا عند سبيل علام للراحة حتى يتكامل حضورهم ثم نصبوا خيامهم واستراحوا إلى عصر اليوم كل ذلك وعثمان بيك والباشا ومن معهما لا يبدون إشارة وركب ممن كانوا مع الباشا مصطفى كاشف كتخدا على بيك الذى هو مملوك محمد بيك الألفى وهو أحد الذين كانوا مع إبراهيم الكبير وأخذ معه خمسة مماليك وانحاز إلى أستاذه بمعسكر إبراهيم بيك وركب محمد بيك المبدول أيضا وانحاز بأتباعه إلى أستاذه إبراهيم بيك وكذلك فعل قاسم بيك فانحاز إلى مراد بيك الكبير وكذلك مصطفى كاشف الغزاوى الذى هو أخو عثمان بيك طبل شيخ

البلد واستوثق لأخيه فكتب إليه إبراهيم بيك بالحضور فلم يتمكن من الذهاب إليه إلا بعد العشاء الأخيرة حتى انفرد عن على بيك وحسن بيك الجداوى فلما فعل ذلك وفارقهما علما حقيقة الخبر وأحسا بأنهما قد وقعا فى مخالاب العطب فأغمى على على بيك ثم أفاق وركب مع حسن بيك الجداوى وأتباعهما وعدتهم ستة وبعض المماليك والخدم وذهبوا جميعا من خلف القلعة إلى الأقاليم القبلية حيث كانت أخصامهما. فسبحان مقلب الأحوال وهادم بناء صروح تلك الآمال إنه الواحد القهار. ولما التقى عثمان بيك بإبراهيم بيك الكبير أجله كثيرا وأرسله مع ابنه مرزوق بيك إلى مقر مراد بيك فسلم عليه، وقد حضر أصحاب الوجاقات والاختيارية وأرباب المناصب للسلام وبدأ أتباعهم بالدخول إلى القاهرة طول ليلة السبت حادى عشرى القعدة سنة خمس ومائتين وألف هجرية وأصبحوا فدخلت الأحمال والجمال والدواب فكانت شيئا كثيرا جدا ثم دخل إبراهيم بيك وممر بالمدينة ومعه أمراؤه ومماليكه وأكثرهم لابسون الدروع ثم دخل بعنده سليمان بيك الأغا وأخوه إبراهيم بيك الوالى ثم بقية الأمراء ودخل مراد بيك من طريق الصحراء ونزل على الرميطة ومعه عثمان بيك الإسماعيلى الذى هو عثمان بيك أبو طبل شيخ البلد وجميع أمرائه ومماليكه وأتباعه ودخلوا بيوتهم وكان فى أكثرها عائلات الأمراء الذين هلكوا بالطاعون وبقي بها نساؤهم ومات أغلب نساء الذين كانوا بالأقاليم القبلية من الأمراء فلما رجعوا وجدوها أهلة بالنساء والجوارى والخدم فتزوجوهن وجددوا فراشهم وعملوا أعراسهم ومن لم يكن له منهم بيت دخل ما أحب من البيوت وأخذ به فيه من غير ممانع وكأن الله سبحانه قد أورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم وأزواجهم وهى عبرة وتذكرة.

وركب الأغا فى ثانى يوم ونادى على طوائف القليونجية والأرنؤد والشوام بالرحيل عن مصر عاجلا وكل من وجد منهم بعد ثلاثة أيام قتل بغير معاودة وتتبعهم المماليك والجند فكانوا إذا رأوا أحدا منهم قبضوا عليه وأخذوا ما معه من السلاح وأشبعوه ضربا وكانت العامة تسخر بهم ثم صعد إبراهيم بيك ومراد بيك ومن معهم من الأمراء إلى الباشا بقلعة الجبل فقابلهم بالترحاب وخلع عليهم الخلع وكتب إلى دار السلطنة يومئذ بكل ماجرى ولم تكد تستقر بهم الراحة بعد تلك الخطوب المدلهمة حتى جاء الخبر بأن حسن بيك الجداوى وعلى بيك اللذين فرا إلى الصعيد قد ضبطا المراكب المنحدرة إلى مصر بأموال ومتاع إبراهيم بيك وأخذوا ما

فيها ومنعا من نزول الغلال وعشا بالبلاد فاهتم إبراهيم بيك لذلك وجيش جيشا وسلم قيادته إلى إبراهيم بيك الوالى وقلد عثمان بيك المرادى ولاية الصعيد وسيرهما للقبض على حسن بيك وعلى بيك المذكورين وبينما هم على هذا الحال قدم رسول من دار السلطنة يحمل فرمانا بالعفو عن إبراهيم بيك ومراد بيك ومن معهما من الأمراء والجند والإذن لهم بالرجوع إلى مصر والبقاء فيها وكان ذلك بالتماس من محمد باشا عزت حيث كتب إلى الباب العالى يبالغ فيما ينجم عن بقائهم خارج مصر وفيما هم عليه من المنعة والقوة وفى عجز الأمراء الذين بمصر عن ردهم فعقدوا لذلك الديوان بقلعة الجبل فلما قرئ الفرمان أطلقت المدافع وخلع عليهم الباشا خلع الرضا ونزلوا فزارهم العلماء والمشايخ والأمراء وقدمت لهم التقدام والهدايا واستقرت بإبراهيم بيك ومراد بيك المناصب وبث إبراهيم بيك العيون لتأتى له بخبر حسن بيك الجداوى وعلى بيك فجاءوا وأخبروا بانفصال حسن بيك عن على بيك وذهابه إلى جدة عن طريق القصير فاطمان قلبه وسكن روعه وأخذ فى تقسيم المناصب بين أتباعه وأتباع مراد بيك فعزل وولى وأحكم الأمور وفتح أبواب المغارم القديمة والقرى والضرائب الفادحة وقلد أرباب الجباية وأصحاب المكوس وسيرهم إلى القرى والأرياف فضلا عن المدن هذا والغلاء منشب أظفاره فى جوف البلاد لتقصير النيل فى عامه وعدم وجود الغلال وقد تولد عن ذلك اختصاص الأمراء بما وجد من الغلال فى بعض القرى فنقلوه لأنفسهم ووقع القحط فى البلاد فهام أهلها ودخلوا مصر والقاهرة طلبا للقوت فكانوا يطوفون فى الأزقة والحارات والشوارع طائفة خلف طائفة يضجون ويبيكون من الجوع وكانوا يلقون بأطفالهم فى جوانب الجدران أمواتا من الجوع وكذلك كان يقع من أهالى مصر والقاهرة ويموت منهم فى كل يوم خلق كثير وكان إذا وجد الأرب القمح بيع بثمانية عشر ريالا والشعير بخمسة عشر والقول بثلاثة عشر ريالا وكانت الأوقية الخبز بنصف فضة واشتد القحط وكثر الصياح والعويل ليلا ونهارا فكانت لا تكاد تقع الأرجل إلا على خلائق مطروحة بالأزقة وكانوا إذا مات حمار أو فرس أخذوه وأكلوه نيئا ولو كان متنا ثم زاد الحال شدة فصاروا يخطفون الأطفال من أحضان أمهاتهم ويأكلونهم فانكف الناس عن الخروج بأطفالهم وطال الحال على ذلك أياما حتى جاءت الغلال من الديار الرومية وتتابع ورودها فكثرت وارتفع القحط فأكل الناس وشبعوا ووافق ورود هذه الغلال حصاد البذرة فعاد الناس إلى بلادهم وعمرت بعض القرى بعد

خرباها فكانت شدة عظيمة للغاية وعلا النيل ووافا فانحطت الأسعار وبورك في رمى الغلال فكان القدان الواحد ينتج غلة خمسة أفدنة وبلغ النيل زيادته المتوسطة وعم الماء غالب الأرض فأحيها بعد الموات .

ووصل في هذا الحين إلى ثغر الإسكندرية يوسف باشا صدر الدولة العثمانية يريد الأقطار الحجازية فاهتم إبراهيم بيك بشأنه جدا وأرسلوا إليه الملاقيين وقدموا التعابى والتقادم الثمينة وهيئوا لمقامه قصر العينى وزينوه بأنواع البسط والفرش الفاخرة وأنزلوه به وتمثلوا بين يديه فخلع على إبراهيم بيك ومراد بيك خلعة سنية وقدم لهما حصانين مسرجين مرختين وتخوف إبراهيم بيك من حضوره في هذا الحين وترامت ظنونه إلى المرمى البعيد فأعمل الحيلة ووضع لخفارته عبدالرحمن بيك الإبراهيمى ومعه فريق من الجند فصعد الصدر المشار إليه بعد أيام إلى قلعة الجبل باستدعاء من محمد باشا عزت ثم نزل إلى مقره وأخذ إبراهيم بيك فى إعداد ما يلزم لسفر الصدر المذكور من غلال وأرز وتعايبى هندية وغير ذلك من الهدايا والنفائس خوفا من طول لبثه بمصر وإفساد أمورهم وأعدوا له السفن بالسويس فركب فى أواسط جمادى الثانية من السنة أى سنة ثمان ومائتين وألف هجرية فزال مخاوف إبراهيم بيك ومراد بيك وعادا إلى ما كانا عليه من أعمال الجهد فى تحصيل المغارم وتقرير المكوس والضرائب وغير ذلك وأكثروا من أعوان الجباية وبثوهم فى البلاد والقرى لا يسايرون غنيا ولا يرحمون فقيرا .

(مطلب)

عزل محمد عزت باشا وولاية صالح باشا

وجاء الخبر بتوجيه مسند الصدارة إلى الوزير محمد باشا عزت وإلى مصر وتولية صالح باشا بدله فنزل محمد باشا من القلعة وسافر إلى الاسكندرية فى صفر من السنة أى سنة تسع ومائتين وألف وأقام بالاسكندرية أياما حتى قدم صالح باشا فى العشرين من ربيع الأول ووصل تقليد الصدارة إلى محمد باشا عزت وهو بالإسكندرية فنزل من فوره وسافر إلى دار السلطنة وحضر صالح باشا إلى القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد وصعد الأمراء والمشايخ للسلام عليه فقابلهم وأكرم لقاءهم وأراد التصرف فى الأمور والنظر فى مصالح الخلق فلم يتمكن لتغلب إبراهيم بيك ومراد بيك واستقلالهما بالأمر فالترم التحجب والانكماش .

عزل صالح باشا وولاية أبى بكر باشا

وبقى على هذا الحال عشرة أشهر حتى جاء الخبر بخلعه وتولية السيد أبى بكر باشا وذلك فى ذى الحجة من سنة عشر ومائتين وألف فنزل من قلعة الجبل إلى قصر العينى وتاهب للرحيل وأقام به أياما قلائل ثم سار إلى الإسكندرية فكانت مدة ولايته زهاء عشرة أشهر، وحضر السيد أبوبكر باشا من الأسكندرية إلى القاهرة وركب فى الموكب المعتاد إلى القلعة فى الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة إحدى عشرة ومائتين وألف هجرية فلم يكن له من حظ الولاية إلا ما كان لغيره من الولاية فكان مغلوبا على أمره والكلمة لإبراهيم بيك ومراد بيك والناس فى غم من الضرائب الفادحة والمغارم المتوالية والمكوس المتراكمة وضجيجهم مستمر وابتهالهم إلى الله تعالى متواصل بزوال دولة الظالمين ومحو آثار القوم المفسدين وقد بلغت منهم الروح الحلقوم والعظم السكين فأرسل الله سبحانه على زمرة المماليك بونابارته قائد جيوش الفرنسيين فى عسكر عظيم فقهرهم وأباد سلطانهم حينما كما سيأتى بيان ذلك فى محله إن شاء الله .

(فصل)

(فى نزول نابوليون بونابارته بجيوشه على

مصر وما جرى بعد ذلك من الحوادث والحزن)

لما عظمت دولة الفرنسيين وكبر سلطانها بما عانته من الغزو وتدويخ الممالك على يدى قائد عسكرها العظيم بونابارته الكبير واتسعت كلمتها وعمت هيبتها مشرق الأرض ومغربها بعد قتل لويس السادس عشر ملكها وقيام الحكومة الإدارية فيها لم يبق من معاند لها ولا واقف فى وجهها كما قاله أصحاب الأخبار سوى دولة الإنجليز فإنها كانت لا ترضى أبدا ببذل كل مرتخص وغال فى سبيل إذهاب تلك السلطة ومحو تلك الهيبة وقطع شأفة ما استقر منها فى قلوب كبار الممالك والدول الذين علا هامتهم سيف بونابارته العظيم فأذلهم وأخضعهم وكان كلما عاهدت دولة الفرنسيين دولة بعد الغلبة عليها حقنا للدماء أو حفظا لحرمة الجوار حركها الإنجليز ودفعوا بها إلى نكث العهود ونقض الوعود وأمدوها بما تحتاجه لذلك من المال

ومعدات القتال أو تاركت دولة أخرى أنهضها الإنجليز إلى القتال قبل انقضاء الأجل وحسنوا لها القبيح من هذا العمل فكان بونابارته من ذلك فى كمد دائم وحزن ملازم ولا ينكف عن تديير الحيل وتعليل الأمل بكسر شوكة هذا العدو الألد وسحق سلطانه من أدنى الأقطار إلى أقصاها فكان مما دبّره يومئذ نزع المملكة الهندية من يد الإنجليز وبذل النفس والنفيس فى سبيل ذلك وكأنه رأى أن هذا الأمر لا يتم إلا بنزوله بجيش عرمرم على مصر واستخلاصها من أيدي الممالك وجعلها رباطا لحركاته الحربية ومقرا لمناوشاته السياسية فجعل يفكر ويتدبر وهو قلق البال مضطرب الأحوال حتى اجتمع برجال الحكومة الفرنسية وهم المعروفون فى ذلك الوقت برجال الإدارة وكاشفهم على ما فى نفسه وبالع فى الشكوى وأراهم أنه لا سبيل إلى الخلاص من مخالب هذا الأسد الرابض إلا بإرهابه وتذليله ومناهضته فى أرض الهند الواسعة ففكر رجال الإدارة فى ذلك حيناً وأحلوه محلاً عظيماً فكانوا فيه بين إقدام وإحجام وخوف ورجاء فأنس منهم بونابارته ذلك فجعل يشجعهم ويستميلهم وكتب إليهم كتاباً يقول ما محصل ترجمته :

لستم تنكرون أيها السادة أن مصر أكثر المدن خصوبة وأكبرها عمراناً وأنها إنما كانت أهراء لأهل رومية وفى هذا الأوان لأهل القسطنطينية فإن أرضها تنبت القمح والفول والأرز وسائر أنواع البقول فضلاً عن القطن وقصب السكر والكتان والنيلة والقنب والخيار شبر والسنامكى والنظرون وفيها من الماشية أشكال ومن الطيور الداجنة ألوان فضلاً عما فيها من الحمر والإبل التى لا مثيل لها فى أقطار الأرض ومصر كما لا يخفاكم مركز متوسط بين قارتى آسيا وأفريقية تؤمه القوافل من جزائر العرب والشام وسواحل الغرب وبلاد الحبشة وربما جاءت من رأس الرجاء الصالح والسنغال بأنواع المتاجر من الزيت والخشب والفحم والبن ومن الجوار والعييد والصمغ والتبر والريش وسن الفيل والشالات والعطريات والأطياب وسائر صنوف المتاجر والمحصولات الهندية وقد كانت هذه المحصولات والأرزاق العظيمة تأتى إلى بلادنا قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح من طريق مصر فهى منذ القدم الطريق المأمون والسبيل الميمون ما بين قارتى آسيا وأوروبا وكانت تلك الأرزاق والمحاصيل العظيمة تحط أحمالها قبلاً عند مدينة برنيس على ساحل القلزم ثم تنقل منها حملاً على ظهور الإبل إلى مدينة طيبة زهاء أربع وعشرين مرحلة ثم تسير منها فى النيل إلى قارة أوروبا وكانت فى بعض الأحيان تنقل بحراً إلى القصير ثم إلى مدينة

السويس ومنها على ظهور الإبل إلى منف فتأتينا كما هي وليعلم السادة رجال الإدارة أننا لو فتحنا هذه الديار وأحسننا سياسة أهلها. ودبرنا شئونهم على ما تقتضيه مصلحتهم خمسين عاما فقط لعمرت البلاد وسعدت وزاد عدد أهلها أضعاف أضعاف ما هم عليه الآن وراجت محاصيل بلادنا فيها وفيما جاورها من الأمصار وأغتننا عن أمريكا وكفتنا مؤنة التعاقد معها وليعلم أيضا السادة رجال الإدارة أنه إذا قدر الله ركوز قدمنا في تلك الديار ووقفنا إلى حسن إدارتها قصرت أيام الإنجليز في بلاد الهند وصار جلاؤهم عنها أمرا خفيفا فإننا نقيم الجند المرابطين على سواحل القلزم وننشئ المعاقل والحصون المنيعة ونذخر فيها ما نشاء من محاصيل تلك البلاد ونحول التجارة الهندية إليها على أهون ما يكون وإذا فرضنا بقاء الإنجليز في رأس الرجاء الصالح وقلنا باستحالة رحيلهم عنها فإنه يكون من السهل علينا أن نباريهم ونفتح بين النيل والقلزم ترعة تذلل لنا المصاعب وتذهب عنا تلك المتاعب ونكون قد غلبنا الإنجليز وقهرناهم وقبضنا على زمام تجارتهم بيد من حديد وعندى أن فتح هاته الترعة ليس بالأمر الصعب فقد كانت جارية من قبل وآثارها باقية إلى الآن. وفي فتح مصر وبسط يدنا عليها الطامة الكبرى على الإنجليز والداهية الدهياء التي لا بد وأن تذهب بهم إلى حضيض الذل والدمار. أهـ.

فلما وقف رجال الإدارة على ما في خطابه هذا من البراهين الدامغة والحجج القوية حاروا في أمرهم وخشوا شر العاقبة وقد كانوا يرون في دولة الإنجليز أمة قادرة غنية تضرب بحسام غناها ذات اليمين وذات الشمال كما كانوا يرون في بونابارته هماما مقداما حسن السياسة والتدبير كبير المعرفة بأحوال الممالك والأمم فلما كان الخامس من شهر مارس سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وألف ميلادية أى سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف هجرية. اتفق رجال الإدارة مع بونابارته على تسير حملة يقودها هو مع من يصطفيه لنفسه من رجال الحرب ففرح بونابارته فرحا لا يوصف وبقي السر مكتوما بينهم لا يعلم به أحد البتة ثم جعل من هذا الحين يجيش الجيوش ويعد المعدات فاجتمع له أربعون ألفا من المقاتلين وأربعون قائدا من نخبة القواد أهل النجدة ومائة من المهندسين ومثلهم من أهل العلم بتخطيط الأرض وأصحاب الكيمياء والطبيعة ونحوها ومعهم مطبعة عربية وجماعة من الكتاب والمترجمين والأطباء والجراحين والكحّالين ومثلهم من الصنّاع وأصحاب العمل والحفر والنقش وهيا عمارة عظيمة لم ينقصها شيء ما من آلات الحرب والقتال

وأمرها برويس أحد كبار أمراء البحار وهى مؤلفة من مائة سفينة بين كبيرة وصغيرة وبينها سفينة عظيمة للغاية اسمها الشرق تحمل مائة مدفع وعشرين مدفعا. ومن صعب بونابارته فى هذه الحملة من كبار القواد كلابير وديزيه المشهوران ورينيرويون ونيو. للمشاة والقائد مورات للفرسان ودومارتين لأصحاب المدافع وكافرالى للمهندسين وخرجت سفن الحرب بما عليها من المقاتلين البحرية وهم زهاء عشرة آلاف من أربع جهات متباعد بعضها عن بعض حتى لا يعلم بخبرها أحد من عيون الإنجليز وخرجت معها السفن والشوانى التى كانت تحمل جيوش الحملة فكانت جعلتها زهاء سبعمائة سفينة وسار معها بونابارته وحاشيته فى التاسع من مايو من السنة تمخر بهم السفن فى عرض البحر فأنفذ رجال الإدارة إلى دار السلطنة العثمانية (الألتاليان) أحد كبار السياسة سفيرا من قبلهم ليكلم السلطان فى أمر حملة بونابارته هذه والإقرار عليها فسافر إلى القسطنطينية ولم يعلم بخبره أحد البتة.

ولما فاض الخبر بقيام تلك الجيوش العظيمة والمعدات الهائلة كثر تحدث الناس بها وترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد فمن قائل أنها لقتال الإنجليز وإبادة سلطانتها ومن قائل بل أنها لفتح المدن والأمصار فى آسية وإفريقية ومن قائل غير ذلك وطارت الأخبار بذلك إلى الآفاق فخاف الإنجليز شر العاقبة وجعلوا يتدبرون فى الأمر ويبالغون فى البحث والتجسس فلم يقفوا لهذه الحملة على جلية خبر فكبر عليهم هذا الأمر وأعظموه وأنفذوا الأمير نلسون أحد كبار البحر عندهم فى أسطول عظيم وعهدوا إليه أن يتتبع سفن بونابارته أينما حلت وأن لا يمكنها من عمل شىء البتة فسار نلسون بسفنه يمخر فى عرض البحار وقد ظن أن بونابارته إنما خرج بجيوشه يريد مصر أو الشام فسار قاصدا مدينة الإسكندرية فأدركها يوم الخميس ثامن المحرم افتتاح سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف هجرية أى سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وألف ميلادية وسفنه أمامها وكان العامل عليها السيد محمد كريم أحد عظماء البلد ثم أنزل نلسون نفرا من عسكره فى زورق فطلعوا إلى البر وطلبوا لقاء السيد محمد كريم فأدخلوهم عليه ومعه بعض أعيان المدينة فسألهم عن حالهم وسبب حضورهم بتلك السفن الكثيرة فى ذلك الوقت فقالوا: أتينا نبحث عن طوائف من الفرنسيين خرجوا فى عمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ولاندرى أين يقصدون فرما دهموكم فلا تقدرؤن على ردهم ولا تتمكنون من منعهم ولذلك رأينا أن نرسو ههنا بمرابطتنا لنحافظ على المدينة ومن فيها. ولا نسألکم شيئا من المدد

سوى الماء والزاد بثمنه فظن السيد محمد كريم أنها خدعة وحيلة فقال: هذه بلاد السلطان فليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سبيل فعادت رسل الإنكليز بغير طائل وأقلعوا ليمتاروا فسير السيد محمد كريم إلى كاشف البحيرة من يخبره بخبر تلك السفن ويأذنه بجمع العربان والإتيان بهم إلى الإسكندرية للمحافظة عليها فلما شاعت هذه الأخبار بالقاهرة ومصر خاف الناس وتحدثوا في الأمر كثيرا وأصحاب الحل والعقد في شغل عنه كأنهم في مأمن من العاقبة أو أنهم على ثقة من الظفر والغلبة فلما كان يوم الاثنين ثامن عشر المحرم وصلت العمارة الفرنسية مياه الإسكندرية أمام المدينة وأرسلت جماعة منهم يطلبون قنصل الفرنسي وبعض أهل المدينة فذهبوا إليها فمنعواهم من العودة ولما جن الليل تحول من تلك العمارة بعض السفن إلى ناحية العجمى وأبى قير وأنزلوا من بها من العسكر إلى البر وكان برويس أمير السفن يعارض بونابارته في ذلك ويمنع من نزول العساكر في تلك الليلة خوفا من حادث يحدث فلم يلتفت بونابارته إلى كلامه وقال: لابد من نزول جميع العسكر فنزلوا ليلا وساروا نحو الإسكندرية فلم يصبح أهل المدينة إلا والعساكر منتشرون حول المدينة انتشار الجراد فخرج الناس ومن انضم إليهم من الانكشارية والعربان وكاشف البحيرة ليقاتلوهم فلم يستطيعوا مدافعهم ولا أمكنهم ممانعتهم ولم يثبتوا لحربهم وانهزم الكاشف ومن معه من طوائف العربان ورجع الأهالي إلى الترس في البيوت وخلف الحيطان ودخل الفرنسيين المدينة وانبث فيها الكثير من ذلك العدد فأيقن أهل الإسكندرية أنهم مأخوذون على كل حال وليس ثم عندهم للقتال استعداد لخلو الأبراج من معدات الحرب فضلا عن المقاتلين مع كثرة العدو وغلبته فطلبوا الأمان فأمنوهم ورفعوا عنهم القتال ونودي في المدينة بالأمان ورفعتم الأعلام الفرنسية على ما بالمدينة من القلاع والحصون والأبراج وأرسل بونابارته في طلب أعيان الثغر والسيد محمد كريم فحضرُوا وهم فزعون وجلون وتمثلوا بين يديه فلاطفهم وكلم السيد محمد كريم لحظة لطيفة ثم ألزمهم بجمع ما بيد الأهالي من الأسلحة ومعدات القتال وإحضاره إليه وأن يضعوا على صدورهم علامة هي على شكل زهرة مستديرة ذات ثلاثة ألوان أحمر وأسود وأبيض وهي ألوان الراية الفرنسية وتسمى هذه العلامة عندهم جوكر ففعلوا وجعلت طوائف العسكر تطوف في شوارع المدينة وبأيديهم البنادق والحراب وأخذ جماعة منهم يصلحون ما تهدم من الحصون ويرمون ما تخرب من الأبراج وزحفت بقية الجيوش إلى رشيد

ودمنهور فهاجر أهلها ونزحوا عنهما إلى فوه ونواحيها فزسم بونابارته بتحرير منشور للأهالى كافة يؤمنهم فيه على أعراضهم وأموالهم ويطمئن قلوبهم ويسكن روعهم فكان نص ما فى ذلك المنشور .

بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله ولا ولد له ولا شريك له فى ملكه من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته يعرف أهالى مصر جميعهم أنه من زمان مديد والصناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنسوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدى فحضر الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة الممالك المجلوين من بلاد الأباطة والشراسة يفسدون فى الإقليم الحسن الأحسن الذى لا يوجد فى كرة الأرض كلها فأما رب العالمين القادر على كل شئ فإنه قد حكم بانقضاء دولتهم . يا أيها المصريون قد قيل لكم أنى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالتكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفتترين إننى ما قدمت إليكم إلا لتخليص حقكم من يد الظالمين وإننى أكثر من الممالك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم . وقولوا أيضا لهم أن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشئ الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم وبين الممالك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شئ حسن فيها من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن الفرجة فإن كانت الأرض المصرية التزاما للممالك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم ويعونه تعالى من الآن فصاعدا لا يئأس أحد من أهالى مصر من الدخول فى المناصب السامية ومن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم يدبرون الأمور وبذلك يصلح حالة الأمة كلها . وسابقا كان فى الأراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من الممالك . أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجرجية وأعيان البلد قولوا لأنتمكم أن الفرنسوية هم أيضا مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصرارى على محاربة الإسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة وطرودوا منها الكولارية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ومع ذلك الفرنسوية فى كل وقت من الأوقات

صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه ومع ذلك فإن المماليك امتنعوا من الطاعة للسلطان غير ممثلين لأمره فما أطاعوا أصلا إلا لطمع أنفسهم طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلوا مراتبهم وطوبى أيضا للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فإذا عرفوا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا للخلاص ولا يبقى منهم أثر.

(المادة الأولى) جميع القرى الواقعة فى دائرة قرية بثلاث ساعات من المواقع التى يمر بها عسكر الفرنسوية فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكىلا كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنسوية الذى هو أبيض وكحلى وأحمر.

(المادة الثانية) كل قرية تقوم على العسكر الفرنسوية تحرق بالنار.

(المادة الثالثة) كل قرية تطيع العسكر الفرنساوى تنصب صنجق السلطان العثمانى محبنا دام بقاءه.

(المادة الرابعة) المشايخ فى كل بلدة يختمون حالا جميع الأرزاق والبيوت والأماكن التى تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شىء منها.

(المادة الخامسة) الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم وعلى كل واحد من أهالى البلدان أن يبقى فى مسكنه مطمئنا وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعالى على انقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال أدام الله إجلال السلطان العثمانى أدام الله إجلال العسكر الفرنساوى لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية.

تحريرا بمعسكر إسكندرية فى ١٢ شهر سددود سنة ١٢١٢ من إقامة الجمهورية الفرنساوية يعنى فى آخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هجرية انتهى بنصه.

وسارت جيوش بونابارته سيرا حثيثا جدا فدخل فريق منهم إلى فوه وآخر إلى الرحمانية وعسكروا فيهما وفاض الخبر بذلك فى القاهرة ومصر فانزعج الناس

انزعاجا شديدا وعول أكثرهم على الفرار وجمع إبراهيم بيك ومراد بيك جميع الأمراء بقصر العينى وكذلك العلماء والمشايخ وقاضى القضاة ونزل الباشا من قلعة الجبل وتكلموا فى هذا الأمر وطال الأخذ والرد ثم اتفقوا على أن يكتبوا بخبر هذا الحادث إلى دار السلطنة العثمانية وأن يتجهز مراد بيك بالعسكر ويخرج للقتال وصد هذا العدو فكتبوا إلى دار السلطنة وسيروا الكتاب مع مخصوص على البر وأخذوا فى الاستعداد وجمع آلات الحرب ومعدات القتال وجعلوا يصادرون الناس ويأخذون ما يحتاجون إليه بغير ثمن ثم ارتحل مراد بيك عن القاهرة وبرز بخيامه إلى الجسر الأسود فأقام به يومين حتى تكامل خروج العسكر وخرج معه على باشا الطرابلسى وآخر اسمه ناصف باشا وقد كانا مقيمين معه بالجيزة وخصيصين به وأخذ عدة كبيرة من المدافع وشيئا كثيرا من الذخيرة وسار برا فى الفرسان وسافرت العساكر المشاة بحرا بسفن الحرب الصغيرة وقد كانوا أخلاطا من القليوبجية والأروام والمغاربة وحمل معه سلسلة عظيمة لوضعها على البوغاز عند برج مغيزل لتمنع سفن الفرنسيين من الدخول إلى النيل وظن أن الفرنسيين يطاولونه الحرب وهو يطاولهم كذلك حتى تأتته النجدة من جانب الدولة فكان الأمر على خلاف ما ظنه فإنه لما دخل بونابارته مدينة الإسكندرية ورتب أموره فيها على ما رأى فيه المصلحة سار بجيوشه على الجانب الغربى من النيل سيرا حثيثا من غير ممانع يطلب القاهرة وبث أمامه العيون والأرصاد لتأتى إليه بخبر مراد بيك ومن معه وكانوا إذا نزلوا على قرية أو بلد أو مدينة رأوا من أهلها الطاعة والإخلاء إلى السكنة وقد بدأت الوحشة بين سكان مصر والقاهرة وكثر الهرج والإرجاف وانقطعت الطرق وأخذت اللصوص فى كل ليلة تطرق المدينة وانكف الناس عن الخروج إلى الأسواق بعد الغروب فتأذى الأغا والوالى بفتح الحوانيت ليلا وتعليق القناديل على البيوت والدكاكين لإذهاب الوحشة من القلوب والاستئناس وكشف خبر الدخيل على البلد إذا دخل ولم يكن إلا أيام قلائل من خروج عساكر بونابارته من مدينة الإسكندرية حتى التقوا بجيوش مراد بيك فى يوم الجمعة تاسع عشر المحرم عند منية سلامة فاقتتل الفريقان فلم تكن إلا ساعة حتى انهزم مراد بيك بمن معه وكان القتال هينا جدا ثم أطلق الفرنسيين مدافعهم على سفن مراد بيك فأحرقتها بما فيها من البارود وآلات الحرب والمؤن والذخيرة والعساكر فأزعج هذا المنظر المريع مراد بيك وهاله جدا فولى الفرار وتبعه عسكره ونزل المشاة منهم فيما بقى من السفن وأقلعوا بها إلى بولاق ووصل

بعضهم إلى القاهرة وهم فى أسوأ حال فانزعج الناس واشتد الخوف وركب إبراهيم بيك إلى ساحل بولاق وتبعه الباشا والعلماء والمشايخ والأعيان فتشاوروا فى عمل متاريس من شبرا إلى بولاق وأن يتولى الإقامة فيها إبراهيم بيك وأتباعه ومما ليكه فأجابهم إبراهيم بيك إلى ذلك واهتم له جدا وأحضر السفن الكبيرة والغلايين التى أنشأها حديثا وأوقفها على ساحل انبابه وشحنها بالعساكر والمدافع فكان جانباً النيل شرقا وغربا مشحونين بالعساكر والأجناد والمدافع وآلات الحرب والمتاريس .

قال بعض كتاب الأخبار وكان العلماء من يوم خروج مراد بيك بجيوشه يجتمعون بالجامع الأزهر كل يوم يقرؤون البخارى وغيره من الدعوات وكذلك مشايخ فقراء الأحمدية والرفاعية والإبراهيمية والقادرية والسعدية وغيرهم من الطوائف وأرباب الأشاير ويعملون الأذكار بالأزهر وكذلك أطفال المكاتب كانوا يضجون فى كل يوم بيالطيف وكان الأمراء فى وجل ما عليه من مزيد فكانوا ينقلون فى هذه المهلة أمتعتهم من بيوتهم وقصورهم الرحبة إلى بيوت حقيرة غير معلومة وأرسلوا بعضها إلى الأرياف وتأهبوا للرحيل وكاد يتبعهم فى ذلك أكثر الأغنياء وأصحاب المقامات العالية ووقع النداء بالنفير العام فخرج الناس إلى المتاريس وكرروا النداء فى كل يوم فأغلق الناس الحوانيت والأسواق وخرج الجميع إلى بولاق القاهرة فكانت رجال كل طائفة من أرباب الصنائع يجتمعون وينصبون لهم خياما أو يجلسون فى مكان خرب أو مسجد ويرتبون لهم قيما يصرف عليهم ما يحتاجون له مما جمعه من بعضهم من المال وكان البعض يتطوع بالإنفاق على الآخرين ومنهم من جهز جماعة من المغاربة أو الشوام بالسلاح والذخيرة وغير ذلك واجتهد الناس اجتهدا عظيما وخرج الفقراء بالطبول والزمر والأعلام والكاسات وهم يضجون ويصيحون ويذكرون بأذكار مختلفة وصعد السيد عمر أفندى نقيب الأشراف إلى قلعة الجبل فأنزل منها يرافا كبيرا سمته العامة البيرق النبوى فنشره بين يديه من قلعة الجبل إلى بولاق القاهرة وأمامه وحوله الألوف المؤلفة من العامة وبأيديهم النبائيت والعصى والمساق وهم يضربون بالطبول ويهللون ويكبرون وكانت شوارع القاهرة فى غاية الوحشة إذ كنت لا ترى فيها أحدا سوى من فى بيوتها من النساء والأطفال وضعفاء الرجال وكانت الدكاكين كلها مقفلة نهارا وليلا وجلس العلماء والمشايخ بزاوية على بيك ببولاق القاهرة يدعون ويتهلون إلى الله بالنصر وأرسل إبراهيم بيك إلى العربان المجاورين لمصر ورسم لهم بأن يكونوا فى المقدمة بنواحي شبرا وما

والاها واجتمع له أيضا كثير من عرب البحيرة والصعيد والجيزة والقيعان وأولاد على والهنادى وغيرهم فكان الجمع يزداد فى كل يوم . ويعظم الهول ويشد الضيق بالفقراء لتعطل الأسباب واجتماع الناس فى صعيد واحد وانقطعت الطرق وتعدى الناس بعضهم على بعض وجمع إبراهيم بيك جميع الفرنجية الذين بمصر والقاهرة فحبس بعضهم بقلعة الجبل وبعضهم ببيوت الأمراء وقتلوا بيوتهم لعلهم يجدون فيها شيئا من السلاح أو آلات الحرب وكذلك فتشوا جميع بيوت الشوام والقط. والروم وجميع الكنائس والديارات والعامه لا ترضى إلا أن يقتلوا النصارى واليهود فيمنعهم الحكام عنهم قال صاحب عجائب الآثار ولولا ذلك المنع لقتلتهم العامة وقت الفتنة أهـ.

ولما كان يوم الجمعة سادس صفر وصل بوناپارته بجيوشه إلى الجسر الأسود فباتوا ليلتهم وأصبحوا فساروا إلى أم دينار فوصلوها فى يومهم وقد كان الظن بهم أن يأتوا من جانبى النيل شرقا وغربا فلم يأتوا إلا من الجانب الغربى ونظر بوناپارته إلى صفوف العدو على يمين موقفه وهرم الجيزة الكبير على يساره فخاطب جنوده وقال أيها الأبطال البواسل إن أرواح أناس قد مضى عليها خمسون قرنا تنظر إليكم من قمة هذا الهرم العظيم وترقب حركاتكم فى قتال هؤلاء الممالك فافطنوا ثم رسم إلى الجنرال ديزه أن يسير بعسكره نحو اليمين وبقيّة العساكر نحو اليسار وكان الوقت وقت القائلة وقد خرج جماعة من عسكر إبراهيم بيك وقدموا نحو بشتيل فتلاقوا مع مقدم عسكر الجنرال ديزه فكروا عليهم بالخيول فرماهم الفرنسيين بالبنادق رميا متتابعاً وأبلى الفريقان بلاء حسنا فقتل جماعة كثيرة من كشاف محمد بيك الألفى ومماليكه وتعقبتهم عساكر الجنرال ديزه فلما اقتربوا من متاريس مراد بيك ترامي الفريقان بالمدافع وكان قد حضر من دمياط فريق من عسكر البحر الأرنود فقاموا بالقتال من خلف المتاريس وحاربوا مع العساكر البرية فلما احتدم القتال وارتفعت أصوات المدافع ضج العامة والغوغاء من الرعية وأخلط الناس بالصياح فى الجانب الشرقى من النيل ورفعوا أصواتهم ييارب ويا لطيف ويارجال الله وغير ذلك وشرع فريق من العسكر الذين بالجانب الشرقى فى العبور غربا فلم يتم عبورهم حتى تمت الهزيمة على المصريين وكانت الرياح شديدة وأمواج النيل تتلاطم وفى قوة اضطرابها والرمال يرتفع غبارها وتنسفها الرياح فى وجوه المصريين فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه لشدها وانقسم الفريق المقاتل من الفرنسيين إلى شطرين بشكل مخصوص واقترب من متاريس مراد بيك فصارت المتاريس فى القلب والفرنسيين من الامام ومن

الخلف ودقوا طبولهم ورموا بالبنادق والمدافع تباعا وقد اشتد هبوب الريح وانعقد الغبار وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الريح وصمت الأسماع من أصوات المدافع وبقي الحال هكذا نحو ثلاثة أرباع الساعة وانكشف عن هزيمة المصريين وغرق العدد العديد من فرسانهم فى النيل لإحاطة العدو بهم وظلام الوقت وأسر منهم خلق وملك الفرنسيس المتاريس جميعها وفر مراد بيك ومن معه هاربين إلى الجيزة ثم جاء منزله فى حالة رديئة وقضى أشغاله وسار من فوره إلى الصعيد الأعلى .

ولما تمت هزيمة من كانوا يقاتلون بالجانب الغربى من النيل حول الفرنسيس أفواه مدافعهم إلى الجانب الشرقى وتابعوا الرمى بها مع الرمى بالبنادق أيضا فتحقق من كان بالجانب الشرقى من الهزيمة فقامت فيهم ضجة عظيمة وكثر صياح العامة وتساقط بعضهم فوق بعض وداستهم سنابك خيل الفارين من الأمراء والممالك وفر إبراهيم بيك والباشا والأمراء وجميع العسكر والأهالى كافة وتركوا جميع الأتقال والخيام ولم يأخذوا منها شيئا وذهب إبراهيم بيك والباشا إلى العادلية ودخل الناس قبيل الغروب المدينة وهم يضجون بالعويل والنحيب ويستهلون إلى الله من شر هذا اليوم العصيب فصارت النساء عند ذلك يصرخن بأعلى أصواتهن من البيوت ويولولن فلما جن الظلام خرج الكثير من الناس خارج أبواب المدينة بنسائهم وأولادهم وخرج بعضهم هائما على وجهه لا يرى للسلامة سبيلا غير مبال بترك الزوجة والولد واستمر الحال على هذا المنوال طول تلك الليلة وأصبحوا وقد أحاط بهم العربان من كل جانب فسلبوا ما كان معهم من متاع ولباس وأحمال فلم يترحموا لمن وقع فى أيديهم ما يستر به عوزته أو يسد جوعه وعاد من الهاربين من لم يبعد عن أبواب المدينة فدخلوا عرايا نساء ورجالا حتى الأطفال والصبيان والبنات فكانت ليلة وصباحها من أشنع ما رآته أعين المصريين جرى فيها من القتل والنهب وفضيحة النساء على اختلاف درجاتهن ما لم يسمع بما شابه بعضه فى تواريخ المتقدمين وأصبحوا وقد اجتمع العلماء والمشايخ بالجامع الأزهر واتفقوا على ان يبعثوا بكتاب إلى بونابارته بمعسكره فى انابة يسألونه فيه عن مراده وعما يسأله من الطلبات فكتبوا الكتاب وأرسلوه مع أحد المشايخ المغاربة فلما وصل الرسول وتمثل بين يدى بونابارته بش فى وجهه ولاطفه وقرأ الخطاب ثم التفت إلى الرسول وقال وأين عظماء البلد ومشايخها ولم تأخروا عن الحضور لترتب وإياهم ما يكون فيه الراحة لهم ولأهل بلادهم فقال نريد أمانكم فقال قد أمانكم وبعثنا لكم به قبل الآن قال

الرسول ولكن لتطمئن الناس أيضا فأمر بونابارته فكتب جوابا من معسكر الجيزة خطابا لأهل مصر أننا أرسلنا لكم قبل الآن كتابا فيه الكفاية وذكرنا لكم أننا ما حضرنا إلا بقصد إذهاب دولة المماليك الذين أهانوا الفرنسيين وساموهم الخسف وقد تناولت أيديهم إلى سلب التجار ومال السلطان فلما حضرنا إلى الجانب الغربى من النيل خرجوا إلينا فقابلناهم بما يستحقونه وقتلنا بعضهم وأسروا البعض ونحن فى طلبهم حتى لا يبقى أحد منهم بالديار المصرية وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات وكامل الرعية فيكونون مطمئين ساكنى الخواطر لاخوف عليهم أهـ.

ثم التفت إلى الرسول وقال لترجمانه قل له أنه لا بد من حضور المشايخ والأعيان إلينا لترتب ديوانا نتخبه من سبعة من عقلاء الناس يدبرون الأمور وينظرون فى مصالح الخلق، فعاد الرسول وأخبر بجميع ماجرى فاطمأن الناس وسكنت خواطرهم وركب الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى ولم يبق من كبار المشايخ يومئذ غيرهم لفرارهم مع بعض الأمراء وعبروا إلى الجيزة فلتقاهم بونابارته وبش فى وجوههم وسألهم أنتم كبار المشايخ فقالوا لا وإنما كبار المشايخ قد هربوا فقال لأى سبب يهربون اكتبوا لهم بالحضور وسنعمل لكم ديوانا ينظر فى مصالح الرعية ويقضى أمورها ويقوم بما تقتضيه الشريعة ثم أمر فكتبوا عدة مكاتيب للمشايخ بالأمان وسرعة العودة ثم قام الشيخ الصاوى ومن معه وعبروا إلى مصر بعد العشاء الأخيرة فاطمأن الناس برجعهم وأصبحوا فأرسلوا خطاب بونابارته للمشايخ فحضر الشيخ السادات والشيخ الشراوى وبقية المشايخ ومن تبعهم من الأهالى الفارين من ناحية المطرية فتقوت قلوب الرعية برجعهم ودخل معهم أيضا جماعة كبيرة من الحرافيش والأوباش الذين كانوا يقتفون الهاربين من الأمراء والأهالى وقصدوا بيتى إبراهيم بيك الكبير ومراد بيك اللذين بخطة قوصون ونهبوا ما بهما وأحرقوهما بغير ممانع ونهبوا عدة بيوت أخرى من بيوت الأمراء وأخذوا ما فيها من متاع وغيره وكانوا يبيعون ذلك فى الأسواق جهارا.

ولما كان يوم الثلاثاء عاشر صفر عبر بونابارته النيل إلى مصر فى فريق من عساكره ونزل فى بيت محمد بيك الألفى بخط الساكت الذى أنشأ وزخرفه وفرشه بأنواع البسط والفرش الثمينة ولم يسكن به إلا أياما قلائل ثم رحل عنه عند وصول الاخبار بدخول الفرنسيين مدينة الإسكندرية فاحتله بونابارته وكأنه قد بنى وفرش له

ولم يدرج فى المدينة من عسكر الفرنسيس إلا نفر ومشوا بالأسواق من غير سلاح ومع غاية الحشمة والوقار فكانوا يشون فى وجوه الناس ويضاحكونهم ويشترون ما يحتاجون إليه بأعلى ثمن فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطى صاحبها فى ثمنها ريالاً ويأخذ البيضة بنصف فضة فلما رأى منهم العامة ذلك أنسوا بهم واطمأنوا لهم وخرجوا إليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج وأنواع المأكولات وصاروا يبيعون عليهم بما أحبوا من الأسعار وفتح أكثر السوق الحوانيت والقهاوى.

وأرسل بونابارته يطلب المشايخ والأعيان فذهبوا إليه فلما استقر بهم المقام كلمهم فى إقامة عشرة من المشايخ للديوان وفصل الخصومات وقضاء مصالح الرعية فوق اتفاقهم على الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ أحمد العريشى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى والشيخ محمد المهدي والشيخ موسى السرسى والشيخ يوسف الشبرخيتى والشيخ محمد الدواخلى وانتظم فى عداد هذا المجلس أيضاً محمد كتخدا أبوبكر باشا عامل السلطان على مصر وقاضى القضاة وقلدوا محمد أغا المسلمانى أغاة مستحفظان وعلى أغا الشعراوى والى الشرطة وحسن أغا محرم أمين احتساب وقد ألح المشايخ بإعطاء هذه المناصب لمن ذكروا من الممالك خلافا لما أشار به بونابارته من تباعد طوائف الممالك وعدم إدخالهم فى الوظائف العالية وأعلموا بونابارته بأن سوق مصر لا يخافون إلا من الترك ولا يحكمهم سواهم، قال صاحب عجائب الآثار وأقاموا ذا الفقار كتخدا محمد بيك كتخدا بونابارته والخواجه موسى كانوا وكيلا عن الفرنسيس المقيمين بمصر والخواجه حنا بتتو عن أرباب المجلس، فلما استقر بأرباب هذا المجلس المقام رسم بونابارته فنادى الأغا والوالى فى شوارع مصر والقاهرة بالأمان فلم تكن العامة لتكثر بهذا النداء وبقيت أكثر الدكاكين مقفلة والناس فى ريب من سكون الحال وكانوا لأجل أن يأمنوا شر الطارق من عسكر الفرنسيس يعلقون على أبوابهم الراية الإفرنسية أو يأخذون من معسكر الفرنسيس ورقة مكتوبة بالإفرنسية يلصقونها على الباب ثم أمر بونابارته بتقليد الوظائف لمن يرون فيه الأهلية لذلك فقلدوا برتلين النصرانى الرومى كتخدا مستحفظان قال وهو الذى كانت تسميه العامة فرط الرمان فركب بموكبه المعتاد من بيت بونابارته وأمامه عدة من طوائف الجند مشاة بين يديه وعلى رأسه حشيشة من الحرير الملون وهو لابس فروة وبين يديه الخدم بالحرايب المفضضة وقد رتب الأربطة فى مراكز أخطاط

مصر والقاهرة وسكن بيت يحيى كاشف الكبير بحارة عابدين وأخذ به بما فيه من فرش ومتاع قليل وجوار وغير ذلك وكان برتلمين هذا من أصحاب المدافع عند محمد بيك الألفى وقلدوا أحد الفرنجية أمانة البحرين وآخر أغاة الرسالة وجعلوا الديوان بيت قائد أغا بالأزبكية قرب الرويعى وسكن به رئيس الديوان وسكن قائم مقام مصر بيت إبراهيم بيك الوالى المطل على بركة الفيل وسكن شيخ البلد بيت إبراهيم بيك الكبير وآخر بيت مراد بيك على رصيف الخشاب وسكن بوسليك مدير الحدود بيت الشيخ البكرى القديم فكان يطلب الكتاب من القبط فى كل يوم ويسألهم عن دفاتر البلاد وحسابها ومربعاتها وغير ذلك ، وأفرج بونابارته عن الأسرى من المماليك والأجناد المصرية بشفاعة أرباب الديوان فدخل الكثير منهم بالجامع الأزهر وهم فى أسوأ حال وعليهم الثياب الزرق الرثة فمكثوا يأكلون من صدقات الفقراء المجاورين ويتكفون المارين وفى ذلك عبرة وتذكرة لقوم يعقلون ، وجمعوا جميع الأسلحة وآلات الحرب وتبعوا من كان عنده شئ من ذلك وأخرجوا الدفائن والودائع ودلهم طوائف الخدم على ودائع الأمراء وأمتعتهم فأخرجوها وأخذوها إلى بيت القائم مقام فكانت شيئا كثيرا جدا وطلبوا قرضة من التجار المسلمين والقبط والشوام والفرنجية قدرها خمسمائة ألف ريال فطلبوا التخفيف فلم يرض بونابارته فقاموا بدفعها ودخلت العساكر إلى المدينة فملؤا شوارعها وحاراتها وهم فى غاية الحشمة والوقار وكانوا يعاملون الناس بالرفق ويخاطبونهم باللين فاطمأنت القلوب وسكنت الخواطر وأسرع السوق إلى فتح دكاكينهم وزال عنهم الخوف .

وجاء الخبر بوصول الحجاج إلى العقبة وقرب دخولهم إلى مصر فذهب أرباب الديوان إلى بونابارته وأخبروه بوصول أمير الحاج ومن معه من العساكر والأجناد وطلبوا منه إذنا له بالدخول هو ومن معه فامتنع ولم يسمح إلا بدخوله فى قلة وأن لا تدخل معه مماليك كثيرة ولا عسكر فكتب المشايخ إلى أمير الحاج بأن يحضر إلى الدار الحمراء ويتربص هناك حتى ينظر فى دخوله إلى مصر فلم تصل إليه مكاتبة المشايخ حتى كاتبه إبراهيم بيك الكبير وحبب إليه الحضور إلى بلبس بمن معه من العسكر فساروا جميعا إلى بلبس وأقاموا بها أياما وكان إبراهيم بيك عند هرويه من مصر قد ذهب إلى بلبس وأقام بها وبعث النساء والذرارى إلى القرين بإقليم الشرقية فلما قدم عليه أمير الحاج بمن معه سار بهم إلى المنصورة وقد تفرق جميع الحجاج إلى بلادهم وعلم بونابارته بذلك فخرج فى جيش عظيم إلى العادلية وسار

إلى أن وصلت طلائعه الخائكة وأبا زعبل وطلبوا كلفة من أبى زعبل فامتنع أهلها فقاتلوهم وهزموهم ونهبوا البلد وأحرقوها وارتحلوا إلى بلبس فملكوها بغير قتال ووصل الخبر بذلك إلى إبراهيم بيك الكبير ومن معه من الأمراء وبعض الأعيان فركب ليلا بمن معه وترفع إلى القرين فتبعه بونابارته بجيوشه فسار إبراهيم بيك إلى الصالحية وأنزل النساء والذراى فيها ومعهم متاعه وأقام عليهم طائفة من العرب تحرسهم فجاء أحد العربان وأخبر بونابارته بموضع النساء والأمتعة فسير بونابارته فريقا من الفرسان لأخذها فوقف إبراهيم بيك وأصحابه فى طريق أولئك الفرسان واشتبك القتال بين الفريقين ساعة كادت تنهزم فيها الفرنسيس لقتلهم وإذا بالخبر جاء إلى إبراهيم بيك بأن العرب على وشك أن يأخذوا الأمتعة وجميع الأحمال ففر وفر من كان معه على أثره وتركوا قتال الفرنسيس ولحقوا بالأحمال وأجلوا عنها العرب وقتلوا منهم جماعة وساروا مسرعين إلى قطيا فلم تدرکہم الفرنسيس بعد ذلك ومازالوا سائرين إلى أن استقر بهم المقام بغزة فعاد بونابارته بجيوشه إلى مصر وجعل ينظر فى الأمور ويرتب أحوال البلد وأكثر من طلب الكلف والمصالحات للنفقة على جيوشه الكثيرة.

وبينما هو على هذا الحال إذ جاءه الخبر بقدوم عمارة الإنكليز إلى ناحية أبى قير مع نلسون أحد أمراء البحر وأنها أحرقت جميع مراكبه وما فيها من آلات الحرب والذخيرة وغيره عند السد وتحرير الخبر أنه لما خرج بونابارته بمراكبه يريد الإسكندرية لم يسر بها فى درب البحر المعلوم خوفا من أن تلحقه مراكب الإنكليز فسار خلفه ربان السفن الإنجليزية ولحق بالإسكندرية ليمنعه من النزول بها فكان من أمر حضوره وعدم ملاقاته بسفن بونابارته ما تقدم بيانه فرجع بمراكبه يمحى فى البحر لعله يعثر على سفن بونابارته فيقاتلها أو يتبعها حيثما سارت فدخلت مراكب بونابارته إلى أبى قير على يسار مدينة الإسكندرية عند غروب الشمس وقيل بعد غروبها وألقت مرساها وكانت الريح على وشك الخروج والبحر كثير الأمواج فقال بونابارته لربانه فلتنزل الجند حالا إلى البر فقال كيف يا مولاي والبحر فى هياج والأمواج فى شدة وماذا علينا إن بقينا إلى الصباح فقال بونابارته لابد من خروج العسكر بلامهل فأخرجت وأصبحوا فلم يبق فى المراكب إلا ملاحوها فقط وسار بونابارته من فوة إلى الإسكندرية ومنها إلى رشيد ودمهور والرحمانية قاصد القاهرة كما تقدم لك.

أما سفن الإنجليز فإنه بعد أن أقلع بها نلسون من مياه الإسكندرية وسارت تمخر في عرض البحار تبحث عن بونابارته وسفته عادت مسرعة إلى أبي قير فرأت سفن بونابارته راسية هناك فظنت أن بونابارته وعسكره بها فاطلقت عليها المدافع وكانت السفن الفرنسية راسية على خط واحد ممتدة من الشمال الغربي إلى الجنوب الغربي من أبي قير وربانها الأميرال برويس وكان برويس قد أنزل من كل مركب منها في ذلك اليوم خمسة عشر رجلا إلى البر لحفر الفعلة الذين أتوا بهم لحفر الآبار للاستقاء فلما شاهد الأميرال برويس سفن الإنجليز قادمة استدعى عساكره الذين بالبر وعقد مجلسا من ضباطه وتناجوا في أمر القتال مع المراكب الإنكليزية فأشاروا عليه بالخروج إلى ظهر البحر وملاقاتها بعيدا عن أبي قير دفعا للخطر فلم يذعن لمشورتهم وأبقى سفته في مرساها وكان نلسون أمير السفن الإنكليزية في كمد دائم وحزن ملازم بسبب عدم اهتدائه إلى مقر السفن الفرنسية فلما شاهدها عند أبي قير فرح وأخذ يدبر أمر قتالها قيل فسير بعض مراكبه إلى التحرش في مراكب الفرنسيين والدخول بينهم حتى يصلوا بالبر وأتى بما بقي من مراكبه أمام مراكب الفرنسيين وكانت الشمس قد مالت إلى الغروب وأطلق مدافعه على سفن الفرنسيين فأجابته مدافع الفرنسيين واشتبك القتال بين الفريقين وتتابع الرمي بالقنابل وعلا الدخان وقد دخل الليل فازداد الجو ظلاما على ظلامه وتحطم بعض المراكب الفرنسية وأسر البعض الآخر في قليل من الزمن وكان أميرال السفن الفرنسية على ظهر أكبر مراكبه المسماة الشرق وبها نحو ألف من الملاحين وكان نلسون على ظهر إحدى بوارجه فأصابته رصاصة في جبهته فحملوه إلى غرفته وكذلك أصاب أميرال المراكب الفرنسية شظية من قنبلة قطعتة نصفين فحملوه لينزلوا به إلى غرفته فأبى وأشار لهم أن أبقوني حتى أموت في موقعي هذا واشتد القتال وعلت أصوات المدافع إلى عنان السماء فلما كان بعد العشاء الأخيرة أصابت النار ميخازن بارود مركب الفرنسيين الكبرى المسماة الشرق فأشعلتها فارتفعت بما فيها من الرجال والأموال والذخيرة والمدافع والآت الحرب أذرا كثيرة عن وجه الماء ثم هبطت إلى قاع البحر وقد تمزقت كل ممزق ولم يبق لها من أثر ورأى حريقها أهل الإسكندرية ورشيد وغيرها وبطل عندئذ القتال نحو ساعة ثم عاد نلسون يرمى بالقنابل تباعا على ما بقي من سفن الفرنسيين إلى نحو ظهر اليوم الثاني حتى دمرها تدميرا وكان الجنرال كليبر في هذا الحين محتلا بجيشه الإسكندرية فشاهد نيران الحريق وعلم بما

جرى على السفن الفرنسية من الحريق والدمار. فهاله الأمر وأزعجه جداً. فبات هو ومن معه من العسكر على قدم الاستعداد فلم يغمض لهم جفن ليكتهم تلك وأصبحوا وقد جاء الخبر بما جرى وأقلعت سفن العمارة الإنجليزية تمخر فى عرض البحار لا يعلم أحد أين يكون مرساها بعد هذا النصر العظيم.

واغتم بونابارته غماً شديداً مما حل بالعمارة الفرنسية. وكادت تفتر همته وتخمد عزيمته وأصبح وهو بين منتطح عزين فقد رجع الإنجليز بسفنهم إلى مياه الإسكندرية يغدون ويروحون يرصدون الفرنسيين ويمنعون عنهم المدد وأطلقوا قنابل مدافعهم على سد أبى قير ليجرى فيه الماء الملح على أراضى البحيرة جميعها لتغرق جيوش بونابارته التى كانت منتشرة يومئذ فى تلك الأطراف فلم تلحق بهم ضررا وقيل بل ألحقت ببعضهم وقيل غير ذلك وكاتب بونابارته أحمد باشا الجزائر عامل السلطان سليم يومئذ على الشام يستميله إلى الخروج وشق عصا طاعة مولاه وتسليم البلاد لبونابارته وجعل يمينه بالأمانى الطويلة وسير إليه الرسل بذلك من نصارى الشام ومسلميهم وهون عليه الأمر وسار مع هؤلاء الرسل أحد الفرنسيين بهيئة متكرة وزى التجار فلما قدم على عكا أمر الجزائر بذلك الفرنسي فقلوه إلى إحدى السفن العائدة إلى دمياط ولم يقابله وأمره بالرحيل حالا ولم يأخذ منه الكتاب وحجز من كانوا معه فعاد ليومه ولم تنجح سفارته وجعل الجزائر يكاتب من هذا الحين بعض التجار والمشايخ بمصر والقاهرة ويراسلهم سرا فكان بونابارته لذلك على حذر دائم من المشايخ والعلماء والأعيان كثير التطير منهم فكان يقلب عليهم أنواع التجارب ليعرف ما استكن فى صدورهم فكان تارة يلزمهم بلبس الجوارى وأخرى بتركه وطورا بلبس الفرجيات وأخرى بتغيير شكلها إلى شكل آخر وأرسل إلى أهل الديوان منهم يوما فحضرُوا فخاطبهم بواسطة ترجمانه ساعة ثم نهض من المجلس ورجع ويده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان وكل طيلسان ثلاث شقات أبيض وأحمر وكحلى فوضع منها واحدة بيده على كتف الشيخ الشرقاوى فرمى بها الشيخ إلى الأرض وتغير لونه ثم استعفى من لبسها فقال بونابارته لترجمانه قل لحضرات المشايخ أنهم صاروا أحبائنا وإننى لذلك أرغب فى تعظيمهم بزي رايتى وعلامتى فإن تزبوا بها احترمتهم الجند وعظمتهم العساكر فقال المشايخ ولكن يضيع قدرنا عند الله وإخواننا المسلمين فدمدم بونابارته واغتاظ لذلك وقال لا يصلح الشيخ الشرقاوى للرئاسة فلاطفوه وألنوا له الكلام فكان لا ينكف عن تجربتهم كل قليل بمثل هذه

الأمور وغيرها، وعلم بونابارته بترفع مراد بيك الكبير إلى الفيوم. بعد فراقه من وقعة
 انبابه فسير إليه فريقا من الجند فترفع وفارقه عثمان بيك الأشقر وعبر إلى الجانب
 الشرقى من النيل وسار من خلف الجبل ولحق بأستاذه إبراهيم بيك بغزة وكان السيد
 محمد كريم حاكم الإسكندرية قد أقره بونابارته فى منصبه كما تقدم فأرسل إلى مراد
 بيك مكاتبة يمينه فيها بتسليم الإسكندرية إليه إن هو حضر بعسكره ومماليكه وأتباعه
 فعلم بونابارته بتلك المكاتبة وأنت إليه بها الجوسيس فاستقدم السيد محمد كريم
 وسأله فأنكر فأبرر له تلك المكاتبة فتلجلج فحكم عليه بغرامة من المال عظيمة للغاية
 فإن لم يقم بدفعها قتل بغير معاودة فلم يدفع وشفع فيه المشايخ والعلماء فلم تقبل
 شفاعتهم وأمر به بونابارته فقتلوه واحتزوا رأسه وطاقفوا بها شوارع المدينة والمناذاة
 أمامها هذا جزاء الخائن وأخبر بونابارته الجواسيس أيضا بورود مكاتبات أخرى من
 إبراهيم بيك الكبير إلى بعض المشايخ خطابا لهم وللرعية فأرسل فى الحال يطلبها
 فخاف المشايخ خوفا عظيما وأرسلوها إليه فجمع أرباب الديوان وأمر ترجمانه فقرأ
 المكاتبات المذكورة فكانت تتضمن الحث لهم على الاتحاد واليقظة والمحافظة على
 الرعية وأن السلطان بعث إليه بجيش وأنه على عزم الحضور به إلى الديار فتبسم
 بونابارته وقال هى فرية لا أنزل الله بها من سلطان ثم سرح المشايخ فانصرفوا،
 واتفق إن جاء فى هذه الأثناء أغا من خصيان دار السلطنة وكان محجورا عليه
 بالإسكندرية فمر من المدينة يريد المشهد الحسينى فرآه الناس واستغربوا هيأته وقالوا
 هذا رسول الحى جاء من عند السلطان بمرسوم يأمر الفرنسيس فيه بالجللاء عن البلاد
 وكثرت أقوالهم فى هذا الشأن وتباينت أخبارهم واجتمعوا بالمشهد الحسينى وتبع
 بعضهم بعضا وتزاحموا فبلغ بونابارته ما تشيعه العامة وما تتناقله الناس من ورود
 مرسوم من السلطان خطابا للمشايخ وقد أخفوه عن بونابارته فركب من فوره وحضر
 إلى بيت الشيخ السادات بالمشهد الحسينى وكان الوقت بعد الظهر فدخل على حين
 غفلة ولم يكن تقدم له مجئ وهو فى كبكة وخيول كثيرة وعسكر فانزعج الشيخ
 ونزل إليه وهو لا يعرف السبب فى مجيئه فى مثل هذا الوقت على هذه الصورة فلما
 رآه بونابارته سأله عن ذلك المرسوم فقال لا أعلم لى بذلك ولم يكن بلغه الخبر
 فجلس بونابارته مقدار ساعة ثم ركب ومر بعسكره من باب المشهد والناس قد كثر
 ازدحامهم بالجامع والخطة وهم فى هرج فلما نظروه وشاهد هو جمعهم داخله أمر
 من ذلك فصاحوا جميعا بصوت واحد وقالوا الفاتحة فسأل عن سبب الصياح

والحامل عليه فقالوا إنهم يدعون لك بخير وأصبح وقد سير جيشا عظيما إلى حيث مراد بيك وآخر إلى الشرقية لمراقبة أحوال إبراهيم بيك الكبير واستطلاع أخباره وقد انحط عنده شأن أرباب الديوان فأهمل أمره أياما ثم شرع فى ترتيب ديوان آخر سماه محكمة القضايا ورتب له أصولا وقواعد ترجع أموره إليها وعين له اثنى عشر عضوا ورئيسا ستة من القبط وستة من تجار المسلمين وجعل رئيسه المعلم ملطى القبطى وفوض إليهم الفصل فى أمور التجارة والعامة والموارث والدعاوى وجعل لذلك الديوان قواعد وأركانا وكتبوا منها نسخا كثيرة أرسلوا منها إلى الأعيان وغيرهم وأمر فأنزل من كان بقلعة الجبل من الأهالى الساكنين فى دورها ودروبها وأصعدوا إليها عدة كبيرة من المدافع ووضعوها فى عدة مواقع وهدموا بها أبنية كثيرة ورموا بعض الأسوار بها وما تهدم منها وهدموا قصر يوسف صلاح الدين ومحو محاسن أولئك الملوك والسلاطين ورفعوا ما كان يباب العزب من الأسلحة والدرق والبلط والحراب الهندية وغير ذلك واستقدم مشايخ البلاد وأعيان البنادر والثغور إلى القاهرة فحضرُوا واجتمعوا بيت قائد أغا بالأزبكية وجميع من قدم أيضا من الثغور والبنادر معهم وكذلك أعيان التجار ونصارى القبط والشوام ومدبرو الديوان من الفرنسيين وغيرهم جمعا موفورا فلما استقر بهم الجلوس برز المعلم ملطى كبير محكمة القضايا وقرأ مرسوم شروط وقاعدة أعمال المحكمة المذكورة فلما تمت قراءته أبرز كبير المديرين قرطاسا كبيرا وناوله لترجمانه فنشره وقراه فكان محصله شرح حال الديار المصرية وما كانت عليه فى القدم من رفعة الشأن والغنى والثروة واتساع نطاق الزراعة والتجارة وتقدم الصنائع وبلوغ المعارف والعلوم إلى أقصى الدرجات وإنها كانت محط الآمال ومنبث عظماء الرجال ولذلك قد أحدثت بها الأبصار ومدت إليها الأعناق وتناولت إليها الأيدي فملكها أهل بابل واليونانيون والعرب والترك وغيرهم إلا أن الدولة التركية بالغت فى تخريبها إذ من طبعها أنها إذا حصلت الثمرة قطعت عروق الشجرة فذلك لم يبق الترك بأيدي الناس شيئا إلا النثر اليسير وصار الناس لأجل ذلك مستترين تحت حجاب الفقر وقاية لأرواحهم من الفتك ولأعراضهم من الهتك ثم إن طائفة الفرنسيين بعد أن تمهد أمرها وبعد صيتها وفتحت البلاد وقبضت على أزمة الممالك العظيمة تأقت نفسها لاستخلاص مصر مما هى فيه من المذلة والضعف وإراحة أهلها من عناء هذه المظالم وانتشالها من وهدة هذه الدولة المفعمة جهلا وغباوة فقدمت وأتاح الله لها النصر فبددت شمل

الممالك ومزقتهم تمزيقا ومع هذا الانتصار فإنها لم تعامل الرعية بالقسوة ولم تتعرض لشيء من أمورهم الذاتية بمكره وقد وضعت دولة الفرنسيين فى مقدمات أعمالها الخطيرة فى هذه الديار إصلاح الطرق وتأمين السبل وحفر الخلدان والترع وتقريب المواصلات بين البلاد وبعضها وتوسيع نطاق التجارة وتعمير ما تخرب من البلاد ومنع القوى من ظلم الضعيف وغير ذلك استجلابا لخواطر أهل البلاد وإبقاء للذكر الحسن فعلى أهل البلد ترك الشغب والإخلاد إلى السكون وإخلاص المودة والإفلاخ عن فعل ما لا تحمد عاقبته ولم يكن المراد من استقدام من استقدموا من أهل البلاد وعمدها فى هذا اليوم إلا إبلاغهم نوايا دولة الفرنسيين نحو بلادهم وأهلها وهى على يقين من أنهم يمدون لذلك يد المعونة ويبلغون سر عسكر الدولة الأفرنسية بونا بارتته بما تحتاجه بلادهم من الأعمال الخطيرة والمنافع الضرورية إلى أن قال وأنا نريد منكم الآن يا مشايخ أن تختاروا من بينكم واحدا يكون كبيركم وعليكم طاعته والإخلاد لإشارته، فقال بعض الحاضرين نختار الشيخ الشرقاوى فقبل لهم وإنما يكون ذلك بالقرعة فاقترعوا فظهرت القرعة للشيخ عبد الله الشرقاوى وما تم هذا الأمر حتى غربت الشمس فأذنوا لهم بالانصراف وأن يعودوا فى غد وذهبوا فى ثانى يوم وانتخبوا بقية من وقع الاختيار عليهم لديوان مصر من أهالى البلاد والمشايخ والقبط والشوام وتجار المسلمين ثم أخذ أعضاء هذا الديوان فى ترتيب أمور الحوادث والنظر فى المقررات على العقار والأموال ورتبوا لذلك ترتيبا بأن جعلوا على الأعلى منها ثمانية فرانسة فى كل سنة وعلى الأوسط ستة وعلى الأدنى ثلاثة وما كانت أجرته أقل من ريال فى الشهر فلا شيء عليه وأما الوكائل والخانات والحفامات والمعاصر والسيارج والحوانيت فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين بحسب الخسة والرواج والاتساع وكتبوا بذلك أوراقا وألصقوها بالطرق والمفارق وأرسلوا نسخا للأعيان وعينوا جماعة المهندسين ومعهم أشخاص لتقدير أجرة كل ملك وعقار وشرعوا فى الإحصاء وطافوا بعض الجهات لتجهيز القوائم وضبط أسماء أصحابها فلما شاع خبر هذا العمل بين الناس استعظموه وانتبذ جماعة منهم وتناجوا فى ذلك ووافقهم عليه بعض المتعممين فاجتمع عند ذلك الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم وأصبحوا يوم الأحد وهم فى جمع عظيم وأظهروا ما كانوا قد أخفوه من الآلات والأسلحة وخرج رجل اسمه السيد بدر ومعه حرافيش خطة الحسينية وزمر الحارات الخارجة عن القاهرة وهم فى صياح وضجيج

عظيمين وينادون بأعلى أصواتهم نصر الله دين الإسلام وساروا إلى بيت قاضى القضاة فخشى العاقبة وخاف هذا الأمر فأمر فأغلق خدامه الأبواب ووقفوا أمامها يمنعون هذه اللصوص من الدنو منها فرجموا بيت القاضى بالحجارة واجتمع كذلك بالجامع الأزهر عدد عديد من أولئك السوقة والغوغاء ووصل الخبر إلى الجنرال بون حاكم البلد فركب على الفور فى عدة من الفرسان ومر بشارع الغورية وعطف على خط الصناديق وذهب إلى بيت القاضى فوجد ذلك الزحام العظيم فهاله أمره وخرج من بين القصرين وباب الزهومة وكانت جميع هذه الخطط مزدحمة بأخلاق الأهالى فبادروا إليه وضربوه وأثخنوه جراحا وقتلوا بعض فرسانه ثم أخذ المسلمون حذرهم وخرجوا يهرعون وضبطوا عدة أماكن بالقاهرة مثل باب الفتوح وباب النصر والبرقية إلى باب زويلة وباب الشعرية وجهة البندقانيين وما حاذها وهدموا مصاطب الدكاكين وجعلوا أحجارها متاريس ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس واقتصر هذا الحادث على من بقلب القاهرة ولم يشاركهم فى هذا الخروج أحد من أهالى مصر القديمة ولا أهل بولاق ولا غيرهم من الأطراف فسار إليهم طائفة من الفرنسيين وظهروا من ناحية المناخية وأطلقوا بنادقهم على المتاريس الكائنة بناحية الشواين وقد كان بها طائفة من تجار ناحية الفحمين المغاربة فقاتلتهم المغاربة قتالا شديدا وأجلوهم عن المناخية وعند ذلك زاد الحال وكثر الزحف والزلازل وخرجت العامة الخروج التام وبالغوا فى الإفساد وتناولت أيديهم إلى النهب وهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى الروم والشوام وما جاورها من بيوت المسلمين وسلبوا النساء والبنات وكذلك نهبوا خان الملايات وباتوا تلك الليلة على ما هم عليه من النهب والخطف وأصبح الفرنسيين وقد رتبوا مدافعهم على تلال البرقية وقلعة الجبل ووقفوا ينتظرون إشارة بونابارته وكان بونابارته قد أرسل إلى المشايخ خطابا يسألهم فيه رد العامة بالتى هى أحسن حقنا لدمائهم واستيقاء لأرواحهم فلم تجبه المشايخ بشئ فأطال الانتظار فلم يردوا عليه وقد كثر رمى العامة بالبنادق وعبثهم بالمدينة وأفحشوا فى النهب والخطف وما زالوا على هذا الحال إلى ما بعد الظهر فلما أعياء الانتظار أمر أصحاب المدافع فجعلوا يطلقون مدافعهم تباعا على البيوت والحارات وعلى الخصوص الجامع الأزهر وما جاوره من المساكن فكانت القنابل تخرج من أفواهاها كالطرر وقد دمرت تلك النواحي وخربتها تخريبا فخرج الناس والمجاورون على وجوههم وهم يضحجون بأعلى أصواتهم، «ياخفى اللطاف نجنا عما

نخاف»، وخرجت النساء حاسرات وأولادهن في أحضانهن وهن مولولات وتتابع الرمي بالقنابل من قلعة الجبل وتلال البرقية حتى ترعزت أركان المدينة وكادت البلد تندك عن آخرها فلما اشتد الخطب وعظم الهول والكرب ركب المشايخ إلى بونابارته واستغاثوا فعاتبهم واتهمهم بالخدعة والتقصير فاعتذروا وتلطفوا في القول واستنهضوا مروأته فقبل عذرهم وأمر بالكف عن إطلاق المدافع فقاموا من عنده وهم ينادون بالأمان وتسامع الناس بذلك فاطمأنت قلوبهم وسكنت خواطرهم وكان قد أقبل الليل.

أما أهل الحسينية ومن معهم من أهالي الأطراف فإنهم لبثوا وراء المتاريس يتابعون الرمي حتى فرغ منهم البارود فانكفوا عن القتال وقد مات منهم العدد العديد بيران الفرنسيين التي كانت تتساقط عليهم من كل جانب ثم انكف عنهم الفرنسيين وتركوهم وبعد هزيع من الليل دخلت العساكر الأفرنسية إلى المدينة مشاة وفرسانا ومروا بالأزقة والشوارع فلم يعثروا على أحد فهدموا ما وجدوه من المتاريس ودخل طائفة منهم باب البرقية وساروا إلى الغورية ثم كروا ورجعوا وتراسلوا أرسالاً ركبناً ورجالاً ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم على ظهور الخيل وبينهم المشاة وعاثوا بالأروقة وكسروا ما وجدوه من القناديل والمصاييح وأصبحوا وقد اصطف منهم فريق بباب الجامع وتفرقت طوائف منهم بتلك النواحي واتخذوا السعى والتطواف بها منهجاً فخرج سكان تلك الحطة يهرعون وهم في أسوأ حال وكان الفرنسيين يسرون بالشوارع ويفتشون كل من يمر بهم فمن امتنع قتلوه ثم أخذوا يحملون القتلى من المسلمين والفرنسيين فكانوا كثيرين ومات في هذه الثورة الجنرال بون بجراحاته التي أصابته وهدموا ما بقى من المتاريس ورفعوا ترابها وأحجارها وقيدوا برتلمان بالعسس والبحث عن الأسلحة المخبأة فبث أعوانه في أطراف المدينة وأكثر من الإساءة وبالغ في تنكيل المسلمين فملا منهم الحبوس وكذلك فعل الأغا وأصبح يوم الأربعاء فركب المشايخ كافة وذهبوا إلى بونابارته وخاطبوه بالعفو ولاطفوه فوعدهم وعداً مشوباً بالتسويق وطالبهم بأن يدلوه على المتعممين الذين أضرموا نار هذه الفتنة فغالطوه وأكثروا من المواربة فقال إن لم تذكروهم لى الساعة فإنى لا أعفوا أبداً فالتمسوا منه إخراج العسكر من الجامع فأجابهم إلى ذلك وأمر فأخرجوا ولم يبق سوى سبعين جعلوهم رباطاً وبالغ بونابارته في البحث عن مثيرى هذه الفتنة من المتعممين فكانوا الشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان والشيخ أحمد الشرقاوى والشيخ

عبد الوهاب الشبراوى والشيخ يوسف المصلى والشيخ إسماعيل البراوى فأمر بونابارته فقبضوا عليهم وسجنوهم ببيت الشيخ البكرى ولم يعثروا على السيد بدر المقدسى الذى جمع لموم الحسينية حيث فر هارباً إلى الشام فخاف بقية المشايخ خوفاً ما عليه من مزيد وأكثروا من الذهاب إلى بونابارته والتخشع إليه وطلب فك سجن أولئك المشايخ فغولطوا وقد اتهم أيضاً إبراهيم أفندى كاتب البهار بأنه جمع جمعاً لإثارة هذه الفتنة من المماليك المختفين عنده وقد أعطاهم شيئاً كثيراً من الأسلحة والمساوق والعصى وغيرها فقبضوا عليه وسجنوه ببيت الأغا ثم قبضوا على آخرين وسجنوهم بقلعة الجبل واشتد البحث وتتبع المشاركين فى هذا الحادث فاشتد قلق المشايخ وركب الشيخ السادات وبقيّة المشايخ إلى بونابارته وتشفعوا وتخضعوا فلم يقبل واستمر القبض على الناس بأدنى شبهة وزد بعضهم ما كان نهيه من بيوت النصارى والشوام وغيرهم أيام الثورة فكان شيئاً كثيراً وتطايّر شرر هذه الفتنة إلى جوف البلاد أيضاً فقام بعض أهالى القرى والبلدان على كتاب الفرنسيس المرابطين بها فقتلوهم وأظهروا الخروج والعصيان فاهتم بونابارته لذلك واستخدم جماعة من المغاربة فى الجنديّة وسلم أمرهم لكبير اسمه عمر القلفنجى من مغاربة الفحاميين وسيرهم إلى تلك النواحي فقهروا الأهالى وظفروا بهم وساموهم الخسف وأسكتوا الفتنة وضربوا بلدة عسما وقتلوا شيخها ونهبوا داره وأحضروا جميع أولاده وإخوته فقتلوا جميعهم ولم يبق منهم سوى ولد صغير قد أقاموه شيخاً عوضاً عن أبيه وسار برتلان إلى ناحية الشرقية فى طلب من فر من أصحاب الفتنة فلم يدرك أحداً منهم فعاد إلى سرياقوس بعسكره ثم رجع إلى القاهرة وقد دخل بعده رسول على هجين قادماً من الديار الشامية ومعه مكاتبات على شكل فرمان من أحمد باشا الجزائر والى الشام وآخر من أبى بكر باشا الذى كان عامل مصر قبل دخول جيوش الفرنسيس وقد هرب إلى الديار الشامية خطاباً إلى مصطفى آغا كتخدائه وخطاباً آخر من إبراهيم بيك الكبير إلى المشايخ حاصل ما فيها بعد الاستهلال وذكر بعض الآيات القرآنية والأحاديث والآثار المتعلقة بالجهاد ولعن طائفة الفرنجة والحط عليهم وذكر عقائدهم وكذبهم وتحيلهم الحض على قتالهم والتخلص منهم وكذلك بقية المكاتبات فأخذها الكتخدا المذكور وذهب بها إلى بونابارته فلما علم ما فيها قال هى أحبولة من حبات إبراهيم بيك بقصد إيقاع الفتنة وإضرار نار الوحشة فاحذروا وانظروا فى عواقب الأمور.

وأخذ الفرنسيين من هذا الحين يشيدون الحصون ويرتبون المعقل ويعدون الأبراج العظيمة على التلال والآكام المحيطة بالبلد ووضعوا عليها المدافع وهدموا أماكن كثيرة بالجيزة وحصنوها تحصيناً عظيماً وكذلك مصر القديمة وشبرا وقد هدموا منها عدة جوامع منها الجوامع المجاورة لقنطرة انبابة ومسجد المقس المعروف الآن بأولاد عنان على الخليج الناصري بباب البحر وقطعوا نخيل جهة الحلى وبولاق وخربوا دوراً كثيرة وأخذوا ما فيها من الأخشاب ثم ذهبت منهم طائفة بعد أيام إلى منزل الشيخ البكرى فى نحو نصف الليل وطلبوا المشايخ المحبوسين فخرجوا وإذا هم فى وسط فريق من الجنود وقد قبضوا عليهم وذهبوا بهم إلى بيت حاكم المدينة يدرب الجماميز ثم عروهم من ثيابهم وصعدوا بهم إلى قلعة الجبل وسجنوهم فلما أصبحوا أخرجوهم وقتلوهم برمى البنادق والقوهم من السور خلف القلعة وخفى خبرهم عن أكثر الناس وركب فى ذلك اليوم بعض المشايخ إلى مصطفى بك كتخدا الباشا ليتشفعوا وإياه لأولئك المشايخ فذهبوا إلى بيت بونابارته وهم لا يعلمون بموتهم فقابلهم ترجمانه بعين غامضة ثم تركهم فأنصرفوا وأمر بونابارته فكتبوا عدة أوراق على لسان المشايخ وأرسلوها إلى البلاد وأرسلوا منها صوراً إلى المشايخ وهى نصيحة من كافة علماء الإسلام بمصر المحروسة وفيها : نعوذ بالله من الفتنة ما ظهر منها وما بطن وننبأ إلى الله من الساعين فى الأرض فساداً نعرف أهل مصر قاطبة أنه حصل بعض الخلل فى المحروسة من بعض الجعيدية وأشرار الناس فحركوا الشرور بين الرعية وبين العساكر الفرنسية بعد ما كانوا أصحاباً وأجباباً بالسوية وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين ونهبت بعض البيوت ولكن حصلت ألطاف الله الخفية وسكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونابارته وارتفعت هذه البلية لأنه رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة على المسلمين ومحبة للفقراء والمساكين ولولاه لكان العساكر أحرقوا جميع المدينة ونهبوا جميع الأموال وقتلوا كامل أهل مصر فعليكم أن لا تحركوا الفتنة ولا تطيعوا أمر المفسدين ولا تسمعوا كلام المنافقين ولا تتبعوا الأشرار ولا تكونوا من الخاسرين سفهاء العقول الذين لا يقرءون العواقب لأجل أن تحفظوا أوطانكم وتطمئنوا على عيالكم وأديانكم فإن الله سبحانه وتعالى يؤتى ملكه من يشاء ويحكم ما يريد ونخبركم أن كل من تسبب فى تحريك هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم وأراح الله منهم العباد والبلاد ونصيحتنا لكم أن لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة واشتغلوا بأسباب معاشكم وأمور دينكم وادفعوا الخراج الذى عليكم والدين النصيحة والسلام اهـ . بنصه .

ولما طار الخبر فى الآفاق بورود مكاتبات إبراهيم بيك والجزار وتكلم فى أمرها أهل البلاد وأكثروا اللغظ بها خاف المشايخ من رجوع الحال إلى ما كان عليه وقيام الفتنة فعمدوا إلى تحرير منشور وأرسلوا عدة صور منه إلى المدن والبلدان يقولون فيه، نصيحة من علماء الإسلام بمصر نخبركم يا أهل المدائن والأمصار من المؤمنين ويا سكان الأرياف من العربان والفلاحين أن إبراهيم بيك ومراد بيك وبقية دولة الماليك أرسلوا عدة من المكاتبات والمخاطبات إلى سائر الأقاليم المصرية لأجل تحريك الفتنة بين المخلوقات وادعوا أنها من حضرة مولانا السلطان ومن بعض وزرائه بالكذب والبهتان وسبب ذلك أنه حصل لهم الغم الشديد والكرب الزائد واغتazonوا غيظاً شديداً من العلماء والرعايا حيث لم يوافقوهم على الخروج معهم وأن يتركوا عيالهم وأوطانهم فأرادوا أن يوقعوا الفتنة والشر بين الرعية وذلك لشدة ما حصل لهم من الكرب الزائد بذهاب دولتهم وحرمانهم من مملكة مصر المحمية ولو كانوا فى هذه الأوراق صادقين بأنها من حضرة سلطان السلاطين لأرسلها جهازاً مع أغوات معينين ونخبركم أن الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوائف الإفرنجية دائماً يحبون المسلمين ويغضون المشركين وطبيعتهم وهم أصحاب لمولانا السلطان قائمون بنصرته وأصدقاء ملازمون لمودته وعشرته ومعونته يحبون من والاه ويغضون من عاداه ولذلك بين الفرنساويين والموسكوب غاية العداوة الشديدة ومن أجل هذا يعاونون حضرة السلطان على أخذ بلاد الموسكوب إن شاء الله ولا يقرون منهم بقية فتتصحكم يا أهل الأقاليم المصرية أن لا تحركوا الفتن ولا الشرور بين البرية ولا تعارضوا العساكر الفرنسية بشىء من أنواع الأذى فيحصل لكم الضرر والهلاك والبلى ولا تسمعوا كلام المفسدين ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون وإلا فتصبحوا على ما فعلتم نادمين وإنما عليكم دفع الخراج المطلوب منكم لكامل الملتزمين لتكونوا فى أوطانكم سالمين وعلى عيالكم وأمواكم آمنين مطمئنين لأن حضرة سارى عسكر الكبير أمير الجيوش بونابارته اتفق معنا على أنه لا يتارع أحداً فى دين الإسلام ولا يعارضنا فيما شرعه الله من الأحكام ويرفع عن الرعية سائر المظالم ويقتصر على أخذ الخراج ويزيل ما أحدثه الظلمة من المغارم فلا تعلقوا آمالكم بإبراهيم ومراد وارجعوا إلى مولاكم مالك الممالك وخالق العباد فقد قال نبيه ورسوله الأكرم «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها بين الأمم» عليه أفضل الصلاة والسلام ختام اهـ.

ولصقوا نسخاً من هذا المنشور بشوارع القاهرة وأرسلوا منها فى سائر البلاد،
وشدد بونابارته فى اليقظة والالتفات وأكثر من العيون والجواسيس وأقام الجنرال
استنك واليا على القاهرة بدل الجنرال بون واليها الذى قتل فى الفتنة كما تقدم القول
فاطمأن الناس بعد ذلك وسكنت الأحوال وعادت الأمور إلى سابق مجراها وأمر
بونابارته فجعلوا يمهّدون الطرق والعقبات ويسهلون المواصلات داخل المدينة وقد
كانت معرّقة بالتلال الكبيرة والوديان العميقة والأشجار الكثيرة فزدموا جميع
الجهات التى حوالى بركة الأزبكية وهدموا الأماكن المقابلة لبيت بونابارته حتى
جعلوها رحبة متسعة وهدموا الدور المقابلة لها من الجهة الأخرى ورددوا مكانها
بالأتربة الممهدة على خط معتدل من الجهتين مبتدئاً من بيت بونابارته إلى قنطرة
المغربى وفعلوا بعدها كذلك على الوضع والنسق بحيث صار جسراً عظيماً ممتداً ممهداً
مستوياً على خط مستقيم من الأزبكية إلى بولاق وينقسم بقرب بولاق إلى قسمين
قسم إلى طريق أبى العلاء وقسم يذهب إلى جهة التبانة وساحل النيل وبطريقه
الطريق المسلوكة الواصلة من طريق أبى العلاء وجامع الخطيرى إلى ناحية المدايق
وحفروا فى جانبى ذلك الجسر جميعه خنادق وغرسوا بجانبه الأشجار العظيمة
وأحدثوا طريقاً أخرى فيما بين باب الحديد وباب العدوى عند المكان المعروف بالشيخ
شعيب حيث معمل الفواخير ورددوا جسراً ممتداً ممهداً مستطيلاً يتدنى من الحد
المذكور وينتهى إلى جهة المذبح خارج الحسينية وأزالوا ما يتخلل ذلك من الأبنية
والغيطان والأشجار والتلال وقطعوا جانباً كبيراً من التل الكبير المجاور لقنطرة الجاحد
وردموا فى طريقهم قطعة من خليج بركة الرطلى وقطعوا أشجار بستان كاتب البهار
المقابل لجسر بركة الرطلى وأشجار الجسر أيضاً والأبنية التى بين باب الحديد والرحبة
التي بظاهر جامع المقس وساروا على المنخفض بحيث صارت طريقاً ممتداً من
الأزبكية إلى جهة قبة النصر المعروفة بقبة العزب جهة العادلية على خط مستقيم من
الجانبين وقيدوا بذلك ناساً منهم يتعهدون تلك الطرق وأنشؤا مطاحن هواء ومطاحن
ماء وجعلوا فى الروضة مستشفى يسع خمسمائة مريض ومثله فى الإسكندرية ورشيد
ودمياط وأنشأوا مدرسة بالقاهرة لأبناء الفرنسيين المولودين بمصر وجريدتين بالفرنسية
إحدهما تسمى كاد اجيسىان والثانية تسمى كوريه دى إجبوت ومعامل للأقفال
والأسلحة والمدافع وآلات الحرب وصناعة الورق والاقمشة وسائر ما يلزم للبلاد
وفعلوا جميع هذه الأعمال العظيمة فى مدة يسيرة جداً مع همة غريبة وجعلوا جامع

الظاهر ببيرس خارج باب الحسينية قلعة ومنارته برجاً ووضعوا على أسواره المدافع العظيمة وأسكنوا به عدة من العسكر وبنوا فى داخله عدة مساكن وكان هذا الجامع معطل الشعائر من مدة وقد باع نظاره منه انتقاضاً وعمداً كثيرة وعملوا عدة أبراج على تل العقارب بالناصرية ووضعوا فيها عدة آلات حرية وأفردوا لجماعة المديرين والفلكيين منهم وأصحاب العلوم الرياضية كالفلك والهندسة والهيئة والنقوشات والكتاب والحساب وغيرهم من أرباب القلم خارة الناصرية حيث الدرب الجديد وما به من البيوت وجعلوا بيت حسن كاشف جركس فى تلك الخطة مكتبة للمطالعة يحضرها من يريد المطالعة منهم فى أوقات معينة من النهار وكان إذا دخلها أحد المصريين فرحوا به وأحسنوا لقاءه وإذا أراد التفرج أطلعوه على ما أراد أو أراد المطالعة أعطوه ما أراد من الكتب ولا سيما الكتب التى تبهج البسطاء بما فيها من الرسوم البديعة وفى جملتها رسم صاحب الشريعة المحمدية ورسوم أخرى للخلفاء الراشدين وغيرهم وكانوا يطلقون فى كل يوم عند الزوال مدفعاً.

ولم ينكف بونابارته عن البحث عمن كان له يد فى الفتنة من عمد البلاد وأعيانها فقبض على شيخ العرب سليمان الشواربى شيخ قليب حيث عشروا على خطاب منه إلى أهالى سرياقوس يحضهم على القيام والتأهب للفتك بالفرنسيس عند خروجهم من القاهرة مقهورين فسجنوه بقلعة الجبل وسار بونابارته على أثر ذلك ومعه طائفة من الجند والسيد أحمد المحروقي وإبراهيم أفندى كاتب البهار وبعض المديرين والمهندسين والمعلم جرجس الجوهري والمعلم أنطون أبو طقية وغيرهم قاصداً مدينة السويس لأمر لم يعلم سره فلما شاع بين أهل السويس خبر مقدمه هربوا كافة وتركوا البيوت قائمة على عروشها فنهبها العسكر وأخذوا ما وجدوه فيها من متاع وفرش فأبلغ بونابارته بعض من كانوا معه ما فعله العسكر فرد جميع ما أخذوه ووعد برد ما فقد أو دفع ثمنه وكان مدة لبثه بالسويس يركب فى كل يوم ويطوف فى حارات وشوارع المدينة وجهات الساحل ليلاً ونهاراً قيل وكان معه من الأدم فى هذه السفرة ثلاث دجاجات مقلية ملفوفة فى ورقة وقليل من الخبز، قال صاحب عجائب الآثار وليس معه طباخ ولا فراش ولا خيمة وكل شخص من عسكره معه رغيف كبير مزشوق فى طرف حريته يتزود منه ويشرب من سقاء لطيف من صفيح معلق فى عنقه اهـ.

ثم سار من السويس إلى الشرقية ودخل مدينة بليس وقبض على عدة كثيرة من

عربان الشرقية وأولادهم من ذكور وإناث وبعث بهم إلى القاهرة مع جماعة من العسكر وقام من بلييس قاصداً القاهرة فمر بأبى زعل فضرب أهلها وضرب كذلك أهل المنير وأمر فأخذت جميع مواشيها ودخل القاهرة ليلاً فلما كان الصباح أنزلوا شيخ العرب سليمان الشواربى ومعه ثلاث عربان آخرون إلى الرملة ومعهم الأغا فقتلهم ذبحاً ثم سلموا جثة الشواربى ورأسه لقومه فحملوه فى نعش وساروا به إلى قلوب وفاض الخبر بذلك فى مصر والقاهرة فخاف الناس وانكف أصحاب الفتنة وشدد بونابارته فى تتبع خطوات مراد بيك الكبير وتسير الجند خلفه أينما سار فكان مراد بيك كلما لحقت به عساكر بونابارته ترفع إلى الصعيد حتى وصل بمن معه إلى عقبة الهواء وقد داخلهم من لقاء الفرنسيس هية ورهبة فلم يقابلهم وبونابارته يشدد فى أمر قتالهم وقطع شأفتهم وقبض على كثير من التجار الترك والقلبيونجية المقيمين بالقاهرة ومصر بدلالة الأغا وسجنهم بقلعة الجبل وأخذوا ما كان لهم بوكالة ذى الفقار بالجمالية من متاع وغيره وجعلوا يفتشون على من بقى منهم بالقاهرة ومصر ويولاق وخصوصاً من كان منهم فى خدمة مراد بيك الكبير وجمعوا جميع الكريديين الذين كانوا فى الخدمة العسكرية عند إبراهيم بيك ومراد بيك وأدخلوهم فى صفوف العساكر الفرنسية وزيوهم بزيهم وسير منهم طائفة خلف مراد بيك فلما تزايدت الشدة بمراد بيك ومن معه وضائق عليهم الدنيا برحبها تخلى عنه على باشا ونصوح باشا وسارا مع بعض اتباع إبراهيم بيك الكبير من خلف الجبل إلى الشام فأمر بونابارته بتحسين تلك الأطراف فسار قوم من الفرنسيس وبنوا فى قطية بعض الأبراج والحصون ومهدوا فيها بعض العقبات وأكثروا من الأسلحة والذخيرة ومعدات القتال وأمر بونابارته بعد ذلك فقتلوا جميع من كان مسجوناً من المماليك والأجناد التركية بقلعة الجبل وكانوا كثيرين وأخذوا فى إعداد دواب النقل من جمال وبغال وحمير والتأهب لغزو الشام وقتال أحمد باشا الجزائر واليهاء.

ولما شاع بين أهل الحجاز خبر تملك الفرنسيس على ديار مصر وتصرفهم فى أمور المسلمين هالهم هذا الأمر واستعظموه جداً وقام فيهم مغربى اسمه الكيلانى من مجاورى مكة والمدينة وجعل يحض الناس على الجهاد واستخلاص البلاد من أيدى الفرنسيس فانزعج الناس وضجوا بالحرب وعجوا إلى الله وجردوا الكعبة من أستارها وجعل الكيلانى يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد وقرأ بالحرم كتاباً مؤلفاً فى معنى ذلك فاستنهض بعض الناس ويذلوا أموالهم وأنفسهم وكانوا زهاء الستمائة وركبوا

البحر إلى القصير مع من انضم إليهم من أهل ينبع ونزلوا بالصعيد فانضم إليهم العدد العديد من أهله وبعض الترك والمغاربة الذين كانوا مع مراد بيك والكشاف والغز الذين هربوا بعد مقتلة انبابه وزحفوا على جرجا وكان بها الجنرال ديزه بجيوشه يطارد مراد بيك ومن معه فلاقت جيوشه تلك الجموع واقتل الفريقان فلم تثبت الترك والغز كعادتهم وانهزموا فتبعهم هواره الصعيد واللموم المجتمعة من القرى وثبت الحجازيون برهة ثم اشتدت عليهم نيران الفرنسيين فتقهقروا ثم ولو الأدبار وترفع من هرب من الترك والمماليك إلى إسنا ومعهم حسن بيك الجداوى وعثمان بيك تابعه وجاء الخبر بذلك إلى بونابارته وبما وقع فتأخر عن الخروج بعسكره إلى غزو الشام وتربص حتى يرى ما سيكون من أمر الحجازيين وما زال الحجازيون يعادون الكرة على الجنرال ديزه وعساكره والحرب بينهم سجال حتى تمكن منهم ويدد جموعهم وأعمل فيهم القتل والتشريد ومزقهم فى شهر رجب سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وانقطع خبرهم ولم يظهر بعد ذلك منهم أحد، ووردت البشائر بما أصابهم إلى بونابارته فجعل يتأهب للخروج بجيشه وخرج فى مستهل رمضان من السنة قاصداً الشام وسارت طوائفه طائفة بعد أخرى فى أحمال ومهمات وكراع زائدة للغاية وعقد بونابارته قبل خروجه ديواناً جمع فيه العلماء والمشايخ والأعيان من النصارى والمسلمين وحدثهم بأمر خروجه بعسكره إلى الشام ليقطع شأفة إبراهيم بيك الكبير ومن معه كما فعلت عساكره بمراد بيك ومن معه وأنه سيمهد الطرق ويجعلها فى أمن ويفتح باب التجارة بين مصر والشام ترويحاً لأرزاق مصر وتوسيعاً لنطاق ثروتها قال بونابارته ولا أغيب عنكم سوى شهر ثم أعود فأبذل الجهد فى تحسين أحوال البلاد وترتيب جميع أمورها على النحو المرغوب بعون الله ولا أطلبكم إلا بالخلود إلى السكينة وملازمة الهدوء ومراقبة أحوال العامة وحضهم على ملازمة السكون وعدم الاختلاط بالجنود المقيمين بمصر والقاهرة وهذه وصيتى إليكم فاحفظوها فتعهدوا له بذلك .

وقد سلم زمام القاهرة إلى الجنرال دوغا والصعيد إلى الجنرال ديزه والإسكندرية إلى الجنرال مرمون وخرج إلى العادلية يوم الأحد خامس رمضان من السنة ومعهم طوائف الجند وقاضى القضاة ومصطفى بيك كتخدا الباشا وبعض المشايخ والمديرين والمترجمين وغيرهم من أصحاب الوظائف العالية وترك عدة من العساكر بالقلاع والأبراج التى أنشأها فلما وصل إلى قلعة العريش قاتله من بها من العساكر وعدتهم

نحو الألف بين مغاربة وارنؤد فحاصر القلعة وضيق على من بها فأرسلوا يطلبون المدد من غزة فجاء إليهم قاسم بيك أمير البحرين ومعه طائفة كبيرة فلم يتمكن من الوصول إلى القلعة حيث هاجمه عساكر الفرنسيين وحالوا بينهم وبينها ثم كبسوا عليهم ليلاً فقتل قاسم بيك وقتل معه خلق كثير وفر من بقى وهم النزر اليسير واشتد بونابارته فى حصار القلعة وضيق عليها من كل جانب فاستأمن من بقى فيها فأمّنهم وأنزلهم من القلعة وأدخل منهم بجيوشه من رام الدخول والانتظام فى سلكهم وصرف من لم يقبل إلى مصر تخفّرهم طائفة من الفرنسيين ثم ارتحل إلى العريش واحتلها وكتب كتاباً إلى أهل الشام ونصه :

فرمان عام موجه من أمير الجيوش إلى أهل الشام قاطبة بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ، من طرف بونابارته أمير الجيوش الفرنسية إلى حضرة المفتين والعلماء وكافة أهالى نواحي غزة والرملة ويافا حفظهم الله تعالى ، بعد السلام نعرفكم أننا حررنا لكم هذه السطور نعلمكم أننا حضرنا فى هذا الطرف لقصد طرد المماليك وعسكر الجزائر عنكم وإلى أى سبب حضور عسكر الجزائر وتعديه على بلاد يافا وغزة التى ما كانت من حكمه وإلى أى سبب أيضاً أرسل عساكره إلى قلعة العريش وبذلك هجم على أراضى مصر فلا شك كان مراده إجراء الحروب معنا ونحن حضرنا لنحاربه فأما أنتم يا أهالى الأطراف المشار إليها فلم نقصد لكم أذى ولا أدنى ضرر فأنتم استمروا فى محلكم ووطنكم مطمئنين ومرتاحين وأخبروا من كان خارجاً عن محله ووطنه أن يرجع ويقيم فى محله ووطنه ومن قبلنا عليكم ثم عليكم الأمان الكافى والحماية التامة ولا أحد يتعرض لكم فى مالكم ولا ما تملكه يدكم وقصدنا أن القضاة يلازمون خدمهم ووظائفهم على ما كانوا عليه وعلى الخصوص أن دين الإسلام لم يزل معزراً ومعتبراً والجوامع عامرة بالصلاة وزيادة المؤمنين ، إن كل خير يأتى من الله تعالى وهو يعطى النصر لمن يشاء ولا يخفاكم أن جميع ما تأمر به الناس ضدنا فبغدر باطل ولا نفع لهم به ولأن كل ما نضع فيه يدنا لا بد من تمامه بالخير الذى يتظاهر لنا بالحب يفلح والذى يتظاهر بالغدر يهلك ومن كل ما حصل تفهمون جيداً أننا نقمع أعداءنا ونعصّد من يحبنا وعلى الخصوص لكوننا متصفين بالرحمة والشفقة على الفقراء والمساكين .

وسار بجيوشه إلى غزة فوصل فى ليلة التاسع عشر من رمضان إلى خان يونس فباتوا ليلتهم وعند الفجر ساروا إلى غزة فشاهدوا قبل الظهر بقليل عساكر المماليك والجزار معسكرين أمامها فهاجموهم فلم تدافع عساكر المماليك إلا بالأمر الهين ثم

ولوا جميعاً الفرار فتبعهم الفرنسيين وقتلوا مؤخرتهم قتالاً يسيراً وبينما كانت العساكر الأفرنسية تطارد جند الماليك انعطفت الجنزال كليبر بجيوشه إلى غزة فملكها واحتلها وأخذ ما فيها من الذخائر والشعير والبقسماط وزهاء الأربعمئة قنطار بارود وأثنى عشر مدفعاً وعدداً عظيماً جداً من الخيام وغير ذلك من معدات الحرب ويعث إلى القاهرة ببعض الرايات التي غنموها من قلعة العريش وغزة صحبة طائفة من الجند فدخلوا القاهرة في كيكبة عظيمة وبأيدى بعضهم تلك الرايات ومروا من وسط المدينة إلى الجامع الأزهر فاصطفوا رجالاً وركبناً بباب الجامع وضربوا طبولهم وأبواقهم ثم طلبوا شيخ الجامع فسلموه تلك الرايات وأمره برفعها على منارات الجامع فنصبوا رايتين منها على المنارة الكبيرة وواحدة على منارة أخرى فلما رفعت تلك الرايات أطلقوا لها عدة مدافع من قلعة الجبل وكان ذلك ليلة عيد الفطر فلما كان عند الغروب أطلقوا عدة مدافع أيضاً إعلاماً بالعيد وطاف بعد العشاء أصحاب الشرطة ينادون بالأمان وخروج الناس على عادتهم لزيارة القبور بالقرافتين والاجتماع لصلاة العيد وأن يفعلوا جميع عوائدهم في ذلك اليوم.

وسارت جيوش بونابارته من غزة في الثالث والعشرين من رمضان فوصلوا إلى الرملة في الخامس والعشرين منه فانجلت عنها عساكر الجزار وولوا هارين فدخلها فريق من الفرنسيين وملكوا ما فيها من الذخائر وآلات الحرب ثم قصدوا يافا فوصلت طلائع الجيش إليها في الثامن والعشرين من رمضان ثم حاصروها شرقاً وغرباً فتم حصارها وشددوا عليها وسير بونابارته جيشاً آخر إلى عكا ليناوشها القتال حتى يأتي إليها بجميع عساكره وخذق حول يافا وعمل المتاريس ووضعوا عليها المدافع العظيمة فخرج عساكر الجزار للقتال وهجموا على متاريس الفرنسيين هجمة شديدة للغاية فلاقاهم عسكر الفرنسيين وصدموهم صدمة قوية فكروا راجعين إلى المدينة وامتنعوا في قلعتها فعند ذلك أرسل بونابارته خطاباً إلى والي يافا يعلمه بأن الغرض من حضوره إلى يافا إنما هو قهر عسكر الجزار وإخراجهم وأنه إن جنح إلى التسليم بالرضا كان ذلك فيه مصلحة للبلد وأهلها وحقق للدماء وإن أبى إلا الحرب فلا يمضى إلا قليل من الساعات حتى ينسف أسوار المدينة نسفاً ويعمل السيف في رقاب أهلها حتى لا يبقى بها أحد فلما علم الوالي بما في الخطاب قبض على رسول بونابارته ووضعوه في السجن ولم يجب بونابارته بشيء فلما غاب الرسول وانقطع الأمل من رجوعه أمر بونابارته فأطلقوا المدافع وتابعوا الرمي على المدينة بالقتابل

وحمل الوطيس وارتفع الدخان إلى عنان السماء واشتد الرمي فلم يمض قليل من الزمن حتى تعطلت مدافع حصون يافا وتراسل الرمي من متاريس الفرنسيين ومازالوا حتى. تهدم بعض السور وحمل الفرنسيين حملة رجل واحد على السور فملكوا الأبراج ودخلوا المدينة عنوة وأعملوا السيف في أهلها واشتد الأمر ونهب العسكر المدينة وأخذوا جميع ما صادفوه فكان يوم ليلة يشيب من هولهما الرضيع ثم أمر بونابارته بالكف عن القتل والنهب فكان الموتى لا يكادون يدخلون تحت حصر، وكان بمدينة يافا عدد كبير من أهالي مصر ودمشق الشام وحلب وغيرها فرسم بونابارته برجوع كل فريق منهم إلى وطنه سواء كان من المحاربين أو غير المحاربين وجمع الغنائم فكانت شيئاً كثيراً من الأموال والمتاع والسلاح والكرام وغير ذلك فأرسل بعضها إلى مصر مع بعض رايات عسكر الجزائر وعددها ثلاث عشرة راية فرفعت على منارات الجامع الأزهر وأنزلوا ما كان عليها من رايات قلعة العريش وأطلقوا لذلك عدة مدافع من قلعة الجبل ثم سار بونابارته بعساكره إلى حيفا ففتحها وغنم ما فيها فكان شيئاً كثيراً جداً وانتقل إلى عكا فحاصرها فتمنعت عليه فشدد في حصارها وضيق وهي لا تزداد إلا منعة قد طال حصارها.

وبينما كان بونابارته يقاتل أهل الشام ويفتح مدنها ويلدنها كان عساكره بمصر يقاتلون أيضاً الهاربين من الأمراء المصريين ويددون شملهم بالصعيد والشرقية ودمنهو ويتبعون خطوات الألفى أينما سار فلما ضاق بالآلفى رحب الصعيد نزل في قلة من أصحابه من خلف الجبل ولحق بالشرقية وراسل قبائل العربان ومن بقى من المماليك فانضم إليه منهم جماعة كثيرة وتأهبوا لقتال الفرنسيين فسارت لقتالهم طائفة من العسكر وسارت أخرى أيضاً إلى دمنهور لقتال أهلها حيث خرجوا على العمال وجباة الأموال وشقوا عصا الطاعة وتبعوا رجلاً مغريباً نزل على دمنهور وادعى المهدوية وصار يدعو الناس ويحرضهم على القتال والجهاد فاجتمع إليه كثير من أهل البحيرة وغيرهم وجاءوا إلى دمنهور وقاتلوا من بها من الفرنسيين وطردها العمال واستمروا على ذلك أياماً كثيرة وجعل ذلك المغربي يكتب البلاد ويحضر أهلها على القتال فلما وصلت إليها العساكر الفرنسية قاتلتها وأعملت فيها السيف وأفحشت في القتل والنهب وأراقت فيها من الدماء شيئاً كثيراً جداً ونهبت ما وجدته فكان شيئاً لا يكاد يدخل تحت حصر وقتل في هذه الواقعة ذلك المغربي وكثير من أخصائه وكبار دعوته.

وجاء الخبر بذلك إلى بونابارته وهو على حصار عكا ففرح وبالف في الحصار وأجهد النفس وتابع الرمي بالقنابل عليها فلم ينل منها مثاله وامتنعت عليه فصمم على تركها والعود إلى مصر وكتب إلى قائده بمصر يقول: اعلم أيها الصديق أنه ما حملنى على ترك حصار عكا والعودة إليكم إلا خمسة عشر سبباً الأول قيام عسكرنا أمام أسوارها ستة أيام بدون حرب حتى وصل إليها بعض ضباط الإنجليز فحصنوها تحصيناً هندسياً قد زاد فى منعتها الثانى أخذ الإنجليز لمراكبنا الكبيرة الستة بما فيها من المدافع عند يافا الثالث كثرة الموات فى عسكرنا بالطاعون واشتداده الرابع عدم حصول عسكرنا على الأقوات الكافية بأسباب خراب البلاد المجاورة لعكا الخامس اضطراب ضباطنا من حوادث الصعيد وعصيان مراد بيك الكبير وموت طائفة كبيرة من الجنود الفرنساوية فى تلك الأصقاع السادس خروج الحجازيين مع الكيلانى إلى الصعيد السابع خروج المغربى المدعو محمد ومن خرج معه من أهالى البلاد الثامن ضبط مراكب الإنجليز لبوغاز الإسكندرية ودمياط التاسع وقوف عمارة الروس أمام رودس العاشر ورود الخبر بنقض الصلح بين أمتنا والأمة النمساوية بتحريض الإنجليز الحادى عشر موت تيبو أحد ملوك الهند أعداء الإنجليز وقد كان بينى وبينه عهد قبل نزولى بعكا الثانى عشر موت كفرللى الذى قد عملت المتاريس برأيه وإشارته وعجزى عن تعيين آخر مكانه لا يلبث أن يغير هيئة تلك المتاريس فيحوجنا إلى عطله لأبد منها، وكفرللى هذا هو المعروف بأبى خشبة وهو من فحول أركان حرب بونابارته، الثالث عشر نزول مصطفى باشا من القسطنطينية بمراكب الإنكليز وسيره إلى مياه الإسكندرية الرابع عشر وقوف مراكب الإنكليز أمام عكا الخامس عشر ما رأيناه من وجوب إطالة الحصار إلى أربعة أشهر على الأقل مع ما وراء ذلك من الارتباك والأخطار التى ذكرناها فهذه يا صديقى هى الأسباب الحاملة لى على ترك الحصار والعود إليكم أهـ.

وكان الإنجليز قد هيجوا على بونابارته الخواطر وحزبوا عليه سائر أهالى الشام من المسلمين والنصارى وأرسل سفيرهم المقيم فى دار السلطنة منشورات إلى لبنان يحض فيها مشايخ وأمرآء تلك الأصقاع على الخروج على بونابارته وجيوشه ومد يد المساعدة للدولة العثمانية وأرسل إلى كبار النصارى منهم صورة منشور كان أصدره بونابارته يقول فيه أنه هدم أركان الديانة النصرانية وقوض بنيانها فكان لنشر هذا المنشور بينهم أثر مؤلم جداً فتحزبوا عليه ومنعوا من إعطائه الدقيق والخمر والمؤنة

للعسكر ولا سيما البارود وكانت السفن الإنجليزية تمخر في البحار طولاً وعرضاً وتضرب كل ما تصادفه من مراكب الفرنسيين وتدمرها تدميراً ورست. أمام أسوار عكا بحراً وجعلت تتابع رمى القنابل على معسكر بونابارته ليلاً ونهاراً حتى عرقلت مساعيه وأضعفت أمانيه وبلغت منه الروح التراقي فارتحل عن عكا في الحادي والعشرين من ذي الحجة سنة أربع عشرة ومائتين وألف يريد مصر بجميع جيوشه وأركب الجرحى والمرضى منهم على دواب الحمل وخيول الفرسان وسار الجيش يطوى تلك الصحارى طياً لعله يدرك القاهرة فقاموا الشدائد والأهوال وأعمل فيهم الظما وتفشى فيهم الوباء وكانت مراكب الإنجليز تتعقبهم في البحر وترمي عليهم القنابل كلما اقتربوا في طريقهم من ساحل البحر والعربان تتبعهم من خلف تشن الغارة على مؤخرتهم كل قليل وكذلك كانت الجيوش العثمانية تزحف خلفهم مرحلة بعد مرحلة فكانوا لذلك يخربون كل بلد أو مدينة يمرون بها كي لا تتمكن خصومهم من الاستيلاء عليها فلما جاءوا العريش أمر بونابارته ببالغوا في تحصينها ومنعتها ولبثوا بها أياماً ولا ماء عندهم وكان القيظ شديداً جداً فكانوا يأتون بالماء من بعض المستنقعات الآجنة فيشربونه وهو مشحون بالديدان والعلق فكان العلق يلصق بأفواههم ويمتص دماءهم ثم رحلوا عن العريش فوصلت مقدماتهم ضواحي القاهرة في يوم الثلاثاء سابع المحرم سنة أربع عشرة ومائتين وألف هجرية وأخبروا بوصول بونابارته إلى الصالحية فلما كانت ليلة الجمعة عاشره أرسلوا إلى المشايخ والأعيان للخروج لملاقاته فاجتمعوا بالأزبكية عند الفجر بالمشاعل ودقت الطبول فركبوا وركب جميع أرباب الوظائف العالية والمديرون ونائب بونابارته مع كبار العسكر وساروا إلى العادلية فقابلوا بونابارته وسار معهم في خواصه ودخلوا إلى القاهرة من باب النصر في موكب حافل للغاية وأمامهم الطبول وخلفهم المركبات والأحمال وساروا على هذا الحال إلى أن دخل بونابارته داره بالأزبكية وأطلقوا عدة مدافع.

فلم تكذ تستقر ببونابارته وجيوشه الراحة من غزوة الشام وقيظ تلك الصحارى حتى جاء الخبر بانحدار مراد بيك وأصحابه فراراً من الفرنسيين ونزوله بددهشور أياماً ثم ارتحاله منها إلى نجع الطرانة ثم إلى البحيرة من خلف الجبل فأغضبه هذا الخبر وعبر النيل من فوره في عسكره ونزل على نجع الطرانة وددهشور وضربهما وأهلك منهما خلقاً كثيراً جداً فعلم بعد ذلك أن مراد بيك عاد ثانياً إلى الأقاليم القبلية وأن عثمان بيك الشرقاوى وسليمان أغا الوالى وآخرين مروا من خلف الجبل إلى ناحية

الشرق فسير بونابارته لقتالهم برتلمان الرومى فى عسكر عظيم من أخلاط الروم والمماليك والقبط والفرنجة فأدركوهم على مقربة من مدينة بليس وأتوهم من خلف الطريق المسلوك فأخذوهم غيلة وكان فى هذا الحين عثمان بيك يغتسل فلما أحسوا به بادروا جميعاً إلى الفرار وركبوا وركب عثمان بيك بقميص واحد وطاقيـة على رأسه وهربوا وتركوا ثيابهم ومتاعهم وذخرتهم وجميع ما كان معهم حتى قدور الطعام على النار ووجدوا على فراش عثمان بيك مكاتيب من إبراهيم بيك الكبير يستدعيهم إلى الحضور إليه بالشام.

وشاع الخبر عقب ذلك بأيام بحضور مراكب كثيرة أمام مدينة الإسكندرية وأبى قير وأن بها كثيراً من الجنود العثمانية فكثـر لغط الناس وتحدثهم بهذا الأمر وتحقق الخبر بخروج طوائف الفرنسيـس وعبورهم النيل إلى الجزيرة واهتمامهم بإعداد مهمات الحرب وآلات القتال ثم خروج بونابارته أيضاً ومعه المعلم إبراهيم الجوهري واهتم حنا بنتو متولى ساحل بولاق بجمع المراكب وشحنها بالمعدات والذخيرة وغيرها وأقام بونابارته فى مخيمه بجانب الأهرام حتى تكامل الجيش وسير المقدمة وركب هو فى ثانى يوم وهو الثلاثاء ثانى عشرى صفر سنة أربع عشرة ومائتين قاصداً الإسكندرية فلم يكـد يصل بجميع جيوشه إلى البحيرة حتى جاءته الأخبار بتزول فريق عظيم من العساكر العثمانية على أرض أبى قير فجـد فى السير يريد الوصول على عجل.

قال صاحب عجائب الآثار وكتب بونابارته إلى أرباب الديوان بمصر خطاباً يقول فيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى محفل الديوان بمصر المنتخب من أحسن الناس وأكملهم بالعقل والتدبير عليكم سلام الله تعالى ورحمته وبركاته بعد مزيد السلام عليكم وكثرة الأشواق الزائدة إليكم نخبركم يا أهل الديوان المكرمين العظام بهذا المكتوب أننا وضعنا جماعات من عسكرنا بجبل الطرانة وبعد ذلك سرنا إلى إقليم البحيرة لأجل ما نرد راحة الرعايا المساكين ونقتص من أعدائنا المحاربين وقد وصلنا بالسلامة إلى الرحمانية وعفونا عفواً عمومياً عن كامل أهل البحيرة حتى صار أهل الأقليم فى راحة تامة ونعمة عامة وفى هذا التاريخ نخبركم أنه وصل ثمانون مركباً صغاراً وكباراً حتى ظهروا بشـر الإسكندرية وقصدوا أن يدخلوها فلم يمكنهم الدخول من كثرة السنب والكلل النازلة عليهم فرحلوا عنها وتوجهوا يرسون بناحية أبى قير وابتدءوا ينزلون فى البر وأنا الآن تاركهم وقصدى أن

يتكامل الجميع في البر وأنزل عليهم أقتل من لا يطيع وأخلى بالحياة الطائعين وآتيكم بهم محبوسين تحت السيف لأجل أن يكون في ذلك شأن عظيم في مدينة مصر والسبب في مجئ هذه العمارة إلى هذا القطر العثم بالاجتماع على الممالك والعربان لأجل نهب البلاد وخراب القطر المصري وفي هذه العمارة خلق كثير من الموسكو الإفرنج الذين كراهم ظاهرة لكل من كان يوحد الله وعداوتهم واضحة لمن كان يعبد الله ويؤمن برسول الله يكرهون الإسلام ولا يحترمون القرآن وهم نظراً لكرهم في معتقدكم يجعلون الآلهة ثلاثة وأن الله ثالث تلك الثلاثة تعالى الله عن الشركاء ولكن عن قريب يظهر لهم أن الثلاثة لا تعطى القوة وإن كثرة الآلهة لا تنفع بل أنه باطل لأن الله تعالى هو الواحد الذي يعطى النصر لمن يوحد هو الرحمن الرحيم المساعد المعين المقوى للعادلين الموحدين الماحق رأى المفسدين المشركين وقد سبق في علمه القديم وقضائه العظيم أنه أعطاني هذا الإقليم وقدر وحكم بحضورى عندكم لأجل تغييرى الأمور الفاسدة وأنواع الظلم وتبديل ذلك بالعدل والراحة مع صلاح الحكم وبرهان قدرته العظيمة ووحدايته المستقيمة أنه لم يقدر للذين يعتقدون أن الآلهة ثلاثة قوة مثل قوتنا فلم يقدروا أن يعملوا الذى عملناه ونحن المعتقدون وحادانية الإله ونعرف أنه العزيز القادر القوى القاهر المدبر للكائنات والمحيط علماً بالأرضين والسموات القائم بأمر المخلوقات هذا ما فى الآيات والكتب المتزلات ونخبركم بأن المسلمين إن كانوا بصحبتهم يكونوا من المغضوب عليهم لمخالفتهم وصية النبى عليه أفضل الصلاة والسلام بسبب اتفاقهم مع الكافرين الفجرة اللثام لأن أعداء الإسلام لا ينصرون الإسلام ويا ويل من كانت نصرته بأعداء الله وحاشا الله أن يكون المستنصر بالكفار مؤيداً أو يكون مسلماً ساقتههم المقادير للهلاك والتدبير مع الثقالة والردالة وكيف لمسلم أن ينزل فى مركب تحت بيرق الصليب ويسمع فى حق الواحد الأحد والفرد الصمد من الكفار كل يوم تخريفاً واحتقاراً لا شك أن هذا المسلم فى هذا الحال أقبح من الكافر الأصلى فى الضلال نريد منكم يا أهل الديوان أن تخبروا بهذا الخبر جميع الدواوين والأمصار لأجل أن يتمتع أهل الفساد من الفتنة بين الرعية فى سائر الأقاليم والبلاد لأن البلد الذى يحصل فيه الشر يحصل لهم مزيد الضرر والقصاص انصحوهم يحفظوا أنفسهم من الهلاك خوفاً عليهم أن نفعل فيهم مثل ما فعلنا بأهل دمنهور وغيرها من بلاد الشرور بسبب سلوكهم المسالك القبيحة فقاصصناهم ، والسلام تحريراً فى الرحمانية يوم الأحد خامس عشر صفر سنة أربع عشرة ومائتين وألف هجرية انتهى بنصه .

قلت: وفي هذا الخطاب إن كان صحيحاً من النقد على بونابارته والتعيب ورميه بالغش والخديعة ما يزرى ويحط بعظمته ويذهب بشهرته.

وسار بونابارته بجيوشه حتى نزل على أبى قير واقتتل مع الجيوش العثمانية التى كانت بالقلاع قتالاً عنيفاً ومازال حتى قهرها واسترد منها ما أخذته من القلاع والحصون وأخذ مصطفى باشا أمير الجيوش العثمانية أسيراً وكذلك عثمان خجا الذى كان عاملاً على رشيد على عهد إبراهيم بيك الكبير وقتل من العساكر العثمانية خلقاً كثيراً وغنم الفرنسيين من آلات الحرب والذخيرة والمؤن وغير ذلك ما لا يكاد يدخل تحت الحصر ثم قفل بونابارته راجعاً بجيوشه ورايات النصر تخفق على رؤسهم فدخل القاهرة ليلة الأحد التاسع من ربيع الأول من السنة ومعه عدة كثيرة من أسرى المسلمين وشاع الخبر بحضوره فى تلك الليلة فلم تصدق الناس ذلك وذهب جماعة ليتحققوا الخبر على جلسته فشاهدوا الأسرى وقوفاً فى وسط بركة الأزبكية ويقوا كذلك إلى ظهر اليوم ثم أرسلوا بعضهم إلى جامع الظاهر بيرس خارج الحسينية وأصعدوا باقيهم إلى قلعة الجبل وبعثوا بمصطفى باشا إلى الجيزة وسيروا عثمان خجا إلى إسكندرية فكان لهذا الحادث أثر مؤلم فى خواطر المصريين فقد كانوا يتمنون الخلاص على يدى أولئك المقاتلين فخابت منهم الآمال، ولما استقر بونابارته المقام أمر بعثمان خجا فنقل من الإسكندرية إلى رشيد وأدخلوه إليها فى طائفة من العسكر مكشوف الرأس حافى الأقدام وطافوا به حول البلد وهو على هذا الحال ثم ساروا به إلى بيته الذى كان يسكنه قبل فراره إلى القسطنطينية وأوقفوه أمام بابه واحتزوا رأسه وعلقوها على إحدى نوافذ الدور الأعلى ليراها الناس كافة.

وعاتب بونابارته أرباب الديوان بمصر على عدم ولائهم وإخلاصهم للفرنسيين وخص بشديد العتاب الشيخ المهدي والشيخ الصاوي فلاطفاه وسألاه حتى أزالا عنه ما كانا يخشيانه ولبث بونابارته يدبر الأمور على ما يشاء إلى أن كان يوم الاثنين سادس عشر ربيع الأول من السنة ركب من القاهرة وخرج خروج المسافر فى قلة من خواصه وسار إلى الإسكندرية فلما نزل بها استقدم الجنرال منو وولاه قيادة الإسكندرية وولى الجنرال كلاير نيابة الغيبة بمصر وكتب له بذلك مرسوماً ثم أعلم الأميرال جانتوم بعزمه فأعد له دارعتين عند العجمي فلما رتب أموره على ما أراد ركب ليلاً فى قلة من خواصه ونزل بإحدى الدارعتين وبات ليلته تلك وأقنع صباحاً وقد تركوا خيولهم على البر ولم يعلم أحد بخبر قيامه إلى عاصمة الفرنسيين حتى جاء كتابه إلى الجنرال دوجيه بمصر فتلاه على أرباب المجلس فكان مضمونه قيام

يونابارته من الإسكندرية إلى باريز ليمهد لعمارته البحرية المسالك والعقبات التي أحدثتها سفن الإنجليز في سبيلها وأنه لا يتغيب عن مصر أكثر من ثلاثة أشهر وأنه أقام على مصر الجنرال كلاير نائب الغيبة فلما قرئ هذا الخطاب أخذ العجب من أرباب المجلس مأخذه وكادوا لا يصدقونه للضرورة مراكب الإنجليز مياه الإسكندرية صيفاً وشتاء ومنعها جميع المواصلات بالإسكندرية فكررروا على الأمير دوجيه السؤال فأكد لهم سفر يونابارته في يوم الجمعة حادى عشر ربيع الأول من السنة وحضر الأمير كلاير من معسكره بدمياط إلى القاهرة ونزل في مكان يونابارته بيت الألفى بالأزبكية فذهب المشايخ والأعيان وأرباب الديوان لزيارته فلم يروا منه صدراً رجلاً ولا وجهاً باشاً كما كانوا يرون من يونابارته وركب في ثانى يوم في موكب حافل للغاية وصعد إلى قلعة الجبل وأمامه طائفة كبيرة من القواصة بالعصى يأمرؤن الناس بالقيام إجلالاً له وخلفه عدة كثيرة من الفرسان والمشاة وطوائف الأجناد والوالى والأغا وغيرهما ولبث بالقلعة ساعة ثم رجع إلى مقعده وكان رجلاً حازماً واسع التأمل كبير الفكر عظيم الخبرة بفنون السياسة والحرب فلما استقر به المنصب كتب إلى أرباب الحل والعقد بباريز عاصمة الفرنسيين يقول ما ترجمته :

قد رحل يونابارته عن مصر إلى باريز ولم يعلم بخبره أحد ولم أكن لأعلم بذلك إلا بعد أن أتانى خطابه وقد علمت أنه أرسل بكتاب أيضاً إلى صدر الدولة العثمانية بعد علمه بوصول الصدر المشار إليه إلى دمشق الشام ولا يخفاكم أنه لم يكن لنا عدو سوى المماليك فقط أما الآن فقد أصبح أعداؤنا غير المماليك وهم في كل من دولة الإنجليز والدولة العثمانية ودولة الروس وقد صارت جنودنا في نصف العدد الذى احتلت به ديار مصر وهم مع ذلك متفرقون في جوف البلاد من العريش والإسكندرية إلى جزيرة أسوان وليس لديهم من معدات الحرب ما يكفيهم لتعطيل معامل الأسلحة والبارود وكذلك ليس عندهم من الثياب ما يقيهم من أمراض البلاد ولا مال عندنا بقدر الكفاية إذ خسرت الخزينة زهاء اثنى عشر ألف ألف من الفرنكات هذا وإن كنا قد ضربنا المماليك فمزقنا جمعهم ولكن ما برح مراد بيك الكبير يقاتلنا في الأقاليم القبلية وفي عدة وافة من الرجال وأخلاق الناس ولا سبيل إلى التغلب عليه إلا بعد أيام كثيرة وقد جاء صدر الدولة العثمانية من القسطنطينية إلى دمشق الشام من أجل الزحف علينا وقتالنا فلا نعلم ما سيكون من وراء ذلك أما حصوننا وقلاعنا فلا تزيد في قوتنا شيئاً ومنها حصن العريش فإنه لا يدفع مهاجماً

وما الإسكندرية إلا شبه معسكر تحيطه زريبة فلذلك أرى أن أنجح الوسائل وأفلحها أن تفتح المخابرة مع الدولة العثمانية عسى نستفد على ما يكون فيه المصلحة فقد علمت اليوم أن عمارة عثمانية عظيمة رست أمام حصون دمياط اهـ.

وجاء الخبر بانحدار مراد بيك الكبير إلى الفيوم وعبثه بالبلاد وتكليف أهاليها بالمغارم والكلف فأرسل لقتاله عسكرياً فساروا والتقوا معه ووقعت بينهم وقائع عدة ثم ترددت بين مراد بيك وبين الأمير كلاير الرسل والمراسلات وتكلموا في أمر الصلح فاتفقوا على شروط منها تقليد مراد بيك إمارة الصعيد من قبل دولة الفرنسيين ف وقعت بينهما هدنة على ذلك وكادت تتم لمрад بيك الإمارة وتفرغ الأمير كلاير إلى غير ذلك فحصن الصالحية والقرين وبليس وأكثر فيها من الأسلحة والذخيرة ورتب الأربطة وهيا الحصون وحصن الأبراج وبالع في تربيتها فكانت الأخبار تزداد وروداً بتجمع العساكر السلطانية في الديار الشامية وقرب حلولها بمصر لإخراج الفرنسيين منها وإجلائهم عنها وكان لما سافر بونابارته إلى باريز وترك الأمر في مصر إلى الأمير كلاير طمعت الدولة العثمانية في استخلاص البلد من أيدي الفرنسيين وزادها رغبة في ذلك السير سدى سمث أمير السفن الإنجليزية فرسم السلطان إلى يوسف باشا الصدر الأعظم يومئذ بالذهاب إلى الشام ليجمع منها الجند والعسكر ويسير بهم إلى برا إلى مصر وسير جيشاً آخر على ظهر العمارة الإنجليزية ومعه كثير من ضباط الإنجليز وكبار الحرب فسارت العمارة بمن فيها حتى أتت دمياط ونزل من كان بها من العسكر في قلعة متخربة شرقي البوغاز فخرج الفرنسيين لقتالهم فحاصروهم وضربوهم حتى أجلوهم عنها وقد مات منهم خلق كثير ولم ينالوا من الفرنسيين أما يوسف باشا فإنه لما نزل بالشام ومن معه من كبار السلطنة قيل أنهم عسفوا في البلاد وضربوا على أهلها الضرائب الفادحة وجبوا الأموال كرهاً وعاثوا في الأرض مفسدين فكانت شدة عظمة على أهل الشام ومازالوا على هذا الحال حتى رحلوا عنها وجاءوا إلى غزة في منتصف رجب من السنة ثم العريش وحاصروا من بها من الفرنسيين وقتلوهم حتى ملكوا قلعتها في التاسع عشر من رجب المذكور وغنموا جميع ما كان بها من الذخيرة وآلات الحرب ودخل قائد الجيوش السلطانية وجماعة كبيرة من عسكره وبعض الأمراء المصريين إلى القلعة بعد انسحاب الفرنسيين منها ورفعوا عليها أعلامهم وضربوا طبولهم وأبواقهم فرحاً بأخذها من أيدي الفرنسيين وكان الفرنسيين قد تركوا فيها جندياً عند مخازن البارود

مختفياً فلما صاروا جميعاً داخل القلعة ألهب البارود وكان شيئاً كثيراً للغاية فزلزلت الأرض في الحال زلزالها وتطايرت أبنية القلعة بمن فيها كافة فمزقتهم عن آخرهم وتطايرت أشلائهم إلى عنان السماء ومات كثير من العساكر الذين كانوا خارجاً عنها بما سقط عليهم من النيران والأحجار المتطايرة ولم يبق إلا نفر قليل فكان حادثاً مريعاً جداً ومنظراً تقشعر منه الأبدان وقد تغطى وجه الأرض بالإسلاء والعظام والمشامش المفتتة وجاءت الأخبار إلى الأمير كلاير فخرج بعسكره من القاهرة وسار مسرعاً إلى الصالحية وضم إليه من بقى من عسكر قلعة العريش وكان قبل دخول العساكر السلطانية إلى قلعة العريش قد ترددت الرسل بين الفرنسيين والعثمانيين على يد أمير الدوايح الإنجليزية بشأن تقرير الصلح على قاعدة صالحة للفريقين وجاءت مكاتبة من يوسف باشا إلى مقدم الفرنسيين باستدعاء رجلين ليتشاور معهما على أمر يكون فيه المصلحة للفريقين فوجهوا إليه رئيس الكتاب بوسليك والأمير ديزه أمير جيوش الصعيد فسارا بحراً وغابا أياماً افتتح في خلالها العثمانيون قلعة غزة والعريش وجاءوا إلى الصالحية في الثاني والعشرين من شعبان من السنة ومعهم رئيس كتاب الدولة والدفتردار ثم حضروا جميعاً إلى القاهرة لتقرير الصلح وقد جنح الفريقان إليه حقناً للدماء وأظهر الفرنسيين من المسابرة ما أوثقن معه جانبهم وزال عن رجال الدولة الخوف من مكرهم فحصل الاتفاق على مصالحة تضمنت اثنتين وعشرين شرطاً وهي معربة

قد صار الاتفاق بين كل من الجنرال ديزه والجنرال بوسيلك مدير الحدود العام النائين عن الجنرال كلاير قائد عموم جيوش الفرنسيين بمصر من جهة وما بين سامي المقام مصطفى رشيد أفندي الدفتردار ومصطفى راسيه أفندي رئيس الكتاب المفوضين بكمال التفويض من قبل حضرة الوزير يوسف باشا من جهة أخرى على ما هو آت :

حقناً للدماء واستبقاء للنوع الإنساني من غوائل الحروب وتوالى الخطوب قد رغب ديوان الجمهورية الفرنسية في عقد هذا العهد بإخلاء الديار المصرية من جميع الجيوش الفرنسية رجاء أن تذهب الوحشة الموجودة الآن ما بين المشيخة الفرنسية والدولة العثمانية وتتوطد به أيضاً دعائم السلام في أنحاء المغرب ولذلك قد صار التوقيع ممن ذكروا على الشروط الآتية عهداً وميثاقاً كافلين بإخلاء الديار المذكورة من جميع جيوش المشيخة المشار إليها :

الشرط الأول : تنسحب العساكر والأجناد الفرنسية بجميع أسلحتها ومهماتهما وآلات حربها وذخيرتها إلى ثغور الإسكندرية ورشيد وأبى قير ليسيروا منها على ظهور السفن التى ترد من جانب المشيخة وإن لم توجد فمن طرف الدولة العثمانية بقدر الكفاية وقد تعين لذلك مدة شهر واحد وبعد مضى هذه الوعدة التى تبتدئ من تاريخ التوقيع على هذه الشروط يحتل بقلعة الإسكندرية نائب من قبل الباب العالى ومعه خمسون شخصاً.

الثانى : تحصل المهادنة مدة ثلاثة أشهر لا يحصل فيها حرب بكامل الديار المصرية اعتباراً من تاريخ التوقيع على هذا العقد وإذا انقضت هذه المدة قبل أن ترد السفن من طرف الدولة العثمانية اللازمة لنقل جميع العساكر جاز تعديدها لأجل تتمكن معه الدولة المشار إليها من إعداد السفن اللازمة لذلك ووجب محافظة كل من الفريقين على ما بيده من المواقع والحصون والقلاع منعاً لما عساه أن يحدث من الفتن بأسباب دخول العساكر العثمانية أو من خروج الأهالى عن الطاعة.

الثالث : انسحاب الجيوش الفرنسية وتسييرها يكون بأوامر وتعليمات كل من يعينه لذلك الباب العالى والأمير كلاير أمير الجيوش المشار إليها وإذا وقع خلاف بين الوكيلين المذكورين يكون فض هذا الخلاف والحكم فيه موكولاً لعهد السير مدنى سمث أمير الدواور الإنجليزية ويجب أن يتبع فى فضه الأصول المقررة فى القوانين البحرية المرعية بالدولة الإنجليزية.

الرابع : إخلاء كل من قطية والصاحية من جميع الجيوش الفرنسية يكون فى بحر ثمانية أيام بالأقل وعشرة أيام بالأكثر من تاريخ التوقيع على هذا العهد أما المنصورة فمن بعد خمسة عشرة يوماً وأما دمياط وبلبيس فمن بعد عشرين يوماً والسويس تخلى كذلك قبل إخلاء مصر والقاهرة ستة أيام ولا تخلى البلدان والمحال الواقعة فى الجهة الشرفية من النيل إلا فى اليوم العاشر من إخلاء مصر والقاهرة وكذلك مصر السفلى لا تخلى بأجمعها إلا بعد خمسة عشرة يوماً من التاريخ المذكور أما الجهة الغربية وما يتبعها فإنها تبقى بيد الفرنسيين إلى أن يتم جلاء جميع العساكر من الصعيد ومصر والقاهرة ويجب أن تسلم كل جهة من جميع الجهات التى كانت مقاماً للجيوش الفرنسية بالحالة التى هى عليها.

الخامس : يصير إخلاء مصر والقاهرة بعد مضى أربعين يوماً على الأقل وخمسة وأربعين على الأكثر اعتباراً من تاريخ التوقيع على هذا العهد إن أمكن ذلك.

السادس : يتعهد الباب العالى أن لا يحصل للعساكر والأجناد الفرنساوية لدى انسحابهم من الجهات الغربية أدنى إهانة. ولا أن يمسوا بأقل ضرر بحيث يخرجون بكامل أسلحتهم وأمتعتهم وذخيرتهم بدون أن يلحق بأحد منهم إهانة لا من أفراد الأهالى ولا من أفراد العساكر العثمانية.

السابع : قياماً بهذا الشرط ومنعاً لما ربما أن يحدث يجب جتماً تبعيد مواقع العساكر الإسلامية عن مواقع العساكر الفرنساوية بقدر الاستطاعة.

الثامن : اعتباراً من تاريخ التوقيع على هذا العهد يطلق سراح جميع المسجونين من تبعة الدولة العثمانية على اختلاف أجناسهم فى جميع أنحاء القطر ما عدا من هم ببلاد الفرنسيس وكذلك يخلّى سبيل جميع التبعة الفرنساوية المسجونين بكامل المدن والأساكن والبنادر العثمانية ويعفى عن جميع من دخل فى خدمة مراسلات وقناصل المشيخة الفرنساوية.

التاسع : إعادة أملاك وأموال كل من رعايا الباب العالى ورعايا المشيخة الفرنساوية يناط برجال تتخبهم حكومة الدولتين لذلك بالأستانة بحيث يحصل الشروع فى إجراء ذلك عقب إخلاء مصر والقاهرة من العساكر الفرنساوية.

العاشر : يعفى عمن كان له علاقة أيا كانت مع الجنود الفرنساوية من أهالى مصر على اختلاف مذاهبهم.

الحادى عشر : يعطى جتماً للجنود الفرنساوية تذاكر المرور اللازمة إما من قبل الدولة العثمانية أو من قبل الدولتين المتحدتين معها وهما دولة الروس والدولة الإنجليزية وكذلك لجميع السفن التى تحمل أولئك الجنود إلى أوطانهم ببلاد الفرنسيس.

الثانى عشر : يتعهد الباب العالى والدولتان المتحدتان معه بأن لا يحصل للجنود الفرنساوية ما يكدر صفو راحتهم وكذلك يتعهد الجزائر كلاير أمير الجيوش الفرنساوية بأن لا يحصل من قبل عساكره ما لا يرضاه الباب العالى لا للسفن الحاملة لهم ولا للأساكن والثغور الخاصة بالباب العالى أو بالدولتين المتعاهدتين معه كما أنه لايجوز للسفن المذكورة أن تعطف إلى أى أسكلة غير الأساكن الفرنساوية إلا عند الضرورة.

الثالث عشر : تنفيذاً لهذا العهد وملاحظة لإخلاء الأقطار المصرية من جميع العساكر والأجناد الفرنساوية فى بحر المدة التى وقع الاتفاق عليها قد اتفق الباب

العالي والدولتان المتحدتان معه على أنه إذا قدم إلى مصر في خلال المدة المقررة للجلاء عنها سفن فرنساوية على غير علم من سفن الدولتين المتعاهدين مع الباب العالي وجب قيامها على الفور بعد تزويدها بالماء وال زاد ولزم رجوعها إلى الموانئ الفرنساوية بلا مهل بناء على تذاكر المرور التي تعطى إليها من جانب الدولتين المتعاهدين مع الباب العالي وإذا تبين أن إحدى تلك السفن تحتاج إلى ترميم أو تصليح في بعض آلتها وجب مكثها حتى يتم تصليحها ثم تقوم إلى الموانئ الفرنساوية بمجرد موافقة الرياح لسيرها.

الرابع عشر: يتعهد الجنرال كلاير أمير الجيوش الفرنساوية أن يبلغ ما وقع الاتفاق عليه إلى أرباب الحل والعقد بفرانسا بحيث تعطى لمن يتعين لتوصيل هذه الأجناد تذكرة المرور المطلقة سهيلا لوصول الخبز في أمد قريب.

الخامس عشر: حيث يلزم للجنود الفرنساوية الحصول على المؤن يوميا بمدة الثلاثة أشهر المعينة لجلائها عن البلاد وكذلك بمدة الثلاثة أشهر التي تبتدئ من يوم نزولهم بالمراكب إلى يوم وصولهم فقد تعهد الباب العالي بأن يقدم لهم جميع ما يلزم من قمح ولحم وأرز وشعير وتبن بمقتضى القوائم التي تتقدم من أمراء العساكر المكلفين بذلك وما يكون قد أخذ من ذلك بعد التوقيع على عهد الجلاء يستبعد من مجموع تلك القوائم.

السادس عشر: لا يجوز لأمراء الجيوش الفرنساوية بعد التوقيع على عهدة الجلاء أن يضربوا على البلاد ضرائب أو يفرضوا عليها فروصاً أيما كانت أو يحدثوا إحداثات بل يكون للباب العالي دون غيره الحق في جميع الضرائب والفرض المقررة اعتباراً من تاريخ التوقيع على العهد وكل ما تركته الجنود الفرنساوية بعد الجلاء من جمال أو هجن أو مدافع أو ذخيرة أو غير ذلك وكذلك الغلال التي تبقى بالأشوان من أصل الأموال المفروضة لغاية تاريخ التوقيع على عهد الجلاء فهذه كلها يصير تقديرها بمعرفة معينين من قبل الباب العالي على يد أمين البحر الإنجليزى ومن يعينه الجنرال كلاير من قبله ويتعين ثمنها بحيث لا ينقص عن ثلاثة آلاف كيس وهو ما رؤى كفايته لنفقة الجند إلى أن تصل إلى أوطانها وفي حالة عدم بلوغ أثمان تلك الأشياء إلى هذا القدر يجب على الباب العالي دفع العجز من طرفه بصفة قرضة وعلى حكومة الفرنسيين وفاء هذه القرضة اعتماداً على سندات الاستلام التي تكون قد أعطيت من الأمير كلاير أمير الجيوش إلى الباب العالي.

السابع عشر: يدفع مبلغ الثلاثة آلاف كيس المذكور على الوجه الآتى بعد وهو خمسمائة كيس تدفع بعد مضى خمسة عشر يوما اعتبارا من تاريخ التوقيع على عقد الاتفاق بذلك وخمسمائة كيس أخرى تدفع بعد انقضاء ثلاثين يوما وبتمام الأربعين يوما ثلثمائة كيس أخرى وخمسمائة كيس عند تمام تسعين يوما وعند تمام ستين يوما ثلثمائة كيس ويدفع أيضا عند تمام سبعين يوما ثلثمائة كيس وعند تمام ثمانين يوما ثلثمائة كيس أخرى وخمسمائة كيس عند تمام تسعين يوما ويكون اعتبار مبلغ كل كيس من هذه الأكياس خمسمائة قرش عثمانى وعلى الباب العالى بعد التوقيع على نسختى هذا العقد أن يوجه من قبله إلى مصر المحروسة وكافة المدن والبنادر التى تحتلها الآن الجيوش الفرنسية مأمورين مخصصين لأجل تسهيل أسباب الجلاء فى أمد مناسب بحيث إذا روى عدم كفاية مبلغ الثلاثة آلاف كيس لنقل الجند على الوجه المرغوب وجب على الباب العالى القيام بصرف ما يرى لزوم صرفه أيضا.

الثامن عشر: جميع الأموال والضرائب التى تكون رجال الفرنسيين قد تحصلت عليها من البلاد قبل العلم بالتوقيع على عهد الجلاء تقدر وتخصم من مبلغ الثلاثة آلاف كيس المتقدمة الذكر.

التاسع عشر: تسهلا لأسباب الجلاء فى الأجل المضروب لا بأس من نقل الجند بالسفن الفرنسية الراسية الآن بأساكن النيل من وإلى الإسكندرية ورشيد ودمياط .

العشرون: حفظا لسلامة الممالك الغربية ومنعا لنقل الوباء بالطاعون إليها بواسطة المرضى من الجنود الفرنسية لا ينقل أحد ممن يكون مصابا منهم بهذا المرض أو بغيره من الأمراض الأخرى التى لا يصح معها السفر بالبحار بل يبقون جميعا فى بيوت المرضى المعدة لهم تحت أمان الوزير الأعظم ومعالجة أطباء الفرنسيين فإذا شفوا من أمراضهم عوملوا فى الحل والترحال بما عوملت به بقية الجنود من قبل كما جاء فى أحكام الشرطين الحادى عشر والثانى عشر من هذا الاتفاق وعلى أمير الجيوش الفرنسية أنه عند ركوبهم المراكب للعود إلى أوطانهم أن يشدد على ضباطهم غاية التشديد بأن لا يسمحوا لهم بالتزول فى أى أسكنة من الأساكن التى هى فى طريقهم إلا ما تجيز لهم الأطباء التزول فيها لقضاء مدة الحجر الصحى .

الحادى والعشرون: كل خلاف يحدث بعد عقد هذا الاتفاق ولم ينص عنه شئ بهذا الاتفاق يصير فضه بالطرق الحسنة بين المأمورين الذين يعينهم الوزير

الأعظم والجنرال كلايير أمير الجيوش لهذا الغرض على وجه السرعة قياما بالجلاء فى الأجل المضروب.

الثانى والعشرون: لا يعتبر هذا العهد نافذ المفعول إلا بعد مضى ثمانية أيام من تاريخ التوقيع عليه من الفريقين بحيث بعد التوقيع عليه يجب مراعاته والعمل به .
ورجع كلايير أمير الجيوش الفرنساوية بعد ذلك من الصالحية إلى العادلية ومعه رجل من رجال الدولة العثمانية اسمه محمد أغا فبعث بمحمد أغا المذكور إلى القاهرة وأرسل إلى المحتسب يأمره بأن يتلقاه ويكرم مثواه فلما كان بعد العشاء دخل محمد أغا إلى القاهرة فى موكب فحصل الناس ضجة عظيمة وتزاحموا لمشاهدته وارتفعت أصواتهم وعلا ضجيجهم وركبوا على مصاطب الدكاكين والسقائف .

قال صاحب عجائب الآثار وانطلقت النساء بالزغاريت من الطاقات واختلفت آراء الناس فى ذلك ولم يعلموا ما هو فدخل من باب النصر وشق القاهرة ولم يزل سائرا حتى وصل إلى بيت حسن أغا بسوقة اللال فأنزل هناك فلما استقر به الجلوس ازدحم الناس والأعيان للسلام عليه ولمشاهدته بالمشاعل والفوانيس قال فلما كان صبح تلك الليلة عمل ديوانا وجمع العلماء والوجاقلية وأعيان الناس وكبار النصارى من الأقباط والشوام فلما تكاملوا أبرز لهم فرمانا من الوزير فقرئ عليهم بالمجلس فدل مضمونه على أنه أغات الجمارك أى المكوس بمصر وبولاق ومصر القديمة وفيه التحكير على جميع الواردات من أصناف الأقوات فيشتريها بالثمن الذى يقدره هو بمعرفة المحتسب ويودعه فى المخازن قال وأبرز فرمانا آخر قرئ بالمجلس مضمونه أن الوزير أقام مصطفى باشا الذى كان أسيرا بأبى قير وكيلا عنه وقائمه بمصر إلى حين حضوره وأن السيد أحمد المحرقى كبير التجار ملزوم ومقيد بتحصيل الثلاثة آلاف كيس المعينة لترحيل الفرنساوية وانتفض المجلس على ذلك وأخذ السيد أحمد المحرقى فى تحصيل ذلك القدر من الناس وفرضوه على التجار وأهل الأسواق والحرف وشرعوا فى تحكير الأقوات فغلت أسعارها وضافت مؤن الناس قال ودهى الناس من أول أحكامهم بهاتين الدهيتين وكان أول قادم فيهم أمير المكوسات ومحكر الأقوات وأول مطلوبهم مصادرة الناس وأخذ المال منهم وتغريمهم قال واجتهد السيد أحمد المحرقى فى توزيع ذلك وجمعه فى أيام قليلة فكان كل من توجه عليه مقدار من ذلك اجتهد فى تحصيله وإخراجه عن طيب نفس وانشرح ويادر بالدفع من غير تأخير لعلمه أن ذلك لترحيل الفرنساوية ويقول سنة مباركة

ويوم سعيد بنهاب الكلاب الكفرة قال كل ذلك بمشاهدة الفرنسيين ومسمعهم وهم يحقدون ذلك عليهم أهد.

وجاء مصطفى أغا من الجيزة وسكن بيت عبد الرحمن كتحدا بحارة عابدين وأرسل الوزير فرمانات إلى البلاد وعين المعينين والمباشرين لطلب الأموال والغلال والكلف من الأقاليم وأرسل إلى البنادر وجعل في كل بندر أميرا ووكيلا لجمع الغلال والمطلوبات من الذخيرة ووضعها بالخواصل، وجعل العامة وبسطاء العقول من أهالي القاهرة ومصر ينظرون إلى الفرنسيين كافة بعين السخط والسخرية وتناولوا عليهم بالسب والتحقير وصار فقهاء المكاتب وعلى الخصوص العميان منهم يجمعون الأطفال ويطوفون بهم فرقا وهم يجهرون للنصارى بالسباب وفحش القول وهذر الكلام ولم يملكوا أنفسهم صبرا حتى يتم الجلاء وينقضى الأجل المضروب فنقم الفرنسيين عليهم ذلك وأبغضوهم جدا وصاروا ينظرون إلى جميع أهل البلاد بعين القلى ثم أخذوا في أهبة الرحيل وشرعوا في بيع أمتعتهم وما فضل من سلاحهم ودوابهم وسلموا أكثر الثغور والقلاع كالصالحية وبلبيس ودمياط والسويس وتدرج العساكر العثمانية في الدخول إلى القاهرة وصار في كل يوم يدخل منهم جماعة بعد جماعة وجعلوا يشاركون الناس في حرفهم وصنائعهم كالحمامية والقهوجية والخياطين والحلاقين وغيرهم فشق الأمر على أصحاب تلك الحرف والصنائع فاجتمعوا وذهبوا إلى مصطفى باشا النائب عن الصدر الأعظم وشكوا من فعال العساكر العثمانية فلم يلتفت لشكواهم ثم قدم الوزير يوسف باشا إلى مدينة بلبيس ونزل بها ومعه الأمراء المصريون وأرسلوا إلى مراد بيك الكبير بالحضور إلى المعسكر العثماني فاعتذر حيث كان يومئذ بالصعيد فلم يقبلوا عذره وشددوا عليه في الحضور قتل فسأل في ذلك كبير الفرنسيين سرا فأذن له وكان سفيره في ذلك عثمان بيك البرديسي فحضر مع إبراهيم بيك الكبير واجتمع بالوزير يوسف باشا فخلع عليهما وعاد مراد بيك فخيرم بجهة العادلية وحضر حسن أغا نزل أمين أحد رجال الدولة ودخل القاهرة فأخلى الفرنسيين عند حضوره قلعة الجبل وبقية القلاع والحصون التي أخذوها ونزلوا منها فلم يحتلها أحد من العساكر العثمانية وأعرضوا عن المحاذرة استخفافا بالأمر ودخل الكثير من الأمراء والعساكر المصرية الذين كانوا فروا عند دخول الفرنسيين وأرسل إبراهيم بيك إلى السيد أحمد المحروقي يطلب بعض الثياب لماليكه فأخرجت لهم الخيام والترائب وهيأت نساء الأمراء والجند

احتياجاتهم ولازم الخدم والفراشون الغدو والرواح إلى مضارب ساداتهم وهم راكبون البغال والحمير القاهرة وفي حجورهم تعابى الثياب والبقع المزركشة بالذهب والفضة وكذلك الخدم الذين يحملون الخوانات والأسمطة وهم يتغنون برفع أصواتهم ويتجاوبون بكلام وسخریات ولعن للنصارى من أهل البلاد والفرنسيس بمرأى منهم ومسمع، ولما استقر المقام بالوزير يوسف باشا فى مدينة بليس وذلك فى أخريات رمضان من السنة بعث بنصوح باشا والأمراء المصريين إلى القاهرة فوصلوا إلى الخانكاه ثم إلى المطرية وقدم درويش باشا الذى كان والى الصعيد على عهد حسن باشا أمير البحر ونزل بالشيخ قمر أياما ثم سار إلى الصعيد ومعه طائفة من الجند وكذلك سارت طائفة أخرى إلى السويس وأخرى إلى المنصورة ودمياط وانبثوا فى البلاد شرقا وغربا ودخلوا القاهرة جماعات صغيرة وجعلوا يطوفون بالشوارع وانبثت عساكرهم فى الأزقة والحارات يعبثون فيها ويشوشون على النساء والصبيان فلما كان فى اليوم السابع من شوال من السنة أى سنة أربع عشرة ومائتين حدث أن تشاجر بعضهم مع بعض الجنود الفرنسية فأدت هذه المشاجرة إلى الملاكمة والقبض بالأطواق ثم إلى الضرب واشتد تآلب العساكر السلطانية وأفحشوا فى الضرب فقتل بينهم أحد الفرنسيين وفاض الخبر بذلك فى القاهرة فوقعت فى الناس زعجة وأغلقت الخوانيت وخاف العساكر السلطانية شر العاقبة فأسرعوا وترسوا ناحية الجمالية وما والاها واجتمعوا جميعا فى تلك الأنحاء خلف المتاريس التى أقاموها ووصل الخبر بما وقع إلى مقدم الجيوش الفرنسية فجاءهم جماعة من الفرنسيين ووقع القتال بينهم بالبنادق واشتد فقتل من الفريقين وباتوا ليلتهم وهم على أهبة الحرب والقتال فأصبحوا وقد تداخل كبراؤهم فى الأمر وأزالوا المتاريس وانكف الفريقان عن القتال وشد مصطفى باشا فى البحث على مثيرى هذه الفتنة فكانوا ستة فقبض عليهم وأمر بهم فقتلوا جهارا وأرسل رؤسهم إلى أمير الجيوش الفرنسية فلم يطب خاطره وطلب سرعة خروج جميع من دخل القاهرة ومصر من العساكر العثمانية حتى ينقضى الأجل المفروض وإذا دخل منهم أحد إلى المدينة فبغير سلاحه فلم يسع مصطفى باشا إلا الإذعان وأمر فنادوا على جميع من كان فى مصر والقاهرة من الجنود العثمانية فخرجوا على الفور ووقف جماعة من العساكر الفرنسية خارج باب النصر رباطا فكان إذا أراد أحد من العساكر أو الأعيان من العثمانيين الدخول إلى المدينة ترجل عن دابته عند قربه منهم ونزع عنه جميع سلاحه ثم يتركه عندهم

ويدخل ومعه شخص أو شخصان موكلان به يمشيان أمامه حتى يقضى حاجته ويرجع فإذا وصل إلى العسكر المرابطين أعطوه سلاحه وظل الحال هكذا أياما .

وسافر فريق من الجند الفرنساوية إلى الإسكندرية بمتاعهم وأثقالهم وفيهم الأمير دورجيہ النائب العام والأمير ديزه سر عساكر الصعيد والأمير رئيس الكتاب ومدير الحدود ولبثوا بالإسكندرية أياما قد تأهبوا في خلالها إلى ركوب السفن إلى أوطانهم قيل فلما صاروا على ظهور بدت لهم من سفن الإنجليز إشارات الوحشة وعلامات الانتقام فأحجموا عن السير ومضوا إلى الأمير كلاير يعلمونه بالخبر فأرسل إلى الصدر الأعظم بعلمه بنوايا الإنجليز نحو جنود الفرنساوية ومخالفتهم لأحكام العهد فأجابه بجواب لم يرضه وأصبح راحقا إلى سطح - وكان ذلك في آخر المهلة المتفق عليها في دخول الصدر الأعظم إلى القاهرة وجلاء الفرنسيين عنها فلما رأى الأمير كلاير ذلك طلب ثمانية أيام أخرى آجله زيادة على أيام المهلة المقدرة فأجيب إلى ذلك ووصل الأمراء المصريون وجيوش نصوح باشا وكثير من العساكر العثمانية إلى ناحية المطرية وعسكروا هناك وكان من الفرنسيين أن جعلوا الثمانية أيام التي طلبوها ظرفا لجمع عساكرهم وطوائفهم من البلاد القبلية والبحرية ونصبوا معسكرهم على ساحل النيل متصلا بأطراف المدينة ممتدا من مصر القديمة إلى شبرا وترددوا إلى نواحي القلاع التي كانوا أنشئوها داخل البلد فلم يكن بها أحد من العساكر العثمانية فأخذوا في رد آلات حربهم وذخيرتهم من بارود وقنابل ومدافع وغيره إلى تلك القلاع ليلا ونهارا والناس يتعجبوا من ذلك ومصطفى باشا نائب الصدر الأعظم ومن معه يشاهدون ذلك وهم في شغل عنه قيل وكان السبب في ذلك هو ما ظهر من سوء نوايا أمير العمارة الإنجليزية بسفن الفرنسيين الحاملة لعسكرهم وأن بعض أصدقاء الفرنسيين من جماعة الإنجليز أبلغوهم أن الصدر الأعظم اتفق مع أمير العمارة الإنجليزية على الإحاطة بسفن الفرنسيين إذا صارت على ظهر البحر فلما وقع ما سبقت الإشارة إليه تحقق الأمير كلاير صحة الخبر وأرسل إلى يوسف بيك الوزير فلم يجبه بجواب شاف بل أسرع في الرحيل والقدوم إلى مصر كما تقدم القول .

وكان الفرنسيين عندما ترأسوا وترددوا على معسكر يوسف باشا عرفوا عدد جنوده وأحوالهم وما هم عليه من القوة والضعف وتحققوا ضعفهم عن المقاومة وقد ردوا أدوات حربهم وجميع آلاتهم إلى القلاع وحصنوا الجهات وأبقوا جماعة وقيدوا

بتلك القلاع والحصون عدة من عسكرهم واستوثقوا من ذلك جيداً ثم خرج من بقى
وهم الصدر الأعظم إلى ظاهر القاهرة عند قبة النصر وانتشروا فى تلك النواحي
ولم يبق فى المدينة منهم إلا من كان بداخل القلاع ونفر بييت الألفى بالأزبكية
وبعض بيوت أخرى من الجهة المذكورة ولبثوا إلى العشرين من شوال من السنة ثم
أرسل كلاير فى طلب مصطفى باشا وحسن أغا نزل أمين فلما تمثلا بين يديه أمر
فقبض عليهما وأرسلوهما إلى الجيزة وسجنوهما بها فلما كان ثالث عشرى الشهر
المذكور ركب الأمير كلاير قبل طلوع الفجر وسار بعسكره ومدافعه وقد قسم
العسكر إلى قسمين قسم سار إلى معسكر الوزير يوسف باشا وقسم سار إلى من هم
بالمطرية من الأمراء المصريين والجند الذين معهم فلما صاروا على مقربة منهم رموهم
بالبنادق وتابعوا الرمي بقنابل المدافع وأحدقوا بهم واشتدوا فى الرمي شدة بالغة فولوا
الفراز منهزمين وتركوا خيامهم وجميع آلات حربهم وركب نصوح باشا ومن معه
من الأمراء المصريين وطلبوا جهة القاهرة فتركهم كلاير ولم يلتفت لصددهم عنها
وسار خلف الفارين إلى الخانكاه وهو يعمل السيف فى أقيمتهم وقد نهبوا جميع ما
فى معسكرهم وأتلفوا المدافع وأخذوا جميع ما وجدوه من متاع وغيره ولحقوا
بمعسكر الصدر الأعظم فأرسل إليه كلاير يأمره بالرحيل فى مدة لا تتجاوز أربعاً
وعشرون ساعة فلم يسعه المخالفة وسار فسار خلفه كلاير بجيوشه وكان أكثر عساكر
الصدر الأعظم متفرقة فى هذا اليوم فى أنحاء القرى والبلدان لجمع المال ومفردات
الفرض والتشديد على الرعية والتضييق عليهم فسمع أهالى القاهرة ومصر أصوات
المدافع والبنادق فهاجوا وماجوا وتراكضوا إلى أطراف البلد فصادفوا فى طريقهم
بعض رعايا الفرنسيين فقتلوهم وذهبت جماعة منهم إلى بركة الأزبكية فنهبوا ما
وجدوه فيها حيث كان معسكر الفرنسيين وجعلوا يكثرون من الجلبة والصياح وهم
لا يعرفون السبب الحامل لهم على ذلك سوى ما سمعوه من أصوات المدافع والبنادق
وخرج السيد عمر نقيب الأشراف والسيد أحمد المحرقى .

قال صاحب عجائب الآثار وانضم إليهما أتراك خان الخليلى والمغاربة الذين
بمصر وكذلك حسين أغا شتى أخو أيوب بيك الصغير وتبعهم كثير من عامة الناس
وتجمعوا على التلال خارج باب النصر وبأيدى الكثير منهم النبايت والعصى والقليل
منهم السلاح وكذلك تحزب كثير من طوائف العمة والأوباش وجعلوا يطوفون
بالأزقة وأطراف البلد ولهم صياح وضجيج وتحارب بكلمات يقفونها من اختراعاتهم

وخرافاتهم وقاموا على ساق وخرج الكثير منهم إلى خارج البلد على تلك الصورة فلما ارتفع النهار حضر بعض الأجناد المصريين ودخلوا مصر وفيهم المجاريح وطفق الناس يسألونهم فلم يخبروهم بشئ لجهلهم أيضا حقيقة الحال قال ثم لم يزل الحال كذلك إلى أن دخل وقت العصر فوصل جمع عظيم من العامة ممن كان خارج البلدة ولهم صياح وجلبة على الشرح المتقدم ذكره وخلفهم إبراهيم بيك الكبير ثم أخرى وخلفهم سليم أغا ثم أخرى وخلفهم عثمان كتخدا الدولة ثم نصوح باشا ومعه عدة وافرة من عساكرهم وصحبته السيد عمر النقيب والسيد أحمد المحروقي وحسن بيك الجداوى وعثمان بيك المرادى وعثمان بيك الأشقر وعثمان بيك الشرقاوى وعثمان أغا الخازندار وإبراهيم كتخدا مراد بيك المعروف بالسناوى ومعهم مماليكهم وأتباعهم فدخلوا من باب النصر وباب الفتوح ومروا على الجمالية حتى وصلوا إلى وكالة ذى الفقار فقال نصوح باشا عند ذلك للعامة اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم فعندما سمعوا منه ذلك القول صاحوا وهاجوا ورفعوا أصواتهم ومروا مسرعين يقتلون من يصادفونه من نصارى القبط والشوام وغيرهم فذهبت طائفة إلى حارة النصارى ويوتهم التى بناحية بين الصورين وباب الشعزية وجهة الموسيقى فصاروا يكبسون الدور ويقتلون من يصادفونه من الرجال والنساء والصبيان وينهبون ويأسرون حتى اتصل ذلك بالمسلمين المجاورين فتخوف النصارى واحترسوا وجمع كل منهم ما قدر عليه من العساكر الفرنساوية والروم وقد كانوا قبل ذلك محترسين وعندهم الأسلحة والبارود والمقاتلون لظنهم وقوع هذا الأمر فوقع الحرب بين الفريقين وصارت النصارى تقاتل وترمى بالبنادق والآخرون يرمون من أسفل ويكبسون الدور ويتسورون عليها ويات نصوح باشا وكتخدا الدولة وإبراهيم بيك وبعض من صناع مصر والكشاف والأتباع وطوائف من العسكر بخطط الجمالية بوكالة ذى الفقار فلما أصبح الصباح أرسلوا إلى المطرية وأحضروا منها ثلاثة مدافع فوجدوها مسدودة القالية فعالجوها حتى فتحوها وقام ناصف ياشا وشمر عن ساعديه وشد وسطه ومشى وصحبته الأمراء المصرية على أقدامهم وجروا أمامهم الثلاثة مدافع وسحبوها إلى الأزيكية وضربوا بها على بيت الألفى وكان به بعض المرابطين من عساكر الفرنساوية فضربوهم أيضا بالمدافع والبنادق واستمرت الحرب بين الفريقين إلى آخر النهار انكفت وياتوا ينادون بالسهر أهـ.

وفى هذا اليوم وضع أهل القاهرة ومصر والعساكر المتاريس بأطراف المدينة كلها

وبجبهة الأذربيجية وشرعوا فى بناء وترميم بعض جهات سور المدينة وبالغوا فى تحصينها جهد الاستطاعة وبات الناس فى تلك الليلة خلف المتاريس فلما أظلم الليل عمد الفرنسيين إلى إطلاق مدافعهم على المدينة وراسلوا إطلاق القنابل من القلاع وتابعوا الرمى على خط الجمالية لاجتماع الأمراء والجند به وشددوا فامتلاً الجو بدخان البارود وتهدم الكثير من الوكائل والبيوت وكثر الصراخ من كل صوب وحذب وخرج الناس على وجوههم هائمين وعجز الأمراء عن الدفاع وإسكات مدافع الفرنسيين ثم أجمع رأى الكبراء والرؤساء منهم على الخروج من المدينة فى تلك الليلة لعجزهم عن المقاومة وعدم وجود آلات الحرب وغير ذلك من وسائل الدفاع وفاض الخبر بذلك بين الناس فركب بعضهم بعضاً وازدحمت تلك النواحي بالحمر والبغال والخيول والجمال المحملة بالأنثقال وياتوا على تلك الصورة المحزنة ووصلت الأخبار بخروج الناس إلى أهل خان الخليلي وبعض مغاربة الفحاميين والغورية فجاءوا إلى الجمالية وشنعوا على من يريد الخروج وعصدهم طائفة الإنكشارية وعمدوا إلى خيول الأمراء فحبسوها ببيت القاضى والوكائل وأغلقوا باب النصر وبات فى تلك الليلة أكثر الناس على مصاطب الخوانيت وبعض الأعيان فى بيوت أصحابهم بخط الجمالية وفى الأزقة والحارات وكلهم على أهبة الخروج إلى ظاهر المدينة وأصبح يوم السبت فتشياً كبار الجند والجند كافة والكثير من سكان القاهرة ومنصر عن لا قدرة له على الحرب وساروا إلى الأذربيجية فأقام بعضهم فى البيوت الخالية التى بها وأقام جماعة أخرى خلف المتاريس واستحضروا عدة مدافع مما كان مدفوناً فى بيوت الأمراء .

قال صاحب عجائب الآثار واستحضروا فى حوانيت العطارين من الثقافات التى يزنون بها البضائع من خديد وأحجار يرمون بها على العدو بدل القنابل وجعلوا يرمون بها على بيت الأمير كلاير بالأذربيجية ولبت عثمان كتحدا بوكالة ذى الفقار فكان كل من قبض على نصرانى أو يهودى أو فرنسوى أخذه وذهب به إلى الجمالية عند عثمان بيك المذكور ويأخذ عليه البخشيش فيحبس البعض حتى يتحرى عن أمره ويقتل البعض ظلماً وربما تقتل العامة من تقتله وتأتى برأسه لتأخذ البخشيش وكذلك كل من قطع رأساً من رموس الفرنسيين يذهب بها إما إلى نصوح باشا بالأذربيجية وإما إلى عثمان بيك بالجمالية وبعد أيام أغلقوا باب القرافة وباب البرقية وبقية الأبواب التى بأطراف البلد وزاد الناس فى عمل المتاريس وفى الاحتراس

والتحذر وجلس عثمان بيك الأشقر عند متاريس باب اللوق وناحية المدافع وعثمان بيك طبل عند متاريس المحجر ومحمد بيك المبدول عند الشيخ ربحان ومحمد الكاشف أيوب وأصحاب أيوب بيك الكبير وأيوب بيك الصغير عند الناصرية ومصطفى بيك الكبير بقناطر السباع وسليمان كاشف الحمزاوى عند سوق السلاح وأولاد القرافة والعامة وزعر الحسينية والعطوف عند باب النصر مع طائفة من الإنكشارية وباب الحديد وباب القرافة وطائفة خان الخليلي والجمالية عند باب البرقية المعروف الآن بالغريب ولم يبق أحد من أهل البلد إلا وانضم إلى من يقرب إليه من طوائف العسكر بحيث صار جميع أهل مصر والعساكر كلها واقفة بأطراف البلد عند الأبواب والمتاريس والأسوار وأقام بعض العساكر العثمانية ومعهم جماعة من الأهالي بالأسلحة عند الجمالية حتى إذا جاء صارخ من جهة من الجهات أمده. بفريق منهم ولم ينم أحد في بيته إلا الضعيف وكان ناصف باشا وإبراهيم بيك الكبير ومن معهما من الإنكشارية والأرنؤد والدلاة وغيرهم مرابطين جهة الأزيكية وناحية باب الهواء والرجبة الواسعة عند جامع أزيك والعتبة الزرقاء وأنشأ عثمان بيك كتخدا معملا للبارود بيت قائد أغا بخط الخرنفش وأحضر الحدادين والتجارين والسباكين لسبك المدافع والقنابل وإصلاح المدافع التي وجدت في بيوت الأمراء وعمل العجلات وما يلزم للقتال واهتم لذلك اهتماما عظيما وأرسلوا فاستحضروا بقية المدافع التي كانت بمعسكر المطرية وقد عطلتها عساكر الفرنسيين فكانوا كلما أدخلوا مدفعا أدخلوه بجمع عظيم من الأوباش والخرافيش والأطفال ولهم صياح ونباح وتجاوب بكلمات من مثل قولهم الله ينصر السلطان ويهلك فرط الرمان وغير ذلك أه.

واشتدت عزيمة الأمراء المصريين وبدا منهم غاية الهمة والإقدام وثابروا على القتال من خلف المتاريس وظهر رجل مغربي قيل إنه الذي كان يقاتل الفرنسيين بالبحيرة واجتمع إليه طائفة من المغاربة ممن كان قدم مع الجيلاني الذي سبق الكلام عنه ففعل المغربي المذكور ما لا خير فيه من النهب والقتل والسبي وكان يتجسس على البيوت التي بها الفرنسيين والنصارى فيكبسها ومعهم جمع من العوام وأسافل الناس والعسكر فيقتلون من يجدونه منهم وينهبون الدار ويسجنون النساء ويسلبون ما عليهن من الخلى والثياب وكانوا يقطعون رؤوس الأطفال وبعض البنات طمعا فيما عليهن من الخلى وتتبع الناس عورات بعضهم وما دعتهم إليه النفس الأمارة بالسوء واتهم الشيخ خليل البكرى بأنه يسالم الفرنسيين ويرسل إليهم الأطعمة وغير ذلك

فهجم عليه طائفة من العسكر مع بعض الأوياش من العامة ونهبوا داره وأخذوه مع أولاده ونسائه وأحضره إلى الجمالية وهو ماش على أقدامه حاسر الرأس فكان العامة يخاطبونه بفحش القول ويكثرون من سبه ولعنه فلما مثلوه بين يدي عثمان كتخدا هاله أمره وطيب خاطره وسيره بنسائه إلى دار بعض الأعيان وطلبت العساكر النفقة فبادر السيد أحمد المحروقي وبقيّة التجار وأصحاب المظاهر من الناس بالنفقة على الجند والأمراء والمقاتلين من مأكّل ومشرب وكذلك فعل جميع أهل القاهرة ومصر، أما الفرنسيّس فأنهم تحصنوا بالقلاع المحيطة بالمدينة وبيت الألفى وما والاّه من البيوت الخاصة بهم كل ذلك ولا يعلم أحد حقيقة الحال ولا ما جرى بالفرنسيّس الذين ساروا مع كلاير خلف عسكر الصدر الأعظم يطاردونهم من بلد إلى آخر واختلّفت في شأنهم الأقوال وكان الصدر الأعظم قد ترك ببليس فريقا من عسكره أوهم تخلفوا عنه بعد أن مزقت شملهم العساكر الفرنسيّة فسارت إليهم طائفة من الفرنسيّس وحاصرتهم وشدّدت عليهم وضيقّت فاستأمنوا فأخرجوهم بغير سلاح وصرّفوهم حيث شاءوا فذهبوا أشتاتاً بالأرياف يتكفّفون الناس ويأوون إلى المساجد الخربة فمات أكثرهم من العرى والجوع ولحق بعض الأمراء المصريين بالصدر الأعظم عند الصاحيّة فعابوا عليه فعله وقبحوه وبالعوا في سوء تديره وخاطبوه ببدي الكلام وفحش القول فاعتذر وقال إنه لم يكن عليه أهبة القتال لتركه الأسلحة والكرّاع بقلعة العريش اعتماداً على ما تقرّر بينه وبين مقدّم الجيوش الفرنسيّين من الصلح وإنه لم يكن ليعتقد يقظة الفرنسيّس إلى حد كشف ما دبّر عليهم مع أمير السفن الإنجليزيّة عند ركوبهم السفن فطلب منه عثمان بيك أن يأمر بجمع الجنود الهائمة على وجهها كالإبل وهو يسير بهم لقتال العدو فاجابه إلى ذلك وخاطب العسكر وبذلّ لهم الرغائب فامتنعوا ولم يمثّل منهم إلا المطيع وهم لا يبلغون الألف وعادوا على إثرهم وجمعوا إليهم المتشردين منهم ورجعوا يريدون قتال الفرنسيّس فنزّلوا بوهدة على مقربة من القرين حيث كان الفرنسيّس في قلة يستكشفون مواقع العدو فقاموا عليهم بالنباييت والحجارة فأصابوا ترجمان الأمير كلاير وسقط على الأرض وتسامع المسلمون فركبوا لنجدتهم واستصرخ الفرنسيّس عسكرهم فلاحقوا بهم ووقع القتال بين الفريقين حتى حال بينهم الليل والفرنسيّس يطاولونهم ثم انكف الفريقان وانحاز كل فريق إلى ناحية فلما دخل الليل واشتد الظلام أحاط الفرنسيّس بعسكر المسلمين فأصبح المسلمون وقد رأوا إحاطة العسكر بهم من كل جانب فركب الفرسان

وتبعهم المشاة وقَاتلوا حتى اخترقوا صفوف العدو ونجا من نجا وهم قليلون وقتل خلق كثير ورجعوا إلى الصالحية على إثرهم فلما رأى الصدر الأعظم ما حل بهؤلاء أيضا وقد كان يعلل الأمل بفوزهم رحل إلى الشام فيمن بقي أما مراد بيك الكبير فإنه لما رأى هجوم الفرنسيين على من كانوا بالمطرية مع نصوح باشا وكان هو على مقربة من المقطم ركب من ساعته هو ومن معه ومروا بسفح الجبل وساروا إلى دير الطين وعسكروا فيها لينظروا ما سيحل بعساكر السلطان وأقام مطمئنا على نفسه واعتزل الفريقين وحافظ على عهده وولائه للفرنسيين واشتد الخوف والفرع بنصوح باشا ومن معه من الأمراء المصريين لما علموا بما أصاب الصدر الأعظم وجنوده وخارت منهم العزائم وذهب الصبر والجلد ولكنهم خافوا أيضا عاقبة صرف من اجتمع عليهم من العامة والحرافيش وأهل العطوف وأخلاق العسكر فكانوا يذيعون بينهم أخباراً ملفقة لا أصل لها ويمنون الناس بقرب حضور الصدر الأعظم بجيوشه المظفرة وتابعوا المناداة بالتركي والعربي بالتحريض والاجتهاد والحرص على الصبر والقتال وملاقاة العدو، وبينما الناس على هذا الحال وتعلق الآمال بقرب عودة الصدر الأعظم وجيوشه إذ حضر فريق من الفرنسيين نجدة لإخوانهم الذين بالحصون والقلاع التي بداخل البلد ووقفت طائفة منهم خارج باب النصر وباب الحسينية ونهبوا زاوية الدمرداش وما حولها كقبة الغوري والمبيل وعسكروا على بعض التلّول ورجع في هذه الأثناء طائفة قليلة من عسكر الدولة وهم الذين كانوا بالقرى والأرياف يقبضون الكلف والفرص بأمر الصدر الأعظم فلما صاروا عند أبواب المدينة دفعتهم طوائف الفرنسيين فدافعوا عن أنفسهم حتى تمكنوا من دخول المدينة ففرح الناس بقدومهم وتقوت نفوسهم فكانوا يقولون للناس إنهم حاضرون مددا وأن سيأتي على أثرهم عشرة آلاف مقاتل من جيوش الصدر الأعظم لقطع شأفة العدو.

وقام بينولاق رجل اسمه الحاج مصطفى البشتيلي وجمع إليه طوائف السوق وحرافيش السبئية فكانوا عدة وافرة وساروا نحو معسكر الفرنسيين الذي كان بساحل بولاق وهجموا على من كان به من المرابطين فقتلوا منهم من أدركوه ونهبوا جميع ما فيه من خيام ومتاع وغيره ورجعوا إلى المدينة وهم يترامحون وفتحوا مخازن الغلال والودائع التي لجيوش بونابارته وأخذوا منها ما قدروا على حمله وتترسوا حول بولاق واستطالوا على من كان بها من القبط والشوام فأوقعوا فيهم القتل والنهب وفعلوا مالا خيراً فيه فكان البلاء عاما والخطب شديد جدا.

ولما استوثق الأمير كلاير من هزيمة الوزير يوسف باشا وعجزه عن الرجوع وهرويه إلى الديار الشامية وضع بالصالحية رباطا من الفرنسيين وكذلك بالقرين وبلييس وسار إلى القاهرة وقد بلغه خبر دخول نصوح باشا إليها وما جرى على يديه من قتل ونهب وتخريب وتعييب وغير ذلك فوصلها بعد ثمانية أيام من ظهور الفتنة ودخل إلى داره بالأزبكية من غير ممانع إذ لم يقف في طريقه أحد من الجند ولا من العامة وأمر فأحاط جنده بالقاهرة وبولاق من الخارج وشددوا في الحصار فصار لا يدخل إليها أحد ولا يخرج منها أحد ومنعوا عنهما الوارد من الأطعمة ثم جعلوا يطلقون عليهما المدافع ويرسلون القنابل من أعلى التلال والقلاع ليلا ونهارا واشتدوا في ذلك شدة بالغة وقد عذمت الأقوات وعز وجود الخبز وصار العساكر السلطانية الذين بالقاهرة يخطفون ما يجدونه بأيدي الناس من المأكول وغلا سعر الماء المأخوذ من الآبار والأسبلة حتى بلغ سعر القربة نيفا وستين نصفا إذ تعذر الوصول إلى النيل.

قال صاحب عجائب الآثار وتكفل التجار ومساكين الناس والأعيان بكلف العساكر المقيمين بالمتاريس المجاورة لهم فالزموا الشيخ السادات بكلف الذين عند قناطر السباع وأما أكابر القبط مثل جرجس الجوهري وفتاؤس وملطى فإنهم طلبوا الأمان من المتكلمين من المسلمين لكونهم انحسروا في دورهم وهم في وسطهم وخافوا من نهب دورهم إذا خرجوا فارين فأرسلوا إليهم الأمان فحضرُوا وقابلوا الباشا والكتخدا والأمراء وأعانوهم بالمال واللوازم وأما يعقوب فإنه كرنك في داره بالدرب الواسع جهة الرويعي واستعد استعدادا كبيرا بالسلاح والعسكر المحاربين وتحصن بقلعته التي كان شيدها بعد الواقعة الأولى فكان معظم حرب حسن بيك الجداوى معه هذا والمناداة في كل يوم بالعربية والتركية على الناس بالجهاد والمحافظة على المتاريس قال واتهم مصطفى أغا مستحفظان بمؤالة الفرنسيين وأن في بيته جماعة من الفرنسيين فهجم العساكر على داره بدرب الحجر فوجدوا أنفارا قليلة من الفرنسيين فقاتلوا ودافعوا عن أنفسهم وقتل منهم البعض وهرب البعض على حمية حتى خلصوا إلى الناصري وأما الأغا فإنهم قبضوا عليه وأحضره بين يدي عثمان كتخدا ثم تسلمه الإنكشارية وخنقوه ليلا بالوكالة التي عند باب النصر ورموا جيفته على مزبلة خارج البلد واستقر عوضه جاهين كاشف الساكن بالخرنفش فاجتهد وشدد على الناس وكرر المناداة ومنعهم من دخول الدور وكل من وجده داخل داره مقتله وضربه فكان الناس يبيتون بالأزقة والأسواق حتى الأمراء والأعيان

وهلكت البهائم من الجوع لعدم وجود العلف من التبن والفول والشعير والإدريس بحيث صار ينادى على الحمار أو البغل المعدد الذى قيمته ثلاثون ريالاً وأكثر بمائة نصف فضة أو ريال واحد أو أقل ولا يوجد من يشتريه وفى كل يوم يتضاعف الحال ويعظم الهول أهـ.

وزحف المسلمون على رصيف الخشاب وترامى الفريقان بالمدافع والنيران حتى احترق ما بينهم من الدور وكان إسماعيل كاشف الألفى قد تحصن بيت أحمد أغا شويكار فى نفر من العسكر وقد كان الفرنسيين قبل الجلاء عنه عملوا به لغما بالبارود المدفون فلما استقروا به أشعل الفرنسيين اللغم فارتفع ما فوقه من الأبنية والناس إلى عنان السماء واحترقوا جميعاً ومات بينهم الألفى وانهدم ما كان حوله من البناء والدور والوكاتل والمباني العظيمة والقصور المظلة على بركة الأربكية واحترقت جميع البيوت إلى رصيف الخشاب والخطة المعروفة بالساكت بأجمعها إلى الرحبة المقابلة لبيت الألفى مقر الأمير كلابير وكذلك جميع خطة الفوالة وخطة الرويعى بالسباطين العظميين وما فى ضمن ذلك من البيوت إلى حد حارة النصارى فصارت كلها تلالاً وخرائب كأنها لم تكن فضعفت عند ذلك عزيمة نصوح باشا والأمراء المصريين وكادوا يفشلون وأرسلوا إلى مراد بيك الكبير يسألونه الإسراع فى نجدتهم بمن معه وألحوا عليه فأرسل يعتذر ويقول إنه محافظ على الجهة التى هو فيها فأرسلوا إليه ليكشف لهم خبر الصدر الأعظم وما جرى عليه فأرسل يقول لهم اعلموا أن الفرنسيين إذا ظفروا بأحد من المسلمين فلا يقتلونه ولا يضربونه فإذا أحسستم فافعلوا أنتم كذلك وخابروهم فى الصلح فهو خير لكم وأبقى وانجلوا عن البلاد سالمين فحتى حسن بيك الجداوى وعثمان بيك الأشقر وغيرهم من المسلمين عند سماعهم هذا الكلام وسفهاوا رأيهم وقبحوا قوله ورموه بالمؤالاة للفرنسيين فأشار إبراهيم بيك الكبير بذهاب البرديسى إليه ومعه عثمان بيك الأشقر ليعينا له خلطه وشططه فذهبا ورجع عثمان بيك وقد تبدلت أحواله وتغيرت أفكاره وذهبت عنه تلك الحدة التى كانت تزعجه وجنح لرأى مراد بيك فدخلهم من ذلك الفتور وكاد يتولاهم المملل وقد اشتد الخطب وعظم البلاء وعم الكرب وتوالى سقوط القنابل على الدور والمساكن من القلاع وكثر صياح النساء فى البيوت وبكاء الصغار من الخوف والهلع والجوع ومات الكثير من النساء والأطفال والشيوخ والحيوانات والطيور وغير ذلك تحت ردم الدور والمساكن التى سقطت وكان مقام الرجال بالأزقة

والأسواق ليلا ونهارا ومقام النساء والصبيان بأسفل الخواصل والعقودات تحت طباق
الابنية إلى غير ذلك وكان المشايخ والسيد أحمد المحروقي والسيد عمر نقيب
الأشراف يَمرون في كل وقت ويأمرون الناس بالقتال ويحضونهم على الجهاد. وبقي
الحال على هذا الوصف عشرة أيام كوامل وترددت الرسل من أصحاب مراد بيك
الكبير بين الفرنسيين والأمراء المصريين بشأن الصلح وجلاء جميع العساكر السلطانية
عن البلاد فلم يتفقوا على أمر ما فلما كان اليوم الثاني عشر أمر كلاير فأقاموا ببركة
الأوبكية فسطاطا لطيفا ورفعوا عليه علما وانكفوا عن الرمي في تلك الليلة وأرسل
كلاير بطلب المشايخ ليتكلم معهم فيما فيه المصلحة فأمرهم نصوح باشا بالذهاب
فسار إليه جماعة منهم فلما استقر بهم المقام مع الأمير كلاير عاتبهم على ما وقع ثم
أمن جميع الرعية وعفا عما سلف بشرط خروج نصوح باشا وجلاء جميع العساكر
السلطانية وارتحالهم إلى حيث الصدر الأعظم وعلى الفرنسيين النفقة عليهم بقدر
الكفاية وأما الجنود المصرية الذين أتوا معهم فمن شاء منهم الجلاء فله مالهم ومن
شاء البقاء بقي معززا وأن الجرحى والمرضى من العساكر العثمانية ينزعون عنهم
أسلحتهم ويعالجون فمن تم برؤه منهم وشاء الإقامة فمعزز أو الرحيل فله ما كان
لأصحابه من الكلفة حتى يصل إلى وطنه فجنح المشايخ إلى هذا الصلح وتقررت
القاعدة بينهم على ذلك ورجعوا فلما كان الغد شاع أمر المودعة واستفاض أمر
الصلح وعلم الأنكشارية بخبره فقاموا على ساق وقدم وقالوا لا يكون هذا أبدا
وخرجوا وخرج العامة معهم وسبوا المشايخ وقبضوا على اثنين منهم وأوسعوهما
ضربا ورموا عمائمهما.

قال صاحب عجائب الآثار وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ وارتدوا وعملوا
فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين وأنهم أخذوا دراهم من الفرنسيين وتكلم السفلة
والغوغاء من أمثال هذا الفضول وشدد في ذلك الرجل المغربي الملتف عليه أخلاط
العالم ونادى من عند نفسه الصلح منقوض وعليكم بالجهاد ومن تأخر عنه ضرب
عنقه.

قال وكان السادات بيت الصاوي فتحير واحتال بأن يخرج وأمامه شخص ينادى
بقوله الزموا المتاريس ليقى بذلك نفسه من العامة وكان قصد المغربي المذكور دوام
الفتنة ليتوصل بها إلى ما يريده من النهب والسلب والتصور بصورة الإمارة باجتماع
الأوغاد عليه وتكفل الناس له بالمأكل والمشرب هو ومن انضم إليه واشتطاطه في

المأكل مع فقد الناس لأدنى ما يؤكل حتى أنه كان إذا نزل جهة من جهات المدينة لإظهار أنه يريد المعونة أو الحرس فيقدمون له بالطعام فيقول لا أكل إلا الفراخ ويظهر أنه صائم فيكلف أهل تلك الجهة أنواع المشقات والتكلفات بتعته في هذه الشدة بطلب أفحل المأكولات وما هو مفقود قال ثم هو مع ذلك لا يغنى شيئا بل إذا دهم العدو تلك الجهة التي هو فيها فارقها وانتقل لغيرها وهكذا كان ديدنه وسبحه أهـ.

ولما وقع من الإنكشارية والعمامة هذا التظاهر ومانعوا في إمضاء الصلح لم ترد العلماء على الأمير كلاير جوابا وأطلقوا مدافعهم على معسكر كلاير وأكثروا من إطلاق البنادق إعلانا بأنهم مازالوا على قدم الدفاع فأرسل كلاير يطلب الجواب فأجابه الباشا والكتخدا أن العسكر يرفضون كل صلح وهم يقولون لا تراجع عن حرب الفرنسيين حتى نظفر بهم أو نموت عن آخرنا فأرسل عند ذلك كلاير مكاتبة يقول فيها قد عجبنا من قولكم أن العساكر لم ترض بالصلح فكان الأمر بيدهم وكيف يكون الأمير أميرا على جيش ولا ينفذ أمره فيهم ثم أرسل كلاير رسولا إلى أهل بولاق أيضا يطلبهم للصلح وترك الحرب ويحذرهم العقوبة فلم يذعنوا فكرر عليهم الطلب فكانوا لا يزدادون إلا عنادا فأرسل كلاير أحد فرسانه فطاف يتنادى بالأمان فقام عليه العمامة وأنزلوه عن فرسه وقتلوه وظن الناس بالقاهرة ومصر وبولاق أن الفرنسيين إنما يطلبون الصلح لعجزهم وعدم قدرتهم على استمرار القتال فلما علم كلاير بما فعلوه برسوله غضب وأمر فأطلقت عساكره المدافع على المدينة ووالوا الرمي بالقنابل من جميع الحصون والقلاع ورأسلوا نيران البنادق واستمروا على هذا الحال الشديد إلى يوم الخميس ثانی عشرى شوال من السنة فلما كان ضحوة هذا اليوم غامت السماء وأرعدت وأبرقت ثم أمطرت مدرارا وطالت وأظلمت الدنيا واشتد المطر وانفتحت أبواب السماء فانهمل السيل انهما لا عظيما لم يسبق له مثال وكثرت الأوحال وتعطلت الطرق بالقاهرة ومصر وبولاق فاشتغل الناس والعساكر بنزح المياه من بعض الطرق وحمل الأوحال تحفيها لها فانتهاز الفرنسيين هذه الفرصة المناسبة وهجموا على القاهرة وبولاق من كل ناحية وكبسوا من ناحية باب الحديد وكوم أبى الريشة وجهة بركة الرطل وقنطرة الحاجب وجهة الحسينية والرميلة وكانوا يرمون القنابل من قلعة جامع الظاهر وقلعة قنطرة الليمون ويزحفون أمامهم المدافع وخلفهم المشاة بالبنادق يتابعون رميها وطائفة أخرى بأيديها فتائل مغمسة بالنفوط والزيت والقطران وكعكات مدبرة تلتهب عند نزول الماء عليها فكانوا يلقونها ملتجة

بالسقائف وأبواب الحوانيت وشبابيك الدور ويزحفون على هذه الصورة والمسلمون يقاتلون قتال الأبطال وانتقل الأغا وأغلب العامة إلى تلك الجهات وزلزلوا في ذلك اليوم زلزالا شديدا وهاج العامة وأكثر النساء من الصياح والولولة وتركن البيوت وخرجن حاسرات عن وجوههن فكانت النيران تأخذ كل من صادفته ثم هجموا هجمة رجل واحد على مدينة بولاق من ناحيتي النيل وبوابة أبي العلا فقاتل أهل بولاق وبذلوا الجهد حتى أحاطت بهم الفرنسيين إحاطة السوار بالمعصم وأخذوهم من كل جانب وأزعموا فيهم السيف والتحريق فقتلوا في هذا اليوم مالا يكاد يدخل تحت الحصر وملكوا بولاق عنوة وفعلوا بأهلها ما تشب من هوله النواصي وصارت القتلى مطروحة تدوسها سنابك الخيل وأقدام الناس في الأزقة والطرق واحترق أكثر المدينة من الدور والقصور المظلة على النيل وخرج الناس على وجوههم هائمين إلى الصعيد ثم أحاط الفرنسيين بالبلد ومنعوا من يخرج منها واستولوا على الخانات والوكائل والحواصل والودائع والبضائع وملكوا الدور وما فيها من متاع وأموال ونهبوا جميع ما عثروا عليه وصنعوا بكبارها وتجارها مالا خير فيه وكان ذلك اليوم يوم الجمعة ثالث عشرى شوال واختفى البشتيلي زعيم عصابة بولاق ففتشوا عليه وقبضوا عليه وعلى وكيله وجميع أنصاره وكبار العصابة كافة وسجنوهم وضيقوا عليهم عدة أيام ثم أطلقوهم ماعدا البشتيلي وكبار عصابته وكان البشتيلي هذا قد بعث في أيام الفتنة بخطاب إلى عثمان ككتخدا يقول فيه إن الكلب دعانا للصلح يريد كلابير فأبينا منه وأرسل الخطاب مع رجل ليوصله إلى الكتخدا فوقع في يد الأمير كلابير قيل فحركه ذلك إلى فعل ما فعله ببولاق ثم سلم البشتيلي إلى أهل عصابته ووكلمهم بقتله جزاء ما فعل مما كان سببا لما حل بهم فأركبوه حمارا وطافوا به جميع أنحاء بولاق ثم قتلوه بضرب النبايت وألزم كلابير أهل بولاق بغرامة قدرها مائتا ألف ريال فأدوها وهم صاغرون .

أما أهالى القاهرة ومن فيها من العساكر العثمانية والأمراء المصريين فأنهم جعلوا يقاتلون ويدافعون جيوش الفرنسيين إلى السادس والعشرين من شوال حتى ضاق خناقهم وكادوا يهلكون من الجوع فضلا عن نيران العدو فهجم الفرنسيين على المدينة في ذلك اليوم من ناحية باب الحديد وناحية كوم أبى الريش وقنطرة الحاجب وغيرها ودخلوا البلد وهم يحرقون بالفتائل والنيران الموقدة ويجلون العساكر السلطانية عن المتاريس واحدا فواحد إلى أن وصلوا إلى ناحية قنطرة الخروبي وناحية باب الحديد

إلى قرب الشعرية وزحفوا على المتاريس التى بها فوقعت الهزيمة على من كانوا بها من الأمراء المصريين والجند فولوا الأدبار وتبعهم العامة بالصياح والولولة وملك الفرنسيس كوم أبى الريش وصعدوا إلى أعلاه وصوبوا أقواه المدافع ناحية المسلمين، والمسلمون من أسفل الكوم فعملت فيهم نيران المدافع مالا يمكن وصفه وقتلت ما لا يكاد يدخل تحت الحصر وكان البرديسى ومصطفى كاشف الأشقر أصحاب مراد بيك يسعون بين نصوح باشا والأمير كلاير وفى المهادنة والكف عن القتال ويكثر من التردد بين الفريقين فلما شاهد نصوح باشا ماحل بعسكره من الفشل والموات جنح إلى جميع ما يطلبه الأمير كلاير وألح فى طلب كف القتال وتقررت القاعدة بين الفريقين على أن الفرنسيس يمهلون نصوح باشا وجميع من معه من العثمانيين والأمراء المصريين ثلاثة أيام حتى يتأهبوا للجلء عن البلاد وجعلوا الخليج بالقاهرة حدا بين مقام الفريقين فى خلال أيام الهدنة وتركوا الحرب وأخمدوا النيران وأخذ العساكر السلطانية والمصرية والأمراء من الفريقين فى التأهب والاستعداد للجلء وزودهم الأمير كلاير بما لزم من مال وميرة ودواب للحمل وكتبوا بعقد الصلح دستورا من شروطه أن الفرنسيس يبقون عندهم عثمان بيك البرديسى وعثمان بيك الأشقر رهينة ويرسلون ثلاثة من كبار الفرنسيس يكونون مع الكتخدا حتى يصل بمن معه إلى الصالحية وأن يرافقهم ثلثمائة من جند كلاير ثم يعودوا ومعهم الرهائن وأن من شاء الخروج من أهل مصر فلا حرج عليه ماعدا عثمان بيك الأشقر فإنه متى رجعت الرهائن يذهب هو والبرديسى ويلحقان بمراد بيك فى الإقليم القبلى، وأمر كلاير بالرهائن من الفرنسيس فذهبوا إلى وكالة ذى الفقار وأجلسوهم بجامع الجمالى بالجمالية مع نصوح باشا فلما رآهم العامة هاجوا وماجوا وأرادوا البطش بهم وهموا بقتل عثمان كتخدا فأغلق دونهم الباب ومنع نصوح باشا من دنو العامة من المسجد وركب المغربى الذى تقدم الكلام عنه وسار إلى الحسينية وهو ينادى بالجهاد وقتل الكفار فحضر إلى عثمان كتخدا من أهل الحسينية من سأل فى ذلك فنهاهم وحذرهم وأمرهم بمنع ذلك المغربى وركب كذلك المحرقى وأمامه بعض العامة ينادون بأن لا صلح ولا اتفاق ولازموا المتاريس ومر على هذه الصورة بسوق الخشاب فقام عليه نرله أمين وأوقفه عن التطواف ومنعه من المتادة وفتح فى الحال باب خان ذى الفقار فخرج منه طائفة من الجند وبأيديهم العصى فمزقوا شمل العامة وفرقوا جمعهم وضربوهم بالعصى فانكمشوا وسكن الحال وكان نصوح باشا

والأمراء المصريون لما دخلوا القاهرة وضربوا على أهل البلاد المغارم وزادوا فى المكوس والمظالم وشددوا فى تحصيلها حتى من المشايخ وأرباب الطرق طالبوا أيضا الشيخ أبا الأنوار السادات بمبلغ من المال وجاءه السيد أحمد المحرقى بخطاب من كتبخدا الدولة بشأن ذلك فاعتذر الشيخ وطلب المعافاة فلم يقبل المحرقى وأبى إلا أخذ المقرر فشق الأمر على الشيخ وأحزنه جدا.

قال صاحب عجائب الآثار فكتب له الشيخ تذكرة وصورتها حسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير وما هو من الظالمين ببعيد.

وظننت أنك عدنى أسطوبها ويدي إذا اشتد الزمان وساعدى
فرميت منك بغير ما أملت والمرء يشرق بالزلال البارد

أما بعد فقد نقضت عهدي، وتركت مودة آل بيت جدى، وأطعت الظلمة السفلة وامثلت أمر المارقين الثقلة، فأعتهم على البغى والجور، وساعدت فى تنجيز مرامهم الفاسد على الفور، من إلزامك الكبير والصغير، والغنى والفقر، إطعام عبركم الذى أوقع بالمؤمنين الذل والمضرات، وبالحق فى النهب والفساد غاية الغايات، فكان جهادكم فى أماكن الموبقات والملاهى حتى نزل بالمسلمين أعظم المصائب والدواهى، فاستحكم الدمار والخراب، ومنعت الأقوات وانقطعت الأسباب، فبذلك كان عسركم مخذولاً، وبهم عم الحريق كل بيت كان بالخير مشمولاً، كيف لا وأكابرهم أضمرت سوء المرترقة فى تضيق معاشهم وأخذ مرتباتهم، وإتلاف ما بأيديهم من أرزاقهم وتعلقاتهم، وقد أخفتم أهل البلد بعد أمنها وأشعلتم نار الفتنة بعد طفئها ثم فررتهم فرار الفيران من السنور وتركتم الضعفاء متوقعين أشنع الأمور، فواغوثا واغوثا أغشنا ياغيث المستغثين واحكم بذلك يا أرحم الراحمين. أهـ.

فلما وقع ماوقع لنصوح باشا وقومه من الأمير كلاير فرح الشيخ بخذلتهم وفرح معه أيضا جماعة من المشايخ لخلاصهم من ظلم الجنود العثمانية وأمرائهم وخرجوا جميعا وخرج معهم إبراهيم بيك الكبير وأمرأؤه ومماليكة والألفى وأصحابه ومعه السيد عمر مكرم النقيب والسيد أحمد المحرقى وكثيرون من أهل مصر والقاهرة وساروا إلى الصالحية وسار معهم حسن بيك الجداوى وأصحابه ودخل الفرنسيين إلى المدينة واستولوا على ما كان أعده العثمانيون من المدافع والقنابل والبارود وآلات الحرب وركب المشايخ والأعيان عصر ذلك اليوم إلى مقر الأمير كلاير فلما استقر بهم المقام

أبرز لهم ورقة مكتوبا فيها مانصه، النصره لله الذى أمر من آتاه النصر باستعمال الشفقة مع الناس وبناء على ذلك فإن أمير الجيوش الفرنساوية لا ييخل بالعفو عن جميع الأهالى ولو أنهم شاركوا العثمانيون فيما ارتكبوه من جرائم القتل وإراقة الدماء فعليهم إذن أن يشتغلوا بأمر معاشهم، ثم التفت إلى المشايخ وقال لترجمانه قل لهم أن يأتوا إلينا فى غد عند قبة النصر فقاموا من عنده مطمئين وطافوا بالأسواق وبين أيديهم أرباب المناداة ينادون بالأمان العام وباتوا وأصبحوا فركبوا جميعا وذهبوا إلى خارج باب النصر وخرج أرباب المناصب وكبراء القبط والشوام فلما تكامل حضورهم رتبوا موكبا وساروا ودخلوا من باب النصر وأمامهم القواصة يأمرؤن الناس بالقيام ثم عدد عظيم من الفرسان ثم المشاة وأمامهم الطبول والأبواق ثم الأعيان والمشايخ والعلماء والأمراء والوجاقية وأتباعهم ثم الأمير كلاير وخلفه الأمير عثمان بيك البرديسى وعثمان بيك الأشقر وخلفهم طوائف الفرسان وبعد انقضاء الموكب زينت البلد ثلاثة أيام ثم أدب الجنرال كلاير ودعا جميع المشايخ والعلماء والأمراء فلما فرغوا من الطعام خلع على الشيخ البكرى خلعة عظيمة وقلد محمد أغا الطنانى أغاة مستحفظان ثم انصرفوا ونادى الأغا بالأمان فى تلك الليلة وأصبحوا وقد دعا مراد بيك الكبير الأمير كلاير وبطانته ومن معه من المقاتلين إلى وليمة أعددها لهم بجزيرة الذهب فذهبوا إليه فبالغ مراد بيك فى إكرام الأمير كلاير وقدم له تقادم وهدايا نفيسة وكذلك لكل واحد من أركان حرب كلاير وقدم إليه أربعة آلاف رأس من الضأن وعجول البقرة وفحول الجاموس وكان قد بعث بها درويش باشا الذى كان بالأقاليم القبلية إعانة إلى نصوح باشا ومن معه من الأمراء المصريين فسر الجنرال كلاير سرورا عظيما فى ذلك اليوم وانشرح صدره وقلد مراد بيك إمارة الصعيد من جرجا إلى إسنا ثم عاد راجعا إلى داره بالأريكية .

ولما كان فى صبح يوم الجمعة ثامن الحجة من السنة أى سنة أربع عشرة ومائتين وألف حضر المشايخ والعلماء فى زيارتهم إلى بيت الأمير كلاير باستدعاء من أجل ترتيب الأمور وتقسيم الوظائف والمناصب العالية فذهب كل وهو يؤمل بلوغه ما يتمنى فلما دخلوا أجلسوهم فى مكان برهة طويلة ولم يحضر إليهم أحد وأهملوا ثم طلبوا إلى مكان آخر فدخلوا وجلسوا وأهملوا حصة ثانية أطول من الأولى ثم خرج بعد ذلك الأمير كلاير فى أصحابه ومعه ترجمانه فجلس وأصحابه حوله وكلم ترجمانه ثم بعد أن فرغ التفت الترجمان إلى المشايخ والعلماء وقال يقول الجنرال إنما

قد استحضرتكم اليوم إلى هنا من أجل أن تدفعوا إلى خزينة الجيش الفرنسوى عشرة آلاف ألف ألف فرنك عبارة عن ألف ألف فرانسة منها خمسمائة ألف وخمسة وثلاثون ألف فرانسة على الشيخ السادات خاصة وخمسون ألفاً على الشيخ محمد ابن الجوهري وخمسون ألفاً على أخيه الشيخ فتوح وخمسون ألفاً على الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ العنانى ومائتان وخمسون ألفاً نقتطعها من ذلك نظير نهب دور الفارين مع العساكر العثمانية مثل المحروقى والسيد عمر مكرم وحسين أغا شن وما بقى من المبلغ توزعونه على التجار والأهالى كل بلد وما يناسب حاله ويبقى منكم هنا خمسة عشر رجلاً رهينة فاختاروا من يبقى ، ثم قام كلايبر من فوره ودخل مع أصحابه إلى داخل وأغلق بينه وبينهم الباب فاستلم فريق من الحراس الأبواب ووقفوا دونها بالبنادق يمنعون من يخرج من الجالسين فبهت الجماعة وانتفعت وجوههم ونظر بعضهم إلى بعض وهم فى دهشة وحيرة ولم يعاف من هذه الغرامة سوى الشيخ المهدي والشيخ البكرى واشتد بالمشايخ الأمر ولم يزلوا على ذلك إلى قريب العصر فأفرجوا عن دخل معهم من خاملى الذكر وأخذ أرباب الديوان فى توزيع المطلوب وتدييره وترتيبه فى قوائم حتى وزعوه على الملتزمين أرباب الحرف الدنيئة وجميع صنوف التجار وقضاة المحاكم وقد وضعوا الشيخ الصاوى والشيخ فتوح بن الجوهري فى السجن وهرب الشيخ العنانى وكانت داره احترقت فضافوا غرامته على الشيخ السادات ووكلوا بالتحصيل المعلم يعقوب والقائمقام مع الخزنة دار لقبض المتحصل وتدير الأمور والرهونات وركب كلايبر مع أصحابه وذهب إلى الجزيرة ونزل الشيخ السادات يريد الذهاب إلى داره فسار معه عشرة من الفرنسيس وجلسوا على بابهِ إلى نصف الليل فحضر إليه عشرة آخرون فأنزلوه من بيته وصعدوا به إلى قلعة الجبل وسجنوه فى مكان فهاله هذا الأمر وأزعجه جدا فأرسل إلى عثمان بك البرديسى مستغيثاً به فركب إلى الأمير كلايبر وكلمه فى أمره فقال كلايبر أما القتل فلا تقتله لشفاعتك وأما المال فلا بد منه إن طوعاً وإن كرها ثم أنزلوه من قلعة الجبل وسجنوه فى بيت القائمقام يومين ثم أصدعوه ثانياً إلى القلعة وشددوا عليه وضيقوا فلما اشتد به الخطب طلب أن ينزلوه إلى بيته ليسعى فى سداد المقروض فأنزل فباع متاعه وأثاث داره وما عنده من المال دفعة فلم يبلغ سوى أحد وعشرين ألف فرانسه لاغير ففتشوا جميع بيته ونهبوا أرضه فلم يعثروا فيه على شئ وكان قد نقل نساءه وولده إلى مكان آخر وضيقوا على بقية

المشايع فى تحصيل المفروض فهرب البعض فنهبوا داره واسترحم البعض فخففوا عنه وأضافوا ما خففوه على الغرامة العامة وانبث الأعوان يطالبون الناس ويقبضون على من لم يدفع ماعليه فاشتد بالناس هذا البلاء وعم الخوف والذل الحقيق والعظيم وذهب الدرهم والدينار وعز وجدانها فصاروا يأخذون المصوغات والأمتعة بأبخس الأثمان حتى نفدت أيضا فأخذوا الدواب وخرج الناس من المدينة وأجلوا عنها إلى القرى والأرياف فرارا فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار.

(مطلب)

(مقتل الجنرال كليبر قائد الجيوش)

(الفرنساوية وماجرى بعد قتله)

لما خرج نصوح باشا من مصر بعد عقد الصلح مع الأمير كليبر وانجلى عن البلاد بمن كان معه من العساكر السلطانية والأمراء والصناجق المصريين ولحقوا جميعا بيوسف باشا صدر الدولة كبر هذا الأمر عليهم واستعظموه فجعلوا ينظرون فى أمر الخلاص من شر الأمير كليبر ويتدبرون فى أمر قتله فأرسل أغاة الانكشارية إلى حلب يطلب رجلا قادرا مقداما يجسر على قتل كليبر ومناه بالعطايا الجزيلة والمناصب السامية والتحف الجليلة فحضر إليهم رجل اسمه سليمان الحلبي لم يبلغ من العمر سوى أربع وعشرين سنة فقربه الأغا ومناه بالعطايا إن هو قتل كليبر فأقسم أنه يقتله وأخذ لذلك خنجرا وسار إلى القاهرة ونزل بالجامع الأزهر برواق الشوام عند جماعة من مجاورى الشوام له بهم سابق المعرفة ولبث ثلاثين يوما متتبع خطوات كليبر أينما سار ثم كاشف ثلاث من المجاورين بما عزم عليه من قتل كليبر أحدهم اسمه السيد محمد المغربى والثانى اسمه السيد أحمد الوالى والثالث الشيخ عبد الله المغربى وكاشف آخر غيرهم أيضا اسمه السيد عبد القادر الغزى قبل فمنعوه من ذلك ونهوه فلم يتنه فلما كان سادس المحرم افتتاح سنة خمس عشرة ومائتين وألف عبر الحلبي النيل إلى الجزيرة واجتمع بنفر من بحارة زورق كليبر فسألهم عن كليبر وعن محل وجوده وإقامته وغير ذلك وأراهم أنه رجل غريب يريد الاجتماع به لأمر يهم كليبر فأعلموا بأن عادته أن يتجول فى بستان داره فى كل يوم حصّة مقررة فتركهم ورجع إلى مقره بالأزهر وبات ليلته تلك وأصبح يوم سابع المحرم قاصدا الفتك بكليبر وأعلم السيد محمد الغزى ومن معه بأنه سيقتله فى ذلك اليوم وتأبط

خنجره وخرج من الجامع وسار إلى بيت كليبر فعلم بخروجه إلى الروضة سار نحوها فصادفه عائدا إلى داره بالأزبكية فتبعه حتى وصل إلى الدار فدخل كليبر ولبت الحلبي يراقب الفرص حتى علم بتزول كليبر إلى بستانه على عادته في كل يوم فتمكن من الدخول إلى البستان من غير أن يشعر به أحد من الحراس فوجد كليبر يتمشى ومعه المسيو بروتين كبير مهندس الجيش فسار الحلبي نحوهما فوقف كليبر وأشار إليه بيده أن ارجع فلم يرجع فقال له بالعربية ما فيش وكررها فلم يرجع وأوهم أن له حاجة عند الجنرال فلما اقترب منه مدّ يده اليسار كأنه يريد تقبيل يده فمد إليه الجنرال يده فقبض عليها وضربه بخنجره أربع ضربات متوالية فمزق بطنه وظهرت أمعاؤه وسقط إلى الأرض صارخا فصاح كبير المهندسين على الحرس فأسرع الحلبي نحوه وعاجله بضربة فضربه كبير المهندسين عدة ضربات بعصا كانت في يده فهرب الحلبي واختفى في مكان خرب بقرب سقاية هناك فسمع الحراس الصباح فدخلوا مسرعين فوجدوا الأمير كليبر مطروحا وبه بعض الرمي وكبير المهندسين ملقى بجانبه ولم يجدوا للقاتل أثر فاضطربوا وهاجوا وماجوا ونفخوا في البوق فاجتمع كثير منهم بين فرسان وركبان وذهب فريق إلى القلاع وصوبوا أفواه المدافع نحو المدينة يريدون تدميرها وهلاك جميع من فيها ويحث الفرنسيين عن القاتل فوجدوه متزويا في ناحية من البستان المجاور لبيت كليبر وقيل بل إن جارية سوداء كانت تنظر إلى ما وقع من شباك بمنزل سيدها المطل على بستان بيت كليبر وقد رأت القاتل عندما اختفى في ذلك المكان فصاحت على الجند الذين كانوا يفتشون عليه ودلتهم على مكانه فقبضوا عليه وأمسكوا معه خنجره ملوثا بالدم ووجدوا بجانب جثة كلاير قطعة قماش مصبوغة باللون الأخضر هي من لباس القاتل قيل ولو لم تدل تلك السوداء على مكان القاتل لتهدمت المدينة بأسرها وقتل جميع من فيها بحد السيف ولما قبضوا عليه سألوه في الحال عن اسمه وعمره وصنعتة وبلده ومحل إقامته فاتضح أنه حلبي واسمه سليمان ومهنته كاتب وقد جاء إلى مصر يريد الاستخدام بطرف أحد التجار وهو يأوى بالجامع الأزهر وأنكر قتل الأمير كلاير ودخوله إلى البستان فشدوا عليه وضربوه فاعترف بارتكابه جناية القتل ويأن الذي ساقه إلى ذلك أغاة الإنكشارية حيث أطمعه في العطايا الجزيلة والمناصب العالية إن هو فعل ذلك فاستحضره كبار المشايخ وأخبروهم بخبر هذا الحادث وعوقبهم عندهم إلى نصف الليل وألزمهم بإحضار الأربعة المشايخ الذين يعلمون بعزم القاتل على فعل القتل

فأحضروا ثلاثة وغاب عنهم رابعهم ونقلوا جثة الأمير كليبر فكان بها أربعة جروح أهمها في الجنب الأيمن وكانت جثة المسيو بروتاين كبير المهندسين مطعونة ست طعنات أهمها بين ضلوع الجنب الأيسر ثم عقدوا مجلساً لمحاكمة القاتل بعد تحقيق وتدقيق أضربنا عن إيرادهما صفحاً فحكم عليه بقطع يده اليمنى ثم رفعه على خزوق بالتل المعروف بتل العقارب ويبقى كذلك حتى تأكل الطيور لحمه وأن ينفذ عليه هذا الحكم بعد دفن جثة كليبر بحيث يراه جميع من يمشى في جنازة كليبر وحكم كذلك بقتل السيد عبد القادر الغزى وأخذ جميع ما يمتلكه لخزينة الجيش ورفع رأسه على بيته كى يرمى للناظرين وبجانبه ورقة الحكم وحكموا على محمد الغزى وعبد الله الغزى وأحمد الوالى بقطع رؤوسهم ورفعها على خشب وحرق جثثهم بالنار على تل العقارب بمراى من سليمان الحلبي، ولما فرغوا من تحقيق مقتل الجنرال كليبر والحكم على قاتله وشركائه أخذوا يشتغلون بأمر دفن كليبر وكان ذلك بعد موته بثلاثة أيام وأقاموا بدله الجنرال جاك منو ونادوا ليلة الأربعاء خامس عشر المحرم بتنظيف الطرق والشوارع وأصبحوا فاجتمع عسكرهم وأكابرهم وخرجوا بجنازة كليبر ركبانا ومشاة وقد وضعوا جثته فى تابوت من رصاص ووضعوا التابوت على عربة يجرها أربعة أفراس وعلى التابوت قبعة الأمير وسيفه والخنجر الذى قتل به وهو ملوث بدمه ورفعوا على العربة أربعة أعلام والموسيقى تصدح بأصوات الحزن والبنادق منكسة إلى أسفل فلما خرج النعش من بيته أطلقوا له عدة مدافع وبنادق وساروا من بيت الأزيكية على باب الخرق إلى درب الحماميز إلى جهة النصرية فلما وصلوا إلى تل العقارب حيث القلعة التى أنشأوها هناك أطلقوا عدة مدافع وكانوا قد أحضروا سليمان الحلبي وشركاءه فى الجناية وأوقفوهم عند القلعة تحرسهم الجند ليشاهدوا مشهد قتلهم ثم ساروا بالجثة إلى أن وصلوا باب قصر العيني فحملوا التابوت ووضعوه على رهوة صغيرة داخل تقفيصة كانوا أعدوها لذلك وعليها كساء أبيض ووقف عند بابها نفر من الجند بالبنادق ملازمين ليلاً ونهاراً ثم عاد الجمع فأوقف عند قلعة تل العقارب ونفذ الحكم على سليمان الحلبي وأصحابه على الوجه المتقدم فكان المنظر مريعاً فظيعاً للغاية وعندما دنا الجلاذ من سليمان ليقد يده اضطرب للغاية وجعل يلتفت يمنة ويسرة كأنه يطلب النجاة فلما رفعوه على الخشبة صاح واستغاث وجعل يكرر كلمات لا معنى لها ثم انصرف الناس وبقي جماعة من الجند حول الخازوق ولما كان ثانى يوم سار القائمقام والأغا إلى الجامع

الأزهر وفتشوا جهاته وأروقه وزواياه يحضرة المشايخ ثم خرجا بمن معهما من الجنـد ثم عاد الجنرال ومعه القائـمقام والأغا بعد أيام وطافوا به ودققوا فى تفتيشه وأمر الجنرال فنبشوا أرضه لاستخراج ماهو مدفون فيها من الأسلحة والودائع فأخذ المجاورون عند ذلك فى نقل أمتعتهم منه وكتبهم وإخلاء الأروقة وأحصى الأغا المجاورين وكتب أسمائهم ورسم بأن لا يبيت عندهم غريب ولا يؤوا إليهم أحداً مطلقا وأخرجوا منه المجاورين من طوائف الترك فتقدم الشيخ الشرقاوى ومن معه إلى الجنرال جاك فى قفل أبواب الجامع منعاً للرية ودفعاً للظنون فأذن بذلك فقفلت ثم جمعوا أرباب الزجاجات وألزموهم بجمع ما عندهم من الأسلحة فجمعوها فكانت شيئاً كثيراً جداً وجعلوا من هذا الحين يؤخذون العامة بأقل سبب ويضيقون ويهددون ويبالغون فى النكاية تشفياً وانتقاماً فأخذ بعض الناس يهاجرون إلى القرى والأرياف ومالوا إلى الجلاء عن المدينة تخلصاً مما يخشون فأمر عند ذلك الجنرال منو فطاف الأغا ينادى بعدم جلاء الناس ورجوع جميع من سافروا بعد خمسة عشر يوماً وإلا نهبت بيوتهم من غير معاودة فرجعوا على أعقابهم صاغرين فضربوا عليهم غرامة أخرى قدرها أربعة آلاف ألف (لعلها فرنكات) فقررروا منها على العقار والدور مائتى ألف فرانسة على الملتزمين مائة وستين ألف وعلى التجار مائتى ألف وعلى أرباب الحرف المستورين ستين ألفاً وقسموا المدينة إلى ثمانية أخطاط وجعلوا على كل خطة منها خمسة وعشرين ألف ريال ووكلوا مشايخ الحارات بقبض ذلك مع الأمير الساكن فى تلك الخطة فضاق خناق الناس واشتد بهم الكرب وعجزوا عن السداد فتابعوا نهب الدور بأدنى شبهة واحتجب الجنرال منو عن الناس وامتنع عن الاجتماع بالمسلمين وكذلك عظماء القواد واستوحشوا وزادوا فى تحصين القلاع وجددوا منها عدة كثيرة وبنوا بها المخازن والمساكن وصهاريج الماء فى جميع أنحاء القطر حتى فى الصعيد وهدموا كثيراً من أخطاط الحسينية وخارج باب النصر وباب الفتوح من الحارات والدور وغيرها وزادوا فى التكنيل بالأهالى وفى تذليلهم جزاء ما فعلوه .

وبينما هم على هذا الحال من التحذر والتحجب إذ قدم على أبى قير والإسكندرية عمارة عظيمة من السفن الإنجليزية وجعلت تغدو وتروح أياما وكان بها أيضا جماعة من العساكر العثمانية فلما علم الفرنسيين بخبرها خرج فريق منهم يريد البحيرة والناس لا تعلم ما هناك واستحضر الوالى والمحتسب مشايخ الحارات

والأخطا وشددا فى التنبيه عليهم بمراقبة السوق وملاحظة أحوال العامة والتأكد عليهم بالخلود إلى السكينة وعدم التظاهر بمظاهر الدين الموجبة لتوغير الصدور وظهور كامن الضغائن وبإلغا فى النصيحة للغاية وأعلماهم بأنهم هم المؤاخذون بذنوب العامة المسؤولون عنها، وبينما كانت العمارة الإنجليزية تغدو وتروح فى عرض البحر بين أبى قير والإسكندرية وتمنع الوارد عنهما كانت العساكر العثمانية تنحدر من الشام قاصدة ديار مصر ومعهم يوسف باشا صدر الدولة ومازالوا يجدون السير حتى نزلوا على العريش وعسكروا بها أياما فسار للقائهم طائفة من الفرنسيين ومعهم آلات الحرب الكثيرة ونزلوا بالصالحية وأقاموا بها أياما وخرج كذلك الجنرال منو فى نفر من أركان حربه وطائفة من الجند إلى البحيرة فلم يستقر بها حتى جاءه الخبر بنزول طائفة عظيمة من عسكر سفن الحرب الإنجليزية إلى أرض أبى قير وقد كان لا يظن ذلك فسار بمن معه من الجنود من البحيرة إلى انبابة وساروا منها إلى مدينة الإسكندرية مسرعين ولحققت بهم طائفة أخرى ممن هم بالقاهرة ومصر وبرج الخفاء وصارت الحرب أدنى من قاب قوسين وتحقق زحف بعض مقدمات الجيوش السلطانية إلى مقرية من العريش ووردت الأخبار بذلك إلى الجنرال فوريه نائب الغيبة فجمع إليه المشايخ وأرباب الديوان وأعلمهم بخبر وصول السفن الإنجليزية إلى أبى قير والإسكندرية وزحف يوسف باشا الصدر الأعظم بعساكره إلى العريش ووجوب أخذ بعض المشايخ رهينة مادامت الحرب قائمة بينهم وبين العدو فلم يروا بدا من قبول ذلك بالطاعة ووقع الاختيار على أخذ الشيخ الشرقاوى والشيخ المهدي والشيخ الصاوى والشيخ الفيومى فأصعدوهم إلى قلعة الجبل فى الساعة الرابعة من الليل وأنزلوهم بجامع سارية ونقلوا إليهم أيضا الشيخ السادات وأمروا من بقى من أرباب الديوان وهم أربعة مشايخ بأن يلازموا شيخ البلد ويداوموا على حض الرعية بالخلود إلى السكون وملازمة الطاعة واستحضروا كثيرا من الأعيان وأصحاب المناصب القديمة على عهد المماليك وأصعدوهم إلى قلعة الجبل رهائن وأكثروا من نقل الذخيرة والأمتعة والصناديق والفرش والأسلحة إلى قلعة الجبل ليلا ونهارا.

وكان الجنرال منو لما تولى الرئاسة لم يحسن التدبير ولم يفلح فى سياسته لعدم خبرته بالتدابير العسكرية وتجرده عن الهيئة الشخصية فأبغضه كبار الفرنسيين وقواد الجنود ومقتوه وكان منو قد أسلم ودعا نفسه عبد الله منو وتزوج إحدى بنات المسلمين وولدت له ولدا فسماه سليمان وسكن بخطة سيدنا الحسين وجعل يخالط

العامة والسوق بتلك الخطة ليستميلهم إلى محبته وكان ديوان القاهرة إلى ذلك الحين مؤلفاً من المسلمين والنصارى كما رتبته بونابارته وكليبر من بعده فأخرج منهم النصارى وسلم الأحكام لمن بقى من المسلمين ومال إلى جانبهم وبالغ فى استرضائهم وأخذ جباية الأموال من يد الأقباط وسلمها إلى المسلمين وقد كانت بيد القبط من عهد عمرو بن العاص إلى ذلك الحين ثم خلط وخط وقلب نظام الهيئة الحاكمة وأفسد منها ما أصلحه الأمير كليبر وعمل غير ذلك أيضاً.

قال بعض أصحاب التاريخ وقد كان إسلام منو هذا خدعة من مكاييد الفرنسيين وتقريرهم بالمسلمين، قلت وقد اطلعت على صورة عقد زواج منو المذكور بمجلة الموسوعات منقولة بالنور الشمسى من سجل محكمة رشيد الشرعية فأثرت نقله هنا تيمناً للفائدة التاريخية وهى، بمحضر كل من مولانا العلامة السيد أحمد الخضرى المفتى الشافعى ومولانا الشيخ محمد صديق النائب والمفتى الحنبلى ومولانا السيد محمد غرا النائب والمفتى المالكى والسيد أحمد بدوى نقيب الأشراف حالا والأمير محمد بدوى جوريجى سردار مستحفظان وأحمد أبو جاویش مستحفظان والحاج أحمد جاویش العسال والحاج محمود اللومى المغربى وإبراهيم الجمال الرزاز والحاج محمد ميتو وعبد الله بريره والحاج بدوى الشناوى وإوذن إسماعيل السلانكلى وعلى جاویش كتخدا اليك دام كمالهم.

بعد أن أقر واعترف مينو باشا صارى عسكر القطر المصرى حالا بصريح لفظه وفصيح نطقه بكلمتى الشهادتين وهما، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله عارفاً معتقداً معناها ومصداقاً لمضمونها تاركاً لدين النصرانية والأديان الرديئة على الترتيب والولاء وإعادة التشهد واستيفاء الشروط المعتمدة فيهما شرعاً طائعا مختاراً من غير إكراه ولا إجبار بمقتضى ذلك صار له ما للمسلمين وعليه ما عليهم وظهر منه الرغبة والحب للمسلمين والميل إليهم وسمى نفسه عبد الله باشا وأشهد على نفسه الجماعة المذكورين بجميع ذلك إسهاداً شرعياً ثم بعد ذلك رغب عبد الله باشا المذكور فى تزوجه بامرأة مسلمة فخطبها خطبة شرعية وأجيب لذلك بعد إبرازه لفتيا شرعية لفظ سؤالها.

ما قولكم دام فضلكم فى رجل أحب الإسلام وأمله ورغب فيهما تاركاً لدين النصرانية ناطقاً بكلمتى الشهادتين مصداقاً على الوجه الأكمل ثم أراد أن يتزوج امرأة مسلمة على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم فهل يجوز له حيثئذ التزوج بها

والعقد عليها بشروطه الشرعية أفيدوا الجواب، وبأدناه، الحمد لله حيث كان الحال ما شرح فى السؤال فيجوز للرجل المسلم المذكور خطبة المرأة المسلمة والعقد عليها بشروطه الشرعية والله أعلم.

كتبه الفقير أحمد الخضرى الشافعى لطف الله به وبأدناه، الحمد لله حيث أقر الرجل المذكور بالشهادتين بشروطهما الشرعية فيجوز له أن يعقد على المرأة المسلمة عقدا شرعيا مستوفيا لشرائطه الشرعية والله أعلم، كتب الفقير محمد صديق الحبلى عفى عنه وبأدناه، الحمد لله حيث رغب الرجل المذكور فى الإسلام ونطق بكلمتى التوحيد جاز له أن يتزوج المرأة المسلمة وأن يعقد عليها العقد الشرعى بشروطه الشرعية والله أعلم، كتب الفقير محمد غرا المالكى غفر له الله وعفا عنه.

فبمحضر كل من ذكروا أعلاه تزوج عبد الله باشا المذكور بمخطوبته زبيدة المرأة بنت محمد البواب التى كانت زوجا لسليم أغا نعمة الله. وطلقها. وانقضت عدتها منه شرعا على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم وصدائق جملة ألفا ريال اثنان معاملة ومائة دينار ذهباً محبوباً فالحال لها من ذلك المائة دينار المذكورة أقبضها لوكيلها الحاج حسين ابن السيد محمد الموقت فقبض منه ذلك عدداً بالمجلس بمعاينة من ذكر أعلاه وعليه الخروج من عهدة ذلك لها شرعا والباقى الألفا ريال الاثنان يحلان لها عليه بموت أو فراق زوجها له ذلك، وعقد نكاحها عليه وكيلها الحاج حسين الموقت المرقوم بإذنها له فى ذلك بشهادة كل من أخيها لأمرها السيد على الحمamy بن حسن البواب والسيد أحمد وشقيقه السيد إبراهيم المكلف كل منهما ابنى السيد سليمان النقرزان تزوجا شرعياً قبله للزوج المرقوم وكيله الحاج أحمد شهاب حسبما وكله صريحاً بالمجلس بشهادة شهوده المذكورين وعلى عبد الله باشا الزوج المذكور القيام لزواجه المذكورة فى كل سنة تمضى من تاريخه أدناه بعمل كسوة أقمشة شتاء وصيفا لاثقين بحالهما وثبت ذلك لدى مولانا أفندى بعد أن ثبت لديه معرفة زبيدة المذكورة المعرفة الشرعية التى لا جهالة معها شرعا بشهادة كل من شهود توكيلها المذكورين ثبوتاً شرعياً وحكم بموجبه حكماً شرعياً فى الخامس والعشرين من رمضان سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف انتهى بنصه.

وبعد أن تم عقد الزوجية بين الجنرال منو المذكور وزبيدة بنت محمد البواب على الوجه المتقدم حصل التعاقد بينهما أيضاً على شروط وعهود يعيشان على مقتضاها معا وقد تسجلت بالطريقة الشرعية بسجل محكمة رشيد بعد تسجيل عقد الزوجية ونصه، بحضور كل من مولانا الشيخ أحمد الخضرى المفتى الشافعى ومولانا

الشيخ محمد صديق النائب والمفتى الحنبلى ومولانا السيد محمد غرا النائب والمفتى المالكى والسيد أحمد بدوى نقيب الأشراف والأمير محمد بدوى جوريجى سردار مستحفظان وأحمد أبو جاويش مستحفظان والحاج أحمد جاويش العسال والحاج محمد اللومى المغربى وإبراهيم الجمال الرزاز والحاج محمد ميتو وعبد الله بريبره والحاج محمد الشناوى وأوزن إسماعيل السلانكلى وعلى جاويش كتخدا اليك ولوى جوسيف ويكتور جوليان صارى عسكر حاكم ولاية الثغر ولوى جوست دروى رئيس طائفة عسكرية وكتخدا صارى عسكر الآتى ذكره فيه وجان فرنسواه لوى لويكه مهندس وميقاتى الجيش الفرنساوى ولويزى وانولى باش حكيم الفورنتينه دام كمالهم.

صار التوافق والتراضى بين الحاج حسين ابن السيد محمد الميقاتى الوكيل الشرعى عن زبيدة المرأة بنت السيد محمد البواب الثابت معرفته وتوكيله عنها فيما يذكر فيه بشهادة كل من أخيها لامها السيد على الحمامى بن حسن البواب والسيد أحمد وشقيقه السيد إبراهيم ابنى السيد سليمان النقرزان الثبوت الشرعى وبين الحاج أحمد شهاب الحاضر معه بالمجلس القائم فى ذلك بوكالته الشرعية عن عبد الله باشا منو صارى عسكر القطر المصرى حالا الثابتة صريحا بالمجلس ويتصديقه على ذلك التصديق الشرعى وهو زوج زبيدة الموكلة بموجب كتاب الزوجية المسطر بمحكمة الثغر المؤرخ بخامس عشر شهر تاريخه أدناه على شروط تكون وتوجد بين عيد الله باشا منو وبين زوجته زبيدة بإقرار الوكيلين المذكورين.

الشرط الأول: أن زبيدة الزوجة أقامت وأذنت زوجها المذكور وكلا عنها فى سائر ما تملكه يدها الآن وفيما يوجد لها من المال يتصرف لها فى ذلك بحسن نظره السديد.

الثانى: أن عبد الله باشا منو الزوج المذكور أقر بأن كامل ما هو تحت يدها من متاع ومصاغ وحلى فهو ملك لها بمفردها.

الثالث: عبد الله باشا منو الزوج المرقوم أعطى لوكيله الحاج أحمد شهاب المذكور مائة محبوب كل واحدة منها بمائة وثمانين نصفاً فضة فى نظير صداق زوجته المذكورة وأن الحاج أحمد شهاب سلم جميع ذلك ليد وكيلها الحاج حسين المذكور فسلم له ذلك عدداً بالمجلس وذلك على حسب عادة عقود المسلمين،

الرابع: أن الزوج المذكور شرط على نفسه أنه إن حصل بيته وبين زوجته فراق

يدفع لها ألفى ريال اثنين معاملة فى نظير فراقه لها وكل ما كان تحت يدها وقت ذلك يكون جميعه لها حسب عادة دفع مؤخر صداق المسلمين.

الخامس: أن زبيدة الزوجة المذكورة إن كانت تطلب طلاقها من زوجها المذكور بحسب شرع المسلمين لم يكن لها من الألفين ريال المذكورة ولا نصف فضة ماعدا ما تحت يدها من مصاغ وغيره فهو لها.

السادس: زبيدة لم تزل وارثة فى كل ما كانت ترثه شرعا.

السابع: أن زبيدة أقرت بنفسها أنه إذا مات زوجها المذكور وهى فى عصمته تأخذ من ماله الألفين ريال المذكورة وليس لها موارثة ولا طلب فى تركته وذلك فى نظير أرثها الشرعى حسب رضاها بذلك .

الثامن: أنه إن مات الزوج المذكور وخلف أولادا من زوجته المذكورة وهم قصر يقام عليهم رجلا ناطران ووصيان واحد فرنساوى والثانى ابن عرب يتصرفان فى أموالهم بحسب المصلحة فى طريقة الفرنساوية وطريقة المسلمين.

التاسع: أن الزوجة المذكورة إن ماتت وخلفت أولادا من زوجها المذكور فى حياته يكون أبوهم هو الوكيل الشرعى على أولاده وعلى مالهم.

العاشر: الناظر الوصى الفرنساوى المذكور فى الشرط الثامن يقام من طرف حكام الفرنساوية الموجودين فى بر مصر وقت ذاك والناظر الوصى الثانى يقام بحسب عادة المسلمين وإن حصل تداع بسبب اختلاف تقام الدعوى على يد الحاكم الشرعى إن كان ببر مصر أو ببر الفرنساوية .

الحادى عشر: عبد الله باشا منو وزوجته إن ماتا جميعا وخلفا أولادا تكون أولادهما تحت حماية جمهور الفرنساوية والزوجين المذكورين يقصد أفضل الحكام الخمسة التى ببلاد فرنسا يكونوا نظراء على أولادهما وأن الزوج والزوجة أقرا واعترفا برضاهما على هذه الشروط المذكورة على يد وكيلهما الإقرار والاعتراف الشرعيين الصادرين منهما بالمجلس بحضرة من ذكر أعلاه وأنهما التزما بهذه الشروط يفعلاها وقت الاحتياج إليها غير إكراه ولا إجبار التزاما مرضيا وثبت ذلك لدى مولانا أفندى ثبوتا شرعيا وحكم بموجبه فى سابع عشرى رمضان سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف، انتهى بنصه .

وبقيت زبيدة فى عصمة الجنرال منو ولم تفارق رشيد مسقط رأسها وسكنها حتى أخذت رشيد من الفرنسيين وانجلوا عنها فسارت منها بالبحر فى المحرم افتتاح سنة

ست عشرة ومائتين وألف مع أخيها السيد على الرشيدى أحد أعضاء الديوان بغير رشيد إلى الرحمانية ولبث أمامها أياما حتى نزل على الرحمانية القادمون من العساكر السلطانية والعساكر الإنجليزية واحتلوا قلعتها فصار السيد على باخته ريبة إلى مصر ونزل بها ببيت الألفى بالأزبكية أياما قلائل صعد بها إلى قلعة الجبل فأقامت بها وورد كتاب الجنرال منو على أعضاء الديوان بالقاهرة يوصيهم خيرا بها ويولده منها سليمان مراد.

قال القائمقام توماس ولسن الإنجليزي فى كتابه المسمى البعثة الإنجليزية بمصر ما تعريبه، ولما كان سابع عشر يونيه سنة إحدى وثمانيائة وألف ميلادية سلم الفرنسيين قلعة القاهرة بعد أن وقعوا على شروط الجلاء عن ديار مصر وخرج من بقى منهم وخرجت امرأة الجنرال منو تريد اللحاق بزوجها فعارض جماعة الترك فى ذلك وشددوا فى منعها وبالفغا فى التشديد فقام فى وجههم القائد بيار وقال لابد من ذهابها وأنا الكفيل بها والضامن لراحتها فخرجت مع من خرجوا أه.

وكان تزوج الفرنسيين على اختلاف درجاتهم بالمسلمات قد فشا وعم سائر المدن والقرى وكان حكام الأخطاط من الفرنسيين يلبسون نساءهم من المسلمات الأزياء الفرنجية ويمشون معهن فى الأخطاط للنظر فى أمور الرعية والأحكام فكن يأمرن وينهين كأنهن الحكام وكانت تمشى المرأة منهن بنفسها أو معها بعض أترباها وأضيافها على مثل زيتها وأمامها القواسة والخدم وبأيديهم العصى يفرجون لهن الناس كما يفعلون عند مرور كبار الحكام بالطرق والشوارع وكن كثيرا ما يأمرن أيضا وينهين فى الأحكام وكادت هذه المحنة تعم سائر البلاد لولا جلاء الفرنسيين عنها بقدم العساكر السلطانية والعساكر الإنجليزية.

وبينما كان الفرنسيين يعدون المعدات ويسIRON العساكر إلى أبى قير والإسكندرية ودمنهوور والرحمانية وغيرها لمنع تقدم الإنجليز ظهر الطاعون بالقاهرة ومصر واشتد شدة عظيمة فكثر الموات وتزايد يوما عن يوم وصار ينتقل من بلد إلى آخر حتى بلغ الصعيد الأعلى وقتك بأهله فتكا عظيما ومات به مراد بيك الكبير رابع الحجة سنة خمس عشرة ومائتين وألف وجاء الخبر بذلك إلى القاهرة فأقام الفرنسيين بدله عثمان بيك الجوخدار المعروف بالطنبيرجى وأقروه على إمرة الصعيد الأعلى ومات كثير من كان بقلعة الجبل من الأمراء والأعيان الرهائن وكان مع اشتداد الطاعون وكثرة الموات لم ينكف الفرنسيين عن تعبئة الجنود وإرسال المعدات وبذل الجهد فى منع جيوش الإنجليز من التمكن من الإسكندرية وكان السير رلف

أميركرومبى أمير العمارة الإنجليزية قد تمكن من إنزال جنوده خارج الإسكندرية وعملوا بعض المتاريس فكانت غاية فى المنعة والتحصين والتقت العساكر الفرنسية بالعساكر الإنجليزية وانتشبت الحرب بين الفريقين واقتتلا قتالا عنيفا اليوم بطوله فلم يظهر أحد منهما على الآخر ومع ضعف رأى الجنرال منو وقلة تدييره وجهله بفنون الحرب وترتيب الصفوف فقد كانت خسائر الفرنسيين فى ذلك اليوم خمسمائة رجل وخسائر الإنجليز مائة وألف ورجع الفرنسيين إلى الإسكندرية وأرسل الجنرال منو إلى بونابارته يطلب المدد وكان قد وصل حسين باشا بجيوشه فأنزلهم بأبى قير فضعفت نفوس الفرنسيين وكادت تفتر عزائمهم ولكنهم تابعوا إرسال النجيدات إلى الإسكندرية وأبى قير وصار يخرج فى كل يوم طائفة من كبارهم وقوادهم إلى الإسكندرية وخرج معهم المعلم إبراهيم الجوهري وآخرون من عظماء القبط. وكانهم رهينة وزادوا فى تحصين مصر والقاهرة وعملوا خندقا عظيما بباب البرقة. وأصبحوا بين عدوين ألدین وخصمين عنيدین جنود الأعداء المتحالفين والطاعون الذابح لرجالهم بغير سكين ولكنهم ثابروا على القتال بنقلوب ماثية وعادوا لقتال الإنجليز والإنجليز من خلف المتاريس وأشار ضباط الفرنسيين على الجنرال منو بمهاجمة الإنجليز من ناحية حصنهم الأيمن إذ كان هو أقوى حصونهم وأمنعها فتردد فى الأمر ولم يقدم عليه إلا فى ليل ذلك اليوم فلم يفلح ورجع بغير طائل فلما أصبحوا أعادوا الكرة على المتاريس وهجموا عليها ميمنة وميسرة وقيل بل هجموا عليها فجر اليوم الثانى وكانوا يودون أخذ الإنجليز على حين غفلة ولكن الإنجليز كانوا على أهبة واستعداد فانتشبت الحرب بين الفريقين وتتابعت أصوات المدافع وتراسل الرمي بالقنابل وزاد الجو ظلاما على ظلامه ثم تفهقر الفرنسيين مجانبة فأدرك السير رلف أميركرومبى أمير السفن الإنجليزية قصدهم من ذلك وخاف العاقبة فعزز ميمنة معسكره فعاد القتال بين الفريقين واشتد وحى الوطيس وزلزلت الأرض من أصوات المدافع وتساقط القنابل وجرح السير أميركرومبى بجراحة عظيمة ألقته على الأرض ومازالت الحرب على ساقها إلى ثانى يوم قبيل الظهر علا صوت بوق الفرنسيين بالكف عن القتال فعاد الفرنسيين إلى معسكرهم وقد قتل منهم فى هذه الواقعة زهاء الألفين وأقام الإنجليز وراء المتاريس وقد مات منهم زهاء المائتين وأربعين وجرح ألف ومائتين وخمسين ومات السير رلف أميركرومبى بجراحته بعد أيام قليلة فأقاموا الجنرال هتشنسون أميرا على سفن العمارة الإنجليزية وتقدم حسين باشا قبطان بمن معه من الجيوش السلطانية فأخذ منهم الجنرال هتشنسون أربعة آلاف مقاتل وضم

إليهم فرقتين من الجنود الإنجليزية وثمانية من المدافع وسيرهم مع الكولونيل سينسر لأخذ مدينة رشيد وكان برشيد حامية قليلة من الفرنسيين فأرسل الجنرال منو يستطلع عدد هؤلاء الجنود فأعلم بأنها أقل عددا مما هي فاستخف منو بها ولم ينجد حامية رشيد فسار إليها الكولونيل سينسر ودخلها بغير قتال ثم حول مدافعه على حصن هناك يسمى حصن جوليان وفيه نفر من الفرنسيين فضيق الإنجليز عليهم وشددوا حتى استسلموا فأمنوهم وأخرجوهم من الحصن ولما جاءت الأخبار بذلك إلى من كان بالرحمانية من الفرنسيين أرسلوا يطلبون المدد من الجنرال بيار قائد حامية القاهرة فاعتذر فكتبوا في ذلك منو فأمدهم بنفر قليل وملك الإنجليز والعثمانيون مدينة رشيد ودمياط والمنصورة وما جاورها من القرى والبلدان ففويت عندئذ عزائهم وتابعوا القتال ووالوا الزحف ومنعوا من وصول مراكب الفرنسيين إلى الشطوط المصرية وأطلقوا مياه البحر الملح على الأراضي المجاورة للإسكندرية فأغرقتها وصارت لجة عظيمة إلى يومنا هذا ومانعا من خروج عساكر الفرنسيين من الإسكندرية فلم يبق لهم من سبيل إلا من ناحية العجمى إلى البرية وقد وقف لهم فيه الإنجليز ثم رجعوا إلى الرحمانية فملكوها وأجلوا من كان بقلاعها من الفرنسيين وأخذوها وأخذوا جميع الحصون القريبة منها بجهة العطف وغيرها وذلك في الخامس والعشرين من الحجة سنة ست عشرة .

وبينما كان الإنجليز يقاتلون عساكر الجنرال منو وغيرهم من بقية العساكر الفرنسية كان يوسف باشا الصدر الأعظم يتنقل بجيوشه على طريق الفرنسيين من قرية إلى أخرى ومن بلد إلى آخر وهو لا يدفع إلا بالأمر الخفيف حتى احتل الشرقية وتربص بها أياما لجمع الكلف والمغارم فأبقى الناس وحضر الكثير منهم فارين إلى القاهرة وأخبروا بوصولهم فخرج الجنرال بيار لقاتلهم وخرج معه القائم مقام فقاتلهم العثمانيون فلم يثبت الفرنسيين أمامهم لقلتهم وكثرة عدد العثمانيين فقد كانوا ثلاثين ألفا وعساكر بيار لا تتجاوز الخمسة آلاف ورجع الفرنسيين مسرعين إلى القاهرة وكتبوا الأمر عن الناس ومنعت العساكر السلطانية دخول الماكولات إلى المدينة فعزيزت الأقوات واجتهد الفرنسيين في عمل الخنادق والتاريس خارج المدينة وجهة القرافة وألقوا الأحجار العظيمة والمراكب الكبيرة في مجرى النيل لتعطيل سفن العدو وكانت أوائل متاريسهم من باب الحديد ممتدة إلى قنطرة الليمون إلى قصر أفرنج أحمد إلى السبئية إلى مجرى النيل ووصلت طلائع الجيوش الإنجليزية والعثمانية إلى بلدة نادر

عند رأس ترعة الفرعونية على الجانب الغربى من النيل ووصلت طلائع جيوش حسين قبطان باشا من الجانب الشرقى إلى بنها العسل وطحلا بساحل النيل ونزل يوسف باشا صدر الدولة ناحية دجوه ومازال حتى وصل إلى شلقان ووصل العساكر الإنجليزية أيضا إلى الوراق وزحفوا حتى جاءوا ناحية انبابه وعسكروا بها وسار العساكر العثمانية على الجانب الشرقى من النيل ومراكب الذخيرة والمؤنة بين الفريقين حتى وصلوا إلى منية السيرج.

ولما كان يوم الأحد الثانى من صفر من السنة أى سنة ست عشرة أطلق الإنجليز المخيمون بأراضى انبابه مدافعهم تباعا كأنهم يدعون الفرنسيين إلى التزال فردت عليهم مدافع الفرنسيين من جميع القلاع والحصون وخرج فى ثانى يوم بعض الفرسان من الفرنسيين وقاتلوا فريق الإنجليز والعثمانيين وقد شغلوا ساحلى النيل شرقا وغربا وبينهما فى النيل الذخيرة والمؤنة وظلت الفرسان تناوشهم القتال اليوم بطولة ثم انفصلوا بعد حصّة من الليل ورجع كل إلى مأمنه واستمروا على هذا الحال إلى اليوم السادس من صفر فزحفت العساكر العثمانية حتى قربوا من قبة النصر وكان فى مقدمتهم إبراهيم بيك الكبير فتزل بزاوية الشيخ دمرdash وأشرف بعض الجنود العثمانية على الجزارين الذين كانوا يومئذ بالمذبح من حائط المذبح وكان به ثلاثة من العساكر الفرنساوية فوق وقع بينهم مضاربة أصيب فيها أحد الثلاثة الفرنسيين فى ساقه ومات جزار يهودى فلما أحس من بقلعة الظاهر من الفرنسيين بذلك أطلقوا المدافع على معسكر العثمانيين وكذلك فعل من بقلعة نجم الدين والتل فأضروا بمقدمات العثمانيين ضررا عظيما وقتلت نيران المدافع منهم خلقا كثيرا وظل إطلاق المدافع متراسلا إلى ما بعد عصر ذلك اليوم ثم انكف الفريقان وأصبحوا فاقتلوا بالبنادق والمدافع اليوم كله ولم يتعد أحد الفريقين موقفه وأغلق الفرنسيين فى ذلك اليوم باب النصر وباب العدوى وشددوا فى التجسس وأكثر العسس من التطوف ليلا والأغا والوالى نهارا فكان الناس من الخوف سكارى ومساهم بسكارى وزحف الإنجليز أيضا من انبابه إلى أن وصلوا ناحية الجيزة ومعهم كثير من الأمراء المصريين وانتشروا فى الجهات القبلية من الجيزة ومنعوا المعادى من العبور إلى البر الشرقى وانكف الفريقان عن القتال أياما تناجوا فيها على عقد شروط الصلح على قاعدة حافظة لحقوق الفريقين وكان الساعون فى ذلك حسين باشا القبطان وهتشنسون مقدم الجيوش الإنجليزية وأفرجوا عن كان أسيرا من العثمانيين بقلعة

الجليل وأرسلوهم إلى معسكر يوسف باشا وأفرجوا عن المشايخ وغيرهم الذين كانوا رهائن بالقلعة وأخذوا في نقل أمتعتهم وبيع خيولهم وأنزلوا عدة مدافع من قلعة الجبل وقلعة البرقية وسارعثمان بيك البرديسى إلى الصعيد ومعه مرسوم من صدر الدولة خطابا لأهالى الصعيد بالأمان ووجوب ملازمة السكون والخلود إلى الطاعة ونزل يوسف باشا إلى شبرا ومعه فريق من العساكر السلطانية فسار تجاههم من انبابه فريق من الإنجليز ونصبوا هناك جسرا وعبر الفريقان لزيارة بعضهما وتقررت قاعدة الصلح فى ثلاث عشرة مادة حاصل ما فيها سرعة الجلاء عن مصر والقاهرة وجميع القلاع والحصون التى بهما فى مدة أقلها خمسون يوما وقيام عساكر الفرنسيين برا بجميع متاعهم وأثقالهم وكراعهم إلى رشيد وعلى مقدم الإنجليز النفقة من مؤنة ودواب للحمل ومراكب للنقل وسفن لحمل العساكر بالبحر الأبيض وعلوفة الخيول ودواب الحمل التى تؤخذ من القاهرة بحيث لا تدخل تلك السفن من الموانى إلا ماكان منها للفرنسيين وإذا أراد أحد المصرين على اختلاف مذاهبهم الخروج مع الجيوش الفرنسية فلا مانع يمنعه مع المحافظة على ماله وعياله ولا جناح على من خدم الفرنسيين أو أشار على أحد بخدمتهم وأن المرضى والجرحى منهم يقون بمصر تحت العلاج بمعرفة أطباء الفرنسيين المعينين لذلك مع الاعتناء بأمرهم والقيام بجميع احتياجاتهم وأن يبعث بكبير من كبراء الإنجليز والعثمانيين إلى مدينة طولون لعرض عقد الصلح وعلى كل من الفرنسيين والعثمانيين تسليم من عنده من الأسرى وإبقاء رهائن من أكابر الفريقين حتى يتم الجلاء.

ودخل بعض أكابر الإنجليز إلى القاهرة ومعهم بعض أكابر الفرنسيين لمشاهدة ما فيها من الآثار والأبنية وكذلك دخل بعض أكابر العثمانيين فزاروا تربة الإمام الشافعى والمشهد الحسينى والشيخ عبد الوهاب الشجرانى فكان كبراء الفرنسيين ينتظرونهم على الأبواب مع التخشع والأدب وأصبحوا وقد انسحب من الفرنسيين السواد الأعظم ونودى فى الأسواق بأن ستطلق المدافع فى غد من جميع القلاع والحصون إجلالا لخروج جثة الأمير كليبر من أرض مصر فأطلقت فى ثانى يوم من جميع الأبراج والحصون تباعا وحملوا نعشه من قصر العبنى وساروا به فى كبكبة وأبهة عظيمة جدا وأخلوا قلعة الجبل فى ليلة الجمعة الحادى والعشرين من صفر من السنة أى سنة ست عشرة وكذلك بقية القلاع والحصون وأجلوا عنها تماما وذهبوا إلى الجيزة والروضة وقصر العبنى ولم يبق منهم أحد بالمدينة وبولاق ومصر القديمة

والأزبكية وتكاثر دخول العساكر السلطانية إلى القاهرة.

قال صاحب عجائب الآثار ففرح الناس كعادتهم بالقادمين وظنوا فيهم الخير وصاروا يستقبلونهم بالسلام ويباركون لقدومهم والنساء يلقلعن بالسستهن من الطيقان وفي الأسواق وقام للناس جلبة وصياح وتجمع الصغار والأطفال كعادتهم ورفعوا أصواتهم بقولهم نصر الله السلطان ونحو ذلك وهؤلاء الداخلون دخلوا من نقب الغريب المنقوب في السور وتسلقوا أيضا من ناحية العطوف والقرافة وأما باب النصر والعدوى فهما على حالهما مغلقان لم يأذنوا بفتحهما خوفا من تزاحم العسكر ودخولهم المدينة دفعة واحدة فيقع منهم القتل والضرر بالناس وباب الفتوح مسدود بالبناء فلما أضحى النهار حضر في قنول وفتح باب النصر والعدوى وأجلس بهما جماعة من الأنكشارية فدخل كثير من العساكر مشاة وركبانا أجناسا مختلفة ودخلت بلوكات الأنكشارية وطاقوا بالأسواق ووضعوا نشاناتهم وربكهم على القهاوى والخوانيت والحمامات فامتعض أهل الأسواق من ذلك وكثر الخبز واللحم والسمن والشيرج بالأسواق وتواجدت البضائع وانحطت الأسعار وكثرت الفاكهة مثل العنب والخوخ والبطيخ وتعاطى بيع غالبها الأتراك والأرنؤد فكانوا يتلقون من يجلبها من الفلاحين بالبر والبحر ويشترونها منهم بالأسعار الرخيصة ويبيعونها على أهل المدينة وبولاق بأعلى الأثمان ووصلت مراكب من جهة بحرى وفيها البضائع الرومية واليميش من البندق واللوز والجوز والزبيب والتين والزيتون الرومى قال فلما كان قبل صلاة الجمعة وإذا بجاويشية وأغوات وعساكر وتلا ذلك حضرة يوسف باشا الصدر فشق من وسط المدينة وتوجه إلى المسجد الحسينى فصلى فيه الجمعة وزار المشهد الحسينى ودعاه حضرة الشيخ السادات إلى داره المجاورة للمشهد فأجابه فدخل معه وجلس هنيهة ثم ذهب إلى الجامع الأزهر ففجرج عليه وطاف بمقصورتى وأروقته وجلس ساعة لطيفة وأنعم على الكناسين والخدمة بدارهم وكذلك خدمة المشهد الحسينى ثم ركب راجعا إلى وطاقه بناحية الحللى بشاطئ النيل وعملوا فى ذلك الوقت شكا وضربوا مدافع كثيرة من العرضى والقلعة ودخل قلقات الأنكشارية وجلسوا براءوس العطف والحارات وكل طائفة عندها يبرق ونادوا بالأمان والبيع والشراء وطلب أولئك القلقات من أهل الأخطاط المأكلى والمشارب والقهوات والزمومهم بذلك وانحاز الفرنساوية إلى قصر العينى والروضة والجيزة إلى حد قلعة الناصرية وفم الخليج وعليها بنديراتهم ووقف جرسهم عند حدهم يمنعون من يأوى

إلى جهتهم من العثمانية فلا يمر العثماني إلا إلى الجهة الموصلة إلى بولاق وأما إذا كان من أهل البلد فيمر حيث أراد وفي مدة إقامة المشار إليه بساحل الحلى ببولاق خرب عساكره ما قرب منهم من الأبنية والسواقي والمتريز الذى صنعه الفرنسيون من حد باب الحديد إلى البحر وأخذوا ما بذلك من الأفلاق الكثيرة المهتدمة والأخشاب المنجزة المرصوفة فوق المتريز وتحتة فى الخندق فخربوا ذلك جميعه فى هذه المدة القليلة وذلك لأجل وقود النار والمطابخ أهـ.

وتتابع دخول العساكر العثمانية إلى المدينة وانتشروا فى أنحاء مصر والقاهرة واحتل بعضهم القلاع والحصون والطوايب التى كان بها جنود الفرنسيين ورفعوا عليها أعلامهم ماخلا الحصون والقلاع التى انحازت إليها طوائف الفرنسيين وهى من قصر العينى إلى جهة النصرية كما تقدم القول وعاث فريق الانكشارية فى المدينة يزاحمون أرباب الحرف والصنائع فى أرزاقهم ووضعوا أسلحتهم على أبواب الخوانيت كافة إشعارا لأصحابها من الخلاقين والخطاطين والقهوجية بأنهم شركاؤهم فى كسبهم اليومى فامتعض السوقة وأصحاب الخوانيت وشكوا من ذلك فدخل أغاة الانكشارية ومن وسط المدينة وخلفه بعض الصناجق المصريين وأمر بأسلحة الانكشارية فرفعوها عن أبواب الخوانيت كافة إلا القهاوى فشكوا أصحابها فلم يلتفت إليهم ودخل أيضا فى ذلك اليوم كثير من الجند والعسكر المصرى ومعهم محمد باشا المعروف بأبى مرق وهو المترشح للولاية على مصر من جانب السلطنة وسكن بيت الهياتم بالقرب من مشهد الخنفى، واتفق فى يوم دخوله أن أحد العساكر السلطانية من الأرئود كان بالجمالية فمر به عرقسوسى فشرب منه قدحا ولم يعطه ثمنه فكلم العرقسوسى فى ذلك مقدم قلق الانكشارية المربطين بالجمالية فأحضر ذلك الجندى وأمره بدفع ثمن ما شربه فامتنع فنهره وأزاد ضربه فأخرج الجندى غدارته وأطلقها على مقدم القلق فقتله وهرب إلى حارة الجوانية ودخل إلى إحدى الدور وامتنع فيها وصار يطلق غدارته على كل من يقصده فقتل خمسة من الجند واتفق أن مر اثنان من الأرئود بتلك الحطة فقام عليهما نفر من الانكشارية وقتلوهما انتقاما ولما أعياهم أمر ذلك القاتل وتعذر عليهم ضبطه أحرقوا عليه الدار التى امتنع فيها فخرج هاربا من النار فقبضوا عليه وقتلوه شر قتلة واشتد الخوف بأهل تلك الحطة فترك أكثرهم دورهم بما فيها وخرجوا على وجوههم ولم تكد تسكن الخواطر بسكون هذا الحادث حتى وقع آخر على مقربة من الحطة المذكورة فاشتد خوف الناس وتبدل فرحهم بخروج الفرنسيين حزنا وأسفا.

مطلب

جلاء الجيوش الفرنسية عن مصر والقاهرة وسائر الديار المصرية

وخرج طوائف الفرنسيين فى يوم الأربعاء رابع ربيع الأول من السنة أى سنة ست عشرة ومائتين وألف هجرية وأخلوا قصر العيني والروضة والجيزة وانحدروا إلى الشمال من الوراق وارتحل معهم أمير السفن العثمانية وعدد من الإنجليز وجماعة كثيرة من الأرناؤد وعثمان بيك الأشقر ومراد بيك الصغير وأحمد بيك الكيلارجى وأحمد بيك حسن من الأمراء المصريين يريدون الإسكندرية لعرض الصلح أيضاً على الجنرال منو قائد الجيوش الفرنسية فلما وصلوا إلى الإسكندرية كلموه فى أمر الصلح وعرضوا عليه شروطه التى وقع الاتفاق عليها فلم يقبل بها وأبى إلا القتال فقاتلوه وحاصروا الإسكندرية وشددوا فى حصارها فكان العربان يدخلون إلى الفرنسيين بالمؤن وغيرها من طريق مجهول واشتد القتال بين الفريقين وتراسل رمى القنابل وكان الإنجليز والعثمانيون يهجمون فى كل يوم فلم ينالوا من الفرنسيين وطال الحرب وسئمت أنفس المقاتلين فخاف الإنجليز والعثمانيون سوء العاقبة فصمموا على الهجوم وهجموا على متاريس الفرنسيين هجمة رجل واحد فقتل العدد العديد من جيوش حسين باشا أمير السفن العثمانية وكذلك قتل من الإنجليز جماعة كثيرة وانجلت الواقعة عن جلاء الفرنسيين عن بعض متاريس ناحية العجمى فملكها الإنجليز وعساكر المسلمين وقتل من الفرنسيين عدد ليس بقليل وكذلك من الأمراء والصناجق المصريين ومازالوا على هذا الحال والحرب قائمة والقتال لا ينفك حتى جاءت إلى الجنرال منو رسل بونابارته بالإذعان إلى الصلح والجلاء عن الإسكندرية فأجلوا عنها بشروط غاية فى الفخر وعزة النفس ونزلوا على ظهور السفن التى أتى لهم بها أمير الدواير الإنجليزية وساروا إلى أوطانهم فى العشرة الأواخر من جمادى الأولى من السنة أى سنة ست عشرة ومائتين وألف هجرية فكانت مدة لبث الجنرال منو بمدينة الإسكندرية فى الحصار والقتال بعد خروج الفرنسيين جميعاً ونزولهم بأبى قير وقيامهم إلى أوطانهم شهرين وبضعة أيام لم يعتبر جماعة الكتاب هذه المدة فى مدة تصرفهم فى البلاد بل عدتها أيام حصر وقتال ليس إلا وقالوا إن مدة إقامتهم وتسلطهم لغاية جلائهم وخروجهم من القلاع هى ثلاث سنوات وأحد عشر يوماً حيث نزلوا على انبابة والجيزة وغلبوا طوائف المماليك فى يوم السبت تاسع صفر سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف هجرية وكان انتقالهم وخروجهم من القلاع وجلاؤهم عن المدينة وانخلاصهم عن التصرف والحكم ليلة

الجمعة الحادى والعشرين من صفر سنة ست عشر وماتين وألف هجرية فسبحان من بيده الملك يؤتية من يشاء من عباده.



(فصل)

(فى بقية مدة سلطنة السلطان سليم)

(وما فيها من الحوادث والأخبار)

لما تم جلاء الفرنسيس عن القاهرة ومصر دخل الوزير يوسف باشا إلى القاهرة يوم الخميس خامس ربيع الأول فى موكب حافل للغاية وكان دخوله من باب النصر ومر من وسط المدينة وأمامه الجند المختلف من أرنؤد وانكشارية وشامية والأمراء المصريين والمغاربة والقلبيونجية وظاهر باشا أمير العسكر الأرنؤد وإبراهيم باشا والى حلب ومحمد باشا أبو مرق والى مصر والكتبة ورئيس الكتاب وكتبخدا الدولة وغيرهم من الخدم والحشم والاتباع وقاضى القضاة والنواب والعلماء المصريين ومشايخ التكايا والدراويش وأمامه الملازمون بالبراقع والجاويشية والسعاة والجوخدارية وخلفه اثنان على يمينه ويساره يثرون دراهم الفضة على رءوس الناس بالطريق ثم النوبة التركية وبعض المدافع وعربات الذخيرة وكانت الحصون والقلاع جميعها تطلق المدافع تباعا ومازال حتى نزل بيت رشوان بيك بحارة عابدين، فلما استقر به المقام جعل يتصرف فى الأمور ورسم بأن لا تدفع الأموال والعشور للملتزمين إلا بمرسوم منه واهتم بترتيب ديوان الأعشار والمكوس وبالغ فى ذلك فانقبض الناس وأخذتهم الطيرة من فعالة ولم يلبث حتى طلب قرضه من التجار قدرها مائة كيس وعشرة أكياس فاعتذروا فلم يقبل فاجتمع أصاغرهم عند بيته وصاحوا واستغاثوا ونادوا أرحمنا يرحمك الله فرسم برفعها عنهم وتكليف أهل الميسرة منهم بها فدفعوها وهم صاغرون وشدد فى تحصيل العشور فبلغ ما تحصل منه فى بضعة أيام ستة عشر ألف كيس ولم يكن بأسرع من أن عمد العسكر على اختلاف أجناسهم إلى العسف والجور والاختلاط بالسوقة.

قال صاحب عجائب الآثار وكثر اشتغال طائفة العسكر بالبيع والشراء فى أصناف المأكولات وتسلطوا على الناس بطلب الكلف ورتبوا على السوق وأرباب

الخوانيت دراهم يأخذونها منهم فى كل يوم ويأخذون من المخازن الخبز بغير ثمن وكذلك يشربون القهوة من القهاوى ويحتكرون ما يريدون من الأصناف ويبيعونها بأعلى الأثمان ولا يسرى عليهم حكم المحتسب وكذلك تسلطوا على الناس بالإيذاء لأدنى سبب وتعرضوا للسكان فى منازلهم فيأتى منهم أناس ويدخلون الدار ويأمرون أهلها بالخروج منها ليسكنوها فإن لاطفهم الساكن وأعطاهم دراهم ذهبوا عنه وتركوه وإن عاند سبوه وضربوه ولو عظيما وإن شكا إلى كبيرهم قويل بالتبكيك ويقال له ألا تفسحون لإخوانكم المجاهدين الذين حاربوا عنكم وأنقذوكم من الكفار الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب ويأخذون أموالكم ويفجرون بنسائكم وينهبون بيوتكم وهم ضيوفكم أياما قليلة قال فما يسع المسكين إلا أن يكفلهم بما قدر عليه وإن أسعفته العناية وانصرفوا عنه بأى وجه فيأتى إليه خلافهم وإن سكنوا دارا أخربوها قال وأما القلقات والأنكشارية الذين تقيدوا بحارات النصارى فإنهم كلفوهم أضعاف ما كلفوا به المسلمين فكانوا يطلبون منهم بعد كلف المأكول واللوازم مصروف الجيب وأجرة الحمام وغير ذلك وتسلط عليهم المسلمون بالدعاوى والشكاوى على أيدى أولئك القلقات فكانوا يتخلصون منهم بما لزمهم بأدنى شبهة ولا يعطون المدعى إلا القليل من ذلك والمدعى يكتفى بما حصل له من التشفى والظفر بعدوه قال إذا تداعى شخص على شخص أو امرأة على زوجها ذهب معهم أتباع القلق إلى المحكمة إن كانت الدعوة شرعية فإذا تمت الدعوة وأخذ القاضى محصوله يأخذ مثله أتباع القلق على قدر تحمل الدعوة.

قال وعاد يوسف باشا فأطلق للملتزمين التصرف فى سنة خمس عشرة ليقضوا ما لهم وما عليهم من البواقي ومال الميرى والمضاف ويدفعوا جميع ذلك إلى الخزينة بأوراق مختومة من إبراهيم بيك وعثمان بيك والقصد من ذلك اطمئنانهم بالجباية والرجاء بالتصرف فى المستقبل ووعدهم بذلك سنة تاريخه بعد دفعهم الحلوان مع أن الفرنساوية لما استقر أمرهم بمصر ونظروا فى الأموال الميرية والخراج وجدوا ولاية الأمور يقبضون سنة معجلة ونظروا فى الدفاتر القديمة واطلعوا على العوائد السالفة ورأوا أن ذلك كان يقبض أثلاثا مع المراعاة فى رى الأراضى وعدمه فاختاروا الأصلاح فى أسباب العمارة وقالوا ليس من الإنصاف المطالبة بالخراج قبل الزراعة بسنة وأهملوا وتركوا سنة خمس عشرة فلم يطالبوا الملتزمين بالأموال الأميرية ولا الفلاحين بالخراج فتفلس الفلاحون وتراجعت أرواحهم مع عدم تكليفهم كثرة المغارم

والكلف وحق طرق المعينين ونحو ذلك ، انتهى .

وأخذ يوسف باشا الصدر الأعظم فى تدبير الأمور كما يشاء فقسم الوظائف العالية والرتب السامية على من كان يتوسم فيهم سمة الطاعة والإخلاص وخلع محمد باشا أبوم رق عامل الدولة على مصر وولى مكانه محمد خسروا باشا وهو كتحدا حسين باشا أمير السفن الذى كان حضر لقتال مراد بيك وإبراهيم بيك الكبير قبل قدوم الفرنسيين لمصر فكانت ولاية أبى مرق المذكور قصيرة جدا ولم يكن له فيها من الحكم سوى الاسم فقط وجعل يعمل الحيلة على الفتك بجميع الأمراء المصريين وقطع شأنتهم من مصر وعمل ديوانا وجمع إليه جميع أولئك الأمراء والصناجق والأعيان على اختلافهم وأوهم أنه إنما يريد المفاوضة معهم فى شئون البلاد ومصالح الرعية فلما تكاملوا أمر فقبضوا فى الحال على إبراهيم بيك الكبير وبقية الأمراء والصناجق وأصعدوهم إلى قلعة الجبل ووضعوهم بسجن هناك فانزعج من حضر بالديوان وتفرقوا وهم لا يصدقون بالنجاة وسير خلف محمد بيك الألفى بالصعيد طائفة من الجند ليقتلوه وكان قد عاث وعيث بالصعيد وأهلك الحرث والنسل وصادر الأغنياء والفقراء حتى المشايخ والعلماء وأخذ ما فى بيت المال والأوقاف وكل ما وصلت إليه يده وسير جماعة آخرين للقبض على سليم أبى دياب وكان مقيما بالمنيل فلما علم بالخبر طلب الفرار وترك متاعه وأثقاله ووصل إليه الجند فلم يجدوه فنهبوا القرية وأخذوا جميع ما كان له فيها وتبعوه فلحقوا به ناحية طرا فقاتلهم وقاتلوه ومات خلق كثير من الفريقين ثم هرب فى نفر قليل جدا إلى الصعيد من طريق الجبل وأقام طوائف الأرئود بالأخطاط وخارج المدينة يقبضون على من يصادفونه من المماليك والأجناد ونودى فى ذلك اليوم على الرعية بالأمان وملازمة السكون وأحاط العسكر بالأمراء المعتقلين واختفى من بقى منهم فنادوا بالتوعد لمن أخفاهم أو آواهم وكان لم يزل بالجيزة فريق من العساكر الإنجليزية مخيم بها فذهب إليهم سليم بيك أبو دياب واستغاث بمقدمهم هتشنسون فأغاثة وأمنه وكلم يوسف باشا فى أمره .

وبينما كان يوسف باشا يعمل على إبادة من بقى من المماليك والصناجق الذين بمصر والقاهرة وغيرهما من البلدان كان حسين باشا أمير السفن يدبر الحيلة أيضا للقبض على من كان عنده بأبى قير من أولئك القوم فأحسوا بذلك وأوجسوا منه خيفة فكانوا لا يذهبون إليه إذا دعاهم إلا وهم حاملون أسلحتهم ومعهم العدد

الكثير من الممالك والاتباع تخفرهم فكان ييش عند لقائهم ويظهر لهم الرفق والملاطفة ويستميلهم بزخرف القول إلى أن دعاهم يوماً إلى ظهر سفينة لمأدبة أعدها لهم فذهبوا إليه بسلاحهم ومواليكهم على عادتهم فقابلهم بالترحاب وبالغ في تعظيمهم فلما تكامل عددهم جاء إليه أحد أتباعه وأخبره بورود ساع من مصر ومعه مكاتب من الصدر الأعظم فقام ليرى ذلك فما هو إلا أن حضر إلى المجلس أحد مقدمي عسكر السفينة وأعملهم بأنه قد ورد مرسوم سلطانى فى تلك الساعة باستدعائهم إلى دار السلطنة ثم أمرهم بتزج سلاحهم عنهم فقام فى الحال محمد بيك المنفوخ وسل سيفه وضربه فقتله فما وسع بقية الأمراء إلا أنهم فعلوا كذلك فقام عليهم من بالسفينة من العسكر واشتبك القتال بين الفريقين فقتل أكثر الأمراء المصريين وقبضوا على من بقى منهم وأنزلوهم إلى بعض السفن إلا من فروا مجروحين وهم فى أسوأ حال وذهبوا إلى معسكر الإنجليز ملتجئين وكانوا لما أحسوا بعزم حسين باشا على اغتيالهم شكوا ذلك إلى مقدم الجيوش الإنجليزية ورغبوا إليه أن يذب عنهم ويقوم لنصرتهم فأمنهم ووعدهم وطيب خواطرهم فلما ذهب إليه من نجا منهم من القتل وأخبروه بما فعل حسين باشا غضب جدا وانحاز بعسكره إلى مدينة الإسكندرية وطردها من كانوا بها من العثمانيين وأغلقوا أبواب الأبراج وأحاط منهم طائفة كبيرة بالبنادق والمدافع بحسن باشا براً وبحراً وطلب الإنجليز بروزه بعسكره لحربهم فلم يرض وقال لم يكن قط بيننا ما يدعوا إلى ذلك فحضر إليه قائد الإنجليز وتكلم معه طويلاً وصمم على أخذ من بقى من الأمراء المعتقلين فأطلقهم فأخذهم قائد الإنجليز وأخذ جثث الأموات منهم ونقل مرضاهم إلى الإسكندرية ويات وأصبح فأخرج الأموات فى مشهد حافل وسارت أمامهم طوائف الإنجليز فى أبهة عظيمة وأرسل إلى قائد جيوش الجيزة يعلمه بما وقع ويطلب منه إلزام يوسف باشا بتسليم من عنده من الأمراء المعتقلين فطالب القائد يوسف باشا بمن عنده من الأمراء وألح فى الطلب فطاوول وراوغ واستعمل الخداع واستدعاه إليه وخلع عليه خلعة سمور عظيمة وشللنج من الجواهر يوضع على مقدمة الرأس ثم حمل المعتقلين كافة على تحرير كتاب إلى القائد المذكور يقولون فيه أنهم أتباع السلطان وتحت طاعته إن شاء أبقاهم فى إماراتهم وإن شاء قلدهم المناصب العالية فى ولايات مملكته السلطانية وإن شاء طلبهم يذهبون إليه ولا دخل للإنجليز فيما جرى عليهم من خير أو شر فأرسل القائد إلى يوسف باشا يقول لاعبرة بهذا الخطاب فإن القوم مسجونون

محجور عليهم فى جميع تصرفاتهم لا يعملون إلا ماشاء الوزير وأعوته فأرسلوهم إلينا لنخاطبهم ونعلم ما فى خواطرهم فلما كانت ليلة الإثنين تاسع رجب أحضر الصدر إبراهيم بيك ولاطفه وسأله وكلمه مع بقية الأمراء المعتقلين وأعلمه بأن سيرسله مع من هم معه إلى قائد الجيوش الإنجليزية بالجيزة فيقضوا يومهم هناك ويخبروا القائد بأنهم فى راحة وأنهم طائعون لسلطانهم وخاضعون لكلمته وأن الخطاب الذى بعثوا به هو عن طيب خاطر منهم ولا إكراه لهم على تحريره فأظهر إبراهيم بيك عدم الرغبة فى الذهاب وبالغ فى التمتع وقال كيف نتوجه إليهم وهم أعداء لنا ولديتنا وكيف نذهب إليهم على هذه الصورة فالح عليه الوزير وحالفه وحالف بقية الأمراء على سرعة العودة ومناهم بالأمانى الطويلة فلما كان صبح يوم الإثنين نزلوا جميعهم من قلعة الجبل وعبروا النيل إلى الجيزة فتبعهم مماليكهم وأتباعهم وأخصاؤهم وأقاموا بالجيزة ولم يعودوا إلى الوزير فلبث الوزير ينتظرهم خمسة أيام وأرسل إليهم يدعوهم إلى الرجوع حسب عهدهم فامتنعوا وجاهر إبراهيم بيك بالعداوة ورمى الوزير بسوء النية وخبث الطوية فلما لم يرجعوا أمر الوزير فأنعقد الديوان بيت الشيخ السادات واجتمع فيه جميع المشايخ والوجهاء وأصحاب المناصب العالية وتكلموا فيما جرى من إبراهيم بيك ومخالفته للعهد وإصراره على عدم الرجوع وكتبوا له خطاباً بذلك وضمنوه النصيحة ووجوب الطاعة فأجاب هو ومن معه بأنهم مطيعون وأنهم لم يجنحوا للبقاء عند الإنجليز إلا خوفاً مما يحل بهم كما حل بإخوانهم بالإسكندرية وهم الآن فى حمى أحب الدول للخليفة الأعظم وأقربهم لمودته ثم لبثوا بالجيزة أياماً وخرجوا بعد ذلك إلى جزيرة الذهب ونصبوا بها خيامهم أياماً أيضاً وأخذوا ما قدروا عليه من سلاح وكراع وركبوا ليلاً وترفعوا إلى الصعيد من جانب النيل الغربى وتخلف عنهم بعضهم فلما علم الصدر بخبر سيرهم إلى الصعيد اغتم غماً شديداً وأمر فتودى بالأمان على من بقى منهم أو تخلف عنهم إن هم أتوا إلى باب الوزير فلم يذهب إليه إلا بعض المماليك والأتباع الذين لا كسب لهم ولا عيش وانقطع خبرهم عن الناس فصرهم.

ولما كان يوم السبت ثالث شوال سنة ست عشرة ومائتين وألف خرجت خيام الصدر الأعظم وأمتعته إلى قبة النصر وقد جاءه الأمر بالرجوع إلى دار السلطنة بمن معه من العساكر والأجناد ونادوا بخروج جميع العساكر وجلائهم عن مصر والقاهرة وبقية المدن والقرى والأرياف فى مدة ثلاثة أيام آخرها يوم الإثنين فأخذوا فى الجلاء

بأحمالهم وأثقالهم ودوابهم وفى يوم الإثنين خامس شوال المذكور خرج يوسف باشا إلى قبة النصر وتتابع خروج الأتقال والعساكر وطوائف الجند فجعلوا عند خروجهم يعربدون ويخطفون أشياء الباعة فى الأسواق وكتب الوزير فى يوم خروجه أوراقا تتضمن كف الناس عن الشر والخلود إلى السكينة ورفع قصصهم إلى باب محمد باشا عامل السلطان على البلاد وأن يحافظوا على زهم وقوانينهم القديمة ويلتزموا على الصلوات بالجماعة فى المساجد ويوقدون القناديل ليلا على البيوت والمساجد والوكائل والخانات التى بالشوارع ولا يمر أحد من الجند والعسكر بعد الغروب وكذلك الأهالى إلا من كان معه فانوس أو سراج ويبيعون ويشترون بلا قيد ولا تقييد وأن لا يخفى أحد عنده عسكرا من العثمانيين وأن لا يبقى منهم بعد جلاء الوزير أحد بمصر والقاهرة ومن وجد منهم متخلفا بغير مرسوم فى يده عوقب بأشد العقاب وأن تبطل جميع القهاوى المحدثه ولا يبقى منها إلا ماكان قديم العهد ولا يبيت أحد من العساكر فى قهوة ولا يبيعون المسكرات وغير ذلك الأوامر والنواهي ثم ركب الصدر من قبة النصر فى يوم السبت عاشر شوال وقد سلم مقاليد الأمور إلى محمد باشا الوالى وسار إلى الخانكاه وسار معه جميع العساكر فوصلوا إلى بلبس وأقاموا بها أياما قلائل ثم ساروا منها إلى طريق الشام.

واستقر بمحمد باشا منصب الولاية فجعل يتصرف فى الأمور وبالع فى التدبير وضيق وشد وأرهب وأخذ بالشبهات وأكثر من العيون والأرصاء فتزاحم على بابه أهل السعاية وتقرب إليه أهل الوشاية فأكثر من القتل والصلب والتحريق وزاد فى المغارم والمكوس وأحدث الإحداثات والبدع فخافه الناس جدا وانكمش من كان يظنه فى بادئ الأمر شيئا هينا وقد تتبع الأعيان وأصحاب المظاهر بالمدن والبلدان فأفنى منهم خلقا وطلب الأمراء والمماليك بمصر والقاهرة فاخفوا وتفرقوا فى الجهات وسير طائفة كبيرة من العسكر خلف إبراهيم بيك الكبير ومن معه للقبض عليهم وأكثر من التخفى والتجسس والتطواف بغير زيه لكشف العورات وأقام على الإسكندرية حاكما اسمه خورشيد بيك وقيده بأخذ قلاعها وحصونها من جماعة الإنجليز النازلين بها فسار إليهم وكلم مقدم الإنجليز فى ذلك فجعل يماطل ويكثر من التسويف والتعليل أياما كثيرة حتى جاءهم الأمر من كبير السياسة الإنجليزية بلندن عاصمة بلادهم بالجلاء عن مصر فغير مقدمهم وبعض قوادهم من انبابه إلى مصر القديمة فتهاى الباشا لملقاتهم واصطف الجند عند بيته ووصل الإنجليز إلى الأزبكية فقابلهم الباشا

وأحسن لقاءهم وخلع عليهم وقدم لهم خيلا وهدايا نفيسة وأطلقوا عند ذلك مدافع كثيرة فلما كان يوم الإثنين ثامن المحرم افتتح سنة سبع عشرة أخلى الإنجليز القلاع التى بالإسكندرية والحصون وعبر محمد باشا النيل إلى انبابه ومعه طاهر باشا مقدم الجند الأرئود ونحو الخمسين من أتباعه فقابله مقدم الجيوش الإنجليزية بأحسن استقبال وقدم له بعض التقدّم والهدايا ثم أخذ الإنجليز فى الجلاء فعبر فريق منهم إلى القاهرة وخيم بجزيرة بدران أياماً ثم ساروا منها إلى مدينة السويس وسار فريق آخر إلى القصير على السفن العظيمة وخلت الجزيرة منهم فى يوم الإثنين ثانى عشرى المحرم من السنة فتسلمها منهم نائب أمير السفن العثمانية ونزل بالقصر وأنزلوا بها بعض العساكر والأجناد المصرية وبقي بالإسكندرية طائفة من الإنجليز بغير أجل محدود.

وجاءت الأخبار بقاء الجنود السلطانية الذين سيرهم محمد باشا إلى الصعيد الأعلى بعساكر إبراهيم بيك الكبير فوقع بين الفريقين قتال شديد للغاية أياماً ثم انجلى عن هزيمة العساكر السلطانية وانخذلهم فقتل منهم جماعة كثيرة وتقوى المصريون بهذه النصر العظيمة واشتدت ظهورهم وكان مقدم المصريين فى هذه الوقعة الألفى وقد لحق بهم جماعة من الفرنسيين نحن تخلفوا بمصر واجتمع إليهم أيضاً عدة كبيرة من العساكر العثمانية طمعا فى بذلهم فاشتد الخطب على العثمانيين وأرسلوا يطلبون المدد فاهتم بذلك محمد باشا ورسم بخروج طاهر باشا بعسكره فبرز إلى البساتين وعبر النيل وعسكر بالجانب الغربى من النيل وتبعته العساكر والأجناد بالذخيرة وآلات الحرب وكثرت عريضة الأمراء المصريين بالصعيد واجتمع إليهم العدد العديد من الهوارة وغوغاء الحرف والعربان وزحفوا حتى وصلوا إلى غربى أسيوط وخافهم العساكر العثمانية وداخلهم الرعب منهم وتحصن كل فريق فى مقره ولم تفعل خمرة النصر بإبراهيم بيك والألفى وأصحابهما ما تفعله بجهلاء المحاربين ولم تقعهما عن استعمال الحيلة فى طلب الصلح فكتبوا إلى محمد باشا خطاباً يشكون فيه مما أصابهم ويتوجعون مما لحقهم من الضيق وأنهم فى طاعة الله وطاعة السلطان ولم يكونوا ليتوقعوا هذا التباعد والتشريد والقتل وماهم فيه من سوء المعاملة وقد خاطروا بأرواحهم فى خدمة الدولة وقتلوا مع العثمانيين وأبلوا مع الفرنسيين بلاء حسناً وماهم إلا أنهم يرغبون فى إحدى خصال ثلاث إما أن يعطى لهم بلاد يقيمون بها بعيدين عن كل مظنة وريبة وإما أن ترسل إليهم نساؤهم ويبعث

إليهم بعض السفن ليركبوها من القصير إلى جدة فيقيمون بها أو يقيمون بالحجاز وإما أن تعين لهم نقطة يتربصون بها قدر خمسة أشهر حتى يرفعوا أمرهم إلى دار السلطنة ويأتيهم الجواب فلما جاء هذا الخطاب إلى محمد باشا جمع العلماء والمشايخ وبعض الوجهاء وتشاوروا في الأمر فاتحدت كلمتهم على أن يكتبوا بتأمين جميع الأمراء والصناجق الذين بالصعيد ويأذنوا لهم بالرجوع إلى القاهرة ولهم ما لإخوانهم وأقرانهم وعليهم ما عليهم ماعدا إبراهيم بيك والألفى والبرديسى وأبى دياب فإنهم يبقون تحت الحجر حتى يخابروا في شأنهم الباب العالى ويأتى الجواب وأرسلوا بذلك إلى إبراهيم بيك والألفى فلم يقبلوا بانفصال أصحابهم عنهم وترفعوا إلى الصعيد الأعلى وانتظروا ما سيكون، ولبت طاهر باشا مخيماً بعسكره فى الجانب الغربى من النيل لايدى حراكاً وطال لبثه وثقل عليه مكثه وداخل جنده الملل وكاد يتولاهم الفشل ومحمد باشا فى شاغل عنهم بمصادرة الناس وأخذ أموال أهل الميسرة وتتبع أصحاب المظاهر بأضعف الشبهات فكان الرجل منهم لا يمضى عليه بياض يومه إلا وهو فى حساب ما سيكون فى سواد ليله ولا فرق بين القبطى والمسلم إذ كانوا عنده كلهم فريسة واحدة وأمر فقبضوا على ثلاثة من عظماء القبط وهم المعلم انطون أبو طقية والمعلم إبراهيم زيدان والمعلم عبد الله بركات معلم الديوان فقتلهم وأرسل الدفتردار فختم على دورهم وأملاكهم ونقلوا ما فيها إلى بيت الدفتردار ليبيع فى المزاد فكان شيئاً عظيماً الغاية من أوانى للذهب والفضة والاقمشة الهندية النفيسة وغير ذلك مما يجمل عن الوصف غير الجوارى والعبيد قيل واستمر سوق المزاد فى ذلك عدة أيام ولما طال الحال على طاهر باشا وجنوده رجع إلى القاهرة وسرح بعض الجند واختفى الخبر القاتل بتسيير طاهر باشا وجنوده لقتال إبراهيم بيك ومن معه .

وبينما كان محمد باشا يسوم أهل مصر والقاهرة الخسف ويزيقهم مر العذاب كان نائبه على الإسكندرية يكثر من الإحداثات والمظالم والمكوس والمغارم ويضرب على أهلها الضرائب الفسادة وكانت عساكره تفسد فى الأرض وتهلك الحرث والنسل وتعرض للناس على ما قيل فى أعراضهم فعظم الخلل واستفحل أمره وشكى الناس حالهم لمقدم الإنجليز النازلين بالإسكندرية واستغاثوا به فكلم خورشيد بيك فى أمرهم وقبح ما يفعله الجند بالرعية وحذره سوء العاقبة وطاوله أياماً فاتفق أن جماعة من أولئك العسكر هموا بالقبض على امرأة فاستغاثت بنفر من الإنجليز

فى طريقها فمنعوها منهم فتضاربوا وانتصر كل فريق لصاحبه واشتد القتال بينهم فقتل اثنان من الإنجليز وهرب العثمانيون فتزل فى الحال مقدم الجيوش الإنجليزية وجمع عساكره وزحف بهم إلى القلعة وأرسل إلى خورشيد بيك بأن أخرج من القلعة إلى خارج البلد للقتال فامتنع من ذلك فأمره بترك القلعة والتخلى عنها فإلفه ومأطله فأنزله قهراً وأسكنه فى داره فى البلد ومنع العساكر السلطانية من حمل السلاح وشدد فى مراقبتهم والحجر عليهم وتببعهم أينما ساروا فسكنت خواطر الرعية واطمأنت قلوبهم بعد الخوف ومالوا إلى محبة الإنجليز وتمنوا لو أنهم يملكون البلاد وأظهروا للعثمانيين عين المقت والقلى وزالت هبة خورشيد أو كادت.

وكان محمد باشا مند ولى الولاية على مصر مولعاً بجمع عسكر وترتيبهم على نظام عسكر الفرنسيين فجمع خلقاً كثيراً من مصر من الأكراد يريد الخروج مع الحج والبسهم ألبة الجوخ الأحمر الضيقة القصيرة وأزناً قصيرة من الجوخ الأزرق وطراير من صوف أحمر على أشكال ملابس الفرنسيين وقيد بتنظيمهم وتعليمهم نفرأ من كبار الفرنسيين الذين تخلفوا عن الجلاء وكذلك البس عدة وافرة من العبيد السود الذين اغتصبهم من ساداتهم وجمع جميع الممالك الذين للأمرء بمصر والقاهرة وبعض البلدان والبسهم الملابس الفاخرة وأركبهم جياد الخيل وقيد بهم من الفرنسيين من يعلمهم الفروسية واستعمال السلاح وسماهم بالنظام الجديد واهتم بأمرهم اهتماماً زائداً وشرع فى إنشاء عمارة عظيمة على مقربة من مقره لسكنى أولئك العسكر سماها قشلاق النظام واهتم بهذا القشلاق اهتماماً عظيماً فكان يجلس بنفسه لملاحظة البنائين والنجارين وأصحاب الصنائع وقد ضرب خيمة لجلوسه فى كل يوم من الصباح إلى غروب الشمس.

قال صاحب عجائب الآثار وضرب الباشا خيمة عند بيته بقرب الهدم يجلس فيها حصه كل يوم لمباشرة العمل وربما باشره بنفسه ونقل بعض الأنقاض فلما عاينه الأغاوات والجوخدارية بادروا إلى الشيل ونقل التراب بالغلفان فلما أشبع ذلك حضر طاهر باشا وأعيان العساكر فنقلوا أيضاً وطلبوا المساعدة وحضر طائفة من ناحية الرميطة وعرب اليسار ومعهم طبول وزمور فسأل عن ذلك فقال له المحتسب إن هؤلاء من طوائفى حضروا للمساعدة فشكرهم على ذلك وأمرهم بالذهاب فبقى منهم طائفة وأخذوا فى شيل التراب بالأغلاق ساعة والطبول تضرب لهم فانسر الباشا من ذلك وحسن القرناء للباشا المساعدة وأن الناس تحب ذلك فرتبوا ذلك وأحضروا

قوائم أرباب الحرف التى كتبت أيام فرض الفرنسيين ونبهوا عليهم بالحضور قال فأول ما بدءوا بالنصارى الأقباط فحضرُوا ويقدمهم رؤسائهم جرجس الجوهري وواصف وفتاؤس ومعهم طبول وزمور وأحضر لهم أيضاً مهتار باشا النوبة التركية وأنواع الآلات والمغنين حتى البرامكة بالرباب فاشتغلوا نحو ثلاث ساعات وفى ثانى يوم حضر منهم أيضاً كذلك طائفة قال ولما انقضت طوائف الأقباط حضر النصارى الشوام والأروام ثم طلبوا أرباب الحرف من المسلمين فكان يجتمع الطائفتان والثلاثة ويحضرون معهم عدة من الفعلة يستأجرونهم ويحضرون إلى العمل ويتقدمهم الطبول والزمور والمجرية وذلك خلاف ما رتبته مهتار باشا فيصير بذلك ضجة عظيمة مختلفة من نوبات تركية وطبول شامية ونقاير كشوفية ودبابد حربية وآلات موسيقية وطبالات بلدية وربابات برمكية قال كل ذلك فى الشمس والغبار والغبار وزادوا فى الطنبور نغمة وهى أنهم بعد أن يفرغوا من الشغل ويأذنوا لهم فى الذهاب يلزمونهم بدراهم يقبضها مهتار باشا يرسم البقشيش إلى أولئك الطباليين والزمارين فيعطيهن التزر اليسير ويأخذ لنفسه الباقي وذلك بحسب رسمه واختياره فيأتى على الطائفة المائة قرش والخمسون قرشاً ونحو ذلك فيركب فى ثانى يوم ويذهب إلى خطتهم ويلزمهم بإحضار الذى قرره عليهم فيجمعونه من بعضهم ويدفعونه قال وإذا حضرت طائفة ولم تقدم بين يديها هدية أو جعالة طولوا عليهم المدة وأتعبوهم ونهروهم واستحثوهم فى الشغل ولو كانوا من ذوى الحرف المعتبرة كما وقع لتجار الغورية والحريية وإذا قدموا بين أيديهم شيئاً خففوا عليهم وأكرمواهم ومنعوا أعيانهم وشيوخهم من الشغل وأجلسوهم بخيمة مهتار باشا وأحضر لهم الآلات والمغاني فضربت بين أيديهم كما وقع ذلك لليهود قال واستمر العمل بقية الشهر الماضى إلى وقتنا هذا فاجتمع على الناس عشرة أشياء من الرذالة وهى السخرة والعونة وأجرة الفعلة والذل ومهنة العمل وتقطيع الثياب ودفع الدراهم وشماتة الأعداء من النصارى وتعطيل معاشهم وعاشرها أجرة الحمام . انتهى

واستفحل أمر الأمراء المصريين بالصعيد الأعلى وكبرت عصابتهم وظهرت كلمتهم واجتمعت إليهم طوائف كثيرة من الهوارة وأهالى الخوف الشرقى والغربى وقبائل العربان وقد تحصنوا عند الهوى بسفح الجبل ولبثوا على هذا الحال أياماً فبرز رجل من العثمانيين موصوف بالشجاعة والإقدام اسمه أجدر وأخذ معه ألفاً من العساكر الموصوفة وسار إليهم يريد اغتيالهم فسبق العين إلى الأمراء وأخبرهم بخبر

الأجدر فلما توسط الأجدر وأصحابه سطح الجبل نظروا وإذا بالمصريين قد أقبلوا فى ثلاث فرق وأحاطوا بهم فأطلق العثمانيون بنادقهم طلقة واحدة ونظروا وإذا بهم فى وسطهم وتحت سيوف المصريون قفستكو فيهم ولم ينبج منهم إلا القليل وأخذ الأجدر أسيراً فلما أحضروا الأجدر بين يدى الألفى قال له ولأى شىء سميت بالأجدر فقال هو اسم للأفعى العظيمة وقد صرت الآن تحت ظل حماك فافعل ما أنت أهله قال بلى ولكننى أرى اسمك قد زاد إلى حد يوجب خلع أسنانك ثم أمر به فخلعوا أسنانه جميعها ثم قتلوه وزحف المصريون من الهو إلى بنى على ونزلوا عليها فنهبوا غلالها ومواشيها وقبضوا أموالها وكذلك الحوارشة وما جاور ذلك من البلاد فاضطرب الباشا وخشى العاقبة وأخذ فى إعداد المدد من الرجال والذخيرة وآلات الحرب وسيرها إلى الصعيد مع أحد الأمراء (وهو محمد على سرجشمه) أحد مقدمى العساكر السلطانية وأرسل إلى إبراهيم بك الكبير مكتابة بالأمان والعود إلى القاهرة والمقام بها لهم ما لإخوانهم وعليهم ما عليهم فلما وصل رسول الباشا بالمكتابة أحسنوا لقاءه وفض الألفى المكتابة وقرأها ثم التفت إلى الرسول فقال أما قولكم نذهب إلى دار الخلافة ونقابل السلطان كى ينعم علينا فهذا لا وجه له ولا نرضاه أبداً فإنه على تقدير أن فى نيته الإحسان فلم لا يحسن ونحن هنا فى بلاده وإحسانه لا يتقيد بحضورنا لديه أما طلب إخواننا إلى مصر فهم وشأنهم إن شاءوا أقاموا معنا على الرحب والسعة وإن شاءوا رجعوا إلى القاهرة وهم فى حل منا وأما قولكم أنكم تعطوننا أقطاعاً نعيش منه باسنا فهذا الإقطاع لا يكفيننا فإن شاء أعطانا من أسبوط إلى الصعيد الأعلى وعلينا أن نقوم بخراجها وإلا فالأرض لله ونحن خلق الله نذهب حيث شئنا ونأكل من رزق الله ما يكفيننا ومن أتى إلينا حاربناه حتى يكون من أمرنا وأمركم ما يكون فلما رجع الرسول بالجواب اغتم الباشا غماً شديداً وركب من ساعته وأسرع فى تجهيز الجند وتسييرهم فعبروا النيل من الآثار إلى الجانب الغربى فى عدة عظيمة وذخيرة وافرة وكان بعد انحدار رسول الباشا من معسكر المصريون أمر الألفى فكسروا قطرة اللاهون وخيموا على مقربة منها وشرعوا فى قبض الأموال من بلاد الفيوم ومنع الوارد منها إلى مصر فخاف أهل الفيوم ورحل الكثير منها إلى القاهرة فكانوا ينامون بالأزقة والحارات رجالاً ونساء وأطفالاً ولا يجدون ما يقتاتون به فانزعج الباشا من هذا الحال واستعظمه وكان كلما سأل أحداً من الأمراء المصريين القيام مع الجند المسافرين اعتذر وطلب العفو أو أظهر عدم

الطاعة وخرج بعضهم خفية ولحق بالمصريين فلما تحقق الباشا ذلك زاد به القلق ورسوم لطوائف العسكر أن يقيم منهم فريق بالقلاع التى على التلال ففعلوا ورفعوا عليها الأعلام العثمانية وأوقفوا الحراس على أبواب المدينة يمنعون من يخرج منها من الغز والكشاف أو من له علاقة مع المحاربين فكان من خرج من بولاق أو غيرها لا يخرج إلا بمرسوم من كتخدا الباشا وأمر الباشا بنهب بيوت المحاربين التى بالقاهرة ومصر فنهبوا ما فيها من فرش ومتاع وغيره وحملوه إلى بيته وتمكن إبراهيم بيك والالقي ومن معهما من جميع بلاد الفيوم فكانوا إذا دخلوا بلدة منها ورأوا من أهلها مقاومة أو عصيانا ركبوا عليها وقتلوا من فيها بحد السيف وأحرقوا دورها وسبوا نساءها فخضعت لهم جميع البلدان والقرى وأدوا لهم المغارم والقرض وأباحوا لهم أخذ الغلال والماشية وهم صاغرون.

وكان بمدينة الفيوم طائفة من الجنود السلطانية فلما رأوا من كثرة المصريين وفعالهم بأهل البلد تترسوا فى مواقعهم وأقاموا ينتظرون المدد وزحفت طلائع المصريين إلى الجيزة وأخذوا منها الأموال والمغارم ووصلوا إلى وردان وسار منهم جماعة إلى ناحية الشرقية والمنصورة ومرو بحاكم الشرقية فلم يمنعهم وقد كانوا عدة قليلة فعلم الباشا بذلك وحقد عليه واستقدمه فحضر فأمر به فقتلوه ونهبوا داره وسبوا نساءه وعبر كتخدا الباشا النيل إلى إنبابه وعبر معه طوائف كثيرة من الجند ونصبوا خيامهم وجاء الخبر بوصول إبراهيم بيك ومن معه إلى الجسر الأسود فأقاموا به أياماً ثم ترفعوا إلى المنصورة وبشتيل فخرج طاهر باشا وعبر النيل أيضاً وعسكر بجنوده على مقربة من الوراريق ثم ساروا وطائفة بعد طائفة وكان الأمراء المصريون قد نزلوا على مقربة من دمنهور فلاقتهم العساكر السلطانية وناوشتهم القتال وهم فى قلة والعثمانيون فى كثرة زائدة وكان مع جماعة المصريين بعض كبار جند الإنجليز جاءوا إليهم من الإسكندرية فلم يتأخر المصريون عن القتال وهجموا على فرسان العثمانيين هجمة الأسود وكان الإنجليز ينظرون إليهم نظرة المتعجب فهزمهم وولوا الأديار وتركوا المشاة خلفهم فكر المصريون على المشاة أيضاً فألقوا أسلحتهم وطلبوا الأمان فساقوهم وأخذوا ما معهم من أسلحة ومدافع وذخيرة وغير ذلك وقد تمزق شمل من بقى من العساكر السلطانية وتفرقوا أشتاتاً وجاء الخبر بذلك إلى محمد باشا فانزعج وقد كانت وردت عليه أوامر دار السلطنة بسرعة إخراج إبراهيم بيك وأصحابه من الديار المصرية وإلا لحق به العطب فعمد إلى تجييش جيش آخر وبالحق

فى إتقانه وتنظيمه وعبر به النيل إلى إنبابه وانتقل طاهر باشا من أنبابه بعساكره إلى الجيزة وترس بها ووصلت المجاريح والمرضى من العثمانيين وأكثر الباشا من تحذير أعيان ومشايخ البلاد من مسألة الأمراء المصريين أو التقرب إليهم وترفع فريق من الأمراء المذكورين راجعاً إلى الصعيد وذهب جماعة منهم أيضاً إلى دار السلطنة فى إحدى سفن الإنجليز لطلب عفو السلطان ونزل محمد بيك الألفى مع طوائف الإنجليز الذين كانوا بالإسكندرية يريد لندن عاصمة بلادهم إذ جاءهم الأمر بالجللاء تماماً عن الإسكندرية فرحلوا عنها فى يوم السبت حادى عشر ذى القعدة من السنة أى سنة سبع عشرة ومائتين وألف هجرية ورجعت جميع العساكر السلطانية الذين كانوا بالبحيرة إلى القاهرة ومصر وانتشروا فيها يطوفون فى الشوارع والحارات وطالبوا الباشا بجماكيهم المتأخرة وقد كان قطع عنهم رواتبهم وعلوفاتهم لفرار الخزينة وبغضه لهم لجبنهم وهزيمتهم فى الحروب فصار كبارهم يطالبون الباشا والدفتردار وهما يماطلان ويطاولان فاجتمع العساكر حول بيت الدفتردار وصاحوا عليه وتهددوه وشاع قيامهم لنهب أمتعة الناس فنقل أهل الغورية وغيرهم بضائعهم من الحوانيت وقفلوها أياماً كثيرة وخافهم الناس وامتنعوا من الخروج إلى الأسواق بعد الغروب فكانوا إذا انفردوا بأحد عروه من ثيابه فإن مانعهم قتلوه وأكثروا من خطف النساء والغلمان.

قال صاحب عجائب الآثار ومر أربعة أشخاص من العساكر وأخذوا غلاماً لرجل حلاق بخط بين السورين عند القنطرة الجديدة فعارضهم الأوسطى الحلاق فى أخذ الغلام فضربوا الحلاق وقتلوه ثم ذهبوا بالغلام إلى دارهم بالخطة فقامت فى الناس ضجة وكرشة وحضر أغاة التبديل فطلبهم فكرنكوا بالدار وضربوا عليه البنادق من الطيقان فقتلوا من أتباعه ثمانية أنفار ولم يزالوا على ذلك إلى ثانى يوم فركب الباشا فى التبديل ومر من هناك وأمر بالقبض عليهم فنقبوا عليهم من خلف الدار وقبضوا عليهم بعد ما قتلوا وجرحوا آخرين فقتلوهم شنقاً ووجدوا بالدار مكاناً خراباً أخرجوا منه زيادة عن ستين امرأة مقتولة وبينهن من وجدوها وطفلها مذبوحاً معها فى حضنها اهـ.

واختل النظام من توالى هجمات الأمراء المصريين على البلاد وعبث الجنود السلطانية فيها وتجاوزهم الحدود فى القتل والنهب والتخريب والتعيب والفحش وغير ذلك فتطاوت أيدى العربان أيضاً إلى السلب ووقف كثير منهم فى طرق المازة

يسلبون ما معهم ويقتلون من يمانعهم حتى زال الأمن وعم الخوف وانقطعت الطرق حتى فى نواحي المدينة وطريق بولاق القاهرة وغيرها وعجز محمد باشا وظهر ضعفه ثم جهز طائفة من الوجاقلية وسيرهم لقتال العربان فاقتل الفريقان قتلاً عنيفاً انجلى عن هزيمة الوجاقلية وتمزيق شملهم ثم ترفع العربان بعد هذه النصره إلى البحيرة وعاد من بقى من الوجاقلية وخيموا بجهة العادلية وجاء من كانوا بالبحيرة من الأمراء المصريين إلى منية ابن خصيب وأرسلوا إلى حاكمها بأن يعبر النيل هو ومن معه من العساكر العثمانية إلى الجانب الشرقى ليتزلوا بالمنية أياماً يقضون فيها أشغالهم ثم يرحلون عنها فأبى عليهم ذلك وأمر فحصنوا البلد وزادوا فى عمل المتاريس وأكثروا من المدافع وبينما هم على همتهم من التمتع والتحصين إذا أحاط بهم المصريون وقاتلوهم قتالاً عنيفاً أربعة أيام ليلاً ونهاراً حتى غلبوهم ودخلوا البلد عنوة وأعملوا فيها السيف وأحرقوا وخربوا وقتلوا خلقاً كثيراً جداً من أهلها وجميع من كان بها من العثمانيين وتركوا النار تعمل فيها حتى صارت رماداً وأخذوا ما فيها من الأموال والمتاع والماشية وغير ذلك وأتوا بحاكمها إلى إبراهيم بيك الكبير وقد كان من ممالك إبراهيم بيك وانفصل عنه ودخل فى خدمة الباشا فلما مثل بين يدى أستاذه وبخه وبناء على أمره ضربوه بالنبايت ثم كبلوه فى الحديد وألقوه فى صومعة ورحل إبراهيم بيك وأصحابه عن منية ابن خصيب إلى الصعيد الأعلى وجاءت الأخبار إلى محمد باشا بما جرى فزاد به القلق وضاعت الدنيا فى وجهه وأرسل إلى محمد على سرجشمه يستحثه على قتال المصريين قبل أن يلحقوا بمدينة أسيوط فيفعلوا بها ما فعلوه بمنية ابن خصيب فاعتذر بخروج الجند عن طاعته بأسباب تأخير صرف جماكيهم وتهديدهم إياه بالقتل فألج عليه محمد باشا فبالغ فى الاعتذار وقد كان على عهد مع إبراهيم بيك وأصحابه .

فلما كان يوم الجمعة سابع المحرم افتتاحت سنة ثمان عشرة ثار الجنود جميعاً وحضروا إلى بيت الدفتردار فاجتمع جماعة منهم بحوش الدار وقفلوا أبواب القيطون وأخرجوا من كان به من العسكر التابعين للدفتردار وصعد طائفة منهم فوقوا بفسحة المكان الذى كان به الدفتردار ودخل عليه منهم أربعة فكلموه فى أمر صرف جماكيهم ورد جميع مرتباتهم فلاطفهم وقال إنه لم يجتمع عنده من المال سوى ستين ألف قرش فإما أن يأخذوها وإما أن يصبروا أياماً حتى يكمل لهم المطلوب فقالوا لا بد من الصرف فكتب فى الحال إلى محمد باشا يطلب منه قرصة فأبى عليه ذلك وأرسل

يقول لا أريد هؤلاء الأوباش الهمج في بلاد قد توليت حكمها فلا بد من خروجهم وارتحالهم عنها وإلا أعملت فيهم السيف وأفنيتهم عن آخرهم فأعاد إليه الرسول يقول أغثنى فإن الدار ملئت بالعساكر أعلى وأسفل فلما أخبره الرسول بذلك غضب وأمر بالمدافع فأخذوا يطلقونها من قلعة الجبل على بيت الدفتردار وراسلوا الرمي بالقنابل فتساقطت على الدار تساقط المطر واشتعلت الدار بما فيها وتهدم أكثرها والعساكر لا ينفكون عنها واختفى الدفتردار تلك الليلة تحت درج البيت إلى الصباح ونهب العساكر ما في الخزينة من الأموال وما في الدار من فرش وبسط ومتاع ومر الوالى بالأسواق والشوارع ينادى فى الناس برفع متاعهم والمحافظة على أنفسهم والتحذر فخاف الناس وأغلقوا الخوانيت والدروب وزاد تطيرهم وتخلوا هجوم العساكر ونهب المدينة وجميع الدور ونادى المنادى معاصر الناس وأولاد البلد كل من عنده سلاح فليقلده ويحمله واجتمعوا على شيخ مشايخ الحارات ليذهب بكم إلى بيت الباشا وجاء الطلب بذلك أيضاً إلى تجار الغورية وتجار خان الخليلي وأهل طولون وشدوا فى الطلب وحذروا من التخلف فسار بعض الناس فقيدهم بخفازة بيت الباشا وبيت ابن المحروقي المجاور له فباتوا ليلتهم تلك وحضر الوالى عشاء تلك الليلة وطاف على الناس يحضهم على القيام لنصرة الباشا على الخوارج من الجند والعسكر فاجتمع بعض الأوباش والغوغاء بالعصى والمساوق وتحزبوا أحزاباً وعملوا متاريس عند رأس الوراقين وجهة العقادين والمشهد الحسيني فلما دخل الليل بطل رمى القنابل من قلعة الجبل وأصبحوا وقد شرعوا فى الرمي فأطلق العسكر كذلك مدافعهم ووالوا الرمي على القلعة وتترسوا بجامع أربك وبيت الدفتردار وبيت محمد على سرجشمة وكوم الشيخ سلامة وداخل الناس خوف عظيم من هذه الحادثة وبقي الحال على هذا الوصف ثلاثة أيام فلما كان يوم السبت رتب الباشا عساكره على طريقة الفرنسيين وخرجوا مشاة وركبانا ومروا حوالى البركة وانقسموا فرقتين فرقة أتت على رصيف الخشاب وفرقة على جهة باب الهواء ليأخذوا الأرنود بينهم فلما وصلت فرقة ناحية رصيف الخشاب قاتلوا الأرنود قتالاً شديداً فانهزم الأرنود من تلك الجهة وانحصروا جهة جامع أربك فاشتبكوا فى القتال مع الفرقة الثانية وتحققوا الهزيمة والخذلان وكادوا يسقطون فى أيديهم فلما وصلت عساكر الباشا إلى بيت الدفتردار والمحروقي وبيت نساء الباشا اشتغلوا بالنهب وإخراج النساء وتركوا القتال وتقاسموا المنهوبات ففترت همة الفرقة الثانية من عساكر الباشا وانضموا فى الحال إلى النهايين من إخوانهم فتقوت بذلك عزائم الأرنود وكروا على من تبقى من عسكر الباشا فهزموهم وأخذوا مراكزهم وأجلوهم عنها وظهر طاهر باشا وركب إلى

الرميلة وتقدم إلى باب العزب فوجده مغلقاً فعالج الطاقات الصغار التي في حائط باب العزب القريبة من الأرض المعدودة لرمى المدافع من أسفل ففتح بعضها ودخل منها بعض عسكره فتلاقوا مع الأرنؤد المحافظين داخل الباب فتحالفوا واتفقوا على أن يكونوا على قلب رجل واحد ثم صعدوا إلى القلعة فاتفقوا مع من بها من الأرنؤد ودخلوا على الخزنदार وطلبوا منه مفاتيح القلعة فمانعهم فشدوا عليه وهموا بقتله فسلمهم المفاتيح ففتحوا الأبواب لظاهر باشا واعتقلوا الخزنदार وأنزلوا من القلعة بعض المدافع والذخيرة إلى الأزيكية وتسلم القلعة طائفة منهم وتقيدت بخدمة المدافع فلم يشعر محمد باشا الوالى إلا والقنابل تتساقط على بيته من قلعة الجبل فهال به الأمر وأزعجه جداً وعلم بما جرى فسقط في يده ونزل ظاهر باشا من قلعة الجبل ومر من وسط المدينة وهو يقول بنفسه مع النادى أمان واطمئنان افتحوا دكاكينكم وبيعوا واشتروا وما عليكم بأس وطاف يزور الأضرحة والمشايخ ورفع الناس المتاريس من الطرق وانكفوا عن التعرض للجند وأكثر الوالى من التطواف والنداء بالأمان والبيع والشراء فاطمأن الناس واستمر الحرب بين الفريقين يوم السبت واشتد ليلة الأحد طول الليل فما أصبح النهار حتى زحف الأرنؤد على جامع عثمان كتحدا وحارة النصارى وصعدوا التلال التى بناحية بولاق القاهرة وملكوا بولاق وهجموا على مناخ الجمال فقتلوا من به من العسكر وسارت طائفة منهم إلى قصر العينى وقبضوا على من به من عبيد الباشا ونهبوا بيت السيد أحمد المحرقى وأخرجوا منه النساء حاسرات وكذلك نهبوا بيت الباشا الملاصق له ونهبوا بيت المعلم جرجس الجوهري وأخذوا ما فيه من النفاس والأمتعة الثمينة وأشعلوا النار ببيت الباشا فالتهمت الأخشاب والأسقف وسرت إلى جميع المساكن فركب الباشا فى محاليكه وخدمه ومعهم النساء والذراى وخرج إلى جزيرة بدران وكان خروجه قبيل أذان العصر من يوم الأحد تاسع المحرم افتتاح سنة ثمان عشرة فخرج خلفه جماعة من الأرنؤد يريدون القبض عليه فكر عليهم وهزمهم مرتين أو ثلاثا.

مطلب

طرده محمد باشا من الولاية وتولية ظاهر باشا

وسكنت الفتنة بخروج محمد باشا وجلاته عن القاهرة إلى العادلية وطاف الوالى والمحتسب وأغاة الانكشارية ينادون بالأمان وفتح الدكاكين والعود إلى البيع والشراء فكانت مدة ولاية محمد باشا المذكور على مصر سنة وثلاثة أشهر وأحد وعشرين يوماً.

وكان سيئ التدبير لا يحسن التصرف سفاكاً للدماء جافى الطبع قليل التروى يضع الأمور فى غير موضعها فيحسن على من لا يستحق الإحسان ويخل على من فى حاجة إلى القوت وكان فخوراً مختالاً سهل الانقياد لقرناء السوء كثير المظالم ولم يزل فى طريقه إلى أن نزل بقرب قليوب فى غروب يومه فاستراح وأسرى ليلاً إلى دجوة وأنزل الذراري والمتاع فى بعض السفن إلى بنها العسل وقد تخلف عنه أكثر قومه واجتمع الأغا والوجاقلية ببيت القاضى وتشاوروا فى إقامة طاهر باشا نائباً عن الدولة حتى تأتية الولاية أو يأتى وال آخر جديد فاتفقوا على ذلك وذهبوا إلى بيت طاهر باشا وألبسوه خلعة النيابة وحرروا محضراً بما وقع ورفعوه إلى دار السلطنة فلما استقر به المنصب وتصرف فى الأمور قبض على الكثير من الأمراء والأعيان وصادرهم ثم اعتقلهم وكتب إبراهيم بيك الكبير وأصحابه وسألهم الاقتراب من مصر حتى يدبر لهم الأمر فى رجوعهم وسير طائفة من الجند لقتال محمد باشا والى المخلوع فساروا خلفه وهو يتقل من ناحية إلى أخرى حتى نزل بالمنصورة فجسبى خراجها وضرب على أهلها المغارم وقبض على من كان بها من أصحاب الجباية وأخذ الأموال منهم وكذلك فعل ببلاد الغربية ثم سار إلى دمياط وقد تخلف عنه جميع أعوانه فلم يبق معه إلا بعض الأتباع والنساء والذراري وبسط طاهر باشا يده على جميع الأمور وضيق على أصحاب الميسرة من الوجاقلية والقبط وضرب على القبط غرامة قدرها خمسمائة كيس وخص بهذه الغرامة جماعة الكتاب ثم اعتقل جماعة منهم وكذلك فعل باليهود وقتل من أعظم القبط والشوام خلقاً ونهب دوراً كثيرة وبالغ فى استرضاء الأرئود والتزلف إليهم فصرف لهم جماكيتهم وأطلق علوفاتهم ورد عليهم الأرزاق اليومية وقرب إليه كبارهم وأصحاب الكلمة فيهم وكان بقلعة الظاهر بيبرس طائفة من الانكشارية جاءوا بأسلحتهم وآلات حربهم من دار السلطنة يريدون الأقطار الحجازية لقتال الوهابيين ومن معهم من الخوارج من أهل مكة والمدينة ونزلوا بالقلعة المذكورة على عهد محمد باشا المخلوع حتى تتم معداتهم فيرحلون عن طريق القلزم والقصير فحدثت الفتنة وظهر أمر طاهر باشا وأصحابه وانقطعت عنهم العلوفات وقلت المؤن وضاق عليهم الحال وكان معهم أحمد باشا والى المدينة فكلموه فى ذلك فطاولهم فذهب جماعة منهم إلى طاهر باشا وطالبوه بالجماكى والعلوفات فأبى عليهم ذلك فراجعوه فلم يلتفت إليهم فأضرموا له السوء.

مطلب

قتل طاهر باشا وتصرف أحمد باشا والى المدينة المنورة

فلما كان يوم الأربعاء رابع صفر من السنة ركب جماعة منهم بعددهم

وأسلحتهم وخلفهم بعض كبرائهم وذهبوا إلى طاهر باشا وسأله صرف الجماحي فأعرض عنهم وقال ليس لكم عندى منها شىء إلا ما كان من يوم قبضي على زمام البلاد فقالوا حاشا أن يكون كذلك فقال اذهبوا إلى محمد باشا وطلبوه بما كان فى أيامه فألحوا عليه فنهرهم وصاح بقومه ليخرجوهم فابتدره أحد الانكشارية بضربة بسيفه أطاح رأسه فسقط من شباك المكان إلى صحن الدار وجردوا جميعهم سيوفهم وأقبلوا على أتباعه وخدمه ومن كانوا فى البيت من الأرئود فقتلوا منهم خلقاً كثيرين واشتعلت النار بالبارود الذى كان بمخادع أتباعه ومماليكه فوقع الحريق والنهب فى الدور المجاورة وخرج الانكشارية وبأيديهم السيوف مسلولة ومعهم ما نهبوه من المتاع وغيره فانزعج الناس وأغلقوا الدكاكين وأبواب الدور وهم لا يعلمون بالخبر ثم طاف الأغا والوالى بعد ساعة وناديا بالأمان واجتماع جميع الانكشارية عند أحمد باشا والى المدينة المنورة لقتال الأرئود وإخراجهم من البلاد فلما سمع الأرئود بالمناداة تحزبوا واجتمعت طوائفهم عند الأزيكية فكان الانكشارية إذا ظفروا بأحد من الأرئود أخذوا ما معه من سلاح وقماش وربما قتلوه وكذلك كانت تفعل الأرئود بالانكشارية وقد نهب الانكشارية جميع ما وجدوه فى بيت طاهر باشا من فرش وبسط وملبوس وغير ذلك وبقيت جثته ملقاة لا يجسر أحد من أتباعه على الاقتراب منها وحملها وزالت دولته فكانت أيامه ستة وعشرين يوماً.

قال صاحب عجائب الآثار وكان أسمر اللون نحيف البدن أسود اللحية قليل الكلام فيه هوس وانسلا ب يعيل للمسلوبين والمجاذيب وأصحاب الشعوذة وقد عمل له خلوة بالشيخونية يبيت فيها كثيراً ويصعد على سطحها مع شيخه ويذكر معه اهـ . ثم جمع أحمد باشا المشايخ والعلماء والوجهاء فى داره وكلمهم فيما وقع من طاهر باشا وأصحابه وانتدب جماعة منهم فساروا إلى محمد على سرجشمة يسألونه الطاعة والخلود إلى السكينة كى لا يعرض نفسه ومن معه للبور فقال لست أعرف لأحمد باشا سلطة على البلاد وما هو إلا ضيف ثم يرتحل ولم أكن لأولى طاهر باشا وأجلسه على منصة الملك إلا لأنه مبعوث من الدولة للمحافظة على الديار المصرية والجواب عندى إن أحمد باشا يرتحل عنا على الفور بعسكره وجنوده وله علينا المعاونة والمدد من مؤنة ودواب للحمل وسفن للسفر فأخبر المشايخ أحمد باشا بمقالة محمد على فأضمر له السوء وبدأ من هذا الحين يظهر محمد على وتعلو كلمته والانكشارية يقتلون وينهبون كل ما قدروا عليه من دور الناس والأمراء وتتبع الأرئود

وفتك بهم وعملوا بعض التاريس. ونادوا على الناس بالسهر والتحفظ وفتح الخوانيت ليلاً والإكثار من الأنوار ويات الناس على تخوفهم فلما أصبح يوم الخميس أرسل أحمد باشا يستدعى المشايخ والعلماء فذهبوا إليه فكلّمهم فى جمع سائر الناس وخروجهم على طوائف الأرئود فأجابوه إلى ذلك وأرادوا الانصراف فمنعهم وقال حتى تأمروا العامة فقالوا هذا لا يكون إلا ونحن بالجامع الأزهر ومازالوا به حتى خرجوا ولم يفعلوا شيئاً مما أمر به فجمع إليه جميع الأمراء العثمانيين وتشاوروا فى أمر الظفر بمحمد على أيضاً ومن بقى معه من الأرئود، وكان محمد على قد استقر بمن معه بقلعة الجبل وأحكموا أمورهم وكاتب محمد على الأمراء المصريين وكانوا على مقربة من الجيزة وأنبأه فحضر إلى القاهرة بعض أتباعهم وطائفة قليلة من عسكريهم وشاع خبر وصولهم إلى الجيزة فعبّر إليهم عماليتهم وبعض الكشاف من أصحابهم ثم قدم منهم جماعة فتزلوا بباب النصر وآخرون بباب الفتوح وأرسل إبراهيم بيك الكبير خطاباً إلى أحمد باشا يقول فيه :

حيث قد علمنا بموت طاهر باشا وأنت اليوم بين ظهرانينا فضم إليك من بقى من طوائف الأرئود وإياك أن تقرب إليك أحداً من الانكشارية.

مطلب

طرد أحمد باشا والى المدينة وتصرف إبراهيم بك الكبير

فلما كان صباح ثانى يوم ذهب جماعة من الانكشارية إلى الرملة يريدون قتال عسكر محمد على، فأطلق عليهم أصحاب محمد على المدافع وتابعوا الرمى فولى الانكشارية الإديار ورجعوا مسرعين إلى بيت أحمد باشا فحاول أصحاب القلعة رمى القنابل على البيت رمية متراشلاً فخاف الانكشارية وانحلت عزائمهم وتفرقوا عن أحمد باشا وجاء الخبر بما جرى إلى إبراهيم بيك فتقوّت عزيمته وأرسل إلى أحمد باشا يطلب منه قتالى طاهر باشا ويلزمه الخروج من القاهرة فى برهة لا تتجاوز الساعة الحادية عشرة من النهار ولا يقسم بها إلى الليل، فلم يجد بداً من الامتثال وطلب دواب للحمل فلم يجد فركب فى عصر اليوم وسار وتفرق عنه من كان معه من أعيان العثمانيين وذهبوا إلى محمد على والتجأوا إليه فأحسن لقاءهم وأنزلهم منزلاً رحباً وخرج أحمد باشا وأتباعه مشاة بين يديه ومعه نفر قليل من الانكشارية فوجد عند باب الفتوح من زحام عسكر الأمراء المصريين والعربان والهوار ما أخافه فدخل بمن معه إلى قلعة الظاهر ببيرس وأغلقوا أبوابها فتبعه جماعة من الأرئود

ودخل داره جماعة فنهبوا ما فيها من متاع وأثاث وأحاط بقلعة الظاهر آخرون ليلتهم تلك وأصبحوا فضيقوا على أحمد باشا ومن معه وجعلوا يرمون على المحاصرين من السور وهم كذلك يرمون عليهم من أسفل وجمعوا شيئاً كثيراً من التراب وعملوا منها أكمة وصعدوا عليها وصاروا يرمون عليهم من الخارج بالبنادق بقية النهار وطول الليل، فلما أصبحوا أنزلوا مدفعاً من قلعة الجبل وجعلوا يطلقونه على قلعة الظاهر فأخربت قنابله وهدمت بعض جدران القلعة فطلب الانكشارية الأمان فأمنوهم ففتحو الأبواب وخرج أحمد باشا ومعه اثنان من الانكشارية وهما قاتلا طاهر باشا فأخذوهم وعبروا بهم إلى الجزيرة ولبت من بقى من الانكشارية داخل القلعة وحولهم الجند والعسكر ثم سجنوا أحمد باشا بقصر العيني وأبقوا قاتلى طاهر باشا بقصر الجزيرة فتم بسجن أحمد باشا زوال دولته فكانت ولايته بعد موت أحمد باشا طاهر يوماً وليلة لاغير.

واشتدت عزائم طوائف الأرئود بهذا الظفر فكثر فسادهم فى الأرض وقتلوا من الترك وأصحاب خان الخليلي خلقاً كثيراً وتبعوا الناس وأخذوا بالشبهات وظهر نجم محمد على والتجأ إليه الأمراء والأعيان فراراً من إيذاء طوائف الأرئود وأتوا يوماً بقاتلى طاهر باشا من قصر العيني إلى الناصرية وضربوا أعناقهما فى وسط النهار وحملوا الرأسين إلى زوجة طاهر باشا بالشيخونية ثم إلى أخيه بقلعة الجبل وأخرجوا طوائف الانكشارية الذين كانوا بقلعة الظاهر وأخذوا جميع ما كان معهم من سلاح وكراع وبعثوا بهم إلى الصالحية مع نفر من الأرئود والعربان فمات أكثرهم جوعاً وتمزق من بقى وتشردوا فى الجهات.

ولما كان يوم الأحد خامس عشر صفر سنة ثمان عشر نزل ابن أخى طاهر باشا من قلعة الجبل ونزل من كان معه من كبار الأرئود وأعيانهم وعسكرهم ومتاعهم وما جمعوه من المنهوبات وكان شيئاً كثيراً جداً وسلموا القلعة إلى إبراهيم بيك الكبير وأصحابه ولم يبق بها من الأرئود إلا طائفة قليلة ومعها أحد كبارهم المدعو حسين قبطان وأخرجوا أحمد باشا والى المدينة من معقله بقصر العيني وسيروه إلى الديار الرومية فى نفر من الانكشارية فلما استقر بإبراهيم بيك المقام قسم الوظائف والمناصب العالية بين قومه وذويه بإشارة محمد على ورتب الأمور على ما أراد محمد على فأحكم ترتيبها فمال الأمراء المصريون إلى محمد على وأجبه العساكر وعمل بمشورته العمال فى جميع البلاد وتقرب إليه الأعيان وتزلف إليه أرباب المناصب وتقرب منه المشايخ والعلماء.

وجاء الخبر إلى إبراهيم بيك الكبير بنزول محمد باشا الوالى المعزول على مدينة

دمياط وتغلبه على ما حولها من البلاد والقرى وإعطاء الوظائف إلى مماليكه وانضمام الكثير من الانكشارية الذين خرجوا من مصر والقاهرة إلى لمومه مع الغوغاء وحرافيش البلاد والعربان فسير لقتاله البرديسى فى طائفة عظيمة من العساكر فوجده متمتعاً وقد عمل المتاريس والخنادق حول المدينة وضرب على الأهالى المغارم والقرى وبث المعينين لجمع الأموال من البلاد ونقل الغلال فهجم عليه البرديسى بخيله ورجله واقتل الفريقان قتالاً عنيفاً فانهمز البرديسى وأصحابه عند القنطرة البيضاء من ضواحي دمياط وأجلوهم عن مواقفهم ثم عاد البرديسى وقد رتب عسكره وهجم على عساكر محمد باشا فانهمزوا وانتصر البرديسى نصرة عظيمة وانخذلت عساكر محمد باشا وخامر بعضهم مع البرديسى وأشاروا عليه بالزحف على دمياط فزحف وراسل بعض كبار عسكر الباشا فأطمعوه فى الاستيلاء على المدينة بغير عناء فدبر عسكره وهجم على المدينة وقتلها حتى دخلها عنوة وفتك فى عسكر الباشا بالقتل وتبغوا خواصه وأتباعه فقتلوهم عن آخرهم وقتلوا من خرج معه من أصحاب الوظائف ونهبوا المدينة وأسروا النساء والأطفال واقتضوا الأبقار واستأسروا من شاءوا وفعلوا من القسوة ما تشيب لهوله الولدان ونهبوا الخانات والبيوت والوكائل وجميع أمتعة التجار التى كانت بها والتجأ محمد باشا إلى بلدة القرية فأحاطوا به من كل جانب فطلب الأمان فأمنوه فنزل من القرية وحضر إلى البرديسى فقام عليه بعض الجنود وخطفوا عمامته وهو فى الطريق وكادوا يفتكون به فلما رآه البرديسى ترجل عن جواده وتلقاه بالإعزاز والإكرام وألبسه عمامة وأنزله فى خيمة بجانب خيمته وسير الأخبار بما حصل إلى إبراهيم بيك ففرح بذلك وفرح أصحابه فلما كان يوم الإثنين تاسع عشر ربيع الأول أحضروا محمد باشا إلى القاهرة ومعه المحافظون من الأرئود والعساكر المصرية وليس معه من أتباعه سوى ستة ممالك فقط وقد تفرق باقيهم عنه فنزل بساحل بولاق وكان إبراهيم بيك قد حضر فى ذلك اليوم إلى بولاق فلم يقابل محمد باشا وتشاغل عنه ثم حضر إلى الباشا أحد الكشاف وأركبه وسار به إلى بيت إبراهيم بيك بحارة عابدين فلم يقابله فى ذلك اليوم أيضاً فأخذه إلى بيت البرديسى فبات ليلته وأصبح فركب إبراهيم بيك إلى قصر العينى وطلب محمد باشا فسار إليه وقابله وقد حضر الألفى وبقية الأمراء المصريين ثم ركب ورجع إلى بيت البرديسى وبقى محجوراً عليه أياماً.

فلما كان يوم السبت خامس عشر ربيع الأول طلب محمد باشا من سليم كاشف المحرمجى المتولى حراسته أن يأذن له بالخروج إلى الناصرية للرياضة فأرسل سليم كاشف إلى إبراهيم بيك يسأله فى ذلك فأذن له فأركبه سليم كاشف بمماليكه

وعدة أخرى من ممالك المهرمجى فلما خرج إلى خارج الناصرية أطلق جواده وتبعه ممالكه من خلفه فظن ممالك المهرمجى أنهم يتسابقون فلما غابوا عن أبصارهم ساقوا خلفهم ومازالوا كذلك وقد استل محمد باشا سيفه إلى أن وصلوا إلى الألبانية فقصده بيت أحمد بك الأرندى فلما اقترب منه أطلق أحد الجند غدارته على جواده فسقط الجواد وسقط محمد باشا أمام الباب ودخل مسرعاً على أحمد بك ومن كان معه فلما رآه أحمد بك على هذا الحال ويخه وقبض عليه وفتشوه فوجدوا معه من المال ما قدره ألف وخمسمائة دينار وكذلك أخذ ما كان مع ممالكه وقد كانوا أعدوا هذا المال ليكون لهم عوناً على الهرب وجاء الخبر إلى سليم كاشف المتولى حراسته فركب على مثل ذلك بياق أتباعه واتصل الخبر بإبراهيم بك فأمر جميع الكشاف بالرجوع وأصعد طائفة منهم قلعة الجبل وتحفظ على أطراف المدينة وجاء سليم كاشف بمحمد باشا إلى إبراهيم بك بقصر العينى ومعهما أحمد بك فخلع إبراهيم بك على أحمد بك فروة سمور وقدم له حصاناً مسرجاً ووكل بمحمد باشا من يخفـره فى معقله..

مطلب

منع تصرف إبراهيم بك وولاية على باشا الطرابلسى

وجاءت الأخبار بولاية على باشا الطرابلسى ووصوله إلى مدينة الإسكندرية فاستقر بها ولم يقدم إلى القاهرة وأرسل إلى إبراهيم بك ومن معه يقبح ما فعلوه من رجوعهم إلى القاهرة وتصرفهم فى الأمور بغير إذن السلطان لاسيما خروج الأرندى وقتل طاهر باشا بخروج الانكشارية وإخراج أحمد باشا وغير ذلك من الحوادث التى كانوا هم علة وقوعها فأرسلوا إليه يعتذرون ويظهرون الطاعة والولاء للسلطان وأن حضورهم لم يكن إلا عن رضا الأهالى واستدعاء المشايخ والعلماء وتخوف إبراهيم بك وأصحابه من على باشا المذكور وتحذروا وأقاموا ينتظرون ما سيكون من حضوره إلى القاهرة.

وكان البرديسى فى غضون ذلك قد سار بعسكره من دمياط بعد أسر محمد باشا إلى رشيد لقتال الحاج على باشا قبطان ومن معه من العساكر العثمانية وكان الأرندى لما قاموا وخرجوا على محمد باشا جاء على باشا قبطان المذكور فى نفر من العثمانيين ونزلوا على رشيد من البحر وتحصنوا بها حتى صاروا فى منعة زائدة وجعل على باشا مقره ببرج مغيزل يراقب الفرص ليزحف على القاهرة ويفتك بمن بها من أصحاب إبراهيم بك وطوائف الأرندى فوصل إليه البرديسى بعسكره وقاتله

قتالاً شديداً نيفاً وعشرين يوماً وما زال حتى انتصر عليه وفتح البرج عنوة وقبض على علىّ باشا وعدة كبيرة من عسكره وأخرجوهم إلى جهة الشرقية ليسيروا منها إلى الشام ووردت الأخبار بذلك إلى القاهرة فلما علم على باشا الطرابلسي وهو بالإسكندرية ما فعله البرديسي برشيد وكيف أخذ على باشا قبطان أسيراً خاف أن يعرج البرديسي وأصحابه إلى الإسكندرية فيفعلوا بها ما فعلوه برشيد فأمر بسد أبي قير فكسروه فجرى الماء المالح إلى الأراضي التي كانت جفت عنها منذ عهد قريب في ذلك الحين وأغرقت القرى وأفسدت المسالك على الإسكندرية واشتد الحال على أهلها وضاق بهم الكسب فرحلوا عنها إلى جزائر المحيط كعجريت وقبرس ورودس وغيرها ولم يبق فيها إلا الفقراء والعجائز.

قلت : وكان هذا السد من أهم العمائر وأحكمها وأكبرها شهرة ولذلك كانت تتفقده الدول على مر الأيام وتتعهده بالعمارة وإحكام الوضع وتخشى من تهدمه فلما اختلت الأحوال وكثر توالي القلاقل والإحزن واستولت الفوضى على البلاد وأهملت أسباب العمارات كافة انهاز من هذا السد بعض بنيانه فسال منه الماء المالح على المزارع والقرى الواقعة بين رشيد والإسكندرية فلم يتدارك أولو الحل والعقد أمره لاستفحال الخلل فاستمر على هذا الحال والخرق يتسع حتى كادت تنقطع الطرق بسبب الماء المنهمر منه واستمر على ذلك إلى دخول الجيوش الفرنسية مصر فلما جاءت خلفهم سفن الإنجليز أراد أميرها تعويق الفرنسيين عن الوصول إلى القاهرة بعد نزولهم بأبي قير فأطلق قنابل مدافعه على السد المذكور فكسر بعض بنيانه واتسع خرقه فانهمر الماء على الأراضي حتى كاد يصل إلى دمنهور واختلط بخليج الأشرفية فغطى جميع وجه تلك الأراضي وأخرب القرى والبلاد وأتلف المزارع وانقطعت الطرق حول مدينة الإسكندرية وامتنع دخول ماء النيل إلى أهلها فلم يصل إليهم إلا ما يصلهم من جهة البحر في السفن والنقائر أو ما خزنوه من مياه الأمطار بالصهاريج وبعض العيون المستعذبة ثم جاء رجل من مهندسي دار السلطنة اسمه صالح أفندي ومعه بعض السفن تحمل الأخشاب العظيمة والآلات الضخمة برسم بناء السد المذكور فاستمر العمل في ذلك عاماً ونصف العام حتى قارب التمام ففرح الناس بذلك واستبشر أهل القرى والنواحي فما هو إلا وقد وقعت هذه الحوادث واحتل على باشا قبطان ثغر رشيد وسار البرديسي لقتاله وخاف على باشا الطرابلسي من حضور البرديسي وفعله بالإسكندرية ما فعله برشيد فأمر فكسروا السد فأنهمر

وجه تلك الأراضي بالماء المالح فتزح أهل الإسكندرية وتبدل عمارها خراباً.

ووصل الحاج على باشا إلى القاهرة أسيراً فأكرموا نزله ورتبوا له المرتبات من مأكول ومشروب وأرسل البرديسى يطلب المدد فأمدوه فسار من رشيد إلى دمنهور أياماً يدبر أمر الهجوم على الإسكندرية وكيفية الوصول إليها وطالت أيام مكثه فداخل جنوده الملل واعتري أمورهم الفتور والكسل فطالبوا البرديسى بجماعيهم وعلوفاتهم ولم يكن عنده منها شيء فخشى العقاب ورجع إلى القاهرة وقد مات منهم خلق كثير بأسباب الجوع والحرب ودخل الجيزة فى السادس من جمادى الثانية فخرج الأمراء والأعيان للملاقاته فلما أصبح يوم السبت سابعه عبر (محمد على) سرجشمة النيل إلى الجيزة وعبر معه طوائف الأرئود إلى مصر وكذلك البرديسى فخرج عليهم الفقراء وبأيديهم المقاطف والغلقان وصاحوا بمحمد على والبرديسى واستغاثوا ويكوا من الجوع فلاتفهم البرديسى وأصبح وقد بعث بمحمد على وخازن داره إلى بولاق ومصر القديمة وأخرجوا جميع ما فيها من الغلال إلى السواحل فاجتمع العالم الكثير من الرجال والنساء فامتاروا بحسب الحاجة واطمأن الناس واشترى الخبازون وفتحوا المخازن وكثر الخير وشبع الفقراء فمالت قلوب الرعية إلى البرديسى وأحبوه.

وأخذ البرديسى فى بناء الحصون والقلاع بجهة الناصرية وعند داره المعروفة بدار حسن كاشف شركس وأنشأ البوابات الكبيرة بجهة قنطرة السباع والمزار المعروف بكعب الأحبار فداخل الناس من ذلك الشكوك وخالجتهم الظنون فعمدوا إلى تعمیر الدور التى خربت الخواث المتراكمة والخطوب المتتابعة وضيّقوا الشوارع عما كانت عليه من السعة والرحب وقد كانت إلى ذلك الحين غاية فى السعة والانتظام وتناسب البناء وحسن وضعه كما هى الآن بأكبر شوارع القاهرة ومصر وأحدثوا فيها الدروب الكثيرة والدعامات البارزة والسباطات وغير ذلك مما أذهب رونقها وجعل أغلبها ظلاماً حتى فى رابعة النهار وزاد الحال وقلد أهل الأخطاط فعال بعضهم واهتموا لذلك اهتماماً عظيماً ونقل البرديسى جميع المدافع التى كانت بالأريكية بيت الباشا إلى تلك الحصون والأبراج وعززها بالذخيرة الكثيرة والمهمات وآلات الحرب كل هذا وعلى باشا الطرابلسى العامل على مصر من قبل دار السلطنة لا يتحرك من الإسكندرية ولا يأتى إلى القاهرة وكانت كتبه لا تنقطع عن إبراهيم بيك والبرديسى مشحونة بالوعيد والتهديد إن لم يتركوا القاهرة ويرحلوا عنها إلى الصعيد الأعلى

حتى تأتي رسل دار السلطنة ويأمر السلطان بما يراه فلم يسمعا له كلمة ولا تبعا له إشارة وجعلوا يتصرفون في البلاد تصرف المالك المطلق.

فلما كان يوم الأربعاء أول شعبان سنة ثمان عشرة قدم إلى مصر كاتب ديوان على باشا الطرابلسي ومعه مرسوم السلطان بالعفو عن جميع الأمراء المصريين إجابة لطلب صدر الدولة وعلى باشا الطرابلسي وأن يقيموا بمصر والقاهرة ولكل أمير منهم فايز خمسة عشر كيسا وحلوان المحلول ثمان سنوات وأن الأوسية والمضاف والبراني يضم إلى جانب الخزينة وأن لا يكون التصرف في جميع الأمور والأحكام إلا لعلى باشا والروزنامجي وأما الجمارك والمقاطعات فالكلمة فيها للدفتردار الذي يعين لذلك من قبل الدولة فلما قرئ هذا المرسوم بحضرة المشايخ والعلماء والوجهاء أظهروا البشر والسرور وأطلق لذلك عدة مدافع وكتبوا إلى على باشا يشكرونه ويطلبون منه الحضور إلى القاهرة ليتولى أمور البلاد ويدبر أمر خروج الحاج قبل فواته، فسار على باشا من الإسكندرية برا إلى القاهرة وعبر الألفي بعسكره وكذلك بعض الأمراء المصريين النيل إلى انبابه وساروا منها إلى مقربة من شلقان ونزلوا بها فلما كان الباشا على مقربة منها أيضاً نزل ببعض المزارع هو ومن معه من طوائف الانكشارية وكانوا عدة كثيرة ممن خرج هارباً من مصر والقاهرة وكان يتبعه بالبحر نحو ستين سفينة تحمل أثقاله ومتاعه وأتباعه وبعض العسكر فخرج إليه الألفي بعسكره ومحمد على سرجشمة وأحمد بيك وأتباعه ونصبوا خيامهم وأنزلوا أثقالهم على مقربة من معسكر الباشا فتكدر الباشا من ذلك وأرسل إلى الألفي يقول كيف تقدمون على أن تعسكروا بجندكم قبالة عسكري وأنتم أتباع السلطان وأنا نائبه على هذه البلاد فأجابه الألفي هذه منزلتنا ومحط عسكرنا ولم نفعل إلا ما وجب فاشتد غيظ الباشا وتقهقر بعسكره إلى الورا فانتقل محمد على وأحمد بيك بعسكرهما إلى ناحية النيل وعسكروا هناك وأظهر الألفي سوء النية والجفاء للباشا حتى قتلوا بعض أتباعه بمشهد منه مما كاد يقتله غماً.

قال بعض كتاب الأخبار: وكان الحامل على ذلك أنه لما طال مكث على باشا بمدينة الإسكندرية وقد أعيته الحيل في رد جماح الأمراء المصريين وإكراههم على الجلاء عن مصر إلى الصعيد الأعلى ورأى أنه لا بد من المسير إلى القاهرة والالتقاء بهم ووقوع ما لا تحمد عواقبه كاتب محمد على سرجشمة وكبار الأرناؤد وغيرهم من قبائل العرب ومشايخ البلاد يستميلهم ويعددهم ويمنيهم إن قاموا بذلك ويحذرهم

من الانضمام إلى أولئك الأمراء فنقل الأرنؤد ذلك إلى إبراهيم بيك والبرديسى وأطلعوهما على رسائل الباشا واتفقوا على أن يردوا عليه من كبار الأرنؤد بالطاعة والرضوخ لأمره والقيام لنصرته إذا حضر إلى القاهرة حتى إذا خرج الأمراء للسلام عليه يكبسون عليهم هم وعسكره فيستأصلونهم والموعد بشلقان وقد سهلوا له الأمر وهونوا عليه الصعب فراجت عليه حيلتهم وسار من الإسكندرية فى عدة وافرة من العسكر وحضر إلى الرحمانية وأعاد مخابرتهم واستوثق منهم فحضره على سرعة الحضور إلى شلقان فسار إليها فرحاً فلما صار على مقربة منها أمر فرتبوا المراكب التى كانت تسير معه بالنيل ووضعوا عليها المدافع وعملوا المتاريس وحصنوا موقعهم فخرج إليه الألفى كما تقدم من معه ونزل بخيامه أمام خيام الباشا وأرسل إليه بأن يتقهقر بعسكره إلى الوراء حتى تستقر القاعدة بينهما على أمر من الأمور فلم يجد الباشا بداً من ذلك وطلب الأرنؤد والعربان الذى عاهدهم فلم يجد منهم أحد فأكبر هذا الأمر وتأخر إلى زفينة ونزل بها وبينما هو على هذا الحال من الحركة والانتقال إذ انحدر حسين بيك الفرنجى أحد الأمراء المصريين بعسكره فى بعض السفن بالنيل حتى صاروا خلف سفن الباشا وأحاطوا بهم وأطلقوا عليهم القنابل والبنادق وساقوهم إلى القاهرة واستأسروهم ثم ذهبوا بهم إلى الجيزة وقد أعملوا السيف فيمن كان بها من الجند وقبضوا على مقدمهم المدعو مصطفى باشا وأخذوه أسيراً وأحاطوا بمعسكر على باشا بناحية زفينة ومنعوا عنهم الواصل وكانوا إذا خرج أحد من عسكره يريد الذهاب إلى جهة قبضوا عليه وقتلوه فاشتد حزن الباشا واضطرابه وأرسل إلى الألفى من يكلمه فى ذلك فأرسل إليه الألفى يقول: لم تكن لنعلم بخبر هذه الجيوش المخيمة حولك وبسبب اجتماعها إلا من أحب الناس إليك وأطوعهم لكلمتك فلما رأينا من كثرة قومك وأسلحتك ومهماتك وآلات حربك قابلنا عملك بمثله وماعهدنا بالولاء إذا حضروا إلينا إلا أن يكون حضورهم فى قلة من الاتباع لا أن يأتوا فى جيش جرار وقد قيل لك ذلك لما صرت على نية السير إلينا فإن شئت مسالمتنا فاصرف عنك هذه الأقوام وأتنا فى بطانتك لا غير على الرحب والسعة، فقال: لم يكن من أمر هذه الجيوش سوى الخروج إلى الأقطار الحجازية مدداً لشريف مكة وعوناً له على قتال الوهابيين فإذا وصلنا بهم إلى قلعة الجبل واستراحوا جهزناهم بما يلزم وسيرنا بهم إلى الشريف، فقليل له لم يبق فى القلعة من الأبنية بعد تخريب الفرنسيس لها ما هو أهل لسكانك ولذلك فقد أعددنا قصر العينى مقراً

لك ولا تبايعك وحاشيتك واصرف عنك العسكر فيسيرون إلى بركة الحجاج ويلبثون هناك حتى تتم احتياجاتهم ويسيرون إلى الأقطار الحجازية .

وترددت الرسل بينه وبين الألفى أياماً ثم حضر من قبل الباشا عابدى بيك مقدم الانكشارية واجتمع بالآلفى وكلمه فاستماله الألفى لجانبهم ومناه بالأمانى الطويلة وعاهدته على الخذلان بالباشا والانضمام إليه بمن معه من الجند وتحالفاً على ذلك وتعاقداً فانصرف عابدى بيك ودبر أمره مع أصحابه فحلفوا له يمين الطاعة وترك الباشا وشأنه، فلما استوثق الألفى من عابدى بيك وأصحابه أرسل يقول للباشا قد طال القال والقليل بيننا ولم نهتد إلى أمر من الأمور فلماذا أن تأتى إلينا فى بطانتك وحاشيتك على الرحب والسعة، ولما أن تبرز لقتالنا وضربوا للجواب موعداً فلما لم يأت الجواب زحف الألفى بعسكره وزحف بقية الأمراء بعساكرهم على معسكر الباشا وأحذقوا به من كل جانب فطلب الباشا عسكره ونادى فيهم بالخروج فلم يتحركوا وتناقلوا فلما تحقق خذلانهم له ركب فى خاصته وذهب إلى الألفى وترك خيامه وأثقاله فعند ذلك استقبله جميع الأمراء بالإعزاز وأنزلوه فى خيمة أعدوها له على مقربة من خيمة البرديسى وحضر إليه جميع أرباب الديوان ونقلوا جميع متاعه وأثقاله إلى قصر العينى وسيروا من كان معه من الجنود إلى شرقية بليس ليسيروا منها إلى الصالحية ثم انتقل جميع الأمراء المصريين مع الباشا إلى منية السيرج وياتوا ليلتهم فلما كان منتصف الليل والناس جميعاً نيام خرج من خيام الباشا فارس على فرس يعدو بسرعة فصهلت عند خروجه الخيل واضطرب من فى المعسكر فركب جماعة من العسكر وتراكموا خلفه فلم يلحقوه فسألوا الباشا عنه فأنكر معرفته وقال لعله لص فتخوفوا منه وأخذتهم الطيرة فأجلسوا حول مضربه فى تلك الليلة عدة من المماليك بالأسلحة وأصبحوا وقد قبضوا على رجل على ظهر هجين من ناحية البساتين زعموا أنهم وجدوا معه كتاباً من الباشا خطاباً إلى عثمان بيك حسن المقيم بجرجا يستقدمه إلى القاهرة ليكون له عوناً على الأمراء المصريين ويمينه بالأمانى الواسعة وبعده بتولية إدارة البلاد فلما كان يوم الأربعاء الثانى عشر شوال من السنة أى سنة ثمان عشرة بخيمة الباشا دخل على رضوان أغا كتيخدا البرديسى ومعه آخرون وجلسوا عنده فسألهم عن سبب حضورهم فقالوا أتينا لنسألك فيما إذا كنا على صلح تام مع الأمير اليوم أم لا، قال: بلى، فقال كتيخدا البرديسى: هلا كتبت إلى أحد قبل ذلك كتابة، قال لا، فقال: لعلك كتبت إلى الصعيد شيئاً قبل الآن، قال:

لم يكن ذلك أبداً، فأخرج له عند ذلك مكتوباً وناولوه إياه، فلما رآه قال: نعم هذا مما كتبناه بالإسكندرية قبل الصلح فقالوا إنا وجدناه بالأمس مع رسولك وتاريخه يدل على تحريره فتلجلج فقاموا وقالوا له قم فقال إلى أين قالوا إلى غزة حيث لا أمان لنا معك بعد ذلك ولم يمهله لكلام يقوله أو لعذر يديه وقدموا له فرساً وأركبوه عليه فرأى حوله عدة من الأمراء على أهبة الذهاب معه فاضطرب جداً وقال: إن اصحبنى هؤلاء فيلكونوا على بعد منى فى الحل والترحال فأجابوه إلى ذلك وركب أتباعه على دواب الحمل وساروا وهم فى أسوأ حال وقد حجز البرديسى جميع أنقاله ومتاعه وذخيرته وأصبح يوم الخميس ثالث عشرة فدخل الأمراء والجند والعسكر من الأرئود ومحمد على سرجه وجميع كبارهم وخلفهم الطبول والزمر أما الألفى فإنه ركب على زفيته فضرب أهلها وأحرق البلد وعرج على أجهور فضربها كذلك وشرد من فيها وذهب إلى نزلة عرب بلى بالجيزة فطرقهم فجأة وقتل منهم أناساً ونهب مواشيهم وخرب منازلهم وفعل كذلك بعدة بلاد أخرى لتحالفهم مع على باشا على قتال المصريين وتأهبهم لنصرته وسار المعينون مع على باشا فلم يصلوا على مقربة من القرين حتى مات حتف أنفه على ما قيل وقيل بل خنقوه.

قال بعض الكتاب: وكان على باشا المذكور سبى الخلق طاغية عنيدا جبارا فخورا معجبا بنفسه كثير المظالم مستبداً براهيه فعل بأهل الإسكندرية من الجور والظلم والمصادرة مالا يكاد يدخل تحت الحصر وكان يقول لعسكره إني إن فتحت مصر ووطئت قدمي أرضها أبحثها لكم ثلاثاً تفعلون بها ما تحبون.

وعاد الألفى الصغير من قتاله لعرب الجيزة ومعه كثير من الغنائم ونزل بقصره الذى أنشأه بالجيزة وتفرقت عنه عساكره ولم يبق معه إلا القليل مع أمير المدافع ثم جاء الخبر من حاكم مدينة رشيد بوصول الألفى الكبير الذى كان قد سافر إلى لندن عاصمة الإنجليز كما سبقت الإشارة إلى ذلك فلما علم إبراهيم بيك والبرديسى بخبر وصوله خافا منه وأيقنا بخيبة الأمل لما له من الشهرة ونفوذ الكلمة فأضمرآ له سوء ودبرا أمورهما وكتماها وكتب البرديسى إلى مملوكه يحيى بيك حاكم رشيد يأمره بقتل الألفى بكل ما وصلت إليه حيلته وعبر هو النيل وعبر كذلك عدة من الأمراء إلى الجيزة وباتوا ليلتهم تلك بخيامهم وأظهروا أنهم يتأهبون للسفر فى آخر الليل مع الألفى الصغير للقاء الألفى الكبير وعبر أيضا حسين بيك الوشاش الألفى ونصب

خيامه على مقربة من النيل فلما كان خامس ساعة من تلك الليلة أرسلوا إلى حسن بيك يطلبونه فحضر مع عماليكه وكانوا قد رتبوا جماعة منهم تآنى بخيل ومصابيح ومشاعل من طريق القصر الذى يسكنه الألفى الصغير فقالوا له أين خيلك فأنا على أهبة الإسراء ليلا فى هذا الوقت إلى لقاء أخيـنا الألفى وها هو أخوك الألفى الصغير قد ركب وهو مقبل إلينا فنظر فرأى المشاعل والخيل فلم يشك فى صحة ذلك ولم يخطر بباله غدرهم له فأمر عماليكه أن يذهبوا ويأتوا بالخيل وبقي هو وحده ينتظر فرسه فخرج عليه نفر من الحـباء وقتلوه بينهم وأرسلوا إلى البردينى بالخبر وكان محمد على سرجشمه وأحمد بيك وبقيـة كبار الأرـنوط قد عبروا إلى الشاطئ الثانى من النيل وترفعوا ليلا وكمـنوا ينتظرون الإشارة فلما علموا بالخبر زحفوا على قصر الألفى الصغير وأحاطوا به وقد ضموا إليهم مقدم أصحاب مدافع الألفى وأمير عسكره فعطل المدافع وأخذ محمد على سرجشمه يدبر أمر إحاطة القصر بطوائف الأرـنود إلى آخر الليل فجاء إلى الألفى من أيقظه من نومه وأعلمه بخبر قتل حسين بيك وإحاطتهم بالقصر فتأهب للقتال وطلب أمير مدافعه فلم يجده وأعلموه بما فعل بالمدافع فركب فرسه وخرج وخرجت معه أتباعه ببعض المتاع والأموال فركب محمد على سرجشمه وأحمد بيك ونفر من الأرـنوط خلفه فلم يدركوه وقد اشتغل بقيـة العسكر بنهب القصر وأخذ جميع ما فيه من أثاث ومتاع وهجموا على بيت كاتبه المعلم غالى ونهبوه وكذلك نهبوا جميع دور أتباعه وعماليكه وأخذوا ما كان عند كاتبه المذكور من الأموال ثم نهبوا جميع دور الجيزة وفعلوا بها ما فعلوه بدمياط من سبي النساء وفض الأبنكار وأصبح الناس فى القاهرة وهم لا يعرفون شيئا مما وقع إلا ما علموه من صياح النساء وجوارى حسين بيك فى داره .

أما الألفى الكبير فإنه لما وصل إلى رشيد قابله حاكمها بغاية الأبهة والاحتفال ولم يكن معه إلا خاصة عماليكه وجوـخداره تـتمة ستة عشر ولم يـقم برشيد سوى ليلة ضيفا عند أحد التجار وأنزل أمتعته فى سفن أربعة صغيرة وانتقل فى آخر الليل إلى دار قنصل الإنجليز وأصبح فأهدى إليه القنصل حراقة لطيفة فنزل بها وسار إلى مصر فعانده الريح وكان لما جاء الخبر بوصولـه إلى مدينة رشيد سير الألفى الصغير لحضوره ذهابية فانتحـدت من بولاق إلى رشيد فلاقوه عند بلدة نادر بعد نصف الليل فلما أصبح نزل بالذهابية وسار إلى منوف العـلا فأقام بها يوما ثم سار والريح تعاكسه إلى وقت الظهيرة فلاقاه عدة من الأرـنوط المرسلين لقتاله فى أربع من السفن الصغيرة فى

مضيق التربة فسلم عليهم فردوا عليه السلام فسألهم بعض أتباعه إلى أين ذاهبون قالوا نريد الألفى وقد تناجى الملاحون فعرف ملاحوا مركب الألفى ماجرى بمصر فأخبروا الألفى بالخبر فكذبه وقال هذا شيء لا يكون أبدا وقد تغربت وركبت الأخطار وقضيت سنة بين ظهرائى الإنجليز أعمل على تعزيز جانبهم وإعلاء كلمتهم رغما من مكاييد رجال السلطنة ويعاملوننى بهذا القبيح فلعلها حادثة وقعت بينهم وبين طوائف العسكر ولم تمض إلا ساعة أو نحوها حتى قيل له إن طائفة من الأرئوط أدركوا الحراقة خلف ونهبوا ما بها من أثقال ومتاع فكاد يسقط فى يده وتحقق الغدر وأنه مأخوذ لا محالة فنزل بإحدى السفن الصغيرة ونزل معه بماليكه كافة وأخذوا بالمجازيف وهو يستحثهم حتى خرجوا من تلك التربة إلى ظهر النيل ولم يسر إلا قليلا حتى لاقت طائفة أخرى فى سفينتين ومعهم أحد أتباع البرديسى فلم ينظروا سفينة الألفى أو أنظروها ولم يعرفوه فجعل يجد فى السير حتى وصل إلى شبرا الشهائية فنظر وإذا بساع مقبل من مصر فطلبه وسأله فأعلمه أنه مرسل إلى بيت سليمان كاشف البواب ليخبر بما جرى فعند ذلك تحقق الخبر ونزل إلى البر وأمر بالسفينة فأغرقوها وسار فى بماليكه على أقدامهم ولم يزالوا يجدون السير حتى وصلوا إلى ناحية قرانفيل ودخل إلى نجع عرب الحويطات والتجأ إلى امرأة منهم فأجارته ولبت دعوته وأركبته فرسا وسيرت معه اثنين على الهجن إلى ناحية الجبل فساروا إلى الخانكاه ليلا وبماليكه خلفهم مشاة فلاقته طائفة من العربان فأحاطوا بهم فاشتغل المماليك بقتالهم فتركهم الألفى وسار مع أصحاب الهجن ومضى وقد سمع الجند القرييون منهم وفيهم البرديسى أصوات البنادق فأسرعوا إليهم وسألهم عن أستاذهم فقالوا قد كان معنا ثم تركنا وسار إلى الجبل فأمر البرديسى جميع من كان معه من الجنود بأن يتفرقوا ويضبطوا جميع المسالك والطرق ومن أدركه منهم يقتله فى الحال فذهبوا خلفه وتفرقوا فى كل صوب وناحية فلم يعثر به أحد ولحق به جماعة العربان الذين قاتلوا بماليكه وأرادوا القبض عليه فنثر عليهم ما كان معه من الذهب والجواهر وألقى عنه فروته السمور فاشتغلوا عنه فتركهم وسار وغاب أمره فجعلوا يبحثون عليه وانتشرت طوائفهم فى الجهات شرقا وغربا وتتبعوا أقاربه وأتباعه ففر من فر وقبض على من قبض عليه وأدرك جماعة الأرئوط سفينة التى كانت تحمل متاعه وأثقاله وكانت شيئا يجل عن الوصف من أموال وطوائف الإنجليز وجوخ وأسلحة وجواهر أهداها له ملك الإنجليز وأكابر دولته ومبلغا من المال لمشتري غلال لخدمة ملك الإنجليز ثم أغرقوا تلك السفن فى النيل .

أما الألفى الصغير فإنه سار من فوره إلى الصعيد وفرّض على البلاد الفرد والكلف وطالبهم بها. وشدّد في الطلب فكان كل من عصاه أو توانى في الدفع نهيه وأحرق داره. وشرّد عياله فكتب إبراهيم بيك والبرديسى لكافة الأمراء والحكام بالأقاليم بالاهتمام فى القبض عليه وفى البحث والتفتيش على الألفى الكبير فأخذوا الناس بالشبهات وكثر الوشاة على أبوابهم فقتلوا بسبب الهاريين خلقا كثيرا وأخرجوا جماعة كثيرة على ظهور الخيل والهجن يتبعون أثر الألفى الكبير وكلهم من أصحاب البرديسى وخواصه الذين عليهم معتمدّه وأصبح البرديسى ولم يبق حوله من أصحابه إلا النزر اليسير.

(مطلب)

(فتنة الأرنبوط وظهور كلمة محمد على سر جشمه)

ولم تكن هذه الحوادث المتراكمة والإحزن المتوالية لتشغل جماعة الأرنبوط عن طلب جماكيهم المتأخرة وعلوفاتهم الموقوفة ولم يحل عندهم محلها ما نهيه من متاع وأموال وغيره فى خلال تلك الحوادث فضلا عما كانوا يخطفونه فى كل يوم من المارة وأبناء السبيل فاجتمعوا يوما وذهبوا إلى كبارهم فى طلب الجماكى فوجهوا بهم إلى الأمراء المصريين وطالبوهم ففرضوا لهم مائتى ألف ريال على أقباط مصر منها خمسون ألفا على المعلم غالى كاتب الألفى وثلاثون ألفا على تركة المعلم بقطر المحاسب كاتب البرديسى والمائة والعشرون موزعة عليهم فلم يكتفوا بذلك وتحزبوا فرقا وطافوا فى الشوارع والطرق يخطفون ما بأيدي الناس ويغتضبون النساء بلا تحاش ولا خوف وقصدوا الصعود إلى قلعة الجبل ليملكوها لكي يدمروا المدينة فلم يتمكنوا من ذلك واشتدت حركتهم وكثر تطوافهم فقتلوا ونهبوا وفعلوا ما لا خير فيه يوما وليلة وأصبحوا فركب محمد على سر جشمه ونادى بالأمان وجمع إليه كبار العسكر وأعلمهم بأن الأمراء مهتمون بصرف الجماكى بواسطة تقرير فردة على الأهالى فأسكنوا هياج العسكر وقام المحرقى بجمع هذه الفردة وشرعوا فى الإحصاء وفرضوها على العقار والأملاك أجرة سنة يقوم بدفع نصفها المستأجر والنصف الثانى يدفعه صاحب الملك وطاف لذلك الكتاب والمهندسون ومع كل طائفة منهم نفر من الجند فنزل بالناس ما لا يوصف من الغم مع ما هم فيه من القحط والغلاء فضجوا واستغاثوا وذهب جماعة من أصحاب الجباية إلى باب الشرعية

ودخلوا درب مصطفى فخرج إليهم الفقراء وصاحوا في وجوههم وسبوا ورجموا بالأحجار وخرج النساء جماعات يصرخن ويولولن بأيديهن دفوف وطبول يضربن عليها ويندبن ويتغنين ويقلن كلاما على الأمراء مرتبا ويجهرن بقولهن «إيش تأخذ من تفلىسى يابرديسى» وصبغن أيديهن بالنيلة فاقتدى بهن غيرهن وخرج الرجال ومعهم الطبول والبيارق وأغلقوا الأسواق والوكائل وحضر الجمع الكثير إلى الجامع الأزهر فركب المشايخ معهم إلى حيث الأمراء وكلموهم في الأمر ثم رجعوا وأمامهم المناداة بإبطال تلك الفردة فسكن الحال وخمدت نار هذه الفتنة.

قال صاحب عجائب الآثار: وكانت هذه الفعلة من جملة الدسائس الشيطانية فإن محمد على لما حرش العساكر على محمد باشا خسروا وأزال دولته وأوقع به ما أوقع بمعونة طاهر باشا والأرنؤط ثم بالأتراك عليه حتى أوقع به أيضا وظهر أمر أحمد باشا وعرف أنه إن تم له الأمر وقويت شوكة الأتراك لا يقون عليه فعاجله وأزاله بمعونة الأمراء المصريين واستقر معهم حتى أوقع باشتراكهم قتل الدفتردار والكتخدا ثم محاربة محمد باشا بدمياط حتى أخذه أسيرا ثم التحيل على على باشا الطرابلسي حتى أوقعه في فخهم وأنزلوه وقتلوه ونهبوا كل ذلك وهو يظهر المصافاة والمصادقة للمصريين وخصوصا للبرديسي فإنه تأخى معه وجرح كل منهما نفسه ولحس من دم الآخر قال: واغتر به البرديسي وراجت سوقه عليه وصدقه وتعصد به واصطفاه دون خشداشينه وتحصن بعساكره وأقامهم حوله في الأبراج وفعل بمعونتهم ما فعله بالآلفي وأتباعه وشردهم وقص جناحه بيده وشرد البواقي وفرقهم في النواحي في طلبهم فعند ذلك استقلوهم في أعينهم وزالت هيبتهم من قلوبهم وعلموا خيانتهم وسفهوا رأيهم واستضعفوا جانبهم وشمخوا عليهم وفتحوا باب الشر بطلب العلوفة مع الإحجام خوفا من قيام أهل البلد معهم ولعلمهم بميلهم الباطنى إليهم فاضطروهم إلى عمل هذه الفردة ونسب فعلها إلى البرديسي فثارت العامة وحصل ما حصل وعند ذلك تبرا محمد على من ذلك وساعدوهم في دفعهم عنهم فمالت قلوبهم إليهم ونسوا قبائحهم وابتهلوا إلى الله في إزالة الأمراء وكرهوهم وجهروا بالدعاء عليهم وتحقق العساكر منهم ذلك، قال: وانحرف الأمراء على الرعية باطنا بل أظهر البرديسي الغيظ والانحراف من أهل مصر وخرج من بيته مغضبا إلى جهة مصر القديمة وهو يلعن أهل مصر ويقول لابد من تقريرها عليهم ثلاث سنوات وأفعل بهم وأفعل حيث لم يمثلوا لأوامرنا أه.

ورأى البرديسى من خروج أهل البلد والنهاب نار الفتنة ما أذهله وأخافه ومن عبث الأرنبوط وتطاول أيديهم إلى النهب والسلب وخطف النساء والصبيان والمطالبة بالجماكى المتأخرة وعدم الوقوف عند حد مع الاستخفاف بأمره ما أذهب صبره وضاق معه صدره فاجتمع بالأمراء واشتوروا ثم أخذوا يدبرون على العسكر فأرسلوا إلى أصحابهم المتفرقين فى الجهات القبلىة والبحرىة يطلبونهم للحضور فأرسلوا إلى حسين بيك الوالى ورستم بيك من الشرقىة وإسماعيل بيك ومحمد بيك المنفوخ لىأتيا من شرق أطفيح وقد كانوا جميعا يرصدون الألفى ويتنظرونه واستقدموا حاكم الصعيد بمن حوله من الكشاف والأمراء وحاكم رشيد وحاكم دمياط وأصعدوا محمد باشا المسجون الذى سبق الكلام عنه إلى قلعة الجبل فأحس جماعة الأرنبوط بما وراء ذلك فبادروا واجتمعوا بالأزبكية فى يوم الأحد ثان عشرىنه ثم ذهب جمع منهم إلى إبراهيم بيك واحتاطوا ببيته بالداوىة وكذلك ببيت البرديسى بالناصرىة وفرقوا حول بيوت باقى الأمراء والكشاف وغيرهم وكان ذلك وقت العصر فلما علم البرديسى بإحاطة الأرنبوط لداره رتب أموره وأخذ معه أمواله وركب فى خاصته على الهجن وذهب إلى ناحية مصر القديمة وكان الأرنبوط قد نقبوا نقبا من حائط الجنىنة التى خلف داره ودخلوا منه إلى الدار فوجدوا البرديسى قد خرج بمن معه من الممالك وبعض الجند والأتباع فقاتلوا من وجدوه ونهبوا ما فى الدار من فرش ومتاع وخرجوا فعاثوا وأفسدوا وقتلوا وسبوا وتطاولت أيديهم أيضا إلى بيوت الناس على اختلاف طبقاتهم واشتدت الفتنة وكثر صياح النساء وبكاء الأطفال فتحصن الناس فى البيوت ورموا بالأحجار من الشبايك إلى أن خيم ظلام الليل، فلما كانت الساعة السابعة من الليل أرسل محمد على سرجشمه طائفة من الأرنبوط إلى قاضى القضاة ومعهم مرسوم السلطان بولاية أحمد خورشيد باشا حاكم الإسكندرىة على ديار مصر ورسم للقاضى أن يجمع المشايخ والعلماء فى الصباح لىستلى عليهم ذلك المرسوم فاستغرب القاضى ذلك وامتنع من جمع العلماء والمشايخ نظرا لاشتداد الفتنة وتطواف جماعة الأرنبوط بالشوارع والطرقات وقتلهم لكل من وقع فى أيديهم وأصبحوا وقد اشتدت الحركة وكثر الرمى بالبنادق على بيوت الأمراء فهرب الكثير منهم وخرجوا على وجوههم وعلم إبراهيم بيك الكبير بخروج البرديسى فى عماليكه وأتباعه فخرج هو كذلك فىمن بقى من عماليكه وأتباعه ولم يزل سائرا حتى خرج إلى الرملة وقد هدم فى طريقه أربعة متاريس وأصيب بعض عماليكه وخيله وأتباعه وأصيب كذلك كتخدها فمات عند باب العزب.

مطلب

إخراج محمد خسرو باشا من معقله وتوليته الإمارة

على مصر بمعونة محمد على سرجشمه

وكان بعض الأمراء المصريين قد تعوقوا بقلعة الجبل فتحصنوا بها ووجهوا أفواه المدافع نحو مواقع وبيوت الأرناؤوط وتابعوا الرمي بالقنابل عليها وعلى ناحية الأربكية وظلوا على هذا الحال إلى الضحوة الكبرى فجاءهم الخبر بفرار إبراهيم بيك والبرديسي ومن أمكنه الفرار من بقية الأمراء فركنوا هم كذلك إلى الفرار وهموا بأخذ محمد باشا وعلى قبطان باشا وإبراهيم باشا الذين كانوا في حبوس القلعة السابق الكلام عليهم فلم تمكنهم العساكر المغاربة من ذلك فلما نزلوا من باب الجبل قام المغاربة ونهبوا ما في دار الضرب وعاثوا في القلعة فأخذوا ما في المخازن السلطانية وغيرها ثم صعد محمد على سرجشمه إليها في نفر من الأرناؤوط وتسلمها من غير عمانع ولبت بها برهة ثم نزل منها وقد أنزل معه محمد خسرو باشا الذي كان معتقلاً وأماهم المناذرة بالأمان والأطمئنان وشاع خبر خروج محمد باشا خسرو من معقله ورجوعه إلى مسند الولاية على مصر فخرج الأعيان والمشايخ للقائه وذهبوا إلى بيت محمد على سرجشمه ليهنؤه فقابلهم ولأطفهم فكانت مدة حبسه ثمانية أشهر كاملة حيث جاء إلى مصر بعد أسره في دمياط في آخر ربيع الأول وكان خروجه على يدي محمد على سرجشمه في آخر يوم من ذى القعدة وظن محمد خسرو باشا أن قد أقبلت عليه السعادة بعد إدارها فجعل يتصرف في الأمور ويعمل على تسكين خواطر الأرناؤوط ويشير على محمد على بعمل ما يشاء عمله وهو فرح مسرور، فلما كانت ليلة الأربعاء ثانی المحرم افتتح سنة تسع عشرة لم يشعر محمد خسرو باشا إلا وقد دخل عليه جماعة من الأرناؤود وقبضوا عليه وقبض جماعة أخرى على إبراهيم باشا ونزلوا بهما إلى بولاق القاهرة وأنزلوهما في إحدى السفن وأحاطوهما بالسيوف والبنادق فأنزعج خسرو باشا وقال إلى أين يا قوم وقد صرت في ذمة محمد على وأمانه فقالوا له حيث يشاء الله فسقط في يده وكانت ولايته في هذه المرة أشبه بولاية أحمد باشا الذي تولى بعد موت طاهر باشا يوما ونصف يوم.

مطلب

تبعيد محمد خسرو باشا وولاية أحمد خورشيد باشا

قال بعض الكتاب: وكان السبب في تبعيد خسرو باشا على هذه الصورة بغض أخوه طاهر باشا إليه وحقدهم عليه فخشي محمد على عاقبة بقاءه وأسرع في تبعيده

عن الديار المصرية فسكنت بتبعيده الفتنة وعادت الأمور إلى سابق مجراها، وصعد عابدى بيك أخو طاهر باشا إلى قلعة الجبل واستقر بها فى جمع كثير من الأرناؤوط ووردت الأخبار بمقدم أحمد خورشيد باشا وولايته على مصر فتأهب محمد على للقاءه وبألف فى ذلك حتى وصل إلى القاهرة ودخل فى الموكب المعتاد ونزل بالدار التى أعدت له بالداودية فلم يقيم بها سوى يومين وانتقل منها إلى دار محمد على بالأزبكية ولم يكد يستقر به المنصب حتى شاع الخبر بظهور الألفى الكبير وقد كان متخفيا بشرقية بلبيس برأس الوادى عند شخص من العربان اسمه عشية فلم يزل عنده حتى رالت دولة البرديسى وتلاشت كلمته وتفرق أصحابه وانجلت الطرق من العيون والأرصاد التى كانت تتبع الألفى فركب فى عدة من الهجانة ومروا من خلف الجبل وسار إلى شرق أطفيح ونزل عند قبيلة المعازة فلما علم محمد على بخبره خافه وتطير منه وسير خلفه طائفة من الأرناؤوط وعلم جميع الأمراء الهاريين بظهور الألفى فجاءوا إليه واجتمعوا عليه عند الجيزة واجتمع إليهم العدد الكثير من عربان الهنادى والمماليك وقتلوا من خرج إليهم من الأرناؤوط فهزموهم شر هزيمة وكاد يستفحل أمرهم فركب عليهم محمد على فى جماعة كثيرة وقتلهم وأجلاهم عن الجيزة وقتل من العربان خلقا وشرّد من بقى منهم، وقد قتل وجرح كذلك من عسكر محمد على فترفع الأمراء إلى الصعيد وعاد محمد على ظافرا فلم تكن إلا أيام حتى عادوا إلى الجيزة وعاثوا فيها وأهلكوا الحرث والنسل وانتشروا بها انتشار الجراد ونزلوا على انبابة وضربوا أهلها ونهبوا ما عندهم فخرجوا هائمين على وجوههم وعبروا النيل إلى مصر والقاهرة فأخذ محمد على فى جمع عساكره وعبروا النيل إلى انبابة وعسكروا على مقربة منها وعملوا خندقا ومتاريس فزحف عليهم الأمراء والعربان وهجموا على المتاريس هجمات متتابعة ووقعت بين الفريقين مقتلة عظيمة أبلى فيها الفريقان نحو نصف النهار ثم انجلت الحرب بينهم وترفع الأمراء والعربان ولم يبلغوا من العساكر وقد قتل من الأمراء عدة كثيرة ولم تكن إلا أيام قليلة حتى عادوا ووصل فريق منهم إلى قبة باب النصر والعادلية من خلف الجبل وجعلوا يغدون ويروحون خلف باب النصر من خارج وباب الفتوح والشيخ قمر الدمرداش ونهبوا الوابلى وجميع ما جاوره ودخلوا الدور وأخذوا ما فيها فخرج أهل تلك الجهات على وجوههم ودخلوا إلى القاهرة فرسم الباشا إلى محمد على بالخروج فى عسكره فخرجوا من باب النصر وعملوا المتاريس عند الباب المذكور فتفرق العربان والأمراء فى إقليم الشرقية والقليوبية وسار منهم طائفة إلى بلبيس فحاصروا بها كاشف الشرقية يومين ثم دخلوها عنوة وقتلوا ونهبوا وقبضوا على

الكاشف واثنين من كبار العسكر ثم حاصروا كاشف القليوبية وأخذوا أحماله ومتاعه وتركوه بعد قتال فهرب بمن بقى معه إلى القاهرة وطلبوا مشايخ البلاد والزموم بالكلف وفرّدا على القرى الفرد الشاقة وقيدوا بطلبها جماعة العربان فكان كل من استعظم الأمر أو عصى حاربوا قريته ونهبوها وسبوا نساءها وقتلوا أهلها وأحرقوا أجزائها فاشتد الكرب وعظم الخطب وسار محمد على بعسكره خلفهم فوقعت بينه وبينهم وقائع وحروب مات فيها خلق من الفريقين ونزل من بقلعة الجبل من الأرناؤوط للقتال فصعد إليها أحمد خورشيد باشا الوالى وسكن فيها بخدمه وأتباعه وأخذ يتصرف فى الأمور ويقرر الكلف والأموال على البلاد فضرب على أهل مصر والقاهرة خمسة آلاف كيس نقرة منها على أعيان القبط وعظمائهم ألف وخمسمائة وجملة أخرى على الملتزمين وثمانمائة كيس على بقية نساء الأمراء المصريين الأحياء منهم والأموات فضج الناس وطلبوا التخفيف فلم ينالوه وطاف المعينون على بيوت نساء الأمراء يجتمعون المقرر فكان إذا تأخرت إحداهن أو طلبت المهلة أيا ما لازموا بابها وطالبوها بما يأكلون وبما يشربون وبما يفرشون لجلسوسهم ونومهم فلا يسعها إلا السعى والخلاص على أى حال كان ومع ما جمعه أحمد باشا من هذه الأموال الطائلة والمغارم الفادحة فإنه لم يلتفت لشكوى طوائف الأرناؤوط من تأخير صرف جماكيهم ولم يعطهم منها شيئا فذهب فريق منهم إلى محمد على وأحمد بيك وكبارهم وشكوا إليهم فكلم محمد على باشا فى أمرهم فلم يصغ لقوله وطال الحال عليهم وهم لا ينكفون عن الشكوى فلما كان أحد الأيام جاء منهم جماعة إلى القاهرة يطالبون بما لهم وترىص آخرون بنواحي بهتيم وبلقس ومسطرد بعد أن أخرجوا أهلها منها ونهبوا ما فيها من ماشية وغلل وغيرها وترسوا فيها ونصبوا خيامهم على أسطحه دورها وعملوا بعض المتاريس خارجها ونصبوا عليها ما كان معهم من المدافع وكان إذا مر أحد رموا عليه بالبنادق فلم يجسر أحد من العسكر على الدنو منهم وسعت بينهم وبين أحمد باشا رسل الصلح فوعدهم بصرف جميع ما تأخر لهم فقالوا لا تنفك عما نحن فيه حتى تأتونا بالمال هنا فأصبحوا وقد أرسل الباشا أوراقا إلى الحرف والصنائع سموها تشاييه بطلب غرامة قدرها خمسمائة كيس وطاف المكلفون بجمعها فى الأخطاط فضج الناس وتحزبوا وصاحوا فى وجوه أصحاب الجباية واجتمع الجمع الكثير منهم وساروا إلى الجامع الأزهر فتبعتهم الغوغاء والصبيان وهم فى ضجة عظيمة وأمامهم الطبول وشكوا أمرهم للمشايخ وقالوا قد بلغت الروح التراقى فلاطفهم المشايخ فلم ينكفوا عما هم عليه وصعد جماعة على منارات المساجد وصاروا يصرخون ويسبون وينادون بالويل والثبور على الباشا وأعوانه.

قال صاحب عجائب الآثار: وتحلقوا بمقصورة الجامع يدعون ويضرعون ويضجون «بيالطيف» وأغلقت جميع الأسواق والخوانيت ووصل الخبر إلى الباشا وسمع صياحهم وضجيجهم من قلعة الجبل فأرسل يقول إلى السيد عمر النقيب قد رفعنا الفردة عن الفقراء فبلغهم ذلك فأرسل يقول إن الجميع فقراء أو ما كفى ما هم فيه من القحط والغلاء والوباء وعدم الأمن على الأعراض والأرواح حتى تطالبوهم بجوامك عسكريكم فأمر الباشا الأغا فتزل ومعه عدة من العسكر وجلس بالغورية وهو يأمر الناس بفتح الخوانيت ويتوعد من يتخلف فلم يلتفتوا لقوله وكان كلما شدد معهم في القول صاحوا في وجهه وضجوا وابتهلوا إلى الله ومازالوا على هذا الحال حتى جاء رسول من عند الباشا ومعه مرسوم بإبطال تلك الفردة وكف المعينين عن طلبها فسكنت عند ذلك الفتنة وتفرقت تلك الأحزاب وأصبحوا وقد فتحوا الخوانيت فعاد طوائف الأرمنوط إلى المطالبة بجماكيهم وأكثروا من العبث في المدينة وقطع من كان منهم مخيما ببلقسط الطرق على المارة ومنعوا السفن فسير الباشا جماعة من العساكر المصرية لقتالهم فلم يبلغوا منهم ماربأ وانحاز المصريون إلى ناحية شلقان بمن معهم من الجرحى والموتى فكانوا كثيرين جدا وأخرج في هذه الواقعة عابدى بيك أخى طاهر باشا.

وبينما كانت طوائف الأرمنوط تطالب بالتأخر من جماكيها وعلوفاتها كان الأمراء المصريون ومن معهم يحاولون الدنو من مصر والقاهرة ويقبضون على من يصادفونه من الجند والرعية ويسلبون المارة ووصلت بعض طلائعهم من عربان وممالك إلى خارج باب النصر وظاهر الحسينية وناحية الزاوية الحمراء وجزيرة بدران جهة الحلبي وعاثوا في تلك النواحي وحالوا بين من خرج من عسكر الباشا لقتال الأرمنوط وبين معسكرهم وظفروا بهم ونالوا منهم وأخذوا جميع ما كان معهم من مؤنة وسلاح وذخيرة وجاء الخبر بذلك إلى الباشا فتزل من قلعة الجبل ومعه الجمع الكثير من الجند وسار إلى بولاق ثم إلى الزاوية الحمراء وأمر بآبواب المدينة فأغلقت وقاتل من وجده منهم فلم يظفر فرجع على غير طائل وقد ترفع المصريون إلى مشتهر وبنها العسل ومعهم المنهوبات من متاع ومشاة وغير ذلك وخرج خلفهم محمد على سرجشمه وحسن بيك حتى وصلوا إلى قليب فلم يظفروا بهم ورجعوا على أعقابهم إلى القاهرة وأرسل في هذا الحين الألفى الكبير إلى الباشا يطلب منه الإجازة بحضوره إلى مصر وأنه على ما يعهده فيه من الإخلاص والولاء فأبى عليه ذلك وأرسل إليه يقول إن كنت على ما عهدناه فيك من الولاء فالزم مقرك بجرجا

التي قد أقطعناها إليك ولا تقدم إلى القاهرة في هذا الحين حتى نستقدمك عند الحاجة فلم يذعن الألفى لقوله وزحف هو وعثمان بيك حسن ومن معهما من المماليك والأتباع وبعض الجند والكشاف فوصل الألفى إلى بنى سويف ووصل عثمان بيك قبالة بالجانب الشرقي من النيل وأرسل الألفى عند وصوله خطابا إلى المشايخ يقول: قد حافظنا على ولائنا واستمسكنا بعروة الإخلاص الوثقى ولازمنا ما أقطعنا إياه الباشا من البلاد ولم نتعدّها إلى الآن أما وقد مس نساءنا الضر وأصبحت ذرارينا عرضة للتشريد بما ضرب عليهم من المغارم والكلف فلم نر بداً من الانحدار إلى القاهرة رغما عن كل ممانع حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا فلما وصل الخطاب إلى المشايخ خافوا من كتمانهم وأطلعوا الباشا عليه وسألوه الإجازة للألفى فأبأها عليه وقال: قد كان نساؤهم بين ظهرانينا كما كانوا بين ظهرائي الفرنسيين وقد صادورهن وهم أعداء الدين واليوم هن معنا في قرار مكين لا خوف عليهن ولا تضيق فإن عاد الألفى ومن معه إلى مقرهم سعينا في إصلاح شأنهم وأرجعناهم إلى عيالهم وإلا شردناهم وعملنا على قطع شأفتهم فانصرف المشايخ وأمر الباشا محمد على سرجشمه فخرج بعسكره إلى ناحية الإمام الليث وحفروا هناك خندقا وعملوا متاريس وبالقوا في إحكامها وترتيبها وأكثروا من إخراج الأسلحة وآلات الحرب وكان العدو أمامهم وقد سدّ على مصر والقاهرة من الجانبين القبلى والبحرى؛ فكان أصحاب إبراهيم بيك والبرديسى وطوائف الأرناؤوط يعيشون في البلاد من شلقان إلى جوف الشرقية والغربية والمنوفية وجماعة الألفى يعيشون فيها من الصعيد الأعلى إلى الجيزة وما جاورها فعمت القوضى وارتفع الأمن وخيفت المسالك وكثر القتل والنهب في الليل والنهار وانضم الجمع الكثير من طوائف الأرناؤوط إلى الأمراء المصريين فتقوت بهم عزائمهم وتناولت أيديهم إلى كل فساد وشر ووصل أيضا الألفى الصغير بطوائفه إلى انبابة وأراد الزحف على المدينة فأطلق عساكر محمد على عليهم المدافع من بولاق القاهرة ومراكب البحر ومنعتهم من الدنو من المدينة واشتدت الأزمة واستحكمت على من بمصر والقاهرة حلقاتها وكثر تطير الباشا وأخذته للناس بالشبهات فأكثر من الحبس والقتل بأضعف الأسباب حتى كادت تزول هيئته وتضعف كلمته وانتقل محمد على بعسكره إلى بلدة طنط جهة براشيم التين وخلفه ببولاق حسن بيك وعسكره فوق بين محمد على والأمراء المصريين مقتلة عظيمة انجلت عن هزيمة المصريين فترفعوا بعد الهزيمة عن براشيم التين فتبعهم

بعساكره فترفعوا فعسكر تجاه البراشيم ولبت أياما ثم انحدر منها إلى القرافة بمصر ونزل على مقام عقبة بن عامر الجهني وقاتل من كان بتلك الجهة من أصحاب الألفى الكبير والصغير وأجلاهم عنها فساروا إلى طرا وتحصنوا بها وكانوا قد أخذوا برجها وتمكنوا مما حوله فكاتبهم محمد على وطلب صلحهم وخذعهم وأظهر لهم عجزه عن قتالهم فاغثروا وأبوا إلا القتال فأتى محمد على ليلا إلى الباشا وأخذ منه قدرا من المال ورجع إلى أصحابه فأنفق عليهم فتقوت عزيمتهم فلما كانت الساعة الخامسة من تلك الليلة ركب محمد على في نحو أربعة آلاف ما بين فارس وراجل وساروا حتى اقتربوا من حرس العدو في آخر السادسة فترجلوا وقسموا أنفسهم إلى ثلاث طوائف طائفة سارت نحو الدير وطائفة سارت نحو المتاريس والثالثة نحو الخيل وقد كان صالح بيك الألفى الصغير ومن معه في سعة من النوم فلم يشعروا إلا وقد صدموهم صدمة شديدة فاستيقظ القوم وبادروا إلى الهرب والنجاة فأخذ أصحاب محمد على الدير وملكوا الأبراج وكان بها العساكر العثمانية وقد أشرفوا على الاستئمان والتسليم وغنموا ما وجدوه من أسلحة وخيل وهجن ومتاع وكان شيئا كثيرا وعاد محمد على عند بزوغ الفجر بعساكره ومعه خمس رؤس وصعد إلى قلعة الجبل بالبرءوس فخلع عليه الباشا فروة سمور وعلقوا تلك البرءوس على سبيل الرميطة فلم تكن إلا أيام حتى عاد الألفى يشن الغارة على طرا وأبراجها وكذلك عاد إبراهيم بيك والبرديسي وعسكرهما يشنون الغارة على قليوب وبينها وضواحي القاهرة جميعها، فلما كان يوم الأحد عاشر ربيع الثاني خرج محمد على بعسكره وكذلك خرج عابدى بيك وحسن بيك إلى شبرا وقاتلوا حسين بيك المعروف بالأفرنجي قتالا عنيفا وثابروا على رمى القنابل إلى ضحوة النهار ثم التحم الفريقان واشتد الجلاذ بينهما إلى ما بعد نصف النهار، وصبر الفريقان وقتل بينهما خلق كثير من الأرناؤوط وطوائف المماليك وأكابر العسكر ثم انحاز كل إلى معسكره، وبعد هجعة من الليل اجتمع العسكر من طوائف الانكشارية والأرناؤوط وغيرهم وزحفوا على متاريس حسين بيك الأفرنجي وكبسوها وكان بها حسين بيك وعلى بيك أيوب وعدد كثير من الجند والمماليك ولم يمهلوهم حتى زحفوا على بقية المتاريس فملكوا منها متاريس شلقان ويسوس وانهزم المصريون وارتحلوا إلى الخانكة وأبى زعبل ثم عادوا فجمعوا من تشرد منهم وساروا من خلف المقطم إلى الصعيد .

وبعد أيام من وقوع هذه الحوادث سافر أخو طاهر باشا إلى الديار الرومية

وشاع الخبر بارتحال محمد على سر جشمه كذلك فتطير الناس من ذلك وأعقب هذه الإشاعة عبث العسكر بالأهالى وتطوافهم فى الأسواق يخطفون ما يشاؤون من السوق وأصحاب الحوانيت فضلا عن النساء وغيرهم، فلما كان ثانى يوم مر محمد على وخلفه عدة كبيرة من العسكر وهو ماش على أقدامه وأمامه المناداة بالأمان وعود الأمور إلى سابق مجراها فلم تطمئن قلوب الرعية بل زادوا فى التحذر، وكذلك تحذر طوائف الانكشارية لتعدى جماعة الأرنبوط عليهم وقتل بعضهم البعض فى الطرق والشوارع وفى وسط الأسواق جهارا ثم برز محمد على بعد أيام بعسكره إلى ناحية البساتين ولبث بها أياما والمناداة فى كل يوم فى جميع العسكر بالخروج والاستعداد لقتال الأمراء المصريين، فلما كان يوم السبت رابع عشر شعبان سار محمد على بعسكره إلى الصعيد، وسار آخرون أيضا إلى الأقاليم البحرية فالتقى محمد على بالآلى الكبير ولمومه عند منية ابن خصيب فوقع بينهما القتال وانتشبت الحرب وطالت أيامها فى البر والبحر وطلب محمد على المدد من الباشا فأمده وسير إليه كثيرا من الأسلحة ومعدات القتال والمؤنة وانتشرت عساكر الأمراء المصريين حتى وصلت إلى زاوية المصلوب وحاصروا من كانوا فى بوش والقشن وبنى سويف وكذلك من بالقيوم ووصلت مقدماتهم إلى ناحية الجيزة وطلبوا من أهالى تلك البلاد الكلف وضربوا عليهم المغارم كعادتهم وجبوها وأخذوا ما وجدوه فيها من غلال وغيره، فعبر كتخدا الباشا النيل إلى الجيزة وحصن حدودها وعمل فيها المتاريس والخنادق ورتب بها الجند المرابطين، وبعد قتال عنيف بين الآلى ومحمد على أياما كثيرا ارتحل الآلى عن منية ابن خصيب وترفع فدخلها محمد على بعسكره فلم يجد فيها شيئا لا من الذخيرة ولا من المؤنة فاستقر بها حتى يأتبه أمر الباشا، وطال القتال وقوتلت مصر والقاهرة من جميع الجهات واشتد الكرب وعم الهول والخطب فشكا الباشا أمره إلى الباب العالى وطلب منه المدد فأمده بطائفة من الدلاة فدخلت إلى القاهرة من العادلية فى سابع عشرى ذى الحجة ختام سنة تسع عشرة ومائتين وألف وهم فى عدة وافرة ومعهم مقدم اسمه ابن كور عبد الله فأنزلوهم ناحية الفسطاط والآثار وناحية البساتين، واهتم الباشا بأمرهم فرتب لهم الجماكى الكثيرة والعلوفات الزائدة وبالع فى تنظيم أمورهم وأكثر لهم من الأسلحة والكرع وجعل ينظر لكل طائفة من الأرنبوط والانكشارية وغيرهم دونهم من الأهمية والاهتمام، فلما علم محمد على وحسن باشا وهما فى منية ابن خصيب بخبر حضور أولئك الدلاة إلى القاهرة واهتمام الباشا بأمرهم وركونه إليهم دون بقية الجند وتقرب كبيرهم منه

ووثوقه به تطيرا من ذلك وأدركا ما خفى من نوايا الباشا وخشيا العاقبة فانسحبا بعسكرهما من منية ابن خصيب ورجعا إلى القاهرة فأغضب الباشا رجوعهما وجمع إليه المشايخ والوجاقية وأرياب الديوان وكلمهم فى أمر رجوع محمد علىّ وحسن باشا بغير إذن وتركهما القتال وقال: إنهما لم يرجعا إلا لامر يتويان فعله فما أن يرجعا لقتال الأعداء وإما أن يرحلا إلى بلادهما، قال: وقد أتانى كتاب بخط السلطان يفوض إلىّ فيه أن أولى من أشياء وأعزل من أشياء وأعطى وأمنع من أشياء فالصلحة فى أن تبقا عندى مع كبار الوجاقية حتى نرى ما يكون من وراء ذلك ثم رسم بخروج العسكر الدلاة المذكورين فخرجوا إلى طرا والجيزة ومعهم بعض الانكشارية والأرنؤوط ومعهم المدافع وآلات الحرب والذخيرة والمؤنة فلم يكن بأسرع من أن نزل محمد علىّ وحسن باشا بعسكرهما إلى طرا فلم يجسر الدلاة على ردّهم ولبثوا بطراً أياماً ثم صاروا يدخلون المدينة خفية حتى تكامل دخولهم ودخل كذلك محمد علىّ وحسن باشا ونزلا فى بيوتهما فازعج دخولهما الباشا وأغضبه جدا ومنع المشايخ والوجاقية من الذهاب إلى محمد علىّ، فقامت من هذا الحين الوحشة بين الباشا ومحمد علىّ وظهرت على كل منهما دلائل الانقباض وتحذر كل من صاحبه فأخذ محمد علىّ فى التدبير على أحمد باشا وخلعه من الولاية، وكذلك بدأت الوحشة بين جماعة الأرنؤوط والدلاة والانكشارية فكانوا على طرفى نقيض وكانت لا تمر ساعة من النهار إلا ويقع التشاحن بين أفرادهم فى الحوارى والطرقات، وزاد بهم الحال إلى حد القتل وتعدى فعلهم هذا إلى المارة وأبناء السبيل واددحت طرق مصر والقاهرة باخلاطهم، وعاث الدلاة بمصر القديمة فأخرجوا أهلها من دورهم وسكنوها بما فيها من أثاث ومتاع فخرج أهل مصر رجالاً ونساء وجاؤا إلى الأزهر وصاحوا على المشايخ واستغاثوا، فكلم المشايخ الباشا فى ذلك فرسم بخروج الدلاة على الفور وكتب مرسوماً بذلك فلم يسمعوا قوله ولا أعاروه جانب الاعتبار فخطب الباشا ثانياً فلم يأت شيئاً فاجتمع العدد العديد من الصبيان الصغار وطافوا يصيحون فى الأسواق ويأمرون الناس بغلق الحوانيت ويستصرخونهم، فقام الناس على ساق وقدم ووصل الخبر بقيامهم إلى الباشا فأرسل كتخده إلى الجامع الأزهر فلم يجد به أحداً من المشايخ فسار إلى بيت الشيخ الشرقاوى فرأى من تراحم العامة وتطوافهم بالشوارع والطرقات ما أزعجه فرجع فرجعه الصبيان بالأحجار وسبوه ولعنوه وبقيت الحال كذلك إلى يوم الجمعة عاشر صفر.



(مطلب)

(ولاية محمد عليّ على جدة وتوجيه رتبة الباشوية

إليه وما جرى بسبب ذلك من الحوادث والحزن)

واتفق أن قدم في هذا الحين قاصد من دار السلطنة ومعه تقليد لمحمد عليّ بولاية جدة فاستدعى إلى قلعة الجبل ليتسلم التقليد فأبى وتأخر فترددت الرسل بينه وبين الباشا، ومحمد عليّ يشدد في الامتناع وكأنه كان يخشى صعوده إلى قلعة الجبل أو هو يكره الولاية على جدة ولا يرضاهما وبعد أخذ وردّ وقع الاتفاق على أن ينزل أحمد باشا من القلعة إلى بيت سعيد أغا ويخلع على محمد عليّ خلعة التقليد هناك فكان نزلوه في ذلك اليوم الذي قام فيه العامة، فلما مر بين صفوف الغوغاء وزحام العامة صاحوا في وجهه وقالوا «ما يحل لك يا باشا» فهاله أمرهم وأسرع بالدخول إلى بيت سعيد أغا وحضر محمد عليّ وحسن باشا وعابدي بيك فقرأ عليهم فرمان التقليد وقد خطب فيه «بمحمد عليّ باشا» ثم قام أحمد باشا وخلع عليه خلعة التقليد وهي فروة وقاووق فلبسهما وركب يريد الانصراف فثار عليه العساكر وطالبوه بالجماكى والعلوفة فأحالهما على أحمد باشا، وسار إلى داره بالأزبكية وخلفه بعض خواصه وجماعة من أتباعه فكان ينثر قطع الذهب ودراهم الفضة بطول الطريق ووقف العسكر لأحمد باشا ومنعوه من الركوب فلاطفهم حسن باشا ومناهم ولم يتمكن أحمد باشا من الصعود إلى قلعة الجبل إلا بعد منتصف الليل، وظلت الحوانيت والأسواق مقفلة والصبيان لا يتكفون عن الصياح في الشوارع والطرقات والاستغاثة والنداء «يا لطيف».

مطلب

ما فعله العامة والشيخ الشرفاوى والسيد عمر النقيب مع محمد باشا

فلما كان يوم الأحد ثانی عشرة ركب المشايخ إلى بيت القاضى واجتمع به جماعة من المتعممين والعامة والصبيان وجعلوا يصرخون ويصيحون «شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم» قال بعض كتاب الأخبار: مع أنه لم يكن كاسلافه كثير الظلم والجور والعسف ولا سفاكا للدماء ومع ذلك فقد كثر الصياح وعلا الضجيج فكان منهم من يقول: يا لطيف، ومنهم من يقول: يارب يامتجلى أهلك طائفة العثمانيين، ومنهم من يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل وغير ذلك وطلبوا من القاضى

أن يرسم بإحضار أصحاب الحل والعقد من بطانة أحمد باشا لمجلس الشرع فاستحضروا وجلسوا بالمجلس الشرعى ووقع الجدل فانفقوا على تحرير ورقة بجميع طلبات الرعية، ففعلوا ذلك وذكروا فيها تعدى طوائف العسكر والإيذاء منهم للناس وإخراجهم من مساكنهم والمظالم والفرد وقبض الخراج معجلا وحق طرق المباشرين ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة وغير ذلك وأخذوا هذه الورقة معهم ووعدوا القاضى بالجواب فى غدا، فأرسل الباشا فى تلك الليلة إلى القاضى والمشايع يستقدمهم إليه بقلعة الجبل فاشتتروا فى أمر ذهابهم فعلم محمد على باشا بذلك وخاف أن يكون بذهابهم إلى الباشا خمود نار الفتنة وتفريق تلك الجموع، قال أصحاب الأخبار: وهذا لا يوافق مصلحته، فأرسل إلى القاضى والمشايع من يعلمهم بأن الباشا يريد الفتك بهم إن سعدوا إلى قلعة الجبل فخافوا ولم يصعدوا إليه فى تلك الليلة، فلما كان يوم الاثنين اجتمعوا ببيت القاضى وكذلك اجتمع العدد العديد من الغوغاء والعامّة فمنعواهم من الدخول وأقفلوا الأبواب وحضر بعض الأمراء فركبوا جميعا وساروا إلى محمد على باشا بمقره وخلفهم العامة والصبيان فى صياح وضجيج فدخلوا عليه وقد كان على علم بما هم فاعلوه وقالوا له: إنا لا نريد أن يكون أحمد باشا واليا علينا وقد اجتمعنا اليوم لخلعه فإن أطاع نجا وإن خالف عاملناه بما كسبت يده، فقال: ومن تريدون؟ قالوا: قد اخترناك بدلا منه بشروط، قيل: فامتنع فألحوا عليه وأكثروا من الإلحاح فرضى فأحضروا فروة سمور وقفطانا وكان السيد عمر النقيب قد أعدّهما فألبسه إياهما هو والشيخ الشرفاوى وذلك عند عصر يوم الأربعاء سادس صفر سنة عشرين ومائتين وألف هجرية، ثم طاف المتادون بذلك تلك الليلة فى جميع أزقة وحارات وشوارع القاهرة ومصر وأصبحوا وقد سبّروا إلى أحمد باشا يخبرونه بذلك ويطلبون منه أن ينزل من قلعة الجبل فلم يهمه الأمر ولم يكثر به وركب المشايخ فى الصباح ومعهم الجم الغفير من العامة وبأيديهم القرايين والعصى والمساوق وساروا إلى بركة الأزيكية حيث بيت محمد على باشا وضجوا وصاحوا ونادوا بالويل على أحمد باشا وزادوا فى سبه ولعنه والسيد عمر النقيب يحرض الناس ويشجعهم على ما هم عليه من الجلبة فتحصن الباشا بقلعة الجبل وشحنها بالذخيرة والمؤنة والأسلحة الكثيرة وانضم إليه عمر بيك الأرندى وصالح أغا قوش بعساكرهم وأقاموا معه بقلعة الجبل فأرسل محمد علي باشا إلى عمر بيك وصالح أغا جماعة يذكرون لهما ما اجتمع عليه رأى الجمهور من عزل أحمد باشا وخلع طاعته من أعناقهم ويجذرهما من فعل شيء ينجم عنه خروج الرعية وفعل مالا خير فيه فأرسلوا يقولان أرونا سندنا شرعيا نرتكن

عليه في التخلي عنه، فاجتمع المشايخ وجميع العلماء في يوم الخميس سادس عشر صفر بيت القاضي ونظموا سؤالا وكتب عليه المفتون بالعزل وأرسلوه إليهما فلم يقبلاه واستمرا على الخلاف فلم يلبثا طويلا حتى انحل عن الباشا طوائف الانكشارية وزاد هياج الرعية وأكثروا من التطواف ليلا ونهارا وهم ينادون بتزيل أحمد باشا من قلعة الجبل واستفحلت الفتنة وتطايير شررها إلى القرى والأرياف فجاء الجمع الكثير من أهلها ودخلوا إلى القاهرة واختلطوا بالعامه، وقيل: استقدموا الشيخ الشرقاوى والسيد عمر النقيب لتعميم الفتنة وتعظيم أمرها ولازموا التطواف مع العامة والصياح والجلبة .

وقدم في هذه الأثناء محمد بك الألفى ومن معه من الأمراء والعسكر والعربان وانتشروا جهة الجزيرة واستقر الألفى بالمنصورة على مقربة من الأهرام وانتشرت أتباعه جهة الجسر الأسود وأرسل مكاتبة إلى السيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوى ومحمد على باشا يطلب أن يقرروا له جهة يتخذها مقرا له هو وأتباعه فكتبوا له أن يختار من البلاد ما يشاء ويتأني حتى تسكن الفتنة القائمة بمصر وشددوا على أحمد باشا الطلب فلم يلتفت إلى قولهم فجعل السيد عمر يحض العامة على الاجتماع والتطواف وركب هو والمشايخ إلى بيت محمد على باشا ومعهم أرباب الأشاير ومشايخ الطرق والعامة والملتزمون وبأيديهم الأسلحة والعصى والمساوق والنباييت ولازموا التطواف ليلا في الشوارع والحارات أحزابا وطوائف ومعهم المشاغل وهم في ضجيج هائل ثم رسم محمد على باشا بمحاصرة قلعة الجبل وفرق عساكره في جهات الرمييلة والحطابة والطرق النافذة مثل باب القرافة والحصرية وطريق الصليية وجلست طائفة منهم بالمحمودية والسلطان حسن وأنشؤا المتاريس في تلك الجهات ومنعوا من يصعد أو ينزل من قلعة الجبل فأغلق عند ذلك أهل القلعة الأبواب ووقفوا على الأسوار يسب بعضهم بعضا ويترامون بالبنادق، وصعد جماعة من عسكر محمد على باشا على منارة جامع السلطان حسن وصاروا يرمون منها إلى القلعة رميا متتابعاً ومازالوا على هذا الحال إلى ثاني عشرى صفر فركب السيد عمر النقيب والمشايخ ومعهم الجمع الكثير وساروا إلى الأزبكية ودخل المشايخ بيت محمد على باشا ووقف الجمع أمام البيت فلحق بهم العامة والعصب وطوائف الجند والملتزمين وعصب خارج المدينة وأهل الحسينية والعطوف والقرافة والرمييلة والحطابة والصليية ومعهم الطبول والبيارق فوقفوا ساعة ثم رجعوا إلى الجامع الأزهر، ثم عادوا إلى الأزبكية وهم في صياح وضجيج والسيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوى يحضانهم على الهياج والصياح ثم خرج المشايخ من بيت محمد على باشا وذهبوا

إلى بيت حسن باشا أخى طاهر باشا ثم رجعوا واستمر الحال على هذا الوصف إلى ليلة الجمعة، فلما كان بعد الغروب بقليل نزل جماعة من العسكر الذين بالقلعة من ناحية الرميلة وهجموا على المتاريس فصدهم أصحابها وتابعوا عليهم الرمي بالقنابل والبنادق وهكذا إلى ما بعد العشاء الأخير، وخرج الأهالى بما معهم من الأسلحة والعصى فقاتلوا مع أصحاب المتاريس حتى أجلوا أصحاب القلعة عن المتاريس، فلما كان يوم الجمعة رابع عشرى صفر المذكور صعد عابدى بيك إلى قلعة الجبل وغاب ساعة ثم فتحت أبوابها ونزل منها عمر بيك وأمرؤا بالمتاريس فرفعت وتفرق من كان بها من المقاتلين وشاع خبر نزول أحمد باشا ولبثوا ثلاثا وهو لا ينزل وقد كانت خدعة منهم إذ كانوا قد أشرفوا على الاستثمان لفرار ما عندهم من الذخيرة ونفاد ما كان معهم من الزاد ففعلوا ما فعلوه بوساطة عابدى بيك حتى تمكنوا من نقل المؤن والذخيرة وغيرها فى بحر هذه الهدنة وأنزلوا عابدى بيك أو هو نزل بنفسه وعادوا إلى الخلاف وامتنعوا من ترك القلعة وأغلقوا الأبواب فزاد بالناس القلق والغم وعادوا إلى التطواف، وقيل: بل أعادهم السيد عمر النقيب إلى ما كانوا عليه من الهرج والصياح والاستغاثة واستقدم السيد عمر الجمع الكثير من قبائل عربان الشرق والغرب وأخذ محمد على باشا فى حصار القلعة من بعد عشاء ليلة الثلاثاء وكثر الاهتمام فى صباحها بذلك وجمعوا الفعلة وأصعدوا جماعة من الجند والعربان وغيرهم إلى المقطم وأصعدوا بعض المدافع ورتبوا لهم عدة جمال لنقل الاحتياجات والخبز وروايا الماء وظنوا الظفر بأحمد باشا ومن معه وبينما هم على هذا الحال من الاهتمام فى أمر الحصار والتضييق على أصحاب القلعة إذ تحرك العسكر وطالبوا محمد على باشا بالعلوفة والجماكى المتأخرة فطاولهم حتى ينزل أحمد باشا من القلعة فأبوا إلا أخذ مالهم فمناهم فتركوا المتاريس التى كانوا بها حوالى القلعة وتفرقوا فذهب جماعة من العامة وأهل العطوف فترسوا فى مواضعهم ورسم السيد عمر النقيب فأنحاز أهالى كل خطة إلى خطتهم وعملوا المتاريس على رؤس الحارات والشوارع ولازموا التطواف نهارا والقيام باخطاطهم ليلا فتقوى أصحاب قلعة الجبل وتراسلوا الرمي بالقنابل على المتاريس ففعلت بالمدينة والخطة القريبة منها فعلا رديا جدا ونزح أهلها إلى الأطراف فرارا، وكما كان جوف مصر والقاهرة يلتهب بنار الفتنة ويزداد فى كل يوم ضراما كانت البلاد فى ضيق ما عليه من مزيد بسبب فعال الألفى الكبير ومن معه من العربان، فقد أفحشوا فى القتل والنهب والتخريب بمالم يسمع له مثيل ولا وقع له نظير فنزح الناس عن البلاد وهرعوا إلى مصر والقاهرة وهم فى أسوء حال، فامتألت بهم الأزقة فكانوا لا يجدون ما يأكلون ولا ما يشربون

ومات منهم العدد العديد جوعا وعريا تحت أقدام النافرين من العسكر والأهالى وكان المنظر فظيما والخطب عميما، وخاف محمد على باشا من سوء العاقبة فأرسل إلى كبار عسكر الدلاة المعسكرين بقلوب يستقدمهم فحضروا إليه فكلّمهم فى أمر الانضمام إليه فوافقوه فخلع عليهم الخلع السنية وأنفق عليهم وسيرهم لقتال الألفى فارتحلوا إلى قلوب خلف الألفى فصاروا كلما نزلوا ببلدة طلبوا من أهلها الكلف والمغارم وساموهم الخسف وعملوا معهم مالم تعمله لوم الألفى فكانوا أشدّ هولاء وأقوى نكالا وتقاعسوا فلم يلحقوا بالألفى .

واشدّ الخطب على من بمصر والقاهرة وطالت أيام الفتنة وتمنع الباشا وأصحابه بقلعة الجبل وأبو التسليم وأهل البلد فى هياج وصياح وجلبة وكان بجهة الفسطاط من مقدمى عسكر الأرنؤط مقدم اسمه على باشا السلحدار قد خرج بعسكره عن مخالفة محمد على باشا بأسباب الجماكى والعلوفة فعمل على باشا المذكور على الوصول بأحمد باشا الوالى بقلعة الجبل ومازال حتى تمكن من نقب سور القلعة من ناحية عرب اليسار وسعت بينه وبين أحمد باشا الرسل وصار يمدّ أحمد باشا وأصحابه بالذخيرة والمؤنة من الميرة والأغنام وقرب الماء وكل ما يحتاجونه إليه ولبت على هذا الحال أياما ثم دبر هو وأحمد باشا على الهجوم على المتاريس ليلا من ناحية الصليبة وأن أصحاب القلعة يوالون فى وقت الهجوم إطلاق القنابل على المتاريس من ناحية الأزيكية وجامع الأزهر وجوف المدينة وقد تم الأمر بينهما على ذلك فأصبحوا وقد أرسلوا إلى السيد عمر النقيب يخادعون ويطلبون السعى فى إطفاء نار الفتنة وعمل ما فيه المصلحة للأهالى والجند، قيل : وأرادوا بذلك تشييط هم أصحاب المتاريس وإشغالهم بأمر الصلح عن الدفاع فسبق من أعلمهم بسرهم وما عقدوا النية عليه فأرسل السيد عمر إلى أصحاب المتاريس من الأهالى والجند وكذلك أصحاب الأربطة وحثهم واستنهض همهم وحذرهم فاستعدوا وراقبوا فرأوا الجمال التى تحمل الذخيرة الواصلة من على باشا إلى القلعة ومعها بعض الخدم والأتباع ونفر من الجند، فخرج عليهم حجاج الخضرى زعيم عصابة الرميّة بمن معه من سكان الرميّة فقاتلوه وظفروا بهم وأخذوا منهم تلك الجمال وقتلوا اثنين وقبضوا على ثلاثة وحضروا بهم إلى بيت السيد عمر النقيب فبعث بهم إلى محمد على باشا فأمر بهم فقطعوا رقابهم فلما علم من بقلعة الجبل ما حل بأصحابهم رموا فى الحال بالقنابل على المدينة وبيت محمد على باشا وبيت حسن باشا وناحية الأزهر ووالوا الرمي ولم يزلوا على هذا الحال من أول النهار إلى ما بعد الظهر، ثم عادوا

ورموا من العشاء إلى سادس ساعة من الليل فلم يجبههم أحد من أصحاب المتاريس ولا المرابطين بالمقطم وأصبحوا يوم الأحد وهم يتابعون الرمي طول النهار، وكذلك ليلة الاثنين ويوم الاثنين إلى يوم الخميس بطل الرمي ثم عادوا إليه يوم السبت وقد تهدم العدد العديد من الدور والرباع بخط الأزهر وعلى مقربة من الأزبكية فنزع أهل خطة الأزهر إلى بولاق القاهرة والحسينية فرارا من النيران المتراصلة على دورهم، واتفق أن حضر من الإسكندرية في هذه الأثناء طائفة من عسكر الإنجليز ونزلوا ضيوفا عند قنصل دولتهم فكانوا يجتمعون كثيرا بمحمد على باشا ولبثوا على هذا الحال أياما ثم طافوا يوما مع عسكر محمد على باشا بالمدينة والفسطاط وحول الأسوار وقلعة الجبل، وكان بناحية قلعة الفرنسيس التي بقنطرة الليمون مدفع كبير فرسم محمد على باشا بنقله فنقلوه إلى باب الوزير حيث مجرى السيل وقيدوا به جماعة من أولئك الإنجليز فرموا به على برج القلعة وكذلك رمى المرابطون بالجبل وتتابع الرمي وتراسلت القنابل فخربت وأحرقت وأبادت وأهلكت وفعلت بالناس والمباني مالا يمكن وصفه واشتد الكرب بالناس وعم الويل والبلاء الرفيع والوضيع فنزع الناس إلى القرى والكفور وأكثر المشايخ والعلماء والوجهاء من الاجتماع بمحمد على باشا والعامه وقوف بأبواب المشايخ يضجون من قفل الأسواق وامتناع باعة الخبز من فتح دكاكينهم والمشايخ يلاطفونهم والسيد عمر النقيب لا ينكف عن تحريضهم خوفا من سكون الفتنة وإخماد نارها قبل بلوغ محمد على باشا ما يتمناه من الولاية على الديار المصرية وكان لما اجتمع المشايخ والعلماء والوجهاء ونادوا بولاية محمد على باشا وألبسوه القاوون والقفطان كتبوا بذلك محضرا وأرسلوه إلى الباب العالي وتقدموا إلى السلطان في تولية محمد على باشا على ولاية مصر وألحوا في الطلب وبالغوا في الشكوى من فساد الأمور وما تقاسيه الرعية بأسباب مظالم الولاة. وتصرفهم بالعسف والفجور وقبحوا مسالك أحمد باشا الوالي وطلبوا خلعه.

مطلب

خلع أحمد باشا وولاية محمد على باشا

فلما كان يوم الاثنين رابع ربيع الآخر سنة عشرين ومائتين وألف هجرية قدم رسول من دار السلطنة بفرمان الولاية إلى محمد على باشا وشاع خبر وصوله إلى بولاق فهرع المشايخ والعلماء وأصحاب الوظائف للقاءه وتسابق العامة وكثرت الغوغاء في الشوارع والطرقات وبأيديهم السيوف والمساوq والعصى وهم في ضجيج

هائل وصياح متتابع، فركب رسول السلطان وركب خلفه المشايخ وأرباب الوظائف وساروا فصار العامة أمامهم وهم يضربون الطبول والزمر ويضجون بكلماتهم التي تعودوا على الضجيج بها وما زالوا حتى أتوا الألبانية فنزل رسول السلطان بيوت محمد على باشا وأقام برهة لطيفة ثم أمر فانتظم المجلس وحضر المشايخ والعلماء كافة والوجهاء وأرباب المناصب العالية والوجاقية وكثر الجمع فقرأ الفرمان فكان يتضمن الأمر بخلع أحمد باشا من منصب الولاية وتوجيهه إلى محمد على باشا اعتباراً من اليوم العشرين من ربيع الأول سنة عشرين ومائتين وألف هجرية إجابة لطلب المشايخ والعلماء والأعيان، وأن أحمد باشا الوالي ينجلي عاجلاً عن القاهرة إلى مدينة الإسكندرية ويبقى بها حتى يأتيه أمر السلطان فما أتم القارئ كلامه حتى ضج الناس بالدعاء للسلطان وعلت أصواتهم واشتدت بينهم الجلبة ولبثوا على هذا الحال ساعة ثم انصرفوا وابتاتوا وأصبحوا ورمى القنابل من قلعة الجبل متتابع وكذلك من الأبراج والمعقل والمطارس ثم بطل الرمي بعد ظهر اليوم وبقي المحاصرون لا ينفكون عن حصارها ومنع الواصل إليها وأرسلوا إلى أحمد باشا صورة ماودر من السلطان من أمر خلعه وتولية محمد على باشا وطلبوا منه أن ينزل من قلعة الجبل ويرحل إلى الإسكندرية فامتنع وطلب الاجتماع برسول السلطان فلم يرض الرسول وأبى الاجتماع به، فاجتمع المشايخ والعلماء والوجهاء وذهبوا إلى محمد على باشا وقالوا له: ما بالك لا تدع عن الرعية حمل السلاح وقد توليت الأمر فأعمل بتدبيرك على إخراج أحمد باشا من القلعة واقبض على زمام الأمور فنحن من اليوم رعيك وقد تركنا لك الحل والعقد فتصرف، وأصبحوا وقد فتحوا أبواب الأزهر بعد غلقها أياماً وطاف الوالي ومعه جماعة من المتعممين ينادون بالأمان وإلقاء السلاح وعود العامة إلى أشغالهم وملازمة أصحاب الحوانيت حوانيتهم فخاف الناس من ذلك وتطيروا وظنوا فتك العسكر بهم إن هم ألقوا عنهم السلاح فامتنعوا وترسوا في الأزقة والحارات ورجموا بعض أصحاب الوالي بالأحجار وصاحوا في وجوههم فشدد الوالي في المناداة ورجوع الناس إلى أشغالهم نهائياً ومراقبة الحوادث ليلاً وجاءت الأخبار في هذه الأثناء بقدم الأمراء المطرودين من الأقاليم القبلية إلى جهة طرا والبساتين وأنهم على أهبة القتال فركب محمد على باشا في نفر من الجند ومعه حسن باشا وأخوه عابدى بيك وساروا إلى جهة البساتين والتقوا بالأمراء المصريين وقتلوهم فقهقروا الأمراء وترافعوا ثانياً إلى الصعيد فوقف محمد على باشا بمن معه من الجند أمامهم أياماً ثم عاد إلى القاهرة كل هذا وأحمد باشا المعزول

مترس بقلعة الجبل لا ينزل منها ولا يعترف بولاية محمد على باشا، وكلما سأله في أن ينزل زاد في التحذر وتقوى في الترس، فلما كان اليوم خامس عشر ربيع الثاني من السنة أى سنة عشرين حضر رسول من دار السلطنة ومعه مرسوم إلى أحمد باشا بترك قلعة الجبل والجلء إلى مدينة الإسكندرية حتى يرد عليه أمر السلطان فأرسلوا إلى أحمد باشا ذلك المرسوم فأبى النزول، وقال: حتى يأتى رسول أمير المؤمنين ويشافهنى فى الأمر فصعد إليه الرسول ومازال الحال هكذا أياما والناس فى خوف من انتشاب الحرب إلى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الأول نزل أحمد باشا من باب الجبل إلى بيت مصطفى أغا الوكيل ونزل من كان معه من الجند، ثم خرج إلى جهة باب النصر ومر من خارجه إلى جهة الخروبي وذهب إلى بولاق وأقام بمنزل السيد عمر النقيب وتسلم أصحاب محمد على باشا قلعة الجبل وأقام أحمد باشا ببولاق أياما ثم رحل عنها إلى الإسكندرية باتباعه ومتاعه وعياله فكانت مدة تصرفه سنة ونحوها من ثلاثة أشهر.

إلى هنا ثم الجزء الثالث من تاريخنا الكافى ويليه إن شاء الله تعالى

الجزء الرابع وأوله ترجمة حال محمد على باشا ثم أخبار ولايته

وأخبار من تولاها بعده من ذريته إلى وفاة

ساكن الجنان المرحوم

محمد توفيق باشا

الأول

(استلفات)

قد وقع خطأ في نقل ترجمة حال ومدة ولاية بعض بطارقة المتأصلين في هذا الجزء من أيام يوحنا سادس تسعيهم إلى أيام مرقس السادس بعد المائة لتكرار أسمائهم وتشابهها وخطأ ترتيب الأوراق التي نقلنا عنها فرأينا أن ننبه إلى ذلك ونعيد هنا ترتيب أسماء وأيام هذا العدد منهم على الوجه الأصح اعتبارا من سلطنة السلطان سليمان الثاني تاركين ما جاء منها على ترتيبه الأول أى من سلطنة السلطان سليمان المشار إليه إلى سلطنة السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى بدون مساس فإنه لم يؤثر بشيء على ترتيب أيام وحوادث وأخبار الملوك والولاة والحكام الذين تجمعهم صحائف هذا الجزء ولا على ترتيب حوادث وأيام ما سبقه من الأجزاء ولله المنة والحمد، وعلى كل حال فهو خطأ أرجو أولى الفضل والأدب أن يسلبوا عليه ذيل المغفرة ويتنازلوا بقبول ما أبدية من المعذرة فقد كانت عودتى إلى خدمة وطنى العزيز وتوالى أسفارى وعدم استقرارى خصوصا فى الوقت الذى تناولت فيه أيدى الطباعين ملازم هذا الجزء حائلا دون استعادة تلاوة بعض ملازمه التى قد اعتورها هذا السهو فكانت عشرة فى أسلوب ترتيب أسماء هؤلاء الناس الذى وفقناه على قاعدة مامر بيانه إلى أيام يوحنا هذا سادس تسعيهم والعصمة لله وحده.

<p>سلطنة السلطان سليمان خان الثانى</p>	<p>ومات فى أيام السلطان سليم خان الثانى غيريال بطرك المتأصلين بعد أن قام ثلاثا وأربعين سنة وقد عمر فى أيامه دير انبا انطانيوس ودير انبايولا بالجبل الشرقى من النيل بإقليم بنى سويف والبهنسا واشتد عليه الولاة والعمال فانكمش حيناً وكان راهبا من دير السريان واسمه روفائيل فأقيم بعده يوحنا وهو سادس تسعيهم ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.</p> <p style="text-align: center;">□□□</p>
--	---

سلطنة السلطان

مصطفى الثانى ابن

محمد الرابع .

ومات فى أيام السلطان مصطفى الثانى ابن محمد الرابع يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام خمس عشرة سنة وكانت أيامه كلها شدايد ألزمه العمال وأصحاب جباية الأموال بجمع الجزية من الأقباط فجمعها كارها حزينا واشتدوا عليه بسببها فكانت محنة كبرى قاسى الناس فى أثنائها من الجور والعسف أشكالا وبموته قام بعده غبريال وهو سابع تسعيهم واسمه شنودة من بلدة بسين وكان راهبا بذير أنبا بشوى ووقع من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله .

سلطنة السلطان

أحمد بن السلطان

محمد .

ومات فى سلطنة السلطان أحمد ابن السلطان محمد غبريال بطرك المتأصلين بعد أن قام إحدى عشرة سنة وكانت أيامه كلها هدوءاً وسكينة ولم يقع فيها من الحوادث شئ يذكر فأقيم بعده مرقس ثامن تسعيهم وأصله من بلدة الياضية وكان عالما ورعا تقيا محبا للخير صبوراً على المكاره اشتد العمال فى أيامه على القبط شدة عظيمة فكان يكثر من التطواف بين الناس ويحضهم على الصبر والسكون حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً ومات بعد أن قام إحدى عشرة سنة فأقيم بعده يوحنا تاسع تسعيهم وأصله من بلدة ملوى بصعيد مصر وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله .



ومات فى سلطنة السلطان محمود خان الأول يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام عشر سنوات لم يقع فيها من الحوادث شئ يذكر فأقيم بعده متاويس المتم للمائة وأصله من بلدة طوخ فلبث خمس سنوات أو ستا لم يقع فيها شئ يذكر ومات فأقيم بعده مرقس الحادى

سلطنة السلطان

محمود خان الأول .

بعد المائة وأصله من بلدة بهجورة بالأقاليم الوسطى من
صعيد مصر ووقع في أيامه من الحوادث ما سيذكر في
محلّه .



ومات في سلطنة السلطان عثمان الثالث ابن
السلطان أحمد خان مرقس بطرك المتأصلين بعد أن أقام
عشر سنوات وكان حازما شديدا البأس صبورا على
المكاره قوى الحجة لم يقع في أيامه شيء يذكر فأقيم
بعده متاوس وهو الثاني بعد المائة وأصله من بلدة مير
واسمه جرجس وكان راهبا بدير البراموس وكان
الحوادث في أيامه ما سيذكر في محلّه .



ومات في سلطنة السلطان مصطفى الثالث ابن
السلطان أحمد متاوس بطرك المتأصلين بعد أن أقام أربع
عشرة سنة وفي أيامه نقل دار البطريركية من حارة زويلة
إلى حارة الروم بالقاهرة وسكن بها وكان تقيا ورعا عالما
فأقيم بعده يوحنا الثالث بعد المائة واسمه إبراهيم من
رهبان دير أنطونيوس وكان من الحوادث في أيامه ما
سيذكر في محلّه



ومات في سلطنة السلطان عبد الحميد ابن السلطان
أحمد يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام اثنتين وأربعين
سنة وكان عالما فاضلا تقيا ورعا وأعاد في أيامه عمارة
دير انبا بولا ورمم مباني بعض الديارات الأخرى وكانت
أكثر أيامه شدائد وخطوبا متراكمة بعضها فوق بعض
كادت بسببها تتعطل شعائر الدين لولا لطف الله فأقيم
بعد موته بطرس الرابع بعد المائة واسمه مرجان من

سلطنة السلطان
عثمان الثالث ابن
السلطان أحمد خان .

سلطنة السلطان
مصطفى الثالث ابن
السلطان أحمد .

سلطنة السلطان عبد
الحميد ابن السلطان
أحمد .

رهبان دير انبابلولا فأقام سبع سنين ومات ولم يقع فى أيامه من الحوادث شىء يذكر فأقيم بعده يوحنا الخامس بعد المائة واسمه عبد السيد من رهبان دير انبابلولا ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله .



ومات فى سلطنة السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام ثمان عشرة سنة واشتد فى أيامه على بك بلاط على المسيحيين شدة بالغة وضيق عليهم جدا وصادر الكثير منهم ثم ضرب عليهم غرامة قدرها مائة ألف ريال فانبثت أعوانه لجمعها وقد عاثوا وأفسدوا وفعلوا ما لا خير فيه وبيعت بسبب هذه الغرامة الجواهر والأحجار الكريمة بأبخس الأثمان وبموته أقيم بعده مرقس السادس بعد المائة واسمه سمعان من دير انبابلولا وأصله من بلدة قلوصنة وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله .

سلطنة السلطان سليم
الثالث ابن السلطان
مصطفى .